مرآة الجنان

وعبرة اليقظان

في

معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان

تأليف

الإمام أبي محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان
اليافعي اليمني المكي المتوفى سنة ٧٦٨ هـ

وضع حواشيه

خليل المنصور

الجزء الثالث

منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

العنوان : رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
تلفون وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٦٠٢١٣٣ (١ ٩٦١) ٠٠
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

DAR al-KOTOB al-ILMIYAH

Beirut - Lebanon

Address : Ramel al-Zarif, Bohtory st., Melkart bldg., 1st Floore.
Tel. & Fax : 00 (961 1) 60.21.33 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

بسم الله الرحمن الرحيم

سنة احدى واربع مائة

فيها أقام صاحب الموصل الدعوة ببلده للحاكم أحد خلفاء الباطنيّة، لأن رسل الحاكم تكررّت إلى صاحب الموصِل قَرَواش[1] بفتح القاف والراء وبعد الألف شين معجمة ابن مخلَد بفتح اللام فأفسدوه، فسار قرواش إلى الكوفة، فأقام بها الخطبة للحاكم وبالمدائن، وأمر خطيب الأنْبار بذلك، فهرب وأبدى قرواش صفحة الخلاف، وعاث، وأفسد، فأرسل القادر بالله، إلى الملك بهاء الدولة الإمام أبي بكر الباقلاّني فقال: قد كاتبْنا أبا علي عميد الجيوش في ذلك، ورسمنا بأن ينفق في العسكر مائة ألف دينار، وإن دعت الحاجة إلى مجيئنا قدمنا. ثم إن قرواش خاف الغلبة فأرسل يعتذر، وأعاد الخطبة العباسية، ولم يحجّ ركب العراق لفساد الوقت.

وفيها توفّي عميد الجيوش أبو علي الحسين بن أبي جعفر، وكان أبوه من حجّاب عضد الدولة. وخدم أبو علي بهاء الدولة، وترقّت مرتبته، فولاّه نائباً عنه بالعراق، فأحسن سياستها، وأبطل عاشوراء الرافضة، وأباد الحرامية والشطّار، وصار عدله ذا اشتهار. وفي عدله وهيبته حكايات ذكرها العلماء والأخيار.

وفيها توفي العالم الكبير أبو عمرو أحمد بن عبد الملك الاشبيلي المالكي. انتهت إليه رئاسة العلم بالأندلس في زمانه، مع الورع والصيانة، ودعي إلى القضاء بقُرْطَبة مرّتين فامتنع، وصنّف كتاب الاستيعاب في مذهب مالك في عشر مجلدات.

وفيها توفي صاحب (كتاب الغريبين) أحمد بن محمد الهروي. كان من العلماء، وما أقصر في كتابه المذكور، وكان يصحب أبا منصور الأزهري اللغوي، وعليه اشتغل، وبه انتفع وتخرّج، وكتابه المذكور جمع فيه بين تفسير غريب القرآن الكريم وغريب حديث الرّسول عليه السلام، وهو من الكتب النافعة التي سارت في الآفاق الشاسعة.

وفيها توفّي أبو عمر أحمد بن محمد القرطبي الأموي مولاهم، روى عن قاسم بن

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٧/٢٥٣: في هذه السنة خطب قرواش بن المقلّد أمير بني عقيل للحاكم بأمر الله العلوي صاحب مصر بأعماله كلها.

أصبغ وخلق، وهو أكبر شيخ لابن حزم.

وفيها توفّي قاضي قضاة العبيديين وابن قاضيهم؛ عبد العزيز بن محمد بن نعمان. قتله الحاكم وقتل معه قائد القوّاد حسين ابن القائد جوهر، وبعث من حمل إليه رأس قاضي طرابلس أبي الحسين علي بن عبد الواحد، لكونه سلّم عزاز[١] إلى متولّي حلب.

وفيها توفّي أبو الحسن[٢] العلوي النيسابوري شيخ الأشراف، وكان سيداً نبيلاً صالحاً. قال الحاكم: عقد له مجلس الإملاء، وانتقبت له ألف حديث، وكان يعدّ في مجلسه ألف محبرة.

وفيها وقيل في التي قبلها توفّي أبو الفتح علي بن محمد البُستي الكاتب الشاعر المشهور، ومن ألفاظه المليحة ما تقدّم من قوله: من أصلح فاسده أرغم حاسده، إلى آخرها.

سنة اثنتين واربع مائة

فيها كتب محضر[٣] ببغداد في القدح في النسب الذي يدّعيه خلفاء مصر العبيديون وفي عقائدهم، وأنّهم زنادقة منسوبون إلى الخُرَّمِيّة (بضم الخاء المعجمة وفتح الراء وكسر الميم وفتح المثناة من تحت مشددة وفي آخره هاء) إخوان الكافرين، شهادة يتقرّب بها إلى ربّ العالمين، وإن الناجم بمصر وهو منصور بن نزار الملّقب بالحاكم حكم الله تعالى عليه بالبوار مع كلام طويل قال فيه: لما صار الملّقب بالمهدي إلى المغرب، تسمّى بعبيد الله، وتلّقب بالمهدي، وهو ممّن تقدّم من سفلة الأنجاس، أدعياء خوارج، لا نسب لهم في ولد علي رضي الله تعالى عنه، وقد كان هذا الإنكار شائعاً بالحرمين، ولا نعلم أحداً من الطالبيين توقّف في إطلاق القول في هؤلاء الخوارج أنهم ادعياء، وإن هذا الناجم بمصر وسيلة كفّار وفسّاق بمذهب التنويّة والمجوسيّةِ معتقدون قد عطّلوا الحدود، وأباحوا الفروج، وسفكوا الدماء، وسبّوا الأنبياء، ولعنوا السلف، وادّعوا الربوبيّة.

وكتب في ربيع الآخر سنة اثنتين وأربعمائة، وكتب خلق في المحضر: منهم الشريف المرتضى وأخوه الشريف الرضّي وجماعة من الكبار العلوية، والقاضي أبو محمد الأكفاني، والإمام أبو حامد الاسفراييني، والإمام أبو الحسين القدوري، وخلق كثير.

---

(١) عزاز: بليدة فيها قلعة ولها رستاق شمالي حلب بينهما يوم. معجم البلدان.

(٢) في الكامل لابن الأثير ٧/ ٢٥٦: أبو الحسن محمد بن الحسين بن داود العلوي الحسني النيسابوري... توفي فجأة في جمادى الآخرة.

(٣) انظر ذلك في الكامل لابن الأثير ٧/ ٢٦٣.

وفيها توفّي أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد الأندلسي القرطبي صاحب التصانيف. كان من جهابذة المحدّثين وحفّاظهم، جمع ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس، وكان يملي من حفظه. وقيل: إن كتبه بيعت بأربعين ألف دينار قاسميّة ولي القضاء والخطابة، وعزل بعد تسعة أشهر، وله كتاب (أسباب النزول) في مائة جزء وكتاب (فضائل الصحابة والتابعين) في مائتين وخمسين جزءاً.

وفيها توفي الإمام أبو الحسن بن اللبّان الفرضي، محمد بن عبدالله البصري. روى سنن أبي داود، وسمعها منه القاضي أبو الطيب. قال الخطيب: انتهى إليه علم الفرائض، وصنّف فيها كتباً. وروى عنه بعضهم أنه قال: ليس في الأرض فرضي إلا من أصحابي أو أصحاب أصحابي إلاّ ويحسن شيئاً. وكان إماماً في الفقه والفرائض، صنّف فيهما كتباً نفيسة، وبه وبالإمام أبي حامد الاسفرائيني تفقّه الحافظ محمد بن يحيى المعروف بابن سراقة والقاضي الإمام أبو عبدالله الجعفي الكوفي الحنفي المعروف بابن النهرواني.

سنة ثلاث وأربع مائة

فيها أخذ الركب العراقي وفيها توفّي الإمام الكبير الفقيه الشهير القاضي أبو عبدالله الحسين بن الحسن الحليمي الجرجاني البخاري الشافعي، صاحب التصانيف المستحسنة والآثار الحسنة والفضائل المتفقة وهو صاحب وجه في المذهب، تفقّه على أبي بكر الأُوْدَني[1]، وأبي بكر القفّال. ثم صار إماماً معظّماً مرجوعاً إليه في ما وراء النهر.

وفيها توفي شيخ الحنابلة القاضي أبو يعلى صاحب المصنّفات في أنواع مختلفات.

وفيها توفّي الوليد بن محمد بن يوسف الأزدي الأندلسي القرطبي الحافظ المعروف بابن الفرضي. كان فقيهاً عالماً في فنون العلم من الحديث وعلم الرجال والأدب البارع، وله من التصانيف (تاريخ علماء الاندلس)، وله كتاب حسن في (المؤتلف والمختلف) وفي(مشتبه النسبة) وكتاب في(أخبار شعراء الأندلس) وغير ذلك، ورحل من الأندلس إلى المشرق، فحجّ وأخذ عن العلماء، وسمع منهم، وكتب من إمامهم. ومن شعره:

أسير الخطايا عند بابك واقف ... على وجل ممّا به أنت عارف
يخاف ذنوباً لم يخفَ عنك عيبها ... ويرجوك فيها فهو راجٍ وخائف
فمن ذا الذي يرجى سواك ويتقي ... وما لك من فضل القضاء مخالف
فيا سيّدي، لا تخزني في صحيفتي ... إذا نشرت يوم الحساب الصحائف

(١) في الأنساب للسمعاني ١/٢٢٦: الأودني: نسبة إلى قرية من قرى بخارى يقال لها: أودنة بناحية ختفر، وهو نهر بتلك الناحية. ومنها أبو بكر محمد بن عبد الله الأودني.

وكن مؤنسي في ظلمة القبر عندما يصدّ ذوو القربى ويجفوا المؤالف
فإن ضاق عنّي عفوك الواسع الذي أرجّي لإسرافي فإنّي لتالف

قلت ما أحسن هذه الأبيات إذا تضرّع فيها بقلب وجلة الرجل المتوجّه إلى الله عز وجل، إلا أنّ فيها شيئين: احدهما قوله أنت عارف والله تعالى لا يقال له عارف وإنما يقال: عالم وفيه بحث يطول موضع ذكره في كتب الأصول. والثاني أن في الأصل المنقول منه يخاف ذنوباً لم يخف عنك عيبها بتقديم لم وهو مكسور، ولعلّه من غلط الكاتب، وصوابه على ما ذكرته. توفّي شهيداً، قتلته البربر رحمه الله يوم فتح قرطبة، وروي عنه أنه قال: تعلّقت بأستار الكعبة فسألت الله الشهادة.

وفيها توفّي سيف السنّة وناصر الملّة الإمام الكبير الحبر الشهير، لسان المتكلّمين وموضح البراهين، وقامع المبتدعين وقاطع المبطلين، القاضي أبو بكر محمد بن الطيّب المشهور بابن الباقلاّني الأصولي المتكلم المالكي الأشعري المجدّد به دين الأمة على رأس المائة الرابعة على القول الصحيح. وقد أوضحت ذلك، وذكرت طرفاً من مناقبه في (الشاش المعلم شاؤش كتاب المرهم) و(مناقب مائة إمام من أعيان أئمة الأشعرية)، وإنه كانت محاسن القاضي أبي بكر المذكور الباطنة أكثر من محاسنه الظاهرة، وكان كل ليلة إذا قضى ورده كتب خمساً وثلاثين ورقة تصنيفاً من حفظه. وكان فريد عصره في فنّه. وله التصانيف الكبيرة المسندة الشهيرة، وإليه انتهت الرئاسة في هذا العلم، وكان ذا باع طويل في بسط العبارة، مشهوراً بذلك، حتّى إنه جرى بينه وبين أبي سعيد الهاروني مناظرة يوماً، فأطال القاضي أبو بكر فيها الكلام، ووسع في العبارة، وزاد في الإسهاب، وبالغ في الإيضاح والإطناب، ثم التفتَ إلى الحاضرين وقال: اشهدوا على أنه إن أعاد ما قلت لأغير الايضاح، ولم أطالب بالجواب، فقال الهاروني: اشهدوا على أنه إنْ أعاد كلام نفسه سلّمتْ له ما قال.

وقال الحافظ أحمد بن علي الخطيب البغدادي: محمد بن الطيب أبو بكر القاضي المعروف بابن الباقلاّني، المتكلّم على مذهب الأشعري، وكان ثقة، أعرف الناس بعلم الكلام وأحسّهم خاطراً وأجودهم لساناً، وأصحّهم عبارة، وله التصانيف الكثيرة في الردّ على المخالفين من الرافضة والمعتزلة والجهميّة والخوارج وغيرهم، وقال: حدّثت أن ابن المعلّم شيخَ الرافضة ومتكلّمها حضر بعض مجالس النظر مع أصحابه، فأقبل القاضي أبو بكر الأشعري، فالتفت ابن المعلم إلى أصحابه وقال: قد جاءكم الشيطان، فسمع القاضي كلامه وكان بعيداً فلمّا جلس أقبل على ابن المعلّم وأصحابه، وقال: قال الله تعالى ﴿أنّا **ارسلنا الشياطين على الكافرين تؤزّهم أزّاً**﴾ [مريم/ ٨٣].

وقال الشيخ أبو القاسم بن برهان النحويّ: من سمع مناظرة القاضي أبي بكر لم يستلذّ بعدها لسماع كلام أحد من المتكلّمين والفقهاء والخطباء والمترسّلين، ولا الأغاني أيضاً لطيب كلامه وفصاحته وحسن نظامه وإشارته . وله التصانيف الكثيرة في الردّ على المخالفين من المعتزلة والرافضة والخوارج والمرجئة والمشبهّة والحشوية.

وحكى الحافظ ابنُ عساكر عن أهلِ العلم أنه قال: كان القاضي أبو بكر فارس هذا العلم مباركاً علي هذه الأمة، يلقّب سيف السنّة ولسان الأمة، وكان مالكياً فاضلاً متورّعاً ممّن لم يحفظ عليه زلّة قطّ، ولا تنسب إليه نقيصة.

وذكر الإمام القاضي أبو المعالي بن عبد الملك، عن الشيخ الإمام أبي الحاكم القزويني قال: كان الإمام أبو بكر الأشعري يُضمر من الورع والديانة والزهد والصّيانة أضعاف ما كان يُظهره، فقيل له في ذلك فقال: إنما ظهر ما أظهره غيظاً لليهود والنصارى والمبتدعين المخالفين، لئلاّ يستحقروا علماء الحقّ والدين.

وقال الحافظ ابن عساكر: كان الانتساب إلى الاعتزال فاشياً منتشراً، وكلّ من كان متسنناً مستخفياً مستتراً إلى أن قام القاضي أبو بكر بنصرة المذهب، واشتهر في المشرق والمغرب. وكان مظهره بدار السلام التي هي قبّة الإسلام، فلم يظهر لذلك تغيير من الأنام، ولا نكرة من العلماء والعوامّ بل كان الكلّ يتقلّدون منه المنّة من العوام، والأئمة يلقّبونه بأجمعهم سيف السنّة ولسان الأمة. وكان بينه وبين جماعة من الحنابلة مخالطة ومؤانسة واجتماع ومجالسة.

ونقل الحافظ ابن عساكر بسنده إلى أبي بكر الخوارزمي قال: كلّ مصنّف ببغداد، إنما ينقل من كتب الناس إلى تصانيفه، سوى القاضي أبي بكر، فإن صّدره يحوي علمه وعلم الناس.

وروى الحافظ الخطيب أنه كان القاضي أبو بكر يهمّ أنْ يختصر ما يصنّفه، فلا يقدر على ذلك لسعة علمه وكثرة حفظه. ولما توفّي حضر الشيخ أبو الفضل التميمي الحنبلي حافياً مع إخوانه وأصحابه، وأمر أن ينادي بين يدي جنازته: هذا ناصر السنّة والدين، هذا إمام المسلمين ، هذا الذي كان يذبّ عن سنّة الشريعة المخالفين، هذا الذي صنّف سبعين ألف ورقة ردّا على الملحدين. وروى الحافظ أبو القاسم بسنده إلى القاضي أبي الفخر قال: سمعت الطائي يقول: كنت أشتهي أن أرى القاضي الإمام أبا بكر في النوم، فلم يتّفق لي، فنمت ليلة، وصلّيت على النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم ألف مرّة، وسألت الله تعالى ونمت، فلمّا كان وقت السحر، رأيت جماعة حسنة ثيابهم، بيضاء وجوههم، طيبّة

روائحهم، ضاحكة أسنانهم، فقلت لهم: منْ أين جئتم؟ فقالوا: من الجنة. فقلت: ما فعلتم؟ فقالوا: زرنا القاضي الإمام أبا بكر الأشعري، فقلت: وما فعل الله به؟ فقالوا: غفر له، ورفع له في الدرجات. قال: ففارقتهم، ومشيت، وكأنّي رأيت القاضي أبا بكر، وعليه ثياب حسنة، وهو جالس في رياض خضرة نضرة، فهممتُ أن أساله عن حاله، وسمعته يقرأ ﴿**فهو في عيشة راضية في جنّة عالية**﴾ [الحاقة/ ٢١ ـ ٢٢]، فهالني ذلك فرحاً، وانتبهت.

ولما توفّي رثاه بعضهم في هذين البيتين:

انظر إلى جبل تمشي الرجال به ... وانظر إلى القبر ما يحوي من السلفِ
انظر إلى صارم الإسلام منغمداً ... وانظر إلى دّرة الإسلام في الصدف

قلت: لقد ضمن هذين البيتين مدحاً عظيماً يليق بجلالة الإمام المذكور، ويناسب حاله المشهور، ولكن لو أبدل لفظين من بيته كان أحسن وأنسب ـ فيما أرى ـ أحدهما قوله(ما يحوي من السلف) لو قال: من الشرف، والثاني قوله (دّرة الإسلام) لو قال: درّة التوحيد، لتغاير بين اللفظين، فإنه قد قال في هذا البيت: صارم الإسلام والتوحيد. وإن كان الإسلام داخلاً فيه، فالمغايرة بين الألفاظِ وإن اتحدت معانيها أحسن وأبعد من كراهة التكرير

ومن قصيدة مدحه بها أبو الحسن السكرّي، قال بعد ذكر الغزل:

ملكت محبات القلوب ببهجة ... مخلوقة من عفّة وتحبّب
فكأنّما من حيثما قابلتها ... شيم الإمام محمد بن الطيب
اليعربّي بلاغةً وفصاحةً ... والأشعري إذا اعتزى للمذهب
قاضٍ إذا التبس القضاء على الحِجى ... كشفت له الآراء كل مغيّب
لا تستريح إذا الشكوك تخالجت ... إلا إلى لبّ كريم المنصب
وصلته همتّه بأبعد غاية ... أعني المريد بها سلوك المطلب
أهدي له ثمر القلوب محبّة ... وحباه حسن الذكر من لم يحبب
ما زال ينصر دين أحمد صارعاً ... بالحقّ يهدي لطريق الأصوب
والناس بين مضلِل ومضلَّل ... ومكِذّب فيما أتى ومكذِّبِ
حتّى انجلت تلك الضلالة فاهتدى ... الساري وأشرق جنح ذاك الغيهب

وفيها توفّي الأمير شمس المعالي أبو الحسن قابوس بن أبي طاهر الجيلي[1]، أمير جرجان وبلاد الجيل وطبرستان. قال الثعالبي في اليتيمة: أختم هذا الكتاب بذكر خاتم الملوك، وغرّة الزمان، وينبوع العدل والإحسان، ومن جمع الله سبحانه له إلى عزّة العلم

(١) الجيلي: نسبة إلى أهل جِيلان: وهي بلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان، ينّسب إليها: جيلانيّ، وجيليّ. معجم البلدان.

بضبطه القلم، وإلى فضل الحكم فصل الحكم. ومن مشهور ما ينسب إليه من الشعر قوله:

قل للذي بصروف الدهر عيّرنا هل حارب الدهر إلاّ من له خطرُ
أما ترى البحر يعلو فوقه جيف ويستقرّ بأقصى قعره الدررُ
فإن تكن عبثت أيدي الزمان بنا ونالنا من تمادي بؤسه ضررُ
ففي السماء نجوم ما لها عدد وليس يكسف إلا الشمس والقمرُ

وله من النظم والنثر أشياء مستحسنة، وكذلك كان خطّه في نهاية من الحسن. وكان الصاحب ابن عبّاد إذا رآه قال: هذا خطّ قابوس أمْ جناح الطاوس؟ وينشد قول المتنبي:

في خطّه من كل قلب شهوة حتّى كأنّ مداده الأهواء
ولكلّ عين قرّة في قُربه حتّى كأنّ مغيبه الأقذاء

وكان الأمير المذكور صاحب جرجان وتلك النواحي، وكانت من قبله لأبيه، ثم انتقلت مملكة جَرْجان عنهم إلى غيرهم، وشرح ذلك يطول.

وكان ملك قابوس المذكور لها في سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة، وكانت المملكة قد انتقلت إلى أبيه من أخيه. قالوا: وكان قابوس من محاسن الدنيا وبهجتها، غير أنه على ما خصّ به من المناقب والرأي البصير بالعواقب من السياسة لا يساغ كأسه، ولا تؤمن سطوتِه وبأسه، يقابل زلّة القدم، ولا يذكر العفو عند الغضب على من أجرم. فما زال على هذا الخلق قابوس حتّى استوحشت منه النفوس، وانقلبت عنه القلوب، وتجافى الصاحب عن المصحوب، فأجمع أهل عسكره على خلعه عن ولايته، ونزع الأيدي عن طاعته، وحالوا بينه وبين جرجان، وملكوها، وبعثوا إلى ولده أبي منصور ليعقد البيعة له، فأسرع في الحضور. فلما وصل إليهم أجمعوا على طاعته أن خلع أباه، فلم يسعه في تلك الحال إلا المداراة، فأجابهم خوفاً على خروج الملك عن بيتهم ولما رأى قابوس هذا المرام، توجّه بمن معه من خواصّه إلى ناحية بِسْطام، لينظر ما يستقرّ عليه الأمر. فلما سمعوا بخروجه حملوا ولده على قصده وإزعاجه عن مكانه، ومقابلته بالشرّ. فسار معهم مضطراً إلى أبيه، فتلاقيا، وتباكيا لما جرى من تغيرّ الحال، وتشاكيا، وعرض الولد نفسه أن يكون حجاباً بينه وبين أعاديه، فلو قوبل بالقتال لقتل، وذهب نفسه فيه. ورأى الوالدان ذلك لا يجدي، ولا توجد نجدة، وأن ولده أحقّ بالولاية والملك بعده، فسلّم إليه خاتم المملكة، واستوصاه خيراً بنفسه ما زال في قيد الحياة واتّفقا على أن يكون الوالد في بعض [1] القلاع إلى حلول أجله والانسلاخ من الحياة والانقطاع، أو فناء أعاديه من البلاد والقلاع. فانتقل إلى قلعة

(١) في الكامل لابن الأثير: ٧/٢٦٦: واتّفقا على أن ينتقل إلى قلعة جناشك.

هنالك، وشرع الولد في الإحسان إلى الجيش وهم يسومون والده المهالك، فلم يزالوا يسيؤون، وهو يحسن إليهم حتّى قتلوا والده خشية قيامه عليهم فآل الأمر إلى ما ذكر من إكساف الشمس والقمر.

سنة أربع وأربع مائة

فيها، وقيل في سنة اثنتين وأربع مائة وقيل ذلك توفي الإمام الجليل السيد الحفيل أبو الطيب الصعلوكي سهل ابن الإمام أبي سهل العجلي النيسابوري الشافعي، مفتي خراسان، قال الحاكم: هو أنظر من رأينا تخرج به جماعة. واختلفوا فيه وفي القاضي أبي بكر الباقلاّني، أيهمّا كان على رأس المائة الرابعة في كونه مجدّد الدين للأمّة؟ فقيل: هو، لكثرة فنونه واتساع فضائله العلمية والعملية، وقيل: القاضي أبو بكر، لاحتياج الناس في زمن البدع إلى علم الأصول أكثر من علم الفروع وغيره لادحاض حجج المبتدعين بقواطع البراهين. وقد تقدّم أنّ هذا القول أصحّ. وممّن رجحه من الأئمة الجلّة الأكابر، الإمام الحافظ أبو القاسم بن عساكر، وذلك أنّ الباقلاّني المذكور كان بارعاً في علم الأصول، وكان فيه الغالب عليه من بين العلوم، أنفق فيه أوقات عمره، فهو بالتقدم فيه مشهور. وقد ذكرت أيضاً في (الشاش المعلّم) شيئاً من مناقب سهل المذكور ومناقب أبيه.

سنة خمس وأربع مائة

فيها توفّي الإمام الكبير الفقيه الشهير أبو القاسم المعروف بابن كج يوسف بن حمد الدينوري. كان يضرب به المثل في حفظه لمذهب الشافعي، وكان بعض الفقهاء يفضله على الشيخ أبي حامد الاسفرائيني وهو صاحب وجه في المذهب وقد قيل له: يا أستاذ؛ الاسم لأبي حامد والعلم لك، فقال: ذاك رفعةُ بغداد، وجعلني الدينور قتله العيّارون بالدينور ليلة السابع والعشرين من رمضان.

وفيها توفّي الواعظ الزاهد أبو القاسم بكر بن شاذان قال الخطيب: كان عبداً صالحاً.

وأبو محمد[١] الأكفاني، قال: أبو إسحاق ابراهيم بن أحمد الطبري: من قال إن أحداً أنفق على أهل العلم مائة ألف دينار فقد كذب غير أبي محمد بن الأكفاني.

وفيها توفّي عبد العزيز بن عمر بن نباته الشاعر التميمي السعدي. جمع في شعره بين حسن السبك وجودة المعنى، طاف البلاد، ومدح الملوك والوزراء والرؤساء، وله في سيف

(١) في الكامل لابن الأثير: ٧/٢٧٥: أبو محمد الأكفاني قاضي بغداد: عبد الله بن محمد بن عبد الله الحنفي الأسدي.

الدولة بن حمدان غرر القصائد ونخب المدائح، وكان قد أعطاه فرساً أدهم أغرّ محجّلاً فكتب إليه.

يا أيّها الملك الذي أخلاقه ... من خلقه، ورؤاه من رأيه
قد جاءنا الطرف الذي أهديته ... هادية تعقد أرضه بسمائه
أولاته وليتنا فبعثته ... رمحاً يشيب العرف عقد لوائه
نجياك منه على أغرّ محجّل ... ما للدياجي قطرة من مائه
فكأنّما لطم الصباح جبينه ... فاقتضّ منه فخاض في أحشائه

في أبيات أخرى. وله أيضاً في سيف الدولة.

لم يبق جودك لي شيئاً أوصله ... تركني أصحاب الدنيا بلا فعل

وهذا المعنى، فيه يقول البحتري:

وقطعتني بالجود حتّى إنني ... متخوّف أن لا يكون لقاء
أخجلتني تبدي يديك فسوّدت ... ما بيننا تلك الندا البيضاء

وفي معناه أيضاً قول دعبل:

أصلحتني بالبِرّ حتى أفسدتني ... وتركتني أتسخّط الإحسانا

وهذا المعنى مطروق للشعراء. وما ألطف قول المعري فيه:

لو اختصرتم من الإحسان زرتكم ... والعذب يُهجر للإفراط في الخَصر

(الخَصر) بفتح الخاء المعجمة والصاد المهملة وبعدها راء: البرد الشديد. والمعنى: إنّ الماء إذا أفرط في شدّة برودته تُرك شربه، وقال محمد بن وشاح: سمعت عبد العزيز بن نباتة يقول: كنت يوماً في دهليزي، فدقّ علّي الباب، فقلت: مَن؟ قال: رجل من أهل المشرق. فقلت: ما حاجتك؟ فقال: أنت القائل:

ومَنْ لم يمت بالسيف مات بغيره ... تنوّعت الأسباب والداء واحد

فقلت نعم، فقال: أرويه عنك؟ فقلت: نعم. ثم كذلك ذكر أنه سأله آخر من المغرب، فأجابه كذلك وقال: عجبت كيف وصل إلى الشرق والغرب. ولعبد العزيز المذكور أيضاً:

متّع لحاظك من خِلّ تودّعه ... فما أخالك بعد اليوم بالوادي

قال أبو الحسن محمد بن علي البغدادي صاحب (كتاب المفاوضة) عُدت أبا نصر بن

نباتة في اليوم الذي توفّي فيه، فأنشدني هذا البيت، وودّعته وانصرفت، فأخبرت في طريقي أنّه توفي.

وفيها توفّي الإمام الكبير الحافظ الشهير أبو عبدالله محمد بن عبدالله، المعروف بالحاكم ابن البيع النيسابوري، إمام أهل الحديث في وقته. كتب عن نحو ألفي حديث شيخ، وبرع في معرفة الحديث وفنونه، وصنّف التصانيف، وتفقّه على الإمام أبي سهل الصعلوكي الفقيه الشافعي، ولازمه الدارقطني، وسمع منه الإمام أبو بكر القفّال الشاشي وغيره من الأئمة.

وفيها وقيل في سنة ثلاث وستين وأربع مائة توفّي ابن زيدون[1] المخزومي الأندلسي الشاعر المشهور. ومن شعره:

يا بائعاً حظّه مني ولو بذلت	لي الحياة بحظّي منه لم أبع
يكفيك أنّي إنْ حملّت قلبيَ ما	لا يستطيع قلوب الناس يستطِع[2]
تهْ أحتمل واستطَلْ أصبر وعزَّ	أهن وَوَلّ أقبلْ اسمع ومر أطع[3]

ومن شعره أيضاً:

تكادُ حينَ تُناجيكم ضمائرنا	يقضي علينا الأسى لولا تأسِيّنا
حالت لبعدكم أيّامنا فغدت	سوداً، وكانت بكم بيضاً ليالينا
بالأمس كنّا وما نخشى تفرّقنا	واليوم نحن وما يُرجى تلاقينا

ومنه أيضاً:

لم تدرِ ما خلتْ ـ عيناك في خلدي	من الغرام ولا ما كابدت كبدي

سنة ست واربع مائة

فيها توفّي الإمام الجليل الفاضل، مقرّ النجابة والفضائل، الشيخ أبو حامد أحمد بن

---

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي ٦/٧/٨٧: هو أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومي الأندلسي القرطبي أبو الوليد. توفي بإشبيلية سنة ثلاث وستين وأربع مائة، وقال ابن بشكوال: توفي سنة خمس وأربع مائة وكانت وفاته بالبيرة وسيق إلى قرطبة ودفن بها ـ ومولده سنة أربع وخمسين وثلاث مائة.

(٢) في الوافي بالوفيات للصفدي: ٦/٧/٩٣:

يكفيك أنّك إنْ حَمّلتَ قلبي ما	لم تستطعْهُ قلوب الناس يستطعِ

(٣) وفيه أيضاً:

تهْ أَحتملْ واستطل أصبرْ وعزَّ أَهن	وَوَلِّ أُقْبِل وقل أسمع وَمُرْ أَطِعِ

أبي طاهر محمد بن أحمد الاسفرائيني الفقيه الشافعي، شيخ طريقة العراق، وإمام الشافعية بالاتفاق. انتهت إليه رئاسة الدنيا والدين ببغداد، وكان يحضر مجلسه أكثر من ثلاثمائة فقيه هكذا ذكر بعضهم، وقال بعضهم: سبع مائة فقيه، علّق على مختصر المزني تعاليق، وطبقّ الأرض بالأصحاب، وله في المذهب: (التعليقة الكبرى) في نحو خمسين مجلّداً، و(كتاب البستان)، ذكر فيه غرائب، وهو كتاب صغير. أخذ الفقه عن أبي الحسن بن المرزباني، ثم عن أبي القاسم الداركي. واتفّق أهل عصره على جلالته وتفضيله وتقديمه في جودة النظر.

وذكر الخطيب أنه حدّث بشيء يسير عن عبدالله بن عدي، وأبي بكر الاسماعيلي، وابراهيم بن محمد الاسفرائيني وغيرهم. وقال: وكان ثقة، ورأيته غير مرّة، وحضرت تدريسه، وسمعت من يذكر أنه كان يحضر درسه سبعمائة متفقّه. وكان الناس يقولون: لو رآه الشافعيّ لفرح به.

وحكى الشيخ أبو إسحاق في كتاب الطبقات أن أبا الحسن القدوري كان يعظّمه ويفضّله على كلّ أحد، وأنّ الوزير أبا القاسم علي بن الحسن حكى له عن القدوري أنه قال: أبو حامد عندي أفقه وأنظر من الشافعي. قال الشيخ أبو إسحاق: فقلت له: هذا القول من القدوري، حمله عليه اعتقاده في الشيخ أبي حامد، وتعصّبه للحنفية على الشافعي، ولا يلتفت إليه فإن أبا حامد، ومن هو أعلم منه وأقدم على بعد من تلك الطبقة، وما مثل الشافعي ومثل من بعده إلاّ كما قال الشاعر:

نزلوا بمكّة في قبائل نوفل ونزلت بالبيداء أبعد منزل

وقال تلميذه الإمام سليم الرازي: كان لا يخلو له وقت عن اشتغال، حتّى إنه كان إذا ابرأ القلم قرأ القرآن أو سبّح، وكذلك إذا كان مارّاً في الطريق. وروى القاضي الإمام طاهر ابن الإمام العلاّمة صاحب البيان يحيى بن أبي الخير العمراني اليمني بسنده عن بعض شيوخه بالسند المتصل عن الإمام أبي الفتوح يحيى بن عيسى بن ملامس، عن والده قال: لقيت الشيخ الإمام أبا حامد الاسفرائيني بمكّة في بعض المواسم، فرأيت عليه ثياباً ثمينة من ثياب الملوك، ورأيته يركب مراكب الملوك، ورأيته في الطواف والناس يعظّمونه فقرأ في الطواف قارىء: ﴿**تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً**﴾ [القصص/٨٣] فبكى الشيخ أبو حامد بكاء شديداً، وسمعته يقول: أمّا العلوّ يا ربّ فقد أردناه، وأما الفساد فلم نردّه. وروي أنه قابله بعض الفقهاء في مجلس المناظرة بما لا يليق، ثم أتاه في الليل معتذراً إليه، فأنشده أبو حامد:

جفاء جرى جهراً لدى الناس وانبسط وعذراً أتى سرّاً فأكّد ما فرطْ

ومـن ظـنّ أنْ يمحـو جلـيّ جفـائـه خفـى اعتـذار فهـو فـي أعظـم الغلـطْ

وفي الإمام أبي حامد المذكور ما هو عن بعضهم بهذا اللفظ مسطور، لما عاد مريضاً أنشأ المريض يقول:

مـرضـت فـاشتقـتُ إلـى عـائـد فعـادنـي العـالـم فـي واحـد
ذاك الإمـام ابـن طـاهـر أحمـد ذو الفضـل أبـو حـامـد

وكانت ولادته رحمه الله في سنة أربع وأربعين وثلاثمائة، وقدم بغداد في سنة ثلاث وستّين وثلاثمائة. وقال الخطيب: سنة أربع وستين. ودرس الفقه بها من سنة سبعين إلى أن توفّي في السنة المذكورة، ودفن في داره، ثم نقل إلى باب حرب في سنة عشر وأربعمائة.

قلت: وهذا يقتضي أنه نقل بعد موته بأربع سنين، وأنّ جسده ما بلي، ويكون ذلك كرامة في حقّه. وقال الخطيب: صلّيت على جنازته في الصحراء، وكان الإمام في الصلاة عليه عبدالله بن المهدي، خطيب جامع المنصور، وكان يوماً مشهوراً بعظم الحزن وكثرة الناس وشدّة البكاء. ونسبته إلى(إسْفَرايِن) بكسر الهمزة وسكون السين المهملة وفتح الفاء والراء وكسر الياء المثناة من تحت وبعدها نون هي بلدة بخراسان بنواحي نيسابور على منتصف الطريق إلى جرجان.

وفيها توفّي الشيخ الكبير العارف بالله الشهير، وحيد عصره ونسيج وحده، الأستاذ أبو علي الحسن بن علي الدقاق النيسابوري.

وفيها توفّي الإمام الكبير الأستاذ الشهير محمد بن الحسن بن فُوْرَك (بضم الفاء وسكون الواو وفتح الراء) الأصفهاني، صاحب التصانيف الحميدة والسيرة السديدة والفضائل العديدة والعزيمة الشديدة والشمائل الجريدة والأوصاف السعيدة، المتكلّم الأصولي، الأديب النحوي الواعظ. دخل العراق، وأقام بها مدّة يدرس العلم، ثم توجّه إلى الريّ، فسمعت به المبتدعة، فراسله أهل نيسابور، والتمسوا منه التوجّه إليهم، ففعل، وورد نيسابور، فبنى له مدرسة وداراً، وأحيى الله به أنواعاً من العلوم. ولما استوطنها ظهرت بركته على جماعة المشتغلين بالعلم، وبلغت مصنّفاته في أصول الفقه والدين ومعاني القرآن قريباً من مائة مصنّف، ورحل إلى مدينة غَزْنَة[(١)] (بفتح الغين المعجمة والنون وسكون الزاي بينهما) مدينة عظيمة في أوائل الهند من جهة خُراسان، وجرت له بها مناظرات كثيرة.

ومن كلامه رضي الله تعالى عنه: الشغل بالعيال نتيجة متابعة شهوة الحلال، فما ظنّك

---

(١) غزنة: وهي مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان، وهي الحد بين خراسان والهند. معجم البلدان.

بقضية شهوة الحرام، وكان شديد الردّ على أصحاب عبدالله بن كرام، ثم عاد إلى نيسابور، فسمّ في الطريق، فمات هناك، ونقل إلى نيسابور، ومشهده ظاهر هنالك، يزار، ويستسقى به لنزول الأمطار، وتجاب الدعوة عنده رحمة الله عليه ورضوانه.

وفي السنة المذكورة توفّي الشريف الرضّي أبو الحسن محمد بن الحسين بن موسى الحسيني الموسوي البغدادي الشيعي، نقيب الأشراف، ذو المناقب ومحاسن الأوصاف، صاحب ديوان الشعر.

ذكره الثعالبي في كتابه (اليتيمة)، وقال: ابتدأ يقول الشعر بعد أن جاوز عشر سنين بقليل، وهو اليوم أبدع أهل الزمان إنشاءً، وأعجب سادة أهل العراق يعني الجهابذة الحذّاق يتحلّى مع محتدّه الشريف ومفخره المنيف بأدب ظاهر، وفضل باهر، وحظّ من جميع المحاسن وافر، ثم هو أشعر الطالبين على كثرة شعرائهم المفْلِقين (يعني بالمفلقين بضم الميم وسكون الفاء وكسر اللام والقاف: الدهاة الآتين بالأمر العجيب). قال: ولو قلت إنه أشعر قريش لم أبعد عن الصدق، وسيشهد بما أخبرته شاهد عدل من شعره العالي المدح، الممتنع في وصفه عن القدح الذي يرجع إلى السلاسة متانة، وإلى السهولة رصانة، ويشتمل على معان يقرب جناها، ويبعد مداها. ومن غرر شعره ما كتبه إلى الإمام القادر بالله أبي العباس أحمد بن المقتدر من جملة قصيدة:

عطفاً أمير المؤمنين فإننا ... في دوحة العلياء لا نتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت ... أبداً كلانا في المعالي معرّق
إلا الخلافة ميّزتك فإنّني ... أنا عاطل منها، وأنت مطوّق

ويقال: أعرق الرجل: إذا كان له عرق في الكرم، كذلك الفرس، ويقال أيضاً في اللّؤم، بضم اللام. ومن جيّد قوله أيضاً:

رمت المعالي فامتنعن ولم يزل ... أبداً يمانع عاشقاً معشوق
وصبرت حتّى نلتهنّ ولم أقل ... ضجراً دواء الفارك التطليق

وديوان شعره كبير، يدخل في أربع مجلّدات، وهو كثير الوجود، فلا حاجة إلى الإكثار من ذكره.

وذكر أبو الفتح ابن جنّي النحوي أنّ الشريف المذكور أحضر إلى ابن السيرافي النحوي وهو طفل لم يبلغ عمره سنين، فلّقنه النحو، وقعد معه يوماً في الحلقة، فذاكره بشيء من الإعراب على عادة التعليم، فقال له: إذا قلنا: رأيت عمر، فما علامة النصب في عمر؟ فقال له الرضي: بغضّ عليّ فعجب السيرافي والحاضرون من حدّة خاطره. وذكر أنه حفظ القرآن

في مدّة يسيرة، وصنف كتاباً في معاني القرآن يتعذّر وجود مثله، دالّ على توسّعه في علم النحو واللغة، وصنّف كتاباً في مجازات القرآن، فجاء نادراً في بابه.

وقال الخطيب: سمعت أبا عبدالله الكاتب بحضرة أبي الحسين بن محفوظ يقول: سمعت جماعة من أهل العلم بالأدب يقولون الرضي أشعر قريش، فقال ابن محفوظ: هذا صحيح، وقد كان في قريش من يجيد القول، إلا أنّ شِعره قليل، فأمّا مجيد مكثر فليس إلاّ الرضي.

سنة سبع واربع مائة

فيها سقطت القبّة العظيمة التي على صخرة بيت القدس.

وفيها هاجت فتنة مهولة بواسط بين الشيعة وأهل السنّة، ونهبت دور الشيعة، وأحرقت، وهربوا، وقصدوا علي بن مزيدة[١] واستنصروا به.

وفيها توفّي الحافظ أبو بكر أحمد بن عبد الرحمن الشيرازي مصنّف كتاب الألقاب.

وفيها توّفي محمد بن أحمد بن شاكر القطّان المصري، مؤلف فضائل الشافعي.

وفيها توّفي أبو الحسن المحاملي محمد بن أحمد بن القاسم بن اسماعيل الطيبي[٢]. البغدادي الشافعي الفرضي شيخ سليم الرازي.

وفيها توّفي الوزير فخر الملك أبو غالب محمد بن علي، وزير بهاء الدولة وسلطان الدولة. وكان فخر الدولة من أعظم وزراء آل بويه على الإطلاق بعد أبي الفضل محمد بن العميد، والصاحب بن عبّاد، وكان واسع النعمة، فسيح مجال الهمّة، جمّ الفضائل، جزيل العطايا والنوال. قصده جماعة من أعيان الشعراء، ومدحوه، وقرضوه بنجب المدائح، منهم أبو نصر بن نباتة بقصيدة منها قوله:

لكلّ فتى قرين حين يسمو ... وفخر الملك ليس له قرين
أنِخْ بجنابه واحكم عليه ... بما أملته وأنا الضمين

وحكي أنه مدحه بعض الشعراء بعد هذه القصيدة، فلم يجزْه بما يرضيه، فجاء إلى ابن نباتة المذكور وقال له: أنت غررتني، وأنا ما مدحته إلا ثقة بضمانك، فتعطيني ما يليق بمثل قصيدتي، فأعطاه من عنده شيئاً رضي به، فبلغ ذلك الملك، فسيّر لابن نباتة جملة مستكثرة

(١) في الكامل لابن الأثير ٧/ ٢٩٥: علي بن مزيد.
(٢) وجاء فيها أيضاً: وفيها في رجب مات محمد بن أحمد بن القاسم بن اسماعيل أبو الحسين الضبّي القاضي المعروف بابن المحاملي

لهذا السبب. وقال فيه بعضهم:

أرى كبدي وقد بردت قليلاً أمات الهمّ أمْ عاش السرور
أم الأيام خافتني لأنّي بفخر الملك منها أستجير

ومن أجله صنّف ابن الحاسب كتاب (الفخري في الجبر والمقابلة).

وحكي أنه رفع إليه قصّة سعى فيها بهلاك شخص، فوقف فخر الملك عليها، وقلّبها وكتب في ظهرها: السعاية قبيحة وإن كانت صحيحة، فإن كنت أجريتها مجرى النصح فخسرانك فيها أكثر من الربح، ومعاذ الله تقبل من مهتوك في مستور، ولولا أنك في حقارة سبيل لقابلناك بما يشبه مقالك، ويروع به أمثالك، فاكتم هذا العيب، واتّق من يعلم الغيب، والسلام.

ولم يزل فخر الملك في عزّة وجاهة وحرمة إلى أن نقم عليه مخدومه سلطان الدولة المذكور بسبب، فقتله. قلت: وكم من تعاسة تنال ذوي الولايات، ثم لا يرتدعون من طلب الرئاسات.

سنة ثمان وأربع مائة

فيها وقعت فتنة عظيمة بين السنّية والشيعية[1]، وتفاحشت، وقتل طائفة من الفريقين، وعجز صاحب الشرطة عنهم، وقاتلوه، فأطلق النيران في سوق نهر الدجاج.

وفيها استتاب القادر بالله وكان صاحب سنّة طائفة من المعتزلة والرافضة، وأخذ خطوطهم في التوبة، وبعث إلى السلطان[2] في ذلك الوقت يبثّ السنّة بخراسان، ففعل ذلك، وبالغ وقتل جماعة، ونفى خلقاً كثيراً من المعتزلة والرافضة والاسماعيلية والجهمية والمشبهة، وأمر بلعنهم على المنابر.

وفيها قتل الدوري وقطّع لكونه ادّعى ربوبية الحاكم.

وفيها توفّي أبو الفضل الخزاعي محمد بن جعفر الجرجاني المقرىء، مصنّف (كتاب الواضح)، وكان كثير التطواف في طلب القراءات.

وفيها توفّي أبو عمر البسطامي محمد بن الحسين الشافعي، قاضي نيسابور وشيخ الشافعية بها، رحل وسمع الكثير، ودرس المذهب، وأملى على الطبراني وطبقته.

---

(١) في الكامل لابن الأثير: ٧/٢٩٩: وفيها كانت فتنة ببغداد بين أهل الكرخ. . . .
(٢) في الكامل لابن الأثير: ٧/٢٩٩: وامتثل محمود بن سبكتكين أمر أمير المؤمنين في ذلك.

سنة تسع وأربعمائة

فيها توفّي الحافظ الكبير النسّابة عبد الغني بن سعيد الأزدي المصري، صاحب التصانيف النافعة، منها كتاب (المؤتلف والمختلف). كان الدارقطني يفخّمه ويقول: كأنّه شعلة نار. وقال منصور الطرسوسي: خرجنا نودّع الدارقطني بمصر، فبكينا، فقال: تبكون وعندكم عبد الغني؟ وقال البرقاني: ما رأيت بعد الدارقطني أحفظ من عبد الغني رحمه الله.

وفيها توفّي ابن الصلت محمد بن أحمد الأهوازي.

وفيها توفّي الشيخ الكبير عبدالله[1] بن يوسف، نزيل نيسابور، من كبار الصوفية وثقات المحدّثين.

سنة عشر وأربع مائة

فيها افتتح السلطان محمود بن ناصر الدولة الهند، وأسلم نحو من عشرين ألفاً، وقتل من الكفّار نحو خمسين ألفاً، وهدم مدينة الأصنام، وبلغ عدد الخُمس من الرقيق ثلاثة وخمسين ألفاً، واستولى على عدّة قلاع وحصون، وكان جيشه ثلاثين ألف فارس سوى الرجّالة والمطوّعة، ولم يزل يفتح في بلاد الهند إلى حيث لم تبلغه في الإسلام راية، وطهّرها من أرجاس الشرك، وبنى مساجد وجوامع. وتفصيل حاله في الحروب والفتح يطول شرحه.

ولمّا فتح بلاد الهند كتب كتاباً إلى بغداد يذكر فيه ما فتح الله عل يديه من بلاد الهند، وأنه كسر الضم المشهور بسومنات، وذكر في كتابه أن هذا الصنم عند الهنود يحيي ويميت، ويفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ويبرىء من العلل، وربما كان يّتفق لشقوتهم برء عليل بقصده، ويوافقه طيب الهواء، وكثرة الحركة، ويزيدون به افتناناً ويقصدونه من أقاصي البلاد رجالاً وركباناً، ومن لم يصادف منهم انتعاشاً أجنح بالذنب وقال: إنه لم يخلص له الطاعة، فلم يستحقّ منه الإجابة. ويزعمون أن الأرواح إذا فارقت الأجسام اجتمعت لديه على مذهب أهل التناسخ وتشبيهها فيمن شاء، وأنّ مدّ البحر وجزره عبادة له على قدر طاعته، وكانوا بحكم هذا الاعتقاد يحجّونه من كلّ صقع بعيد، ويأتونه من كلّ فجّ عميق، يتحفونه بكلّ مال نفيس، ولم يبق في بلاد الهند والسند على تباعد أقطارها وتفاوت أديانها ملك ولا سوقة إلا

(١) في الكامل لابن الأثير: ٧/ ٣٠٢: عبدالله بن يوسف بن أحمد بن ماموية، أبو محمد المعروف بالأصفهاني ـ وإنما هو أَرْدِسْتَاني ـ نسبة إلى أردستان، بلد قرب أصبهان ـ نزل نيسابور، توفي في رمضان وله أربع وتسعون سنة.

وقد تقرّب إلى هذا الصنم بما عزّ عليه من أمواله وذخائره، حتى بلغت أوقافه عشرة آلاف قرية في تلك البقاع، وامتلأت خزانته من أصناف الأموال. وفي خدمته من البراهمة ألف رجل يخدمونه، وثلاث مائة رجل يحلقون رؤوس حجّاجه ولحاهم عند الورود عليه، وثلاثمائة رجل وخمس مائة امرأة يغنون ويرقصون عند بابه، ويجري من الأوقات المصدّرة له لكلّ طائفة من هؤلاء رزق معلوم. وكان بين المسلمين وبين القلعة التي فيها الصنم المذكور مسيرة شهر في مفازة موضوفة بقلّة الماء وصعوبة المسالك واستيلاء الرمل على طرقها. وسار إليها السلطان محمود في العدد المذكور مختاراً له من عدد كثير، وأنفق عليهم من الأموال ما لا يحصى، فلمّا وصلوا إلى القلعة وجدوها حصناً منيعاً، ففتحوها في ثلاثة أيام، ودخلوا بيت الصنم وحوله من أصنام الذهب والمرصّع بأنواع الجواهر عدّة كثيرة محيطة بعرشه يدّعون أنها الملائكة فأحرق المسلمون الصنم، ووجد وافي أذنه نيّفاً وثلاثين حلقة، فسألهم محمود عن معنى ذلك فقالوا: لكلّ حلقة عبادة ألف سنة، وكلمّا عبدوه ألف سنة علّقوا في أذنه حلقة. وذكروا من أخبار هذا الصنم هذياناً يطول ذكره، حذفت بعضه، وذكرت بعضه، وبعض المؤرخين حذف الجميع، وبعضهم ذكر الجميع.

ومما ذكروا عن السلطان محمود ما هو مشهور، ومن فضل مذهب الشافعي معدود ما سيأتي الآن ذكره، ويعلم منه فضل المذهب المذكور وفخره، قضيّة عجيبة مشتملة على نادرة غريبة، وهي ما ذكره إمام الحرمين : فحل الفروع والأصليين أبو المعالي عبد الملك ابن شيخ الإسلام، أبي محمد الجويني في كتابه (الموسوم بمغيث الخلق في اختيار الحق) أنّ السلطان محمود المذكور كان على مذهب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه وكان مولعاً بعلم الحديث، وكان الناس أو قال: الفقهاء يسمعون الحديث من الشيوخ بين يديه، وهو يسمع، وكان يستفسر الأحاديث، فوجد أكثرها موافقاً لمذهب الشافعي رضي الله عنه، فوقع في خلده حبّه، فجمع الفقهاء من الفريقين في (مرو)، والتمس منهم الكلام في ترجيح أحد المذهبين على الآخر، فوقع الاتفّاق على أن يصلّوا بين يديه ركعتين على مذهب الشافعي، وركعتين على مذهب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنهما، يقتصر فيهما على أقل الفروض، لينظر فيها السلطان، ويتفكر، ويختار ما هو أحسنه، فصلّى القفّال المروزي بطهارة مسبغة وشرائط معتبرة من الطهارة والسترة واستقبال القبلة، واتى بالأركان والفرائض على وجه الكمال والتمام، وكانت صلاة لا يجوز الشافعي دونها، ثم صلّى ركعتين على ما يجوز أبو حنيفة، ولبس جلد كلب مدبوغ، ولطّخ ربعه بالنجاسات، وتوضأ بنبيذ التمر وكانت في صميم الصيف في المفازة، فاجتمع عليه الذباب والبعوض، وكان وضوءه منكوساً منكساً، ثم استقبل القبلة، وأحرم بالصلاة من غير نيّة للوضوء، وكبّر بالفارسية، ثم قرأ آية بالفارسية (دوبرك كل سبز) ثم نقر نقرتين كنقرات الديك من غير فصل ومن غير ركوع، وتشهّد وضرط

في آخره من غير نيّة السلام، وقال: أيها السلطان هذه صلاة أبي حنيفة، فقال السلطان: إن لم يكن هذه صلاة أبي حنيفة قتلتك، لأن مثل هذه الصلاة لا يجوزها ذو دين، فأنكرت الحنفيّة أن يكون هذه صلاة أبي حنيفة، فأمر القفّال بإحضار كتب أبي حنيفة، فأمر السلطان نصرانيّاً كاتباً يقرأ المذهبيْن جميعاً، فوجدت الصلاة على مذهب أبي حنيفة على ما حكاه القفّال، فأعرض السلطان عن مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه، وتمسّك بمذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه انتهى كلام إمام الحرمَيْن.

سنة احدى عشرة وأربع مائة

فيها كان الغلاء المفرط بالعراق، حتّى أكلوا الكلاب.

وفيها توفّي(١) الحاكم بأمر الله أبو علي منصور بن العزيز بن نزار بن المعزّ العبيدي صاحب مصر والشام والحجاز والمغرب، فُقد في شوّال وله ستّ وثلاثون سنة. جهّزت أخته ست الملك عليه من قتله، وكان شيطاناً مهيباً خبيث النفس متلوّن الاعتقاد، سمحاً جواداً سفّاكاً للدماء، قتل عدداً كثيراً من كبراء دولته صبراً، وأمر بشتم الصحابة، وكتبه على أبواب المساجد، وأمر بقتل الكلاب حتّى لم يبق بمملكته منها إلا القليل، وأبطل الفقّاع والملوخيّة والسمك الذي لا فلوس له، وأتى لمن باع ذلك سرّاً فقتلهم ونهى عن بيع الرطب، ثم جمع منه شيئاً عظيماً فأحرقه، وأباد أكثر الكروم، وشدّد في الخمر، وألزم أهل الذمّة حمل الصلبان في أعناقهم، وأمرهم بلبس العمائم السود، وهدم الكنائس، ونهى عن تقبيل يد من له ديانة، وأمر بالسلام فقط، وبعث إليه عامله على المغرب ينكر عليه، فأخذ في استمالته، وحمل في كمّه الدفاتر ولزم التفقّه، وأمر الفقهاء ببثّ مذهب المالك، واتخّذ له مالكيَّيْن يفقهانه، ثم ذبحهما صبراً، ونفى المنجّمين من بلاده، وحرّم على النساء الخروج، فما زلن ممنوعات سبع سنين وسبعة أشهر حتّى قتل، وتزهّد، وتألّه، ولبس الصوف، وبقي يركب الحمار ويمرّ وحده في الأسواق، ويقيم الحسبة بنفسه. ويقال إنه أرادّ أن يدّعي الإلهية كفرعون، وشرع في ذلك، وخوّفه خواصّه من زوال دولته، فانتهى.

وكان المسلمون وأهل الذمّة في كرب وبلاء شديد معه، حتّى إنه أوحش أخته بمراسلات قبيحة، وأنها تزني، وطلبت ابن دوّاس القائد وكان خائفاً من الحاكم فاتفقت معه على قتل الحاكم وسيرته طويلة عجيبة وأقامت أخته بعده ولده الطاهر علي بن منصور، وقتلت ابن دوّاس وسائر من اطلّع على سرّها، وأعدمت جيفة الحاكم، ولم يجدوا إلاّ جبّة الصوف، وقد صبغت بالدماء، وقطعت بالسكاكين.

---

(١) انظر ذلك في الكامل لابن الأثير ٧/ ٣٠٤، ٣٠٥

سنة اثنتي عشرة وأربعمائة

فيها توفّي الشيخ الكبير العارف بالله الشهير الحافظ أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين ابن موسى النيسابوري السلمي الصوفي. صحب جدّه أبا عمرو بن نجيد، وسمع الأصمّ وطبقته، وصنّف التفسير والتاريخ وغير ذلك، وبلغت مصنّفاته مائة. وقال الخطيب: قدر أبي عبد الرحمن عند أهل بلده جليل، وكان مع ذلك مجلوداً صاحب حديث. توفي في شعبان رحمه الله تعالى.

وفيها توفّي أبو عبدالله بن جعفر التميمي النحوي، المعروف بالقزّاز القيرواني. كان الغالب عليه النحو واللّغة، وله عدة تآليف[1]، وكان العزيز بن المعزّ العبيدي صاحب مصرقد تقدّم إليه أن يؤلف كتاباً، يجمع فيه سائر الحروف التي ذكر النحويون أنّ الكلام كلّه اسم وفعل وحرف جاملي. قال ابن الخزّاز: وما علمت أنّ نحوياً ألفّ شيئاً من النحو على حروف المعجم سواه. وقال ابن رشيق: وكان مهيباً عند الملوك والعلماء وخاصة الناس، محبوباً عند العامة، قليل الخوض إلا في علم دين أو دنيا، وله شعر مطبوع منصوع، من ذلك قوله:

أما ومحلّ حبّك في فؤادي	وقدر مكانه فيه المكين
لو انبسطت لي الآمال حتّى	يصيّر من عِنانك في يميني
لصنتك في مكان سواد عيني	وحطْت عليك من حذر جفوني
فأبلغ منك غايات الأماني	وآمن فيك آفات الظنون
فلي نفس تجرع كلّ يوم	عليك بهنّ كاسات المنون
إذا أمنت قلوب الناس خافت	عليك خفّي ألحاظ العيون
فكيف وأنت دنياي ولولا	عتاب الله فيك لقلت ديني

وقوله:

أحين علمت أنّك نور عيني	وأنّي لا أرى حتّى أراكا
جعلت مغيب شخصك عن عياني	يغيب كلّ مخلوق سواكا

وبلغ جملة الكتاب الذي ألفّه العبيدي ألف ورقة، جمع فيه المفرّق من الكتب النفيسة على أقصر سبيل، وأقرب ما يؤخذ، وأوضح طريق، وكأنه قد اقترح عليه أن يؤلفه على حروف المعجم، على وجه لم يسبق إليه كما تقدّم.

---

(١) انظر تآليفه في الوافي بالوفيات للصفدي ٦/ ٢/ ٣٠٥.

سنة ثلاث عشرة وأربع مائة

فيها تقدّم بعض الباطنية من المصريين إلى الحجر الاسود، فضربه[١] بدبّوس، فقتلوه في الحال. قال محمد بن علي بن عبد الرحمن العلوي: قام يضرب الحجر ثلاث ضربات، وقال: إلى متى يعبد الحجر؟ ولا محمد ولا علّي فيمنعني ما أفعله، فإنّي اليوم أهدم هذا البيت. فأنفاه أكثر الحاضرين، وكاد أن يفلت وكان أحمر أشقر جسيماً طويلاً وكان على باب المسجد عشر فوارس ينصرونه، فاحتسب رجل، ووجأه بخنجر، ثم تكاثروا عليه، فهلك، وأحرق، وقتل جماعة ممّن اتّهم بمعاونته، واختبط الوفد، ومال الناس على ركب المصريين بالنهب. وتخشّن وجه الحجر، وتساقط منه شظايا يسيرة، وتشقّق، وظهر مكسرة أسمر يضرب إلى صفرة محبباً مثل الخشخاش، فعجن الفتات بالمسك[٢]، وأكد، وحشيت الشقوق، وطلبت، فهو يبين لمن تأمّله.

وفيها توفّي عالم الشيعة وإمام الرافضة صاحب التصانيف الكثيرة، شيخهم المعروف بالمفيد وبابن المعلم[٣] أيضاً، البارع في الكلام والجدل والفقه. وكان يناظر أهل كلّ عقيدة مع الجلالة والعظمة في الدولة البويهية. قال ابن أبي طيّ: وكان كثير الصدقات، عظيم الخشوع، كثير الصلاة والصوم، خشن اللباس، وقال غيره: كان عضد الدولة ربمّا زار الشيخ المفيد، وكان شيخاً ربعة نحيفاً أسمر، عاش ستّاً وسبعين سنة، وله أكثر من مائتي مصنّف، وكانت جنازته مشهودة، وشيّعه ثمانون ألفاً من الرافضة والشيعة، وأراح الله منه. وكان موته في رمضان.

سنة أربع عشرة وأربع مائة

فيها توفّي الشيخ أبو الحسن، المعروف بابن جهضم[٤] الهمداني، شيخ الصوفية بالحرم الشريف ومؤلف (كتاب بهجة الأسرار في التصوّف)

وفيها توفّي الحافظ ابن الحافظ أبو القاسم تمام بن محمد البجلي الرازي الدمشقي.

وفيها توفّي القاضي عبد الجبار بن أحمد، من رؤوس أئمة المعتزلة وشيوخهم،

---

(١) ذكر ابن الأثير ذلك في كتاب الكامل ضمن حوادث سنة ٤١٤ هـ انظر ٧/ ٣١٤.

(٢) في الكامل لابن الأثير ٧/ ٣١٥: فأخذ ذلك الفتات وعجن بلكّ.

(٣) في الكامل لابن الأثير ٧/ ٣١٣: أبو عبد الله بن المعلم: اسمه محمد بن محمد بن النعمان. . . وكان يحضر مجلسه خلق كثير من العلماء من سائر الطوائف.

(٤) في الكامل لابن الأثير ٧/ ٣١٦: أبو الحسن علي بن الحسن بن جهضم الجهضمي الهمداني الصوفي المكي ـ توفي بمكّة.

صاحب التصانيف والخلاف العنيف.

سنة خمس عشرة وأربع مائة

فيها توفّي الإمام أبو الحسن المحاملي، شيخ الشافعية، أحمد بن محمد الضبّي، تفقّه على والده وعلى الشيخ أبي حامد الاسفرائيني، وبرع في الفقه، ودرس في أيام شيخه أبي حامد وبعده، وسمع الحديث من محمد بن المظفّر وطبقته، ورحل به أبوه إلى الكوفة، وسمعه بها، وصنّف عدّة كتب منها (المجموع) و(المقنع) و(اللّباب)، وصنّف في الخلاف كثيراً. وكان عديم النظير في الذكاء. وقال الشيخ أبو حامد: هو اليوم أحفظ للفقه منّي و(المحامليّ) نسبة إلى عمل المحامل الذي يُركب فيها في السفر.

سنة ست عشرة وأربع مائة

فيها انتشر العيّارون ببغداد[١]، وخرقوا الهيبة، واصلوا العملات والقتل، وأخذوا الناس نهاراً جهاراً. وكانوا يمشون بالليل بالشمع والمشاعل، ويكبسون البيوت، ويأخذون أصحابها، ويعذبونهم إلى أن يقرّوا لهم بذخائرهم، وأحرقوا دار الشريف المرتضى. ولم يخرج فيها ركب[٢] من بغداد.

وفيها توفّي أبو عبدالله بن الحذاء[٣] القرطبي اليمني المالكي المحدّث، مؤلف كتاب (البشرى في تعبير الرؤيا) في عشرة أسفار، وتولىّ قضاء إشبيلية وغيرها.

وفيها توفّي أبو الحسن علي بن محمد التهامي، الشاعر المشهور. ومن شعره في ذم الدنيا:

طبقة على كدر وأنت تريدها ... صفواً من الأقذاء والأكدار
ومكلّف الأيام ضد طباعها ... متطلّب في الماء جذوة نار
وإذا رجوت المستحيل فإنما ... تبني الرجاء على شفير هار

سجن في القاهرة، ثم قتل سرّاً، ورآه بعض أصحابه في النوم فقال: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي، فقال: بأيّ عمل؟ قال: بقولي في مرثيّة ولدي الصغير:

---

(١) في الكامل لابن الأثير: ٧/ ٣٢٣: وسبب ذلك: أن مشرف الدولة لما مات كان أخوه جلال الدولة بالبصرة، فاختلّ نظام الدولة واستهانوا بالسلطان فحصل هذا. .

(٢) في الكامل لابن الأثير ٧/ ٣٢٤: وفيها بطل الحج من العراق وخراسان.

(٣) في الوافي بالوفيات للصفدي ٦/ ٥/ ١٩٦: ابن الحذّاء القرطبي: محمد بن يحيى بن أحمد بن محمد ابن عبد الله بن محمد. . . أبو عبد الله، صنف كتاب التعريف بمن ذُكر في الموطّأ من الرجال والنساء، وكتاب الإنباه، وكتاب الخطباء والخطب، وكتاب البشرى في تأويل الرؤيا. . . .

جـاورت أعـدائـي وجـاور ربـه شتّـان بيـن جـواره وجـواري

والتهامي نسبة إلى تِهامة، وهي خطّة متسعة بين الحجاز وأطراف اليمن. وله:

إنـي لأرحـم حُسّـدي لحـرمـا ضمَّنـت صـدورهـم مـن الإوغـار
نظـروا صنيـع الله بـي فعيـرتهـم فـي جنّـة وقلـوبهـم فـي نـارِ[١]

سنة سبع عشرة وأربع مائة

فيها هجمت الجند على الكرخ[٢]، فنهبوه وأحرقوا الأسواق، فوقعت الرعاع في النهب، وأشرف الناس على التلف، فقام المرتضى وطلع إلى الخليفة، فخلع وتكلّم في القضيّة، فجعل يعيّر عليه، ثم ضبطت محال بغداد، وشرعوا في المصادرات.

وفيها توفّي الإمام أبو بكر القفّال المروزي، عبدالله بن أحمد شيخ الشافعية بخراسان، حذق في صنعته حتّى عمل قفلاً بمفتاحه وزن أربع حبّات، فلمّا صار ابن ثلاثين سنة أحسّ بنفسه ذكاء، وحبّب الله إليه الفقه، واشتغل به، فشرع فيه وهو صاحب طريقة الخراسانيين في الفقه. عاش تسعين سنة.

قال ناصر العمري: لم يكن في زمانه أفقه منه، ولا يكون بعده. كنّا نقول إنه ملك في صورة آدمي قلت: وهو القفّال المتقدّم ذكره مع السلطان محمود، الملّقب يمين الدولة وأمين الملة ابن ناصر الدولة، وله ذكر في صلاته على مذهب الشافعي فقهاً، والمجرية على مذهب أبي حنيفة في القصة المتقدّم ذكرها في سنة عشرة وأربعمائة. قالوا: وكان وحيد زمانه فقهاً وحفظاً وورعاً وزهداً، واشتغل عليه خلق كثير، منهم الأئمة الكبار؛ القاضي حسين، والشيخ أبو محمد الجويني، وابنه إمام الحرمين، والشيخ أبو علي السبخي وغيرهم، وكل واحد من هؤلاء صار إماماً يشار إليه، ولهم التصانيف النافعة، وأخذ عنهم أئمة كبار أيضاً. والقفّال المذكور ممّن شرح فروع الإمام الفقيه أبي بكر بن الحدّاد المصري، فأجاد في شرحها رحمة الله تعالى عليهم أجمعين.

وفي السنة المذكورة توفّي الحافظ أبو حازم عمر بن أحمد الهذلي المسعودي النيسابوري، توفي يوم عيد الفطر. قال الخطيب: كان ثقة صادقاً حافظاً عارفاً، وقال غيره: يقال إنّه كتب عن عشرة أنفس عشرة آلاف جزء.

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٧/ ٣٢٤: نظروا صنيع الله بي فعيونهم...
(٢) انظر الكامل لابن الأثير ٧/ ٣٢٥.

سنة ثمان عشرة وأربع مائة

فيها توفّي الامام الكبير الأستاذ الشهير أبو إسحاق الأسفرائيني، ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن مهران، الأصولي المتكلم الفقيه الشافعي، أحد الأعلام، صنّف التصانيف. قال الحاكم: أخذ عنه الكلام والأصول عامّة شيوخ نيسابور، وأقر له بالعلم أهل العراق وخراسان، وله التصانيف الجليلة منها: كتابه الذي سمّاه: (جامع الحلي في أصول الدين والردّ على الملحدين) في خمس مجلّدات، وغير ذلك من المصنّفات. وأخذ عنه القاضي أبو الطيب الطبري أصول الفقه بأسفَرَايين[١]، وبنيت له المدرسة المعروفة بنيسابور.

وذكر عبد الغفار الفارسي في سياق تاريخ نيسابور: إنه أحد من بلغ حدّ الاجتهاد من العلماء المتبحّرة في العلوم واجتماعه شرائط الإمامة، وكان طراز ناحية الشرق. وكان يقول: أشتهي أن أموت بنيسابور حتّى يصلّي علي جميع أهل نيسابور، فتوفّي بها يوم عاشوراء، ثم نقلوه إلى أسفرايين، ودفن في مشهده. وممّن كان يخلف إلى مجلسه الأستاذ أبو القاسم القشيري. وأكثر الحافظ أبو بكر البيهقي الرواية عنه في تصانيفه، وغيره من المصنّفين، وسمع بخراسان أبا بكر الإسماعيلي، وبالعراق أبا محمد دعلج بن أحمد السجزي وأقرانهما.

وفيها توفّي الوزير المعزّي[٢] الحسين بن علي، استظهر القرآن العزيز وعدّة من الكتب في النحو واللغة، ونحو خمسة ألف[٣] بيت من مختار الشعر القديم، ونظم الشعر، وتصرّف في النثر، وبلغ من الخطّ إلى ما يقصر عنه نظراؤه، ومن حساب المولد والجبر والمقابلة إلى ما يستقلّ بدونه الكاتب، وكلّ ذلك قبل استكماله أربع عشرة سنة، واختصر (إصلاح المنطق)، واستوفى على جميع فوائده، حتّى لم يفته شيء، وغيّر من أبوابه ما أوجب التدبير تغييره للحاجة إليه، وجمع كلّ نوع إلى ما يليق به، ثم نظم بعد اختصاره ما كتب في عدّة أوراق في ليلة واحدة، وجميع ذلك قبل استكماله سبع عشرة سنة. ومن شعره:

أقول لها والعيش تخدع للسرى ... أعدي لفقدي ما استطعت من الصبر
سأنفق ريعان الشبيبة واثقاً ... على طلب العلياء أو طلب الأجر
أليس من الخسران أن لياليا ... تمرّ بلا نفع وتحسب من عمر

---

(١) أسفرايين: بليدة حصينة من نواحي نيسابور على منتصف الطريق من جرجان، واسمها القديم مهرجان. معجم البلدان.

(٢) في الكامل لابن لأثير ٣٢٩/٧: أبو القاسم ابن المغربي: الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن محمد بن يوسف.

(٣) وفيه أيضاً: استظهر القرآن وعدة من الكتب المجردة في النحو واللغة، ونحو خمسة عشر ألف بيت من مختار الشعر القديم.

قلت هذا البيت الأخير ما أدري: أهو له أم استعاره للتضمين، فإن كان له فقد استعاره بعضهم للتضمين حيث قال:

إذا رقد السمّا وأسهرت ناظري وأنشدت بيتاً وهو من أفخر الشعر
أليس من الخسران أنّ لياليا تمرّ بلا نفع وتحسب من عمري؟!

وللوزير المذكور أيضاً:

أرى الناس في الدنيا كراعٍ تنكّرت مراعيه حتّى ليس في تلك مربع
فماء بلا مرعى ومرعى بلا ماء وحيث ترى ماء ومرعى فمنبع

وفيها توفّي الحافظ أبو القاسم، هبة الله بن الحسن الطبريّ الفقيه الشافعي. تفقّه على الشيخ أبي حامد، وسمع من المخلّص وطبقته. قال الفقيه: كان يفهم ويحفظ. صنّف كتاباً في السنّة وكتاب رجال الصحيحين وكتاباً في السنن ثم خرج في آخر أيّامه الى الدِّيَنَور، ومات بها.

وفيها توفي أبو الحسين[١] بن جعفر بن عبد الوهاب المعروف بابن الميداني، محدّث دمشق رحمه الله تعالى.

وفيها توفّي الشيخ الكبير أبو منصور[٢] الأصبهاني، شيخ الصوفيّة في زمانه، روى عن الطبراني، توفي في رمضان رحمه الله تعالى.

سنة تسع عشرة وأربع مائة

فيها كان السلطان جلال الدولة[٣] ببغداد، فتحالفت عليه الأمراء، وكرهوه لتوفّره على اللعب، وطالبوه، فأخرج لهم من المصاغ وغيره ما قيمته أكثر من مائة ألف دينار، فلم يرضهم، ونهبوا دار الوزير، وسقطت الهيبة، ودبّ النهب في الرعية، وحصروا الملك، فقال: مكّنوني من الانحدار، فأجابوه، ثم وقعت صيحة، فوثب وبيده طَبَر[٤] وهو الحديد الماضي الذي يحمل بين يدي الملوك وصاح فيهم، فلانوا له، وقبّلوا الارض وقالوا: اثبت، فأنت السلطان. ونادوا بشعاره، فأخرج لهم متاعاً كثيراً، فبيع ولم يفِ بمقصودهم، ولم

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٧/ ٣٣١: أبو الحسين عبد الوهاب بن جعفر بن علي بن الميداني محدّث دمشق.

(٢) في الكامل لابن الأثير ٧/ ٣٣١: معمر بن أحمد بن محمد بن زياد أبو منصور الاصبهاني الزاهد شيخ الصوفية في زمنه بأصبهان.

(٣) انظر ذلك في الكامل لابن الأثير: ٧/ ٣٣٢.

(٤) الطبر: فأس معدني، كسلاح يستخدم. المنجد.

يحجّ ركب بغداد في تلك السنة.

وفيها توفّي الحافظ أبو عبدالله بن الفخار[١] القرطبي، شيخ المالكية وعالم الأندلس. وكان زاهداً عابداً ورعاً متألهاً عارفاً بمذاهب العلماء، واسع الدائرة حافظاً للمدوّنة عن ظهر قلب، والنوادر لابن أبي زيد، مجلب الدعوة.

قال القاضي عيّاض: كان أحفظ الناس وأحضرهم علماً، وأسرعهم جواباً، وأوقفهم على اختلاف العلماء وترجيح المذاهب، حافظاً للأثر، مائلاً إلى الحجّة والنظر رحمه الله تعالى.

وفيها توفّي عبد المحسن بن محمد المعروف بابن غلبون، الصوري الشاعر المشهور، أحد البارعين الفضلاء المجيدين الأدباء. ومن نظمه:

عندي حدائق سكّر غرس جودكم ... قد مسّها عطش فليسقِ من غرسا
تداركوها، وفي أغصانها ورق ... فلن يعودَ اخْضرار العود إنْ يَبِسا

سنة عشرين واربع مائة

فيها وقع برد عظيم إلى الغاية في الواحدة أربعة أرطال بالبغدادي، حتّى قيل إن بردة وجدت تزيد على قنطار[٢]، وقد نزلت في الأرض نحواً من ذراع، وذلك بأرض النُّعمانية[٣] من العراق، وهبت ريح لم يسمع بمثلها، قلعت الأصول الغائبة من الزيتون والنخيل.

وفيها جمع القادر بالله كتاباً، فيه وعظ ووفاة النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم، وقصّة ما جرى لعبد العزيز[٤] صاحب الحَيْدة[٥] (بفتح الحاء والدال المهملتين وسكون المثناة من تحت بينهما وفي آخره هاء) مع بشر المريسي، والردّ على من يقول بخلق القرآن، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسب الرافضة، وغير ذلك. وجمع له الأعيان والعلماء ببغداد، فقرأ على الخلق، ثم أرسل الخليفة إلى جامع (براثا) بالموحدة وقبل الألفين راء وبينهما مثلثة وهو مأوى الرافضة من أقام الخطبة على السنّة، فخطب، وقصّر عمّا كانوا يفعلونه في ذكر علي رضي الله تعالى عنه، فرموه بالآجر من كلّ ناحية، فنزل وحماه

---

(١) في الكامل لابن الأثير: ٧/ ٣٣٤: محمد بن عمر بن يوسف أبو عبدالله بن الفخار القرطبي المالكي الحافظ . . . عاش ستاً وسبعين سنة.

(٢) في الكامل لابن الأثير: ٧/ ٣٤٣: حزرت البردة الواحدة منه مائة وخمسين رطلاً . . .

(٣) في معجم البلدان: النعمانية: بليدة بين واسط وبغداد في نصف الطريق على ضفة دجلة.

(٤) في الكامل لابن الأثير: ٧/ ٣٤٥: وصفة ما وقع بين بشر المريسي وعبد العزيز بن يحيى الكناني من المناظرة. . .

(٥) الحَيْدَة ـ كما في معجم البلدان: موضع، دون أن يحدد مكانها.

جماعة، حتّى أسرع بالصلاة، فتألّم القادر بالله وغاضبه ذلك، وطلب الشريف المرتضى شيخ الرافضة وكاتب السلطان وزيره ابن ماكولا يستحيش على الشيعة.

ومن جملة كتابه: وإذا بلغ الأمير إلى الجرأة على الدين وسياسة المملكة من الرعاع والأوباش، فلا صبر دون المبالغة بما توجبه الحميّة. وقد بلغه ما جرى في الجمعة الماضية في مسجد براثا الذي يجمع الكفرة والزنادقة ومن قد تبرأ الله تعالى منه، فصار أشبه شيء بمسجد الضرار، وذلك أنّ خطيباً كان فيه يقول مقالاً يخرج به، إلى الزندقة، فإنه يقول بعد الصلاة على النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: وعلى أخيه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، مكلّم الجمجمة، ومحيي الأموات، البَشري الإلهي، مكلّم أصحاب الكهف. فأنفذ الخطيب ابن تمام، فأقام الخطبة، فجاء الآجرّ كالمطر، وكسر أنفه، وخلع كتفه، ودمي وجهه لولا أنّ أربعة من الأتراك حموه، وإلا كان هلك والضرورة ماسّة إلى الانتقام ونزل ثلاثون بالمشاعل إلى دار ذلك الخطيب، فنهبوا الدار، وعز الحريم، وخاف أولو الأمر من فتنة تكبر. ولم يخطب أحد (ببراثا)، وكثرت العملات والكبسات، وفتحت الحوانيت جهاراً، وعمّ البلاء إلى آخر السنة حتّى صلب جماعة.

وفيها توفي أبو الحسن أحمد بن علي بن الحسن البغدادي. قال الخطيب: كان ثقة من أهل القرآن والأدب والفقه على مذهب مالك.

وفيها توفي عبد الجبار بن أحمد الطرسوسي، شيخ الإقراء في الديار المصرية، وأستاذ مصنّف (العنوان) وألفّ كتاب (المجتبى) في القراءات.

وفيها توفّي عبد الرحمن بن أبي نصر[١] التميمي الدمشقي، المعروف بالشيخ العفيف، قال أبو الوليد: وكان خيراً من ألف مثله إسناداً وإتقاناً وزهداً مع تقدّمه.

فيها توفّي الأمير عزّ الملك[٢] محمد بن عبدالله بن أحمد الحرّاني الأديب العلاّمة، صاحب التآليف. وكان رافضيّاً، له كتاب (القضايا الصابية) في التنجيم، في ثلاثة آلاف

(١) في الكامل لابن الأثير: ٧/ ٣٤٥: عبد الرحمن بن أبي نصر عثمان بن القاسم أبو محمد التميمي الدمشقي ـ توفي في جمادى الآخرة عن ثلاث وتسعين سنة، حضر جنازته جميع أهل البلد حتى اليهود والنصارى.

(٢) في الكامل لابن الأثير: ٧/ ٣٤٤: عزّ الملك محمد بن أبي القاسم عبيد الله بن أحمد بن اسماعيل بن عبد العزيز المعروف بالمسبّحي الكاتب الحرّاني الأصل المصري المولد، جمع مقدار ثلاثين مصنّفاً، منها التاريخ المشهور: أخبار مصر... في ثلاثة عشر ألف ورقة، والتلويح والتصريح في معاني النعر وغيره ألف ورقة، وكتاب الراح والارتياح ألف وخمس مائة ورقة... وله شعر حسن.. توفي في شهر ربيع الآخر.

ورقة، و (كتاب الأديان) في العبادات في ثلاثة آلاف وخمس مائة ورقة، وكتاب (التلويح والتصريح) في الشعر ثلاث مجلّدات، وكتاب (تاريخ مصر) وكتاب (أنواع الجماع) في أربع مجلّدات، وغير ذلك من السخافات.

وفيها توفّي الأمير عزّ الملك [١] محمد بن أبي القاسم الكاتب الحرّاني الأصل، المصريّ المولد، صاحب التاريخ المشهور وغيره من المصنّفات، رزق حظوة في التصانيف، وكان مع ما فيه من الفضائل على زي الأجناد، واتّصل بخدمة الحاكم العبيدي صاحب مصر ونال منه سعادة من الدنيا. وبلغ تاريخه ثلاثة عشر ألف ورقة. وله عدّة تصانيف أخرى، وله شعر حسن، من ذلك أبيات رثى بها أمّ ولده، وهي:

ألا في سبيل الله قلب تقطّعاً   وفادحة لم تبقِ للعين مدمعا
الصبر وقد حلّ الثرى من أوده   ولله همّ ما أشدّ وأوجعا
فياليتني للموت قدْمتّ قبلها   وإلا فليت الموت أذهبنا معا

سنة احدى وعشرين واربع مائة

فيها أو في ما بعدها توفّي الإمام أبو الفتح يحيى بن عيسى بن ملابس، وهو ممّن انتشر عنه فقه الإمام الشافعي في بلاد اليمن، تفقّه بجماعة منهم الإمام الحسين بن جعفر المراغي، ومنهم الإمام محمد بن يحيى بن سراقة. ثم ارتحل إلى مكّة، فجاور فيها، وشرح مختصر المزني، شرحه المشهور له في اليمن، ذكر في أوله أنّه شرحه بمكْة في أربع سنين، مقابل الكعبة.

وروى القاضي الإمام طاهر ابن الإمام العّلامة يحيى بن أبي الخير العمراني، مصنّف (كتاب البيان) بسنده عن الإمام يحيى بن عيسى المذكور أنه لمّا استأذنه ولده في المجاورة بمكّة نهاه أن يتزوج من النساء من هي بالغ بسنها، قال: فإنّي تزوّجتُ بها ستين امرأة في أربع سنين، ولا آمن عليك أن تتزوّج من كنت تزوجتُ بها.

وفيها أقبلت الروم في ثلاثمائة ألف على قصد الشام، فأشرف على معسكرهم سريّة من العرب نحو مائة فارس وألف راجل، فظّن ملكهم أنّها كبسة، فاختفى، ولبس خفاً أسود[٢]، وهرب، فوقعت الخبطة فيهم، واستحكمت الهزيمة، فطمع أولئك العرب منهم، ووضعوا السيف حتّى قتلوا مقتلة عظيمة، وغنموا خزائن الملك، واستغنوا بها.

---

(١) أحسب الأمير السابق نفسه.

(٢) في الكامل لابن الأثير: ٧/ ٣٥٠: وعادة ملوكهم لبس الخفّ الأحمر، فتركه ولبس الأسود ليعمي خبره على من يريده.

وكاد أنْ يستولي الخراب إلى بغداد، لضعف الهيبة وتتابع السنين، فاجتمع الهاشميّون في جامع المنصور، ورفعوا المصاحف، واستنفروا الناس، فاجتمع إليهم الفقهاء وخلق من الإمامية والرافضة، وضجّوا بأن يعفوا من الترك، فعمد الترك نعوذ بالله من الضلال فرفعوا صليباً على رمح، وترامى الفريقان بالنشّاب والآجرّ، وقتل طائفة، ثم تهاجروا، وكثرت العملات والكبسات، وأخذت المخازن الكبار والدور، وتجدّد دخول الأكراد اللصوص إلى بغداد، فأخذوا خيول الأتراك من الاصطبلات.

وفيها توفّي السلطان محمود ابن الأمير ناصر الدولة أبو منصور. كان أبوه أمير الغزاة الذين يغزون من بلاد ما وراء النهر على أطراف الهند، وأخذ عدّة قلاع، وافتتح ناحية (بُسْت). وأمّا محمود فافتتح غَزْنة ثم بلاد ما وراء النهر، ثم استولى على سائر خراسان، ودان له الخلق على اختلاف أجناسهم، وفرض على نفسه غزو الهند كلّ عام، فافتتح منه بلاداً واسعة، وقد مضى ذكر شيء من فتح البلاد البعيدة، وصفاته الجميلة الحميدة، وعلّو همته الشريفة، ورجوعه عن مذهب أبي حنيفة إلى مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنهما، في القضية المتقدّمة في السنة العاشرة بعد الأربعمائة.

وفيها توفّي الإمام أحمد بن محمد المعروف بابن درّاج الأندلسي الشاعر. قال الثعالبي: كان يصقع الأندلس كالمتنبي يصقع الشام. ومن أشعاره ما عارض بها قصيدة أبي نواس التي مدح بها الخصيب صاحب ديوان خراج مصر ومنها قوله:

تقـول التـي مـن بيتهـا خـفّ محمـل ... عـزيـز علينـا أنْ نـراك تسيـر
أمـا دون مصـر للغنـيّ مطلـب ... بلـى إنّ أسبـاب الغنـى لكثيـر
فقلـت لهـا واستعجلتهـا بـوادر ... جـرت فجـرى مـن جـرّهـنّ عبيـر
دريـن أكثـر حـاسـديـك بـرحلـة ... إلـى بلـدة فيهـا الخصيـب أميـر
فمـا حـازه جـود ولا حـلّ دونـه ... ولكـنْ يصيـر الجـود حيـث يصيـر
فتـى يشتـري حسـن الثنـاء بمـالـه ... ويعلـم أنّ الـدائـرات تـدور
فمـن كـان أمسـى جـاهـلاً بمقـالتـي ... فـإنّ أميـر المـؤمنيـن خبيـر

ثم قال في أواخرها بعد ذكر المنازل:

زها بالخصيب السيف والرمح في الوغى ... وفـي السلـم يـزهـو منبـر وسـريـر
جوادٌ إذا الأيـدي قبضْـن عـن النـدى ... ومـن دون عـورات النسـاء غيـور
فـإنـي جـديـر إن بلغتـك للغنـى ... وأنـت لمـا أملْـت منـك جـديـر
فـإن تـولنـي منـك الجميـل فـأهلـه ... وإلا فـإنّـي عـاذر وشكـور

وكلّ هذه الأبيات من قصيدة أبي نواس، وأما قصيدة ابن درّاج المعارض بها فمنها هذه الأبيات:

دعيني أرِد ماء المفاوز راجياً ... إلى حيث ماء للكرام نمير
فإنّ خطيرات المهالك ضمّنت ... براكبها أنّ الجزاء خطير
ولمّا تراءت للوداع وقد هفا ... بصبري منها أنّه وزفير
تناشدني عهد المودّة والهوى ... وفي المهد منهوم النداء صغير
عَيِيٌّ بمرجوع الخطاب ولحظُه ... بموقع أهواء النفوس خبير
تنوع بممنوع القلوب ومُهّدت ... له أذرع محفوفة ونحور[1]
فكلّ مفدّاة الترائب عنده ... وكلّ محيّاة المحاش ظِير[2]
عصيتُ شفيع النفس فيه وقادني ... روائح تلاّب[3] السُّرى وبكور
فطار جناح البين بي وهفتْ بها ... حوائج من دعو العراق تطير
ولو شاهدتني والهواجر تلتظي ... عليّ ورقراق السراب يمور
أسلِّط حَرّاً لها جراتَ إذا سطا ... على حرّ وجهي والأصيل هجير
واستنشق النكباء وهي لواقح ... وأستوطن الرمضاء وهي تفور
وللموتِ في عين الجبان تلوّن ... وللذّعر في سمع الجريّ صفير
لَبانَ لها أنّي من الضيم جازع ... وأنّي على مضّ الخطوب صبور
أمير على غول السبايف ماله ... إذا ريعَ إلاّ المشرقيّ وزير
ولو بصرت بي والسُّرى حُلّ عزمتي ... وجرسي لجِنّانِ الفلاةِ سمير
وأعتسف المَوْماةَ في غسق الدجى ... وللأسْدِ في غيل الغياض زئير
وقد حوّمَتْ زهر النجوم كأنها ... كواعب في خضر الحدائق حور
ودارت نجوم القطب حتى كأنّها ... كؤوس مهاً والَى بهنّ مدير
وقد خيّلَتْ طُرْق المجرّة أنّها ... على مفرق الليل البهيم فقير[4]
وثاقبَ عزمي والظلام مروّعٌ ... وقد غضّ في أجفان النجوم فتور
لقد أيقَنَتْ المنى طوع همتّي ... وأنّي بعطفِ العامريّ جدير

وفيها أو قبلها أو بعدهما، توفي الإمام أبو عبدالله محمد بن مسعود بن أحمد

(١) في الوافي بالوافيات للصفدي: ٦/٨/٥٠: تبوّأ مَمْنوع القلوب
(٢) وفيه: فكلّ مغدّاة الترائب مرضع..
(٣) وفيه: رواح لتَدْآب.
(٤) وفيه: قتير.

المسعودي الفقيه الشافعي الفاضل المبّرز الورع، من أهل مَرْو. تفقّه على أبي بكر القفّال المروزي، وشرح مختصر المزني، وأحسن فيه، وروى قليلاً من الحديث عن أستاذه القفّال.

وحكى عنه الغزالي في كتاب (الوسيط) في الايمان مسألة لطيفة فقال: فرع لو حلف لا يأكل بيضاً، ثم انتهى إلى رجل، فقال: والله لآكلنّ ما في كمّك، فإذا هو بيض، فقد سئل القفّال عن هذه المسألة وهو على الكرسي فلم يحضر جواب. فقال المسعودي: يتخذ منه الناطف، ويأكله، فيكون قد أكل ما في كمّه، ولم يأكل البيض، فاستحسن ذلك منه. وهذه الحيلة من لطائف الحيل الوافية من الوقوع في الخلل. توفّي المسعودي المذكور بعد نيّف وعشرين وأربع مائة بمَرْو ـ رحمه الله تعالى ـ ونسبته إلى جدّه مسعود.

سنة اثنتين وعشرين واربع مائة

فيها عزم الصوفي الملّقب بالمنصور[١] على الغزو، فكتب له السلطان منشوراً، وقصد الجامع لقراءة المنشور وبين يديه الرجال بالسلاح يترضّون على الشيخين، وصاحوا: هذا يوم معاوي. قلت: يعنون فيه إظهار شعار معاوية بن أبي سفيان في الذكر لأبي بكر وعمر دون عليّ رضي الله تعالى عنهم فحصبهم أهل الكرخ، فثارت الفتنة، واضطربت، ونهبت العامّة دار الشريف المرتضى، ودافع عنه جيرانه الأتراك، واحترقت له سريّة، وبات الناس في ليلة صعبة، وتأهّبوا للحرب، واجتمعت العامّة وخلق من الترك، وقصدوا الكرخ، فرموا النار في الأسواق، وأشرف أهل الكرخ على التلف، فركب الوزير والجند، فوقعت آجرّة على صدر الوزير، وسقطت عمامته، وقتل جماعة من الشيعة، وزاد النهب فيهم، وأحرق في هذه الثائرة عدّة أسواق، ولم يجرِ من السلطان إنكار لضعفه وعجزه، وتبسّطت العامة، وآثاروا الفتن: فالنهار فتن ومحن، والليل عملات ونهب. وقامت الجند على السلطان جلال الدولة لإطراحه مصالحهم، وراموا قطع الخطبة، فأرضاهم بالمال، فثاروا بعد أيّام عليه. ثم مات القادر بالله، واستخلف ابنه القائم بأمر الله[٢]، فبايعه الشريف المرتضى، ثم الأمير حسن بن عيسى بن المقتدر، وقامت الأتراك على القائم بالرسم الذي للبيعة، فقال: إن القادر لم يخلف مالاً، وصدق لأنه كان من أفقر الخلفاء، ثم صالحهم على ثلاثة آلاف دينار، وعرض القائم خاناً وبستاناً للبيع، وصغر دست ـ الخلافة إلى هذا الحدّ، وصارت الأموال والأعمال مقسومة بين الأتراك والأعراب، مع ضعف ارتفاع الخراج، والوزارة خالية من أهلية، وما يناسبها من صلاحيته، والوقت هرج ومرج، والناس بلا رأس.

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٧/ ٣٥٥: الملقّب بالمذكور.
(٢) انظر ذلك في الكامل لابن الأثير: ٧/ ٣٥٤.

وفيها توفّي القادر بالله بن المقتدر بن المعتضد العباسي، وكانت خلافته إحدى وأربعين سنة. قال الخطيب: كان من أهل الديانة والتهجّد وكثرة الصدقات على صفة اشتهرت عنه. وصنّف كتاباً في الأصول، في فضل الصحابة، وتكفير المعتزلة، والقائلين بخلق القرآن. وكان يقرأ كلّ جمعة بحضرة الناس.

وفيها توفّي القاضي عبد الوهاب[١] الفقيه المالكي، أحد الأعلام. انتهت إليه رئاسة المذهب. قال الخطيب: لم ألقَ في المالكية أفقه منه.

وقال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي: سمعت كلامه في النظر، وكان فقيهاً متأدباً شاعراً، له كتب كثيرة في كلّ فنّ. ومن ذلك: (كتاب التلقين) في الفقه، و(كتاب المعرفة)، و(شرح الرسالة)، وغير ذلك. ومن أشعاره:

سلام على بغداد في كلّ موطن ... وحقّ لها منّي سلام مضاعف
فوالله ما فارقتها عن قِلىً لها ... وإنّي لشطَّي جانبيها لعارف[٢]
ولكنّها ضاقت عليّ بأسرها ... ولم تكن الأرزاق فيها تساعف
وكانت كخلٍّ كنت أهوى دنوّه ... وأخلاقه تنأى به وتخالف

ومن أشعاره الظريفة المشتملة على المعاني اللطيفة قوله:

ونائمةٍ ـ قبّلتها فتنبّهت ... فقالت: تعالوا فاطلبوا اللصّ بالحدِّ
فقلت لها إني فديتُك غاصبُ ... وما حكموا في غاصب بسوى الردّ
خذيها وكفّي عن أثيم ظلامة ... وإنْ أنت لم ترضي فألفاً على العدّ
فقالت: قصاص يشهد العقل أنّه ... على كبد الجاني الذين أشهدِ

مع غير ذلك ممّا حذفته رغبة في الاختصار وكراهة لبعض الغزل الفاحش في الأشعار. توفّي[٣] ليلة الاثنين الرابعة عشر من صفر، ودفن في القَرَافة.

وفيها توفي الإمام الواعظ يحيى بن عمّار الشيباني السجستاني نزيل هَرَاة.

سنة ثلاث وعشرين واربع مائة

فيها ثارت الغلمان بالسلطان جلال الدولة، وصمّموا على عزله، وطرده، فهرب

(١) في الكامل لابن الأثير ٧/ ٣٥٧: عبد الوهاب بن علي بن نصر أبو نصر الفقيه المالكي.
(٢) القلى: البغض.
(٣) في الكامل لابن الأثير ٧/ ٣٥٧: مات بمصر من أكلة اشتهاها فأكلها فصار يقول ـ وهو يتقلّب من وجعه ـ: لا إله إلا الله، عندما عشنا متنا.

بالليل مع جماعة من غلمانه إلى عُكْبَرَاء[١]، ونهبت داره من الغد. في السنة المذكورة سار الملك المسعود بن محمود بن ناصر الدين، فدخل أصفهان بالسيف، ونهب وقتل علماء لا يحصون، ففعل ما لا يفعله الكفرة.

وفيها توفّي الحافظ أبو الحسن علي بن أحمد النعيمي البصري. قال الخطيب: كان حافظاً عارفاً متكّلماً شاعراً.

وفيها توفّي ابن البوّاب الكاتب علي بن هلال. قيل ليس له في الكتابة مثل ولا مقارب، وإن كان أبو علي أوّل من نقل هذه الطريقة من الخطّ الكوفي، وأبرزها في هذه الصورة، وله بذلك فضيلة السبق، وخطّه أيضاً في نهاية الحسْن، لكنّ ابن البوّاب هذّب طريقته، ونقاها، وكساها حلاوة وبهجة، والكلّ معترفون له بالتفرّد، وعلى منواله ينسجون، وليس فيهم من يلحق شأنه، ولما توفّي رثي بهذين البيتين:

استشعر الكتّاب فقدك سالفاً وقضت بصحّة ذلك الأيام
فلذاك سودت الرويّ كأنّه أسف عليك وشقّت الأقلام

وروى ابن الكلبّي الهيثم بن العدي أنّ ناقل هذه الكتابة من الحِيَرةِ[٢] إلى الحجاز هو حرب بن أميّة بن عبد شمس بن عبد مناف، وكان قد قدم الحيرة، فعاد إلى مكّة بهذه الكتابة، وقال لأبي سفيان بن حرب: ممّنْ أخذ أبوك هذه الكتابة؟ فقال: من أسلم بن منذر، وقال: سألت أسلم ممّن أخذ الكتابة فقال: من واضعها، من عامر بن مرّة. قالوا: فحدوث هذه الكتابة قبل الإسلام بقليل. وكان لحمير كتابة تسمّى المُسْنَد، وحروفها منفصلة غير متصّلة، وكانوا يمنعون العامّة من تعليمها، فلا يتعاطاها أحد إلاّ بإذنهم، فجاءت ملّة الإسلام، وليس بجميع اليمن من يقرأ ويكتب، وجميع كتابات الأمم من سكّان الشرق والغرب اثنتا عشرة كتابة، وهي العربية والحِمْيَريّة واليونانيّة والفارسيّة والسريانيّة والعبرانية والروميّة والقبْطية والبربرية والأندلسية والهنْدية والصينية.

سنة اربع وعشرين واربع مائة

فيها اشتدّ الخطب ببغداد بسبب الحراميّة وأخذهم أموال الناس عياناً، يأخذون للتاجر ما قيمته عشرة آلاف دينار، وقتلوا صاحب الشرطة، وباقي الناس لا يجسرون يقولون: فعل بنا فلان كذا، خوفاً منه. وزادت العملات والكبسات ووقع القتال، وأحرقت أماكن وأسواق

(١) عكبرا: اسم بليدة من نواحي دجيل قرب صريفين وأوانا، بينهما وبين بغداد عشرة فراسخ. معجم البلدان.

(٢) في معجم البلدان: الحيرة: مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة.

ومساجد، وقوي الشرّ، وتارت الجند، وقبضت[1] على السلطان جلال الدولة، ليرسلوه إلى واسط والبصرة، فأنزلوه في مركب وابتلّت ثيابه، وأُهين، ثم أرجموه، فأخرجوه، وأركبوه فرساً ضعيفة، وشتموه، فانتصر له أبو الوفاء القائد في طائفة، وأخذوه من أيدي أولئك، وردّوه إلى داره، ثم سار في الليل إلى الكَرْخ، فدعا له أهلها، ونزل في دار الشريف المرتضى، فأصبح العسكر، وهمّوا به، فاختلفوا، فقال بعضهم: ما بقي إلا هذا وابن أخيه من بني بُوَيْه (بضم الموحدة وفتح الواو وسكون المثناة من تحت) وقد سلم الأمر ومضى إلى بلاد فارس، ثم كتبوا له ورقة بالطاعة والاعتذار، فركب معهم إلى دار السلطنة.

وفي السنة المذكورة توفّي الحافظ العبد الصالح محمد بن ابراهيم الأرْدستاني (بالراء والدال والسين المهملات والمثناة من فوق الالف والنون بعدها).

سنة خمس وعشرين واربع مائة

فيها توفّي الحافظ الكبير محمد بن محمد بن أحمد بن غالب الخُوارزمي البرقاني، قال الخطيب: لم نَرَ في شيوخه أثبت منه، كان ورعاً عارفاً بالفقه، كثير التصانيف، ذا حظٍّ من علم العربية. صنّف مسنداً، ضمنّه ما يشتمل عليه الصحيحان. وقال غيره: كان نسيج وحده.

وفيها توفّي أبو علي[2] بن شاذان البغدادي. قال الخطيب: كان صدوقاً، صحيح السماع، يفهم الكلام على مذهب الأشعري.

وفيها توفّي الفقيه العالم الزاهد عمر بن ابراهيم الهروي.

وفيها توفّي الحافظ عبدالله بن عبد الوهاب بن عبدالله المزني الدمشقي.

سنة ست وعشرين واربع مائة

وفيها تملّك العيارون بغداد. وغزا مسعود بن أحمد بلاد الهند، فوصل كتابه بأنه قتل من القوم خمسين ألفاً وسبى سبعين ألفاً.

وفيها توفّي ابن شهيد الأديب أبو عامر، أحمد بن عبد الملك بن مروان الأشجعي القرطبي الشاعر، حامل لواء الشعر بالأندلس. قال ابن حزم: لم يخلف له نظيراً في الشعر والبلاغة، وكان سمحاً جواداً.

---

(١) انظر ذلك في الكامل لابن الأثير: ٨/ ٥.

(٢) في الكامل لابن الأثير: ٨/ ١٠: وفي هذه السنة ـ ٤٢٦ هـ ـ توفي أبو علي الحسين بن أحمد بن شاذان المحدّث الأشعري. وكان مولده ببغداد سنة سبع وثلاثين وثلاث مائة.

وفيها توفّي أبو محمد بن الشِقاق (بالشين المعجمة والقاف المكررة) كبير المالكية، ورأس القرّاء.

وفيها توفّي الفقيه الأديب المحدّث، أبو عمرو الزَرْجاهي (بفتح الزاي وسكون الراء قبل الجيم على ما ضبط في بعض النسخ) محمد بن عبدالله البسطامي، ابن شُهيد (بضم الشين المعجمة).

أحمد بن عبد الملك بن مروان القرطبي قال في كتاب الذخيرة: وكان متفنّناً بارعاً، بينه وبين ابن حزم الظاهريّ مكاتبات ومداعبات، وله التصانيف الغربية البديعة، ومن محاسن شعره من قصيدة له:

وتــدري سبــاع الطيــر أنّ كمــاتــه ... إذا لقيــت صيــدَ الكُمــاة سبــاع
تطيــر جيــاعــاً فــوقــه وتــردهــا ... ظبــاة إلــى الأوكــار وهــي شبــاع

سنة سبع وعشرين واربع مائة

فيها دخل العيّارون، وهم مائة الأكراد والأعراب، فأحرقوا دار صاحب الشرطة، وفتحوا خاناً، فأخذوا ما فيه، وخرجوا بالكارات، والناس لا ينطقون.

وفيها شغب الجند على الملك جلال الدولة، وقالوا اخرج عنّا، فقال أمهلوني ثلاثة أيام، وجرت أمور طويلة، ثم تركوه لضعفهم.

وفيها توفّي أبو إسحاق الثعلبي أحمد بن محمد بن ابراهيم النيسابوري، المفسّر المشهور. وكان حافظاً واعظاً رأساً في التفسير والعربية، متين الديانة، فاق بتفسيره الكبير سائر أهل التفاسير.

قلت: هكذا قيل، ولعلّ ذلك من بعض الوجوه، وإلا فهناك تفاسير أخرى، قد تميّز كلّ واحد منها بفضيلة وفنّ معروف عند أهله، وله (كتاب العرائس) في قصص الأنبياء وغير ذلك، ذكره السمعاني وقال: يقال له الثعلبي، والثعالبي وهو لقب له، وليس نسب.

ونقل بعض العلماء أن الاستاذ أبا القاسم القشيري رحمه الله تعالى قال: رأيت ربّ العزّة في المنام، وهو يخاطبني وأخاطبه، وكان في أثناء ذلك أن قال الربّ تعالى اسمه: أقبل الرجل الصالح، فالتفتّ فإذا أحمد الثعلبي مقبل. ذكره عبد الغافر الفارسي في سياق تاريخ نيسابور، وأثنى عليه وقال: هو صحيح النقل، موثوق به. وكان كثير الشيوخ. رحمه الله تعالى.

وفيها توفّي الإمام الجياني المحدّث أبو علي الحسين بن محمد الغساني الأندلسي.

كان إماماً في الحديث، وله كتاب مفيد، سمّاه(تقييد المهمل) ضبط فيه كلّ لفظ يقع فيه اللبس من رجال الصحيحين في جزئين، وما قصّر فيه. وكان من جهابذة المحدّثين، وكبار العلماء المفيدين، حسن الخط جيّد الضبط، له معرفة بالغريب والشعر والأنساب. (ونسبته) إلى جَيّان(بفتح الجيم وتشديد المثناة من تحت) مدينة كبيرة بالأندلس، وبأعمال الريّ قرية يقال له جَيّان أيضاً. و(الغساني) نسبة إلى غسان وقد تقدّم الكلام عليه.

سنة ثمان وعشرين واربع مائة

فيها توفّي أبو الحسين أحمد بن محمد الفقيه الحنفي القُدوريّ، انتهت إليه رئاسة الحنفية بالعراق. وكان حسن العبارة في النظر، وسمع الحديث، وروى عنه الخطيب أبو بكر، وصنّف في مذهبه (المختصر) وغيره، وكان يناظر الشيخ أبا حامد الاسفرائيني الفقيه الشافعي، وقد تقدّم في ترجمة أبي حامد ما بالغ القدوري في مدحته. والقُدوري نسبة إلى عمل القدور، جمع قدر.

وفيها توفّي الحافظ أحمد بن منجويه (بالنون والجيم والمثناة من تحت بعد الواو) رحل وسمع، وصنّف التصانيف.

وفيها توفّي مهيار[1] الشاعر المشهور الفارسي. كان مجوسيّاً فأسلم، ويقال إنّ إسلامه كان على يد الشريف الرضيّ، وعليه تخرّج في نظمه، وله ديوان كبير يدخل في أربع مجلّدات. ومن شعره:

يـراهـا بعيـن الشـوق قلبـي علـى النـوى ... فيخطـيء ولكـن مـن لِعينـي بـرؤيـاهـا
فـالله مـا أصفـى وأكـدرَ حبّهـا ... وأبعـدهـا منّـي الغـداة وأدنـاهـا

وهما من قصيدة شهيرة. وقال أبو الحسن صاحب دمية القصر: ومن شعره أيضاً:

ملحـاً علـى البخـل الشحيـح بمـالـه ... أفـلا يكـون بمـاء وجهـك أنجـلا
أكـرم يـديـك عـن السـؤال فـإنمّـا ... قـدر الحيـاة أقـلّ مـن أنْ تسـألا
ولقـد أضـمّ إلـيّ فضـل قنـاعتـي ... وأتيـت مشتمـلاً بهـا متـزمّـلا
وإذا امـرؤ أفنـى الليـالـي حسـرة ... وأمـانيـاً أفنيتهـن تـوكّـلا

وفيها توفي الرئيس أبو علي المعروف بابن سينا الحكيم المشهور، الحسين بن عبدالله ابن الحسن بن علي بن سينا. قال ابن خلّكان: تنقّل الرئيس ابن سينا في البلاد، واشتغل بالعلوم، وحصّل الفنون، ولما بلغ عشر سنين كان قد أتقن علم القرآن الكريم والأدب،

(١) في الكامل لابن الأثير ٨/ ١٤: هو مهيار بن مرزويه أبو الحسين الكاتب الفارسي، ويقال له الديلمي... توفي في جمادى الآخرة.

وحفظ أشياء من أصول الدين وحساب الهندسة والجبر والمقابلة، وتوجّه نحوهم الحكيم أبو عبدالله الناتلي (بالنون والمثناة من فوق بين الألف واللام) فأنزله أبو عليّ عنده، وابتدأ يقرأ عليه، فأحكم علم المنطق وإقليدس والمجسطيّ، حتّى فاق الناتليّ بدرايتها. وأوضح له رموزاً ، وفهّمه إشكالات كان شيخه المذكور لا يدريها، ومع ذلك كان يختلف في الفقه إلى اسماعيل الزاهد، يقرأ ويبحث، ويناظر، ثم اشتغل بتحصيل علوم أخرى كالطبيعي والإلهي وغير ذلك، ونظر في النصوص والشروح، ففهم كلّ ذلك، ثم رغب في علم الطبّ، وتأمّل الكتب المصنّفة فيه، وعالج هادياً لا متكسّباً، وعلّمه حتى فاق فيه الأوائل والأواخر في أقل مدّة، وأصبح فيه عديم القرين فقيد المثيل. واختلف إليه فضلاء هذا الفن وكبراؤه، يقرؤون عليه أنواعه والمعالجات المكتسبة من التجربة وسنّه إذْ ذاك ستّ عشرة سنة ـ وفي مدّة اشتغاله لم ينم ليلة واحدة بكمالها، ولا اشتغل بالنهار بنوى المطالبة، وكان إذا أشكل عليه مسألة توضّأ، وقصد المسجد الجامع، وصلّى، ودعا الله تعالى أن يسهّلها عليه، ويفتح مغلقها ـ على ما ذكر بعض المورخين .

وذُكر عند الأمير نوح بن نصر ـ صاحب خراسان ـ في مرض موته، فأحضره، وعالجه حتّى برىء، واتّصل به، وقرب منه، ودخل إلى دار كتبه، وكانت عديمة المثل، فيها من كلّ فنّ من الكتب المشهورة بأيدي الناس وغيرها، ممّا لا يوجد في سواها، ولا سمع باسمه، فضلاً عن معرفته، فظفر أبو علي منها بكتب الأوائل وغيرها، وحصّل نخب فوائدها، واطّلع على أكثر علومها، واتفق بعد ذلك احتراق تلك الخزانة، فتفرّد أبو علي بما حصله من علومها، ويقال: إنه هو الذي توصّل إلى إحراقها ليتفرد بمعرفة ما حصله منها، وينسبه إلى نفسه، ولم يستكمل ثمان عشرة سنة من عمره إلاّ وقد فرغ من تحصيل العلوم بأسرها وقيل التي عاناها بأسرها ثم صار هو وأبوه يتصرّفان في الأحوال، ويتقلّدان للسلطان الأعمال، وجرت له تنقّلات في البلدان وما فيها من دولة السلطان، وإنه تولى الوزارة لشمس الدولة في همدان، ثم تشوّش العسكر، وعمدوا إلى داره، فنهبوها، وقبضوا عليه، وسألوا شمس الدولة في قتله، فامتنع، ثم اطلق فتوارى، ثم مرض شمس الدولة بالقولنج، فأحضره لمداواته، واعتذر إليه، وأعاده وزيراً. وكان ابن سينا قويّ المزاج يغلب عليه قوةّ الجماع، حتّى أضعفته ملازمته، وعرض له قولنج، فعالجه مراراً، يصح أسبوعاً ويمرض أسبوعاً، ومرض أمراضاً كثيرة، وطرح بعض غلمانه في بعض أدويته شيئاً كثيراً زائداً على ما رسمه الطبيب، فعجزت المعالجات عن شفائها، وأشرفت قواه على السقوط، فأهمل المداواة، واعترف بالعجز عن تدبير نفسه، ثم اغتسل، وتاب، وتصدّق بما معه على الفقراء وردّ المظالم على مَنْ عرفه، وأعتق مماليكه، وجعل يختم في كلّ ثلاثة أيام ختمة، ثمّ توفّي في التاريخ المذكور في شهر رمضان بهمدان .

قلت: وهذا مختصر تنقّلات جرت له في الأحوال والبلدان، منها خوارزم وجَرْجان ودَهِسْتان[١] وقزوين، والري وبُخارى وهمدان وأصفهان، وبُسْت وطُوس، واجتمع بولاتها لخوارزم شاه، وشمس المعالي قابوس، وشمس الدولة، وعلاء الدولة، وكان نادرة عصره في علمه وذكائه وتصانيفه، صنّف (كتاب الشفاء) في الحكمة و(النجاة) و(الإشارات) و(القانون) وغير ذلك، ممّا يقارب مائة تصنيف، ما بين مختصر ومطوّل ورسالة في فنون شتّى، وله رسائل بديعة، منها رسالة الطير وغيرها، وهو أحد فلاسفة المسلمين، وله شعر، من ذلك قوله:

هبطت إليك من المحلّ الأرفع ... ورقاء ذات تعزّز وتمنّع
محجوبة عن كل مقلة عارف ... وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربمّا ... كرهتْ فراقك وهي ذات تفجّع
أنفت وما ألفت فلمّا واصلت ... ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهوداً بالحمى ... ومنازلاً بِفراقها لم تقنع
حتّى إذا اتصلت بهاء هبوطها ... من ميم مركزها بذات الأجرع
علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت ... بين المعالم والطلال الخضع
تبكي وقد نسيت عهوداً بالحمى ... ومدامع تهمي ولما تقلع
حتى إذا قرب المسير الى الحمى ... ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
وغدت تفرّد فوق ذروة شاهق ... والعلم يرفع كلّ من لم يرفع
وقعود عالمه بكلّ خفيّة ... في العالمين فخرقها لم يرقع
فهبوطها إن كان ضربة لازم ... ليكون سامعه بما لم تسمع
فلأي شيء أهبطت من شاهق ... شام إلى قعر الحضيض الأوضع
إن كان أهبطه الإلَهُ بحكمة ... طويت على الفطن اللبيب الأورع
إذ عاقها الشرك الكثيف وصدّها ... قفص عن الأوج الفسيح الأرفع
وكأنّها برق تألّف بالحمى ... ثمّ انطوى وكأنه لم يلمع

قال وفضائله مشهورة كثيرة.

وكان الشيخ كمال الدين بن يونس ـ يقول: إنّ مخدومه سخط عليه، واعتقله، ومات في السجن، وكان ينشد:

رأيت ابن سينا يعادي الرجال ... وفي السجن مات أخسّ الممات
فلم يشف ما نابَهُ بالشفاء ... ولم ينجُ من موته بالنجاة

---

(١) دهستان: بلد مشهور في طرف مازندران، قرب خوارزم وجرجان. معجم البلدان.

انتهى قلت: والشفاء والنجاة إشارة إلى كتابيه المتقدّم ذكرهما، ولقد طالعت كتاب الشفاء فلم أراه إلاّ جديراً بقلب الفاء قافاً، مشتمل على كثيرة فلسفة، لا ينشرح لها صدر متديّن.

وذكر شيخ الإسلام أستاذ الأنام في عصره: شهاب الدين السهروردي رحمه الله أنّه غسل كتابه الموسوم بالشفاء بإشارة قدسيّة نبوية، يعني بإشارة النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم، قلت: وقد ذكروا أنه تاب، واشتغل بالتنَسك، فإن صحّ ذلك فقد أدركه الله تعالى لسابق عنايته وواسع رحمته، حتّى أحدث فيه لاحق توبته ـ والله أعلم بحقيقة ذلك وصحّته.

وفيها توفّي وجيه الدولة أبو المطاع بن حمدان ابن ناصر الدولة الحسين بن عبدالله بن حمدان الثعلبي، كان شاعراً ظريفاً حسن السبك، جميل المقاصد. ومن شعره قوله:

إنّي لأحسد لا في أسطر الصحف ... إذا رأيت اعتناق اللاّم للألف
وما أظنّهما طال اعتناقهما ... إلا لما لقيا من شدّة الشغف

وأورد له الثعالبي في اليتيمة

قالت: لطيف خيال زارها ومضى ... بالله صفة لا تنقص ولا تزد
فقال حلبت لو مات من ظمأ ... وقلت قف عن ورد الماء لم يرد
قالت صدقت الوفا في الحبّ عادته ... يا برد ذاك الذي على كبدي

وذكر بعضهم أن هذه الأبيات للشريف أبي القاسم أحمد بن طباطبا العلوي، وَلوجيه الدولة المذكور أشعار كثيرة حسنة شهيرة، وكان قد وصل إلى مصر في أيام الظاهر بن الحكم العبيدي صاحبها، فقلّده ولاية الإسكندرية وأعمالها، فأقام بها سنة، ثم رجع إلى دمشق.

سنة تسع وعشرين واربع مائة

فيها توفّي الحافظ محدّث هَرَاة أبو يعقوب القرّاب (بالقاف في أوله والموحدة في آخره على ما ضبطه بعضهم) اسحاق بن ابراهيم السرخسي الهروي. روى عن خلق كثير، زاد عدّة شيوخه على ألف ومائتين، وصنّف تصانيف كثيرة، وكان صالحاً زاهداً مقلّاً من الدنيا، رحمه الله.

وفيها توفّي العلاّمة في اللغة والشعر والعربية المصنّف في الزهد وغيره، يونس بن عبدالله بن محمد بن مغيث، قاضي الجماعة بقُرْطبة.

وفيها توفّي الأستاذ أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي الفقيه الشافعي الأصولي

الأديب. كان ماهراً في فنون عديدة خصوصاً علم الحساب فإنه كان متقناً له، وله فيه تآليف نافعة، وكان عارفاً بالفرائض والنحو، وله أشعار. وكان ذا مال وثروة وإنفاق على أهل العلم والحديث، ولم يكتسب بعلمه مالاً، وصنّف في العلوم، وأربى على أقرانه في الفنون، ودرس في سبعة عشر فنّاً، وكان قد تفقّه على الأستاذ أبي إسحاق الاسفرائيني، وجلس بعده للإملاء في مكانه سنين، واختلف الأئمة إليه، فقرؤوا العلوم عليه، مثل الأستاذ زين الإسلام القشيري، والإمام ناصر المروزي، وغيرهما.

سنة ثلاثين واربع مائة

فيها توفّي الإمام الحافظ الشيخ العارف أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني الصوفي، صاحب كتاب (حلية الأولياء)، كان من أعلام المحدّثين وأكابر الحفّاظ المفيدين، أخذ عن الأفاضل، وأخذوا عنه، وانتفعوا به. وكتابه الحلية من أحسن الكتب. قلت: أما طعن ابن الجوزي فيها وتنقّصه لها فهو عن باب قولي.

لئن ذمّها جاراتها وضرائر ... وعين جمالاً في حلاها وفي الحلي
فما سلمت حسناء من ذمّ حاسد ... وصاحب حقّ من عداوة مبطل

مع أبيات أخرى في مدح الإمام أبي حامد الغزالي وتصانيفه وكلامه الغالي، وله كتاب (تاريخ أصفهان) تفرّد في الدنيا بعلوّ الإسناد مع الحفظ.

روى عن المشايخ بالعراق والحجاز والخراسان، وصنّف التصانيف المشهورة في الأقطار.

وفيها توفّي أبو منصور الثعالبي[1] عبد الملك بن محمد النيسابوري الأديب اللبيب الشاعر، صاحب التصانيف الأدبية السائرة في الدنيا، وراعي بلاغات العلم، وجامع أشتات النظم. سار ذكره سير المثل، وضربت إليه آباط الإبل، وطلعت دواوينه في المشارق والمغارب طلوع النجم في الغياهب. ومن نظمه:

لك في المفاخر معجزات جمّة ... أبداً لغيرك في الورى لم تجمع
بحران يجري في بلاغة شأنه ... شعر الوليد وحسن لفظ الأصمع
كالنور أو كالسحر أو كالبدر أو ... كالوشي في برد عليه موسّع
وإذا تفتّق نور شعرك ناظراً ... فالحسن بين مرصّع ومصرّع
نقشت في فصّ الزمان بدائعاً ... تزري بآثار الربيع الممرع

(١) في الكامل لابن الأثير: ١٦/٨ ان وفاته كانت سنة ٤٢٩هـ.

مع أبيات أُخرى كتبها إلى الأمير أبي الفضل الميكالي. وله من التآليف كتاب (يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر) وهو أكبر كتبه وأحسنها، وفيه يقول أبو الفرح الإسكندري:

أبيـــات أشعـــار اليتيمـــة أبكـــار أفكـــار قـــديمـــة
مـــاتـــوا وعـــاشـــت بعـــدهـــم فـــذاك سمّيـــت اليتيمـــة

قيل و(الثعالبي): نسبة إلى خياطة جلود الثعالب وعملها. وله كتاب (فقه اللغة) و(سحر البلاغة وسر البراعة) و(مؤنس التوحيد) وشعر كثير هو له مجيد، جمع فيه أشعار الناس ورسائلهم وأخبارهم وأحوالهم.

وفيها توفّي أبو القاسم عبد الملك بن بشران[١] البغدادي الواعظ. قال الخطيب: كان ثقة ثبتاً صالحاً، وكان الجمع في جنازته يتجاوز الحدّ ويفوت الانحصار.

سنة احدى وثلاثين وأربعمائة

فيها توفّي القاضي المقرىء المحدّث أبو العلاء الواسطي، محمد بن علي بن أحمد.

وفي نيّف وثلاثين توفّي الفقيه الإمام أحد العلماء الأعيان، أوّل من جمع بين طريق العراق وخراسان الحسن بن علي السنجي صاحب شرح فروع ابن الحدّاد.

سنة اثنتين وثلاثين واربع مائة

استولت فيها السلجوقية(بالسين المهملة والجيم والقاف) على جميع خُراسان. وفرّ السلطان مسعود[٢] إلى غَزْنَة. والحرب في بغداد بين الرافضة والسنّية.

وفيها توفي الحافظ أبو العباس جعفر بن محمد بن المستغفر بن الفتح النسفي، صاحب التصانيف الكثيرة.

سنة ثلاث وثلاثين واربع مائة

فيها توفّي السلطان المسعود ابن السلطان محمود. والرئيس أحمد بن محمد أبو الحسين الأصفهاني وراوي المعجم الكبير عن الطبراني. والقاضي أبو نصر أحمد بن الحسين الدينوري، سمع سنن النسائي من ابن السنّي وحدّث به.

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٨/ ١٩: عبد الملك بن محمد بن محمد بن عبدالله بن محمد بن بشر بن مهران أبو القاسم الواعظ... مات في ربيع الآخر وقد جاوز التسعين.
(٢) مسعود بن محمود بن سبكتكين. انظر الكامل لابن الأثير ٨/ ٢٢ ـ ٢٦.

سنة أربع وثلاثين وأربعمائة

فيها كانت الزلزلة العظمى بِتِبْرِيز[١]، فهدمت أسوارها، وأحصى من هلك تحت الهدم فكانوا أكثر من أربعين[٢] ألفاً نسأل الله العفو والعافية.

وفيها توفّي الحافظ أبو ذرّ الهروي[٣] الأنصاري الفقيه المالكي، نزيل مكّة روى الصحيح عن ثلاثة من أصحاب القرِيْري، وجمع لنفسه معجماً، وعاش ثمانياً وسبعين سنة، وكان ثقة متقناً ديّناً عابداً حافظاً بصيراً باللغة والأصول، أخذ علم الكلام عن الباقِلّاني، وصنّف مخرجاً على الصحيحين، وكان شيخ الحرم في عصره، ثم تزوّج بالسَروانّ[٤]، وبقي يحجّ كل عام ويرجع.

سنة خمس وثلاثين واربع مائة

فيها توفّي جلال الدولة[٥]. وأبو الحزم جَهْوَر محمد بن جهور أمير قرطبة ورئيسها وصاحبها.

سنة ست وثلاثين واربع مائة

توفّي فيها الشريف المرتضى أبو القاسم علي بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن ابراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين ابن الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. كان نقيب الطالبين، وكان إماماً في علم الكلام والأدب والشعر، وهو أخو الشريف الرضي المقدّم ذكره في سنة ستّ وأربعمائة. بين موتَيْهما ثلاثون سنة. وللمرتضى تصانيف على مذهب الشيعة، ومقالة في أصول الدين، وله ديوان شعر كثيرة وقد اختلف الناس في كتاب (نهج البلاغة) المجموع من كلام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، هل هو جمعه أو جمع أخيه الرضي؟ وقد قيل إنه ليس من كلام عليّ وإنما أحدهما هو الذي وضعه ونسبه إليه، والله تعالى أعلم. وله

---

(١) في معجم البلدان: تبريز: أشهر مدن أذربيجان.
(٢) في الكامل لابن الأثير: ٣٦/٨: فكانوا قريباً من خمسين ألفاً.
(٣) في الكامل لابن الأثير: ٣٦/٨: عبد الله بن أحمد أبو ذر الهروي الحافظ ـ تزوج من العرب.
(٤) في الكامل لابن الأثير: ٣٦/٨: وأقام بالسروات.
ـ أما السروان: محلّتان من محاضر سلمى أحد جبلَيّ طيىء، وأيضاً سروان: مدينة صغيرة من أعمال سجستان قريبة من بست. معجم البلدان.
(٥) في الكامل لابن الأثير: ٣٧/٨: في سادس شعبان توفي الملك جلال الدولة أبو طاهر بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه ببغداد.

الكتاب الذي سمّاه(الدرر والغرر) وهي مجالس أملأها يشتمل على فنون من معاني الأدب، تكلّم فيها على النحو واللغة وغير ذلك، وهو كتاب يدلّ على فضل كبير وتوسّع في الاطلاع على العلوم.

وذكره ابن بسّام الأندلسي في أواخر (كتاب الذخيرة) فقال: هذا الشريف إمام أئمة العراق بين الاختلاف والافتراق، إليه فرغ علماؤها وأخذ عنه عظماؤها، صاحب مدارسها، وجامع شاردها وآنسها، ممّن سارت أخباره، وعرفت بها أشعاره، وحمدت في ذات الله مآثره وآثاره، وتواليفه في أصول الدين، وتصانيفه في أحكام المسلمين، ممّا يشهد أنه فرع تلك الأصول، وأهل ذاك البيت الجليل وأورد له عدّة مقاطع، فمن ذلك قوله:

ولما تفرّقنا كما شاءت النوى ... بين ودّ خالص وتودّد
كأني وقد سار الخليط عشية ... أخو جِنّة ممّا أقوم وأقعد

قيل ومعنى البيت الأول من هذين البيتين مأخوذ من قول المتنبي:

إذا اشتبكت دموع في خدود ... تبيّن من بكى ممّن تباكى

وممّا نسب إلى المرتضي أيضاً رضي الله تعالى عنه:

مولايَ يا بدرَ كلِّ داجيةٍ ... خذْ بيدي قد وقعتُ في اللّجج
حسنك ما تنقضي عجائبه ... كالبحر جد عنه بلا حرج
بحقّ من خطّ عارضيك ومن ... سلّط سلطانها على المهج
مدّ يدَيْك الكريمتين معاً ... ثمّ ادعُ لي من هواك بالفرج

وحكى الخطيب أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي اللغوي أنّ أبا الحسن علي بن أحمد الفالي الأديب كانت له نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد في غاية الجودة، ودعته الحاجة إلى بيعها، فباعها، واشتراها الشريف المرتضى بستّين ديناراً، وتصفحّها، فوجد فيها أبياتاً بخطّ بائعها أبي الحسن الفالي:

أنست بها عشرين حولاً وبعتها ... لقد طال وجدي بعدها وحنيني
وما كان ظنّي أنّني سأبيعها ... ولو خلّدتني في السجون ديوني
ولكنْ لضعفٍ وافتقار وصبيةٍ ... صغار عليهم تستهل شؤوني
وقد تخرج الحاجات يا أمّ مالك ... كرائم من ربّ بهنّ ضنين

وهذا الفالي منسوب إلى(فَالة) بالفاء وهي بلدة بخوزستان وملح الشريف المرتضى وفضائله كثيرة. وكانت ولادته في سنة خمس وخمسين وثلاثمائة.

وفي السنة المذكورة توفي أبو الحسن البصري المتكّلم محمد بن عليّ شيخ المعتزلة، والذي قبله أعني الشريف المرتضى شيخ الشيعة من كبار أئمتهم.

وأبو الحسين من كبار أئمة المعتزلة، جيد الكلام، حسن العبارة، غزير المادّة، وله التصانيف الفائقة في أصول الفقه، منها(المعتمد) وهو كتاب كبير نفيس، ومنه ومن المستصفى الإمام أبي حامد الغزالي استمدّ فخر الدين الرازي في تصنيف كتابه(المحصول) ولأبي الحسين (تصفّح الأدلة)، و(عزير الأدلّة)، وله (شرح الأصول الخمسة) وله كتاب في(الإمامة) وغير ذلك.

وفيها توفي أبو عبد الله الصيمري[1] الفقيه أحد أئمة الحنفيّة.

سنة سبع وثلاثين واربع مائة

فيها توفّي شيخ الأندلس وعالمها ومقرئها وخطيبها أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي، كان من أهل التبحّر في العلوم كثير التصانيف، وكان مشهوراً بالصلاح وإجابة الدعوة رحمه الله تعالى وممّا روي في إجابة دعوته أنّه كان إنسان يتسلّط عليه، ويحصي عليه سقطاته وكان الشيخ كثيراً ما يتلعثم، ويتوقّف، فحضر ذلك الرجل في بعض الجمع، وجعل يحدّ النظر إلى الشيخ، ويغمزه، فلما خرج مضى، ونزل في الموضع الذي كان يقرأ فيه، ثم قال لنا: أمنّوا على دعائي، ثم رفع يديه وقال: اللهّم اكفنيه؛ قال: فأمّنا فأقعد ذلك، وما دخل الجامع بعد ذلك اليوم. وله تصانيف كثيرة نافعة، فمنها (الهداية إلى بلوغ النهاية) في معاني القرآن الكريم، وتفسيره وأنواع علومه، وهو سبعون جزءاً، ومنتخب الحجّة لأبي علي الفارسي ثلاثون جزءاً، و(كتاب التبصرة) في القراءات في خمسة اجزاء وهو من أشهر تواليفه ـ وكتاب (الكشف عن وجوه القراءات وعللها) عشرون جزءاً، و(كتاب الوقف في كلاّ وبَلَى) في القرآن جزءان، و(كتاب تنزيه الملائكة) عن الذنوب، وفضلهم على بني آدم جزء، و(كتاب اختلاف العلماء في الروح والنفس)جزء، و(كتاب شرح التمام والوقف) أربعة أجزاء وغير ذلك، ومجموع تصانيفه نحو من أربعين مصنّفاً، بعضها مشتمل على أجزاء كثيرة.

وفيها توفي الإمام الأوحد القاسم بن محمد بن عبدالله القرشيّ الجمحيّ، من أهل (شمعة) من بلاد اليمن. لمّا تفرقت قريش عن الحجاز سكن قوم منهم بسهفنة، وكان هو وأهله منهم، ومات فيها، وهو الذي انتشر عنه مذهب الشافعي في نواحي الجَنَد وصنعاء

(١) في الأنساب للسمعاني ٣/ ٥٧٦: الصيمري: نسبة إلى نهر من أنهار البصرة يقال له الصَّيمَر عليه عدّة قرى خرج منها: القاضي أبو عبدالله الحسين بن علي بن محمد بن جعفر الصيمري.... توفي في الحادي والعشرين من شوال .. ببغداد.

والمعَافِر والسُحُول وعَدَن ولَحْج وأَبْيَن، ومنه استفاد فقهاء هذه البلاد المذكورة، كانت مدرسته في (سهفنة) وكان تفقّه وتعلّم في ابتداء أمره في زَبِيد على بكر بن المصرف بمختصر المزني وبعض شروحه، وكان له رحلة إلى مكّة سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة، ولقي فيها أبا بكر أحمد بن ابراهيم المروزي، فأخذ عنه كتاب السنن عن أبي داؤد سليمان بن الأشعث، وسمع عنه موطّأ الإمام مالك. وكان قد جمع مع الفقه والحديث والكلام وأصول الفقه علم القراءات ومعاني القرآن، وكان فقيهاً اجتمع عليه القريب والبعيد من البلاد وأخذ عنه العلم خلق كثير.

سنة ثمان وثلاثين واربع مائة

فيها توفّي الشيخ الإمام الجليل القدر، مفتي الأنام، قدوةّ المسلمين وركن الاسلام، ذو المحاسن والمناقب العظام، والفضائل المشهورة عند العلماء والعوام، الفقيه الأصولي الأديب النحوي المفسّر الشيخ أبو محمد الجوَيني عبد الله بن يوسف شيخ الشافعية، ووالد إمام الحرمين.

قال أهل التواريخ: كان إماماً في التفسير والفقه والأصول والعربيّة والأدب، قرأ الأدب على أبيه أبي يعقوب يوسف(بجُوَيْن)(١)، ثمّ قدم نيسابور، واشتغل بالفقه على أبي الطيب سهل بن محمد الصعلوكي، ثم انتقل إلى أبي بكر القفّال المروزي، واشتغل عليه بَمْرو، ولازمه واستفاد منه، وانتفع عنه، وأتقن عليه المذهب والخلاف، وقرأ عليه طريقته، وأحكمها. فلما تخرّج عليه عاد إلى نيسابور، وتصدّى للتدريس والفتوى، وتخرّج عليه خلق كثير، منهم ولده إمام الحرمين، وكان مهيباً لا يجري بين يديه إلا الجدل والبحث والتحريض على التحصيل. له في الفقه تصانيف كثيرة الفضائل، مثل (التبصرة) و(التذكرة) و(مختصر المختصر)و (الفرق والجمع) و(السلسلة) و (موقف الإمام والمأموم)، وغير ذلك من التواليف، وله التفسير الكبير المشتمل على عشرة أنواع في كلّ آية.

وقال الإمام عبد الواحد بن عبد الكريم القشيريّ: كان أئمتنا في عصره، والمحقّقون من أصحابنا يعتقدون فيه من الكمال والفضل والخصال الحميدة ما أنه لو جاز أن يبعث الله تعالى نبياً في عصره لما كان إلا هو، من حسن طريقته وورعه وزهده وديانته وكمال فضله رضي الله تعالى عنه سمع الحديث الكثير، وتوفي في ذي القعدة من السنة المذكورة، وقيل في سنة أربع وثلاثين وأربعمائة بنيسابور والله أعلم.

وقال الشيخ أبو صالح المؤذّن: مرض الشيخ أبو محمد الجُوَيني سبعة عشر يوماً،

---

(١) في معجم البلدان: جوين: اسم كورة جليلة نزهة على طريق القوافل من بسطام إلى نيسابور.

وأوصاني أن أتولىّ غسله وتجهيزه، فلما توفي غسلته، وكفنّته في الكفن. ورأيت يده اليمنى زهراء منيرة من غير سوء وهي تتلألأ تلألؤ القمر، فتحيّرت وقلت لنفسي هذه بركات فتاويه. قلت: وفضائله كثيرة شهيرة، وقد ذكرت شيئاً منها في (الشاش المعلم).

سنة تسع وثلاثين وأربع مائة

فيها توفّي الحافظ أبو محمد الحسن بن محمد الحسن بن الجلال البغدادي. قال الخطيب: كان ثقة له معرفة، أخرج المسند على الصحيحين، وجمع أبواباً وتراجم كثيرة.

سنة اربعين واربع مائة

فيها أقام العرب بالمغرب الدعوة للقائم بأمر الله العباسي وخلْع طاعة المستنصر العبيدي، فبعث المستنصر جيشاً من العرب يحاربون فذلك أول دخول العربان إلى إفريقية وهم بنو رباح وبنو زغبة، وجرت لهم أمور يطول شرحها.

وفيها توفي أبو القاسم عبدالله بن عمر بن شاهين رحمه الله تعالى.

سنة احدى واربعين واربع مائة

توفّي أبو علي أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان بن القاسم بن أبي نصر التميمي الدمشقي، أحد الأكابر. وفيها توفّي الحافظ أبو عبدالله محمد بن علي الصوري، أحد أركان الحديث. قال الخطيب: وكان يسرد الصوم، وقال أبو الحسين: ما رأيت أحفظ من الصوري.

سنة اثنتين واربعين واربع مائة

فيها عيّن ابن النسوي[1](بالنون والسين المهملة) لشرطة بغداد، فاتفق السنّية والشيعيّة على أنه متى ولي نزحوا عن البلد، فوقع الصلح بين الفريقين بهذا السبب، وصار أهل الكرخ يترحّمون على الصحابة، وصلّوا في مساجد السنيّة، وخرجوا كلّهم إلى زيارة المشاهد، وتحابوّا، وتزاوروا، وهذا شيء لم يعهد منذ دهراً، وقيل في دهر.

وفيها توفّي شيخ العراق، الزاهد القدوة أبو الحسن علي بن عمر بن القزويني. قال الخطيب: كان أحد الزهّاد ومن عباد الله الصالحين، يقرىء ويحدّث، ولا يخرج إلا لصلاة، غلقت جميع بغداد يوم دفنه، ولم نَر جمعاً أعظم من ذلك الجمع.

---

(١) في الكامل لابن الأثير: ٨/٥٣: أبو محمد بن النسوي.

وفيها توفّي أبو القاسم الثمانيني[1] الموصلّي الضريري النحوي، أحد أئمة العربية بالعراق. أخذ عن ابن جنّي، وتصدّر للإفادة، وصنّف شرحاً للمع كتاب النحو، وشرحاً للتصريف.

والواعظ أبو طاهر بن العلاّف محمود بن علي البغدادي.

سنة ثلاث واربعين واربع مائة

فيها زال الأنس بين السنّية والشيعيّة، وعادوا إلى أشدّ ما كانوا عليه من الشرّ والفتن[2]، وأحكم الرافضة سور الكرخ، وكتبوا على الأبراج: محمد وعلي خير البشر، فمن رضي فقد شكر، ومن أبى فقد كفر، واضطرمت نار الفتنة، وأخذت ثياب الناس في الطرق، وغلقت الأسواق، واجتمع للسنّية جمع لم يُرَ مثله، وهجموا دار الخلافة، فوعدوا بالخير. وثار أهل الكرخ، فالتقى الجمعان، فقتل جماعة، ونبشت عدّة قبور للشيعة، وأحرقوا. وتمّ على الرافضة خزي عظيم، فعمدوا إلى خان الحنفيّة، فأحرقوه، وقتلوا مدرسّهم أبا سعيد السرخسي رحمه الله تعالى.

وفيها توفّي أبو القاسم علي بن أحمد الفارسي: مسند الديار المصرية، أكثر عن أبي أحمد بن الناصح والذّهلي.

سنة أربع وأربعين وأربع مائة

فيها هاجت الفتنة ببغداد، واستعرت نيرانها، وأحرقت عدّة حوانيت، وكتب أهل الكرخ على أبواب مساجدهم: محمدٌ وعليّ خير البشر. وأذّنوا بحيّ على خير العمل، فاجتمع غوغاء أهل السنّة، وحملوا حملة حربيّة على الرافضة، فهرب النظارة، وازدحموا في درب ضيّق، فهلك ستّ وثلاثون امرأة وستّة رجال وصبيان، وطرحت النيران في الكرخ، وأخذوا في تحصين الأبواب والقفال، والتقوا في سادس من ذي الحجّة، فجمع الطقْطَقي[3] (بالقاف بين الطائين المهملتين) طائفة من الأعوان، وكبس جهة من الكرخ، وقتل رجلين، ونصب رأسيْهما على مسجد العلاّئين.

وفيها عمل محضر كثير ببغداد، وتضمّن القدح في نسب بني عُبيد الخارجين بالمغرب ومصر، وأنّ أصلهم من اليهود، وأنهم كاذبون في انتسابهم إلى جعفر الصادق رضي الله

(١) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٥٧: وفي ذي القعدة توفي أبو القاسم عمر بن ثابت النحوي الضرير المعروف بالثمانيني شارح اللمع... ونسبته إلى قرية من نواحي جزيرة ابن عمر عند جبل الجودي يقال لها ثمانين باسم الثمانين الذين كانوا مع نوح ـ عليه السلام ـ في السفينة.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير ٨/ ٥٩.

(٣) في الكامل لابن الأثير: ٨/ ٦٤: وانتشر العيارون.... وكان مقدّمهم الطقطقي والزيبق.

تعالى عنه. فكتب فيه خلق من الأشراف والسنّة وأولي الخيرة.

وفيها توفّي أبو غانم أحمد بن الحسين المروزي الكراعي مسند خراسان في وقته.

وفيها توفّي أبو عمرو الداني عثمان بن سعيد القرطبي الحافظ المقرىء أحد الأعلام، صاحب التصانيف الكثيرة المتفننّة، توفي بدانِية[1] المنسوب إليها، قيل وكان مجاب الدعوة رحمه الله تعالى.

سنة خمس وأربعين وأربع مائة

فيها توفّي مقرىء الديار المصرية، الملقّب بتاج الأئمة أبو العباس أحمد بن علي بن هشيم المصري.

وفيها توفّي أبو إسحاق البرمكي بن ابراهيم بن عمر البغدادي الحنبلي. قال الخطيب: كان صدوقاً ديّناً فقيهاً، له حلقة للفتوى وفيها توفّي الحافظ أبو سعيد السمعاني اسماعيل بن علي الرازي. قال الكتّاني: كان من الحفّاظ الكبار زاهداً عابداً، ويقال إنه سمع من ثلاثة آلاف شيخ، وكان رأساً في القراءات والحديث والفقه، بصيراً بمذهبَيْ الحنفيّة والشافعيّة، لكّنه من رؤوس المعتزلة.

قلت: وما سمعت أنّ أحداً له من الشيوخ مثل هذا المذكور إلا الحافظ أبا سعيد السمعانيّ، فإنّ شيوخه يزيدون على أربعة آلاف شيخ. وممّن سمعت أنّ شيوخه يزيدون على ألفَيْن: عبد الله بن المبارك. وممّن سمعت أنّ شيوخه يزيدون على ألف: الحافظ أبو القاسم ابن عساكر، ذكروا أنّ شيوخه ألف وثلاث مائة. وممّن سمعت أنّ شيوخه ألف: الطبرانيّ، وممّن سمعت أن شيوخه دون الألف: الشيخ صلاح الدين العلائي مدرّس الصالحية في القدس رحمه الله أخبرني بذلك، أو قال نحو الألف، قال: وليس فيهم أجلّ من الشيخ رضي الله تعالى عنه يعني شيخنا رضي الدين فقيه المحدّثين الصالحين ابراهيم بن محمد الطبري، إمام مقام ابراهيم الخليل على نبّينا وعليه الصلاة والسلام.

وفيها توفّي أبو طاهر محمد بن أحمد بن محمد الكاتب مسند أصبهان.

سنة ست واربعين واربع مائة

فيها توفّي الحافظ أبو يعلى الخليل بن عبد الله بن أحمد القزويني، أحد أئمة الحديث.

وفيها توفّي أبو علي الأهوازي الحسن بن علي بن ابراهيم: المقرىء المحدّث صاحب

---

(١) في معجم البلدان: دانية: بألاندلس من أعمال بلنسية على ضفة البحر شرقاً.

التصانيف. وأبو محمد بن اللبّان الاصبهاني. قال الخطيب: وكان أحد أوعية العلم.

سنة سبع واربعين واربع مائة

فيها توفّي أبو عبد الله القادسي الحسين بن أحمد البغدادي.

وفيها توفّي قاضي القضاة ابن ماكولا: الحسين بن علي العجلي الشافعي. قال الخطيب: لم نَرَ قاضياً أعظم نزاهة منه.

وفيها توفّي حكم بن محمد الجذامي، وأبو القاسم التنوخي، وابن سلوان.

وفيها توفّي أبو الفتح السليم بن أيوب بن سليم الرازي: الفقيه الإمام الشافعي المفسّر الأديب: صاحب التصانيف. كان رأساً في العلم والأدب والعمل، يشار إليه في الفضل والعبادة.

ومن تصانيفه كتاب (الإشارة في الفروع) وكتاب (غرائب الحديث) وكتاب (التقريب)، وليس هو التقريب الذي نقل عنه إمام الحرمَيْن في النهاية، وحجّة الإسلام في البسيط والوسيط، فإنّ ذلك للقاسم بن القفّال الشاشي. أخذ سليم الفقه عن الشيخ أبي حامد الاسفرائيني، وأخذ عنه أبو الفتح الشيخ نصير بن ابراهيم المقدسي. وقال سليم: دخلت بغداد في بدايتي في طلب علم اللّغة، فكنت آتي شيخا هناك، فذهبت في بعض الأيام إليه، فقيل لي: هو في الحمّام، ومضيت نحوه، فمررت في طريقي على الشيخ ابي حامد الاسفرائيني ـ وهو يملي ـ فدخلت المسجد، وجلست مع الطلبة، فوجدته يشرح في كتاب الصيام في مسألة إذا أولج ثم أحسّ بالفجر فنزع، فاستحسنت ذلك، فعلّقت الدرس على ظهر جزء كان معي، فلمّا عدت إلى منزلي جعلت أعيد الدرس مخلى بي، وقلت: أتمّ هذا الكتاب يعني ـ كتاب الصيام فعلّقته، ولزمت الشيخ أبا حامد حين علقت منه جميع التعليق ـ يعني كتابه ـ وكان لا يخلو له وقت من اشتغال، حتّى أنه كان إذا برأ القلم قرأ القرآن، أو سبّح، أو قال: وسبّح. وكذلك إذا كان ماراً في الطريق، كما تقدّم في ترجمته، وغير ذلك من الأوقات التي لا يمكن الاشتغال فيها بعلم.

قلت: وهذا ممّا يدلّك على اهتمام هذا الإمام على استغراق أوقاته بالنفع بالعلم لوجه الله تعالى، والعمل به في طاعاته، وهذا عزيز جداً من أهل العلم. وأحوال الناس في ذلك مختلفة، فبعضهم كان يرخي بينه وبين أصحابه ستراً، وبعضهم يذكر بالقلب سرّاً، وبعضهم يأتي بالذكر جهراً.

وإرخاء الستر قد روي عن بعض المشايخ وعن بعض أهل العلم أيضاً: وهو أبو الحسن الباهلي شيخ القاضي أبي بكر الباقلّاني في علم الأصول: وقد يكون في إرخاء الستر

غرض آخر من ترك النظر إلى بعض الناس، إمّا لخوف فتنة، أو تشويش خاطر ببعض من هو في مجلسه حاضر. ولا يخلو الموقف صاحب القلب المليح من غرض صحيح. وسكن سليم الشام بمدينة (صُوْر) متصدّياً لنشر العلم وإفادة الناس. وكان يقول: (وضعت مني صوره رفعتها). وكان موته رحمه الله غرقاً عند رجوعه من الحجّ عند ساحل (جُدّة)، وقال بعضهم: في بحر القُلْزُم (بضم القاف والزاي وسكون اللام بينهما)، ثم تبيّن في أيّ مكان منه، وقال: عند ساحل جدّة، وقال بعضهم: في بحر القلزم المذكور غرق فيه فرعون.

قلت ويحتمل أنه غرق في الجانب الذي يلي مصر منه، وسليم في الجانب الذي يلي جدّة منه، وشتان ما بين الغرقين: غرق الشقاوة والإبعاد، وغرق الشهادة والإسعاد. وكان سليم المذكور قد نيّف على الثمانين، ودفن في جزيرة بقرب الجار[١] الآتي تفسيره قريباً، عند المخاضة في طريق عَيْذاب[٢].

والرازي: نسبة إلى الريّ على غير قياس ألحقوا الزاي في النسبة، كما ألحقوها في المروزي عند النسبة إلى مرو: وهي مدينة عظيمة من بلاد الديلم بين قومَس والجبال.

والجار بفتح الجيم وبعد الألف راء: وهي بلدة إليها القمح الجاري.

وذكر أبو القاسم الزمخشري في (كتاب الأمكنة والجبال والمياه) أنّ الجار قرية على ساحل البحر، بها مرسى مطايا القُلْزُم ومطايا عيذاب، يعني بالمطايا المذكورة: السفن. وقال ابن حَوْقَل (بفتح الحاء المهملة والقاف وسكون الواو بينهما وفي آخره لام) الجار: الفرضة المدلّية على ثلاث مراحل منها، على البحر وحده فرضة منه. قلت: يعني فرضة مكّة، ويعنونه بالفرضة في مثل هذا الموضع فرَضة البحر التي هي محطّ السفن.

وفي السنة المذكورة توفّي عبد الوهاب بن الحسين بن بَرهان بفتح الموحدة أبو الفرج البغدادي الغزالي.

سنة ثمان واربعين واربع مائة

فيها خُطب بالكوفة والموصل وواسط للمستنصر المصريّ العُبيديّ، ففرحت الرافضة بذلك، واستفحل أمر الأمير البَساسيري بفتح الموحدة وبالسين المهملة المكررة قبل الألف وبعدها وسكون المثناة مكررة قبل الراء وبعدها ثم جاءته الخلع والتقليد من مصر.

وفيها توفّي عبد الله بن الوليد الأنصاري الأندلسي الفقيه المالكي. وفيها توفي الشيخ

(١) في معجم البلدان: الجار: مدينة على ساحل بحر القلزم، بينها وبين المدينة يوم وليلة.

(٢) في معجم البلدان: عيذاب: بليدة على ضفة بحر القلزم، هي مرسى المراكب التي تقدم من عدن الى الصعيد.

عبد الغافر أبو الحسين محمد بن عبد الله الفارسي. وفيها توفّي أبو الحسن الفالي علي بن محمد بن علي المؤدّب، وأبو الحسن الباقلّاني علي بن ابراهيم بن عيسى البغدادي، وابن مسرور أبو حفص. قال عبد الغافر: هو حفص المارودي الزاهد الفقيه، كان كثير العبادة والمجاهدة، وكانوا يتبرّكون بدعائه رحمة الله عليه عاش سبعين سنة.

سنة تسع واربعين واربع مائة

فيها توفّي أبو العلاء أحمد بن عبد الله التنوخي المعرّي اللغوي الشاعر المشهور، صاحب التصانيف الكثيرة المشهورة، والرسائل البليغة المنشورة، والزهد والذكاء المفرط. كان متضلّعاً من فنون الأدب، قرأ النحو واللغة على أبيه بـ (المعرّة)، وعلى محمد بن عبدالله ابن سعد النحوي بحلب، وله من النظم: (لزوم ما لا يلزم) وهو كبير يقع في خمسة أجزاء وما يقارنها، وله (سقط الزند) أيضاً، وشرحه بنفسه وسمّاه: (ضوء السقط)، وله الكتاب المعروف (بالهمزة والردف) يقارب المائة جزء في الأدب أيضاً.

وحكي من وقف على المجلّد الأول بعد المائة من كتاب (الهمزة والردف) قال: لا أعلم ما كان يعوده بعد هذا وكان علّامة عصره في فنون ، وأخذ عنه أبو القاسم التنوخي والخطيب أبو زكريا التبريزي وغيرهما. ومن لطيف نظمه قوله:

لـو اختصـرتـم مـن الإحسـان زرتكـم   والعـذب يُهجـر لـلإفـراط فـي الخصر

(بالخاء المعجمة والصاد المهملة مفتوحتين وبالراء) البرد. ومن نظمه المشير به إلى فضله:

وإنّـي وإن كنـت الأخيـر زمـانـه   لآتٍ بمـا لـم يستطعـه الأوائـل

وكانت وفاته ليلة الجمعة ثالث وقيل ثاني عشر ربيع الأول من السنة المذكورة، وكانت أيضاً ولادته يوم الجمعة عند مغيب الشمس لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمائة بالمعرّة، وعمي من الجدريّ أول سنة سبع وستين، وغشي يمنى عينيه بياض، وذهبت اليسرى جملة. وشرح ديوان المتنبي، وسمّاه (كتاب لامع الغزنوي في شرح ديوان المتنبي) ولمّا فرغ من تصنيفه وقرىء عليه أخذ الجماعة في وصفه، فقال أبو العلاء: كأنمّا نظر إلى المتنبي بلحظ الغيب، حيث يقول:

أنـا الـذي نظـر الأعمـى إلـى أدبـي   وأسمعـتْ كلمـاتـي مَـنْ بـه صمـمُ

واختصر ديوان أبي تمّام وشرحه، وكذلك ديوان البحتري، وتولّى الانتصار بهم، وتنقدّ عليهم في مواضع، ودخل بغداد مرّتين قلت: وقد ذكر في (كتاب منهل المفهوم في

شرح ألسنة المعلوم) في قسم الإيماء:

حكي أنّه حضر مجلس الشريف المرتضى، وكان الشريف نقص من شعر المتنبي، والمعرّي يمدحه حتّى قال: لو لم يكن في شعره إلاّ قصيدة التي يقول فيها: (لك يا منازل في القلوب منازل) لكَفَى فأمر الشريف بإخراجه من المجلس مسجوناً، ثمّ قال: أتدرون ما عنى هذا الأعمى في القصيدة المذكورة؟ إنما أومأ فيها إلى قول المتنبي:

واذا أتتك مذمتّي من ناقص فهي الشهادة لي بأنّي كامل

انتهى قلت: وممّا يدلّك على فرط ذكاء أبي العلاء المعرّي، وفرط ذكاء الشريف، وفهمه ذلك في الحال. ثمّ رجع إلى المعرّة، وشرع في التصنيف، وسار إليه الطلبة من الآفاق، وكاتَبَه العلمَاء والوزراء وأهل الأقدار، أو قيل إنّه مكث مدّة خمس وأربعين سنة لا يأكل اللحم، يرى رأي الحكماء المتقدّمين، إذ لا يأكلونه، لكيلا يذبحوا الحيوان، إذْ لا يرون بإيلام الحيوانات مطلقاً.

قلت: وهو خلاف ما جاءت به الأنبياء والشرائع، ودلّ على جعله الإجماع ونصوص الآيات القواطع. ونظم الشعر وهو ابن إحدى عشرة سنة. ومن نظمه:

لا تطلبنْ بغير خطّ رتبة قلم البليغ بغير خطّ مغزل
سكن السما كان السماء كلاهما هذا له رمح وهذا أعزل

ويروى بغير حد. قلت: وقد نظمت ثلاثة أبيات، أوضحت فيها ما أشار إليه بمثال أولى من مثاله، فإنه أشرك بين السماكين في نيل المرتبة، مع كون أحدهما ذا آلة يكتسب بها المراتب وهي الرمح وأنا خصصت بالمرتبة الخالي منهما عن الآلة حيث قلت:

لو كان بالآلات خطّ يحصل والسعد يأتي والعطايا تجزل
ما كان في عالي المنازل رامح أو لم يجزها دون ذلك أعزل
لكنّه من دونه قد حازها في شرحه البدر المتمّم ينزل

وكلا النظمين في قوافيهما التزام ما لا يلزم ولما توفي رثاه تليمذه أبو الحسن بن همام بقوله:

إنْ كنت لم ترق الدماء زهادة فلقد أرقت اليوم من جفني الدما
سيّرت ذكرك في البلاد كأنّه مسك فسامِعَهُ يعطِّر أو فَما

قلت يعني أنّ طيب ثنائه يعطّر سامعه أو المتكلم به المثني عليه، واقتصر على الفم لضيق المقام في مساعدة الوزن على عموم المتكلّم دون تخصيص فيه، ويحتمل أنه أراد

بالتعطير تعميم السامع والمتكلّم يزكون. أو هنا بمعين الواو فحسب، ومثل ذلك قد يجيء، ومنه قوله تعالى ﴿وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون﴾ [الصافات/ ١٤٧] على رأي بعض المفسّرين، فإنه وإن لم يكن محمد عليه، فانّ القائل يقول بذلك، ما احتج إلا بما يصحّ الاحتجاج به، وهو وقوع أو موقع الواو، وإذا تتبّع ذلك وجد في الكلام الفصيح منه ما يكثر عدّه، فيما نبّهت عليه فائدة، وهي أنه لا يلزم من ردّ قوله: من احتجّ على علم بطلان حجّته، بل يردّ قوله لقيام دليل آخر على خلاف قوله، وإن كان احتجاجه صحيحاً في نفسه، وأشار في البيت الأول إلى ما كان يعتقده، ويدين به من عدم الذبح للحيوانات.

وفي السنة المذكورة توفّي أبو سعيد البجلي أحمد بن محمد بن عبد العزيز الرازي الحافظ. وفيها توفّي أبو عبدالله الخبازي المقرىء النيسابوري. وكان كبير الشأن وافر الحرمة مجاب الدعوة. وفيها توفّي أبو عثمان[1] الصابوني شيخ الإسلام الواعظ المفّسر، أحد الأعلام، شيخ خراسان. وفيها توفّي أبو الفتح الكرخي الخيمي رأس الشيعة صاحب التصانيف. كان نحوياً لغوياً منجّماً طبيباً متكلّماً، من كبار أصحاب الشريف المرتضى.

سنة خمسين واربع مائة

فيها توفّي الفقيه الكبير الإمام الشهير أبو الطيب طاهر بن عبدالله بن طاهر الطبري الشافعي. كان ديّناً ورعاً عارفاً بالأصول والفروع، محقّقاً في علمه، سليم الصدر، حسن الخلق، صحيح المذهب، يقول الشعر. ومن شعره ما أرسل به بالغزالي لأبي العلاء المعري حين أتى بغداد:

وما ذات درّ لا يحل لحالب ... تناولها واللحم منها محلل
لمن شاء في الحالين حّياً وميتاً ... ومنْ رام شرب الدّر فهو مضلّل
إذا طعنت في السن فاللحم طيب ... وآكله عند الجميع معقل
وخوف بها للأكل فيها كزازة ... فما لحضيض الرأي فيه مأكل
وما يجتبي معناه إلا مبرز ... عليم بأسرار القلوب محصّل

فأجابه المعري مملياً على الرسول ارتجالاً:

جوابان عن هذا السؤال كلاهما ... صواب وبعض القائلين مضلّل
فمن ظنّه كرْماً فليس بكاذب ... ومنْ ظنّه نخلاً فليس يجهل
لحومهما الأعناب والرطب الذي ... هو الحبل والدّر الرحيق المسلسل

---

(١) في الكامل لابن الأثير: ٨/ ٨١: وفيها في صفر توفي أبو عثمان اسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني مقدم أصحاب الحديث بخراسان.

ولكــنّ ثمــار النخــلِ وهــي غضيضــة ... تــراهــا وغــضّ الكــرم يجبــى ويــؤكــل
يكلفنــي القــاضــي الجليــل مســائــلاً ... هــي النجــم قــدْراً بــل أعــزّ وأطــول

فأجابه أبو الطيب:

أثــار ضميــري نــاظمــاً مــن نظيــره ... مــن النــاس طــرّاً شائــع الفضــل يكمــل
ومــن قبلــه كتــب العلــوم بــأسـرهــا ... وخــاطــره فــي جــدة النــار مشعــل
تســاوى لــه ســرّ المعــانــي وجهــرهــا ... ومعضلهــا بــادٍ لــديــه مفصّــل
فلمّــا أثــار الخبــأ قــاد منيعــه ... أسيــراً لأنــواع البيــان مكمــل
وقــربــه مــن كــلّ فهــم بكشفــه ... وإيضــاحــه حتــى رآه المغفّــل
وأعجــب منــه نظمــه الــدّر مســرعــاً ... ومــرتجــلا مــن غيــر مــا يتمهّــل
فيفخــر مــن يجــر ويسمــو مكــانــه ... جــلالاً لــه حيــث الكــواكــب ينــزل
فهنّــأه الله الكــريــم بفضلــه ... محــاسنُــه جــمّ وعمــر مطــوّل

فأجابه المعرّي مرتجلاً مملياً على الرسول:

ألاأيّهــا القــاضــي الــذي بلهــاتــه ... سيــوف علــى أهــل الخــلاف تسلســل
فــؤادك معمــور مــن العلــم أهلــه ... وجــدّك فــي كــل المســائــل مقبــل
فــإنْ كنــت بيــن النــاس غيــر ممــوّل ... فــأنــت مــن الفهــم المصــون ممــوّل
إذا أنــت خــاطبــت الخصــوم مجــادلاً ... فــأنــت وهــمْ حــاكــي الحمــام وأجــدل
كــأنّــك مــن فــي الشــافعــي مخــاطــب ... ومــن قلبــه تملــى فمــا تتمهّــل
وكيــف بــذي علــم ابــن ادريــس دارســاً ... وأنــت بــإيضــاح الهــدى متكفّــل
تفضّلــت حتّــى ضــاق ذرعــي بشكــر مــا ... فعلــت وكفــي عــن جــوابــك أجهــل
لأنّــك فــي كنــه الثّــريــا مصــاحــب ... وأعلــى ومــن يبغــي مكــانــك أسفــل

مع أبيات أخرى حذفتها اختصاراً آخرها:

تجهلــت الــدنيــا بــإنّــك فــوقهــا ... ومثلــك حقــاً مــن بــه يتحمّــل

عاش القاضي أبو الطيب رحمه الله مائة وستين سنة[١].

قلت وربما سمعت من بعض شيوخنا: وعشرين سنة، ولم يهن عظمه حتّى حكى أنه أتى على نهر أو مكان يحتاج إلى طفرة كبيرة، فطفره، ثم قال: أعضاء حفظها الله تعالى في صغرها فقراها في كبرها، أو كما قال رضي الله تعالى عنه: وكذلك لم يحتلّ عقله ولا تغيّر

(١) في الكامل لابن الأثير: ٨/٨٧: وفيها في شهر ربيع الأول توفي القاضي ابو الطيب الطبري الفقيه الشافعي وله مائة سنة وسنتان.

فهمه، يفتي ويستدرك على الفقهاء الخطأ ويقضي ببغداد، ويحضر المراكب في دار الخلافة إلى أنْ مات.

تفقّه على أبي علي الزجاجي صاحب ابن القاضي في طبرستان وعلى أبي سعيد الإسماعيلي وأبي القاسم، تناكح بجَرْجَان، ثم ارتحل إلى نيسابور، وأدرك أبا الحسن الماسرجسي، فصحبه أربع سنين، وتفقّه عليه، ثم ارتحل إلى بغداد، وحضر مجلس الشيخ أبي حامد الأسفرائيني، وعليه اشتغل أبو إسحاق الشيرازي، وقال في حقّه: لم أرَ فيمن رأيت أكمل اجتهاداً وأشد تحقيقاً وأجود نظراً منه، وشرح مختصر المزني وفروع ابن حدّاد المصري، وصنّف في الأصول والمذهب والخلاف والجدل كتباً كثيرة.

وقال الشيخ أبو إسحاق: لازمتُ مجلسه بضع عشر سنة، ودرّست أصحابه في مسجده سنتين بإذنه، واستوطن ببغداد، وولي القضاء بربع الكرخي بعد موت عبدالله الصيمري، ولم ينزل على القضاء إلى حين وفاته رحمه الله تعالى.

وفيها توفّي الإمام النحرير الكبير، أقضى القضاة أبو الحسين علي بن محمد البصري الماوردي الشافعي، مصنّف (الحاوي الكبير) النفيس الشهير و(الإقناع) و(أدب الدنيا والدين) و(الأحكام السلطانية) و(قانون الوزارة وسياسة الملك) و(تفسير القرآن الكريم) و(القلب والعيون)، وصنّف في أصول الفقه والأدب وغير ذلك، وكان إماماً في الفقه والأصول والتفسير، بصيراً بالعربية، ولي قضاء بلاد كثيرة، ثم سكن بغداد، وعاش ستّاً وثمانين سنة، تفقه على أبي القاسم الصيمري بالبصرة، وعلى الشيخ أبي حامد الأسفرائيني ببغداد، وحدّث عن جماعة، وكان حافظاً للمذهب. درس العلوم.

وروى عنه الخطيب صاحب تاريخ بغداد: وانتفع الناس به، وقيل إنه لم يُظهر شيئاً من تصانيفه في حياته، وإنما جمع جميعاً في موضع، فلمّا دنتْ وفاته قال لشخص يتولاّه: الكتبُ التي في المكان الفلانيّ كلّها تصنيفي، وإنمّا لم أظهرها لأني لم أجد نيّة خالصة لله تعالى، فإذا عاينت الموت، ووقعت في النزع، فاجعل يدك في يدي، فإن قبضتُ عليها، وعصرتها، فاعلم أنه لم يقبل من سنن منها، فالقها في دجلة، وإن بسطتُ يدي ولم أقبض على يدك، فاعلم أنّها قد قبلت، وقد ظفرت بما كنت أرجوه. ففعل الموصي ذلك، فبسط يده، ولم يقبضها على يده، فعلم أنها علامة القبول، فأظهر كتبه بعده.

وذكر الخطيب في أول تاريخ بغداد عن الماوردي قال: كتب إليّ أخي من البصرة وأنا ببغداد: طيب الهوى ببغداد يشوقني قدماً إليها، وإن علقت مقادير، فكيف صبري عنها الآن، إن جمعت طيب هوائين ممدود ومقصور. وقيل إنّه لما خرج من بغداد راجعاً إلى

البصرة كان ينشد أبيات ابن الأحنف:

أقمنـــا كـــارِهيـــن لهـــا فلمّـــا ... ألفنـــاهـــا خـــرجنـــا مكْـــرَهينـــا
ومـــا حـــبّ البـــلاد بنـــا ولكـــنّ ... أمـــرّ العيـــش فـــرقـــة مـــن هَـــوِينـــا
خـــرجـــت أقـــرّ مـــا كـــانـــت بعينـــي ... وخلّفـــت القـــرارَ بهـــا رَهينـــا

والماوردي نسبة إلى الماورد، وعمره ستّ وثمانون سنة، رحمة الله عليه.

سنة احدى وخمسين واربع مائة

فيها توفّي أبو المظفّر عبد الله بن شبيب الضبي، مقرىء أصبهان وخطيبها وواعظها وشيخها وزاهدها.

سنة اثنتين وخمسين وأربع مائة

فيها توفّي شيخ الإقراء بمصر: محمد بن أحمد المقرىء (بِقَزْوِين)[1]، أخذ عن طاهر ابن غلبون، وسمع من أبي الطيب والد طاهر، وعبد الله الكلابي، وطائفة.

سنة ثلاث وخمسين واربع مائة

فيها توفي أبو العباس ابن نفيس شيخ القرّاء أحمد بن سعيد المصري.

وفيها توفي نصر الدولة صاحب ديار بكر، أحمد بن مروان الكردي، ملك بعد أن قتل أخوه منصور بن مروان، وكان رجلاً مسعوداً على الهمّة، حسن[2] السياسة، كبير الحزم. وحكى بعض المؤرخين أنّ نصر الدولة المذكور لم يصادر في دولته أحداً سوى شخص واحد، وأنّه لم تفته صلاة الصبح عن وقتها، مع انهماكه في اللّذات، وإنه كان له ثلاثمائة وستون جارية، يخلو في كلّ ليلة من ليالي السنة بواحدة منهنّ، ثم لا يعود القربة إليها إلا في تلك الليلة من العام الثاني، وأنه قسّم أوقاته، فمنها ما ينظر فيه مصالح دولته، ومنها ما يجتمع فيه بأهله والدابة[3]، ويصل إلى الدابة ويقضي أوطاره.

سنة أربع وخمسين واربع مائة

فيها بلغت دجلة إحدى أو عشرين ذراعاً وغرقت بغداد.

وفيها انتصر المسلمون على الروم، وغنموا وسبوا حتّى بيعت السرية الخبّازة بمائة

---

(١) قزوين: مدينة مشهورة بينها وبين الري سبعة وعشرون فرسخاً. معجم البلدان.
(٢) انظر الوافي بالوفيات للصفدي: ٦/٨/١٧٦، ١٧٧.
(٣) أيضاً في المصدر السابق: وألزامه.

درهم.

وفيها توفّي أبو نصر زهير بن الحسن الرضي، الفقيه الشافعي، مفتي خُراسان، والإمام المقرىء الزاهد، أحد العلماء العاملين. قال أبو سعيد السمعاني: كان مقرئاً كثير التصانيف، حسن العيش، قانعاً منفرداً عن الناس، يسافر وحده، ويدخل البراري. سمع بمكة وبالريّ ونيسابور وبجَرْجان وبأصبهان وببغداد وبالبصرة وبالكوفة وبدمشق وبمصر وكان من أفراد الدهر.

وفيها توفي القاضي أبو عبدالله محمد بن سلامة الفقيه الشافعي، قاضي الديار المصرية، القضاعي مصنّف (كتاب الشباب) و(كتاب مناقب الإمام الشافعي) و(كتاب الأنباء عن الأنبياء) و(تواريخ الخلفاء)، قال ابن ماكولا: كان متفنناً في عدّة علوم، لم أرَ بمصر من يجري مجراه. وذكر السمعاني في (كتاب الذيل) أنه حجّ الخطيب والقضاعي سنة خمس وأربعين وأربعمائة، فسمع الخطيب منه.

وفيها توفّي شرف الدولة ابن باديس (بالموحّدة قبل الألف) ابن منصور الحميري الصنهاجي، صاحب إفريقية وما والاها من بلاد المغرب. وكان الحاكم صاحب مصر قد لقبّه شرف الدولة، وسيّر له تشريفاً وسجلاً، وكان ملكاً جليلاً عالي الهمّة، محبّاً لأهل العلم، كثير العطاء، وكان واسطة عقد بيته، ومدحه الشعراء وانتجعه الأدباء، وكانت حضرته محطّ ذوي الآمال. وكان مذهب أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه بإفريقية أظهر المذاهب ، فحمل أهل المغرب على التمسك بمذهب مالك بن أنس رضي الله تعالى عنه وحسم مادّة الخلاف في المذهب، واستمر الحال في ذلك إلى الآن، وقطع خطبة المستنصر بالله العُبيدي، وخلع طاعته، وخطب الإمام للقائم بأمر الله خليفة بغداد، واستمرّ على ذلك. وأخبار المعزّ بن باديس كثيرة، وسيرته شهيرة، وله شعر قليل. وكان يوماً جالساً في مجلسه، وعنده جماعة من الأدباء، وبين يديه أُتْرُجَّة[1] ذات أصابع، فأمرهم فيها شعراً، فقال ابن رشيق شعراً:

أتــرجــة سبطــة الأطبــاق نــاعمــة ... تلقــى العيــون بحســن غيــر منحــوس
كــأنمّــا بسطــت كفّــاً لخــالقهــا ... تــدعــو لطــول بقــاء لابــن بــاديــس

سنة خمس وخمسين واربع مائة

فيها توفّي أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سَلْجوق (بفتح السين المهملة وسكون اللام وبالقاف) أوّل ملوك السلجوقية، كانوا يسكنون قبل استيلائهم على الممالك فيما وراء النهر، قريباً من بخارى، كانوا عدداً غير محصور، لا يدخلون تحت طاعة سلطان، فإذا قصدهم

(١) الأترجّة: من جنس الليمونة تسمّية العامة الكبّار.

جمع لا يقوون عليه دخلوا المفاوز، وتحصّنوا بالرمال، وجرت لهم مع ولاة خراسان أمور يطول ذكرها وشرحها، وحاصل الأمر أنّهم استظهروا على الولاة، وظفروا بهم، وملكوا البلاد، وكان ابتداء أمرهم في سنة تسع وعشرين وأربعمائة، وكان السلطان أبو طالب محمد المذكور كبيرهم، وإليه الأمر والنهي في السلطنة، وأخذ أخوه داود مدينة بَلْخ[١]، واتّسع لهم الملك، واقتسموا البلاد، وانحاز السلطان مسعود إلى غَزْنة ونواحيها، وكانوا يخطبون له في أول الأمر ، فعظم شأنهم إلى أن راسلهم القائم بأمر الله وكان الرسول بينهم وبينه القاضي أبا الحسن علي بن حبيب الماوردي مصنّف (الحاوي الكبير) في الفقه، وكان السلطان محمد المذكور حليماً محافظاً على الصلوات الخمس في أوقاتها جماعة، وكان يصوم الاثنين والخميس، ويكثر الصدقات، ويبني المساجد، ويقول استحي من الله تعالى أن أبني داراً لا أبني إلى جانبها مسجداً. ثم إنه تمهّدت له البلاد، وملك العراق وبغداد، وسيرّ إلى الإمام القائم يخطب إليه بنته، فشقّ على القائم، واستعفى منه، وتردّدت الرسل بينهما، فلم يجد من ذلك بدّاً، فزوّجه بها، وعقد العقد بمدينة تِبْريز، ثم توجّه إلى بغداد فلما دخلها طلب الزفاف، وحمل مائة ألف دينار برسم حمل القماش ونقله، فزفّت إليه بدار المملكة، وجلست على سرير ملبس من ذهب، ودخل السلطان إليها، فقبّل الأرض بين يديها، ولم يكشف البرقع عن وجهها في ذلك الوقت، وقدّم لها تحفاً يقصر الوصف عن ضبطها، وقبّل الأرض، وقدّم وانصرف، فظهر عليه السرور. وبالجملة، فأخبار الدولة السلجوقية كثيرة ومقصودنا الاختصار وسنذكر جماعة من ملوكهم في السنين التي توفّوا فيها إن شاء الله تعالى. وتوفّي السلطان المذكور يوم الجمعة، ثامن عشر رمضان من السنة المذكورة.

وذكر عنه السمعاني أنه قال: رأيت وأنا بخراسان في المنام، كأنّي رفعت إلى السماء وأنا في ضباب لا أبصر شيئاً، غير أني أشمّ رائحة طيبة، فنوديت: أنت قريب من الباري جلّت قدرته فسلْ حاجتك تُقض؛ فقلت في نفسي: أسألك طول العمر، فقيل: لك سبعون سنة، فقلت: يا ربّ؛ لا يكفيني، فقيل: لك سبعون سنة.

ولمّا حضرته الوفاة قال: إنمّا مثلي مثل شاة شدّت قوائمها بحبل الصوف، فنظنّ أنها تذبح، فتضطرب، حتّى إذا أطلقت تفرح، ثم تشدّ للذبح، فتظنّ أنها تشدّ بحبل الصوف للذبح فتسكن، فتذبح، وهذا المرض الذي أنا فيه هو شدّ القوائم للذبح. ـ فمات منه ـ رحمه الله تعالى وعمره سبعون سنة.

وفيها توفّي أبو طاهر أحمد بن محمود الثقفي الأصبهاني المؤدبّ. وكان صالحاً ثقة سنياً كثير الحديث.

---

(١) بلخ: مدينة مشهورة بخراسان. معجم البلدان.

سنة ست وخمسين واربع مائة

فيها قبض السلطان[١] ألب أرسلان على الوزير عميد الملك الكندري، ثم قتله في آخر العام المذكور، وحمل رأسه إلى نيسابور، وكان قد جبّ مذاكيره لأمر، وتفرّد بوزارته نظام الملك الطوسي، فأبطل ما كان عمله العميد وسلطانه من سبّ الأشعرية على المنابر، وانتصر للشافعية، وأكرم زين الإسلام أبا القاسم القشيري وإمام الحرمَيْن أبا المعالي الجُوَيْني. وكان العميد المذكور من رجال الدهر جوداً وشجاعة وسخاء وكفاية وشهامة، مدحه الشعراء منهم: أبو الحسين الباخرزي ويقال متغزلاً في قصيدة:

اكـــدي بجـــاري ودّ كـــلّ قـــريـــن ... أم هـــذه شيـــم الظبـــاء العيـــن
قصّـوا علـيّ حـديـث مـن قيـد الهـوى ... إنّ التـــأسّـــي روح كـــلّ حـــزيـــن
ولئـــن كتمتـــم مشفقيـــن لقـــد درى ... بمصـــارع العـــذراء والمجنـــون

إلى أن قال بعد غزل طويل:

فـــإذا عميـــد الملـــك حلّـــى ربعـــه ... طـــرفـــاً تعـــال الطـــائـــر الميمـــون
ملـــك إذا مـــا العـــزم حـــثّ جيـــاده ... مـــزجـــت بـــأزهـــر شـــامـــخ العـــرنيـــن

وفيها توفّي الحافظ عبد العزيز بن محمد النخشبي، وكان من كبار الحفاظ.

وفيها توفّي أبو القاسم عبد الواحد بن علي بن بَرهان (بفتح الموحدة) العكبري النحوي، صاحب التصانيف. قال الخطيب: كان متضلّعاً بعلوم كثيرة، منها النحو واللغة والنسب وأيام العرب والمتقدّمين. وله أنس شديد بعلم الحديث. وكان فقيهاً حنفياً، أخذ علم الكلام عن أبي الحسين البصري، وتقدّم فيه.

وفيها توفّي أبو علي الحسن بن رشيق، أحد الفضلاء، صاحب التصانيف المليحة والرسائل الفائقة والنظم الجليل. سكن القيروان ولم يزل إلى أن هجم العرب، وقتلوا أهلها، وأخربوها، فانتقل إلى جزيرة صقليّة، وأقام بمارز إلى أن توفّي بها، وهي قرية في الجزيرة المذكورة، وينسب الإمام المارزي إليها. ومن شعر ابن رشيق المذكور .

أحـــبّ أخـــي وإن أعـــرضـــت عنـــه ... وقـــلّ علـــى مســـامعـــه كـــلامـــي
ولـــي فـــي وجهـــه تقطيـــب راضٍ ... كمـــا قطّبـــت فـــي وجـــه المـــدام
وربّ تقطـــب مـــن غيـــر بغـــض ... وبغـــض كـــان مـــن تحـــت ابتســـامـــي

---

(١) انظر ذلك في الكامل لابن الأثير: ٩٦/٨.

ولـه:

يــا ربّ لا أقــوى علــى دفــع الأذى ... وبــك أستغيــث مــن الضعيــف المــوذي
مــا لــي بعثــت إلــيّ ألــف بعــوضــة ... وبعثــــت واحــــدة إلــــى نمــــرود

ولـه:

وقــائلــة مــاذا الشجــون وذا الضنــا ... فقلــت لهــا قــول المشــوق المتيّــم
هــواكِ أتــانــي وهــو ضيــف أعــزه ... فــأطعمتــه لحمــي وأسقيتــه دمــي

وفيها توفّي الإمام العلاّمة أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري الأموي مولاهم، الفارسي الأصل، الاندلسي القرطبي، صاحب المصنّفات. مات مشرداً عن بلده من قبل الدولة، وكان إليه المنتهى في الذكاء وحدّة الذهن، وسعة العلم بالكتاب والسنّة، والمذاهب والملل والنحل، والعربية والأدب، والمنطق والشعر، مع الصدق والديانة والحشمة، والسؤدد والرئاسة والثروة وكثرة الكتب، هكذا وصفه الذهبي بهذه الأوصاف.

وقال ابن خلّكان: كان حافظاً عالماً بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطاً للأحكام من الكتاب والسنّة بعد أن كان شافعيّ المذهب انتقل إلى مذهب أهل الظاهر، وكان متفنّناً في علوم جمّة عاملاً بعلمه زاهداً في الدنيا بعد الرئاسة التي كانت له، ولاية من قبله في الوزارة وتدبير الممالك، متواضعاً ذا فضائل جمّة، وتواليف كثيرة، وسمع سماعاً جمّاً وألّف في فقه الحديث كتاباً سمّاه (الإيصال إلى فهم كتاب الخصال) الجامعة لجمل شرائع الإسلام في الواجب والحلال والحرام والسنّة والإجماع، أورد فيه أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أئمة المسلمين، وكتب أخرى كثيرة منها (كتاب اظهار تبديل اليهود والنصارى في التوراة والإنجيل) وبيان تناقص ما بأيديهم من ذلك، ممّن ما لا يحتمله التأويل. وهذا معنى لم يسبق إليه و(كتاب التقريب بحدّ المنطق) و(المدخل) أتى فيه بالأمثال العامة والأمثلة الفقهية، سلك في بيانه وإزالة سوء الظن عنه وتكذيب المحرفين به طريقة لم يسلكها أحد قبله. وكان شيخه في المنطق محمد بن الحسن المذْحِجي (بسكون الذال المعجمة وكسر الحاء المهملة والجيم) المعروف بابن الكتّاني، وكان أديباً شاعراً طبيباً، له في الطب رسائل وكتب في الأدب.

وقال الحافظ أبو عبدالله محمد بن فتوح الحميدي: ما رأينا مثله فهماً، اجتمع له مع الذكاء وسرعة الحفظ وكرم النفس واليدين، وما رأيت من يقول الشعر في البديهة وأسرع منه. ثم قال: أنشدني لنفسه:

لئــن أصبحــت مــرتحــلاً بجسمــي ... فــروحــي عنــدكــم أبــداً مقيــم

ولكـــن للعيـــان لطيـــف معنـــى بنظـــرتنـــا إلـــى وجـــه الكليـــم

وروى الحافظ الحميدي له أيضاً:

أقمنـــا ســـاعـــة ثـــم ارتحلنـــا وما يغنـي المشـوق وقـوف ساعَـه
كـأن الشمـل لـم يَـكُ ذا اجتمـاع إذا مـا شتّـت البيـن اجتمـاعَـهْ

ومن شعره أيضاً:

وذي عـدل فيمـن سيـأتـي حسنـه يطبـل مـلامـي فـي الهـوى ويقـول
أفـي حسـن وجـه لاح لـم تـرَ غيـره ولـم تـدرِ كيـف الجسـم أنـت قتيـل
فقلـت لـه أسـرفـت فـي اللّـوم ظـالمـاً وعنـدي ردّ لـو أردتُ طـويـل
ألـم تـرَ أنـي ظـاهـريّ وأننـي علـى مـا بـدا حتّـى يقـوم دليـل

قلت في قوله هذا مناقشة، وهي أن لا يكون الوجه الظاهر مستحيلاً في العقد كما في صفات الله في الاستواء والنزول إلى سماء الدنيا، وأن لا يكون مخالفاً للقياس الجليّ، كما هو معلوم في التشنيع على داود الظاهري في تنجّس الماء بالبول فيه، ولا يتنجّس بالتغوّط فيه. قالوا وكان كثير الوقوع في العلماء المتقدّمين، لا يكاد أحد يسلم من لسانه، فنفرت عنه القلوب، واستهدف من فقهاء وقته، فتمالؤوا على بغضه، وردّوا قوله، واجتمعوا على تضليله، وشنعوا عليه، وحذّروا سلاطينهم من فتنته، ونهوا عوامّهم عن الدنوّ إليه والأخذ عنه، فاقتصّته الملوك، وشرّدوه عن بلادهم حتّى انتهى إلى بادية فمات بها.

وقال أبو العباس بن العرّيف: كان لسان ابن حزم وسيفُ الحجّاج بن يوسف شقيقَيْن، يعني بذلك كثرة وقوعه في الأئمة، كما قد عرف من صنيع الحجّاج بهم وسفكه لدمائهم. وكان والد ابن حزم المذكور وزير الدولة العامرّية أي وزير أبي تمّام المنصور في بلاد المغرب، وكان من أهل العلم والأدب والخير، وقال ولد ابن حزم: أنشدني والدي في بعض وصاياه لي رحمه الله تعالى.

إذا شئـت أن تحبني غنّيـاً فـلا تكـن علـى حـالـة إلاّ رضيـت بـدونهـا

سنة سبع وخمسين واربع مائة

فيها توفي العيّار سعيد بن أبي سعيد وأبو عثمان أحمد بن محمد النيسابوري.

سنة ثمان وخمسين واربع مائة

فيها ولدت بنت لها رأسان ورقبتان ووجهان على بدن واحد ببغداد.

وفيها توفّي الإمام الكبير الحافظ النحرير أحمد بن الحسين البيهقي الفقيه الشافعي، واحد زمانه وفرد أقرانه في الفنون، من كبار أصحاب الحاكم أبي عبدالله بن البيع في الحديث الزائد عليه في أنواع العلوم، له مناقب شهيرة وتصانيف كثيرة بلغت ألف جزء، نفع الله تعالى بها المسلمين شرقاً وغرباً وعجماً وعرباً، لفضله وجلالته وإتقانه وديانته تغمّده الله برحمته غلب عليه الحديث، واشتهر به، ورحل في طلبه إلى العراق والجبال والحجاز، وسمع بخراسان من علماء عصره، وكذلك بقيّة البلاد التي انتهى إليها، وأخذ الفقه عن أبي الفتح ناصر بن محمد العمري المروزي، وهو أول من جمع نصوص الشافعي في عشر مجلدات. ومن مشهور مصنّفاته (السنن الكبير) و(السنن الصغير) و(دلائل النبوة والسنن والآثار) و(الخلافيات) وهو من الكتب الباهرة و(شعب الايمان) و(مناقب الإمام الشافعي) و(مناقب الإمام احمد) و(الأسماء والصفات) (والبعث والنشور) و(كتاب الاعتقاد) و(كتاب الدعوات) و(كتاب الزهد) و(كتاب المدخل) و(كتاب الآداب) و(كتاب الترغيب) و(كتاب الأسرار). قال الشيخ الإمام عبد الغافر الفارسي: كان على سيرة العلماء قانعاً باليسير من الدنيا، محموداً في زهده وورعه. وذكر غيره أنه سرد الصوم ثلاثين سنة، وذكر بعضهم أن مشايخه نحو المائة، قال: وليسوا بالنسبة إلى علومه بكثير ولكن بورك للرجل في ذلك، لكنه سمع مصنّفات عديدة، ومع هذا فاته أشياء منها: مسند الإمام. هكذا قال في الأصل، وكأنه يعني الإمام أحمد. ومنها سنن النسائي وابن ماجة وجامع الترمذي، كلّ هذه ليست عنده إلا ما قلّ منها، وقال إمام الحرمين في حقّه: ما من شافعي المذهب إلا وللشافعي عليه منّة إلا أحمد البيهقي، فإن له على الشافعي منّة، فإنه كان أكثر الناس نصراً لمذهب الشافعي. وطلب إلى نيسابور لنشر العلم، فأجاب، وانتقل إليها، وكان على سيرة السلف، وأخذ عنه الحديث جماعة من الأعيان كالفراوي وعبد المنعم القشيري وزاهر وغيرهم. وكان مولده في شعبان سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، ونسبته إلى بَيْهَق (بفتح الموحدة وسكون المثناة من تحت وبعد الهاء المفتوحة قاف) وهي قرى مجتمعة بنواحي نيسابور على عشرين فرسخاً منها.

وفيها توفّي الفقيه الإمام القاضي أبو عاصم محمد بن محمد بن أحمد العبادي الهروي الشافعي، وكان إماماً متقناً، انتقل في البلاد، ولقي خلقاً من المشايخ وأخذ عنهم، وصنّف كتباً نافعة، منها (المبسوط) و(الهادي إلى مذهب العلماء) و(الردّ على السمعاني) و(أدب القضاء) و(طبقات الفقهاء)، وسمع الحديث ورواه.

فيها توفّي القاضي أبو يعلى[1] شيخ الحنابلة البغدادي فقيه عصره في مذهبه.

---

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي: ٦/٣/٧: القاضي أبو يعلى ابن الفرّاء الحنبلي: هو محمد بن الحسين ابن محمد بن خلف بن أحمد «أخو أبي خازم الحنبلي». ولد في المحرم. سنة ثمانين وثلاثمائة.

وفيها توفّي ابن سيدة أبو الحسن علي بن اسماعيل الحافظ، كان إماماً في اللغة والعربية، وكان حافظاً لهما، وله (كتاب المحكم) و(المخصّص)، كلاهما في اللغة، و(كتاب الأنيق) ستة مجلّدات في شرح الحماسة، وغير ذلك. ووجد على ظهره مجلّد من المحكم بخطّ بعض الفضلاء: إنّ ابن سيّدة دخل المتوضّي وهو صحيح، فأخرج منه وقد سقط لسانه، وانقطع كلامه، ثم مات بعد يومين نسأل الله تعالى العفو والعافية.

سنة تسع وخمسين واربع مائة

في ذي القعدة منها فرغت عمارة المدرسة النظامية التي أنشأها الوزير نظام الملك، وقرّر لتدريسها الشيخ أبا إسحاق الشيرازي، فاجتمع الناس، ولم يحضر، إذ لقيه في الطريق صبّي وقال: كيف تدرّس في مكان مغصوب؟ فرجع، واختفى. فلما أيسوا من حضوره وقد اجتمع فيها وجوه الناس وقالوا: إما ينبغي أن ينصرف هذا الجمع من غير تدريس. فأرسل إلى أبي نصر الصبّاغ مصنّف الشامل فدرّس. فلمّا وصل الخبر إلى الوزير أقام القيامة على العميد أبي سعيد، فلم يزل يرفق بالشيخ أبي إسحاق حتى درّس، وعمد إلى قبر الإمام الأعظم أبي حنيفة الكوفي رضي الله تعالى عنه فبنى عليه قبّة عظيمة، وأنفق عليها أموالاً جسيمة.

وفي السنة المذكورة توفّي أبو نصر أحمد بن عبد الباقر الموصلّي، وأبو مسلم الأصبهاني الأديب المفسّر المقرىء.

سنة ستين واربع مائة

فيها أو قبلها كان غلاء عظيم بمصر.

وفيها كانت الزلزلة التي هلك فيها بالرَّمْلَة وحدها على ما ذكر ابن الأثير خمسة وعشرون ألفاً، وقال: انشقّت الصخرة ببيت المقدس، وعادت بإذن الله تعالى، وأبعد الله سبحانه البحر عن ساحله مسيرة يوم[1].

وفيها توفي عبد الدائم بن الهلال الجوزاني ثم الدمشقي، والواسطيّ أبو الجوائز الحسن بن عليّ الكاتب. كان من الفضلاء أديباً شاعراً حسن الشعر، ومن شعره:

دع الناس طرّاً واصرف الودّ عنهم ... إذا كنت في أخلاقهم لا تسامح
ولا تبغِ من دهر بظاهر ريقةً ... صفاء بنيه في الطباع جوامح

(١) في الكامل لابن الأثير: ١٠٦/٨: فنزل الناس إلى أرضه يلتقطون منه فرجع الماء عليهم فأهلك منهم خلقاً كثيراً.

شيئـان معـدومـان فـي الأرض: درهـم حـلال وَخِـلٌ افـي الحقيقـة نـاصـح

ولــه:

وبـرانـي الهـوى بـري المـدى وأذا بنـي صـدودك حتّـى صـرت أنحـل مـن أمـسِ
ولســت أرى حتّــى أراك وإنمــا يبيــن هبــاء الــذرّ فــي ألــقِ الشمــس

سنة احدى وستين واربع مائة

فيها توفّي الفُوراني (بالنون قبل ياء النسبة) عبد الرحمن بن محمد بن فُوْرَان المروزي، شيخ الشافعية وتلميذ القفّال صاحب التصانيف الكثيرة في الأصول والمذهب والخلاف والجدل والملل والنحل. انتهت إليه رئاسة الطائفة الشافعية، وطبق الأرض بالتلامذة، وله في المذهب الوجوه الجيّدة، وصنّف فيه (كتاب الإبانة) وهو كتاب مفيد، وحكى بعض فضلاء المذهب أن إمام الحرمين كان يحضر حلقته وهو شاب ولا يصغي إلى قوله، فبقي في نفسه منه شيء، فمتى قال في النهاية، وقال بعض المصنّفين كذا وغلط في كذا، فمراده الفُوراني، هكذا قيل والله أعلم (وهو بضم الفاء وسكون الواو وبالراء قبل الألف وبعدها نون ثم ياء النسبة) وعنه أخذ أبو الحسن المتولّي صاحب اليتيمة.

وفيها توفّي عبد الرحمن بن أحمد البخاري الحافظ. وأبو الحسين محمد بن مكّي الأزدي المصري، وأبو الحسين نصر بن عبد العزيز الفارسي الشيرازي.

سنة اثنتين وستين وأربع مائة

فيها: أقبلت جيوش الروم[١]، فنزلوا على مَنْبِجَ فاستباحوها، وأسرعوا الكرّة لفرط القحْط حتّى بيع فيهم رطل الخبز بدينار.

وفيها أقيمت الخطبة العبّاسية في الحجاز، وقطعت خطبة المصريين لاشتغالهم بما هم فيه من القحط والوباء الذي لم يسمع في الدهور بمثله، وكاد الخراب يستولي على وادي مصر[٢]، حتّى نقل صاحب مرآة الزمان أنّ امرأة خرجت وبيدها مدّ جوهر فقالت: من يأخذه بمدّبر؟ فلم يلتفت إليها أحد، فألقته في الطريق، وقالت: هذا ما نفعني وقت الحاجة فلا أريده، فلم يلتفت إليه أحد. هكذا ذكروا لله تعالى أعلم بصحّته ولما جاءت الشارة بإقامة الدعوة للعباسيين بمكّة أرسل السلطان ألب أرسلان إلى صاحبها محمد بن أبي هاشم ثلاثين

(١) انظر الكامل لابن الأثير: ٨/ ١٠٧.
(٢) في الكامل لابن الأثير: ٨/١٠٨: وكان بمصر غلاء شديد ومجاعة عظيمة حتى أكل الناس بعضهم بعضاً، وفارقوا الديار المصرية.

ألف دينار وخلعاً.

وفيها توفّي الإمام الكبير الفقيه الشهير القاضي حسين بن محمد المروزي، شيخ الشافعية في زمانه، صاحب التعليقة في الفقه، والوجوه الغريبة، أخذ عنه الفقه عن الإمام أبي بكر القفّال المروزي، وصنّف في الأصول والفروع والخلاف، ولم يزل يحكم بين الناس، ويدرّس، ويفتي، أخذ عنه الفقه جماعة من الأعيان، منهم أبو محمد الحسين بن مسعود الفرّاء البغوي صاحب كتاب التهذيب، وشرح السنّة وغيرهما، قلت: كلمّا أطلق العلماء الشافعية في الفروع من لفظ القاضي فالمراد به القاضي حسين المذكور.

وامّا في الأصول إذا أطلق ذلك أهل السنّة فالمراد به القاضي أبو بكر الباقِلّاني، وإذا قالوا: القاضيان، فالمراد بهما: هو والقاضي عبد الجبار المعتزلي، وإذا أطلقوا الشيخ، فالمراد به أبو الحسن القشيري وعند الفقهاء المراد به الشيخ أبو محمد الجُوَيْني وإذا أطلقوا الإمام، فالمراد به عند الفقهاء وبعض الأصوليين إمام الحرمَيْن. وأكثر الأصوليين يريدون به فخر الدين الرازي.

وفيها توفي الإمام اللغوي أبو غالب[1] بن بُشران الواسطي الحنفي، ويعرف بابن الخالة.

وفيها توفّي السيد الجليل الفقه الإمام أبو عبدالله محمد بن عَتّاب (بفتح العين المهملة وتشديد المثناة من فوق وبعد الألف موحدة) الحرّاني مولاهم المالكي، مفتي قرطبة، وعالمها ومحدّثها وأورعها.

سنة ثلاث وستين واربع مائة

فيها أقام صاحب حلب محمود بن صالح الكلابي الخطبة العباسيّة[2]، ولبس الخطيب السواد وأخذت رعاع الرافضة حُصْر الجامع وقالوا: هذه حصر الإمام عليّ، فليأتِ أبو بكر بحصره، وجاءت محموداً الخلع مع طراد الذهبي[3]، ثم بعد قليل جاء السلطان ألب أرسلان وحاصر محموداً، فخرجت أمّه[4] بتقاديم وتحف فترحّل عنهم.

---

(١) في الوافي بالوفيات: ٦/ ٢/ ٨٢: ابن بشران اللغوي: محمد بن أحمد بن سهل أبو غالب الواسطي المعروف بابن بشران وبابن الخالة المعدّل الحنفي اللغوي شيخ العراق في اللغة.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير: ١٠٨/٨.

(٣) الصواب هو الزينبي، في الكامل لابن الأثير ١٠٨/٨: وأرسل الخليفة إلى محمود الخلع مع نقيب النقباء طراد بن محمد الزينبي.

(٤) وفيه أيضاً: ١٠٩/٨: فلما عظم الأمر على محمود خرج ليلاً ـ ومعه والدته منيعة بنت وثاب النميري ـ فدخلا على السلطان. . .

وفيها كانت الملحمة الكبرى، وخرج أرمانوس في مائتي ألف من الفرنج والروم والكُرْج بالجيم فوصلوا إلى منَازكِرْد[1] فبلغ السلطان كثرتهم، وما عنده سوى خمسة عشر ألف فارس، فصبّحهم على الملتقى وقال: إن استشهدت فإنني ملك شاه ولّي عهدي. فلما التقى الجمعان أرسل بطلب المهادنة، فقال طاغية الروم: لا هدنة إلاّ بالريّ، فاحتدّ ألب أرسلان وجرى المصافّ يوم الجمعة والخطباء على المنابر ونزل السلطان وعفرّ وجهه في التراب، وبكى وتضرّع، ثم ركب، وحمل فصار المسلمون في وسط القوم، وصدقوا فنزل النصر، وقتلوا الروم كيف شاؤوا، وانهزمت الروم، وامتلأت الأرض بالقتلى، وأسِر أرمانوس، فأحضر إلى السلطان، فضربه ثلاث مقارع بيده، وقال: ألم أرسل إليك في الهدنة فأبيت؟ فقال: دعني من التوبيخ، وافعل ما تريد. قال: ما كنت تفعل بي لو أسرتني؟[2] قال: فما كنت تظنّ أن أفعل بك؟ قال: إما أن تقتلني وإمّا أنّ تشهرني في بلادك، وأبعدها العفو، قال: ما عزمت على غير هذه، ثم فدى نفسه بألف ألف وخمس مائة ألف دينار، وبكلّ أسير في مملكته، فخلع عليه، وأطلق له عدّة من البطارقة، وهادنه خمسين سنة، وشيّعه فرسخاً، وأعطاه عشرة آلاف دينار برسم الطريق، فقال: أين جهة الخليفة؟ فعرّفوه، فكشف رأسه، وأومى إلى الجهة بالخدمة. وأمّا المنهزمون ففقدوهم، ولمّا وصل هذا الخبر إلى أطراف بلده ترهّب، وتزهّد، وجمع ما أمكنه وكان مائتين وتسعين ألف دينار، فأرسله، وحلف أنه لا يقدر غيره، ثم إنه استولى على بلاد الأرمن.

وفي السنة المذكورة سار بعض أمراء الملك ألب أرسلان، فدخل الشام وافتتح الرَمْلة، وأخذها من المصريين، وحاصر بيت المقدس فأخذه منهم، ثم حاصر دمشق، وأغارت عسكره، وأخربوا أعمال دمشق.

وفيها توفي أبو حامد الأزهري أحمد بن الحسن النيسابوري، والحافظ أحد الأئمة صاحب التآليف المنتشرة في الإسلام أبو بكر الخطيب أحمد بن علي بن ثابت البغدادي. روى عن أبي عمر بن مهدي وابن الصلت الأهوازي وطبقتهما، ورحل إلى البصرة ونيسابور وأصبهان ودمشق والكوفة والري، وصنّف قريباً من مائة مصنّف، وفضله أشهر من أن يوصف، وأخذ الفقه عن أبي الحسين المحاملي والقاضي أبي الطيب الطبري. وكان فقيهاً نقلت عليه الحديث والتاريخ، توفي يوم الاثنين سابع ذي الحجّة. وقال السمعاني: في

(١) منازكرد، منازجرد: بلد مشهور بين خلاط وبلاد الروم، يعدّ في أرمينية، وأهله أرمن وروم. معجم البلدان.

(٢) في الكامل لابن الأثير: ٨/ ١١٠: فقال السلطان: ما عزمت أن تفعل بي إن أسرتني؟ فقال: أفعل القبيح. قال له: فما تظنّ أنني أفعل بك؟ قال: إما أن تقتلني وإما. . .

شوال. وكان الشيخ أبو إسحاق الشيرازي من جملة من حمل نعشه، وكان يراجعه في تصانيفه قلت يعني فيما يتعلق بالحديث، وذكر محب الدين النجّار بسنده أنّ أبا بكر بن زهر الصوفي كان قد أعد لنفسه قبراً إلى جانب قبر بشر الحافي، وكان يمضي إليه في كلّ أسبوع مرّة، وينام فيه ويقرأ فيه القرآن كله، فلمّا مات الفقيه الخطيب وكان قد أوصى أن يدفن إلى جانب قبر بشر جاء أصحاب الخطيب إلى ابن زهر، وسألوه أن يدفن الخطيب في القبر الذي أعدّه لنفسه، وأن يؤثره به، فامتنع من ذلك امتناعاً شديداً وقال: أعددته لنفسي منذ سنتين فيؤخذ منّي؟ فلما رأوا ذلك جاؤوا إلى الشيخ أبي سعيد الصوفي، وذكروا له ذلك، فاستحضره وقال له: أنا لا أقول اعطهم القبر، ولكن أقول لو أن بشراً الحافي في الأحياء، وأنت إلى جانبه، فجاء أبو بكر الخطيب ويقعد دونك، أكان يحسن منك أن تقعد أعلى منه؟ قال: لا، بل كنت أقوم وأجلسه في مكاني. قال: فكذا ينبغي أن يكون الآن. قال: فطاب قلبه، وأذن لهم في دفنه في القبر المذكور في باب حرب.

وكان الخطيب قد تصدق بجميع ماله وهو مائتا دينار، وفرّقها على أرباب الحديث والفقهاء والفقراء في مرضه، وأوصى أن يتصدّق عنه بجميع ما عليه من الثياب، ووقف جميع كتبه على المسلمين، ولم يكن له عقب. ورأيت له منامات صالحة بعد موته، وكان قد انتهى إليه علم الحديث وحفظه. قال ابن موكولا: لم يكن للبغداديين بعد الدارقطني مثل الخطيب.

وفيها توفي أبو علي حسان بن سعيد رئيس مَرْو الرُوذ(١) الذي عمّ خراسان بِرّه وأفضاله، وكان يكسي في كلّ عام ألف نفسٍ، وأنشأ الجامع المنيع.

وفيها توفي أبو عمرو المنبجي الهروي المحدّث كان ثقة صالحاً.

وفيها توفيت أمّ الكرام كريمة أحمد المروزية المجاورة بمكّة. روت الصحيح، وكانت ذات ضبط وفهم ونباهة، وما تزوّجت قطّ، وقيل إنها بلغت المائة، وسمع منها خلق، وفيها توفي أبو الغنائم الزجاجي البغدادي.

وفيها توفّي الحافظ أبو عمر بن عبد البر القرطبي، أحد الأعلام، وصاحب التصانيف وعمره خمس وتسعون سنة وخمسة أيام قيل: وليس لأهل المغرب أحفظ منه مع الثقة والدين والنزاهة والتبحّر في الفقه والعربية والأخبار. وله من التصانيف(كتاب التمهيد) لما في الموطأ من المعاني والأسانيد و(كتاب الاستدراك) لمذاهب علماء الأمصار فيما تضمّنه(الموطأ) من المعاني والرأي والآثار. و(كتاب الاستيعاب في اسماء الصحابة النجاب)

---

(١) في معجم البلدان: مرو الروذ: مدينة قريبة من مرو الشاهجان، بينهما خمسة أيام.

وكتاب (جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله) و(كتاب الدرر في اختصار المغازي والسير) و(كتاب العقل والعقلاء) وما جاء في أوصافهم، و(كتاب بهجة المحاسن في أنس المجالس) وكتاب صغير في قبائل العرب وأنسابهم، وغير ذلك. وكان له بسطة كبيرة في علم النسب، مع ما تقدّم من الفقه والأخبار والعربية.

سنة اربع وستين واربع مائة

فيها توفّي أبو الحسن جابر بن نصر البغدادي العّطار والمعتضد بالله عبّاد ابن القاضي محمد بن اسماعيل اللخمي صاحب إشبيلية، ولي بعد أبيه، وكان شهماً مقداماً صارماً، قتل جماعة وصاد آخرين، ودانت له الملوك. وفيها توفي ابن حيدة[1] بكر بن محمد النيسابوري.

سنة خمس وستين واربع مائة

فيها قتل ألب أرسلان[2]، وتسلطن ابنه ملكشاه، وفيها افترق الجيش، واقتلوا فقتل نحو الأربعين[3] ألفاً، ثم التقوا مرّة ثانية، وكثر القتل في العبيد، وانتصر الأتراك، وضعف المستنصر، وأنفق خزائنه في رضائهم، وغلب العبيد على السعيد، ثم جرت لهم وقعات، وعاد الغلاء المفرط والوباء، ونهب الجند دور العامة.

قال ابن الأثير: اشتّد البلاء والوباء حتّى إنّ أهل البيت كانوا يموتون في ليلة، وحتّى حكي أنّ امرأة أكلت رغيفاً بألف دينار، باعت عروضاً لها قيمة ألف دينار، واشترت بها حملة قمح، وحمله الحمّال على ظهره، فنهبت الحملة، فنهبت المرأة مع الناس، فحصل لها رغيف واحد.

وفيها توفّي السلطان الكبير عضد الدولة أبو شجاع: ألب أرسلان ابن الملك داود بن ميكائيل بن سَلْجُوق (بفتح السين المهملة وضم الجيم بين الواو واللام)، أول من قيل له السلطان على منابر بغداد. وكان فى آخر دولته من أعدل الناس، وأحسنهم سيرة، وأرغبهم في الجهاد وفي نصر الإسلام، ثم عبر نهر جيحون ومعه نحو مائتي ألف فارس، وقيل إنه لم يعبر الفرات في قديم الزمان ولا في حديثه في الإسلام ملك تركي قبل ألب أرسلان، فإنه أول من عبرها من ملوك الترك، فأتي بمتولي قلعة يقال له يوسف الخوارزمي، فأمر أن يُشَدّ

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٨/ ١١٢: زكريا بن محمد بن حيدة أبو منصور النيسابوري، كان يزعم أنه من سلالة عثمان بن عفان، . . توفي في المحرّم منها، وقد قارب الثمانين.

(٢) انظر ذلك في الكامل لابن الأثير٨/ ١١٢، ١١٣.

(٣) انظر ذلك في الكامل لابن الأثير ٨/ ١١٥ـ ١١٧.

بأربعة أوتاد، فقال: يا مخنّث، مثلي يُقتل هكذا؟ فغضب السلطان، فأخذ القوس والنشّاب فقال: خلّوه، فرماه، فأخطأه وكان قلّ أن يخطىء فشدّ يوسف عليه، فنزل السلطان، فأخذ القوس والنشّاب فقال: خلّوه عن السرير، فعثر، فبرك عليه يوسف، وضربه بسكّين معه في خاصرته، فشدّ مملوك على يوسف فقتله، ثم مات السلطان من ذلك، وكان أهل سَمَرْقَنْد قد خافوه، وابتهلوا إلى الله تعالى وفروّا إليه ليكفيهم أمر ألب أرسلان، فكفاهم.

وفيها توفّي أبو الغنائم عبد الصمد بن علي الماسع، سمع جدّه أبا الفضل ابن المأمون والدارقطني وجماعة. قال أبو سعيد السمعاني: كان ثقة نبيلاً مهيباً تعلوه سكينة ووقار، رحمه الله.

وفيها توفّي الأستاذ الكبير العارف بالله الشهير السيد الجليل الإمام، جامع الفضائل والمحاسن زين الإسلام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري الصوفي شيخ خراسان، وأستاذ الجماعة، ومصنّف الرسالة. قال أبو سعيد السمعاني: لم يرَ أبو القاسم مثل نفسه في كماله وبراعته، كان علاّمة في الفقه والتفسير والحديث والأصول والشعر والأدب والكتابة وعلم التصوف، جمع بين الشريعة والحقيقة، أصله من ناحية اسنوا(١)، من العرب الذين قدموا خُراسان. توفّي أبوه وهو صغير، فتعلّم الأدب، وحضر مجلس الأستاذ أبي علي الدقاق وكان إمام وقته فلمّا سمع كلامه أعجبه، ووقع في قلبه، فسلك طريق الإرادة، فقبله الدقاق، وأقبل عليه، وتفرّس فيه النجابة، فجذبه بهمّته، وأشار عليه بالاشتغال بالعلم، فخرج إلى درس محمد بن أبي بكر الطوسي، وشرع في الفقه حتّى فرغ من تعليقه، ثم اختلف إلى الأستاذ أبي بكر بن فُورك، فقرأ عليه حتّى أتقن علم الأصول، ثم تردد إلى الأستاذ أبي إسحاق الاسفرائيني، وقعد ليسمع درسه أياماً، فقال الأستاذ: هذا العلم لا يحصل بالسماع، ولا بدّ من الضبط بالكتابة، فأعاد عليه جميع ما سمع منه في تلك الأيام، فعجب منه، وعرف محلّه، فأكرمه وقال له: ما تحتاج إلى درس، بل يكفيك أن تطالع مصنّفاتي. فقعد، وجمع بين طريقته وطريقة ابن فورك، ثم نظر في كتب القاضي أبي بكر بن الطيب الباقلاّني، وهو مع ذلك يحضر مجلس الأستاذ أبي علي الدقاق، وزوّجه ابنته مع كثرة أقاربها، وبعد وفاة أبي علي سلك مسلك المجاهدة والتجريد، وأخذ في التصنيف، فصنّف التفسير الكبير، وسمّاه التيسير في علم التفسير وهو من أجود التفاسير، وصنّف (الرسالة في رجال الطريقة)، وخرج إلى الحجّ في رفقة فيها الإمام أبو محمد الجُوَيني وإمـام الحرمين والإمام الحافظ أحمد بن الحسين البيهقيّ، وجماعة من المشاهير وسمع منهم الحديث في بغداد والحجاز، وكان له في الفروسية واستعمال السلاح الباع الطويل،

(١) أسنوا: لم أجدها في معجم البلدان ـ والأقرب لها: اسنا: مدينة بأقصى صعيد مصر.

والبراعة البالغة. وأمّا مجلس الوعظ والتذكير فهو إمامها المنفرد بها، عقد لنفسه مجلس الإملاء في الحديث.

وذكره صاحب: كتاب (دمية القصر)[١]، وبالغ في الثناء عليه حتّى قال في مبالغته: لو قرع الصخر بسوط تخويفه لذاب، ولو ربط إبليس في مجلسه لناب.

وذكره الخطيب في تاريخه وقال: كان حسن الموعظة، مليح الإشارة، يعرف الأصول على مذهب الأشعري، والفروع على مذهب الشافعي.

وذكره الشيخ الإمام عبد الغافر في تاريخه فقال: عبد الكريم بن هوازن أبو القاسم القشيريّ الإمام مطلقاً، الفقيه المتكلّم الأصولي، المفسّر الأديب النحوي، الكاتب الشاعر، لسان عصره وسيّد وقته، ونصر الله بين خلقه، شيخ المشايخ وأستاذ الجماعة، ومقدّم الطائفة ومقصود سالكي الطريقة، وبندار الحقيقة وعين السعادة، وقطب السيادة وحقيقة الملاحة، لم يرّ مثل نفسه في كماله وبراعته، وجمع بين علم الشريعة والحقيقة.

وذكر الخطيب سماعه من جماعة كثيرين من الأكابر: كأبي نعيم والحاكم والخفّاف والسلمي وابن فُورك وأشباههم.

قلت: وقد ذكرت عن الإمام الحافظ ابن عساكر في كتابي (الشاش المعلم) محاسن كثيرة وقضايا شهيرة، وحذفتها هناك.

وقال أبو عبدالله محمد بن الفضل الفراوي: أنشدنا عبد الكريم بن هوازن لنفسه:

سقى الله وقتاً كنت أخلو بوجهكم ... وثغر الهوى في روضة الأنس ضاحك
قمنا زماناً والعيون قريرة ... وأصبحت يوماً والعيون سوافك

ومما أنشده في رسالته المشهورة.

ومن كان في طول الهوى ذاقَ سلوة ... فإني من ليلى لها غيرُ ذائق
وأكثر شيء نبته من وصالها ... أمانيّ لم تصدقْ كلمحةِ بارقِ

وكان ولده أبو نصر عبد الرحيم إماماً كبيراً، أشبه أباه في علومه ومجالسه، ثمّ واظب دروس إمام الحرمين أبي المعالي، حتّى حصل طريقته في المذهب والخلاف، ثم خرج إلى الحجّ، فوصل إلى بغداد، وعقد بها مجلس وعظ، وحصل له قبول عظيم، وحضر الشيخ أبو إسحاق الشيرازي مجلسه، وأطبق علماء بغداد على أنه لم يُرَ مثله. قلت: وسيأتي ذكر شيء من محاسنه وسيرته في ترجمته إن شاء الله تعالى.

---

(١) الباخرزي.

وفي السنة المذكورة توفّي الخطيب أبو الحسين محمد بن علي[١]، المنتسب إلى المهتدي بالله. كان سيد بني العبّاس في زمانه وشيخهم، نبيلاً صالحاً متقبلاً، يقال له راهب بني العباس لدينه وعبادته وسرده الصوم. عاش خمساً وتسعين سنة.

وفيها توفّي أبو القاسم الهذلي يوسف بن علي المتكلّم المقرىء النحويّ، صاحب كتاب الكامل في القراءات. كان كثير الترحال، حتّى وصل إلى بلاد الترك في طلب القراءات المشهورة والشاذة.

سنة ست وستين واربع مائة

فيها كان الغرق الكثير ببغداد، فهلك خلق تحت الرّدم، وأقيمت الجمعة في الطيار على ظهر الماء[٢]، وكان الموج كالجبال، وغرق بالكليّة بعض المحالّ، وبقيت كأنْ لم يكن، وقيل: بلغ ارتفاع الماء ثلاثين ذراعاً.

وفيها توفّي ركن الدولة الحسن بن بُوَيه الديلمي، صاحب أصفهان والريّ وهمدان وجميع العراق، وهو والد عضد الدولة ومؤيد الدولة وفخر الدولة، وأخو معزّ الدولة. وكان ملكاً جليل القدر عالي الهمّة. وكان أبو الفضل ابن العميدي وزيره، والصاحب بن عبّاد وزير ولده مؤيد الدولة قالوا: وكان مسعوداً ورزق السعادة في أولاده الثلاثة، وقسم عليهم الممالك، فقاموا بها أحسن قيام، وكان أوسط إخوته قبله عماد الدولة، وبعده معّن الدولة.

وفيها توفّي أبو سهل الحفصي محمد بن أحمد المروزي، راوي الصحيح عن الكشميهني. كان رجلاً أميناً مباركاً، سمع منه نظام الملك فأكرمه، وأجزل صلته.

وفيها توفّي الحافظ أبو محمد الكتّاني عبد العزيز بن أحمد التميمي الدمشقي الصوفي. والحافظ أبو بكر بن العطّار محمد بن ابراهيم الأصفهاني والفقيّه أبو المكارم محمد بن سلطان الغنوي الدمشقي الفرضي. ويعقوب بن أحمد الصيرفي النيسابوري.

سنة سبع وستين واربع مائة

فيها أخذ المستنصر الديار المصرية والإسكندرية ودمياط وبلاد الصعيد. وكان قد استضعف، وأخذ منه جميع ذلك في سنة خمس، فعاد إليه جميع ما أخذ منه، ثم أخذ يعمّر البلاد وأطلق الفلاحين من الكلف، ثم بعث الهدايا إلى صاحب مكّة، فأعاد خطبة المستنصر

---

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي: ٦/ ٤/ ١٣٧: ابن الفريق: محمد بن علي بن محمد بن عبيد الله بن عبد الصمد بن محمد بن المهتدي بالله أبو الحسين الهاشمي، سمع الدارقطني وابن شاهين.

(٢) انظر غرق بغداد في الكامل لابن الأثير ٨/ ١١٩.

بعد أن كان قد خطب للقائم بأمر الله أعواماً[١].

وفيها عمل السلطان ملك شاه الرصد، وأنفق عليه أموالاً عظيمة.

وفيها توفّي محدّث الأندلس أبو عمرو بن الحذّاء أحمد بن محمد القرطبي.

والقائم بأمر الله أبو جعفر عبدالله بن القادر بالله. ومدّة خلافته أربع وأربعون سنة وأشهر، وكان ورعاً ديّناً كثير الصدقة، وله علم[٢] وفضل، من خير الخلائق، لا سيّما بعد عوده إلى الخلافة، وبويع حفيده المقتدي بأمر الله عبدالله بن محمد القائم.

وفيها توفّي جمال الإسلام أبو الحسن الدراوردي عبد الرحمن بن محمد بن مظفّر البوشنجي، شيخ خراسان علماً وفضلاً وجلالة وسنداً. تفقّه على القفّال المروزي وأبي الطيب الصعلوكي وأبي حامد الاسفرائيني، وروى الكثير عن أبي محمد بن حمويه.

وفيها توفّي أبو الحسن الباخرزي[٣] (بالموحدة والخاء المعجمة بعد الألف وبعده راء ثم زاي) الرئيس الأديب علي بن الحسن، مؤلّف (كتاب دمية القصر). وكان رأساً في الكتابة والإنشاء والشعر، وأوحد عصره في فصله وذهنه، سابقاً إلى حيازة قصبات السبق في نظمه ونثره، وكان في شبابه مشتغلاً بالفقه على مذهب الإمام الشافعي، ملازماً درسَ أبي محمد الجُوني، ثم شرع في فنّ الكتابة، وارتفعت به الأحوال، وانخفضت، ورأى من الدهر العجائب، وغلب أدبه على فقهه، وعمل الشعر والحديث، وصنّف كتاب (دمية القصر وعصرة أهل العصر) وهو ذيل (يتيمة الدهر) التي للثعالبي، جمع فيها خلقاً كثيراً، وله ديوان شعر في مجلّد كبير. ومن نظمه:

يا فالق الصبّح من لا غرته ... وجاعل الليل في أصداغه سكنا
بصورة الوثن استعبدْتَني وبِها ... فتَنْتني وقديماً هيّجت لي شجنا
لا عزّ إنْ أحرقتْ نار الهوى كبدي ... فالنار حقّ على من يعبد الوثنا

والأمير عزّ الدولة محمود[٤] بن نصر بن صالح الكلابي صاحب حلب، ملكها عشرة أعوام، وكان شيخاً فارساً جواداً ممدوحاً، يداري المصريين والعباسيين، أوسط داره بينهما، ولي بعده ابنه نصر، فقتله بعض الأتراك بعد سنة.

(١) في الكامل لابن الأثير ٨/ ١٢١: وكانت مدة الخطبة العباسية بمكّة أربع سنين وخمسة أشهر.
(٢) انظر ذلك في الكامل لابن الأثير: ٨/ ١٢٠.
(٣) في الكامل لابن الأثير: ٨/ ١٢٢: هو أبو الحسن علي بن الحسن بن علي بن أبي الطيب الباخرزي الشاعر المشهور.
(٤) ذكر ابن الأثير أن وفاته كانت سنة ٤٦٩ هـ. انظر الكامل ٨/ ١٢٤.

سنة ثمان وستين واربع مائة

فيها حوصرت[١] دمشق، واشتد بها الغلاء، وعدمت الأقوات، ثم تسلّم البلد بالأمان، وأقيمت الخطبة العباسية، وأبطل شعار الشيعة من الأذان وغيره.

وفيها توفّي مقرىء (واسط) الحسن بن قاسم الواسطي، كان أحد من اجتهد في القراءات، ورحل فيها إلى البلاد، وصنّف فيها.

وفيها توفي أبو الفتح عبد الجبّار بن عبدالله الرازي الواعظ الجوهري.

والإمام المفسّر أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري، أستاذ عصره في النحو والتفسير، تلميذ أبي إسحاق الثعلبي، وأحد من برع في العلم، وصنّف التفاسير الشهيرة المجمع على حسنها، والمشتغل بتدريسها، والمرزوق السعادة فيها، وهي (البسيط) و(الوسيط) و(الوجيز)، ومنه أخذ أبو حامد الغزالي أسماء كتبه الثلاثة، وله كتب أخرى، بعضها فيما يتعلق بأسماء الله الحسنى و(كتاب أسباب النزول) و(شرح كتاب المتنبي) شرحاً مستوفي. قيل: وليس في شروحه ـ مع كثرتها ـ مثله، وذكر فيه أشياء غريبة، منها أنه تكلّم في شرح هذا البيت:

وإذا المكارم والصوارم والقنا   وبنات أعوج كلّ شيء يجمع

ثم قال: أعوّج: فحل كريم كان لبني هلال بن عامر، وإنه قيل لصاحبه: ما رأيت من شدّة عدوه؟ قال: ضللت في بادية وأنا راكبه فرأيت قطاً يقصد الماء، فتبعته وأنا أغضّ من لجامه ـ حتّى توافينا الماء دفعة واحدة.

وهذا غريب فإن القطا شديد الطيران، وإذا قصد الماء اشتدّ طيرانه أكثر من غير قصده الماء، وهو كان يمضّ من لجامه أنْ يكفّه عن شدّة العدو.

وقيل وإنما لقّب (أعوج) لأنّه كان صغيراً، فجاءتهم غارة، فهربوا منها، وطرحوه في خرْج، وحملوه لعدم قدرته على المشي معهم لصغره، فاعوجّ ظهره من ذلك، فقيل له أعوج.

والواحديّ نسبة قيل إلى الواحد بن مهرة على ما حكاه العسكري.

وفيها توفّي محدّث همدان وزاهدها: يوسف بن محمد الخطيب.

وفيها توفي العبد الصالح أبو القاسم يوسف بن محمد الهمداني الصوفي الذي خرج له الخطيب خمسة أجزاء.

---

(١) انظر ملك الأقسيس دمشق في الكامل لابن الأثير: ٨/ ١٢٢.

وفيها توفّي البياضي الشاعر المشهور مسعود بن عبد العزيز الهاشمي، وهو من الشعراء المجيدين في المتأخرين، وديوان شعره صغير وهو في غاية الرقّة. ومن شعره:

إن غــاض دمعــك والــركــاب تســاق ـ مـع مـا بقلبـك ـ فهـو منـك نفـاق

وإنما قيل له البياضي لأن أحد أجداده كان في مجلس بعض الخلفاء مع جماعة من العباسيين لابسين السواد وهو لابس البياض ـ فقال الخليفة: مَنْ ذلك البياضي؟ فثبت هذا اللقب عليه.

سنة تسع وستين واربع مائة

فيها كانت فتنة لما وعظ الإمام الكبير العلاّمة الشهير أبو نصر ابن الأستاذ الإمام زين الإسلام أبي القاسم القشيري ببغداد في النظامية، وكان قد حصل له إقبال عظيم، وحضر مجلسه أكابر العلماء كالإمام أبي إسحاق الشيرازي وغيره من الجلّة كما تقدم ذكره ونَصَرَ في وعظه مذهب الأشعرية، وحطّ على مذهب الحنبليّة، فهاجت الفتنة، وثارت العصبية وقتل جماعة.

وفي السنة المذكورة توفي أبو الحسن أحمد بن عبد الواحد السلمي.

وفيها توفي المحدّث المتقن مسند الأندلس حاتم بن محمد التيمي القرطبي.

وفيها توفّي مؤرخ الأندلس ومسندها حِبّان ـ بن خلف بن حسين القرطبي.

وفيها توفّي الإمام النحوي أبو الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ النحْوي، صاحب المصنّفات المفيدة منها (المقدّمة) المشهورة، وشرحها و(شرح الجمل) للإمام الكبير الزجاجي، وشرح (كتاب الأصول) لابن السرّاج، ومسوّدات في النحو، توفّي قبل إتمامها. قيل: لو بيّضت قاربت خمسة عشر مجلّداً، وانتفع الناس بعلمه وتصانيفه. كان بمصر إمام عصره في النحو، وكانت وظيفته أنّ ديوان الإنشاء لا يخرج حتّى يعرض عليه ويتأمله، فإن كان فيه خطأ من جهة النحو واللغة أصلحه كاتبه، وإلا استرضاه، فيسير إلى الجهة التي كتب إليها، وكان له على ذلك راتبة من الخزانة، يتناوله في كلّ شهر، وأقام على ذلك زماناً.

ويحكى أنه كان يوماً يأكل طعاماً في سطح جامع مصر، وعنده ناس، فحضرهم قطّ، فرموا له لقمة، فأخذها في فيه، وغاب عنهم، ثم عاد إليهم، فرموا له شيئاً آخر، ففعل ذلك مراراً كثيرة، فعجبوا منه وتبعوه، فوجدوه يرقى إلى حائط في سطح الجامع، ثم ينزل إلى موضع خالٍ فيه قط أعمى، وكلمّا يأخذه من الطعام يحمله إلى ذلك القطّ، فيأكله، فتعجبّوا من ذلك، وكان سبباً لاستغنائه عن الخدمة، لما تفكّر من كونه حيواناً أعمى لا يهتدي إلى ما

يقوم بحاله، سخّر الله له هذا القطّ يقوم بكفايته، ويسوق إليه الرزق المقسوم، فكيف يضيع من هو مثلي؟ ونزل عن راتبه، ولزم البيت متوكّلاً على الله تعالى، فما زال ملطوفاً به محمول الكلفة إلى أن مات، وقيل: إنه خرج ليلة من غرفة في سطح الجامع، فزلتّ رجله في بعض الطاقات المجهولة للضوء، فسقط وأصبح ميتاً، وأصله على ما ذكر بعضهم من الديلم، وبابشاذ: كلمة عجمية يتضمّن معناها الفرح والسرور.

سنة سبعين واربع مائة

فيها كانت فتنة كبيرة[1] ببغداد بسبب الاعتقاد، ووقع النهب في البلد، واشتدّ الخطب، وركب العسكر، وقتلوا جماعة، حتّى فتر الأمر.

قلت: هكذا أطلق بعض المؤرخين، ولم تبنْ هذه الفتنة بين أهل السنة والرافضة أو بين الأشعرية والحنبلية.

وفي السنة المذكورة توفي الحافظ أبو صالح أحمد بن عبد الملك النيسابوري، محدّث خراسان في زمانه، روى عن أبي نعيم وعن أبي الحسين البغدادي والحاكم، وخلق، ورحل إلى أصفهان وبغداد ودمشق، وله ألف حديث عن ألف شيخ.

وفيها توفي أبو الحسين بن النَقّور (بفتح النون وتشديد القاف) محمد[2] بن محمد البغدادي المحدّث البزّاز. وكان يأخذ على اشغال الطلبة لأنّهم كانوا يفوّتون عليه الكسب لعياله، أفتاه بجواز ذلك الشيخ أبو إسحاق. وتوفي وله إحدى وتسعون سنة.

وفيها توفّي الحافظ أبو القاسم عبيد الله بن الجلاد.

وفيها توفّي الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن مَنْده الأصبهاني، صاحب التصانيف، كان ذا سعت ووقار، وله أصحاب وأتباع. قال الذهبي: وفيه تسنّن مفرط أوقع بعض العلماء في الكلام في معتقده، وتوهّموا فيه التجسيم. قال: وهو بريء منه فيما علمت، ولكن لو قصّر من شأنه لكان أولى به.

قلت وكلام الذهبي هذا يحتاج إلى إيضاح، فقوله: فيه تسنّن مفرط أي: مبالغ في الأخذ بظواهر السنّة والاستدلال بها، وجحد حملها على التأويل.

---

(١) في الكامل لابن الأثير: ١٢٥/٨: وكان ببغداد في هذه السنة فتنة بين أهل سوق المدرسة وسوق الثلاثاء بسبب الاعتقاد.

(٢) في الوافي بالوفيات للصفدي: ٣٥/٨/٦: ابن النقور: أحمد بن محمد بن عبد الله بن النقور أبو الحسين البغدادي البزّاز مسند العراق في وقته...

وقوله: أوقع بعض العلماء يعني: بعض العلماء المتكلّمين المؤوّلين، وقوله توهّموا فيه التجسيم: لأنّ الجري على اعتقاد الظواهر ومنع التأويل فيها يدلّ على ذلك، والكلام فيه يطول، وقد أوضحت ذلك في الأصول. وقوله: لو قصر من شأنه لكان أولى به: أي لو ترك المبالغة في التظاهر بذلك، والاستشهاد به، لكان أولى. وأمّا قوله: وهو بريء منه، فشهادة على أمر باطن، والله أعلم بحقيقته نهاية ما، ثم إنّه ما يصّرح بالتجسيم بلسانه، لكن يقول بالجهة، وأسلم ما في ذلك أنه يلزم منه القول بالتجسيم.

وفي لزوم المذهب خلاف مشهور عند العلماء، هل هو مذهب أم لا؟ هذا إذا اقتصر على اعتقاد الجهة، فأما إذا اعتقد الحركة والنزول والجارحة فصريح في التجسيم. لا دوران حوله ـ نسأل الله الكريم الاستقامة على الدّين القويم، بجاه نبيّه عليه أفضل الصلوات والتسليم.

وللمحدّثين في اقتداء الإمامين الكبيرين الشهيرَيْن الورعين الفقهين المحدّثين جامعَيْ المحاسن والمفاخر: الشيخ السيد الفاضل محيي الدين النواوي والحافظ أبو القاسم ابن عساكر ـ كفاية، والله وليّ الهداية.

سنة احدى وسبعين واربع مائة

فيها دخل الشام تاج الدولة أخو السلطان ملك شاه من جهة أخيه، وأخذ حلب ودمشق، وكان عسكره التركمان. وكان أقسيس الخوارزمي قد جاءت المصريون لحربه، فاستنجد بتتش (بالمثناة من فوق مكررة ثم الشين المعجمة) عندما أخذ حلب، فسار إليه، وفرّ المصريون، فخرج أقسيس إلى خدمة تتش، فأظهر الغضب لكونه ما تلقّاه إلى بعيد، وقتله في الحال، وأحسن سيرته في الشاميين(١).

وفيها توفّي أبو علي بن البنّاء الفقيه الزاهد الحسن بن أحمد البغدادي الحنبلي صاحب التآليف والتاريخ.

وفيها توفي الحافظ الكبير أبو علي الحسن بن علي التجيبي ـ رحل وطوفّ، وجمع وصنّف.

وفيها توفّي الحافظ القدوة الزاهد نزيل الحرم الشريف، وجار بيت الله المنيف أبو القاسم سعد بن علي الزنجاني. سئل محمد بن طاهر المقدسي عن أفضل من رأى فقال: سعد الزنجاني، وشيخ الإسلام الأنصاري. فقيل: أيّهما كان أفضل؟ فقال: الأنصاريّ كان

---

(١) انظر ذلك في الكامل لابن الأثير: ٨/ ١٢٦.

متقناً، وأمّا الزنجاني فكان أعرف بالحديث منه. وقال غيره: كان الزنجاني إماماً كبيراً.

وفيها توفي عبد العزيز بن علي أبو القاسم الأنماطي. روى عن المخلص، ومات في رجب.

وفيها توفي الشيخ الإمام النحوي العلاّمة، صاحب التصانيف المفيدة: عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني الشافعي الأشعري. ومن تصانيفه (المغني في شرح الإيضاح) ثلاثون مجلّداً.

قلت وكلامه في علم المعاني والبيان يدلّ على جلالته وتحقيقه وديانته وتوفيقه. وقيل إنه مات في سنة أربع وسبعين.

وفيها توفّي شيخ عصره المتفّق على جلالة قدره، الفقيه أبو عاصم الفضيل بن يحيى الهروي.

وفيها توفّي شيخ زمانه في همدان علماً وفضلاً وجلالة وزهداً، ويقيناً في العلوم وحظّاً: أبو الفضل محمد بن عثمان بن زيرك القُومَساني.

وفيها توفي أبو الفتيان محمد بن السلطان المعروف بابن حَيّوس[1] (بالحاء المهملة المفتوحة والياء المشددة المثناة من تحت والواو الساكنة وبعدها سين مهملة)، وفي شعر المغاربة: ابن حَبُوس (بالموحدة المخففة). كان أبو الفتيان المذكور شاعراً مشهوراً من الشعراء الشاميين المحسنين، وفحولهم المجيدين، له ديوان شعر كبير، لقي جماعة من الملوك والأكابر، ومدحهم، وأخذ جوائزهم. ومن نظمه في مدح أبي المظفّر نصر بن محمود بن شبل الدولة قوله في قصيدة.

ثمانية لم تفترق مُذْ جمعتها ... فلا افترقت ما ذبَّ عن ناظر شَفْرُ[2]
يقينك والتقوى، وجودك والغنى ... ولفظك والمعنى، وحزمك والنصرُ[3]

وممّا وجد في ديوان ابن حَيّوس هذه الأربعة الأبيات، وبعضهم ينسبها إلى أبي بكر

---

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي ٦/٣/١١٨ ـ ١٢١:
ابن حيّوس محمد بن سلطان بن محمد بن حيّوس الأمير مصطفى الدولة أبو الفتيان الغنوي الدمشقي أحد الشعراء الفحول.. وكان منقطعاً إلى بني مرداس بحلب، ولما مات محمود بن نصر بن صالح بن مرداس صاحب حلب، وقام ولده نصر قصده ابن حيّوس ومدحه ـ مولده سنة ٣٩٤ هـ بدمشق، ووفاته بحلب في شعبان سنة ٤٧٣ هـ وقيل ٤٦٦ هـ.

(٢) الشَّفر: أصل منبت شعر الجفن.

(٣) في ترجمته بالوافي أيضاً: ..وسيفك والنصر.

الصائغ والله اعلم بحقيقة ذلك:

أسكــان نعمــان الأراك تيقّنــوا بــأنكــم فــي ربــع قلبــي ودومــوا
علــى حفــظ الــوداد فطــالمــا بُلينــا بــأقــوام إذا استــؤمنــوا اخــافــوا
سلــوا الليــل عنّـي مـذ تنـاءت ديـاركـم هـل اكتحلـت بـالغمـض لـي فيـه أجفـان
وهــل جــرّدت أسيــاف بــرق سمــائكــم فكــان لهــا إلاّ جفــونــي أجفــان

وذكروا أنه وصل أحمد بن محمد المعروفُ بابن الخيّاط الشاعر إلى حلب وبها يومئذٍ أبو الفتيان المذكور ـ فكتب إليه ابن الخيّاط.

لــم يبــقَ عنــدي مــا يبــاع بــدرهــم وكفــاك منّــي منظــري عــن مخبــري
إلاّ بقيّــــة مــــاء وَجْــــه منتهــــى عــن أن تبــاع وأيــن أيــن المشتــري؟[١]

قيل: ولو قال: وأنت نعم المشتري لكان أحسن.

سنة اثنتين وسبعين واربع مائة

فيها توفّي الفقيه الزاهد القدوة أبو محمد هيّاج بن عبيد. قال هبة الله الشيرازي: ما رأت عيناي مثله في الزهد والورع. وقال ابن طاهر: بلغ من زهده أنه يواصل ثلاثاً، لكن يفطر على ماء زمزم، فإذا كان اليوم الثالث واتاه بشيء أكله. وكان قد نيّف على الثمانين، وكان يعتمر في كلّ يوم ثلاث عمر على رجيله، ويدرّس عدّة دروس لأصحابه، وكان يزور النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم في كلّ سنة من مكّة، فيمشي حافياً ذاهباً وراجعاً. روى عن أبي ذرٍّ الهروي، وطائفة.

وفيها توفّي أبو منصور العكبري محمد بن محمد بن أحمد الأخباري النديم عن تسعين سنة. صدوق، روى عن عبد الله الجعفيّ وهلال الحفّار وطائفة. توفي في رمضان.

وفيها توفي أبو علي الحسن بن عبد الرحمن الشافعي المالكي.

وعبد العزيز بن محمد الفارسي الهزوي.

سنة ثلاث وسبعين واربع مائة

فيها توفّي أبو القاسم الفضل بن عبدالله الواعظ النيسابوري.

وفيها توفّي السلطان الغنوي[٢] الدمشقي شاعر أهل الشام. له ديوان كبير.

(١) وفي ترجمته السابقة أيضاً: ... ماء وجه صنتها ....

(٢) المقصود بذلك الشاعر ابن حيّوس، وقد مرّ سابقاً ان وفاته كانت على ما ذكره الصفدي ـ في سنة ٤٧٣ هـ، بينما ذكر المؤلف أن وفاته كانت سنة ٤٧١ هـ، فيكون قد ذكر وفاته في السنتين المذكورتين.

وفيها توفي أبو الحسن علي بن محمد بن علي الصُلَيْحِي (بضم الصاد المهملة وفتح اللام وسكون المثناة من تحت والحاء المهملة مكسورة) القائم باليمن، كان أبوه قاضياً باليمن، سنّي المذهب، وكان أهله وجماعته يطيعونه، وكان الداعي عامر بن عبدالله الرواحي (بالراء والحاء المهملة) يلاطفه ويركب، أو قال: يركب إليه لرئاسته وسؤدده وصلاحة علمه، فلم يزل عامر المذكور حتّى استمال قلب ولده المذكور وهو يومئذ دون البلوغ، لاحت فيه مخائل النجابة.

وقيل كانت عنده حلية علي الصُليحي في كتاب الصور، وهو من الذخائر القديمة، فأوفقه منه على تنقّل حاله وشرف ماله، وأطلعه على ذلك سرّاً من أبيه وأهله. ثم مات عامر عن قرب، وأوصى له بكتبه وعلومه، ورسخ في الذهن من كلامه ما رسخ، فعكف على الدرس وكان ذكياً فلم يبلغ الحلم حتّى تضلّع من علومه التي بلغ بها ـ وبالحد الصعيد غاية البعيد.

قلت هذا على اعتقاد من هو طريد عن باب التوفيق والاعتقاد السديد، فلم يزل مشتغلاً بتلك العلوم الضلالية الأوهامية، حتّى صار فقيهاً في مذهب الباطنية الإسماعيلة، منتصراً في علم التأويل المخالف بمفهوم التنزيل، ثم إنه صار يحجّ بالناس دليلاً على طريق السراة والطائف خمس عشرة سنة، وكان الناس يقولون له: بلغنا أنك ستملك اليمن بأسره، ويكون لك شأن؟ فيكره ذلك، وينكره على قائله، مع كونه أمراً قد شاع، وكثر في أفواه الناس ـ الخاصة والعامة.

ولما كان سنة تسع وعشرين وأربع مائة ارتقى رأس جبل، هو أعلى ذروة من جبال اليمن، وكان معه ستون رجلاً، قد خالفهم بمكّة في سنة ثمان وعشرين وأربعمائة على الموت والقيام بالدعوة، وما منهم إلا من هو من قوم وعشيرة في منعة وعدد كبير، ولم يكن برأس الجبل المذكور بناء بل كان قُلَّة عالية منيعة، فلما ملكها لم ينتصف نهار ذلك اليوم إلا وقد أحاط بها عشرون ألفِ ضاربٍ بسيف، وحصروه وشتموه، وسفهوا رأيه، وقالوا له: إن نزلت و إلا قتلناك أنت ومن معك بالجوع، فقال لهم: لا أفعل هذا إلاّ خوفاً علينا وعليكم أن يملكه غيرنا فإن تركتموني أحرسها وإلا نزلت إليكم، فانصرفوا عنه، ولم يمض عليه أشهر حتّى بنى في رأس ذلك الجبل، وحصّنه، وأتقنه، واستفحل أمر الصُلَيْحيّ شيئاً فشيئاً.

وكان يدعو للمستنصر العبيديّ صاحب مصر في الخفية، ويخاف من نجاح صاحب تهامة، ويلاطفه، ويستكبر لأمره، وفي الباطن يعمل الحيلة في قتله، ولم يزل حتّى قتله بالسّم مع جارية جميلة أهداها إليه، وكان ذلك في سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة

بالكَدْراء[١]، وفي سنة ثلاث وخمسين كتب الصليحي إلى المستنصر يستأذنه في إظهار الدعوة، فأذن له، فطوى البلاد طيّاً، وفتح الحصون والبلاد، ولم تخرج سنة خمس وخمسين إلاّ وقد ملك اليمن كلّه: سهله ووعره، وبرّه وبحره. وقيل: وهذا أمر لم يُعهد مثله في الجاهلية والإسلام، حتّى قال يوماً وهو يخطب الناس في جامع الجند: وفي مثل هذا اليوم يُخطب على منبر (عدن) ولم يكن ملكها بعدُ، فقال بعص من حضر: سبّوح قدّوس، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

قلت قوله سبّوح قدّوس: إن كان تعظيماً له وتنزيهاً فقد كفر قائله، إذ أشركه مع الله بما يختصّ به تعالى، وإن كان تهكّماً به وأنه ادّعى من القدرة صفة من صفات الله تعالى التي لا يتصف بها غيره، فمثل هذا لا ينبغي أن يقال، والظاهر ـ والله أعلم ـ أنّ هذا مقال بعض الزنادقة، أخرجه مخرج التعظيم له.

قال: فلم يَدُرْ مثل ذلك اليوم حتّى خطب الصليحي على منبر عدن، فقام ذلك الإنسان، وتعالى في المقام، وأخذ البيعة، ودخل في المذهب.

وفي سنة خمس وخمسين استقرّ حاله في صنعاء، وأخذ معه ملوك اليمن الذين أزال ملكهم، وأسكنهم معه، وولىّ في الحصون غيرهم، واختطّ بمدينة صنعاء عدّة حصون، وحلف أن لا يولي تهامه، إلاّ لمن وزن له مائة ألف دينار، فوزنت له ذلك زوجته أسماء عن أخيها أسعد بن شهاب، فولاّه وقال لها: يا مولاتنا؛ أنّى لكِ هذا؟ قالت: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فتبسّم وعلم أنه من خزانته، فقبضه وقال: هذه بضاعتنا رُدّت إلينا، ونمير أهلنا، ونحفظ أخانا.

ولمّا كان في سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة، عزم الصّليحي على الحجّ، فأخذ الملوك الذين كان يخاف منهم أن يثوروا عليه، واستصحب زوجته أسماء بنت شهاب، واستخلف مكانه ولده منها المكّرم أحمد، وتوجّه في ألفي فارس، فيهم من آل الصليحي مائة وتسعون ـ شخصاً، حتّى إذا كان بالمنجم[٢]، نزل في ظاهرها بالعسكر بضيعة يُقال لها أمّ الدهيم وبيرام معبد، ونزلت عساكره والملوك الذين معه من حوله، فلم يشعر الناس حتّى قتل الصليحي، فانزعر الناس، وكشفوا عن الخبر، فإذا الذي قتله سعيد الأحول ابن الذي قتلت الجارية أباه نجاحاً بالسمّ، أرسل إليه أخوه يعلمه أنّ الصليحي متوجّه إلى مكّة، فتحضر حتّى تقطع عليه الطريق، فحضر، ثم خرج هو وأخوه، ومعهما سبعون رجلاً بلا مركوب ولا

(١) في معجم البلدان: الكدراء: اسم مدينة باليمن على وادي سَهَام، اختطّها حسين بن سلامة أحد المتغلّبين على اليمن في نحو سنة ٤٠٠ هـ.

(٢) لم يرد لها ذكر في معجم البلدان، بل ذكر ياقوت الحموي: مِنْجَل: وهي موضع بغربيّ صنعاء.

سلاح، بل مع كلّ واحد جريدة في رأسها مسمار حديد، وتركوا جادّة الطريق، وسلكوا الساحل، وكان بينهم وبين المخيّم مسيرة ثلاثة ايام، وكان الصليحيّ قد سمع بخروجهم، فسيّر خمسة آلاف حربة من الحبشة الذين كانوا في ركابه لقتالهم، واختلفوا في الطريق، فوصل سعيد الأحوال المذكور ومن معه إلى طريق المخيّم، وقد أخذ منهم التعب والجفاء وقلّة المادة، فظنّ الناس أنّهم من جملة عبيد العسكر، ولم يشعر بهم إلا عبدالله أخو الصليحي فقال: يا مولانا؛ اركب، فهذا والله الأحول سعيد بن نجاح. وركب عبدالله فقال الصليحي لأخيه: إنّي لا أموت إلا بالدهيم وبيرام معبد التي نزل بها رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم لمّا هاجر إلى المدينة، فقال له رجل من أصحابه: قاتل عن نفسك، فهذه والله الدهيم، وهذه بيرام معبد. فلمّا سمع الصليحي ذلك لحقه اليأس من الحياة وقال: فلم يبرح من مكانه حتّى قطع رأسه بسيفه، وقتل أخوه معه، وسائر الصليحيين. ثم إنّ سعيداً أرسل إلى الخمسة آلاف التي أرسلها الصليحي أنّ الصليحي قد قتل، وأخذت ثأر أبي، فقدموا عليه، وأطاعوه، واستعان بهم على قتال عسكر الصليحيين، فاستظهر عليهم قتلاً وأسراً ونهباً، ثم حمل رأس الصليحيّ على عود المظلمة، وقرأ القارىء: **﴿قل اللهّم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممّن تشاء﴾**، [آل عمران / ٢٦] ورجع إلى زبيد، وقد حاز الغنائم.

قلت هكذا نقل بعض المؤرخين، وقد ذكرته عن بعضهم في (كتاب المرهم) أن داعي الاسماعيلية دخل اليمن ودعا إلى مذهبهم، ونزل في الجبل المذكور، ولم يزل يدعو سرّاً حتّى كثرت أتباعهم، وظهرت دعوتهم، وملكوا جبال اليمن وتهامتها. ولكنّ ذلك مخالف بما قدّمناه عن بعض في هذا التاريخ، من وجوه.

منها: أنّهم ذكروا أنّ داعيهم الذي أظهر مذهبهم في اليمن وملكهم اسمه: علي بن فضل، من ولد خَنِفَر (بفتح الخاء المعجمة وسكون النون وفتح الفاء في آخره راء) بن سبأ. والذي تقدّم في هذا التاريخ اسمه علي بن محمد الصليحي.

ومنها أنّ دعوتهم ظهرت في سنة سبعين ومائتين، والمذكور فيما تقدّم من هذا التاريخ أنّ دعوتهم ظهرت في سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة.

ومنها أنّهم ذكروا أن علي بن الفضل المذكور كان داعياً للاسماعيلية، والصليحيّ المذكور في هذا التاريخ كان داعياً للرافضة الإمامية، ولكن يمكن الجمع بينهما على هذا الوجه، وهو أنّهم في ظاهر الدعوة يقرّون إلى مذهب الإمامية، وفي الباطن متدّينون لمذهب الباطنية. ولهذا قال الإمام حجّة الإسلام في وصف الباطنية: ظاهر مذهبهم الرفض، وباطنه الكفر المحض.

ومنها أنّ الداعي علي بن الفضل الذي ملك اليمن كان داعياً لإمام لهم، كان مستتراً في بلاد الشام، والصليحي المذكور كان داعياً للمستنصر العبيدي صاحب مصر.

ومنها أنّ على بن فضل لمّا استولى على اليمن تظاهر بالزندقة، وخلع الإسلام، وأمر جواريه أن يضربْن بالدفوف على المنبر، وتغنّين بشعرٍ قاله، أوله:

خذي الدفّ يا هذه واضربي ... وغنّي هزاريك ثم أطربي
تولّى نبيّ بني هاشم ... وهذا نبيّ بني يعربِ
وقد حطّ عنّا فروض الصلاة ... وحطّ الصيام ولم يتعبِ

قلت: وقوله نبي بني يعرب بالنبي نفسه، وأنه جاء بشريعة مسقطة للفروض التي أوجبتها شريعة محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم، يزعم المارق ـ لعنه الله ـ أنّ ما نسب إليه كان صحيحاً، ويحتمل أنّهما قضيتان في زمانين والله أعلم.

سنة اربع وسبعين واربع مائة

فيها فتح تاج الدولة أخو السلطان ملكشاه طرسوس[(١)].

وفيها توفّي أبو الوليد الباجي سليمان بن خلف المالكي الأندلسي، كان من علماء الأندلس وحفّاظها، سكن شرق الأندلس، ورحل إلى الشرق، فأقام بمكّة مع أبي ذرّ الهروي ثلاثة أعوام، وكان يمضي معه إلى السّراة مع أهل أبي ذرّ، وحجّ أربعة أعوام، ثم رحل إلى بغداد، فأقام بها ثلاثة أعوام يدرس الفقه ويقرأ الحديث، ولقي فيها جماعة من العلماء، (منهم): الإمام أبو الطيب الطبري، تفقّه عليه، والشيخ أبو إسحاق الشيرازي، وأقام بالموصل مع أبي جعفر الشيباني يدرس عليه الفقه، كذا ذكر ابن خلّكان.

وقال الذهبي: أخذ عنه علم الكلام، وسمع الكثير، وبرع في الحديث والفقه والأصول والنظر، وردّ إلى وطنه بعد ثلاثة عشر سنة، وكان ممّن روى عنه الحافظ أبو بكر الخطيب ويونس بن عبدالله بن مغيث ومكّي بن أبي طالب وابن غيلان، وغيرهم.

وقال أبو علي بن سكّرة: ما رأيت أحداً على سمته وهيبته وتوقير مجلسه، وصنّف كتباً كثيرة منها (كتاب المنتقى) و كتاب (إحكام الفصول في أحكام الأصول) و(كتاب التعديل والتجريح)[(٢)] فيمن روى عنه البخاري في الصحيح وغير ذلك، وكان أحد الأئمة الأعلام

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٨/ ١٣٠: في هذه السنة ـ ٤٧٤ هـ ـ سارتتش بعد عودة شرف الدولة عن دمشق، وقصد الساحل الشامي، فافتتح أنطرطوس.
(٢) في الكامل لابن الأثير ٨/ ١٣٠: ... الجرح والتعديل.

المقتدي بهم الأنام، ووقع بينه وبين أبي محمد بن حزم المعروف بالظاهري مجالس ومناظرات، ولي القضاء بالأندلس، وقد قيل إنه ولي قضاء حلب أيضاً.

وأخذ عنه أبو عمر بن عبد البرّ صاحب الاستيعاب، وكان يقول: سمعت أبا ذرّ عبد بن أحمد الهروي يقول: لو صحّت الإجازة لبطلت الرحلة. وروى عنه الخطيب البغدادي قال: أنشدني أبو الوليد الباجي لنفسه:

اذا كنت أعلم علماً يقيناً ... بأنّ جميع حياتي كساعة
فَلِمْ لا أكون ضنيناً بها ... وأجعلها في صلاح وَطاعة

والباجي نسبة إلى بَاجَة وهي مدينة بإفريقية، وهناك باجة أخرى وهي قرية من قرى أصبهان.

وفيها توفّي أبو بكر محمد بن المزكي النيسابوري المذكور المحدّث. كتب عنه خمسمائة نفس، وأكثر عن أبيه وأبي عبد الرحمن السلمي والحاكم. وروى عنه الخطيب مع تقدّمه. توفي في رجب.

سنة خمس وسبعين واربع مائة

فيها قدم الشريف أبو القاسم البكري الواعظ[١] من عند نظام الملك إلى بغداد، فوعظ بالنظاميّة، ونبذا الحنابلة بالتجسيم، فسبّوه وتعرّضوا له، وكبس دور بني الفرّاء، وأخذ كتاب القاضي أبي يعلى في إبطال التأويل، وكان يقرأ بين يديه وهو على المنبر، فيشفع به[٢] ويشيع شأنه.

وفيها توفي محدّث أصبهان ومسندها عبد الوهاب[٣] ابن الحافظ أبي عبدالله العبدي الأصفهاني.

وفيها أوفى حدودها توفّي أبو الفضل المطهر بن عبد الواحد الأصفهاني.

سنة ست وسبعين واربع مائة

فيها عزم أهل حَرّان وقاضيهم على تسليم حرّان إلى أمير التركمان[٤] لكونه سنّياً،

(١) في الكامل لابن الأثير ٨/ ١٣١: وكان أشعري المذهب.
(٢) وفيه أيضاً: وهو جالس على الكرسي للوعظ فيشنّع به عليهم.
(٣) في الكامل لابن الأثير ٨/ ١٣٢: وفيها توفي أبو عمرو عبد الوهاب بن محمد بن إسحاق بن منده الأصبهاني في جمادى الآخرة بأصبهان، وكان حافظاً فاضلاً.
(٤) في الكامل لابن الأثير ٨/ ١٣٣: في هذه السنة عصى أهل حرّان على شرف الدولة مسلم بن قريش، وأطاعوا قاضيهم ابن حلبة، وأرادوا ـ هم وابن عطير النميري ـ تسليم البلد إلى جبق أمير التركمان.

وغضبوا على صاحب الموصل لكونه رافضياً، ولكونه يساعد المصريين على محاصرة دمشق فأسرع إلى حرّان، ورماها بالمنجنيق، وأخذها وذبح القاضي وولدَيْه.

وفيها توفي الشيخ الإمام المتّفق على جلالته وبراعته في الفقه والأصول وزهادته وورعه وعبادته وصلاحه وجميل صفاته السيد الجليل أبو إسحاق، المشهور فضله في الآفاق جمال الدين ابراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي الفيروزأبادي وعمره ثلاث وثمانون سنة دخل شيراز، وقرأ بها الفقه على أبي عبدالله البيضاوي، وعلى عبد الوهاب بن رامين، ثم دخل البصرة، وقرأ فيها على بعض علمائها، ودخل بغداد سنة خمس عشرة وأربعمائة، تفقّه على جماعة من الأعيان، وصحب القاضي أبا الطيب الطبري، ولازمه كثيراً، وانتفع به، وظهر فضله، وتميّز على أصحابه، وناب عنه في مجلسه، ورّتبه مفيداً في حلقته، وصنّف التصانيف المباركة المفيدة المشهورة السعيدة، منها(التنبيه) و(المهذّب) في الفقه واللّمع وشرحه في أصول الفقه و(النكت في الخلاف والمعونة في الجدل)، وله شعر حسن، ومنه قوله:

سألت الناس عن خِلّ وفيٍّ ... فقالوا ما إلى هذا سبيل
تمسّك إن ظفرتَ وِدَّحرٍّ ... فإن الحرّ في الدنيا قليل

وقوله أيضاً فيما نقله بعضهم:

أحب الكأس من غير المدام ... وأهوى للحسان بلا حرام
وما حبّي لِفاحشةٍ ولكنْ ... رأيت الحبّ أخلاق الكرام

وقوله أيضاً فيما عُزي إليه: حكيم يرى أن النجوم حقيقة، ويذهب في أحكامها كلّ مذهب يخبر عن أفلاكها وبروجها، وما عنده علم بما في المغيب. وسيأتي ذكر شيء مما قيل فيه وفي كتبه.

وذكر الحافظ ابن عساكر أنه كان أنظر أهل زمانه وأفصحهم وأورعهم وأكثرهم تواضعاً وبشرى. انتهت إليه رئاسة المذهب، ورحل إليه الفقهاء من الأقطار، وتخّرج به أئمة كبار، ولم يحجّ، ولا وجب عليه حجّ، لأنه فقيراً متعففاً قانعاً باليسير. سمع الحديث من أبي علي ابن شاذان وأبي بكر البرقاني وغيرهما، وتفقّه على جماعة في شيراز والبصرة وبغداد.

قلت وقد ذكر الشيخ أبو إسحاق المذكور في (طبقات الفقهاء) قريب عشرة من شيوخه، منهم من انتسب إليه، وأشهرهم في الانتساب إليه والاشتغال عليه والملازمة له والأخذ عنه: الإمام القاضي أبو الطيب الطبري. قال الحافظ ابن عساكر: وكان يظنّ ممّن لا يفهم أنه مخالف للأشعري ـ لقوله في كتابه في (أصول الفقه): وقالت الأشعرية الأمر، لا

صيغة له قال: وليس ذلك لأنه يعتقد اعتقاده، وإنما قال ذلك لأنه خالفه في هذه المسألة التي هي مما تفرّد بها أبو الحسن.

قال: وقد ذكرنا فتواه فيمن خالف الأشعرية واعتقد بتبديعهم، وذلك أوفى دليل على أنه منهم. انتهى كلام الحافظ ابن عساكر.

قلت: والفتوى المذكورة عن الشيخ أبي إسحاق في هذه الألفاظ التي نقلها الإمام ابن عساكر الجواب، وبالله التوفيق.

إنّ الأشعرية هم أعيان أهل السنّة ونصّار الشريعة، انتصبوا للردّ على المبتدعين القدرية والروافض وغيرهم، فمن طعن فيهم فقد طعن على أهل السنّة، وإذا رفع أمر من يفعل ذلك إلى الناظر في أمر المسلمين وجب عليه تأديبه بما يرتدع كلّ أحد. وكتب ابراهيم بن علي الفيروزأبادي، وبعده جوابي مثله، وكتب محمد بن أحمد الشاشي، وذكر الحافظ ابن عساكر أيضاً أجوبة أخرى لقاضي القضاة الدامغاني وأصحاب الحديث، ولا نطول بذكر ذلك.

وقال الحافظ محبّ الدين بن النجّار: فاق أهل زمانه في العلم والزهد، وانتشر فضله في القرب والبعد، أو قال: في البلاد. وأكثر علماء الأمصار من تلامذته.

وروى عنه الإمام الحافظ السمعاني بسنده في تذييله على تاريخ بغداد أنه قال: كنت نائما فرأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم ومعه أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما فقلت: يا رسول الله، بلغني عنك أحاديث كثيرة، وأريد أن أسمع منك حديثاً بغير واسطة ورويّ بعضهم، أتشرف به في الدنيا، وأجعله ذخراً في الآخرة، فقال صلّى الله عليه وآله وسلّم: يا شيخ، من أراد السلامة فليطلبها في سلامة غيره منه، وكان يفرح ويقول: سمّاني رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم شيخاً. قال الإمام السمعاني: وسمعت جماعة يقولون: لما قدم أبو إسحاق رسولاً إلى نيسابور يعني رسول الخليفة أمير المؤمنين المقتدي بأمر الله تلقّاه الناس، وحمل الإمام أبو المعالي الجُوَيني غاشية، ومشى بين يديه يعني بذلك إمام الحرمين.

قلت: وسيأتي في ترجمة إمام الحرمين أن الشيخ أبا إسحاق عظّمه أيضا فقال: تمتّعوا بهذا الإمام، فإنه نزهة هذا الزمان. مشيراً إلى امام الحرمين. رواه السمعاني.

وذكر بعض أهل الطبقات كلاماً معناه أنه حكي أنّ الشيخ أبا إسحاق تناظر هو وإمام الحرمين، فغلبه أبو إسحاق بقوّة معرفته بطريق الجدل.

قلت وقد سمعت من بعض المشتغلين بالعلم نحواً من هذا، وأن إمام الحرمين قال

له: والله أعلم ما غلبتني بفقهك، ولكن بصلاحك. هكذا حكي والله أعلم.

وذكروا أنه لما شافهه أمير المؤمنين بالرسالة قال: وما يدريني أنك أمير المؤمنين، ولم أرك قبل هذا قطّ؟! فتبسّم الخليفة من ذلك، وأعجبه، فأحضر مَنْ عَرَّفه به.

وذكروا أيضاً أنه كان في طريق، فمرّ كلب، فزجره بعض أصحابه، فقال له أبو إسحاق: أما علمت أنّ الطريق مشتركة بيننا وبينه؟ وله في الورع حكايات شهيرة.

ومن تواضعه أنه كان ـ مع جلالته وعلّو منزلته ـ يحضر مجلس بعض تلامذة إمام الحرمين، أعني مجلس وعظه، وهو الشيخ الإمام البارع جامع المحاسن والفضائل بلا منازع أبو نصر عبد الرحيم ابن الإمام أبي القاسم القشيري كما سيأتي.

وذكر الحافظ ابن النجّار أنه لما ورد بلاد العجم، كان يخرج إليه أهلها بنسائهم، فيمسحون أردانهم يعني به أو قال: أردانهم به، ويأخذون تراب نعله، فيستشفون به.

وذكر علماء التاريخ أنّه لمّا فرغ نظام الملك من بناء المدرسة النظامية التي في بغداد سنة تسع وخمسين وأربع مائة قرر لتدريسها الشيخ أبا إسحاق. واجتمع الناس من سائر أعيان البلد وجوه الناس على اختلاف طبقاتهم، فلم يحضر الشيخ أبو إسحاق، وسبب ذلك أنّه لقيه صبي قيل حمّال من السوق فقال له: كيف تدرّس في مكان مغصوب. فرجع واختفى، فلمّا أيسوا من حضوره قالوا: ما ينبغي أن ينصرف هذا الجمع إلا بعد تدريس، فدرّس الإمام أبو نصر بن الصباغ ـ مصنّف (الشامل) وقيل: لم يكن حاضراً، بل نفذ إليه عند ذلك، فحضر ودرّس. فلمّا وصل الخبر إلى نظام الملك أقام القيامة على العميد أبي سعيد، فلم يزل يرفق بالشيخ أبي إسحاق حتّى درّس بها.

وذكر بعضهم أنّ الشيخ أبا إسحاق ظهر في مسجده بعد اختفائه، ولحق أصحابه من ذلك ما بان عليهم، وفتروا عن حضور درسه، وراسلوه أنه أن لم يدرّس بها مضوا إلى ابن الصبّاغ، وتركوه، فأجاب إلى التدريس بها، وعزل ابن الصبّاغ، وكان مدّة تدريسه بها عشرين يوماً.

قلت وإذا كان الحامل للشيخ أبي إسحاق على التدريس بها قول طلبته المذكور، وفتورهم عن حضور درسه، فذلك يحمل على حرصه على نشر علمه، ونفع المسلمين به، ويكون ذلك من النصيحة للدين والاهتمام بالقيام لإظهار ما شرع من الأحكام، وتعليمها للراغبين فيها من الأنام، وكراهية أن يكون علمه مهجوراً، وتعطيل النفع بما سعى في تحصيله دهوراً.

قلت وممّا يناسب ذلك ما جرى لبعض علماء اليمن، وهو الفقيه الإمام الكبير البارع الولي الشهير، قدوة الزمن، ومفتي اليمن: علي بن قاسم، وذلك أن سلطان اليمن لما ثبت عنده أنّه أفضل أهل زمانه في نواحي مكانه، ندبه إلى التدريس في مدرسته، فامتنع، فراجعه في ذلك، فلم يوافق، فقالوا له: إمّا تدّرس في مدرستي، وإمّا تخرج من بلادي، فقال: أنا أخرج ، فخرج إلى بعض الأمكنة التي لا يجتمع فيها من الطلبة مثل ما يجتمع في المدن، فأخذ يدرّس فيها، فلم يحضر عنده إلا نفر يسير، خلاف ما كانه يحضره عنده من الجمع الكثير، فأنكر في ذلك، وقال: أرجع أدرّس في المكان الذي كنت فيه ـ والبلاد بلاد الرحمن، ما هي بلاد السلطان فرجع، فأعلم السلطان ـ برجوعه، فقال: لعّله قبل التدريس، فاستحضره، وأمره بالذهاب إلى المدرسة، فامتنع من ذلك، فقال: اذهبوا به إلى الحبس، فذهبوا به، فلمّا بلغ ببعض الطريق، أمر بردّه، فلمّا رجع إليه قال له: المصلحة أن تدرّس، فأبى ورأى المصلحة بخلاف ذلك، فقال: اذهبوا به إلى الحبس، فذهبوا به إلى أن بلغ ما شاء الله من الطريق، ثمّ استدعى بردّه فلمّا رجع تكلّم عليه، وحذّره من المخالفة، وبالغ في ذلك، فقال: لا سبيل إلى ذلك، فقال: اسجنوه، فسجنوه بعنف، وربمّا أخذوه بأطوار، فقال: يا قميص، اخنقه. أو كما قال من الكلام مشيراً بذلك إلى قميص السلطان، فخنق السلطان قميصه، ونزل عليه من البلاء ما لا يطيقه، فصاح : أطلقوه، أطلقوه. فما أطلقوه، فأطلقه السلطان لما أصابه من البلاء والامتحان.

وممّا وقع للفقيه المذكور مع السلطان أنه حضر شهر رمضان في وفد السلطان، فقال: انظروا أفضل الناس يصلّي بنا في هذا الشهر. فقالوا: ما هنا أفضل من الفقيه علي بن قاسم، فاستدعى به السلطان، والتمس منه أن يؤمّهم، فلمّا كان أول ليلة من رمضان، تقدّم على أنّه يصلّي بهم، فطار شرار من الشماع التي في حضرة السلطان، فوقعت في ثياب الفقيه المذكور، فنفض ثيابه، وهجّ خارجاً من ذلك المكان وهو يقول: ﴿**ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النار**﴾، [هود/ ١١٣]. وكان من حدّة ذكائه وقوّة براعته في الفقه أنه التزم انّ جميع ما يسأل عنه لا يجيب عنه إلاّ من (كتاب التنبيه).

رجعنا إلى ذكر صاحب التنبيه: أخبرني بعض الفقهاء الصلحاء، أفضل أهل الصنعاء، ممّن يرد عليه أحوال الفقراء، قال: كنّا جماعة نتدارس التنبيه، كما يتدارس القرآن، فبينا نحن في بعض الأيام نتدارسه، إذ كشف لي عن الشيخ أبي إسحاق حاضراً معنا في المجلس، وإذا به يقول ما معناه: حسبت في كتابي ما حسبته من خير الآمال، وما حسبت قطّ أنه بلغ إلى هذا الحال، أو نحو ذلك من المقال. يعني: أنه يتدارس كما يتدارس القرآن.

وقال القاضي محمد بن محمد الماهاني: إمامان ما اتفّق لهما الحجّ: الشيخ أبو

إسحاق، والقاضي أبو عبدالله الدامغاني. امّا أبو إسحاق، فكان فقيراً، ولكن لو أراده لحمل على الأعناق. وأمّا الدامغاني، فلو أراد الحجّ على السندس والاستبرق لأمكنه.

وقال الفقيه أبو الحسن محمد بن عبد الملك الهمداني: حكى أبي قال: حضرت مع قاضي القضاة أبي الحسن الماوردي ـ سنة أربعين وأربعمائة ـ في عزاء إنسان سمّاه، فتكلّم الشيخ أبو إسحاق، فلمّا خرجنا، قال الماوردي: ما رأيت كأبي إسحاق، لو رأه الشافعي لتجمّل به، أو قال: لأعجب به. وقال الإمام أبو بكر الشاشي مصنّف المستظهري: وشيخنا أبو إسحاق حجّة على أئمة العصر.

وقال الموفقّ الحنفي: الشيخ أبو إسحاق أمير المؤمنين فيما بين الفقهاء.

وقال الإمام السمعاني: كان أبو إسحاق يوسوس في الطهارة.

سمعت عبد الوهاب الأنماطي يقول: كان الشيخ أبو إسحاق يتوضّأ في الشطّ، فغسل وجهه مراراً، فقال له رجل: يا شيخ، أما تستحي تغسل وجهك كذا وكذا مرّة؟! فقال أبو إسحاق: لو حصلت لي الثلاثة ما زدت عليها. يعني: لو حصل لي العلم أو الظنّ المولد بعموم الثلاث للوجه ما زدت عليها. انتهى.

قلت: جميع هذا المذكور في الشيخ أبي إسحاق ممّا ذكره علماء الطبقات والتواريخ، وممّا رويناه عن أهل العلم والخبر.

ومن ذلك أيضاً ما ذكر بعضهم أنه رأى الشيخ الإمام أبا إسحاق المذكور بعد وفاته وعليه ثياب بيض، وعلى رأسه تاج ـ فقيل له: وما هذا البياض؟ فقال: شرف الطاعة. قال: والتاج؟ قال: عزّ العلم.

وفيه قال عاصم بن الحسن:

تراه من الذكاء نحيف جسم ... عليه من توقّده دليل
إذا كان الفتى ضخم المعالي ... فليس يضرّه الجسم النحيل

قال السلاّر العقيلي:

كفاني إذا عزّ الحوادث صارم ... ينيلني المأمول في الإثْر والأثر
يقدّ ويفري في اللقاء كأنه ... لسان أبي إسحاق في مجلس النظر

وممّا قيل فيه: وكان قد استقرّ إجماع أهل بغداد بعد موت الخليفة على أن يعقد الخلافة لمن اختاره الشيخ أبو إسحاق، فاختار المقتدي بأمر الله فيما حكاه الإمام طاهر ابن الإمام العلاّمة يحيى بن أبي الخير العمراني فيما يغلب على ظنّه.

ولقد رضيت عن الزمان وإنْ رمى — قومي يخطب ضعضع الأركانا
لمّا رآني طلبة الخبر الذي — أحيى الإله بعلمه الأديانا
أزكى الورى ديناً وأكرم شيمة — وأمدّ في طلق العلوم عنانا
وأقلّ في الدنيا القصيرة رغبة — ولطالما قد أنصف الرهبانا
لله ابراهيم أي محقّق — صلب إذا ربّ البصيرة لانا
فتخيّله من زهده ومخافة — لله قد نظر المعاد عيانا

ومما قيل فيه وفي كتاب التنبيه ما رواه الحافظ ابن عساكر:

سقياً لمن صنّف التنبيه مختصراً — ألفاظه العزّ واستقصى معانيه
إنّ الإمام أبا إسحاق صنّفه — لله والدين لا للكبر والتنبيه
رأى علوماً عن الأفهام شاردة — فحازها ابن عليّ كلّها فيه
لا زلت للشرع ابراهيم منتصراً — تذبّ عنه أعاديه وتحميه

قلت: وفيه وفي كتاب المهذّب، وما اشتمل عليه من الفقه والمسائل النفيسات، نظّمت قصيدة من جملتها هذه الأبيات، بعدما طعن فيه بعض المتعصّبين، وزعم أنّه ليس فيه شيء من المسائل الفقهيات، وحلف على ذلك بعض إيمان الغليظات، فأرسل إليّ من بعض البلاد البعيدة في السؤال عن ذلك، وعن اليمين المذكورة، فأجبت بجواب مشتمل علي التعنيف والإنكار الشديد على الطاعن في محاسنه المشهورة، وختمت الجواب بهذه الأبيات التي هي إلى فضائله مشيرات:

إذا الغرّ عن غرّ المسائل سائل — وقال: افتني أين استقرت فجاوب
وقل غرّها عن درّ فقهٍ تبسّمت — ملاح الحلي حلّت كتاب المذهّب
عذارى المعاني قد زهت في خدورها — على غير كفوٍ لازمات التحجّب
ذراري أبي إسحاق أكرمْ بسيّد — إمام نجيب للبعيد مقرّب
بمدح علاه لا أقوم وإنّما — أذبّ مقال الطاعن عن المتعصّب
قبولاً وإقبالاً حظته سعادة — وأضحى لطلّاب كياقوت مطلب
تصانيفه كمْ من إمام وطالبٍ — بها انتفعا في شرق أرض ومغرب
وما ذاك إلاّ عن عطاء عناية — وتخصيص فضلٍ لا ينال بمكسب

ولما مات الشيخ أبو إسحاق رثاه أبو القاسم بن نافيا (بالنون وبعد الالف فاء ثم المثنّاة من تحت) هكذا هو في الاصل المنقول منه حيث قال:

أجرى المدامع بالدّم المهراق — خطبٌ أقام قيامة الآباق

مـا للّيـالـي لا تـؤلّـف شملهـا بعـد ابـن نجـدتهـا أبـي إسحـاق
إن قيـل مـات فلـم يمـتْ مـن ذكـره حـيّ علـى مـرّ الليـالـي بـاقِ

ثم درّس بعده في النظامية الإمام أبو سعيد المتولي مدّة، ثم صرف بالإمام ابن الصباغ، ثم صرف ابن الصبّاغ أيضاً بأبي سعيد المذكور على ما نقل بعضهم ـ وذكر بعضهم أنه لما توفي الشيخ أبو إسحاق، جلس أصحابه للعزاء بالمدرسة النظامية، فلما انقضى العزاء رتّب مؤيد الملك ابن نظام الملك علي سعيد(١) المتولّي، ولما بلغ الخبر نظام الملك كتب بإنكار ذلك، وقال: كان من الواجب أن تغلق المدرسة سنة لأجله. وأمر أن يدرّس الشيخ أبو نصر بن الصبّاغ.

قلت وممّن درّس في النظامية من الأئمة الكبار أبو حامد الغزالي، وأبو بكر الشاشي صاحب المستظهري، وأبو النجيب السهروردي، وجماعة كبار مترتّبون على تعاقب الأعصار، وقد يتعجّب من عدم ذكر التدريس بها إمام الحرمين، وليس بعجب، فإن إمام الحرمين كانت إقامته بنيسابور، وكان مدرّساً هنالك بالمدرسة النظامية.

قلت وهذا ما اقتصرت عليه من ذكر مناقب الشيخ أبي إسحاق، وله فضائل جليلة، ومحاسن جميلة، وسيرة حميدة طويلة. ثم أدبه وزهادته، وورعه وعبادته، وفضائله وبراعته، وتواضعه وقناعته، وصلاحه وكرامته وغير ذلك من مشهور المناقب ومشكور المواهب التي لا يحصرها عدّ حاسب.

ومن ورعه ما حكوا أنه كان إذا حضر وقت الصلاة خرج من المدرسة النظامية، وصلّى في بعض المساجد. وكان يقول رحمة الله عليه: بلغني أنه أكثر آلاتها غصب واصلة على مرّ الدهور بالنفحات الالهية.

وفي السنة المذكورة توفّي طاهر بن الحسين القوّاس الحنبلي، وكان إماماً في الفقه والورع رحمه الله.

وفيها توفّي الحافظ عبدالله بن العطار الهروي. وفيها توفّي الواعظ البكري الأشعري أبو بكر المغربي. وفد على نظام الملك بخراسان، فكتب له سجلاً أن يجلس بجوامع بغداد، فقدم، وجلس، ووعظ، ونال من الحنابلة سبّاً وتكفيراً، ونالوا منه.

وفيها توفّي مقرىء الأندلس في زمانه أبو عبدالله محمد بن شريح الرعيني الأشبيليّ، مصنّف (كتاب الكافي) و(كتاب التذكير) سمع من أبي ذرّ الهروي وجماعة.

---

(١) في الكامل لابن الأثير: ٨/ ١٣٤: فرتّب في التدريس أبا سعد عبد الرحمن بن المأمون المتولي.

سنة سبع وسبعين واربع مائة

فيها سار صاحب قُونِيَة[١] سليمان السلجوقي[٢] إلى الشام بجيوشه، فأخذ أنطاكية، وكانت بيد النصارى منذ مائة وعشرين سنة، وكان ملكها[٣] قد سار عنها إلى بلاد الروم، ورتّب بها نائباً، فأساء إلى أهلها وإلى الجند في إقامته بها. فلمّا دخل بلاد الروم، واتفّق ولده والنائب المذكور على تسليمها إلى صاحب قونية، وكاتبوه، فأسرع في البحر، ثم طلع، وسار إليها في جبال وعرة، فأتاها بغتة، فنصب السلالم ودخلها، وقتل جماعة، وعفا عن الرعية، وأخذ منها أموالاً لا تحصى، ثم بّعث إلى السلطان ملك شاه، يبشّره بالفتح. وكان صاحب الموصل يأخذ الوظيفة من أنطاكية، فطلب العادة من سليمان، فقال له ذلك المال جزية، وأنا بحمد الله مؤمن.

وفيها توفّي ذو الوزارتين محمد بن عمّار الأندلسي الشاعر المشهور. كانت ملوك الأندلس تخافه لبذاءة لسانه وبراعة جنانه. وكان جليساً وشهيراً ووزيراً ومشيراً لصاحب الأندلس في زمانه، ثم خلع عليه خاتم الملك، ووجّهه أميراً، فتبعته المواكب والمضارب والنجائب والكتائب والجنود، وضربت خلفه الطبول، ونشرت على رأسه الرايات، فملك مدينة تُدْمِيْر[٤] (بضم المثناة من فوق وكسر الميم وسكون الدال المهملة بينهما وقبل الراء مثناة من تحت ساكنة) وأصبح راقي منبر وسرير، مع ما كان فيه من عدم السياسة وسوء التدبير، ثم بادر إلى عقوق من قربه، فانقلبت الدائرة عليه خوفاً، وخاف فيما طلبه، وحصل في القبصة قبيصاً، وأصبح لا يجد له محيصاً، إلى أن قتل في قصره، وأضحى مدفوناً في قبره، وله أشعار جميلة، ومن جملة قصيدة له طويلة في المعتضد بن عبّاد:

ملـــوكُ العـــزّ فـــي عـــرصـــاتهـــم ومثـوى المعـالـي بيـن تلـك المعـالـم[٥]
هـــو البيـــت يـــا عـــزّ الضنـــى لبنـــائـــه بـــأس ومـــا عـــزّ القنـــا لـــدعـــائـــم

وفيها توفي العالم النبيل اسماعيل بن معبد بن اسماعيل ابن الإمام أبي بكر الإشبيلي الجرجاني. كان وافر الحشمة، له يد في النظم والنثر.

وفيها قيل في التي قبلها توفيت أمّ الفضل بنت عبد الصمد الهروية. لها جزء مشهور بها، يرويه عن عبد الرحمن بن أبي شريح. عاشت تسعين سنة.

وفيها توفي أبو سعيد عبدالله ابن الإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري، أكبر الإخوة،

---

(١) في معجم البلدان: قونية: من أعظم مدن الإسلام بالروم، وبها وبأَقْصَرَى سكنى ملوكها.
(٢) سليمان بن قتلمش. انظر الكامل لابن الأثير ٨/١٣٦.
(٣) في المصدر السابق: الفردوس الرومي.
(٤) في معجم البلدان: تدمير: كورة بالأندلس تتصل بأحواز كورة جيّان، وهي شرقي قرطبة.
(٥) العرصات: مفردها العرصة: وهي ساحة الدار، سمّيت كذلك لاعتراض الصبيان فيها.

وعاشت أمّه فاطمة بنت الشيخ أبي علي الدقّاق بعدْ أربعة أعوام، وعمره أربع وستّون سنة.

وفيها توفّي الفقيه الإمام مفيد الطلاب، ومفتي الأنام: عبد السيد بن محمد بن عبد الواحد البغدادي أبو نصر المعروف بابن الصبّاغ. كان فقيه العراقين، وكان يضاهي الشيخ أبا إسحاق الشيرازي. وبعضهم يرجّحه عليه في معرفة المذهب.

قلت: يعنون في معرفة الفروع، وأمّا معرفة الأصول أو المباحث العقلية فأبو إسحاق مرجّح عليه وعلى عامّة الفقهاء، إلا ما شاء الله تعالى. وكان يرحل إليه من البلدان، وكان تقياً صالحاً حجّة. ومن مصنّفاته (كتاب الشامل) في الفقه، وهو من أجود كتب الشافعية وأصحّها نقلاً وأثبتها أدلّة. وله كتاب(تذكرة العالم والطريق السالم) و(العدة) في أصول الفقه وولي التدريس في النظامية، على ما تقدّم إيضاحه في ترجمة الشيخ أبي إسحاق، وقيل إنّه كفّ بصره في آخر عمره.

وفي السنة المذكورة توفّي الشيخ الجليل الكبير الشأن الفضل بن محمد المرشد شيخ خراسان، أبو علي المعروف بالفارمدي.

قال الشيخ عبد الغافر: هو شيخ الشيوخ في عصره، المنفرد بطريقته في التذكير التي لم يسبق إليها في حسن عبارته وتهذيبه، وحسن آدابه، ومليح استعارته، ودقّة إلطافه، دخل نيسابور، وصحب الأستاذ أبا القاسم القشيري، وأخذ في الاجتهاد البالغ إلى أن نال، وحصل له عند نظام الملك قبول خارج عن الحدّ روى عن جماعة، وعاش سبعين سنة.

وفيها توفّي الحافظ أبو سعيد مسعود بن ناصر السِّجْزِي، رحل، وصنّف، وحدّث عن جماعة، وقال الدقّاق: لم أرَ أجود إتقاناً ولا أحسن ضبطاً منه.

سنة ثمان وسبعين واربع مائة

فيها صارت الفتنة[1] بين الرافضة والسنّية، اقتتلوا، وأحرقت أماكن.

وفيها توفّي الحافظ المتقن أبو العباس أحمد بن عمر الأندلسي. روى عن أبي الحسن بن جهضم وطائفة، ومن جلالته أنه روى عنه إماما الأندلس: ابن عبد البرّ وابن حزم. وله (كتاب دلائل النبوّة).

وفيها ليلة الجمعة ثامن عشر شوّالها توفّي الإملم الكبير الفقيه البارع المجيد ذو الوصف الحميد، والمنهج السديد أبو سعد على القول الأصح وقيل: أبو سعيد المتولّي: عبد الرحمن ابن محمد المعروف بالمتولّي النيسابوري، شيخ الشافعية، وتلميذ القاضي حسين. كان جامعاً بين العلم والدين، وحسن السيرة وتحقيق المناظرة، له يد قويّة في الأصول والفقه، والخلاف

(١) في الكامل لابن الأثير: ٨/ ١٣٩: وفيها كانت الفتنة بين أهل الكرخ وسائر المحالّ من بغداد.

والتدريس. وصنّف (كتاب التتمّة)، تممّ به (كتاب الإبانة) تصنيف شيخه أبي القاسم الفُوراني (بالنون قبل ياء النسبة والفاء المضمومة قبل الواو والراء بعدها) ودرّس بالنظامية بعد الشيخ أبي إسحاق عشرين يوماً، ثم صرف بابن الصبّاغ، ثم صرف ابن الصبّاغ به، واستمرّ بها أبو سعد إلى أن توفّي، وتخرّج به جماعة من الأئمة، وسمع الحديث، وصنّف في الفقه، وعجّلته المنيّة قبل إتمامه التتمة، وأتمه من بعده جماعة، ولم يأتوا بالمقصد، ولا سلكوا طريقه، فإنّه جمع في كتابه الغرائب من المسائل، والوجوه الغريبة التي لا تكاد توجد في كتاب غيره. وله في الفرائض مختصر صغير مفيد جدّاً، وله في الخلاف طريقة جامعة لأنواع المسائل، وله في أصول الدين تصنيف صغير، وكلّ تصانيفه نافعة. قال بعض المؤرخين: ولم أعلم لأي معنى دعي المتولّي.

وفيها توفّي أبو معشر عبد الكريم بن عبد الصمد الطبري المصري، نزيل مكّة، وصاحب (كتاب التلخيص).

وفيها توفّي شيخ المعتزلة محمد بن أحمد الكرخي، وقاضي القضاة أبو عبدالله الدامغاني محمد بن علي الحنفي. تفقّه بخراسان ثم ببغداد على القُدوري، وسمع من الصوريّ وجماعة، وكان نظير القاضي أبي يوسف في الجاه والحشمة والسؤدد، بقي في القضاء دهراً دفن في القبّة إلى جنب الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه.

وفيها توفّي الإمام الحفيل السيّد الجليل، المجمع على إمامته، المتّفق على غزارة مادّته وتفنّنه في العلوم من الأصول والفروع والأدب وغير ذلك، الإمام الناقد المحقّق البارع النجيب المدقّق، أستاذ الفقهاء المتكلّمين، وفحل النجباء والمناظرين، المقرّ له بالنجابة والبراعة، وتحقيق التصانيف وملاحتها، وحسن العبارة وفصاحتها، والتقدم في الفقه، ذو الأصلين: النجيب ابن النجيب، إمام الحرمين، حامل راية المفاخر وعلم العلماء الأكابر: أبو المعالي عبد الملك[1] ابن ركن الإسلام أبي محمد، فخر الإسلام والأئمة، ومفتي الإمام المجمع على إمامته شرقاً وغرباً، المقرّ بفضله السراة والحراة، عجماً وعرباً، رباه حجر الإمامة، وحرّك ساعد السعادة مهده، وأرضعه ثدي العلم والورع، إلى أن ترعرع فيه ونفع، أخذ العربية وما يتعلق بها أوفر حظّ ونصيب، وزاد فيها على كلّ أدب، ورزق من التوسّع في العبارة بعلوها ما لم يعهد من غيره، حتّى أنسى ذكر سبحان، وفاق فيها الأقران، وحمل القرآن، وأعجز الفصحاء اللدّ، وجاوز الوصف والحدّ، وكان يذكر دورساً، يقع كلّ واحد منها في أطباق وأوراق، يتلعثم في كلمة، ولا يحتاج فيها إلى استدراك غيره، يمرّ فيها كالبرق الخاطف بصوت مطابق كالرعد القاصف، لا يلحقه المبرزون، ولا يدرك شأوه المتشدّقون المتفيهقون،

---

(١) في الأنساب للسمعاني: ١٢٨/٢، ١٢٩: أبو المعالي عبد الملك بن عبدالله بن يوسف الجويني المعروف بإمام الحرمين... والجويني نسبة إلى جوين وهي ناحية متصلة بحدود بيهق.

وما يوجد في كثير من العبارات البالغة كنه الفصاحة، غيض من فيض ما كان على لسانه، وغرفه من أمواج ما كان يعهد من بيانه.

تفقّه في صباه على والده ركن الاسلام، وكان يزهى بطبعه وتحصيله، وجودة قريحته، وكياسة غريزته، لما يرى فيه من المخائل، ثم خلفه من بعد وفاته، وأتى على جميع مصنّفاته، فقلبها ظهر البطن، وتصرّف فيها، وخرّج المسائل بعضها على بعض، ودرس سنين، ولم يرض في شبابه وتقليد والده وأصحابه، حتّى أخذ في التحقيق، وجدّ، واجتهد في المذهب والخلاف ومجالس النظر، حتّى ظهرت نجابته، ولاح على أيامه همّة أبيه وفراسته، وسلك طريق المباحثة، وجمع الطرف بالمطالعة والمناظرة، حتى أربى على المتقدّمين، وأنسى مصنّفات الأوّلين، وسعى في دين الله سعياً يبقى أثره إلى يوم الدين.

ومن ابتداء أمره أنه لمّا توفّي أبوه، كان سنّه دون العشرين أو قريباً منها، فأقعد مكانه للتدريس، وكان يقيم الرسم في درسه، ويقوم منه، ويخرج إلى مدرسة الإمام البيهقي، حتّى حصّل الأصول وأصول الفقه على الأستاذ الإمام أبي القاسم الإسكاف، وكان يواظب على مجلسه.

قال الراوي: وسمعته يقول في أثناء كلامه: كتبت عليه في الأصول أجزاء معدودة، وطالعت في نفسي مائة مجلّدة، وكان يصل الليل بالنهار في التحصيل، حتّى فرغ منه، وكان يبكّر قبل الاشتغال بالتدريس إلى مسجد الأستاذ أبي عبدالله الخبّازي، يقرأ عليه القرآن، ويقتبس من كلّ نوع من العلوم ما يمكن، مع مواظبته على التدريس، ويجتهد في ذلك، ويواظب على المناظرة، إلى أن ظهر التعصّب بين الفريقَيْن: الأشعرية والمبتدعة، واضطربت الأحوال والأمور، واضطرّ إلى السفر والخروج عن البلاد والوطن، فخرج مع المشايخ إلى العسكر، ثم خرج إلى بغداد، يطوف ويلتقي الأكابر من العلماء ويدارسهم، ويناظرهم، حتّى تهذّب في النظر، وشاع ذكره، واشتهر.

ثم خرج إلى الحجاز وجاور بمكّة أربع سنين، يدرّس ويفتي، ويجمع طرق المذهب، ويقلّل على تحصيل، وبهذا قيل له إمام الحرمين، قلت: هكذا قيل إنه لقّب بهذا اللقب بهذا السبب، وكأنه صار متعيّناً في الحرمين، متقدماً على علمائهما، مفتياً فيهما، ويحتمل أنّه على وجه التفخيم له كما هو العادة في أقوالهم ملك البحرين وقاضي الخافقين. ونسبة إمامته في الحرمين لشرفهما، توصّلاً إلى الإشارة إلى شرفه وفضله، وبراعته ونبله، وتحقيقه وفهمه، وعند الله في ذلك حقيقة علمه.

ثمّ رجع بعد مضيّ نوبة التعصّب، فعاد إلى نيسابور، وقد ظهرت نوبة السلطان ألب أرسلان، وتزيّن وجه الملك بإشارة نظام الملك، واستقرّت أمور الفريقين، وانقطع

التعصّب، فعاد إلى التدريس، وكان بالغاً في العلم نهاية، مستجمعاً أسبابه، فبنيت المدرسة الميمون النظامية، وأقعد للتدريس فيها، واستقامت أمور الطلبة، وبقي ذلك قريباً من ثلاثين سنة من غير مزاحم ولا مدافع، فسلّم له المحراب والمنبر، والخطابة والتدريس، ومجلس التذكير يوم الجمعة والمناظرة، وهجرت له المجالس، فانغمز غيره من الفقهاء بعلمه وتسلّطه.

قلت: يعني اقتداره على العلوم والتصرّف فيها وكسدت الأسواق في جنبه، ونفق سوق المحقّقين من خواصّه وتلامذته، وظهرت تصانيفه، وحضر درسه الأكابر والجمع العظيم من الطلبة، وكان يقعد بين يديه كلّ يوم نحو ثلاثمائة رجل من الأئمة والطلبة، وتخرّج به جماعة من الأئمة الفحول وأولاد الصدور، حتّى بلغوا محلّ التدريس في زمانه، وانتظم بإقباله على العلم، ومواظبته على التدريس والمناظرة، والمباحثة أسباب ومحافل، ومجامع وإمعان في طلب العلم، وسوق نافقة لأهله، لم تعهد قبله. واتصل به ما يليق بنصبه من القبول عند السلطان والوزير والأركان، ووفور الحشمة عندهم، بحيث لا يذكر من غيره، وكان المخاطب والمشار إليه، والمقبول من قبله، والمهجور من هجره، المصدّر في المجالس، من ينتهي إلى خدمته، والمنظور إليه، من يعترف في الأصول والفروع من طريقته، واتفق منه تصانيف، مثل (النظامي) و(الغياثي) حصل بسببها موقع القبول، بما يليق بها من الشكر والرضاء، والخلع الفائقة والمراكب الثمينة، والهدايا والموسومات، كذلك إلى أن قلّد زعامة الأصحاب، ورئاسة الطائفة، وفوّض اليه أمور الأوقاف، وصارت حشمة وزراء العلماء والأئمة والقضاة، وقوله في الفتوى مرجع العظماء والأكابر والولاة، واتفّقت له نهضة في أول ما كان من أيامه إلى اصبهان، بسبب مخالفة بعض الأصحاب، فلقي بها من المجلس النظامي ما كان اللائق بمنصبه من الاستيشار والإعزاز والإكرام بأنواع المبّار، وأجيب بما كان فوق مطلوبه، وعاد مكرّماً إلى نيسابور، وصار أكثر عنايته مصروفاً إلى تصنيف الكتاب الكبير في المذهب، المسمّى (بنهاية المطلب في دراية المذهب)، حتّى حرّره، وأملاه، وأتى فيه من البحث والتقرير، والسبك والتنقير، والتدقيق والتحقيق، بما شفى العليل، وأوضح السبيل، ونبه على قدره ومحلّه في علم الشريعة، ودرّس ذلك للخواصّ والتلامذة، وفرغ منه ومن إتمامه، فعقد مجلساً لتتمّة الكتاب، حضره الأئمة والكبار، وختم الكتاب على رسم الإملاء والاستملاء، وتبجح الجماعة بذلك، ودعوا له، وأثنوا عليه، وكانوا من المعتدّين بإتمام ذلك، شاكرين عليه، فما صنّف في الإسلام قبله مثله، ولا اتفّق لأحد ما اتفّق له، ومن قاس طريقته وطريقة المتقدّمين في الأصول والفروع، وأنصف، أقرّ بعلوّ منصبه ووفور تعبه ونصبه في الدين، وكثرة شهرته في استنباط الغوامض، وتحقيق المسائل، وترتيب الدلائل.

ومن تصانيفه المشهورة المفيدة النافعة الحميدة (الشامل) في أصول الدين، وَ(الإرشاد) و(العقيدة النظامية) و(غيّاث الأمم) في الإمانة و(مغيث الخلق في اختيار الحقّ) و(البرهان) في أصول الفقه و(تلخيص التقريب) و(كتاب تلخيص نهاية المطلب)، ولم يتمّه و(غنية المسترشدين) في الخلاف، وغير ذلك من الكتب.

وقال الراوي: ولقد قرأت فصلاً ذكر علي بن حسن بن أبي الطيب في (كتاب دمية القصر) مشتملاً على حاله.

قلت: وقد وقفت على ما ذكره فيه، وبالغ في مدحه، وشكره بمحاسن يطول ذكرها، ويعظم شكرها، منها قوله: فالفقه فقه الشافعي، والأدب أدب الأصمعي، وحسن بصيرة بالمواعظ الحسنُ البصري، وكيفما كان فهو إمام كلّ إمام، المُستعلي بهمّته على كلّ همّام، والفائز بالظفر على إرغام كلّ ضرغام.

وقال الشيخ أبو الحسن بن أبي عبدالله الأديب في كتابه: كم له من فضل مشتمل على العبارة الفصيحة العالية، والنكت البديعة والنادرة، في المحافل منه سمعناه، وكم من مسائل في النظر شهدناه، ورأينا منه في إقحام الخصوم وعهدناه، وكم من مجلس في التذكير للعوامّ مسلسل المسائل، مشحون بالنكت المستنبطة من مسائل الفقه، مشتملة على حقائق الأصول، مبكية في التحذير، مفرحة في التبشير، مختومة بالدعوات وفنون المناجاة، حضرناه وكم من مجمع للتدريس جاء، وللكبار من الأئمة وإلقاء المسائل عليهم والمباحث في غورها رأيناه، وحصلنا بعض ما أمكننا منه وعقلناه، ولم نقدّر ما كنّا فيه من نصرة أيامه وزهرة شهوره وأعوامه حقّ قدرِه، ولم نشكر الله عليه حقّ شكره حتّى فقدناه وسلبناه.

قال: وسمعته يقول في أثناء كلامه: أنا لا أنام، ولا آكل عادة، وإنما أنام إذ غلبني النوم ليلاً كان أو نهاراً، آكل إذا اشتهيت أيّ وقت كان. وكانت لذّته ولهوه ونزهته في مذاكرة العلم وطلب الفائدة من أيّ نوع كان.

وقال: لقد سمعت الشيخ أبا الحسن المجاشعي النحوي القادم علينا سنة تسع وستين وأربع مائة يقول: وقد قبله الإمام فخر الإسلام وقابله بالإكرام، وأخذ قي قراءة النحو عليه وتلمذ له بعد أن كان إمام الأئمة في وقته، وكان يحمله كلّ يوم إلى داره، ويقرأ عليه كتاب (أكسير الذهب في صنعة الأدب) من تصنيفه.

وكان يحكي ويقول: ما رأيت عاشقاً للعلم أيّ نوع كان كمثل هذا الإمام ، فإنّه يطلب العلم للعلم، هذا بعض كلامه. قال بعض الأئمة: وكان كذلك.

وممّا له من الجلالة والمفاخر ما أتى عليه الجلّة الأكابر المشهورون بجلالة القدر والتقدّم من علماء العصر، كجمال العلماء المجمع على فضله وجلالته، وعلوّ منزلته وإمامته، الشيخ أبي إسحاق الشيرازي. قال الإمام أبو سعد السمعاني: قرأت بخطّ أبي جعفر محمد بن علي الهمداني: سمعت الشيخ أبا إسحاق الفيروزأبادي يقول: تمتّعوا بهذا الإمام، فإنّه نزهة هذا الزمان، يعني أبا المعالي الجُوَينْي.

وقال ابن خلّكان في تاريخه : قال أبو حامد: سمعت الشيخ أبا إسحاق الشيرازي يقول لإمام الحرمين: يا مفيد أهل المشرق والمغرب؛ نلت اليوم إمام الأئمة.

قلت: وكذلك الإمام أبو المعالي المذكور، عظّم الإمام أبا إسحاق المذكور، كما تقدّم من حمله الغاشية بين يديه. ومن حميد سيرة أبي المعالي أنّه كان ما يستصغر أحداً حتّى يسمع كلامه مبتدئاً كان، أو منتهياً صغيراً كان، أو كبيراً ولا يستنكف من أن يعزي الفائدة المستفادة إلى قائلها، ويقول: إنّ هذه الفائدة ممّا استفدته من فلان، ولا يحتال أحداً أيضاً في التزييف إذا لم يرض كلامه ولو كان أباه أو احداً من الأئمة المشهورين.

قلت: ومن ذلك قوله في بعض المسائل بعد ذكره مقال والده فيها: وهذه زلة من الشيخ يعني والده. وكان من التواضع لكلّ أحدٍ بمحلّ، ويتحمّل منه الاستهزاء لمبالغة فيه، ومن رقة القلب بحيث يبكي إن سمع بيتاً، أو تفكّر في نفسه ساعة، وإذا شرع في حكاية الأحوال، وخاض في علوم الصوفيّة في فصول مجالسه للغدوات، حتّى أبكى الحاضرين ببكائه، وتقطّر الدماء من الجفون لزعقاته وإشاراته واحتراقه في نفسه، وتحقّقه بما يجري من دقائق الأسرار. هذه الجملة نبذ ممّا عهدناه منه إلى انتهاء أجله.

ولما توفّي رحمه الله صاح الصائح من كلّ جانب، وجزع الخلق عليه جزعاً لم يعهد مثله، ولم تفتح الأبواب في البلد، ووضعت المناديل عن الرؤوس عاماً، بحيث ما اجترأ أحد على ستر رأسه من الرؤوس والأكابر، وصلّي عليه بعد جهد وشدّة زحمة، ودفن في داره، ثم نقل بعد سنين إلى مقبرة الحسين، وكسر منبره في الجامع، وقعد الناس للعزاء أياماً. وكان طلبته قريباً من أربعمائة، يتفرّقون في البلد نائحين عليه، وكان عمره تسعاً وخمسين سنة.

وسمع الحديث من جماعة كثيرة، وله إجازة من الحافظ أبي نعيم الأصبهاني، صاحب (حلية الأولياء)، وقد سمع سنن الدارقطنّي من أبي سعيد بن عليك، وكان يعتمد تلك الأحاديث في مسائل الخلاف، ويذكر الجرح والتعديل منها في الرواية، وظنّي أنّ آثار جدّه واجتهاده في دين الله تعالى يدوم إلى قيام الساعة وإن انقطع نسله من جهة الذكور ظاهراً

فنشر علمه يقوم مقام كلّ نسب، ويغني عن كلّ سبب مكتسب.

قلت: ومن المشهور المذكور في بعض التواريخ وغيرها أن والده الشيخ أبا محمد كان في أوّل أمره ينسخ بالأجرة، فاجتمع له من كسب يده شيء اشترى به جارية موصوفة بالخير والصلاح، ولم يزل يطعمها من كسب يده أيضاً إلى أن حبلت بإمام الحرمَيْن وهو مستمرّ على تربيتها بمكتسب الحلال فلمّا وضعته، أوصاها أن لا تمكن أحداً من إرضاعه، فاتفّق أنه دخل عليها يوماً وهي متألّمة، والصغير يبكي، وقد أخذته امرأة من جيرانهم، وشاغلته بثديها فرضع منها قليلاً فلمّا رآه شقّ عليه، وأخذه إليه، ونكّس رأسه، ومسح على بطنه، وأدخل إصبعه في فيه، ولم يزل يفعل ذلك حتّى قاء جميع ما شربه، وهو يقول: يسهل عليّ أن يموت، ولا يفسد طبعه بشرب لبن غير أمّه.

ويحكى عن إمام الحرمين أنه كان يلحقه في بعض الأحيان فترة في مجلس المناظرة، فيقول: هذا من بقايا تلك الرضاعة، و(مولده) في ثاني عشر المحرّم، سنة تسع عشرة وأربع مائة، ولمّا مرض حمل إلى قرية من أعمال نيسابور، موصوفة باعتدال الهواء وخفّة الماء، فمات بها، ونقل إلى نيسابور، ودفن في داره، ثم نقل بعد سنين إلى مقبرة الحسين كما تقدّم ودفن بجنب أبيه، وصلّي عليه ولده أبو القاسم، وأكثر الشعراء المراثي، وممّا رثي به:

قلوب العالمين على المعالي ... وأيام الورى شبه الليالي
أيثمر غصن أهل الفضل يوماً ... وقد مات الإمام أبو المعالي؟

سنة تسع وسبعين واربع مائة

فيها نزل تُتُش حلب، ثم أخذها. وساق السلطان ملك شاه[1] من أصبهان فقدم حلب، وخافه أخوه تتش، فهرب.

وفيها وقعة الزَلاّقة[2]، وذلك أنّ ملك الإفرنج جمع الجيوش، فاجتمع المعتمد[3] يوسف بن تاشقين أمير المسلمين والمطوّعة، فأتوا الزَلاّقة من عمل بَطَلْيُوس[4]، فالتقى الجمعان، فوقعت الهزيمة على أعداء الله تعالى، وكانت ملحمة عظيمة في أول جمعة من رمضان، وجرح المعتمد عدّة جراحات شديدة، وطابت الأندلس، فعمل الأمير ابن تاشقين

(١) انظر ذلك في الكامل لابن الأثير: ٨/ ١٤٠، ١٤١.
(٢) في معجم البلدان لياقوت الحموي: الزلاقة أرض بالأندلس بقرب قرطبة كانت عندها وقفة في أيام أمير المسلمين يوسف بن تاشفين مع الأذفنش ملك الإفرنج.
(٣) المعتمد بن عبّاد أمير إشبيلية. انظر الكامل لابن الأثير ٨/ ١٤١ـ١٤٣.
(٤) في معجم البلدان: بطليوس: مدينة كبيرة بالأندلس من أعمال ماردة ـ على نهر آنة ـ غربي قرطبة.

على تملكها.

ولما افتتح (ملك شاه) حلب والجزيرة، قدم بغداد وهو أوّل قدومه إليها ثم خرج يصيد، وعمل منارة القرون[١] من كثرة وحش صاده، ثم ردّ إلى أصبهان.

وفيها أعيدت الخطبة العبّاسية بالحرمين، وقطعت خطبة العُبَيْديّين.

وفيها توفّي شيخ الشيوخ ببغداد: أبو سعد أحمد بن محمد النيسابوري، وكان منظّما عند نظام الملك وأهل الدولة، وله رباط مشهور ومريدون.

وفيها توفّي طاهر بن محمد بن محمد أبو عبد الرحمن المستملي، والد زاهر. روى عن أبي بكر الحيري وطائفة. وكان فقيهاً صالحاً ومحدّثاً عارفاً، له بصر تام بالشروط.

وفيها توفّي أبو الحسن علي بن فضال المجاشعي القيرواني، صاحب المصنّفات في العربيّة والتفسير، وكان من أوعيه العلم.

وفيها توفّي أبو الفضل محمد بن عبدالله النيسابوري الرجل الصالح. روى عن أبي نعيم الاسفرائيني، وأبي الحسن العلوي، وطبقتهما.

وفيها توفّي مسند العراق أبو نصر محمد بن علي الهاشمي العباسي رحمه الله.

سنة ثمانين واربع مائة

فيها عرس[٢] المقتدي بالله على ابنة السلطان، وكان وقتاً مشهوداً، أنفق فيه الخليفة أموالاً كثيرة، وخلع على سائر الأمراء، ومدّ سماطاً هائلاً.

وفيها توفّي مقرىء الأندلس عبدالله بَن شُميل الأنصاري المرسي رحمه الله.

وفيها توفّيت فاطمة بنت الشيخ أبي علي الدقاق، الزاهدة العابدة، زوجة الأستاذ أبي القاسم القشيري. كانت كبيرة القدر عالية الاسناد. روت عن أبي نعيم الاسفرائيني والحاكم والعلويّ وطائفة.

وفيها توفّيت فاطمة بنت الحسن بن علي الأقرع، أمّ الفضل البغدادية، الكاتبة التي جوّدوا على خطها، وكانت تنقل طريقة ابن البوّاب. حكت أنّها كتبت ورقة للوزير الكندي فأعطاها ألف دينار. روت عن أبي عمر الفارسي.

---

(١) في معجم البلدان: منارة القرون: هذه المنارة بطريق مكّة قرب واقصة، كان السلطان جلال الدولة ملك شاه بن ألب أرسلان خرج بنفسه يشيّع الحاجّ في بعض سنيّ ملكه، فلما رجع عمل حلقة للصيد فاصطاد شيئاً كثيراً من الوحش، فأخذ قرون جميع ذلك وحوافره، فبنى بها منارة هناك.

(٢) انظر ذلك في الكامل لابن الأثير ٨/ ١٤٥.

وفيها توفّي السيد المرتضى ذو الشرفين: أبو المعالي محمد بن محمد بن زيد العلوي الحسيني الحافظ، قتله الخاقان(١) بما وراء النهر مظلوماً. روى عن أبي علي بن شاذان وخلق، وتخرّج بالخطيب، ولازمه، وصنّف التصانيف، وحدّث بسمرقَنْد وأصبهان وبغداد. وكان مقبولاً معظّماً وافر الحشمة، يفرّق في العام نحو عشرة آلاف درهم زكاة ماله.

سنة احدى وثمانين واربع مائة

فيها توفّي أبو بكر الغورجي أحمد بن عبد الصمد الهروي، راوي جامع الترمذي عن الجرجاني.

وفيها توفّي شيخ الإسلام، أحد الأعلام، القدوة الحافظ: عبدالله بن محمد الهروي الصوفي شيخ: خراسان في زمانه غير منازع، له عدّة تصانيف.

وفيها توفي ابن ماجة الأبهري ـ محمد بن أحمد الأصبهاني، عاش خمساً وتسعين سنة.

سنة اثنتين وثمانين وأربع مائة

فيها سار السلطان ملك شاه بجيوشه من أصبهان، وعبر النهر، وملك بخارى وسَمَرْقَنْد مع قتال وحصار، وسار نحو (كاشْغَر)(٢)، فدخل ملكها في الطاعة، فرجع الى خراسان، ونكث أهل سمرقند، فكرّ راجعاً إلى سمرقند، وجرت أمور طويلة.

وفيها توفي أحمد بن محمد بن صاعد، أبو نصّر الحنفي، رئيس نيسابور وقاضيها، وكان يقال له شيخ الاسلام، وقيل: كان مبالغاً في التعصّب في المذهب، فأغرى بعضاً ببعض، حتى لعنت الخطباء أكثر الطوائف.

وفيها توفي الحافظ أبو اسحاق ابراهيم بن سعيد النعماني مولاهم المصري، عن تسعين سنة، وكان ثقة حجّة، صالحاً ورعاً، كبير القدر.

وفيها توفّي القاضي أبو منصور بن شكرويه محمد بن أحمد الأصبهاني.

وفيها توفّي مؤلّف (بستان العارفين) محمد بن أبي جعفر المحدّث. كان صوفياً عابداً صاحب حديث. روى عن الحاكم وطائفة.

---

(١) قتله الخاقان خضر بن ابراهيم بسبب بستان، بعد أن سجنه في قلعته ومنع الطعام والشراب عنه حتى مات. انظر الكامل لابن الأثير ١٤٦/٨.

(٢) في معجم البلدان: كاشغر مدينة وقرى ورساتيق يسافر إليها من سمرقند، وهي في وسط بلاد الترك.

سنة ثلاث وثمانين وأربع مائة

فيها كانت فتنة[١] هائلة لم يسمع بمثلها بين السنيّة والرافضة، قتل فيها عدد كثير، وعجز والي البلد، واستظهر أهل السنّة بكثرة من معهم من أعوان الخليفة، واستكانت الشيعة، وذلّوا، ولزموا التقيّة، وأجابوا إلى أن كتبوا على مساجد الكرخ: خير الناس بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ـ فاشتدّ الناس على غوغائهم، وخرجوا عن عقولهم، واشتدّوا، فنهبوا شارع ابن أبي عون، ثم جرت أمور مزعجة، وعاد القتال حتّى بعث صدقة بن مزبل[٢] عسكراً، يتتبّع المفسدين إلى أن فتر الشرّ قليلاً.

وفيها توفي أبو الحسين عاصم بن الحسن العاصمي الكرخي، الشاعر المشهور. كان ظريفاً، صاحب ملح ونوادر، مع الصلاح والعفّة والصدق. مرض في أواخر عمره، فغسل ديوان شعره.

وفيها توفي العلاّمة الواعظ نزيل أصفهان، ومدرس نظاميتها، وشيخ الشافعية بها، ورئيسها: محمد بن ثابت الشافعي الواعظ.

وفيها توفّي أبو نصر محمد بن سهل السرّاج، آخر أصحاب أبي نعيم الاسفرائيني. كان ظريفاً نظيفاً لطيفاً.

سنة اربع وثمانين واربع مائة

فيها استولى[٣] يوسف بن تاشفين أمير المسلمين على الأندلس، وقبض على المعتمد بن عبّاد، وأخذ كلّ شيء يملكه، وترك أولاده فقراء. وفيها استولت الفرنج على جزر صقلّية.

وفيها توفي الحافظ المعافري الشاطبي، تلميذ ابن عبد البرّ ظاهر، وكان من أئمة هذا الشأن، مع الورع والتقوى.

وفيها توفّي الحافظ الزاهد أبو القاسم عبد الله بن علي الأنصاري البصري، استشهد بالبصرة، وكان من العبادة والخشوع بمحلّ، وفيها توفي أبو نصر محمد بن أحمد شيخ المقرئين بمرو.

---

(١) ذكر ابن الأثير في الكامل هذه الفتنة في حوادث سنة ٤٨٢ هـ. انظر ٨/ ١٥٠، ١٥١
(٢) وفيه أيضاً: صدقة بن مزيد.
(٣) انظر الكامل لابن الأثير: ٨/ ١٥٤ـ١٥٦

وفيها توفّي مسند الآفاق، كان إماماً في علوم القرآن، كثير التصانيف، ـ مبين الديانة، عالي الإسناد، وقاضي القضاة أبو بكر الناصحي محمد بن عبدالله بن الحسين النيسابوري. قال الشيخ عبد الغافر: هو في عصره أفضل أصحاب أبي حنيفة، وأعرفهم بالمذهب، وأوجههم في المناظرة، مع حظّ وافر من الأدب والطب، ولم تحمد سيرته في القضاء.

وفيها توفّي المعتصم محمد[١] بن معن الأندلسي التجيبيّ صاحب المَرِيَّة[٢] ومحاوية والصمارحية من بلاد الأندلس، وتوفّي وجيش ابن تاشفين محاصِرون[٣].

سنة خمس وثمانين واربع مائة

فيها أخذت ركب العراق خفاجة(بالخاء المعجمة والفاء والجيم بين الالف والهاء)، وكان الحريق ببغداد، احترق فيه من الناس عدد كثير وأسواق كبار من الظهر إلى العصر[٤].

وفي عاشر رمضان فيها، قتل الوزير الكبير الحميد الشهير، نظام الملك[٥]، قوّام الدين: أبو علي الحسين بن علي بن إسحاق الطوسي، كان من جلّة الوزراء.

قلت: وهذا أوّل ما بلغناه من التلقيب بفلان الدين، ثمّ استمرّ ذلك إلى يومنا، وإنما كانوا يلّقبون بفلان الدولة والملك من يعظم شأنه عندهم، ثمّ عمّوا التلقيب بالدين فيما بعد، حتّى في السوقية والفجرة، لقبّوهم بنور الدين وشمس الدين وزين الدين وكمال الدين وأشباه ذلك ـ ممّن هم ظلام الدين وشين الدين ونقص الدين وأشباه ذلك من أضداد الدين، وإلى ذلك أشرت بقولي في بعض القصائد: يسمّى فلان الدين من هو عكس ما يسمّى به حاوي الصفات الدنيّه، فالنور ظلامة، والكمال نقيصة، ومحيي مميت، ثمّ عكس التقيّة سوى السيد الحبر النواوي، وشبّهه إمام الهدى محيي الدين. وما أحسن ما قال الشيخ بركة الزمن وزين اليمن ذو المجد الأثيل: أحمد بن موسى بن عجيل، قال رضي الله عنه: تتبعّت هذه الألقاب فلم أجدْ منها صادقاً إلاّ صارم الدين، يعني: قاطع الدين.

رجعنا إلى ذكر الوزير نظام الملك، ذكره أبو سعد السمعاني فقال: كعبة المجد ومنبع الجود، كان مجلسه عامراً بالقرّاء والفقهاء، أنشأ المدارس بالأمصار، ورغّب في العلم،

---

(١) محمد بن معن بن صمادح. انظر الكامل لابن الأثير ٨/ ١٥٦.
(٢) المريّة: مدينة كبيرة من كورة البيرة من أعمال الأندلس، وفيها مرفأ ومرسى للسفن. معجم البلدان.
(٣) توفي محمد بن معن بن صمادح غماً وكمداً لما سمع باستيلاء جيش ابن تاشفين للمرية. انظر الكامل لابن الأثير ٨/ ١٥٦.
(٤) انظر تاريخ ابن الأثير ٨/ ١٦٦.
(٥) انظر تاريخ ابن الأثير ٨/ ١٦١.

وأملى، وحدّث، وعاش ثمانياً وسبعين سنة، اشتغل في ابتداء أمره بالحديث والفقه، ثم اتّصل بخدمة علي بن شاذان المعتمد عليه بمدينة بَلْخ، وكان يكتب له، ثمّ خلّاه وقصد داود بن مكائيل السلجوقي (بالسين المهملة والجيم والقاف) والد السلطان ألب أرسلان ـ فظهر له منه النصح والمحبّة، فسلّمه إلى ولده المذكور، وقال له: أتّخذه والداً، ولا تخالفه فيما يشير به.

ثم لمّا توفّي داود، وملك ولده المذكور، دبرّ نظام الملك أمره، فأحسن التدبير، وبقي في خدمته عشرين سنة، ثم توفي السلطان المذكور، فازدحم أولاده على الملك، ثم آل أمر المملكة لولده ملك شاه، فصار الأمر كلّه للنظام، وليس للسلطان إلا التخت والصيد، وأقام على هذا عشرين سنة، ودخل على الإمام المقتدي بالله، فأذن له بالجلوس بين يديه، وقال له: يا حسن، رضي الله عنك برضى المؤمنين عنك.

وكان مجلسه عامراً بالفقهاء والصوفية، وكان كثير الإنعام على الصوفية، فسئل عن سبب ذلك فقال: أتاني صوفّي وأنا في خدمة بعض الأمراء، فوعظني، وقال: اخدم من تنفعك خدمته، ولا تشتغل بما يأكله الكلاب غداً. فلم أعلم معنى قوله، فشرب ذلك الأمير من الغد ـ وكانت له كلاب كالسباع، تفترس الغرباء ـ فغلبه السّكر، فخرج وحده، فلم تعرفه الكلاب، فمزّقته، فعلمت أنّ الرجل كوشف بذلك. فأنا أخدم الصوفية لعلّي أظفر بمثل ذلك، وكان إذا سمع الأذان أمسك عن جميع ما هو فيه، وكان إذا قدم عليه أبو المعالي إمام الحرمين، وأبو القاسم القشيري صاحب الرسالة بالغ في إكرامهما، وأجلسهما في مسند.

وبنى المدارس والرّبُط والمساجد في البلاد، فاقتدى به الناس، وشرع في عمارة مدرسته ببغداد سنة سبع وخمسين وأربع مائة.

وفي سنة تسع وخمسين جمع الناس على طبقاتهم ليدرّس بها الشيخ أبو إسحاق الشيرازي، فلم يحضر، ودرّس أبو نصر بن الصبّاغ بها عشرين يوماً، ثم درّس بها الشيخ أبو إسحاق قلت: وقد تقدّم إيضاح ذلك، وبيان سبب تغيّب الشيخ أبي إسحاق عن التدريس في أول الأمر، وتدريسه بها فيما بعد، في ترجمته في سنة ستّ وسبعين وأربع مائة، واسمع نظام الملك الحديث بعدما سمعه، وكان يقول: إني لأعلم أنّي لست أهلاً لذلك، ولكنّي أريد أن أربط نفسي في قطار النقلة لحديث رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم. ويُروى له من الشعر قوله:

بعـــد ثمـــانيـــن ليـــس قـــوّه ذهبـــت نشـــوة الصبـــوه
كـــأنّنـــي والعصـــا بكفّـــي مـــوســـى، ولكـــنْ بـــلا نبـــوّه

وقيل إنّ هذين البيتين لأبي الحسن محمد بن أبي الصقر الواسطي.

كانت ولادة نظام الملك يوم الجمعة الحادي والعشرين من ذي القعدة سنة ثمان وأربع مائة في طوس، وتوّجه في صحبة ملك شاه إلى أصبهان، فلمّا كانت ليلة عاشر رمضان من السنة المذكورة أفطر، وركب في محفتّه، فلمّا بلغ إلى قرية قريبة من نِهاوَنْد قال: هذا الموضع قتل فيه خلق كثير من الصحابة في زمن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وطوبى لمن كان منهم فاعترضه صبّي ديلمي على هيئة الصوفية معه قصعة، فدعا له، وسأل بتناولها، فمّد يده ليأخذها، فضربه بسكين في فؤاده، فحمل إلى مضربه، فمات، وقتل القاتل في الحال، وركب السلطان إلى معسكره، فسكنّهم، وحمل إلى أصبهان، ودفن بها. وقيل إن السلطان دَسّ عليه من قتله، فإنّه سئم من طول حياته، واستكثر ما بيده من الاقطاعات، ولم يعش السلطان بعده إلاّ خمسة وثلاثين يوماً.

وقيل إنه قتل بسبب تاج الملك أبي الغنائم المرزباني، فإنه كان عدّو نظام الملك، وكان كثير المنزلة عند مخدومه ملك شاه، فلمّا قتل رتّبه موضعه في الوزارة، ثم إن غلمان نظام الملك وثبو عليه، فقتلوه، وقطّعوه إرباً إرباً بعد قتل نظام الملك بدون أربعة اشهر. وقد كان نظام الملك من حسنات الدهر. ورثاه شبل الدولة أبو الهيجاء: مقاتل بن عطيّة البكري، فقال:

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة ... نفيسة صاغها الرحمن من شرف
عزّت فلم تعرف الأيام قيمتها ... فردّها غيرة منه إلى الصدف

وفي السنة المذكورة توفّي محدّث مكّة أبو الفضل جعفر بن يحيى الحكاك، كان متّقياً حجّة صالحاً. روى عن أبي ذرّ الهروي وطائفة، وعاش سبعين سنة.

وفيها توفّي الإمام الكبير العالم الشهير أبو بكر الشاشي محمد بن علي بن حامد الفقيه شيخ الشافعية، صاحب الطريقة المشهورة والمصنفات المشكورة، درّس مدّة بِغَزْنَة ثم بَهَراة ونيسابور، وحدّث عن منصور الكاغذي، وتفقّه في بلاده على أبي بكر السبخي، وعاش نيّفاً وتسعين سنة.

وفيها توفّي أبو عبدالله محمد بن عيسى التجيبي مقرىء الأندلس، أخذ عن أبي عمر والداني ومكّي بن أبي طالب وجماعة.

وفيها توفّي السلطان ملك شاه[1]، أبو الفتح جلال الدولة، ابن السلطان ألب أرسلان

(١) انظر الكامل لابن الأثير ٨/١٦٣، ١٦٤.

محمد بن داود السلجوقي التركي. تملّك ما وراء النهر وبلاد الهياطلة، وبلاد الروم والجزيرة، والشام والعراق، وخراسان وغير ذلك.

قال بعض المؤرخين: ملك من مدينة كاشْغر الترك إلى بيت المقدس طولاً، ومن قسطنطينية وبلاد الجرت[١] إلى نهر الهند عرضاً، وكان حسن السيرة محسناً إلى الرعية، وكانوا يلقّبونه بالملك العادل، وكان ذا عزم بالعمائر وبالصّيد، فحفر كثيراً من الأنهار، وصنع بطريق مكّة مصانع، وغرم عليها أموالاً كثيرة خارجة عن الحصر، وأبطل المكوس في جميع البلاد، وكان لهجاً بالصيد حتّى قيل: إنه ضبط ما اصطاده بيده، فكان عشرة آلاف، فتصدّق بعشرة آلاف دينار، وقال: إني خائف من الله ـ سبحانه ـ من إزهاق الأرواح من غير مأكلة، وصار بعد ذلك كلمّا قتل صيداً تصدّق بدينار. وخرج من الكوفة لتوديع الحاجّ، فجاوز العُذَيْب[٢]، وشيعّهم بالقرب من الواقِصَة، وصاد في طريقه وحشاً كثيراً، فبنى هناك منارة في حوافر الحمر الوحشية وقرون الظباء التي صادها في ذلك الطريق، وذلك في سنة ثمانين وأربع مائة. قال ابن خلّكان: والمنارة باقية إلى الآن، وتعرف بمنارة القرون. انتهى قوله.

قلت وكثير من الناس يسمّونها أمّ القرون، وكانت السبل في أيامه ساكنة، والمخاوف آمنة، تسير القوافل من ما وراء النهر إلى الشام، وليس معها خفير، ويسافر الواحد والاثنان من غير خوف. ولمّا توجّه لحرب مرّ بمشهد عليّ، فدخل هو ووزيره نظام الملك، ودعوا، ثمّ سأل نظام الملك: بأيّ شيء دعوت؟ فقال: بنصرك على أخيك. فقال: أمّا أنا، فقلت: اللهّم انصرنا، وأصلحنا للمسلمين.

ودخل عليه واعظ فوعظه، وحكى له أن بعض الأكاسرة اجتاز منفرداً من عسكره على باب بستان، فتقدّم إلى الباب، وطلب ما يشربه، فأخرجت له صبيّة إناء فيه ماء والسكّر والثلج، فشربه، واستطابه، فقال: هذا، كيف يعمل؟ فقالت: إنّ قصب السكّر يزكو عندنا حتّى نعصره بأيدينا، فيخرج منه هذا الماء، فقال: ارجعي وأحضري شيئاً آخر. وكانت الصبيّة غير عارفة به، ففعلت، فقال في نفسه: الصواب أن أعوّضهم عن هذا المكان، وأصطفيه لنفسي. فما كان بأسرع من خروجها باكية، وقالت: إنّ نيّة سلطاننا قد تغيّرت، فقال: ومن أين علمت ذلك؟ قالت: كنت آخذ من هذا ما أريد من غير تعسّف، والآن قد اجتهدت من عصر القصب، فلم يسمح ببعض ما كان يأتي. فعلم صدقها، فرجع عن تلك

(١) جاء في معجم البلدان: الحرت قرية من قرى صنعاء.

(٢) في معجم البلدان: العذيب ماء بين القادسية والمغيثة، بينه وبين القادسية أربعة أميال، وإلى المغيثة اثنان وثلاثون ميلاً.

النيّة، ثم قال: ارجعي الآن، فإنّك تبلغين الغرض. وعقد على نفسه أن لا يفعل ما نواه، فخرجت الصبيّة ومعها ما شاءت من ماء السكّر، وهي مستبشرة، فقال السلطان للواعظ: لم لا تذكر للرعية أنّ كسرى اجتاز على بستان فقال للناطور: ناولني عنقوداً من الحصرم؟ فقال له: ما يمكنني ذلك، فإنّ السلطان لم يأخذ حقّه، ولا يجوز خيانته، فتعجّب الحاضرون من مقابلته بمثلها، ومعارضته بما أوجب الحقّ له ما أوجب الحق عليه.

وحكي أن مغنّية أحضرت إليه ـ وهو بالري فأعجب بها، واستطاب غناها، فهمّ بها، فقالت: يا سلطان، إني أغار على هذا الوجه الجميل أن يعذّب بالنار، وإنّ الحلال أيسر، وبينه وبين الحرام كلمة، فقال: صدقت، واستدعى القاضي، فزوّجها منه، وابتنى بها، وتوفّي عنها، وعيون محاسنه أكثر من أن تحصى.

وحكى الهمداني أن نظام الملك ـ الوزير ـ دفع للملاّحين الذين عبروا بالسلطان والعسكر نهر جيحون على العامل بأنطاكية، وكان مبلغ أجرة المعابر أحد عشر ألف دينار، وذلك لسعة المملكة. وتزوّج الإمام المقتدي بأمر الله ـ أمير المؤمنين ـ ابنة السلطان المذكور، وكان السفير في الخطبة الشيخ أبا إسحاق الشيرازي، (المهذّب) و(التنبيه) ـ رحمه الله ـ وأنفذه الخليفة إلى نيسابور لهذا السبب ـ فإنّ السلطان كان هناك ـ فلمّا وصل إليه أدّى الرسالة، ونجز الشغل.

قال الهمداني: وعاد الشيخ أبو إسحاق إلى بغداد في أقلّ من أربعة أشهر، وناظر إمام الحرمين بنيسابور، فلمّا أراد الانصراف من نيسابور، خرج إمام الحرمين للوداع، وأخذ بركابه حتّى ركب أبو إسحاق. وظهر له في خراسان منزلة عظيمة. وكانوا يأخذون التراب الذي وطأته بغلته، فيتبرّكون به، كما تقدّم. وكان زفاف ابنة السلطان إلى الخليفة في سنة ثمانين وأربع مائة، وفي صبيحة دخولها عليه أحضر الخليفة المقتدي عسكر السلطان على سماطٍ صنعه لهم، كان فيه أربعون ألف من عسكر.

وفي بقيّة هذه السنة رزق الخليفة ولداً من ابنة السلطان، سمّاه أبا الفضل جعفر، زيّنت بغداد لأجله، وكان السلطان قد دخل بغداد دفعتين، فهي من جملة بلاده التي تحتوي عليها مملكته، وليس للخليفة فيها سوى الاسم ، وخرج منها في الدفعة الثانية على الفور إلى نحو دُجَيل[1] لأجل الصيد، فاصطاد وحشاً وأكل من لحمه، فابتدأت به العلّة، وافتصد، فلم يكثر من إخراج الدم، فعاد إلى بغداد مريضاً، ولم يصل إليه أحد من خاصّته، فلمّا دخلها توفي ثاني يوم دخوله، وحمل في تابوت إلى خراسان، ولم يفعل له كغيره من السلاطين،

(١) في معجم البلدان: نهر دجيل: مخرجه من أعلى بغداد، بين تكريت وبينها، مقابل القادسية دون سامراء.

فلم يشهد له جنازة، ولا صلّى عليه أحد ظاهراً، ولا جرّ ذنب فرس من أجل موته.

سنة ست وثمانين واربع مائة

فيها لمّا علم تُتش في دمشق بموت أخيه أنفق الأموال، وتوجّه ليأخذ السلطنة، فسار معه من حلب قسيم الدولة مولى السلطان ملك شاه، ودخل في طاعته صاحب[1] أنطاكية وصاحب الرُّها وحرّان. ثم سار، وأخذ الرّحْبة في أوّل سنة ستّ، ثم نازل نَصِيبِين، فأخذها عنوة، وقتل بها خلقاً كثيراً، ونهبها، ثم سار إلى الموصل، فالتقاه ابراهيم العقيلي في ثلاثين ألفاً، وتعرف بوقعة المصنع[2]، فانهزموا، وأسر ابراهيم، فقتله صبراً، فأقرّ أخاه علياً على الموصل لأنه ابن عمّه. ولم يحجّ ركب العراق في السنة المذكورة، وحجّ ركب الشام، فنهبهم صاحب مكّة محمد بن أبي هشام[3]، ونهبتهم العربان، توصّل من سلم في حالة عجيبة.

وفيها توفّي أبو الفضل الأصبهاني الحدّاد. روى ببغداد وأصبهان، وروى الحلية ببغداد.

وفيها توفّي الحافظ أبو مسعود سليمان بن إبراهيم الأصبهاني. قال السمعاني: جمع وصنّف وخرج على الصحيحين. وروى عن محمد بن ابراهيم الجرجاني وأبي بكر بن مردويه وخلق. ولقي ببغداد أبا بكر المتّقي وطبقته.

وفيها توفي الشيخ أبو الفرج الشيرازي الحنبلي عبد الواحد بن محمد الفقيه القدوة.

وفيها توفي شيخ الإسلام الهكاري أبو الحسن علي بن أحمد الأموي من ذرّية عتبة بن أبي سفيان بن حرب. وكان صالحاً زاهداً ربانياً ذا وقار وهيبة وأتباع ومريدين. رحل في الحديث، وسمع من أبي عبدالله الفرّاء وأبي القاسم بن بشران وطائفة.

وفيها توفّي مسند خراسان أبو المظفّر موسى بن عمران الأنصاري.

وفيها توفي أبو الفتح نصر بن الحسين الشاشي نزيل سمرقند. روى صحيح مسلم عن عبد الغافر، وسمع بمصر من جماعة، ودخل الأندلس، فحدّث بها.

وفيها توفي الحافظ أبو القاسم هبة الله بن عبد الوارث الشيرازي. سمع بخراسان والعراق وفارس واليمن ومصر والشام، ومات كهلاً، وكان صوفياً صالحاً متقشّفاً.

---

(١) باغيسيان صاحب انطاكية، بوزان صاحب الرها وحرّان. تاريخ ابن الأثير ٨/ ١٦٧.
(٢) في الكامل لابن الأثير ٨/ ١٦٧: وقعة المضيع.
(٣) في الكامل لابن الأثير٨/١٦٨: محمد بن أبي هاشم.

سنة سبع وثمانين واربع مائة

في أولها عزم المقتدي بأمر الله على تقليد السلطان بركيا روق[١] (بالموحدة والمثناة من تحت بين الكاف والألف) فالتقاه، وخطب له ببغداد، ولقّب ركن الدولة، ومات الخليفة من الغد[٢] فجأة، وحاصر تُتش حلب، فافتتحها، ثم سار فأخذ الجزيرة وأذربيجان، وكثرت جيوشه، واستفحل شأنه.

وفيها توفّي مسند نيسابور أبو بكر بن خلف الشيرازي أحمد بن علي. روى عن الحاكم وعبدالله بن يوسف وطائفة. قال الشيخ عبد الغافر: هو شيخنا الأديب المحدّث المتقن الصحيح السماع، ما رأينا شيخاً أورع منه ولا أشد إتقاناً. نيّف على التسعين.

وفيها توفّي قسيم الدولة لمّا افتتح ملك شاه حلب استنابه عليها، فأحسن السياسة، وضبط الأمور، وتتبّع المفسدين حتّى صار دخله كلّ يوم من البلد ألفاً وخمسمائة دينار، وكانت وفاته بالقتل[٣] بعد أسره في المصاف.

وفيها توفّي أبو نصر الحسن بن أسد الفارقي، الأديب صاحب النظم والنثر والكتاب المعروف في الألغاز.

وفيها توفّي المقتدي بالله أبو القاسم عبدالله ابن الأمير ذخيرة الدين محمد بن القائم بأمر الله العباسي. بويع بالخلافة بعد جدّه في شعبان سنة سبع وستين وأربع مائة، وعمره تسع عشرة سنة وثلاثة اشهر، ومات فجأة في المحرم عن تسع وثلاثين سنة، وقيل: سمّته جارية. وكان ديّناً خيّراً، أمر بنفي الخواطي والمغنّيات من بغداد، وكانت الخلافة في أيامه زاهرة، وحرمتها وافرة. وبويع بعده للمستظهر بالله أحمد.

وفي السنة المذكورة توفي الحافظ الكبير الأمير أبو نصر علي بن هبة الله العجلي البغدادي المعروف بابن ماكولا[٤]، النسّابة صاحب التصانيف النافعة، لم يكن ببغداد بعد الخطيب أحفظ منه. قال الحميدي: ما راجعت الخطيب في شيء إلا وأجابني عن الكتاب، وقال حتّى أكشفه، وما راجعت ابن ماكولا إلا وأجابني حافظاً كأنّه يقرأ من كتاب. وقال أبو سعد السمعاني: وكان لبيباً عارفاً ونحوياً مجوداً وشاعراً مبرزاً. سمع الحديث الكثير، وأخذ

---

(١) بركيارق بن ملكشاه. انظر الكامل لابن الأثير٨/ ١٧٠.

(٢) يوم السبت خامس عشر المحرم. انظر الكامل لابن الأثير ٨/ ١٧٠.

(٣) قتله تتش عقب انتصاره عليه عند نهر سبعين قريباً من تل السلطان قرب حلب. انظر الكامل لابن الأثير ١٧١/٨.

(٤) ذكر ابن الأثير وفاته في سنة ٤٨٦ هـ. انظر ١٦٩/٨.

عن مشايخ العراق وخراسان والشام وغير ذلك، وكان أحد الفضلاء المشهورين، تتبّع الألفاظ المشتبهة في الأسماء الأعلام، وجمع شيئاً كثيراً.

وكان الخطيب البغدادي قد جمع بين كتاب (المؤتلف والمختلف) الذي للدارقطني، والذي لعبد الغني (الموسوم بمشتبه النسبة) وزاد عليهما، وجعله كتاباً مستقلاً سمّاه (المؤتلف تكملة المختلف). وجاء ابن ماكولا فزاد على هذا المؤتلف، وضمّ إليه الأسماء التي وقعت له، وجعله كتابا سمّاه (الإكمال)، أجاد فيه وأفاد، حتّى صار اعتماد المحدّثين عليه، أحسن فيه إحساناً بالغاً، وحلاّه حسناً فائقاً، ولم يصنع مثله في بابه، ثم جاء ابن نقطة وذيّله، وما أقصر فيه. وفي كتاب الأمير ابن ماكولا دلالة على كثرة اطّلاعه وضبطه وإتقانه. ومن الشعر المنسوب إليه قوله:

قرض خيامك عن أرض تهان بها وجانب الذلّ إنّ الذل يجتنب
وارحل إذا كان في الأوطان منقصة فالمَندْل الرطب في أوطانه الحطب[1]

قال الحميدي خرج إلى خراسان ومعه غلمان له ترك، فقتلوه بجرجان، فأخذوا ماله، وهربوا، وهو من ذرّية الأمير أبي دلف العجلي.

وفي السنة المذكورة توفي أبو عامر الأزدي القاضي محمود الهروي، الفقيه الشافعي، كان عديم النظير زهداً وصلاحاً وعفّة.

وفيها توفّي المستنصر بالله أبو تميم معدّ ابن الظاهر علي بن الحاكم العبيدي صاحب مصر. لما عظم أمره وكبر شأنه خطب له ببغداد أرسلان البساسيري، وقطع خطبة الإمام القائم. وقد جرى في أيامه أشياء لم يجر شيء منها في أيام آبائه، منها قطع الخطبة المذكورة، ومنها ملك ابن الصلَيْحي بلاد اليمن، ودعاؤه له على منابرها، ومنها أنّ المستنصر المذكور أقام في الأمر ستين سنة، وهذا شيء لم يبلغه أحد من العبيديين، ولا من بني العبّاس. ومنها أنه ولي وهو ابن سبع سنين، وفي سنة تسع قطع اسمه واسم آبائه من الحرمين.

ومنها أنه حدث في أيامه الغلاء العظيم الذي ما عهد مثله منذ زمان يوسف عليه السلام، وأقام سبع سنين، وأكل الناس بعضهم بعضاً، حتّى قيل إنه بلغ رغيف واحد بخمسين ديناراً، وكان في هذه المدة يركب وحده، وكل من معه من الخواص مترجّلون، ليس لهم دواب يركبونها، وكانوا إذا مشوا تساقطوا في الطرقات من الجوع، وكان المستنصر يركب بغلة عارية، وآخر الأمر توجّهت أمّه وبناته إلى بغداد من فرط الجوع في سنة اثنتين وستين وأربع مائة.

---

(١) المندل: العود الطيب الرائحة.

سنة ثمان وثمانين واربع مائة

فيها قامت الدولة على أحمد خان[١] صاحب سَمَرْقَنْد، وأشهدوا عليه بالزندقة والإقلال، فأفتى الأئمة بقتله، فخنقوه، وملّكوا ابن عمّه.

وفيها التقى تتش وابن أخيه بركيا روق بنواحي الري، فانكسر[٢] عسكر تتش، وقاتل هو حتّى قتل. وكان رضوان بن تتش قد صار إلى بغداد لينزل بها، فلما قارب (هِيت) جاءه نعي أبيه، ودخل حلب، ثم قدم عليه من الوقعة أخوه دُقاق، فراسله متولّي قلعة دمشق، فسار سرّاً من أخيه، وتملّك دمشق.

وفيها قدم الإمام أبو حامد الغزالي دمشق زاهداً في الدنيا، وما كان فيه من رئاستها والإقبال والقبول من الخليفة وكبراء الدولة، وصنّف الإحياء وأسمعه بدمشق، وأقام بها سنتين، ثم حجّ ورجع إلى وطنه.

قلت: هكذا ذكر بعض المؤرخين أنه قدم في السنة المذكورة إلى دمشق، وذكر بعضهم أنّ توجّهه فيها كان إلى بيت المقدس لابساً الثياب الخشنة، وناب عنه أخوه في التدريس، وذكر أنّه بعد ذلك توجّه من القدس إلى دمشق، فأقام بها مدّة يذكر الدروس في زاوية الجامع في الجانب الغربي منه، ثم ذكر أنه انتقل منها إلى بيت المقدس، واجتهد في العبادة وزيارة المشاهد والمواضع المعظّمة وأشياء أخرى سيأتي ذكرها.

قلت وأمّا قول الذهبي أنّه صنّف (الإحياء) وأسمعه بدمشق، فمخالف لما ذكر الإمام أبو حامد المذكور في كتابه (المنقذ من الضلال) أنّه أقام في الشام قريباً من سنتين، مختلياً بنفسه، ولم يذكر إسماعه (الإحياء) ولا تصنيفه إياه، ولو كان لذكره، كما ذكر علوماً أخرى صنّف فيها قبل السفر أيضاً. فتصنيف (الإحياء) مع ما اشتمل عليه من العلوم الواسعة المحاكية للبحر الذي أمواجه متدافعة، لا يمكن وضعه في سنتين ولا ثالثة ولا رابعة، وأمّا ما ذكره ابن كثير وغيرهم من كونه حجّ قبل سفره إلى الشام، وأنّه أقام في الشام عشر سنين، وأنه دخل مصر والاسكندرية، ورام الاجتماع بملك المغرب، فكلّ ذلك مخالف تصريح ما نصّ عليه أبو حامد في كتابه المذكور، فإنّه ذكر أنّه توجُّه إلى الشام قبل توجّهه إلى مكّة، ثم توجّه إلى الحجّ بعد السنتين المذكورتين، ثم كرّ راجعاً إلى وطنه وأولاده، وهذا يدل على بطلان القول المذكور وفساده، والعجب كلّ العجب من قوله أنّه قصد السلطان المغرب بقضاء أرب، وهو من ملاقاة السلاطين قد هرب، وسيأتي ذكر ذلك في ترجمته.

---

(١) انظر ذلك في الكامل لابن الأثير: ٨/ ١٧٥.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير: ٨/ ١٧٥.

وفيها توفّي الحافظ أبو الفضل أحمد بن الحسن بن خيرون[١] البغدادي. روى عن علي بن شاذان والبرقاني، وكتب كثيراً. قال بعضهم: كتب عن ابن شاذان ألف جزء.

وفيها توفّي شيخ المعتزلة أبو يوسف القزويني[٢]، صاحب التفسير الكبير، الذي هو أزيد من ثلاثمائة مجلّد. درس الكلام على القاضي عبد الجبّار بالريّ، وسمع منه ومن أبي عمرو بن مهدي الفارسي، وتنقل في البلاد، ودخل مصر، وكان صاحب كتب كثيرة وذكاء مفرط، وتبحّر في المعارف، وكان داعية إلى الاعتزال، وعاش خمساً وتسعين سنة.

وفيها توفّي المعتمد على الله أبو القاسم محمد بن المعتضد اللخمي، صاحب الأندلس. كان ملكاً جليلاً، عالماً ذكياً، وشاعراً محسناً، وبطلاً شجاعاً، وجواداً ممدوحاً. كان بابه محطّ الرحال وكعبة الآمال، وشعره في الذروة العليا، ملك من الأندلس من المدائن والحصون والمعاقل مائة وثلاثين مسوّراً، وبقي في المملكة نيفاً وعشرين سنة. وهو من ذرّية النعمان بن المنذر آخر ملوك الحيرة وقبض عليه أمير المسلمين ابن تاشفين لمّا قهره، وغلب على ممالكه، وسجنه (بأَغْمَات)[٣] حتّى مات بعد أربع سنين من زوال مملكته. وخلف عن ثمانمائة سرّية، ومائة وثلاثة وسبعين ولداً.

قلت أمّا كثرة الأولاد فقد نقل أن غيره كان أكثر منه أولاداً، وأمّا السراري فما سمعت أنّ أحداً من الخلفاء بلغ من كثرتهن إلى هذا العدد المذكور. وكان راتبه في اليوم ثمانمائة رطل لحم، وممّا قيل فيه لمّا قصّ عليه قول الشاعر:

لكلّ شيء من الأشياء ميقات ... وللمنى من منايا هنّ غايات

وقال آخر بعد لزومه وقتل ولَدَيه:

تبكي السماء بدمع رائح غادِ ... على البهاليل من أبناء عبّاد

ومما قيل فيه لما حبس:

تنشّق رياحين السلام فإنّها ... أفضّ بها مسكاً عليك مختمّا
أفكرّ في عصر مضي لك مشرقاً ... فيرجع ضوء الصبح عندي مظلما
وأعجب من أفق المجرّة إذ رأى ... كسوفك شمساً، كيف أطلع أنجما

ولمّا دخلت عليه بناته السجن ـ وكان يوم عيد، وقد صرن يغزلْن للناس بالأجرة،

---

(١) في الكامل لابن الأثير ١٧٨/٨: المعروف بابن الباقلاّني.
(٢) وفيه أيضاً: أبو يوسف عبد السلام بن محمد القزويني، ومولده سنة ٤١١ هـ.
(٣) في معجم البلدان: أغمات ناحية في بلاد البربر من أرض المغرب قرب مراكش.

وهنّ في أطمار ـ أنشده:

فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً فساءك العيد في (أغمات) مأسورا
ترى بناتك بالأطمار ـ جائعة يغزلن للناس لا يملكْن قطميرا
يطأن في الطين والأقدام حافية كأنّها لم تطأ مسكاً وكافورا
قد كان دهرك إن تأمره ممتثلاً فردّك الدهر منهيّاً ومأمورا

ومن شعر المعتمد أيضاً:

لولا عيون من الواشين ترمقني وما أحاذره من قول حرّاس
لزرتكم لأكافيكم لجفونكم شيئاً على الوجه أو سعياً على الرأس

وممّا مدح به قول الشاعر:

بغيتك في محل ينجيك من ردى يروعك في ذرع بروقك في برد
جمال واجمال وسبق وصولة كشمس الضحى، كالمزن كالبرق والرعد
بمهجته شاد العلى ثم زادها بنى مايتا حجاجه أسد

وفيها توفّي قاضي القضاة الشامي أبو بكر بن محمد الحموي[1] الشافعي، كان من أزهد القضاة وأروعهم وأتقاهم لله وأعرفهم بالمذهب. سمع ببغداد من طائفة، وولي القضـ بعد أبي عبدالله الدامغاني، وكان من أصحاب القاضي أبي الطيب الطبري، ولم يأخذ عا القضاء رزقاً، ولا غيّر ملبسه. قال أبو علي بن سكّرة: كان يقال لو رفع المذهب أمكنه يملأه من صدره.

وفيها توفّي الإمام الحافظ العلاّمة أبو عبدالله الحميدي[2]: محمد بن أبي نـ الأندلسي، مؤلّف (الجمع بين الصحيحين). كان أحد أوعية العلم، صحب ابن حـ الظاهري بالأندلس، وابن عبد البرّ، ورحل، وسمع بالقيروان والحجاز ومصر والشـ والعراق، وكتب عن خلق كثير، وكان كثير الاطّلاع، ذكياً فطناً، صيّتاً ورعاً، أخبارياً متقناً مغرماً في تحصيل العلم، كثير التصانيف، حجّة ثقة، ظاهري المذهب، وله (جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس).

---

(١) في الوافي بالوفيات ٦/٥/ ٣٤: أبو بكر الحموي الشافعي: محمد بن المظفّر بن بكر ـ قال ابن النجاد: ابن بكران ـ بن عبد الصمد العلاّمة ـ ولد بحماة سنة أربعمائة ورحل إلى بغداد صنف «البيان عن أصول الدين».

(٢) في الكامل لابن الأثير: ٨/ ١٧٨: أبو عبدالله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبدالله بن حميد الحميدي الأندلسي، توفي في ذي الحجة ووقف كتبه فانتفع بها الناس.

وكان يقول: ثلاثة أشياء من علوم الحديث يجب تقديم الاهتمام بها: (كتاب العلل): وأحسن كتاب وضع فيه كتاب الدارقطني، و(كتاب المؤتلف والمختلف): وأحسن كتاب وضع فيه(كتاب الأمير أبي نصر بن ماكولا)، و(كتاب وفيّات الشيوخ): وليس فيه كتاب. قال: وقد كنت أردت أن أجمع فيه كتاباً، فقيل لي: رتّبه على حروف المعجم، بعد أن رتّبته على السنين، قال أبو بكر بن طرخان: فشغله عنه صحيحان إلى أن مات. وقال ابن طرخان المذكور: أنشدنا أبو عبدالله الحميدي المذكور لنفسه:

لقاء الناس ليس يفيد شيئاً ... سوى الهذيان من قيل وقالِ
فأقللْ من لقاء الناس إلاّ ... لأخذ العلم أو إصلاح حالِ

سنة تسع وثمانين وأربعمائة

فيها توفّي أبو طاهر أحمد بن الحسن بن أحمد الباقلاّني الكرخي ثم البغدادي، وكان صالحاً زاهداً منقبضاً عن الناس، ثقة حسن السيرة.

وفيها توفي عبد الملك بن سراج الأموي مولاهم القرطبي، لغويّ الأندلس.

وفيها توفّي أبو أحمد القاسم بن المظفّر الهشرزاري، والد قاضي الخافِقَيْن، كان حاكما بمدينة إربل[١] مدة، وبمدينة سِنْجار[٢] أيضاً مدّة. وكان من أولاده وحفدته علماء نجباء كرماء، نالوا المراتب العالية، وتقدّموا عند الملوك، وتحكّموا وقضوا، ونفقت أسواقهم. وممّا أنشد:

همتّي دونها السها والزبانا ... قد علمت جهدها، فما ابتدانا[٣]

ونسب الإمام السمعاني في ذيل تاريخ بغداد هذا القول إلى ولده المعروف بقاضي الخافِقَين خلافَ ما ذكره أبو البركات بن المستوفي في (تاريخ إربل) من نسبه إلى والده القاسم المذكور.

وذكر السمعاني أنّ قاضي الخافقين اشتغل بالعلم على الشيخ أبي إسحاق الشيرازي رحمه الله ولي القضاء بعدّة بلاد، ورحل إلى العراق وخراسان والجبال، وسمع الحديث الكثير، وسمع منه السمعاني، وإنمّا قيل له قاضي الخافِقَين لكثرة البلاد التي وليها،

---

(١) في معجم البلدان: إربل: قلعة حصينة ومدينة كبيرة تقع بين الزابَيْن «الكبير والصغير» ـ تعدّ من أعمال الموصل، وبينهما مسيرة يومين.
(٢) في معجم البلدان: سنجار مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة، بينهما وبين الموصل ثلاثة أيّام.
(٣) السها والزبانا: كوكبان.

و(الشهرزوري) نسبة إلى شَهْرَزُوْر[١]: بلدة كبيرة من أعمال إرْبل، قيل: فيها مات الإسكندر ذو القرنين عند عوده من بلاد المشرق.

وحكى الخطيب في تاريخ بغداد أنّ الإسكندر جعل مدائن كسرى دار إقامته، ولم يزل بها إلى أن توفي، فحمل تابوته إلى الإسكندرية، لأنّ أمّه كانت مقيمة هناك، فدفن عندها والله أعلم. قلت: يعني أن موضع إقامته كان في الموضع الذي خلقه فيه كسرى.

وفي السنة المذكورة توفّي الحافظ مفيد بغداد: محمد بن أحمد المعروف بابن الخاضبة[٢]. روى عن أبي بكر الخطيب وغيره، ورحل إلى الشام، وسمع من طائفة، وكان محبباً إلى الناس كلّهم، لدينه وتواضعه، ومروءته، ومسارعته في قضاء حوائج الناس، مع الصدق والورع، والصيانة التامة وطيب القراءة قال ابن طاهر: ما كان في الدنيا أحد أحسن قراءة منه، وقال غيره: ما رأيت في المحدّثين أقوم باللغة من ابن الخاضبة.

وفيها توفّي الإمام العلاّمة أبو المظفّر السمعاني: منصور بن محمد التميمي المروزي الحنفي ثمّ الشافعي، شرع على والده منصور في المذهب، وسمع أبا غانم الكراعي وطائفة. وكان إمام عصره بلا مدافعة، أقرّ له بذلك الموافق والمخالف، وكان حنفيّ المذهب، متعيناً عند أئمتهم، فلمّا حجّ ظهر له بالحجاز ما اقتضى انتقاله إلى مذهب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه فلمّا عاد إلى مرو، لقي بسبب انتقاله محناً وتعصّباً عظيماً، فعبر على ذلك، فصار إماماً للشافعية بعد ذلك، يدرّس ويفتي. وصنّف في مذهب الشافعي وغيره من العلوم تصانيف كثيرة، منها (منهاج أهل السنّة) و(الانتصار) و(الردّ على القدرية) وغيرها، وصنّف في (الأصول والقواطع). وفي (الخلاف والبرهان) يشتمل على قريب من ألف مسألة خلافية. و(الأوسط) و(الاصطلام) ردّ فيه على أبي زيد الدبوسي، وأجابه من الأسرار التي جمعها، وله (تفسير القرآن العزيز) كتاب نفيس. وجمع في الحديث ألف حديث عن مائة شيخ، وتكلّم عليها فأحسن، وله وعظ مشهور بالجودة. والسمعاني نسبة إلى سِمَعان (بفتح السين المهملة) وهو بطن من تميم، وقيل: يجوز بكسر السين أيضاً.

سنة تسعين واربع مائة

فيها قُتل الأرسلان[٣] ابن السلطان وألب أرسلان السلجوقي. وفيها التقى الأخوان

---

(١) شهرزور: كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان، أحدثها زور بن الضحّاك. معجم البلدان.

(٢) في الوافي بالوافيات للصفدي: ٨٩/٢/٦: أبو بكر ابن الخاضبة: محمد بن أحمد بن عبد الباقي بن منصور الحافظ البغدادي الدقاق مفيد بغداد.

(٣) في الكامل لابن الأثير ١٨٢/٨: أرسلان أرغون بن ألب أرسلان أخو السلطان ملكشاه ملك خراسان. . . قتله غلام له.

(دُقاق)[١] و(رضوان)[٢] ابنا تُتُش بِقِنَّسْرين، فانكسر دُقاق، ونهب عسكره، ثم تصالحا على أن يقدّم أخاه في الخطبة بدمشق.

وفيها أقام رضوان بحلب دعوة العُبيديين، وخطب للمستعلي[٣] الباطني، ثمّ بعد أشهر أنكر عليه صاحب[٤] أنطاكية وغيره، فأعاد الخطبة العباسية.

وفيها توفّي أبو يعلى أحمد بن محمد البصري الفقيه المعروف بابن الصوّاف شيخ مالكية العراق، وله تسعون سنة، وكان علّامة زاهداً مجداً في العبادة، عارفاً بالحديث. قال بعضهم: كان إماماً في عشرة أنواع من العلوم. توفي في رمضان.

وفيها توفي أبو الفتح عبدوس بن عبدالله بن عبدوس، رئيس همدان ومحدّثها. سمع من محمد بن أحمد بن حمدويه الطوسي، وروى عنه الإمام أبو زُرْعة.

وفيها توفّي الفقيه الإمام، العالي المقام، الصالح المشهور، مفتي الأنام، الفقيه الزاهد، الورع العابد، ذو المناقب العديدة، والسيرة الحميدة أبو الفتح شيخ الشافعية بالشام نصر بن ابراهيم المقدسي النابلسي، صاحب التصانيف، قال علماء التاريخ: كان إماماً علّامة، مفتياً محدّثاً، حافظاً زاهداً، متبتلاً ورعاً، كثير القدر عديم النظير.

قال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر: درس العلم ببيت المقدس، ثم انتقل إلى (صُور)، فأقام بها عشر سنين ينشر العلم، مع كثرة المخالفين له من الرافضة، ثم انتقل منها إلى دمشق، فأقام بها سبع سنين يحدّث، ويدرّس، ويفتي على طريقة واحدة من الزهد في الدنيا والتنزّه عن الدنايا، والجري على منهاج السلف من التقشّف وتجنّب السلاطين، ورفض الطمع، والاجتزاء باليسير، ممّا يصل إليه من غلّة أرض كانت له، يأتيه منها ما يقتاته، فيخبز له كلّ ليلة قرصة بجانب الكانون[٥]، ولا يقبل من أحد شيئاً.

قال وسمعت من يحكي أنّ تاج الدولة ابن ألب أرسلان زاره يوماً، فلم يقم له، وسأله عن أجل الأموال التي يتصرّف بها السلطان، فقال: أجلها أموال الجزية، وخرج من عنده فأرسل إليه بمبلغ من المال، وقال: هذا من مال الجزية، ففرّقه على الأصحاب، فلم يقبله، وقال: لا حاجة بنا إليه. فلمّا ذهب الرسول لامه بعض الفقهاء، وقال: قد علمت حاجتنا إليه، فلو كنت قبلْته، وفرّقته فينا، فقال له: لا تجزع من فوته، فسوف يأتيك من الدنيا ما

---

(١) دقاق بن تتش صاحب دمشق.
(٢) رضوان بن تتش صاحب حلب. انظر الحرب بينهما في تاريخ ابن الأثير ٨/ ١٨٤.
(٣) انظر الخطبة لصاحب مصر في الكامل لابن الأثير ٨/ ١٨٤.
(٤) صاحب أنطاكية باغيسيان. المصدر السابق.
(٥) الكانون: الموقد.

يكفيك. فكان كما تفرّس فيه.

قال وسمعت بعض من صحبه يقول: لو كان الفقيه أبو الفتح في السلف لم يقصر درجته عن واحد منهم، لكنّهم فاقوه بالسبق. وكانت أوقاته كلّها مستغرقة في عمل الخير، إمّا في نشر علم، وإمّا في إصلاح عمل.

قال: وحكى بعض أهل العلم أنه قال: صحبت إمام الحرمين أبا المعالي الجُوَيْني بخراسان، ثمّ قدمت العراق، وصحبت الشيخ أبا إسحاق الشيرازي، فكانت طريقته عندي أفضل من طريقة أبي المعالي، ثمّ قدمت الشام فرأيت الفقيه أبا الفتح، فكانت طريقته أحسن من طريقيتهما جميعاً. توفي بدمشق في السنة المذكورة يوم عاشوراء، وكان عمره نيّف على ثمانين سنة رحمة الله عليه.

سنة إحدى وتسعين وأربع مائة

في جمادى الأولى: فيها ملكت الفرنج أنطاكية بالسيف، ونجا صاحبها في ثلاثين فارساً[١]، ثم ندم حتّى غشي[٢] عليه من الغّم، فأركبوه، فلم يتماسك، فتركوه وتنحّوا، فعرفه أرمني حطّاب، فقطع رأسه، وحمله إلى ملك الفرنج، وعظم المصاب على المسلمين برواح أنطاكية، وأخذت الفرنج المعرّة[٣] بالسيف، ثم تجامع عساكر الجزيرة والشام، فعملوا مع الفرنج مصافاً، فتجادلوا، وهزمتهم الفرنج.

وفيها توفي أبو العباس أحمد بن عبد الغفار الأصبهاني رحمه الله.

وفيها توفّي أبو الفوارس طراد بن محمد بن علي النقيب الهاشمي العباسي، نقيب النقباء ومسند العراق. روى عن جماعة، وأملى مجالس كثيرة، وازدحموا عليه، ورحلوا إليه. وكان أعلى الناس منزلة عند الخليفة.

وفيها توفي أبو الحسن الكرخي مكّي بن منصور، الرئيس السلار نائب الكرخ معتمدها، وكان محمود السيرة وافر الحشمة.

سنة اثنتين وتسعين واربع مائة

فيها انتشرت دعوة الباطنية بأصبهان وأعمالها، وقويت شوكتهم، وأخذت الفرنج[٤]

(١) في الكامل لابن الأثير ٨/١٨٦: في ثلاثين غلاماً.
(٢) وفيه أيضاً: فلشدّة ما لحقه سقط عن فرسه مغشياً عليه.
(٣) أي معرة النعمان.
(٤) أنظر تاريخ ابن الأثير: ٨/١٨٩.

الملاعين فيها بيت المقدس بكرة الجمعة لسبع بقين من شعبان بعد حصار شهر ونصف. قال ابن الأثير: قتلت الفرنج في المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً.

وفيها ابتداء دولة محمد بن السلطان ملك شاه، طلع شهماً شجاعاً مهيباً، فتسارعت إليه العساكر، فسار إلى الري فتملّكها.

وفيها توفّي أبو الحسن أحمد بن عبد القادر بن محمد البغدادي اليوسفي. كان جليل القدر، روى عن ابن شاذان وطبقته.

وفيها توفّي أبو القاسم الخليلي أحمد بن محمد الدهقان رحمه الله.

وفيها توفي أبو تراب المَراغي[1] عبد الباقي بن يوسف. قال السمعاني: كان عديم النظير في فنّه، بهيّ المنظر، سليم النفس، عاملاً بعلمه نفّاعاً للخلق، فقيه النفس، قوي الحفظ، تفقّه ببغداد على أبي الطيب الطبري، وسمع أبا علي بن شاذان.

وفيها توفّي الخلعي القاضي أبو الحسين المصري الفقيه الشافعي. سمع من طائفة، وانتهى إليه علم الاسناد بمصر. قال ابن سكرة: فقيه له تصانيف، ولي القضاء، وحكم يوماً، واستعفى، وانزوى في القَرَافة.

وفيها توفي الحافظ أبو القاسم مكّي بن عبد السلام المقدسي، أحد من استشهد بالقدس، رحل، وجمع، واجتهد في هذا الشأن.

سنة ثلاث وتسعين واربع مائة

فيها التقى المسلمون مع الفرنج بقرب مَلَطْية[2] وانكسر الفرنج، وأُسر ملكهم[3]، ولم يفلت منهم سوى ثلاثة آلاف، هربوا في الليل، وكانوا ثلاثمائة ألف.

وفيها توفّي الشيخ الحافظ المحدّث عبد الملك بن محمد اليمني اليافعي. رحل وسمع من جماعة كبار في مكّة وعدن وجبال اليمن. وروى (كتاب الرسالة) للشافعي، و(مختصر) المزني، و(الدقائق) لابن المبارك، وكان شيخاً فاضلاً ورعاً زاهداً، يقال إنه سأله بعض أهل بغداد الانتقال إليه ليقرأ عليه، وبذل له في ذلك مالاً، فامتنع، وكتب إليه بقصيدة مفتتحها.

---

(١) في الأنساب للسمعاني ٥/٢٤٥: المراغة بلدة من بلاد أذربيجان، خرج منها جماعة من الأئمة والمحدثين منهم الإمام أبو تراب عبد الباقي بن يوسف بن علي بن صالح بن عبد الملك بن هارون المراغي نزيل نيسابور... ولد سنة ٤٠١ هـ.

(٢) في معجم البلدان: ملطية: بلدة من بلاد الروم مشهورة تتاخم الشام.

(٣) ملكهم بيمند الفرنجي - انظر تاريخ ابن الأثير ٨/ ١٩٥.

منـــزلـــي منـــزل رحيـــب أنيـــق فيـه لـي مـن فـواكـه الصيـف سـويـق

قلت يحتمل أنه أراد الفواكه المعنوية، إشارة إلى أنواع العلوم ونشرها في بلده على وجه الاستعارة، كما قلت في استعارة الفاكهات للأحوال والمقامات.

ويثمر خوخ الخوف في روضة الرضا وإجـاص إخـلاص وتيـن التـوكّـل
وأرطـاب حـبّ قـد جنتهـا يـد الهـوى وأعنـاب السـواق بهـا القلـب ممتـل
ورمّـــان إجـــلال وتفّـــاح هيبـــة ومـوز الحيـامبـدي رجـاء السفـرجـل
جنـــان جنـــان عـــارف لمعـــارف جنـى مِـن جَنـاهـا كـلّ دانٍ مـذلـل
فيـا طـرف قلـب عـش بـرؤيـاك طـرفـة ويـا نفـس أحلـى نفيـس لـه كلـي

واليافعي نسبة إلى يافع بن زيد بن مالك بن زيد بن مالك بن رعين، بطن من حِمْيَر. قال الإمام أبو سعد السمعاني في كتاب (الأنساب): ومنهم راشد بن جندل اليافعي، روى عن حبيب بن أوس ، روى عنه يزيد بن أبي حبيب.

وفيها توفي الإمام النحوي اللغوي صاحب التصانيف سليمان بن عبدالله بن الفتى النهرواني. صنّف كتاب (القانون في اللغة) عشْر مجلدات، وكتاباً في التفسير، وتخرّج به أهل أصبهان، ودرس ولده الحسن في النظامية.

وفيها توفي أبو الفضل عبد القاهر بن عبد السلام العباسي النقيب المقرىء المالكي.

سنة أربع وتسعين وأربعمائة

فيها كثرت الباطنية بالعراق والجبل وزعيمهم الحسن بن صباح تملِكوا القلاع، وقطعوا السبيل، وأهمّ الناس شأنهم لاشتغال أولاد ملك شاه بنفوسهم ومقاتلة بعضهم بعضاً. وفيها أخذت الفرنج بلداناً بالشام، منها (سَرُوج) و(قَيْسارية)[١] بالسيف، و(أرْسُوف)[٢] بالأمان.

وفيها توفي أبو الفضل أحمد بن علي بن الفضل بن طاهر بن الفرات الدمشقي.

وفيها توفّي الفقيه الإمام شيخ الشافعية بخراسان أبو الفرج البزّاز (بالزاي المكررة قبل الألف وبعدها) عبد الرحمن السرخسي ثم المروزي، تلميذ القاضي حسين. وكان يضرب به المثل في حفظ المذهب والورع.

---

(١) في معجم البلدان: قيسارية: بلد على ساحل بحر الشام، تعدّ في أعمال فلسطين، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام.

(٢) في معجم البلدان: أرسوف: مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا.

وعبد الواحد ابن الأستاذ أبي القاسم القشيري، وكان صالحاً عالماً كثير الفضل. روى عن جماعة، وسماعه من الطرازي حضوراً.

وفيها توفي القاضي أبو المعالي شيخ الوعّاظ بالعراق، مؤلف كتاب (مصارع العشّاق) عَزيز[١] بن عبد الملك شَيْذَلة الجيلي. كان فقيهاً شافعياً، فاضلاً واعظاً ماهراً، فصيح اللسان حلو العبارة، كثير المحفوظات صنّف في الفقه وأصول الدين والوعظ والمحبّة، وجمع كثيراً من أشعار العرب، وتولّى القضاء ببغداد، وسمع الحديث الكثير من جماعة كثيرة، كان أشعريّ المذهب وناصراً له.

قال ابن خلّكان: ومن كلامه يعني في المحبّة: إنما قيل لموسى عليه السلام: لن تراني، لأنه لما قيل له: انظر إلى الجبل، نظر إليه فقيل: يا طالب؛ انظر إلينا لمّا تنظر إلى ما سوانا. ثم أنشد.

يا مدّع بمقالة صدق المودّة والإخا ... لو كنت تصدق في المحبّة ما نظرت إلى سوى

انتهى قلت وكلامه هذا الذي حكاه ابن خلّكان لا يليق بالكليم الوجيه ابن عمران. إنما يليق بغيره ممّن في محبّته نقصان، كما في حكاية الجارية المشهورة التي قالت لمدّعي محبتها: ورائي من هو أحسن منّي، فلما التفتّ قالت:

لو كنت صادقاً في هوانا ... لما التفتّ إلى سوانا

وأما الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فلا يحسن هذا في حقهم، بل لايجوز، فإنّ منصب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أرفع من أن يناله شين ولا ملام، وأنّما يحسن في غيرهم إذا ادّعى الحبّ والغرام. وعجبت من ابن خلّكان كيف يحكي مثل هذا في حقّ موسى عليه السلام، ولا ينكره على قائله. وقال أبو المعالي المذكور: أنشدني والدي عند خروجه من بغداد للحجّ.

مددت إلى التوديع كفّاً ضعيفة ... وأخرى على الرمضاء فوق فؤاديَ
فلا كان هذا العهد آخر عهدنا ... ولا كان ذا التوديع آخر زاديَ

توفّي رحمه الله يوم الجمعة، ودفن محاذياً للشيخ أبي إسحاق الشيرازي (وعَزيز: بفتح العين المهملة وزايان بينهما مثناة من تحت ساكنة). و(شَيَذلة بفتح الشين والذال المعجمتين، وبينهما مثنّاة من تحت ساكنة). قال ابن خلّكان: ولا أعرف معنى هذا اللّقب مع كثرة كشفي عنه.

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٢٠٥: أبو المعالي عز يزي.

سنة خمس وتسعين واربع مائة

فيها توفّي المستعلي بالله أبو القاسم أحمد بن المستنصر بالله العبيدي، صاحب مصر، وفي أيامه انقطعت، دولته من الشام، واستولى عليه أتراك وفرنج، فأخذوا البيت المقدّس، وقتل فيه من المسلمين خلق كثير، وقتل في المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً، وأخذوا من عند الصخرة من أواني الذهب والفضّة ما لا يضبطه الوصف، ولم يكن للمستعلي مع الأفضل حلّ ولا ربط، بل كان الأفضل أمير الجيوش هو الكلّ.

وفي أيامه هرب أخوه نزار الذي تُنسب إليه الدعوة النزاريّة بقلعة الألموت[١]، فدخل الإسكندرية، وبايعه أهلها، وساعده القاضي ابن عمّار ومتولّيها، فنازلهم الأفضل مرّة بعد أخرى، حتّى ظفر بهم، ورجع، فذبح متولّي الإسكندرية، وبنى على نزار حائطاً، فهلك.

وفيها توفّي شيخ الأطباء بالعراق سعيد بن هبة الله، صاحب التصانيف في الفلسفة والطبّ والمنطق.

وفيها توفّي عبد الواحد بن عبد الرحمن الزبيري الفقيه. قال السمعاني: عمرّ مائة وثلاثين سنة.

سنة ست وتسعين واربع مائة

فيها سار دُقاق صاحب دمشق، فأخذ الرَحْبَة[٢]، وتسلّم حمص بعد موت صاحبها. وفيها توفّي مقرىء العراق أبو طاهر أحمد[٣] بن علي، صنّف (المستنير في القراءات)، كان ثقة محموداً، أقرأ خلقاً. وسمع الكثير عن ابن غيلان وطبقته.

وفيها توفّي مقرىء الأندلس أبو داود سليمان بن نجاح الأندلسي، مولى المؤيد بالله الأموي، وفيها توفّي أبو البركات محمد بن المنكَدِر الكرخي المؤدّب. روى عن عبد الملك ابن بشران.

وفيها توفّي أبو الحجّاج يوسف بن سليمان، المعروف بالأعلم النحوي، رحل إلى قرطبة، وأقام بها مدّة، وأخذ الأدب عن جماعة، وكان عالماً بالعربيّة واللغة ومعاني

---

(١) قلعة الألموت: وهي من نواحي قزوين. الكامل لابن الأثير ٨/ ٢٠١.

(٢) في معجم البلدان: الرحبة وهي رحبة مالك بن طوق، بينها وبين دمشق ثمانية أيام، ومن حلب خمسة أيام، وإلى بغداد مائة فرسخ، وإلى الرقة نيِّف وعشرون فرسخاً، وهي بين الرقة وبغداد على شاطىء الفرات أسفل من قرقيسيا.

(٣) في تاريخ ابن الأثير ٨/ ٢١٩: أحمد بن علي بن عبدالله بن سوار ـ وقد جاوز الثمانين.

الأشعار، حافظاً لها، كثير العناية بها، حسن الضبط لها، مشهوراً بمعرفتها وإتقانها، أخذ الناس عنه كثيراً، وكانت الرحلة في وقته إليه، وقد أخذ عنه أبو علي الحسين بن محمد الغسّاني الجياني. وشرح كتاب (الجمل) للزجاجي، وشرح أبياته في كتاب مفرد، وكفّ بصره في آخر عمره، وإنّما قيل له: الأعلم لأنه كان مشقوق الشفة العليا، ومن كان هكذا يقال له أعلم، فإن كان مشقوق الشفة السفلى قيل له: أفلح (بالفاء والحاء المهملة بينهما لام) وكان غيره: العبّاسي الفارسيّ المشهور بالشجاعة، يلقّب الفلحاء لفلحة كانت به. وإنّما ذهبوا به إلى تأنيث الشفة، كأنهم يعنون به صاحب الشفة الفلحاء، وكان سهيل بن عمرو القرشي رضي الله تعالى عنه أعلم، فلمّا أسر يوم بدر قال عمر رضي الله تعالى عنه للنبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: دعني أنزع ثنيته، فلا يقوم عليك خطيباً أبداً، فقال عليه السلام: دعه، فعسى أن يقوم مقاماً تحمده، وكان من الخطباء الفصحاء، وهو الذي أبرم صلح الحديبيّة على يديه، ثم أسلم، وحسن إسلامه، ثم قام هو لما قبض النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم خطيباً بمكّة، وسكّن الناس، ومنعهم من الاختلاف بعد تشتّت أمر الإسلام، وارتداد جماعة من العرب، وكان مقامه حينئذ لتثبيت الناس هو المقام المحمود، وإنّما قال عمر رضي الله عنه فلا يقوم عليك خطيباً: لأنه إذا كان مشقوق الشفة العليا، ونزعت ثنيته تعذّر عليه الكلام إلاّ بمشقّة.

سنة سبع وتسعين واربع مائة

فيها نازلت الفرنج حرّان، فالتقاهم سقمان، ومعه عشرة آلاف، فانهزموا[1]، وتبعهم الفرنج فرسَخَيْن، ثم نزل النصر وكرّ المسلمون، فقتلوهم كيف شاؤوا. وكان فتحاً عظيماً.

وفيها توفي أحمد بن علي المعروف بابن زهر الصوفي البغدادي وفيها توفّي القدوة الواعظ الزاهد اسماعيل بن علي النيسابوري، وفيها توفّي شمس الملك ابن تاج الدولة السلجوقي. وكان مسجوناً (ببعلبكّ)، فذهب بجهله إلى صاحب القدس لكي ينصره، فلم يلو عليه، فتوجّه إلى الشرق، فهلك.

وفيها توفّي أبو مكتوم عيسى ابن الحافظ أبي ذرّ عبدالله بن أحمد الهروي، ثم السروي الحجازي. روى عن أبيه صحيح البخاري.

وفيها توفي مفتي الأندلس ومسندها محمد بن الفرج القرطبي المالكي، كان رأساً في العلم والعمل، قوّالاً بالحق، رحل إليه الناس من الأقطار لسماع الموّطأ والمدوّنة.

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير ٨/ ٢٢١.

سنة ثمان وتسعين واربع مائة

فيها توفّي الحافظ أبو علي أحمد بن محمد البغدادي البوارني[١]، كان بصيراً بالحديث محقّقاً حجّة. وفيها توفّي أبو عبدالله الطبري الحسين بن علي ، الفقيه الشافعي محدّث مكّة. روى صحيح مسلم عن عبد الغافر، وكان فقيهاً مفتياً. تفقّه على ناصر بن الحسين العمري. قال الذهبي: وجرت له فتن وخطوب مع هياج بن عبيد وأهل السنّة بمكّة، وكان عارفاً بمذهب الأشعري، انتهى كلامه.

قلت: اسمعوا هذا الكلام العجيب، كيف جعل أهل السنّة هم المخالفون لمذهب الأشعري؟ وهذا ممّا يدلّك على اعتقاده لمذهب الظاهريّة الحشويّة، مع دلائل أخرى متفرقّة في كتابه.

وفيها توفّي الحافظ أبو علي الحسين بن محمد الجياني (بالجيم والمثناة من تحت وبعد الألف نون) الغسّاني الأندلسي، أحد أركان الحديث بقرطبة. روى عن ابن عبد البرّ وجماعة من طبقته. وكان كامل الأدوات في الحديث، علّامة في اللغة والشعر والنسب، وحسن التصنيف. وفيها توفّي سقمان[٢] التركماني، صاحب مارِدِين[٣] وجدّ ملوكها. كان أميراً جليلاً، صالحاً فارساً موصوفاً، حضر عدّة حروب.

وفيها توفّي محمد بن عبد السلام أبو الفضل الأنصاري البزّاز البغدادي. كان جليلاً صالحاً. روى عن البرقاني وابن شاذان.

سنة تسع وتسعين واربع مائة

فيها ظهر بِنهاوَنْد رجل ادّعى[٤] النبوّة، وكان ساحراً صاحب مخاريق، فتبعه خلق كثير، وكثرت عليهم الأموال، وكان لا يدّخر شيئاً، فأخذ، وقتل قاتلة الله تعالى .

وفيها توفّي أخو نظام الملك، عبدالله بن علي بن إسحاق الطوسي. والعبد الصالح الزاهد القانت لله، أحد القرّاء ببغداد أبو منصور الخيّاط: محمد بن أحمد البغدادي قال ابن ناصر: كانت له كرامات. وفيها توفّي أبو البقاء الحبّال المعمر بن محمد الكوفي.

---

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي٦/ ٧/ ٣٢٢: البرداني.

(٢) في العبر للذهبي ٣/ ٣٤٥: هو معين الدولة سقمان الأول ابن أرتق بن أكسب التركماني صاحب ماردين وجدّ ملوكها، كان أميراً جليلاً فارساً، حضر عدّة حروب.

(٣) في معجم البلدان لياقوت الحموي: ماردين قلعة مشهورة على قلّة جبل الجزيرة، مشرف على دنيسر ودارا ونصيبين.

(٤) انظر ذلك في الكامل لابن الأثير: ٨/ ٢٣٠.

سنة خمس مائة

فيها غزا السلطان محمد ابن ملك شاه الباطنيّة، وأخذ قلعتهم[١] بأصبهان، وقتل صاحبها أحمد بن عبد الملك. وكان قد تملكها اثنتي عشرة سنة، وهي من بناء ملك شاه، بناها على رأس جبل، وغرم عليها ألف ألف دينار.

وفيها توفّي عالم أهل طُوس: العلاّمة أبو المظفرّ الخَوافي[٢] (بفتح الخاء المعجمة وقبل الألف واو وبعدها فاء) نسبة إلى ناحية من نواحي نيسابور، كثيرة القرى الفقيه الشافعيّ، كان أنظر أهل زمانه، تفقّه على إمام الحرمين حتّى صار أوحد تلامذته، ولي القضاء بطوس ونواحيها، وكان مشهوراً بين العلماء بحسن المناظرة وإقحام الخصوم، وكان رفيق أبي حامد الغزالي. رزق الغزالي السعادة في تصانيفه، والخوافي[٣] في مناظراته.

وفيها توفّي جعفر[٤] بن أحمد البغدادي المقرىء السرّاج الأديب. روى عن ابن شاذان وجماعة، وكان ثقة بارعاً أخبارياً، علاّمة كثير الشعر، حسن التصانيف.

وفيها توفّي أبو الحسين بن الطيوري المبارك بن عبد الجبّار. قال ابن السمعاني: كان مكثراً صالحاً، أميناً صدوقاً، صحيح الأصول رصيناً وقوراً، كثير الكتابة .

وفيها توفّي أبو الكرم، المبارك بن فاخر الدبّاس، الأديب من كبار أئمة اللّغة والنحو ببغداد، وله مصنّفات. روى عن القاضي أبي الطيب الطبري، وأخذ العربية عن عبد الواحد ابن بَرهان (بفتح الموحدة) النحويّ.

وفيها توفّي حافظ عصره وعلاّمة زمانه: أبو محمد جعفر بن أحمد المعروف بابن السرّاج القارىء البغدادي، صاحب التصانيف العجيبة، منها: كتاب (مصارع العشّاق) وغيره، حدّث عن أبي علي بن شاذان، وأبي الفتح بن شاهين، والخلاّل وغيرهم. وأخذ عنه خلق كثير، وله شعر حسن، منه قوله:

وعدتِ بأن تزوري كلّ شهر ... فزوري قد تقضّى الشهر، زوري
وَشقّى بيننا نهر المعلّى ... إلى البلد المسمّى شهرزورِ
وأشهر هجرك المحتوم صدق ... ولكنْ شهر وصلِك شهرُ زُورِ

---

(١) قلعة شاهدز. انظر الكامل لابن الأثير ٨/ ٢٤٢.

(٢) في الوافي بالوفيات للصفدي ٦/٨/١٢٧: الخوافي الشافعي: أحمد بن محمد بن مظفّر الخوافي الفقيه الشافعي. الخوافي نسبة إلى خواف: ناحية من نواحي نيسابور.

(٣) وفيه أيضاً: ورزق الخوافي السعادة في مناظراته.

(٤) سيكرر المؤلف ذكره أيضاً.

قلت وقد أبدى في الثلاثة الأبيات صنعة حسنة من الجناس، فالقافية الأولى مركّبة من الشهر والأمر لها بالزيارة، والثانية اسم البلد المعروف، والثالثة إضافة شهر إلى زور: أي الشهر الموعود فيه بوصلك، شهر كذب، ولكن القافية الوسطى مشتملة على الإقواء الذي هو من جملة عيوب القافية، لأنّ إعرابه على وفق العربية النصب، لكونه مفعولاً ثانياً، على وزن قولك: مشيت إلى الرجل المسمّى زيداً، والقافية التي قبلها، والتي بعدها مخفوضتان بالأمر للمؤنثة، والأخيرة بإضافة شهر إليها، لكنّي قد وجّهت للقافية الوسطى في دفع الإقواء المعاب وجهاً من وجوه الإعراب، وهو أن يقال: المراد بالمسمّى: السمّو، أي: الرفع، كما قال قبله المعلّى، ويكون قوله بعده شهر زور مخفوضاً، بدلاً من البلد المخفوض بإلى، ولو قال: إلى البلد المروي، أو المشرق لسلم من الإقواء. ومن جلالة جعفر المذكور أنّ أبا طاهر السلفي كان يفتخر رويّته، مع كونه لقي أعيان ذلك الزمان، وأخذ عنهم.

وفيها وقيل في ثلاث[1] وتسعين توفي يوسف بن تاشفين، أمير المسلمين، سلطان المغرب أبو يعقوب البربري الملثّم. كان أكبر ملوك الدنيا في عصره ودولته بضعاً وثلاثين سنة، وكان رجلاً شجاعاً عادلاً عديم الرفاهية، تشيب العيش على قاعدة البربر، اختطّ مرّاكش، وأنشأها في برج صغير، وصيّرها دار الإمارة، وكثرت جيوشه، وبعد صيته، وتملّك الأندلس، ودانت له الأمم.

وفي آخر أيّامه بعث رسولاً إلى العراق يطلب عهداً من المستظهر بالله، فبعث له بالخلع والتقليد واللواء، فأقيمت الخطبة العباسيّة بممالكه، وكان يميل إلى أهل العلم والدين، ويكرمهم، ويصدر عن رأيهم، وكان يحبّ العفو والصفح عن الذنوب العظام.

ومن ذلك أنّ ثلاثة نفر اجتمعوا، فتمنّى أحدهم ألف دينار يتّجر بها، وتمنىّ آخر عملاً يعمل فيه لأمير المسلمين، وتمنىّ الآخر زوجة ابن تاشفين المذكور وكانت من أحسن النساء ولها حكم في بلاده فبلغه الخبر، فأحضرهم، وأعطى متمنّي المال ألف دينار، واستعمل للذي تمنّى الاستعمال، وقال للذي تمنّى زوجته: يا جاهل؛ ما حملك على هذا الذي لا تصل إليه؟ ثم أرسله إليها، فأنزلته في خيمة ثلاثة أيام، تحمل إليه كلّ يوم طعاماً واحداً، ثمّ أحضرته، وقالت له: ما أكلت في هذه الأيام؟ قال: طعاماً واحداً، قالت: كذلك كلّ النساء شيء واحد، وأمرت له بمال وكسوة، وأطلقته.

قلت: وقد سمعت ما يناسب هذا عن بعض ملوك الهند، حكي أنّه خرج ملك من

---

(١) عند ابن الأثير في سنة ٥٠٠ هـ. انظر ٨/ ٢٣٦.

ملوك الهند في بعض الليالي متنكراً ليسمع ما يقول الناس في بلاده، فرأى ثلاثة جلوساً، فدنا منهم، فإذا بهم يتمنّى كلّ واحد منهم شيئاً. فقال أحدهم: أتمنى أن أكون ملكاً، وقال آخر: أتمنّى زوجة الملك أتزوّجها، وقال الثالث: أتمنّى فرساً وسيفاً ولباساً للحرب، لأجاهد في سبيل الله، فلمّا أصبح الملك، استدعي بهم، فلمّا حضروا أعطى الذي تمنّى الجهاد فرساً جواداً، وسيفاً ماضياً ولباساً حصيناً، وقال: هذا ما تمنيت. وأجلس الذي تمنىّ الملك في مكان، وفوق رأسه سيف مسلول معلّق بشيء واهٍ، فبقي خائفاً يلتفت إلى السيف. فقال له: أراك تلتفت؟ فقال: أخاف من هذا السيف، فقال: ما تطلب بالملك؟ فإنّ الملك لا يزال خائفاً مثلك الآن، وأمر بطعام وإدام من جنس واحد، ملوّن بألوان مختلفة، فأحضر ذلك، وأمر الذي تمنّى زوجته أن يأكل من تلك الألوان، ففعل، فقال له: كيف رأيت ألوانه؟ قال: مختلفة، قال: فكيف طعمه؟ قال: واحد، قال: فكذلك النساء، انتهى معنى الحكاية.

قلت: ومثل هذا المقال إنمّا هو مدافعة وتساهل في التمثيل، وليس المثل كالمثل، فإنّ اللذات بالنساء تتفاوت بحسب تفاوت جمالهنّ، وتفاوت منصبهنّ وشرفهنّ، وذلك معروف لا يمكن جحده. ولهذا يقول الرسول ـ عليه السلام: «**ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إنّي أخاف الله**». فمدحه بذلك، وبيّن فضله بمخالفة هواه مع شدّة ميل الطبع، وقوّة الشهوة المتّصفة بهذه الصفة.

رجعنا إلى ذكر ابن تاشفين، وقال بعضهم: كان يوسف بن تاشفين مقدّم جيش أبي بكر بن عمر الصنّهاجي، وكان أبو بكر المذكور قد حاصر سِجِلْماسَة، وقاتل أهلها أشدّ القتال، حتّى أخذها، ثمّ رتّب عليها يوسف بن تاشفين، وكان من أمره ما كان، وأوّل ذلك أنّ البربر خرج عليهم من جنوب المغرب الملثّمون يتقدّمهم أبو بكر بن عمر الصنهاجي، وكان رجلاً ساذجاً خيّر الطباع مؤثراً لبلاده على بلاد المغرب، غير ميّال إلى الرفاهيّة، وكانت ولاة المغرب ضعفاء، فلم يقدروا يقاومون الملثّمين، فأخذوا البلاد من أيديهم من باب تِلِمْسَان[1] إلى ساحل البحر المحيط.

فلمّا حصلت البلاد لأبي بكر المذكور، سمع أنّ عجوزاً في بلاده ذهبت لها ناقة في غارة، فبكت، وقالت: ضيّعنا أبو بكر بن عمر بدخوله إلى بلاد المغرب، فحمله ذلك على أنْ استخلف على بلاد المغرب يوسف بن تاشفين المذكور من أصحابه، ورجع إلى بلاده، وكان يوسف رجلاً شجاعاً، مقداماً عادلاً، فاختطّ بالمغرب مدينة مرّاكش ـ كما تقدّم ـ وكان

(١) في معجم البلدان لياقوت الحموي: تلمسان بالمغرب وهما مدينتان متجاورتان مسوّرتان بينهما رمية حجر ـ منها إلى وهران مرحلة.

موضعها مكْمناً للصوص، ثم تملّك الأندلس بعد وقائع يطول ذكرها، وصار ملكاً للعرب الملثّمين. وكان قد ظهر لأبطال الملثّمين ضربات بالسيوف تقدّ الفارس، وطعنات بالرماح تنظم الكلاء، وكان لهم بذلك ناموس ورعب في قلوب المبتدئين لقتالهم، وسمّوا ملثّمين: لأنّهم كانوا يلثّمون، ولا يكشفون وجوههم. وسبب ذلك على ما قيل إنّ حمير كانت تلثّم لشدة الحرّ والبرد، يفعله الخواص منهم، فكثر ذلك حتّى صار يفعله عامتّهم.

وقيل سببه أنّ قوماً من أعدائهم كانوا يقصدون غفلتهم إذا غابوا، فيطرقون الحّي، ويأخذون المال والحريم، فأشار عليهم بعض مشائخهم أن يبعثوا النساء في زيّ الرجال إلى ناحية، ويقعدوا لهم في البيوت ملثّمين في زي النساء، فإذا أتاهم العدو، وظنّوا أنّهم النساء، خرجوا عليهم، ففعلوا ذلك، وثاروا عليهم بالسيوف، وقتلوهم، فلزموا اللثام تبّركاً بما حصل لهم من الظفر.

وقال الشيخ الحافظ عزّ الدين بن الأثير في تاريخه الكبير: وقيل إنّ سبب اللثام أنّ طائفة منهم خرجوا مغيرين على عدّوهم، فخلفهم العدّو إلى بيوتهم، ولم يكن بها إلا الشيوخ والصبيان. فلما تحقّق الشيوخ مجيء العدو لهم، أمروا النساء أن يلبسن ثياب الرجال، ويلثّمن حتّى لا يعرفن، ويلبسن السلاح. ففعل ذلك، وتقدّم الشيوخ والصبيان أمامهنّ، واستدار النساء بالبيوت، فلمّا أشرف العدّو ورأى جمعاً عظيماً، وظنّوا رجالاً، وقالوا: هؤلاء عند حريمهم يقاتلون عنهن قتال الموت، فالرأي أن نسوق النعم ونمضي، فإن اتّبعونا قاتلناهم خارجاً عن حريمهم، فبيناهم في جميع النعم من المراعي، إذ أقبل رجال الحيّ، فبقي العدو بينهم وبين النساء، فقتلوا من العدّو كثيراً، وكان من قبل النساء لهم أكثر. فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سنّة، ولازموا ذلك، فلا يعرف الشيخ من الشابّ.

ومما قيل في اللثام:

قوم لهم درك العلى في حمير   وإن أنتمُ صنهاجة فَهُم هُمُ
لمّا حووا إحراز كلّ فضيلة   غلب الحياء عليهم فتلثّموا

ولمّا حضرت الوفاة يوسف بن تاشفين عهد بالأمر من بعده إلى ابنه عليّ الذي خرج عليه ابن تَوْمَرَتْ (بفتح المثناة من فوق وسكون الواو وفتح الميم والراء وسكون المثناة في آخره).

وفيها أو بعدها توفّي الإمام العلاّمة الفقيه الفرضي إسحاق بن يوسف بن ابراهيم بن يعقوب بن عبد الصمد الصروفي، مصنّف كتاب(الكافي) في الفرائض. تفقّه بجعفر بن عبد الرحمن، وإسحاق العشاري. وكان علاّمة في المواريث والحساب، وكتابه دالّ على علمه،

ويقال إنّ أصله من المَعَافِر[١]، وسكن الصروف[٢]، وصنّف الكافي فاستغنى به أهل زمانه عن الكتب القديمة في المواريث.

قلت وكتابه المذكور مبارك واضح بكثرة الأمثلة، انتفع به خلق كثير ـ وخصوصاً من أهل اليمن ـ ويقال إنّه لمّا أظهر في بعض البلاد الشاسعة ابتاع بوزنه فضّة، وأرى أنّ مثله في الانتفاع والبركة والإيضاح بكثرة الأمثلة كتاب الجمل في النحو للزجاجي.

وسمعت من بعض شيوخنا يحكي عن بعض العلماء في بعض الآفاق أنّه قال: ما بلغت فضيلة في أحد من أهل اليمن إلاّ في اثنين: صاحب (الكافي) في الفرائض، وصاحب كتاب (البيان) في الفقه.

قلت: لا شكّ أنّ هذين الكتابين اشتهرا في قديم الزمان، وشاعا في البلدان، فلهذا قيل ذلك المقال. ولبعض المتأخرين من أهل اليمن أيضاً تصانيف، منها: (شرح المهذّب) للإمام الكبير الولي الشهير اسماعيل بن محمد الحضرمي، ومنها (شرح التنبيه) لابن أخته الفقيه العلامة القاضي جمال الدين ومنها (شرح الوسيط) للفقيه الإمام المالكي أبي شكيل في بضعة عشر مجلداً، وغالب فضائل أهل اليمن إنمّا هي بالصلاح والأوصاف الملاح، ويكفي دليلاً على فضلهم ودينهم قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ «**الإيمان يمان والحكمة يمانية**».

رجعنا إلى ذكر الإمام الصروفي في ذكر ابن سمرة أنه كان له ابنتان، تزوّج إحديهما ـ وهي تسمّى ملكة ـ الفقيه الإمام زيد بن عبد الله اليفاعي، فأولدها بنتاً اسمها هندة، هي أمّ محمد بن سالم الإمام بجامع ذي شرف، ولذلك صارت كتب الفقيه زيد بن عبدالله اليفاعي بأيديهم، لأنّه لم يرثه غير أمّهم هذه. وتزوّج الأخرى إمام مسجد الجند: حسان بن محمد، فاستولدها ولداً، وصار إليه من كتب الفقيه إسحاق شيء.

قال الإمام ابن سمرة: وأخبرني الفقيه الفاضل عبدالله بن محمد بن سالم بمنزله بذي باشرق[٣]، عن شيوخه، عن الشيخ إسحاق الصروفي، أنّه كان يقرأ عليه رجل من الجنّ ساحت الخلق، فلمّا كان ذات يوم أتاهم رجل محنش وهو الذي يلزم الحنشات والحيّات بيده فلا تضره ـ فقال الجنّي للشيخ إسحاق: أتمثل لهذا ثعباناً، وانظر ما يكون منه، فكره الشيخ ذلك منه، فلم يقبل منه، فتصوّر الجنّي ثعباناً، فعزّم الراقي عليه حتّى حصل في

---

(١) في معجم البلدان: المعافر اسم قبيلة من اليمن... لهم مخلاف بها ينسب إليه الثياب المعافرية.
(٢) لم أجدها في معجم البلدان.
(٣) لم أجدها في معجم البلدان.

جَوْنته[١]، فطلب الشيخ منه أن يطلقه، فتعسّر عليه ساعة، فأطلقه من جونته، فغاب ومكث خمسة عشر يوماً، فعاد إلى الشيخ وفيه آثار من نار، فسأله عن ذلك فقال: إنّه لما عزم عليّ أردت أن أخرج ، فكانت نار تلفحني من كلّ جهة، ولا أرى موضعاً خالياً من النار، فدخلتها كارهاً فهذه الآثار من تلك النار .

سنة احدى وخمس مائة

فيها كانت وقعة[٢] كبيرة بالعراق بين سيف الدولة صدقة بن منصور أمير العرب وبين السلطان محمد، فقتل صدقة في المصافّ. وفيها كان الحصار على (صور) وَ(طرابلس وَالشام) في ضرّمع الفرنج.

وفيها توفّي أبو علي تميم بن معزّ ابن السلطان أبي يحيى الحميري الصنْهاجي، ملك إفريقية وما والاها بعد أبيه، وكان حسن السيرة، محمود الآثار، محبّاً للعلماء، معظّماً للفضلاء مقصداً للشعراء، كامل الشجاعة وافر الهيبة، عاش تسعاً وتسعين سنة، وكانت دولته ستّاً وخمسين سنة، وخلّف من البنين أكثر من مائة، ومن البنات ستّين ـ على ما ذكر ابن شدّاد في تاريخ القيروان ـ وتملّك بعده ابنه يحيى، وفيه يقول أبو علي، الحسن بن رشيق القيرواني:

أصحّ وأقوى ما سمعناه في الندا ... من الخبر المأثور منذ قديم
أحاديث ترويها السيول عن الحيا ... عن البحر عن كفّ الأمير تميم

ولتميم المذكور أشعار حسنة منها قوله:

سل المطر العام لذي عمّ أرضكم ... أجاء بمقدار الذي فاض من دمعي؟
إذا كنت مطبوعاً على الصدّ والجفا ... فمن أين لي صبر، فأجعله طبعي؟

وكان يجيز الجوائز السنّية، ويعطي العطايا الجزيلة الهنيئة، وفي أيام ولايته أخذ المهدي محمد بن تومرت إفريقية عند عوده من بلاد الشرق، وأظهر بها الإنكار على من رآه خارجاً عن سنن الشريعة، ومن هناك توجّه إلى مرّاكش، وكان منه ما كان، على ما سيأتي قريباً، وكان قد فوّض إلى تميم المذكور أبوه في حياته ولاية المَهْديّة، ولم يزل بها إلى أن توفّي والده، فاستبدّ بالملك، ولم يزل كذلك إلى أن توفّي.

وفيها توفّي صدقة بن منصور مقتولاً كما تقدّم، وذلك يوم الجمعة، سلخ جمادى

(١) الجوتة: سليلة مغشّاة بالأدم.
(٢) انظر ذلك في الكامل لابن الأثير: ٨/ ٢٤٥ ـ ٢٤٩.

الآخرة. وقتل معه ثلاثة آلاف فارس، وكان شيعّياً، له محاسن ومكارم وحلم وجود، ملك العرب بعد أبيه اثنتين وعشرين سنة، وكان ذا بأس وسطوة وهيبة، نافر السلطان محمد ابن ملك شاه السلجوقي، واقتضت الحال الحرب بينهما، إلى أن قتل في المعركة في التاريخ المذكور، وحمل رأسه إلى بغداد، وكانت إمارة أبيه سبعاً وستّين سنة.

وفي السنة المذكورة توفي الرجل الصالح أبو محمد عبد الرحمن بن أحمد الصوفي الدوني، راوي السنن عن أبي نصر الكسّار، وكان زاهداً عابداً سفيانّي المذهب.

وفيها توفّي أبو الفرج القزويني محمد ابن العلاّمة أبي حاتم محمود بن أحمد بن الحسن الأنصاري، وكان فقيهاً صالحاً (وفيها) توفّي أبو سعد الأسدي محمد بن عبد الملك البغدادي المؤدب.

سنة اثنتين وخمس مائة

فيها حاصر (جاولي)[1] بالجيم، الموصل ـ وبها زنكي ـ فأنجده صاحب الروم أرسلان[2]، ففرّ (جاولي)، ودخل أرسلان الموصل، وحلفوا له، ثمّ التقى (جاولي) و(أرسلان) في ذي القعدة، فحمل أرسلان بنفسه، وضرب يد حامل العلم فأبانها، ثم ضرب (جاولي) بالسيف، فقطع السيف بعض لبوسه، وحمل أصحاب جاولي على الروميين فهزموهم، وبقي أرسلان في الوسط، فهزّ فرسه، ودخل نهر (الخابور)، فدخل به الفرس في ماء عميق، فغرق وطفا بعد أيام، فدفن ، وساق (جاولي)، فأخذ الموصل، فظلم وغشم.

وفيها تزوّج المستظهر بالله بأخت السلطان محمد.

وفيها ظهرت الإسماعيلية بالشام[3]، ثمّ خذلت، وأخذتهم السيوف، فلم ينج منهم أحد.

وفيها قتلت الباطنية الاسماعيلية بهمذان قاضي القضاة عبيد الله بن علي الخطيبي.

وفيها قتلت بأصبهان يوم عيد الفطر أبا العلاء صاعد بن محمد البخاري.

وفيها قتلت النيسابوري الحنفي المفتي، أحد الأئمة.

---

(١) في الأعلاق الخطيرة لابن شداد ٣/ ٢/ ٦١٠: جاولي سقاوه ـ سقاؤوه ـ من مماليك وأمراء السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي، أقطعه الموصل سنة ٥٠٠ هـ/١١٠٦م، فدخلها بعد أسره جكرمش وموته وغرق قلج أرسلان السلجوقي في نهر الخابور.

(٢) قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش السلجوقي. الكامل لابن الأثير ٨/ ٢٤٠.

(٣) في الكامل لابن الأثير ٨/٢٥٧: ثار جماعة من الباطنية في حصن شيرز على حين غفلة من أهله في مائة رجل....

وفيها قتلت بجامع آمِد يوم الجمعة في شهر الله المحرّم فخر الإسلام القاضي أبا المحاسن عبد الواحد بن اسماعيل بن أحمد الروياني الفقيه الإمام، الشافعي مذهباً أحد الرؤوس الأكابر في أيامه، شيخ الشافعية فروعاً وأصولاً وخلافاً، صاحب التصانيف السنّية، سمع الشيخ أبا الحسن عبد الغافر بن محمد الفارسي، وأبا عبيدالله محمد بن بيان الكازروني، وتفقه على مذهب الإمام الشافعي، وروى عنه زاهر بن طاهر الشحامي وغيره. وكان له الجاه العظيم والحرمة الوافرة، وكان الوزير نظام الملك كثير التعظيم له بكمال فضله، رحل إلى بخارى، ودخل غَزْنة، ونيسابور، ولقي الفضلاء، وحضر مجلس ناصر المروزي، وعلق عنه الحديث، وبنى بآمُل[1] طبرستان مدرسة، ثم انتقل إلى الري، ودرس بها، وقدم أصبهان، وأملأ بجامعها، وصنّف الكتب المفيدة منها: (بحر المذهب)، هو من أطول كتب الشافعية، وكتاب (الكافي)، وكتاب (حيلة المؤمن)، وصنّف في الأصول والخلاف.

ونقل عنه أنّه يقول: لو احترقت كتب الشافعي لأمليتها من خاطري، ذكره الحافظ أبو محمد عبدالله بن يوسف القاضي في طبقات أئمة الشافعي، وأثنى عليه.

وذكره الحافظ يحيى بن منْده، فأثنى عليه، وروى الحديث عن خلق كثير في بلاد متفرّقة. وقال الحافظ أبو طاهر السلفي: بلغنا أنّ أبا المحاسن الرؤياني أملى بمدينة آمُل، وقتل بعد فراغه من الإملاء بسبب التعصّب في الدين.

وذكر الحافظ أبو سعد السمعاني أنّه قتل في الجامع يوم الجمعة ـ الحادي عشر من المحرّم ـ من السنة المذكورة، قتله الملاحدة، وقال بعضهم: عاش سبعاً وثمانين سنة. وعظم الخطب بهؤلاء الملحدين، وخافهم كلّ أمير وعالم بهجومهم على الناس.

وفي السنة المذكورة توفّي أبو القاسم الربعي علي بن الحسين الفقيه الشافعي المعتزلي ببغداد، قلت: يعنون أنه شافعي الفروع، معتزلي الأصول، كما قيل إن جار الله الزمخشري حنفّي الفروع معتزلي الأصول، وأشباه ذلك كثر، يكون أحدهم فروعي مذهب آخر.

وفيها توفّي أبو زكريا التبريزي الخطيب صاحب اللغة يحيى بن علي بن محمد الشيباني، صاحب التصانيف، أخذ اللغة عن أبي العلاء المعرّي، وسمع من سليمان بن أيوب بصُورَ، وكان شيخ بغداد في الادب. وسمع الحديث بمدينة صور من الفقيه أبي الفتح سليم بن أيوّب الرازي وجماعة، وروى عنه الخطيب الحافظ أبو بكر وغيره من أعيان الأئمة، وتخرّج عنه خلق كثير، وتلمذوا له، وصنّف في الأدب كتباً لمفيدة، منها(شرح

(١) في معجم البلدان: آمل: اسم اكبر مدينة بطبرستان في السهل.

الحماسة) وَ(شرح ديوان المتنبي) وَ(شرح المعلّقات السبع)، وله (تهذيب غريب الحديث) وَ(تهذيب إصلاح المنطق) وَ(مقدّمات حسنة) في النحو، وكتاب (الكافي) في علم العروض والقوافي، وشرح (سقط الزند) للمعرّي، وله (الملخّص) في إعراب القرآن في أربع مجلّدات، ودرس الأدب في (حنش نظامية بغداد)، ودخل مصر، فقرأ عليه ابن بابشاذ شيئاً من اللغة.

وفيها توفّي محمد بن عبد الكريم بن حشيش البغدادي رحمه الله تعالى.

سنة ثلاث وخمس مائة

في ذي الحجّة منها أخذت الفرنج طرابلس بعد حصار سبع سنين، وكان المدد يأتيها من مصر[١] في البحر.

وفيها أخذوا بانياس[٢].

وفيها أخذ صاحب أنطاكية طرطوس وحصن الأكراد[٣].

وفيها توفّي أبو بكر أحمد بن المظفّر بن سوسن رحمه الله.

وفيها توفّي الحافظ أبو الفتيان عمر بن عبد الكريم الرواسي، طوّف خراسان والعراق والشام ومصر، وكتب عن الصابوني وطبقته.

وفيها توفّي أبو سعد المطرز بن محمد الأصبهاني في نيّف وتسعين سنة، سمع الحسين ابن ابراهيم وأبا عليّ غلام محسن وغيرهما، وهو أكبر شيخ للحافظ أبي موسى المديني، سمع منه حضوراً.

سنة أربع وخمس مائة

فيها أخذت الفرنج بَيْروت بالسيف، ثمّ أخذوا (صَيْدا) بالأمان، وأخذ صاحب أنطاكية بعض الحصون، وعظم المصاب، وتوجّه خلق كثير من المطوّعة يستصرخون[٤] الدولة ببغداد على الجهاد، واستغاثوا، وكسروا منبر جامع السلطان، وكثر الضجيج، فشرع السلطان في أهبة الغزو.

---

(١) في الكامل لابن الأثير: ٨/٢٥٨: وذلك لأن طرابلس كانت قد صارت في حكم صاحب مصر.
(٢) بانياس الساحل شمال طرطوس.
(٣) في معجم البلدان: حصن الأكراد هو حصن منيع حصين على الجبل الذي يقابل حمص من جهة الغرب، وهو الجبل المتصل بجبل لبنان/ وتسمى اليوم قلعة الحصن.
(٤) انظر الكامل لابن الأثير: ٨/٢٦١.

وفيها توفّي أبو الحسين الخشّاب يحيى بن علي بن الفرج المصري، شيخ الإقراء بالروايات.

وفيها توفّي اسماعيل بن أبي الحسين عبد الغافر بن محمد الفارسي، ثم النيسابوري.

وأبو يعلى حمزة بن محمد بن عليّ البغدادي أخو طراد الزينبي.

وفيها توفّي أبو الحسن علي بن محمد بن علي الطبري الفقيه الشافعي، المعروف بألكِيَا، بكسر الكاف وفتح المثناة من تحت والتخفيف وبعدها ألف، وهي في اللغة العجمية الكبير القدر المقدّم بين الناس، كان من أهل طبرستان، فخرج إلى نيسابور، وتفقّه على إمام الحرمين أبي المعالي الجُوَيني مدّة إلى أن برع، وكان حسن الوجه جهوري الصوت فصيح العبارة حلو الكلام، وخرج من نيسابور إلى بَيْهَق[1]، ودرس بها مدّة، ثمّ خرج إلى العراق، وتولّى التدريس بالنظامية ببغداد إلى أن توفّي. ذكره الحافظ عبد الغافر بن اسماعيل الفارسي وقال: كان من درّس معيداً إمام الحرمين في الدروس، وكان ثاني أبي حامد الغزالي، بل أرجح منه في الصوت والمنظر، ثم اتصل بخدمة الملك بركيا روق ـ بالموحدة قبل الراء والمثناة من تحت بين الكاف والراء مكررة قبل الكاف والواو ابن ملك شاه السلجوقي، وحظي عنده بالمال والجاه، وارتفع شأنه، وتولّى القضاء بتلك الدولة، وكان يستعمل الأحاديث في ميادين الكفاح إذا طارت رؤوس المقاييس في مهابّ الرياح.

قال الحافظ أبو طاهر السلفي: استفتيت شيخنا أبا الحسن المعروف بالكِيَا، وقد جرى بيني وبين الفقهاء كلام في المدرسة النظامية ـ ما يقول الإمام ـ وفّقه الله تعالى ـ في رجل أوصى بثلث ماله للعلماء والفقهاء، هل يدخل كتبة الحديث تحت هذه الوصية أم لا؟ فكتب الشيخ تحت السؤال: نعم، كيف لا؟ وقد قال النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم «**من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من أمر دينها بعثه الله تعالى يوم القيامة فقيهاً عالماً**» انتهى.

قلت الظاهر ـ والله أعلم إنّه محمول على ما إذا عرف معنى الحديث وأحكامه، وإلاّ فلا يدخل في الوصيّة، وقد وقفت بعد قولي هذا على ما يؤيده ـ والحمد لله تعالى ـ وهو ما نصّ عليه الإمام الرافعي، وقرّره الإمام النووي في الروضة، قال: فيما إذا أوصي للعلماء لا يدخل فيهم الذين يسمعون الحديث، ولا علم لهم بطرقه، ولا بأسماء الرواة، ولا بالمتون، فإن السماع المجرّد ليس بعلم.

توفي رحمه الله تعالى يوم الخميس مستهلّ السنة المذكورة، ودفن في تربة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وحضر دفنه الشريف أبو طالب الزينبي وقاضي القضاة أبو الحسن

(١) في معجم البلدان: بيهق: ناحية كبيرة واسعة كثيرة البلدان والعمارة، من نواحي نيسابور.

الدامغاني، وكانا مقدّمي الطائفة الحنفية، وكان بينه وبينهما مناقشة ، فوقف أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، فقال أبو الحسن الدامغاني متمثّلاً:

وما تُغني النوادب والبواكي ... وقد أصبحت مثل حديث أمس

وأنشد الزينبي متمثّلاً:

عقم النساء فمّا يلدّن شبيهه ... إنّ النساء بمثله عقم

وكان في خدمته بالمدرسة النظامية ابراهيم بن عثمان الغزي الشاعر المشهور، فرثاه بأبيات منها قوله:

هي الحوادث لا تبقي ولا تذرُ ... ما للبريّة عن محتومها وزرُ
لو كان ينجي علوّ من بوائقها ... لم تكسف الشمس، بل لم يُخسف القمر
قل للجبان الذي أمسى على حذرٍ ... من الحِمام متى ردّ الردَى الحذَر؟[1]
بكى على شمسه الإسلام إذ أفَلَتْ ... بأدمع قلّ في تشبيهها المطر
حَبْر عهدناه طلق الوجه مبتسماً ... والبِشر أحسن ما يلقى به البشر[2]
لئِن طوته المنايا تحت أخْمصها ... فعلمه الجمّ في الآفاق منتشر
أخا ابن إدريس كنت توردِه ... تحار في نظمه الأذهان والفكر

وكان قد سئل في حياته عن يزيد بن معاوية، فقدح فيه، وشطح، وكتب فصلاً طويلاً، ثم قلب الورقة، وكتب: لو مددت بياض لمددت العنان في مجازي هذا الرجل، وقال: هذا الإنسان، وكتب: فلان ابن فلان.

قال ابن خلّكان: وقد أفتى الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى في مثل هذه المسألة بخلاف ذلك، فإنه سئل عمّن صرّح بلعن يزيد، هل يحكم بفسقه، أم هل يكون ذلك مرّخصاً فيه؟ وهل كان مريداً قتل الحسين رضي الله تعالى عنه أم كان قصده الدفع؟ وهل يسوّغ الترحّم عليه، أم السكوت أفضل أنعم بإزالة الاشتباه مثاباً؟

فأجاب: لا يجوز لعن مسلم أصلاً، ومن لعن مسلماً فهو الملعون، وقد قال رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: «**المسلم ليس بلعّان**» وكيف يجوز لعن مسلم، ولا يجوز لعن البهائم؟ ـ وقد ورد النهي عن ذلك ـ وحرمة المسلم أعظم من حرمة الكعبة، بنصّ النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم ويزيد صحّ إسلامه، وما صحّ قتله للحسين، ولا أمره به، وما لم يصحّ منه ذلك لا يجوز أن يظن ذلك به، فإنّ إساءة الظنّ بالمسلم حرام، وقد قال الله

---

(١) الحِمام: الموت. الحذر: ما انحدر من الأرض.
(٢) الحَبْر: العالم الصالح، وهو مأخوذ من تحبير العلم وتحسينه.

تعالى: ﴿اجتنبوا كثيراً من الظنّ إن بعض الظنّ إثم﴾ [الحجرات/ ١٢] وَقال النبي صلّ الله عليه وآله وسلّم: «إنّ الله حرّم من المسلم دمه وماله وعرضه وأن يظنّ به ظن».

ومن زعم أنّ يزيد أمر بقتل الحسين رضي الله تعالى ورضي به ـ فينبغي أن يعلم به غاية حماقة، فإنّ من قتل من الأكابر والوزراء والسلاطين في عصره، لو أراد أحد أن يعلم حقيقة من الذي أمر بقتله، ومن الذي رضي به، ومن الذي ـ وإن كرهه لم يقدر على ذلك كان قد قتل بجواره وزمانه، وهو يشاهده، فكيف يعلم ذلك فيما انقضى عليه قريب من أربعمائة سنة في مكان بعيد؟ فهذا لا يعرف حقيقته أصلاً، وإذا لم تعرف وجب إحسان الظنّ بكلّ مسلم يمكن إحسان الظنّ به، ومع هذا فالقتل ليس بكفر، بل هو معصية، وربما مات القاتل بعد التوبة، ولو جاز لعن أحد، فسكت عن ذلك، لم يكن الساكت عاصياً، بل لو لم يلعن إبليس طول عمره لا يقال له في القيامة؛ لم لم تلعن إبليس؟ وأمّا الترحّم عليه فإنه جائز، بل مستحّب، إذ هو داخل في قوله: اللهّم أغفر للمؤمنين والمؤمنات. والله أعلم. ـ كتبه الغزالي ـ.

قلت: ينبغي أن يوضّح الأمر في ذلك ويفصّل، وهو أنّه لا يخلو: إمّا أن يعلم أنه أمر بقتله، فلا يخلوُ، إما أن يكون معتقداً جلّه، أوْلا، فإن استحلّه فقد كفر، وإن أمر به ولم يستحلّه فقد فسق، فليس القتل مقتضياً للكفر، إلا إذا كان قتلاً لنبيّ، وإن لم يعلم أنّه أمر بقتله فلا يجوز أن يفسق بمجرد ظنّ ذلك والله أعلم.

سنة خمس وخمس مائة

فيها جاءت عساكر العراق والجزيرة لغزو الفرنج، فنازلوا الرُّها، فلم يقدروا، ثم ساروا وقطعوا الفرات، ونازلوا بعض بلاد الفرنج(١) خمسة وأربعين يوماً، فلم يصنعوا شيئاً، واتّفق موت مقدّمهم(٢) واختلافهم، فردّوا، وطمعت الفرنج في المسلمين، وتجمعوا، فحاصروا صور مدّة طويلة.

وفيها كانت ملحمة كبيرة بالأندلس بين ابن تاشفين وبعض ملوك الفرنج، وانتصر(٣) المسلمون، وأسروا وقتلوا، وغنموا مالاً يعبّر عنه، وذلّت الفرنج.

وفيها توفي أبو محمد الآبنوسي عبدالله بن علي البغدادي المحدّث، سمع من أبي القاسم التنوخي والجوهري.

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٢٦٣؛ فحصروا قلعة تل باشر خمسة وأربعين يوماً.
(٢) الأمير سكمان القطبي. انظر المصدر السابق.
(٣) انظر الكامل لابن الأثير: ٨/ ٢٦٤.

وفيها توفّي أبو الحسن بن العلاّف علي بن محمد البغدادي الحاجب، مسند العراق.

وفيها توفّي الإمام حجّة الإسلام زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الطوسي الغزالي، أحد الأئمة الأعلام، اشتغل في مبدأ أمره بطوس، على أحمد الزادكاني، ثم قدم نيسابور، واختلف إلى دروس إمام الحرمين أبي المعالي الجويني، وجدّ في الاشتغال حتّى تخرّج في مدّة قريبة، وصار من الأعيان المشاهير المشار إليهم في زمن أساتذتهم، وصنّف في ذلك الوقت، وكان أستاذه يتبجّح به، ولم يزل ملازماً إلى أن توفّي في التاريخ المذكور في ترجمته، فخرج من نيسابور إلى العسكر، ولقي الوزير نظام الملك، فأكرمه، وعظمّه، وبالغ في الإقبال عليه، وكان بحضرة الوزير جماعة من الأفاضل، فجرى بينهم الجدال والمناظرة في عدّة مجالس، وظهر عليهم، واشتهر اسمه، وسارت بذكره الركبان، ثم فوّض إليه الوزير تدريس مدرسته ـ النظامية ـ بمدينة بغداد، فجاءها، وباشر إلقاء الدروس بها، وذلك في جمادى الأولى سنة أربع وثمانين وأربعمائة. فعجب به أهل العراق، وارتفعت عندهم منزلته، ثم ترك جميع ما كان عليه، وسلك طريق الزهد والانقطاع، وقصد الحجّ.

وذكر في الشذور أنه خرج من بغداد في سنة ثمان وثمانين وأربع مائة متوجّهاً إلى بيت المقدس، متزهدا لابساً خشن الثياب، وناب عنه أخوه في التدريس، ثم ذكره في سنة خمس وخمس مائة. فلمّا رجع توجّه إلى الشام، فأقام بمدينة دمشق مدّة يذكر الدروس في زاوية الجامع ـ في الجانب الغربي منه ـ وانتقل منها إلى بيت المقدس، واجتهد في العبادة وزيارة المشاهدة والمواضع المنظّمة، ثم قصد مصر، وأقام بالاسكندرية مدّة، ويقال إنه قصد منها الركوب في البحر إلى بلاد المغرب على عزم الاجتماع بالأمير يوسف بن تاشفين صاحب مرّاكش ـ وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى فبينا هو كذلك بلغه نعي يوسف المذكور، فصرف عنانه من تلك الناحية، ثمّ عاد إلى وطنه بِطُوسَ.

قلت هذه الزيادة في ذكر دخوله مصر والإسكندرية، وقصده الركوب إلى ملك بلاد المغرب غير صحيحة، فلم يذكر أبو حامد في كتابه: المنقذ من الضلال ـ سوى إقامته ببيت المقدس ودمشق، ثم حجّ ورجع إلى بلاده والعجب كل العجب ، كيف يذكر أنه قصد الملك المذكور لأرب ـ وهو من الملوك والمملكة هرب ـ فقد كان له في بغداد الجاه الوسيع، والمقام الرفيع، فاحتال في الخروج عن ذلك، وتعلّل بأنّه إلى الحج سالك لأداء ما عليه من فروض المناسك، ثم عدل إلى الشام، وأقام بها ما أقام وكذا علماء التاريخ الحفّاظ الأكابر ومنهم الإمام الجليل أبو القاسم ابن عساكر ـ لم يذكر هذه الزيادة التي تنافي رفع همّته عن المقاصد الدنّية، لإعراضه عن الدنيا والخلق بالكليّة، ولمّا عاد إلى الوطن اشتغل

بنفسه، وآثر الخلوة، وصنّف الكتب المفيدة في الفنون العديدة.

ومن مشهورات مصنّفاته: الوسيط والبسيط والوجيز والخلاصة في الفقه، ومنها إحياء العلوم: وهو من أنفس الكتب وأجملها. وله في أصول الفقه: المستصفى والمنخول والمنتحل في علم الجدل، وتهافت الفلاسفة، ومحكّ النظر ومعيار العلم، والمقاصد، والمظنون به على غير أهله، ومشكاة الأنوار والمنقذ من الضلال، وحقيقة القولين، وكتاب ياقوت التأويل في تفسير التنزيل أربعين مجلّداً، وكتاب أسرار علم الدين ، وكتاب منهاج العابدين، والدّرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة، وكتاب الأنَيس في الوحدة، وكتاب القربة إلى الله عز وجلّ، وكتاب اختلاف الأبرار والنجاة من الأشرار، وكتاب بداية الهداية، وكتاب جواهر القرآن، والأربعين في أصول الدين، وكتاب المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، وكتاب ميزان العمل، وكتاب القسطاس المستقيم، وكتاب التفرقة بين الإسلام والزندقة، وكتاب الذريعة إلى مكارم الشريعة، وكتاب المنادى والغايات، وكتاب كيمياء السعادة، وكتاب تدليس إبليس لعنه الله. وكتاب نصيحة الملوك، وكتاب الاقتصاد في الاعتقاد، وكتاب شفاء العليل في مسائل التعليل، وكتاب أساس القياس، وكتاب المقاصد، وكتاب إلجام العوام عن علم الكلام، وكتاب الانتصار، وكتاب الرسالة الدينية، وكتاب الرسالة القدسية، وكتاب أبيات النظر، وكتاب المآخذ، وكتاب القول الجميل في الردّ على غير الإنجيل، وكتاب المستظهري، وكتاب الأمالي وكتاب في علم اعداد الوقف وحدوده، وكتاب مفصّل الخلاف، وجزء في الردّ على المنكرين في بعض الفاظ إحياء علوم الدين.

وقال يمدحه تلميذه: الشيخ الإمام أبو العباس الأقلشي المحدّث الصوفي، صاحب كتاب النجم والكواكب وغيره:

أبا حامد أنت المخصّص بالحمد ... وأنت الذي علّمتنا سنن الرشد
وضعت لنا الإحياء يحيي نفوسنا ... وينقذنا من طاعة المارد المردي
فربع عبادات وعاداتها التي ... تعاقبها كالدّر نظم في العقد
وثالثها في المهلكات وإنه ... لمنجٍ من الهلك المبرّح بل بعدي
ورابعها في المنجيات وإنه ... ليسرح بالأرواح في جنّة الخلد
ومنها ابتهاج للجوارح ظاهر ... ومنها صلاح للقلوب من البعد

وكتبه كثيرة، وكلها نافعة، ثم ألزم بالعود إلى نيسابور والتدريس بها بالمدرسة النظامية، فأجاب إلى ذلك بعد تكرار المعاودات، ثم ترك ذلك وعاد إلى بيته في وطنه، واتخّذ خانقاها للصوفية، ومدرسة للمشتغلين بالعلم في جواره، ووزع أوقاته على وظائف الخير من ختم القرآن ومجالسه أهل القلوب، والقعود للتدريس، إلى أن انتقّل إلى ربّه هذا

ما ذكره بعض علماء التاريخ.

قلت: وكان رضي الله تعالى عنه رفيع المقام، شهد له بالصديقية الأولياء الكرام، وهو الحبر الذي باهى به المصطفى سيد الأنام موسى وعيسى ـ عليه وعليهما أفضل الصلاة والسلام ـ في المنام الذي رويناها بإسنادنا العالي عن الشيخ الإمام القطب أبي الحسن الشاذلي والذي انتشر فضله في الآفاق.

وتميّز بكثرة التصانيف وحسنها على العلماء، وبرع في الذكاء وحسن العبارة وسهولتها، وأبدع، حتّى صار إفحام الفرق عنده أسهل من شرب الماء.

قال الشيخ الإمام الحافظ ذو المناقب والمفاخر السيد الجليل أبو الحسن عبد الغافر الفارسي: محمد بن محمد بن محمد أبو حامد الغزالي حجّة الإسلام والمسلمين، إمام أئمة الدين، لم تر العيون مثله لساناً وبياناً ونطقاً وخاطراً وذكاء وطبعاً، ابتدأ في صباه بطرف في الفقه في طوس، على الفقيه الإمام أحمد الزادكاني، ثم قدّم نيسابور مختلفاً إلى درس إمام الحرمين في طائفة من الشبّان من طوس، وجدّ واجتهد حتّى تخرّج عن مدّة قريبة، وصار أنظر أهل زمانه، وأوحد أقرانه في أيام إمام الحرمين، فكانت الطلبة يستفيدون منه، ويدرس لهم، ويرشدهم، ويجتهد في نفسه، وبلغ الأمر به إلى أن أخذ في التصنيف.

وكان الإمام ـ مع علوّ درجته وسمّو عبارته وسرعة جريه في المنطق والكلام لا يصفي نظره إلى الغزالي سرّاً، لإنافته عليه في سرعة العبارة،وقوة الطبع، ولا يطيب له تصدّيه للتصنيف ـ وإن كان متخرّجاً به منتسباً إليه، كما لا يخفى من طبع البشر ـ ولكنّه يظهر التبجح به والاعتداد بمكانه ظاهر أخلاق ما يضمره.

ويقال على ما ذكره بعض المؤرخين أنّه لمّا صنّف كتابه المنخول، عرضه على إمام الحرمين فقال: دفنتني وأنا حيّ، فهلا صبرت إلى أن أموت؟ لأنّ كتابك غطّى على كتابي.

هكذا نقل عن إمام الحرمين ـ والله أعلم مع كونه بالمحلّ للذي شهد له بفضله الجملة من أفراد الأئمة، من ذلك ما تقدّم عن الإمام السمعاني أنّ الشيخ أبا إسحاق الشيرازي قال: تمتّعوا بهذا الإمام، فإنه نزهة هذا الزمان، يعني أبا المعاني الجويني ـ رحمة الله عليهم أجمعين ـ، وما تقدّم من وصفه بإمام الأئمة على الإطلاق، وغير ذلك مما اشتهر من وصفه بالفضائل، وبراعته في العلوم في الآفاق، ثمّ بقي كذلك إلى أن انقضى أيام الإمام، فخرج من نيسابور، وسار إلى العسكر، واحتلّ من مجلس نظام الملك محلّ القبول، وأقبل عليه الصاحب لعلوّ درجته وظهور اسمه وحسن مناظرته وجري عبارته، وكانت تلك الحضرة محطّ رحال العلماء ومقصد الأئمة والفصحاء، فوقعت للغزالي اتّفاقات حسنة من الاحتكاك

بالأئمة وملاقاة الخصوم ومناظرة الفحول ومناقدة الكبار، وظهر اسمه في الآفاق، وارتفق بذلك أكمل الارتفاق، حتّى أدّت الحال به إلى أن رسم للمصير إلى بغداد للتدريس بالمدرسة الميمونة النظامية بها، فصار إليها، وأعجب الكلّ تدريسه ومناظرته، وما لقي مثل نفسه، وصار بعد إمامة خراسان إمام العراق، ثم نظر في علم الأصول ـ وكان قد أحكمه ـ فصنّف فيه، وجدّد المذهب في الفقه، فصنّف فيه تصانيف، وسبك الخلاف، فحرّر فيه أيضاً تصانيف، وعلت حشمته ودرجته في بغداد حتّى كادت تغلب حشمة الأكابر وأمراء دار الخلافة، فانقلب الأمر من وجه آخر، وظهر عليه بعد ممارسة العلوم الدقيقة، وممارسة الكتب المصنفة فيها، وسلك طريق التزهّد والتألّه، وترك الحشمة، وطرح ما نال من الدرجة، ولازم الاشتغال بأسباب التقوى وزاد الآخرة، فخرج عمّا كان فيه، وقصد بيت الله تعالى، وحجّ ودخل الشام، وأقام في تلك الديار قريباً من عشر سنين، يطوف ويزور المشهد المعظّمة.

قلت: هكذا ذكر بعض المؤرخين، وقد قدّمت في فساد ذلك من البيان ما يدل فيه على البطلان، والمعروف الذي نصّ عليه أبو حامد في بعض كتبه أنّه أقام في الشام سنتين، نعم، ذكروا أنه أقام بعد رجوعه في العزلة والخلوات، وترك الاشتغال والمخالطات قريباً من عشر سنين.

قال الشيخ عبد الغفّار: وأخذ في التصانيف المشهورة التي لم يسبق إليها، مثل إحياء علوم الدين، والكتب المختصرة مثل الأربعين وغيرها من الرسائل التي من تأمّلها علم محلّ الرجل من فنون العلم، وأخذ في مجاهدة النفس وتغيير الأخلاق وتحسين الشمائل، فانقلب شيطان الرعونة وكلب الرئاسة والجاه، والتخلّق بالأخلاق الذميمة إلى سكون النفس وكرم الأخلاق، والفراغ عن الرسوم والتزينات والتزيّي بزيّ الصالحين، وقصر الأمل ووقف الأوقات، أو قال: الأوقاف على هداية الخلق ودعائهم إلى ما يعنيهم في أمر الآخرة وتبغيض الدنيا، والاشتغال بها على السالكين، والاستعداد للرحيل للدار الآخرة الباقية، والانقياد لكلّ من يتوسّم فيه، أو يشمّ منه رائحة المعرفة، أو يلحظ بشيء من أنوار المشاهدة، حتّى مرن على ذلك ولان، ثم عاد إلى وطنه ملازماً بيته، مشتغلاً بالتفكّر، ملازماً للوقت مقصوداً تقياً، وذخراً للقلوب ولكلّ من يقصده، ويدخل عليه إلى أن أتى على ذلك مدّة، وظهرت التصانيف، وفشت الكتب، ولم تبد في أيامه مناقضة لما كان عليه، ولا اعتراض لأحد على ما آثره، حتّى انتهت نوبة الوزارة إلى الأجلّ فخر الملك[1] جمال الشهداء تغمّده الله

(١) فخر الملك: محمد بن أبي القاسم علي بن خلف البغدادي، أبو غالب ـ وزير بهاء الدولة بن بويه. الأعلاق الخطيرة ٣/ ٢/ ٦٧٨.

بغفرانه ـ، وتزيّنت خراسان بحشمته ودولته، وقد سمع وتحقّق بمكانة الغزالي ودرجته، وكمال فضله وجلالته، وصفاء عقيدته ومعاشرته وقفاء سيرته، فتبّرك به وحضره، وسمع كلامه، فاستدعى منه أن لا يبقي أنفاسه وفوائده عقيمة لا استفادة منها، ولا اقتباس من أنوارها، وألّح عليه كلّ الإلحاح، وشدّد في الاقتراح إلى أن أجاب إلى الخروج، وخرج إلى نيسابور، وكان الليث غائباً عن عرينه، والأمر خافياً في مستور قضاء الله ومكنونه، فأشير إليه بالتدريس في المدرسة الميمونة النظامية وغيرها، فلم يجد بدّاً من الإذعان للولاة، ونوى بإظهار ما اشتغل به هداية السراة وإفادة القاصدين، لا الرجوع إلى ما انخلع عنه، وتحرّز عن رقّه من طلب الجاه ومماراة الأقران، ومكاثرة المعاندين وكم فرّع عصا الخلاف فيه، والوقوع فيه والطعن فيما يذره ويأتيه، والسماية به والتشنيع عليه، فما تأثّر به، ولا اشتغل بجواب الطاعنين، ولا أظهر استيحاشاً لغمرة المخالفين، قال: ولقد زرته مراراً، وما كنت أحدّث في نفسي ممّا عهدته في سالف الزمان عليه من الدعارة، أو قال: من الزعارة وإيحاش الناس والنظر إليهم بعين الازدراء، والاستحقار لهم كبراً وخيلاء، واغتراراً بما رزق من البسطة في النطق والخاطر والعبارة، وطلب الجاه والعلوّ في المنزلة، وكنت أظنّ أنه متلفح بجلباب التكلّف والتيمّن بما صار إليه، فتحقّقت بعد التروّي والتنقير أنّ الأمر على خلاف المظنون، وأنّ الرجل أفاق بعد الجنون.

وحكي لنا في ليل كيفية أحواله من ابتداء ما ظهر له سلوك طريق التألّه وغلبت الحال عليه بعد تبحّره في العلوم واستطالته على الكلّ بكلامه، والإستعداد بالذي خصّه الله تعالى به في تحصيل العلوم، وتمكّنه من البحث والنظر حتّى تنزّه عن الاشتغال بالعلوم العربية عن المقالة، وتفكّر في العاقبة وما يجدي وينفع في الآخرة، فابتدأ بصحبة الفارْمَذي[1]، وأخذ مفتاح الطريقة، وامتثل ما كان يشير به عليه من القيام بوظائف العبادات والإمعان في النوافل، واستدامة الإذكار والجدّ والاجتهاد، طلباً للنجاة، إلى أن جاز تلك العقابات، وتكلّف تلك المشاقّ وما يحصل على ما كان يطلبه من مقصوده، ثم حكى أنه راجع العلوم وخاض في الفنون، وعاود الجدّ والاجتهاد في كتب العلم الدقيقة، واقتفى بأربابها حتّى انفتح له أبوابها، وبقي مدّة في الوقائع، وتكافؤ الأدلة وأطراف المسائل، ثم حكى أنه فتح عليه من باب الخوف باب بحيث شغله عن كلّ شيء وحمله على الإعراض عمّا سواه تعالى، حتّى سهل ذلك، وهكذا إلى أن ارتاض كلّ الرياضة، وظهرت له الحقائق، وصار ما كنّا نظنّ به ناموساً وكلف طبعاً وتحقّقاً، وأن ذلك أثر السعادة المقدّرة له من الله تعالى، ثم

(١) في الأنساب للسمعاني ٣٣٤/٤، ٣٣٥: الفارمذي نسبة إلى فارمذ وهي قرية من قرى طوس، والمشهور بالنسبة إليها أبو علي الفضل بن محمد بن علي الفارمذي.

سألناه عن كيفيّة الرغبة في الخروج عن بيته، والرجوع إلى ما دعي إليه من أمر نيسابور، فقال معتذراً عنه: ما كنت أجوز في ديني أن أقف عن الدعوة ومنفعة الطالبين بالإفادة، وقد حقّ عليّ أن أبوح بالحقّ، وأنطق به، وأدعو إليه، وكان صادقاً في ذلك، ثم ترك ذلك قبل أن يترك، وعاد إلى بيته، واتخّذ في جواره مدرسة لطلبة العلم وخانقاهاً للصوفية، وكان قد وزّع أوقاته على وظائف الحاضرين من ختم القرآن ومجالسة أهل القلوب والقعود للتدريس، بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته ولحظات من معه عن فائدة، إلى أن أصابه عين الزمان ومنّ الأيام به على أهل عصره، فنقله الله تعالى إلى كريم جواره من بعد مقاسات أنواع من التقصّد والمناوأة من الخصوم، والسعي به إلى الملوك، وكفاية الله تعالى وحفظه وصيانته عن أن تنوشه أيدي النكبات، أو ينتهك ستر دينه بشيء من الزلاّت.

وكانت خاتمة أمره إقباله على حديث المصطفى ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ومجالسة أهله ومطالعة الصحيحين: البخاري والمسلم اللذين هما حجّة الإسلام، ولو عاش لسبق الكلّ في ذلك الفنّ في يسير من الأيام يستفزعه في تحصيله، ولا شكّ أنه سمع الأحاديث في الأيام الماضية، واشتغل في آخر عمره بسماعها، ولم تتّفق له الرواية، وما خلّف من الكتب المصنّفة في الأصول والفروع وسائر الأنواع يخلّد ذكره، ويقرّر عند المطالعين المنصفين المستفيدين منها أنّه لم يخلق مثله بعده، ومضى إلى رحمة الله تعالى يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة، خصه الله تعالى بأنواع الكرامة في آخرته، كما خصّه بفنون العلم بدنياه بمنّة ورحمته.

وقلت إلى شيء من ذكر ارتفاع مناقبه وبحر علوم كتبه ـ أشرت ـ والانتفاع في بعض القصيدات بقولي في هذه الأبيات:

وأحيا علوم الدين طالعه ينتفع ... ببحر علوم المستنير المحصّل
أبي حامد الغزال غزل مدقّق ... من الغزل لم يغزل كذاك بمغزل
دُعي حجّة الإسلام لا شكّ أنّه ... لذلك كفؤ كامل للتأهّل
له في منامي قلت: إنّك حجّة ... لإسلامنا لي قال: ما شئت لي قلِ

وقلت في أخرى:

بناكم وجير من بناء قواعد ... وجمع معانٍ واختصار مطوّلِ
وكم من بسيط في جلاء نفائس ... وإيضاح إيجاز وحلّ لمشكل
وكم ذي اقتصار مودع ربّ قاطع ... لإفحام خصم مثل ماض به اعتل
بكفّ همام ذبّ عن منهج الهدى ... بحرب نصال لا يرى غير أول
كمثل الفتى الحبر المباهي بفضله ... فعني بغزال العلى وتغزل

به المصطفى باهي لعيسى ابن مريم جليل العطايا والكليم المفضّل
أعندكما حَبرٌ كهذا فقيل: لا وناهيك في هذا الفخار المؤثل
رآه الولي الشاذلي في منامه وترويه عنه من طريق مسلسل
تصانيفه فاقت بنفع وكثرة وحلّة حسن كم بها لعزيز قل
وكم حجّة الإسلام حاز فضيلة وكم حلّة حسناتها فضله جلي
بها جاهل مع حاسد طاعن فذا تعامى وعنها ذاك أعمى قد ابتُلي
وما ضرّ سلمى ذمّ عالي جمالها ومنظرها الباهي ومنطقها الحلي
لئن ذمّها جاراتها ونضائر وعين جمالاً في حلاها وفي الحلي
فما سلمتْ حسناء عن ذمّ حاسد وصاحب حقّ من عداوة مبطلِ

ولم يعقب إلا البنات، وكان يعرض عليه الأموال فما يقبلها، ويعرض عنها، ويكتفي بالقدر الذي يصون له دينه، ولا يحتاج معه إلى التعرّض لسؤال.

قال الإمام الحافظ أبو القاسم ابن عساكر ـ رحمة الله عليه ـ: سمعت الإمام الفقيه أبا القاسم سعد بن عليّ بن أبي هريرة الاسفرائيني الصوفي الشافعي بدمشق قال: سمعت الشيخ الإمام الأوحد زين القرّاء جمال الحرم أبا الفتح عامر بن بحام بن أبي عامر الساوي بمكّة ـ رحمه الله تعالى ـ يقول: دخلت المسجد الحرام يوم الأحد فيما بين صلاة الظهر والعصر الرابع عشر من شوال سنة خمس وأربعين وخمسمائة ـ وذكر شيئاً ظهر عليه من الوجد وأحوال الفقراء ـ قال: فكنت لا أقدر أن أقف، ولا أجلس لشدّة ما بي، فكنت أطلب موضعاً أستريح فيه ساعة على جنبي، فرأيت باب بيت الجماعة للرباط الراسي عند باب المَرْوَة مفتوحاً، قلت: يعني في جهة الباب المسمّى في الحديث الحَزْوَرَة[1]، قال: فقصدته، ودخلت فيه، وقعت على جنبي الأيمن بحذاء الكعبة المشرّفة مفترشاً يدي تحت خدّي، لكيلا يأخذني النوم، فينقض طهارتي، فإذا برجل من أهل البدعة معروف بها، جاء ونشر مصلاّه على باب ذلك البيت، وأخرج لوحاً من جيبه أظنه كان من الحجر، وعليه كتابة، فقبّله ووضعه بين يديه، وصلّى صلاة طويلة مرسلاً يديه فيها على عادتهم، وكان يسجد على ذلك اللوح في كلّ مرّة، فإذا فرغ من صلاته سجد عليه وأطال فيه، وكان يمعك[2] خدّه من الجانبين عليه، ويتضرّع في الدعاء ثم رفع رأسه وقبّله ووضعه على عينيه، ثم قبّله ثانياً وأدخله في جيبه كما كان.

(١) في معجم البلدان: الحزورة: قال الدارقطني: كذا صوابه، والمحدّثون يفتحون الزاي ويشدّدون الواو وهو تصحيف؛ وكانت الحزورة سوق مكّة وقد دخلت في المسجد لما زيد فيه.
(٢) يمعّك خدّه: يمرّغه.

فلما رأيت ذلك كرهته، واستوحشت منه، وقلت في نفسي؛ ليت رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ كان حياً فيما بيننا، ليخبرهم بسوء صنيعهم، وما هم عليه من البدعة، ومع هذا التفكّر كنت أطرد النوم عن نفسي كيلا يأخذني فيفسد طهارتي، فبينا أنا كذلك إذ طرأ عليّ النعاس وغلبني، فكنت بين اليقظة والمنام، فرأيت عَرْصَة واسعة فيها ناس كثيرون واقفون، وفي يد كلّ واحد منهم كتاب مجلّد، قد تحلّقوا كلّهم على شخص، فسألت الناس عن حالهم، وعمَّن في الحلقة فقالوا: هذا رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وهؤلاء أصحاب المذهب، يريدون أن يقرؤوا مذاهبهم واعتقادهم من كتبهم على رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ يصحّحوها عليه، قال: فبينا أنا كذلك أنظر إلى القوم، إذ جاء واحد من أهل الحلقة ـ وبيده كتاب ـ قيل إن هذا هو الشافعي ـ رضي الله تعالى عنه ـ فدخل وسط الحلقة، وسلّم على رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ فرأيت رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ في جماله وكماله لابساً الثياب البيض النظيفة، من العمامة والقميص وسائر الثياب على زيّ أهل الصوف، فردّ عليه الجواب، ورحب به، وقعد الشافعي بين يديه، وقرأ من الكتاب مذهبه واعتقاده، وجاء بعد ذلك شخص آخر قيل هو الإمام الأعظم أبو حنيفة الكوفي ـ رضي الله تعالى عنه ـ وبيده كتاب، فسلّم وقعد يمين الشافعي، وقرأ من الكتاب مذهبه واعتقاده، ثم أتى بعده كلّ صاحب مذهب إلى أن لم يبق إلاّ القليل، وكلّ من يقرأ يقعد بجنب الآخر.

فلمّا فرغوا، إذا واحد من المبتدعة الملّقبة بالرافضة ـ لعنهم الله ـ قد جاء وبيده كراريس غير مجلّدة، وفيها ذكر عقائدهم الباطلة، وهمّ أن يدخل الحلقة، ويقرأها على رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ فخرج واحد ممّن كان مع رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وزجره، وأخذ الكراريس من يده، ورمى بها إلى خارج الحلقة وطرده، وأهانه.

قال: فلمّا رأيت أنّ القوم قد فرغوا، وما بقي أحد يقرأ عليه شيئاً تقدّمت قليلاً ـ وكان في يدي كتاب مجلّد ـ فناديت وقلت: يا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم هذا الكتاب معتقدي ومعتقد أهل السنّة، لو أذنت لي حتّى أقرأه عليك؟ فقال ـ عليه السلام ـ: وإيش ذلك؟ قلت: يا رسول الله، هو قواعد العقائد الذي صنّفه الغزالي، فأذن لي في القراءة، فقعدت وابتدأت: بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب قواعد العقائد، وفيه أربعة فصول: الفصل الأول: عقيدة أهل السنّة في كلمتيْ الشهادة التي هي أحد مباني الإسلام.

وذكر أنّه قرأ العقيدة المذكورة إلى أن انتهى إلى قول الإمام أبي حامد: معنى الكلمة الثانية: وهي شهادة الرسول، وأنّه ـ تعالى ـ بعث النبيّ الأمّي القرشيّ محمّد ـ صلّى الله عليه

وآله وسلّم ـ إلى كافة العرب والعجم والجنّ والأنس، قال: فلمّا بلغت إلى هذا رأيت البشاشة والتبسّم في وجه رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ حتّى إذا انتهيت إلى نعته وصفته التفت إليّ وقال: أين ـ الغزالي؟ فإذا بالغزالي كأنّه كان واقفاً على الحلقة بين يديه، فقال: ها أنا ذا، يا رسول الله، وتقدّم، وسلّم على رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ فردّ عليه الجواب، وناوله يده العزيزة والغزالي يقبّل يده المباركة، ويضع خدّيه عليها تبّركاً وبيده العزيزة المباركة، ثم قعد وقال: فما رأيت رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ أكثر استبشاراً بقراءة أحد، مثلما كان بقراءتي عليه قواعد العقائد.

ثم انتبهت من النوم وعلى عيني أثر الدمع ممّا رأيت من تلك الأحوال والكرامات ـ، فإنها كانت نعمة جسيمة من الله تعالى ـ سيما في آخر الزمان مع كثرة الأهواء ـ فنسأل الله تعالى أن يثبتنا على عقيدة أهل الحقّ، ويحيينا عليها، ويميتنا عليها، ويحشرنا معهم، ومع الأنبياء والمرسلين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً، فإنه بالفضل جدير، وعلى ما يشاء قدير والغَزّالي ـ بفتح الغين المعجمة وتشديد الزاي وبعد الألف لام.

قال ابن خلّكان: هذه النسبة إلى الغزال على عادة أهل خُوَارِزْم وجُرْجَان، فإنهم ينسبون إلى القصّار القصاري، إلى العطّار والعطاري، وقيل إن الزاي مخففة نسبة إلى غَزالة، وهي قرية من قرى طُوْس، قال: وهو خلاف المشهور، ولكنْ هكذا قال السمعاني في كتاب الأنساب والله أعلم بالصواب.

قلت وفضائل الإمام حجّة الإسلام أبي حامد الغزالي ـ رضي الله تعالى عنه ـ أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تشهر.

وقد روينا عن الشيخ الفقيه الإمام العارف بالله، رفيع المقام الذي اشتهرت كرامته العظيمة، وترادفت، وقال للشمس يوماً؛ قفي، فوقفت حتّى بلغ المنزل الذي يريد من مكان بعيد.

عَنْ أبي الذبيح اسماعيل ابن الشيخ الفقيه الإمام ذي المناقب والكرامات والمعارف: محمد بن اسماعيل الحضرمي ـ قدّس الله أرواح الجميع ـ أنّه سأله بعض الطاعنين في الإمام أبي حامد المذكور ـ رضي الله تعالى عنه ـ في فتيا أرسل بها إليه: هل يجوز قراءة كتب الغزالي؟ فقال رضي الله عنه في الجواب: إنّا لله، وإنا إليه راجعون، محمد بن عبدالله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ سيّد الأنبياء، ومحمد بن إدريس سيّد الأئمة، ومحمد بن محمد بن محمد الغزالي سيّد المصنّفين، هذا جوابه رحمة الله عليه.

وقد ذكرت في كتاب الإرشاد أنه سمّاه سيد المصنّفين، لأنه تميّز عن المصنّفين بكثرة

المصنّفات البديعات، وغاص في بحر العلوم، واستخرج عنها الجواهر النفيسات، وسحر العقول يحسن العبارة وملاحة الأمثلة وبداعة الترتيب والتقسيمات والبراعة في الصناعة العجيبة، مع جزالة الألفاظ وبلاغة المعاني الغريبات، والجمع بين علوم الشريعة والحقيقة، والفروع والأصول، والمعقول والمنقول، والتدقيق والتحقيق، والعلم والعمل، وبيان معالم العبادات والعادات، والمهلكات والمنجيات، وإبراز محاسن أسرار المعارف المحجبات العاليات، والانتفاع بكلامه علماً وعملاً لا سيمّا أرباب الديانات ـ والدعاء إلى الله سبحانه برفض الدنيا والخلق ومحاربة الشيطان والنفس، بالمجاهدة والرياضيات، وإفحام الفرق أيسر عنده من شرب الماء: بالبراهين القاطعة، وتوبيخ علماء السوء الراكنين إلى الظلمة والمائلين إلى الدنيا الدنّية، أولي الهمم الدنيّات، وغير ذلك ممّا لا يحصى ممّا جمع في تصانيفه من المحاسن الجميلات والفضائل الجليلات، ممّا لم يجمعه مصنّف ـ فيما علمنا ـ ولا يجمعه فيما نظنّ، ما دامت الأرض والسماوات، فهو سيّد المصنّفين عند المنصفين، وحجّة الإسلام عند أهل الاستسلام لقبول الحقّ من المحققين في جميع الأقطار والجهات، وليس يعني أنّ تصانيفه أصحّ، فصحيحا البخاري ومسلم أصحّ الكتب المصنّفات.

وقد صنّف الشيخ الفقيه الإمام المحدّث شيخ الإسلام، عمدة المسندين ومفتي المسلمين، جامع الفضائل قطب الدين: محمد ابن الشيخ الإمام العارف أبي العباس القسطلاني ـ رضي الله تعالى عنهما ـ كتاباً أنكر فيه على بعض الناس، وأثنى على الإمام أبي حامد الغزالي ثناء حسناً، وذمّ إنساناً ذمّة، قال في أثناء كلامه: ومن نظر في كتب الغزالي وكثرة مصنّفاته وتحقيق مقالاته، عرف مقداره، واستحسن آثاره، واستصغر ما عظم من سواه، وعظم قدره فيما أمدّه الله به من قوله، ولا مبالاة بحاسد قد تعاطى ذمّة أو معانداً، بعدّه الله عن إدراك معاني بهمّة، فهو كما قيل:

قل لمن عن فضائله تعامنى تعامَ، لن تعدم الحسناء ذامّا

هذا بعض كلامه بحروفه، وقال بعض العلماء المالكية والمشايخ العارفين الصوفية، الناس من فضلة علوم الغزالي، معناه: أنهم يستمدّون من علومه ومدده، ويستعينون بها على ما هم بصدده، زاده الله تعالى فضلاً ومجداً على رغم الحسّاد والعِدَى[1].

قلت وقد اقتصرت على هذا القدر اليسير من محاسنه وفضله الشهير، محتوياً بذكر شيء ممّا له من الفضل الباهر والجاه والنصيب الوافرة، وشرف المجد والمفاخر، مما روينا بالأسانيد العالية عن السادة الأكابر، أعني: أمر الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم بتعزير[2]

(١) العِدَى: المتباعدون والغرباء. العُدَى: جمع عدوّ.
(٢) التعزيز: اللوم أو التأديب أو الضرب أشد الضرب.

من أنكر عليه ونعم الأمر ـ حتّى إنّ المنكر ما مات إلاّ وأثر السوط على جسمه ظاهر بنصر الله عزّ وجلّ ـ ونعم الناصر.

وفي السنة المذكورة توفّي أبو الهيجاء مقاتل بن عطية بن مقاتل البكري الحجازي الملّقب بشبل الدولة، كان من أولاد أمراء العرب، فوقعت بينه وبين إخوته وحشة أوجبت رحلته عنهم، ففارقهم، ووصل إلى بغداد، ثم خرج إلى خُراسان، واختصّ بالوزير نظام الملك، وصاهره، ولمّا قتل نظام الملك رثاه ببيتين تقدّم ذكرهما في ترجمته، ثم عاد إلى بغداد، وأقام بها مدّة، وعزم على قصد كَرِمان[1]، مسترفداً وزيرها مكرم بن العلاء وكان من الأجواد فكتب إلى المستظهر بالله قصّته، يلتمس منه الإنعام عليه بكتاب إلى الوزير المذكور، يتضّمن الإحسان إليه، فوقّع المستظهر على رأس قصّته: يا أبا الهيجاء، أبعدت النُجْعَة[2]، أسرع الله بك الرجعة، وفي ابن العلاء مقنع، فطريقته في الخير مَهْيَع[3]، وما يُسر به إليك، فَيُحلي ثمره سكّره، ويستعذب مياه بِرُه، والسلام.

فاكتفى أو الهيجاء بهذه الأسطر، واستغنى عن الكتاب، وتوجّه إلى كرمان، فلمّا وصلها قصد حضرة الوزير، واستأذن في الدخول فأذن له، فدخل عليه، وعرض عليه رأيه القصة، فلمّا رآها قام وخرج عن دَسْته إجلالاً وتعظيماً لكاتبها، وأوصل لأبي الهيجاء ألف دينار في ساعته، ثمّ عاد إلى دسته، فعرّفه أبو الهيجاء أنّ معه قصيدة يمدحه بها، فاستنشده إياها فأنشده:

دعي العِيسَ تذرع عرض الفلا   إلى ابن العلاء وإلاّ فَلا[4]

فلمّا سمع الوزير هذا البيت أطلق له ألف دينار آخر، ولما كمل إنشاد القصيدة أطلق له ألف دينار آخر، وخلع عليه وقاد إليه جواداً يركبه، وقال له: دعاء أمير المؤمنين مسموع ومرفوع، وقد دعا لك بسرعة الرجوع، وجهز بجميع ما يحتاج إليه، ورجع إلى بغداد، وكان من جملة الأدباء الظرفاء، وله النظم الفائق الرائق، وبينه بين العلاّمة أبي القاسم الزمخشري مكاتبات وأشعار، يمدح كلّ منهما الآخر.

---

(١) في معجم البلدان: كرمان ولاية مشهورة وناحية معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان.
(٢) النجعة: طلب الكلأ في مواضعه.
(٣) مهيع: الطريق الواسع البيّن.
(٤) العيس: الواحد أعيس، والواحدة عيساء: الإبل البيض التي يخالط بياضها سواد خفيف، وهي كرام الإبل.

سنة ستّ وخمس مائة

فيها وقيل في التي تليها: توفّي أبو غالب أحمد بن محمد الهمداني العدل، وأبو القاسم اسماعيل بن الحسين القريض، والفضل بن محمد القشيريّ النيسابوري الصوفّي، وأبو سعد المعمر بن علي البغدادي، الحنبلي الواعظ المفتي، كان يبكي الحاضرين ويضحكهم، وله قبول زائد وسرعة جواب، وحدّة خاطر وسعة دائرة، روى عن ابن غيلان وأبي محمد الجلال.

سنة سبع وخمس مائة

في المحرم منها التقى عسكر دمشق والجزيرة، وَعسكر الفرنج(١) بأرض طَبَريّة وكانت وقعة مشهورة قتلهم المسلمون فيها قتلاً ذريعاً، وأسروهم، وممّن أسر ملكهم ابن صاحب القدس، لكن لم يعرف، فبذل شيئاً للذي أسره، فأطلقه، ثم أنجدهم عسكر أنطاكية وطَرابُلس، وردّ المنهزمون، فثبت لهم المسلمون، وانحاز أعداء الله إلى جبل، ورابط الناس بإزائهم يرمونهم، وأقاموا كذلك سبعة وعشرين(٢) يوماً، ثم سار المسلمون فنهبوا بلاد الفرنج وضياعهم ما بين القدس إلى عكا، وردّت عساكر الموصل، وتخلّف مقدّمهم مَوْدُود بدمشق، وأمر العساكر بالقدوم في الربيع، فوثب على مودود باطنيّ يوم جمعة، فقتله، وقتل الباطني.

وفيها توفّي أبو بكر الحلواني أحمد بن علي بن بدران، وكان ثقة متعبّداً زاهداً، روى عن القاضي أبي الطيب الطبري وطائفة.

وفيها توفّي رضوان صاحب حلب ابن تاج الدولة السلجوقي، ومنه أخذت الفرنج أنطاكية، وملّكوا بعده ابنه ألب أرسلان الأخرس(٣).

وفيها توفّي أبو غالب شجاع(٤) بن فارس الذهلي السهروردي ثم البغدادي الحافظ، نسخ ما لا ينحصر من التفسير والحديث والفقه لنفسه وللناس، حتّى إنه كتب شعر ابن الحجّاج سبع مرات.

وفيها توفّي الشاشي المعروف بالمستظهري: فخر الإسلام أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين شيخ الشافعية، كان فقيه وقته، تفقّه أولاً على أبي عبدالله محمد بن بيان الكازروني

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير ٨/ ٢٦٦.

(٢) وفيه أيضاً: فأقاموا به ستة وعشرين يوماً.

(٣) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٢٦٧: وعمره ست عشرة سنة.

(٤) وفيه أيضاً: شجاع بن أبي شجاع فارس بن الحسين بن فارس أبو غالب الذهلي الحافظ ومولده سنة ثلاثين وأربع مائة.

وَعلى القاضي أبي منصور الطوسي صاحب أبي محمد الجُوَيني. ثم رحل إلى بغداد، ولازم الشيخ أبا إسحاق الشيرازي رحمه الله وقرأ عليه، وأعاد عنده، وقرأ كتاب الشامل في الفقه على أبي نصر بن الصبّاغ، ودخل نيسابور صحبة الشيخ أبي إسحاق، وتكلّم في مسألة بين يدي إمام الحرمين، فأحسن فيها، وعاد إلى بغداد.

وذكر الحافظ عبد الغافر الفارسي في تاريخ نيسابور: وتعيّن في الفقه بعد أستاذه أبي إسحاق، وانتهت إليه رئاسة الطائفة الشافعية، وصنّف تصانيف حسنة منها: كتاب حلية العلماء في المذهب، ذكر فيه مذهب الشافعي، ثم ضمّ إلى كلّ مسألة اختلاف الأئمة فيها، وجمع من ذلك شيئاً كثيراً وسمّاه: المستظهري، وصنّف أيضاً في الخلاف، وتولّى التدريس بالمدرسة النظامية بمدينة بغداد، وكان قد وليها قبله الشيخ أبو إسحاق وأبو نصر بن الصباغ صحب الشامل، وأبو سعد المتولّي صاحب تتمة الإبانة وأبو حامد الغزالي والكِيا الهراسي وقد سبق ذكر ذلك في ترجمه كلّ واحد منهم فلما انقرضوا تولاها هو.

وحكى بعض المشايخ من علماء المذهب أنه يوماً ذكر المدرّسين، فوضع منديله على عينيه، وبكى كثيراً ـ وهو جالس على السدّة التي جرت عادة المدرّسين بالجلوس عليها، وكان ينشد:

خلت الديار فسدّت غير مسوّد ومن العناء تفرّدي بالسؤدد

وجعل يردّد هذا البيت ويبكي، قيل: هذا إنصاف منه، واعتراف لمن تقدّمه بالفضل والرجحان عليه.

قلت وقد يقع مثل هذا البكاء ممزوجاً بفرح بما صار إليه، وقد فرّق العلماء بين بكاء الحزن والفرح بأنّ دمعة ذلك حارّة، ودمعة هذا باردة، ذكروا ذلك عند بكاء البكر وقت استئذانها في نكاحها.

والبيت المذكور من جملة أبيات في الحماسة.

وفي السنة المذكورة توفّي الحافظ ذو الرحلة الواسعة والتصانيف: محمد بن طاهر المقدسي المعروف بابن القيسراني كان أحد الرحّالين في طلب الحديث، سمع بالحجاز والشام ومصر والثغور والجزيرة والعراق والجبال وفارس، وخُوزسْتان وخراسان واستوطن هَمَذان. وكان من المشهورين بالحفظ والمعرفة لعلوم الحديث، وله في ذلك مصنّفات ومجموعات تدلّ على غزارة علمه وجودة معرفته، منها (أطراف الكتب الستّة): وهي صحيحا البخاري ومسلم، وسنن أبي داود والترمذي والنسائي، وسنن ابن ماجة سادسها عند بعضهم والموطّأ عند بعض. و(أطراف الغرائب): تصنيف الدارقطني، وكتاب الأنساب في

جزء لطيف، وهو الذي ذيلّه الحافظ أبو موسى الأصبهاني، وغير ذلك من الكتب، وله شعر حسن كتب عنه غير واحد من الحفّاظ، ثم رجع إلى بيت المقدس، فأحرم من ثمّ إلى مكّة، وتوفّي عند قدومه من الحجّ آخر حجّاته يوم الجمعة لليلتين بقيتا من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

والقَيْسَراني بفتح القاف والسين المهملتين بينهما مثناة من تحت ثم راء مفتوحة وبعد الألف نون نسبة إلى قَيسارية: بُليدة بالشام على ساحل البحر، سمع بالقدس وبغداد ونيسابور وهِراة وأصفهان وشيراز والري ودمشق ومصر.

قال الحافظ اسماعيل بن محمد بن الفضل: أحفظ من رأيت: محمد بن طاهر. وقال السلفي: سمعت ابن طاهر يقول: كتبت البخاريّ ومسلماً وسنن أبي داود وابن ماجة سبع مرّات.

وفيها توفّي أبو المظفّر محمد بن أبي العباس الأموي(١) المعاوي اللغوي الشاعر الأخباري النسّابه، صاحب التصانيف، والفصاحة والبلاغة، وكان رئيساً عالي الهمّة ذا سلف، توفي بأصبهان مسموماً، ومن شعره قوله:

ملكنا أقاليم البلاد فأذعنتْ ... لنا رهبةً أو رغبةً عظماؤها
فلمّا انتهت أيّامنا علقت بنا ... شدائد أيّام قليلٍ رجاؤها
وكان إلينا في السرور ابتسامها ... فصار علينا في الهموم بكاؤها
وصرنا نلاقي النائبات بأوجه ... رقاق الحواشي كاد يقطر ماؤها
إذا ما هممنا أن نبوح بما جنت ... علينا الليالي لم يدعنا جناؤها(٢)

وله تصانيف كثيرة منها: المؤتلف والمختلف، وطبقات كل(٣) فنّ، وما اختلف وائتلف في أنساب العرب، وله في اللغة مصنّفات لم يبسق إلى مثلها، وكان حسنِ السيرة جميل الأمر.

وفيها توفّي ابن اللبانة محمد بن عيسى اللغوي الأندلسي الأديب، ومن جملة الأدباء وفحول الشعراء، له تصانيف عديدة في الآداب، وكان من شعراء دولة المعتمد بن عبّاد.

وفيها توفّي المؤتمن بن أحمد أبو نصر الربعي الحافظ، ويعرف بالساجي حافظ،

---

(١) في الوافي بالوفيات ٦/ ٢/ ٩١: الأبيوردي الشاعر: محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن إسحاق الرئيس أبو المظفر الأموي المعاوي الأبيوردي اللغوي الشاعر المشهور.
(٢) وفيه أيضاً: حياؤها.
(٣) وفيه أيضاً: طبقات العلم.

محقّق واسع الرحلة، كثير الكتابة، متين الورع والديانة، وكتب الشامل عن مؤلّفه ابن الصبّاغ.

سنة ثمان وخمس مائة

فيها هلك صاحب القدس[١] من جراحة أصابته يوم مصافّ طبريّة المذكور فيما مضى.

وفيها مات أحمد بك صاحب مَرَاغَة، وكان شجاعاً جواداً عسكره خمسة آلاف، فنكثت به الباطنيّة.

وفيها توفّي أحمد بن غلبون أبو عبدالله الخولاني ثمّ القرطبي ثم الإشبيلي، وكان صالحاً خيّراً عالي الإسناد، منفرداً.

وألب أرسلان صاحب حلب، وابن صاحبها رضوان السلجوقي، وكان سيىء السيرة فاسقاً، فقتله البابا[٢]، فأقام أخاه مقامه، وكان طفلاً له ستّ سنين، ثم قتل البابا سنة عشرة.

وفيها توفّي أبو الوحش سبيع بن مسلم الدمشقي المقرىء الضرير، وكان يقرىء من السحر إلى الظهر.

وفيها توفّي أبو القاسم علي بن ابراهيم بن العبّاس الحسني ـ الدمشقي، الخطيب الرئيس، المحدّث صاحب الأجزاء العشرين التي أخرجها له الخطيب، وكان ثقة نبيلاً محتشماً مهيباً، سيداً شريفاً، صاحب حديث وسنّة.

وفيها توفّي السلطان مسعود[٣] صاحب الهند وغَزْنة، وتملك بعد موته ولده أرسلان شاه، وهو ابن عمّه السلطان ملك شاه.

سنة تسع وخمس مائة

فيها قدم عسكر السلطان محمد الشام، فاستعان[٤] بالفرنج، فأعانوه، فأخذ

---

(١) بغدوين. انظر الكامل لابن الأثير ٨/ ٢٦٦.

(٢) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٢٧١: وفيها قتل تاج الدولة ألب أرسلان بن رضوان صاحب حلب، قتله غلمانه بقلعة حلب، وأقاموا بعده أخاه سلطانشاه بن رضوان.

(٣) في الكامل لابن الأثير: ٨/ ٢٦٩: أبو سعد مسعود بن أبي المظفر ابراهيم بن أبي سعد مسعود بن محمود بن سبكتكين.

(٤) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٢٧١: سار أيلغازي وطغتكين وشمس الخواص إلى أنطاكية واستجاروا بصاحبها روجيل.

كَفرطَاب[١] وهي للفرنج وسار إلى المعرَة، وساق صاحب أنطاكية وكبس العسكر، وكسرهم، ورجع من سلم منهم منهزمين، واستنصرت الفرنج على المسلمين.

وفيها توفي ابن ملّة اسماعيل[٢] بن محمد الواعظ الأصبهاني المحدّث، صاحب المجالس.

وفيها توفّي أبو شجاع الديلمي الهمداني الحافظ صاحب كتاب الفردوس، وتاريخ همدان.

توفي أبو الفرج غيث بن علي الصوري، خطيب صور ومحدّثها.

والشريف أبو يعلى محمد بن محمد بن صالح الهاشمي الشاعر المشهور.

وأبو البركات السَفْطي[٣] هبة الله بن المبارك البغدادي.

ويحيى بن تميم بن المعزّ السلطان أبو طاهر الحميري صاحب إفريقية، نشر العدل وافتتح عدّة قلاع لم يتهيأ لأبيه فتحها، وكان جواداً ممدوحاً عالماً كثير المطالعة للأخبار والسير، عارفاً بها، رحيماً للضعفاء، شفوقاً على الفقراء يطعمهم في الشدائد، ويرفق بهم، ويقرّب أهل العلم والفضل من نفسه، وكان عارفاً في صناعة النجوم، حسن الوجه على حاجبه شامة، أشهل العيْنين.

ولمّا كان يوم الأربعاء وهو عيد الأضحى من السنة المذكورة توفي فجأة، وذلك أن منجّمه قال له: السير في موكبك في هذا النهار عليك نحس، لا تركب، فامتنع من الركوب، وخرج أولاده ورجال دولته إلى المصلّى، فلمّا انقضت الصلاة حضر رجال الدولة على ما جرت به العادة للسلام، وقرىء القرآن[٤] وأنشد الشعراء، وانصرفوا إلى الإيوان، فأكل الناس، وقام يحيى إلى مجلس الطعام، فلمّا وصل إلى باب المجلس أشار إلى جارية من حظاياه فاتكّأ عليها، فما خطا من باب البيت سوى ثلاث خطوات حتّى وقع ميتاً.

وخلّف ثلاثين ابناً، فتملّك بعده ابنه عليّ ستّة أعوام ومات، فملّكوا بعده الحسن بن علي وهو مراهق، فامتدّت دولته إلى أن أخذت الفرنج طرابلس الغرب بالسيف سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، فخاف وفرّ من المَهْدّية ،٠والتجأ إلى عبد المؤمن.

---

(١) كفرطاب: بلدة بين المعرة ومدينة حلب. معجم البلدان.

(٢) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٢٧٣: اسماعيل بن محمد بن أحمد بن ملّة الأصبهاني أبو عثمان.

(٣) في معجم البلدان: سَفْط القدور: وهي قرية بأسفل مصر ينسب إليها عبدالله موسى السفطي وجاء في الكامل لابن الأثير ٨/ ٢٧٣: عبدالله بن المبارك بن موسى السفطي أبو البركات، توفي سنة ٥٠٩ هـ.

(٤) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٢٧٣: وقرأ القرّاء.

قلت: وهذا العلم وما ندب فيه من الحذر لا يغني عن وقوع ما سبق في علم الله تعالى من القدر.

ومن ذلك ما حكي أن بعض الملوك قال له بعض المنجمّين: أنت تموت في الساعة الفلانية من اليوم الفلاني من الشهر الفلاني من السنة الفلانية من عقرب تلدغك، فلمّا كان قبل الساعة المذكورة تجرّد من جميع لباسه سوى ما يستر العورة، وركب فرساً بعد أن غسله ونظفه ونفض شعره، ودخل بفرسه في البحر حذراً ممّا ذكر له من وقوع هذا الأمر، فبينا هو كذلك فأجاءه ما يخشى من المهالك، وذلك أنّ فرسه عطست فخرجت من أنفها عقرب، فلدغته، ولم يغنه ما رام من الاحتراز والهرب، نسأل الله الكريم كمال الإيمان بنفاذ قدره والتسليم في كلّ ما جاء به الشارع وروى في خبره.

سنة عشرة وخمس مائة

فيها توفّي أبو الكرم خميس بن علي الواسطي الجوزي الحافظ، وكان عالماً حافظاً شاعراً.

وفيها توفّي عبد الغفار بن محمد بن حسين النيسابوري مسند خراسان.

وفيها توفّي الصيرفي صاحب الأصمّ، قال السمعاني: كان صالحاً عابداً، رحل إليه من البلاد.

وفيها توفّي العسال أبو الخير المبارك بن الحسين البغدادي المصري الأديب شيخ الإقراء ببغداد.

وفيها توفّي الخطّاب محفوظ بن أحمد الأرحبي شيخ الحنابلة صاحب التصانيف.

وفيها توفي أبو طاهر محمد بن الحسين الدمشقي.

وفيها توفي أبو الغنائم محمد بن علي بن ميمون الكوفي الحافظ.

وفيها توفي الحافظ أبو بكر محمد ابن الحافظ العلاّمة أبي المظفّر منصور بن محمد التميمي المروزي والد الحافظ أبي سعد، كان محمد المذكور إماماً فاضلاً محدّثاً فقيهاً شافعياً، وله الإملاء الذي لم يسبق إلى مثله، تكلّم على المتون والأسانيد، وأبان مشكلاته، وله عدة تصانيف وشعر غسله قبل موته.

سنة احدى عشرة وخمس مائة

فيها غرقت سِنْجار وانهدم سورها، وهلك خلق كثير، وجرّ السيل باب المدينة مسير مرحلة، فطمّه السيل، ثم انكشف بعد سنين، وسلم طفل في سرير تعلّق بزيتونة، ثم عاش وكبر.

قلت ومن هذا النمط المذكور والعجائب الواقعة في الدهور ما سمعت أنه جاء السيل في جوف الليل، فحمل قرية ـ وأهلها نائمون ـ ورمى بهم في البحر، وفيهم صبيّة عروس طفت على ظاهر الماء كأنّها محمولة على سرير، ولم يتغبّر كلّ ما عليها من الطيب والصنعة والحرير بقدرة اللطيف الخبير الذي هو على كلّ شيء قدير، فوُجِدت حيّة قذفها البحر على الساحل، وما مشى من المحذور إليها واصل.

وفيها توفّي السلطان محمد بن ملك شاه بن ألب أرسلان التركي: غياث الدين أبو شجاع، وكان فارساً شجاعاً فحلاً، ذا برّ ومعروف، وخلف له أربعة أولاد: محمود ومسعود وسليمان وطغرل بك، وقام بعده ابنه محمود وهو ابن أربع عشرة سنة، ففرّق الأموال، وقد خلف محمد أحد عشر ألف ألف دينار سوى ما يناسبها من الحواصل.

وكان السلطان محمد المذكور لمّا مات أبوه وقد دخل بغداد، هو وأخوه سنجر، فخلع عليهما الإمام المستظهر بالله، فالتمس محمد المذكور من أمير المؤمنين أن يجلس له ولأخيه فأجيب إلى ذلك، وجلس لهما في قبّة التاج، وحضر أرباب المناصب وأبناؤهم، وجلس أمير المؤمنين على سدّته، ووقف سيف الدولة ابن مزيد صاحب الحِلة[١] عن يمين السدّة ـ وعلى كتفه بردة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وعلى رأسه العمامة وبين يديه القضيب، وخلع على محمد الخلع السبع التي جرت عادة السلاطين بها، وألبس الطوق والتاج والسوارَين، وعقد له الخليفة اللواء بيده وقلّده سيفَين، وأعطاه خمسة أفراس براكبها، وخلع على أخيه سنجر خلعة أمثاله، وخطب لمحمّد بالسلطنة في جامع بغداد ـ كما جرى عادتهم في ذلك الزمان ـ وذلك في خمس وتسعين وأربع مائة على ما ذكر بعضهم، وذكر غير واحد من المؤرخين أنها سنة اثنتين وتسعين وأربع مائة.

وذكر بعضهم أن الإمام أبا حامد الغزالي رحمه الله تعالى قال للسلطان محمد ابن ملك شاه: اعلم يا سلطان العالم، أن بني آدم طائفتان: طائفة عقلاء نظروا إلى مشاهدة حال الدنيا وتمسّكوا ابامل العمر الطويل، ولم يتفكّروا في النفس الأخير، وطائفة عقلاء جعلوا النفس الأخيرة نصب أعينهم، لينظروا ماذا يكون مصيرهم، وكيف يخرجون من الدنيا ويفارقونها وإيمانهم سالم، وما الذي ينزل عن الدنيا إلى قبورهم، وما الذي يتركونه لأعاديهم من بعدهم، ويبقى عليهم وباله ونكاله.

ثم إنّ السلطان محمداً ابن ملك شاه جرت بينه وبين أخيه بركيا روق حروب يطول

---

(١) حِلّة بني مزيد: مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد. معجم البلدان.

ذكرها، وكان قد خطب لأخيه من قبله في بغداد، فقطعت الخطبة له، وخطب لمحمّد واستقلّ بمملكته.

ولما مات أخوه ولم يبقى له منازع، وصفت له الدنيا، وأقام على ذلك مدّة، ثم مرض زماناً طويلاً، وتوفي في الخميس الرابع والعشرين من ذي الحجّة من السنة المذكورة بمدينة أصبهان. ولما أيس من نفسه أحضر ولده محموداً، وقبّله، وبكى كلّ واحد منهما، وأمره أن يخرج ويجلس على تخت السلطنة، وينظر في أمور الناس. فقال لوالده: إنّه يوم غير مبارك يعني من طريق النجوم ـ فقال: صدقت، ولكن على أبيك، وأمّا عليك فمبارك بالسلطنة، فخرج وجلس على التخت بالتاج والسوارَيْن، وتزوّج الإمام المقتفي لأمر الله فاطمة بنت السلطان محمد المذكور، فدخلت إلى دار الخلافة بالزفاف، ويقال فيما ذكر لها من المناقب أنّه كان لها التدبير الصائب.

وفي السنة المذكورة ترحّلت العساكر عن حصار الباطنيّة بالألموت[1] لمّا بلغهم موت السلطان محمد.

وفيها توفّي أبو طاهر عبد الرحمن بن أحمد البغدادي راوي سنن الدارقطني، وكان رئيساً وافر الجلالة.

وفيها توفي الحافظ أبو زكريا يحيى[2] بن عبد الوهاب ابن الحافظ محمد بن إسحاق ابن محمد بن يحيى بن منده العبدي الأصبهاني صاحب التاريخ، سمع من البيهقي وطبقته، وقال: السمعاني جليل القدر وافر الفضل، واسع الرواية حافظ كثير التصانيف، بعيد من التكلّف، سمع من خلائق، وكتب عنه الشيوخ، منهم القطب الذي خضعت لقدمه رقاب الأولياء الأكابر، شيخ الشيوخ أبو محمد محيي الدين عبد القادر صاحب المقام العالي المعروف بالجيلاني، وجماعة من كبار الشيوخ. وذكره الحافظ السمعاني في كتاب الذيل، وغيره من كبار المؤرخين، وذكروا جلالته في الفضل وكونه من بيت علم بدىء بيحيى وختم بيحيى يريدون في معرفة الحديث والعلم والفضل ـ وكان يحيى المذكور كثيراً ما ينشد لبعضهم.

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى ... وللمشتري دنياه بالدين أعجب
وأعجب من هذين من باع دينه ... بدنيا سواه فهو من ذين أخيب

وفيها توفّي مسند العراق أبو علي بن نبهان الكاتب محمد بن سعيد الكرخي. روى عن

(١) في الكامل لابن الأثير: ٦/ ١٩٦: وقلعة الألموت تقع على جبل شاهق من حدود الديلم.
(٢) ذكر ابن الأثير في الكامل أن وفاته كانت سنة ٥١٢ هـ. انظر ٨/ ٢٨٥.

ابن شاذان وغيره، قال ابن ناصر: فيه تشيّع صحيح، بقي قبل موته سنة ملقى على ظهره لا يعقل ولا يفهم، وقال غيره: عاش مائة سنة كاملة، وله شعر وأدب.

سنة اثنتي عشرة وخمس مائة

في الثالث والعشرين[١] من ربيع الآخر منها توفّي الإمام المستظهر بالله أبو العباس أحمد بن المقتدي بالله العباسي، وله اثنتان وأربعون سنة، وكانت خلافته خمساً وعشرين سنة، وكان قويّ الكتابة جيّد الأدب والفضيلة، كريم الأخلاق، مسارعاً في أعمال البر.

وفيها توفّي أبو الفضل بكر بن محمد الأنصاري الجابري الفقيه، شيخ الحنفية بما وراء النهر، وعالم تلك الديار، ومن كان يضرب به المثل في مذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه الملّقب بشمس الأئمة.

وفيها توفّي أبو طالب الحسين بن محمد الزينبي الملّقب بنور الهدى.

وفيها توفّي أبو القاسم الأنصاري العلاّمة سليمان بن ناصر النيسابوري الشافعي المتكلّم، تلميذ إمام الحرمين، صاحب التصانيف، كان صوفياً زاهداً من أصحاب الأستاذ أبي القاسم القشيري. روى الحديث عن أبي الحسين عبد الغافر الفارسي وجماعة.

سنة ثلاث عشرة وخمس مائة

فيها كانت وقعة هائلة[٢] بخراسان بين سنْجر وَبين ابن أخيه محمود بن محمد، فانكسر محمود، ثمّ وقع الاتفّاق، وتزوّج بابنة سنجر.

وتمّ فيها كانت الفتنة بين صاحب مصر والأمير أتابك أمير الجيوش الأفضل، وتمتّ لهما خطوب، ودسّ الأفضل على الأمير من يسمّه مراراً، فلم يمكن ذلك.

وفيها ظهر قبر ابراهيم الخليل[٣] ـ صلوات الله عليه ـ وإسحاق ويعقوب ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ورآهم جماعة لم تبلَ أجسامهم، وعندهم في تلك المغارة قناديل من ذهب وفضّة، ذكره ابن حمزة بن القلانسي ـ بالنون والشين المعجمة ـ في تاريخه.

وفيها توفّي شيخ الحنابلة وصاحب التصانيف ومؤلّف كتاب الفنون الذي يزيد على أربعمائة مجلّد علي بن عقيل البغدادي الظفري، وكان إماماً مبرّزاً كبير العلوم خارق الذكاء، مكبّاً على الاشتغال والتصنيف تفقّه على القاضي أبي يَعْلى وغيره، وأخذ علم الكلام عن أبي

(١) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٢٨١: في سادس عشر من شهر ربيع الآخر.
(٢) انظر الكامل لابن الأثير ٨/ ٢٨٦ ـ ٢٨٨.
(٣) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٢٩١: بالقرب من البيت المقدس.

علي بن الوليد، وأبي القاسم بن التيان وغيره، وروى عن أبي محمد الجوهري، قال السلفي: ما رأيت مثله، وما يقدر أحد أن يتكلّم معه لغزارة علمه وبلاغة كلامه وقوّة حجّته.

وفيها توفّي قاضي القضاة أبو الحسين الدامغاني علي ابن قاضي القضاة أبي عبدالله محمد بن علي الحنفي، ولي القضاء أربعاً وعشرين سنة، وكان ذا حزم ورأي وسؤدد وهيبة وافرة، وديانة ظاهرة.

وفيها توفي أبو بكر محمد بن طرْخان التركي ثمّ البغدادي المحدّث النحوي، أحد الفضلاء، روى عن أبي جعفر بن المسلمة وطبقته، وتفقّه على الشيخ أبي إسحاق، وكان ينسخ بالأجرة، وفيه زهد وورع تام.

وفيها توفي أبو سعد المُبَارك بن عليّ، من كبار أئمة المذهب. روى عن القاضي أبي يَعلى وجماعة، وتفقّه على الشريف أبي جعفر بن أبي موسى.

سنة أربع عشرة وخمس مائة

فيها كان المصافّ بين السلطان محمود وأخيه مسعود صاحب أذْرَبيجان[١] والموصل، وله يومئذ إحدى عشرة سنة، فلمّا التقوا انهزم مسعود وأسر وزيره[٢]، وفي هذا الوقت كان ظهور ابن تومَرْت[٣] بالمغرب.

وفيها قتل في حصن تعزّ من بلاد اليمن أسعد بن أبي الفتوح بن العلاء بن الوليد الحميري، قتله رجلان من أصحابه، ودفن في الحصن، قيل: فلمّا قدم من بني أيوّب سيف الإسلام إلى اليمن نُبش وأُخرج إلى مقابر المسلمين.

وفيها، وقيل في التي بعدها توفّي في الجَنَد الفقيه الإمام عالم العلماء مفيد الطالبين وقدوة الأنام زيد بن عبدالله اليمني ـ اليفاعي بالفاء قبل الألف وبعد المثناة من تحت ـ نسبة إلى يَفَاعة: مكان في اليمن. تفقّه على الشيخ الإمام أبي بكر بن جعفر بن عبد الرحيم المَخَائي ـ نسبة إلى المخا: بالخاء المعجمة المخفّفة وفتح الميم قبلها؛ مكان قريب من زَبِيد على ساحل البحر ـ توفّي أبو بكر المذكور سنة خمس مائة، أخذ عنه جماعة، وكان يحفظ المجموع للمحاملّي، والجامع في الخلاف لأبي جعفر ـ على ما نقل الإمام طاهر ابن الإمام

---

(١) في معجم البلدان: أذربيجان: إقليم واسع من مشهور مدنه: تبريز والمراغة وخوي وسلماس وأرمية وأردبيل ومرند.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير: ٨/ ٢٩١، ٢٩٢.

(٣) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٢٩٤: أبو عبدالله محمد بن عبد الله بن تومرت العلوي الحسني، وقبيلة من المصامدة.

العلاّمة يحيى صاحب البيان عن والده المذكور ـ وتفقه زيد أيضاً بصهره الإمام إسحاق بن يوسف الصروفي، ثمّ ارتحل إلى مكّة في المرّة الأولى، فأدرك فيها تلميذي الشيخ الإمام أبي إسحاق الشيرازي مصنّف المهذّب، وهما الحسين بن علي الشاشي الطبري مصنف العدّة وأبو نصر البندنيجي مصنّف المعتمد في الخلاف، فقرأ عليهما، وطريقه في المهذّب وكتاب التبصِرة في علم الكلام في أصول الدين إلى أبي نصر البندنيجي.

وذكر ابن سمرة أنه لمّا رجع زيد المذكور من مكّة إلى الجَنَد سنة اثنتي عشرة وخمس مائة اجتمع عنده في الجند ما يزيد على مائتي رجل من أجلّة الفقهاء من تَهامة وأبْيَن[١] وحضرموت والشِّحْر[٢] والشام وغير ذلك، وقرأ الإمام يحيى بن أبي الخير عليه النكت في الخلاف: تصنيف الشيخ أبي إسحاق الشيرازي، وسمع عليه أيضاً بقراءة الفقيهين، الإمام عبدالله الهمداني وعبدالله بن يحيى الصعبي، وبقراءة غيرهما من الفقهاء الأجلّة عدّة كتب في الفقه والخلاف والأصول، وذلك في دولة السلطان أبي الفتوح الحميري، فعظم حال الفقيه وجمل أمره، واجتمع المؤالف ـ والمخالف على مودّته، وكان لا يصلّي في الجامع إلا الجمعة في آخر المسجد.

قلت لعلّ تأخره عند حضور الجماعة في الصلوات لما يخشى من الضرر في اجتماع الناس عليه وازدحامهم بحسن اعتقادهم فيه، أو غير ذلك من الآفات، كما ذكر الإمام أبو حامد الغزالي أنّه رأى بمكّة بعض العارفين يصلّي في بيته، لا يحضر المسجد الحرام، فسأله عن ذلك فذكر كلاماً معناه أنه يدخل عليه من الضرر في الخروج أكثر ممّا يدخل عليه النفع.

رجعنا إلى ذكر زيد اليفاعي: روى ابن سمرة عن بعض من أدرك أنّه قال: دخلت الجند أستفتيه عن مسألة في الفرائض ـ وكان صغير الخلق دقيق الجسم ـ فوجدته يدرّس أصحابه في دهليز بيته، فَهُبته هيبة عظيمة، فغلطت سؤالي، ورددت كلامي، فآنسني بكلامه، وأجابني عن سؤال بأحسن الجواب.

قلت وقوله: كان صغير الخلق دقيق الجسم: أراد بذلك الإعلام بحليته والتعريف دون الانتقاص والتعنيف، وقد وجد مثل هذا الخلق في كثير من العلماء والأولياء على ما اقتضت حكمة العليم القدير من التفاوت بين الكبير من الخلق والصغير.

وحكى ابن سمرة أنّه سئل بعض الفقهاء بحضرة الإمام زيد المذكور عن الفقيه ابراهيم ابن علي ابن الإمام الحسين بن علي الطبري مصنّف كتاب العدّة؛ كيف كان حاله في العلم؟

---

(١) في معجم البلدان: أبين: مخلاف في اليمن منه عدن، وقيل موضع في جبل عدن.
(٢) في معجم البلدان: الشِحْر: قال الأصمعي: هو بين عدن وعُمان.

فقال: هو مجود، ولولا أنه اشتغل بالعبادة مع الصوفية لكان في الفقه إماماً وفي الخلاف كاملاً.

قال الراوي: وكان حاضراً فقلت له: طريقته هذه غير ملومة ولا مكروهة، فقال لي: كان الشيخ ـ يعني جدّه القاضي حسين الطبري المذكور ـ يكره ذلك ويقول: اشتغال العالم بالعبادة فرار من العلم فأعجب، أو قال: أعجب زيد بهذه الحكمة.

وقلت: هذا صحيح، لأنّ الحرص في العلم يقوم مقام العبادة، ولو كان فيه بعض قساوة انتهى، وهو بعض كلامه، وذكر بعده ما يوافقه من أقوال بعض الفقهاء.

قلت ولا شكّ أنّ فضل العلم وشرفه معروفان، ولكنّ الشأن في إخلاصه والعمل به، فإذا حصل ذلك فهو النهاية، ومع هذا فأحوال الناس مختلفة، وقد قسّمتهم في كتاب الإرشاد على خمسة أقسام، وليس إطلاق الكلام في الندب إلى إحدى الطريقين صحيحاً، بل لا بدّ من تفصيل، فمن كان له نيّة صحيحة في العلم ونجابة في الفهم، ولم يغلب عليه أحوال الرجال المشاهدين لنور الجمال، فلا شكّ أنّ هذا يندب له المبادرة وبذل المجهود في الاشتغال بالعلم، مع مزج ذلك بشيء من العبادة ولزوم سيرة السلف من التعفّف والتورّع والتقلّل من الدنيا، وإن كان في ذلك ما ذكر من بعض القساوة، فقد أنصف في ذلك، وأمّا من لم يكن كما ذكرنا إمّا لعدم صلاح النيّة وإمّا لعدم القابلية، وإمّا لخوف كثرة الآفات في المخالطات، وإمّا لإمتلاء القلب بمحبّة العبادات واستئناسه بالمناجاة في الخلوات، وإمّا لورود الأحوال ووجود المشاهدات، أعني مشاهدة نور الجمال واستيلاء هيبة العظمة والحلال، فكلّ هؤلاء واقفون مع ما ورد على قلوبهم، لكلّ قوم مشرب وفي الهوى مذهب، ولقد أحسن قائلهم.

كانت لقلبي أهواء مفرّقة فاستجمعتْ إذْ رأتك العين أهوائي
تركت للناس دنياهم ودينهم شغلاً بحبّك يا ديني ودنياي

ولقد وقع بي في ابتداء اشتغالي بالعلم خاطر أن ألقياني في مجاذبتهما: أحدهما يجذبني إلى العلم طلباً لفضله، والآخر إلى العبادة لوجود حلاوة فيها وسلامة من آفات المخالطات والتشتّت في البحث والمجادلات، واشتعل في باطني مثل النار في القريحة المحرورة للمجاذبة المذكورة، ثم حصلت والحمد لله إشارة أذهبت عنّي ذلك الاحتراق، مردّتني إلى التسليم إلى ما سبق به القضاء بتقدير الخلاق، وذلك أني في حال تلك الشدّة لمّا قلقت، ولم أستطع نوماً ولا قراراً، ومعي كتاب أطالعه ليلاً ونهاراً، فتحته في ذلك الوقت فرأيت فيه ورقة قابلتني أوّل ما فتحته ولم أرها قبل ذلك مع طول ما طلبته، وفيها أبيات ما كنت سمعتها، وهي:

كـن عـن همومـك معـرضـاً وكِـلِ الأمـور إلـى القضـا
فلـربمّـا اتّسـع المضيـق وربمـا ضـاق الفضـا
ولـربّ أمـر متعـب لـك فـي عـواقبـه رِضـا
الله يفعـل مـا يشـاء فـلا تكـن متعـرّضـا

فلمّا قرأتها كأنمّا صبّ ماء على تلك النار، فرد ذلك الاحتراق، وذهبت تلك الأكدار، وأنشد لسان مقالي في تلك الوقت ما يوافق حالي، وناديت قلبي:

اسمـع وَخـذْ بـالإشـارة فيـا حسـن مـا فـي ضمّهـا مـن بشـارة
وَدُربـي مـع ريـح القبِضـا حيـث دارتِ وسلّـم لسلمـى ثـم سـرْ حيـث سـارتْ
عسـى مـن خـدور الحيّ تبـدو بُـدورها تـوسّلـت حتّـى أقبلتـك ثغـورهـا
ألا يـا لقـومـي أعلمـونـي بحيلـة إلـى وصْـل خُـودات كِعـاب جميلـة
أراك الحمـى قـل لـي بـأي وسيلـة إذا مـا بـدت ناديـت فـي كـلّ حيلـة
بقطـع لأهلـي مـع فـراقـي لبلـدتـي وذلّـي وسيحـي فـي البـلاد وغـربتـي
وإينـاس نفسـي بعـد زفـري وحضـرتـي رحمْـتُ علـى صبـري علـى كـلّ كـربـة

ثمّ استمريت في مدّة يسيرة بشيء من الأشغال والاشتغال بالعلم، مع مزج ذلك يتخلّل البطالات، ثم خطر لي عند وقوفي على كلام الفقهاء الذين نحن بصدده هذه الأبيات:

تقـضّى زمـانـي والقضـاء مصـرّفـي وكـان إلـى العلـم الشـريـف تشـوّفـي
ومـا كـانـت الأيـام إلا قـلائـلاً بـه ثـم مـال القلـب نحـو التصـوّفِ
ومـن لـم يسِـلْ فـي دهـره نحْـوه يمـتْ ولـم يهـوَ مـن صـاحـي جمـالاً ويعـرفِ
فـإن كنـت ذا جهـلٍ بمنهـج حبّـه ومشـرْبـه سَـلْ عنـه أهـل التعـرّف

قلت وفضل التصوّف وأهله أولي الصفاء والأنوار والمعارف والأسرار، والقرب والمنادمات والحضرة والمشاهدات، لا يسعه مجلّدات، وقد ذكرت نبذة من ذلك في كتاب الأسرار والنظير، في فضل ذكر الله تعالى وتلاوة كتابه العزيز، وفضل الأولياء والناسكين، والفقراء والمساكين، وفي كتاب روض الرياحين في حكايات الصالحين، وفي كتاب نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ أولي المقامات العالية، قدّس الله تعالى أرواحهم، ونوّر ضرائحهم ونفعنا ببركاتهم، وجعلنا معهم في محياهم ومماتهم، آمين، ولله درّ قائلهم في وصف راح الهوى المعمورة من نور الجمال التي سكر بها المحبون أولو الأحوال، حيث أنشد وقال:

هبنـا لأهـل الـديـر كـم سكـروا بهـا ومـا شـربـوا منهـا، ولكنهـم همـوا

علــى نفســه فليبــك مــن ضــاع عمــره وليــس لــه منهــا نصيــب ولا سهــم

وفيها توفي أبو علي الحسن بن خلف القيراوني المقرىء، صاحب تلخيص العبارات في القراءات.

والوزير مؤيد الدين الحسين بن علي الأصبهاني، صاحب ديوان الإنشاء للسلطان محمد بن ملك شاه، كان من أفراد الدهر وحامل لواء النظم والنثر وهو صاحب لاميّة العجم.

والحافظ الكبير أبو علي بن سكرة حسين بن محمد الأندلسي حجّ سنة إحدى وثمانين وسمع ببغداد من البانياسي وطبقته، وأخذ التعليقة الكبرى عن أبي بكر الامام الشاشي المستظهري واخذ بدمشق عن الفقيه الإمام نصر المقدسي، وردّ إلى بلاده بعلم جمّ وبرع في الحديث وفنونه، وصنف التصانيف. فأكره على القضاء، فوليه، ثم اختفى حتّى عفي، واستشهد في المصافّ وهو أبناء الستّين.

وفيها توفّي الإمام أبو نصر[١] عبد الرحمن ابن الإمام أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري كان إماماً كبيراً، أشبه أباه في علومه ومجالسه، وواظب على حضور درس إمام الحرمين حتّى حصّل طريقته في المذهب والخلاف. ثمّ خرجّ، فوصل الى بغداد، وعقد بها مجلس وعظ، وحصل له قبول عظيم، وحضر الشيخ أبو إسحاق الشيرازي مجلسه. وأطبق علماء بغداد على أنهم لم يروا مثله. وكان يعظ في المدرسة النظامية ورباط شيخ الشيوخ، وله مع الحنابلة خصام بسبب الاعتقاد إذ هو وأبو وشيخه إمام الحرمين وغيرهم من أكابر العلماء ورؤوس الأشاعرة، وانتهى الأمر إلى فتنة بين الفريقين، قتل فيها جماعة من الطائفتين، وركب أحد أولاد نظام المُلك حتّى سكّنها، وبلغ الخبر نظام الملك وهو بأصبهان وسيّر إليه استدعاءه، فلما حضر عنده زاد في إكرامه، ثم جهزه إلى نيسابور فلمّا وصل إليها لازم الوعظ والدرس إلى أن قارب انتهاء أمره، فأصابه ضعف في أعضائه وقال بعضهم: فالج فأقام لذلك مقدار شهر، ثم توفّي ضحوة نهار الجمعة الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة بنيسابور، ودفن بالمشهد المعروف بهم، وكان يحفظ من الشعر والحكايات شيئاً كثيراً.

وأبو منصور محمود بن اسماعيل الصيرفي الأشقر، راوي المعجم الكبير للطبراني. قال السلفي: كان صالحاً.

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٣٠٢/٨: أبو سعد. وفي الأنساب للسمعاني ٥٠٣/٤: أبو نصر عبد الرحيم.

سنة خمس عشرة وخمس مائة

فيها احترقت دار السلطنة[١] ببغداد، فتلف ما قيمته ألف ألف دينار.

وفيها توفّي أبو علي الحدّاد: الحسن بن أحمد الأصبهاني المقرىء المجوّد، مسند الوقت، وكان مع علوّ إسناده أوسع أهل زمانه رواية، حمل الكثير عن أبي نعيم، وكان خيّرا صالحاً.

وفيها توفي الملك الأفضل شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالي الأرمني، كان الملك الأفضل وزيراً للمستعلي العُبَيدي، وكان حسن التدبير فحل الرأي، وهو الذي أقام المستعلي بعد موت أبيه المستنصر مقامه، وخلف من الأموال ما لم يُسمع بمثلهما، قيل إنّه خلّف ستّمائة ألف دينار عيناً، ومائتين وخمسين إرْدباً[٢] دراهم نقد مصر، وخمسا وسبعين[٣] ألف ثوب ديباج أطلس، وثلاثين راحلة أخفافها[٤] من ذهب عراقي، وداوة ذهب فيها جوهر قيمته أثنا عشر ألف دينار، ومائة مسمار من ذهب وزن كلّ مسمار مائة مثقال، في عشرة مجالس، في كلّ مجلس عشرة مسامير، على كلّ مسمار منديل مشدود بذهب من الألوان أيمّا أحبّ منها لبسه ـ وخمس مائة صندوق لكسوته خاصّة من دفّ دمياط وبلد أخرى سمّوها، وخلّف من الرقيق والخيل والبغال والمراكب والطيب والتجمّل والحلي ما لا يعلم قدره إلاّ الله، وخلّف خارجاً من ذلك من البقر والجواميس والغنم كما يطول عدده، وبلغ ضمان ألبانها في سنة وفاته ثلاثين ألف دينار، ووجد في تركته صندوقان كبيران فيهما إبر ذهب برسم النساء والجواري.

وكان شهماً مهيباً بعيد الغور، ولي وزارة السيف والقلم، وإليه قضاء القضاة والتقدّم على الدعاة في ولاية المستعلي، ثمّ الأمر، وكانا معه صورة بلا معنى، وكان قد أذن للناس في إظهار عقائدهم، وأمات شعار دعوة الباطنيّة، فنقموه لذلك، ووثب عليه ثلاثة من الباطنيّة فضربوه بالسكاكين فقتلوه، وحملوه بآخر رمق، وقيل إنّ الأمير دسّهم عليه بتدبير أبي عبدالله البطائحي الذي وزر بعده، ولّقب بالمأمون.

وفيها توفي أبو القاسم علي بن جعفر السعدي الصقلّي المولد، المعروف بابن القطّاع،

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٣٠٤: وسبب الحريق ان جارية كانت تختضب ليلاً، فأسندت شمعة إلى الخيش فاحترق وعلقت النار منه في الدار.

(٢) في المنجد: الإرْدَبّ: مكيال ضخم في مصر يساوي أربعة وعشرين صاعاً.

(٣) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٣٠٧: وسبعين ثوب ديباج أكلس.

(٤) وفيه أيضاً: وثلاثين راحلة أحقاق ذهب عراقي.

المصريّ المنزل والوفاة، كان من أئمة الأدب خصوصاً اللغة، وله تصانيف نافعة منها كتاب الأفعال، أحسن فيه كلّ الإحسان، وهو أجود من الأفعال لابن القوطبّة، وإن كان ذاك سبقه إليه، وله كتاب أبنية الأسماء، جمع فيه فأوعب، وعروض حسن جيّد، وكتاب الدّرة الخطيرة المختارة من شعر الجزيرة، ولمح اللمح، جمع فيه خلقاً من علماء الأندلس، قرأ الأدب على فضلاء صقلية كابن البّراء اللغوي وأمثاله، وأجاد النحو غاية الإجادة، ورحل عن صقليّة لمّا أشرف على تملكّها الفرنج، ووصل إلى مصر في حدود سنة خمس مائة، وبالغ أهل مصر في إكرامه، ومن شعره:

وَشَــادِنٍ لبيــــانــــه عقــــد حلّـت عقـودي وأوهنـتْ جلـدي[١]
عــابــوه جهــلاً بهــا فقلــت لهــم أمــا سمعتـم بــالنفّـث فـي العقـد؟

وله شعر كثير، توفّي بمصر:

وفيها توفّي الحافظ أبو الخير[٢] بن عوض الهَروي. كان عالماً صاحب حديث وإفادة، حريصا على الطلب.

سنة ست عشرة وخمس مائة

توفي الإمام محيي السنّة أبو محمد الحسين بن مسعود الفرّاء البَغوي الشافعي المحدّث المقرىء، صاحب التصانيف، وعالم أهل خراسان، كان سيداً زاهداً قانعاً، يأكل الخبز وحده، فليم في ذلك، فصار يأكله بالزيت، وكان أبوه يصنع الفِراء، توفي بمَرْوُروذ، ودفن عند شيخه القاضي حسين، أخذ الفقه عنه، وصنّف في تفسير كلام الله تعالى، وأوضح المشكلات من قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم، وروى الحديث، ودرس، وكان لا يلقي الدرس إلاّ على طهارة، وصنّف كتباً كثيرة منها: كتاب التهذيب في الفقه، وشرح السنة في الحديث، ومعالم التنزيل في تفسير القرآن الكريم، وكتاب المصابيح، والجمع بين الصحيحين، وغير ذلك، والبغويّ نسبة إلى بلدة بخُراسان بين مَرْو وهَرَاة يقال لها بغ، بالباء الموّحدة والغين المعجمة.

والحافظ أبو محمد عبدالله بن أحمد السمرْقَنْدي، سمع من أبي بكر الخطيب وجماعة، ورحل إلى نيسابور وأصبهان.

وأبو القاسم بن الفحّام الصقلّي: عبد الرحمن بن أبي بكر، مصنّف التجويد في القراءات.

---

(١) الشادن: ولد الظبية.
(٢) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٣٠٥: هزار رسب بن عوض الهروي.

وأبو محمد الحريري[١]: صاحب المقامات، القاسم بن علي بن محمد البصري الأديب، حامل لواء البراعة وفارس النظم والنثر، ونسجهما بظرافة الصناعة، كان من رؤساء بلده، روى الحديث عن أبي تمّام محمد بن الحسين وغيره، وعاش سبعين سنة، ورزق الحظوة التامّة في عمل المقامات، واشتملت على شيء كثير من كلام العرب من لغاتها وأمثالها ورموز أسرار كلامها، حتّى قال بعض الفضلاء: من عرفها حق معرفتها استدلّ بها على فضل هذا الرجل وكثرة إطلّاعه وغزارة مادّته.

وكان سبب وضعه لها ما حكاه ولده أبو القاسم عبدالله قال: كان أبي جالساً في مسجد بني حرام، فدخل شيخ ذو طمرَيْن عليه أهبة السفر، رثّ الحال فصيح الكلام حسن العبارة، فسألته الجماعة: من أين الشيخ؟ فقال: من سَرُوْج، فاستخبروه عن كنيته فقال: أبو زيد، فعمل أبي المقامة المعروفة بالحراميّة، وهي الثامنة والأربعون، وعزاها إلى أبي زيد المذكور، واشتهرت، فبلغ خبرها الوزير شرف الدين أبا نصر القاشاني ـ بالقاف والشين المعجمة ـ وزير الإمام المسترشد بالله، فلمّا وقف عليها أعجبته، وأشار على والدي أن يضّم إليها غيرها، فأتمّها خمسين مقامة.

وإلى الوزير المذكور أشار الحريري في خطبة المقامات بقوله: فأشار مَنْ إشارته حكم، وطاعته غنم إلى أن أنشىء مقامات أتلو فيها تلو البديع، وإن لم يدرك الظالع شيئاً والضليع.

هكذا وجد في عدّة تواريخ في نسخة من المقامات عليها خطّه، وقد كتب بخطّه أيضاً على ظهرها أنّه صنّفها للوزير جلال الدين عميد الدولة أبي علي الحسن بن أبي المعزّ علي ابن صدقة وزير المسترشد، قيل: وهذا أصح من الرّواية الأولى، لكونه بخطّ المصنّف، والله أعلم.

وذكر القاضي أبو الحسن علي بن يوسف الشيباني وزير حلب في كتابه المسمّى (أنباء الرّواة على أبناء النجاة) أنّ أبا زيد المذكور اسمه المطهر بن سلار، وكان بصيرياً نحوياً لغوياً، وصحب الحريري المذكور، واشتغل عليه بالبصرة، وتخرج به، روى عنه القاضي أبو الفتح محمد بن أحمد الميداني الواسطي ملحة الإعراب للحريري، وذكر أنّه سمعها منه عن الحريري وقال: قدّم علينا واسِط سنة ثمان وثلاثين وخمس مائة، فسمعنا منه، وتوجّه منها مصعّداً إلى بغداد، فوصلها، وأقام مدّة يسيرة وتوفي بها رحمه الله تعالى.

وأمّا تسمية الراوي لها بالحارث بن همام فإنّما عنى به نفسه، هكذا ذكر ابن خلّكان

---

(١) ذكر ابن الأثير ان وفاته كانت في السنة السابقة. انظر ٨/٣٠٥.

وقال: وقفت عليه في بعض شروح المقامات، وهو مأخوذ من قول النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم: كلّكم حارث وكلّكم همام، فالحارث: الكاسب، والهمام: كثير الاهتمام، وما من شخص إلا وهو حارث وَهمام، لأنّ كلّ أحد كاسب ومهتّم بأموره. وقد اعتنى، بشرحها خلق كثير، فمنهم من طوّل، ومنهم من اختصر، قال ابن خلّكان: ورأيت في بعض المجاميع أنّ الحريري لمّا عمل المقامات كان قد عملها أربعين مقامة، وحملها من البصرة إلى بغداد، فادّعاها فلم يصدّقه من أدباء بغداد، وقالوا إنّها ليست من تصنيفه، بل هي لرجل مغربي من أهل البلاغة مات بالبصرة، ووقعت أوراقه إليه فادّعاها، فاستدعاه الوزير إلى الديوان وسأله عن صناعته فقال: أنا رجل منشيء، فاقترح عليه إنشاء الرسالة في واقعة عينها، فانفرد في ناحية عن الديوان، وأخذ الدواة والورقة، ومكث زماناً كثيراً فلم يفتح الله سبحانه عليه بشيء من ذلك، فقام وهو خجلان، وكان في جملة من أنكر دعواه في عملها أبو القاسم بن أفلح الشاعر، فلمّا لم يعمل الحريري الرسالة التي اقترحها الوزير أنشد ابن أفلح هذين البيتين، وقيل إنهما لابن محمد الحريمي البغدادي الشاعر المشهور:

شيخ لنا من ربيعة الفرس ... ينتف عُثْنُوته من الهوس(١)
أنطقه الله بالمَشَان كما ... رماه وسط الديوان بالخرس(٢)

وكان الحريري يزعم أنه من ربيعة الفرس، وكان مولعاً ينتف لحيته عند الفكرة، وكان يسكن في مشان البصرة، فلما رجع إلى بلده عمل عشر مقامات أخر، وسيّرهنّ واعتذر من عيّه وحصره بالديوان بما لحقه من المهابة، وللحريري تآليف حِسان منها: (درّة الغوّاص في أوهام الخواص) ومنها (ملحة الإعراب، منظومة في النحو والآداب)، وله أيضاً شرحها، وله ديوان رسائل وشعر كثير غير شعره الذي في المقامات، ومن ذلك قوله:

قال العواذل ما هذا الغرام به ... أما ترى الشعر في خدّيه قد نبتا
فقلت والله لو أنّ المفنّد لي ... تأمّل الرشد في عينيه ما ثبتا
ومن أقام بأرض وهي مجدبة ... فكيف يرحل منها والربيع أتى

وله قصائد استعمل فيها التجنيس كثيراً، ويحكى أنه كان دميماً قبيح المنظر، فجاءه شخص غريب يزوره ويأخذ عنه شيئاً من شعره، فلمّا رآه استزرى شكله، ففهم الحريري ذلك منه، فلمّا التمس أن يملي عليه قال: اكتب.

(١) العثنون: اللحية.
(٢) المشان: بليدة قريبة من البصرة، منها أبو محمد القاسم بن علي الحريري صاحب المقامات. معجم البلدان.

مـــا أنـــت أوّل ســـارٍ غـــرّه قمـــر ورائـــد أعجبتـــه خضـــرة الـــدِّمَـــن[١]
فـــاختـــر لنفســـك غيـــري إننـــي رجـــل مثـــل المُعَيْـــدِيّ فـــاسمـــع بـــي ولا تـــزنـــي

فخجل الرجل منه وانصرف عنه.

والمُعَيدي: بضمّ الميم وفتح العين المهملة وسكون المثناة من تحت وبعدها دال مهملة مكسورة: رجل منسوب إلى معد بن عدنان، وقد نسبوه بعدما صغّروه وخفّفوا منه الدال، وفيه جاء المثل المشهور: (لأن تسمع بالمعيد خير من أن تراه)، وهذا المثل يضرب لمن له صيت وذكر ولا منظر له، قال المفضّل الضبّي: أوّل من تكلّم بهذا المثل المنذر بن ماء السماء قاله لمشقّة بن ضَمْرة التميمي الدارمي، وكان قد سمع بذكره، فلما رآه قبّحه، فقال له هذا المثل، وسار عنه، فقال له شقّة: أبيت اللعن؛ إنّ الرجال ليسوا بجرزير، مراد منها الأجسام، إنما المرء بأصغريه، قلبه ولسانه، فأعجب المنذر بما رأى من عقله وبيانه، ومن شعر الحريري قوله:

لا تـــزرْ مـــن تحـــبّ فـــي كـــلّ شهـــر غيـــر يـــوم ولا تـــزده عليـــه
فـــاضتيـــاء الهـــلال فـــي الشهـــر يـــوم ثـــم لا تنظـــر العيـــون إليـــه

قلت: وقد عارضت بيتي الحريري اللذين أطلق فيهما الزيارة في كلّ شهر مرّة تشبيهاً بالهلال، بأبيات فصّلت فيها بين المزورين المتفاوتين في الأحوال، وأشرت إلى أنّ ـ بعضهم وهو أخصّهم بالمودة والأنس ـ يزار كلّ يوم كالشمس، وبعضهم ممّن يليه في الودّ والدفعة في كل أسبوع كالجمعة، وبعضهم ممّن قلّ ودّه أو شقّ بعده أو كان مع قرب الدار يؤثر قلّة المزار وملاقاة الرجال في الشهر مرّة كالهلال، وبعضهم ممّن نأت به البلاد وإن كان من أهل الصحبة والوداد ـ في السنة مرّتين تشبيهاً بالعيدَيْن، كما يختلف بالقرب وبعد البلاد ويختلف بالقلّة وكثرة الوداد، فصّلت بين الحالات المذكورات بهذه الأبيات:

لا تـــزرنـــا فـــي الحمـــى كـــلّ عـــام غيـــر مثنـــى علـــى مـــرور الـــدهـــور
هـــل تـــرى العيـــد زائـــراً كـــلّ عـــام غيـــر ثِنْتَيـــن عـــائـــداً بـــالســـرور
أوْ دنـــت داره ففـــي كـــلّ يـــوم فيـــه للشمـــس بهجـــة بـــالظهـــور
أو تـــرى بيـــن قـــرب دار وبعـــدٍ زرْ كمـــا زاره هـــلال الشهـــور
أو تـــرى قـــدر بعـــده دون هـــذا بـــالجمـــع تلـــك ضـــاحكـــات الثغـــور
يجتلـــي حسنـــه بغـــرّ الليـــالـــي أو يـــزهـــر قـــد اكتســـى ثـــوب نـــور
إن تســـاووا محـــاسنـــاً ســـار أولا فـــاوتـــن بـــالكـــواكـــب كـــالبـــدور

---

(١) الدمن: آثار الدار، المزيلة. وخضرة الدمن: ما ينبت في الدمن: وهي مثل في حسن الظاهر وقبح الباطن.

غير أن المزار في كلّ يوم	عند حبّ غرامه في الصدور
واعتدالٍ بحبّها زاد حبّاً	عند من زرت في خبا أو قصور
والذي يؤثر التقلّل مثلي	زرْ قليلاً بذاك كثر الأجور
كلّ شهر وإن دنا منك داراً	مرّة أو بحسب حال المزور
والبرايا على اختلاف طباع	في اجتماع وعزله وحضور
خذ مقالي مفصّلاً ذا وضوح	ما به مشكل ولا ذو قصور
رحم الله متقنا صنعه في ضيق	لحدٍ مجاور للقبور
فعسى الله دعوة من شقيق	فأرى ما نظمت في ذي السطور

وكذلك عارضت قصيدته التي فضّل بها الغنيّ على الفقير، ومن جملتها قوله في هذه الأبيات:

فانظر بعينك هل أرض معطّلة	من النبات كأرض حفّها الشجر
أبعد عمّا تيسر الأغنياء به	فأيّ فضل له ودٍ ما له ثمر
وارحل ركابك عن أرض ظمئت بها	إلى الجنان الذي يهمي به المطر

وعارضته بقصيدة، وسمّيتها المنهج الأسنى في تفضيل الفقر على الغنى هذه الأبيات، منها:

قل للحريري من ذا في الحرير غدا	وقصر درّ وحور زانها الحورُ
وفاكهات وأنها رمد فقّة	شهيدو وكثبان مسك والحصى درر
وجلّ نور وياقوت أسرّتها	تزهو براكبها والحسن والسرر
وطيب عيش ترى كلّ النعيم به	ما تشتهي النفس ممّا ليس ينحصر
والضدّ في ضنك أهوال وروعتها	سنين خمس منير جابذ الخبر
فسوف يدري العلى للفقر أم لغنى	وأرض من منهما قد حفّها الشجر
ومن له عودُ وصل يانع خضر	زاهٍ وذاك بذاك الحسن والثمر
إذا هشيماً رأى الغصن البصير له	تذري الرياح به قد حلّت الغير
يحكي سراباً ظنّ ذوظما	أو حلم نوم فلم يوجد له أثر
انقد بعين فؤاد جوهراً لهما	عين البصيرة تدري الحسن لا البصر
فجوهر الفقر تزهو جوهريّته	بالحكّ، والمال زيف حين يختبر
وانظر هل الزرع في أرض مجرّدة	كزرع أرض وفيها الغيث والشجر
إن الفقير الذي للفقر مصطبر	هو الغنيّ والغنى بالمال مفتقر
يكفيك لو كان الفؤاد له نوع	اعتبار إذا مرّت به الغير

من ليس يغنيه منّا وادياً ذهبٍ ... يهلع ويجمع ولا يشبع ويدّخر
مستقبلاً فيه آفات معجّلة ... وفي المال لصافي الماء جا كدر
شغلاً عن الله مع حبّ لمبغضة ... وربّ هول غدا والنار تستعر
والفقر كم من سعادات يحوز بها ... بفوز حلب لها بالسبق تبتدر
مع الفراغ لطاعات مقرّبة ... ممّن هو الملك الوهاب مقتدر
ولذّة وحلاوات معجّلة ... والأنس بالله فيه القوم قد سرروا
والطيب قد فاح، إذْ لاح الجمال لهم ... والراح يسقون من كأس بها سكروا
فعربدوا ثم باحوا بالهوى علناً ... لمّا قوي الحبّ ما في كتمه صبروا
ساحوا وباحوا وصاحوا صار مدحتهم ... خلع العذار، لحى العذّال أو غدروا
يا سعد عبد غنيّ القلْب ذي أرب ... راضٍ بمقدور مولى ما به ضجر
من فتية زارعي الخيرات أرضهم ... نقوا من الغيث والأشجار إذ بذروا
إن قيل بأفضل من لا يحتلي محلاً ... ممدوحة أيّ فضل فيه يفتخر
قل حبّ محبوب ونصر هدى ... ليافعيّ رجا هذَين مدّخر
مع من أحبّ يكون المرء يومئذٍ ... والأجر حقّ لقوم للهدى نصروا
في كلّ هذا نصوص الشرع ناطقة ... مع الكتاب حديث صحّ مشتهر
وما لعبد نزول فوق منزلة ... أولاه مولاه بل يرضى ويأتمر
لا بدّ في الملك من ترتيب مملكة ... لو لم يكن ما نهى الناهون أو أمروا
فيها أمير وجندي له وبها ... وزير ملك ومخدوم ومحتقر
في الخلق دار بنوه وفق حكمتهم ... وقدّروا الأمر فيه حسب ما قدروا
فكيف ترتيب خدّام لمملكة ... عن حكمة الحقّ ما قدْ قدّر القدر
هذا رسول نبي داود، ذا ملك ... وذا وليّ وذا راجٍ وذا حذر
وذاك قطبٌ وَذا غوث وَذا وتد ... وذا بديل إذا ما امتدّت به حضروا
وذا عليم وهذا عابد شجر ... وذا تقيّ وهذا مؤمن برر
سلّم له وارضَ بالمقدور إنّ له ... حكماً به مودع، سرّ له خبر
فطاعة الحكيم مع تسليم حكمته ... وظيفة العبد راضيها له خطر
فنسأل الله توفيق القيام بها ... والصرف عن كلّ وصف ضمنه خطر
ها هي بدت في حكمي فقر معارضه ... من في الحرير الغني بالمال يفتخر
مصونة جا حسن مخدرة ... عن غير كفو فعنه الحسن مستتر
عن أربعين لقد فاقت بأربعة ... من سبعة نيّف سبعين مختصر
ختامها حمد ربّي والصلاة على ... ختام رسل سراج دونه القمر

يعني أنّ الأبيات المذكورة هنا أربعة وأربعون مختصرة من قصيدة له مشتملة على سبعة وسبعين بيتاً.

توفّي الحريري رحمه تعالى الله في السنة المذكورة، وقيل في سنة خمسين بالبصرة في سكة بني حرام، فنسب إليهم من هذه السكّة التي سكن بها، وكانت ولادته في سنة ستّ وأربعين وأربعمائة.

والمَشَان بفتح الميم والشين المعجمة، بعد الألف نون: بُلَيْدة فوق البصرة، كثيرة النخل، شديدة الوخم، وكان أصل الحريريّ منها، ويقال إنّه كان له ثمانية عشر ألف نخلة، وكان فاضلاً نبيلاً جليل القدر، له تاريخ لطيف سمّاه: صدور زمان القبور وقبور زمان الصدور، نقل منه العلماء والأصبهاني في كتاب: (نصرة الفترة وعصرة الفترة) الذي ذكر فيه أخبار الدولة السلجوقية نقلاً كثيراً

وفيها توفّي الحافظ أبو عبدالله محمد بن عبد الواحد الأصبهاني الدقّاق، كان محدّثاً أثرياً فقيراً متقلّلاً.

سنة سبع عشرة وخمس مائة

في أوّلها التقى الخليفة المسترشد بالله ودُبَيس[١] الأسدي، وكان دبيس قد طغى وتمردّ، ووعد عسكره بنهب بغداد، وجرّد المسترشد يومئذ سيفه، ووقف على تلّ، فانهزم جمع دبيس، وقتل خلق منهم، وقتل من جيش الخليفة نحو عشرين رجلاً، وعاد مؤيدّاً منصوراً وذهب دبيس فَعَاثَ ونهب وقتل في نواحي البصرة.

وفيها توفّي ابن الخيّاط الشاعر المشهور: أبو عبدالله أحمد بن محمد التغلبي الدمشقي الكاتب، كتب أولاً لبعض الأمراء، ثم مدح الملوك والكبار، وبلغ في النظم الذروة العليا، أخذ عن أبي فتيان بن الجيوش، وعنه أخذ ابن القيرواني، قال السلفي: كان شاعر الشام في زمانه.

وفيها توفيّ الحافظ الكبير أبو نعيم عبدالله بن أبي علي[٢] الحدّاد، مؤلّف أطراف الصحيحين، كان عجباً في الإحسان إلى الراحلة وإفادتهم مع الزهد والعبادة والفضيلة التامّة.

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير ٨/ ٣١٠، ٣١١.

(٢) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٣١١٤: عبدالله بن الحسن بن أحمد بن الحسن أبو نعيم بن أبي علي الحداد الأصبهاني، ومولده سنة ٤٦٣ هـ.

وفيها توفّي أبو الغنائم بن المهتدي بالله: محمد بن محمد الهاشمي الخطيب.

وفيها توفّي الحافظ أبو الحسن محمد بن مرزوق البغدادي رحمه الله.

وفيها توفّي أبو صادق مرشد بن يحيى المسندي البصري.

سنة ثمان عشرة وخمس مائة

فيها كسر ابن بهرام ـ صاحب حلب ـ الفرنج، ثم نازل مَنبِج فجاءه سهم[1] فقتله، فحمله ابن عمّه ـ صاحب مارِدِين ـ إلى ظاهر حلب، وتسلّم حلب، وأقام بها نائباً، وردّ إلى ماردين، فراحت حلب.

وفيها أخذت الفرنج صُورَ بالأمان، وبقيت في أيديهم إلى سنة تسعين وست مائة.

وفيها توفّي أبو الفضل أحمد بن محمد الدينوري، البغدادي المولد، الشاعر المعروف بابن الخازن، كان فاضلاً فائق الخطّ، أوحد وقته، اهتمّ ولده نصر الله الكاتب المشهور بجمع شعره، فجمع منه، وهو حسن السبك، منه قوله: ـ وقد أضافة الحكيم أبو القاسم الأهوازي يوماً، وزاد في خدمته وإكرامه، وكان في داره بستان وحمّام، فأدخله فيهما:

وافيت منزله فلم أرَ حاجباً ... إلاّ تلقّاني بسنّ ضاحك
والبشر في وجه الغلام إمارة ... لمقدّمات ضياء وجه المالك
ودخلت جنّته وزرت حميمه ... فشكرت رضواناً ورأفة مالك

قال ابن خلّكان: ثمّ إني وجدت هذه الأبيات للحكيم أبي القاسم هبة الله بن الحسين الأهوازي الطبيب الأصفهاني، ذكره العماد في الخريدة.

وفيها توفّي الحسن بن الصباح صاحب الألَمَوُت[2]، وزعيم الإسماعيلي، وكان ذاهيبة، ماكراً زندقياً من شاطين الإنس.

وفيها توفّي أبو الفتح سلطان بن ابراهيم المقدسي الشافعي الفقيه، قال السلفي: كان من أفقه الفقهاء بمصر، تفقّه عليه أكثرهم، وقال غيره: أخذ عن أبي نصر المقدسي، وسمع من أبي بكر الخطيب، وسمع من جماعة.

وفيها توفّي أبو بكر غالب بن عبد الرحمن بن غالب القرماطي الحافظ، كان حافظاً للحديث وطرقه وعالمه، عارفاً برجاله، ذاكراً لمتونه ومعانيه. ذكر بعضهم أنّه كرّر صحيح البخاري سبعمائة مرّة، وكان أديباً شاعراً لغوياً دّيناً.

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير ٨/ ٣١٥.

(٢) قلعة الألموت، سبق ذكر موقعها.

وفيها توفّي أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، كان أديباً فاضلاً عارفاً باللغة، واختص بصحبة الإمام أبي الحسن الواحدي، صاحب التفسير، ثم قرأ على غيره، وأتقن في العربيّة خصوص اللغة وأمثال العرب، وله فيها التصانيف المفيدة، منها: كتاب الأمثال المنسوب إليه، ولم يعمل مثله في بابه، وكتاب: السامي في الأسامي، وهو جيّد في بابه، وكان قد سمع الحديث ورواه، وكان ينشد كثيراً:

تنفّس صبح الشيب في ليل عارضي فقلت: عساه يكتفي بعذاري
فلمّا فشا عاتبته فأجابني أيا هل ترى صبحاً بغير نهارِ؟

سنة تسع عشرة وخمس مائة

فيها سار الخليفة لمحاربة دبيس، فانخذل دبيس[1] وذلّ، وطلب العفو، وكان معه طغرل بك ابن السلطان محمد فمرض، ثم سارا إلى خراسان، واستجارا لسنجر، فأجارهما، ثم قبض على دبيس خدمة للخليفة.

وفيها توفّي أبو عبدالله بن البطائحي المأمون، وزير الديار المصرية للآمر[2]، وكان أبوه جاسوساً للمصريين، فمات. (روى محمد[3] هذا يتيماً) رآه شاباً ظريفاً، فأعجبه فاستخدمه مع الفرّاشين، ثم تقدّم عنده، ثم آل أمره، إلى أن ولي بعده،

وفيها توفّي أبو البركات بن البخاري البغدادي المعدل هبة الله بن محمد.

سنة عشرين وخمس مائة

يوم الأضحى منها خطب المسترشد بالله، وصعد المنبر ووقف ابنه ولي العهد ـ الراشد بالله ـ دونه بيده سيف مشهور، وكان المكبّرون خطباء الجوامع، ونزل فنحر بيده بَدَنِة[4]، وكان يوماً مشهوداً ما عهد للإسلام مثله منذ دهر.

وفيها توفّي الإمام الربّاني ذو الأسرار والمعرف والمواهب واللطائف: أبو الفتوح أحمد بن محمد الطوسي الغزالي الواعظ ـ أخو الإمام حجّة الإسلام أبي حامد.

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير ٨/٣١٨
(٢) الوزير المأمون بن البطائحي، وزير الآمر بأحكام الله صاحب مصر. انظر الكامل لابن الأثير ٨/٣١٩.
(٣) العبارة غير واضحة، ولعل في الكامل لابن الأثير ٨/٣١٩ ما يوضح أكثر: إن أباه كان من جواسيس الأفضل بالعراق فمات ولم يخلف شيئاً، فتزوّجت أمه وتركته فقيراً، فاتصل بإنسان يتعلّم البناء بمصر، ثم صار يحمل الأمتعة بالسوق الكبير، فدخل مع الحمالين إلى دار الأفضل أمير الجيوش مرة بعد أخرى فرآه الأفضل خفيفاً. . . .
(٤) البدنة: الناقة أو البقرة المسمّنة.

شيخ مشهور فصيح مفوّة، صاحب قبول تامّ لبلاغته وحسن إيراده وعذوبة لسانه، وعظ مرّة عند السلطان محمود فأعطاه ألف دينار، وكان مليح الوعظ حسن المنظر صاحب كرامات وإشارات، وكان من الفقهاء، غير أنّه مال إلى الوعظ والتصوّف فغلب عليه، ودرّس بالنظامية نيابة عن أخيه أبي حامد، لمّا ترك التدريس زهادة فيه، اختصر كتاب أخيه المسمّى بإحياء علوم الدين، في مجلّد واحد، وسمّاه: لباب الأحياء، وله كتاب آخر سمّاه: الذخيرة في علم البصيرة، وطاف البلاد، وخدم الصوفية بنفسه، وخدموه، وصحبهم وصحبوه، وكان مائلاً إلى الانقطاع والعزلة.

وذكره ابن النجّار في تاريخ بغداد فقال: كان قد قرأ القارىء بحضرته: ﴿ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ [الزمر/٥٣]، فقال: شرفهم بياء الإضافة إلى نفسه بقوله يا عبادي، ثم أنشد:

وهان عليّ اللوم في جنب حبّها ... وقول الأعادي إنّه لخليع
أصمّ إذا نوديت باسمي وإنني ... إذا قيل لي: يا عبدها، لسميع

وهذا مثل قول بعضهم: لا تدْعني إلاّ بيا عبدي، فإنّه أشرف أسمائي، وتوفي بقزوين ـ رحمه الله تعالى.

قلت هكذا أثنى عليه الحافظ ابن النجّار وغيره من العلماء والأولياء، ولا التفات إلى ما أومى إليه الذهبي من بعض الطعن فيه.

وممّا يحكى من مكاشفاته أنّه سأله إنسان عن أخيه محمد، أين هو؟ فقال: في الدم، ثمّ طلبه السائل فوجده في المسجد، فتعجّب من قول أخيه في الدم، وذكر له ذلك فقال: صدق، كنت أفكّر في مسألة من مسائل المستحاضة ـ رحمة الله تعالى عليهما.

وفيها توفّي أبو بحر الأسدي. سفيان بن العاصي محدّث قرطبة.

وَصاعد بن سيّار أبو العلاء الهروي الدهّان، قال السمعاني: كان حافظاً متقناً، كتب الكتب الكثيرة، وجمع الأبواب، وعرف الرجال.

وأبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد المالكي، قاضي الجماعة بقرطبة ومفتيها. روى عن أبي علي الغسّاني وأبي مروان بن مروان وخلق، وكان من أوعية العلم، له تصانيف مشهورة، عاش سبعين سنة.

وفيها توفّي أبو عبدالله محمد بن بركات السعيدي المصري النحوي اللغوي، روى عن القضاعي وغيره، وسمع البخاري من كريمة بمكّة.

وفيها توفي أبو الفتح أحمد بن علي المعروف بابن بَرْهان[١] الفقيه الشافعي، كان متبحراً في الأصول والفروع والمتفّق والمختلف، وتفقّه على أبي حامد الغزالي وأبي بكر الشاشي وأبي الحسن المعروف بالكِيا، وصار ماهراً في فنونه، وصنّف كتاب الوجيز في أصول الفقه، وولي التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد دون الشهر، وبَرْهان بفتح الباء الموحدة وسكون الراء.

وفيها توفّي الإمام أبو بكر[٢] بن الوليد القريشي الفهري الأندلسي، الفقيه المالكي الطُرْطُوشي. بضم الطائين المهملتين بينهما راء ساكنة وبعدهما واو ساكنة ثم شين معجمةِ منسوباً إلى طَرْطُوشة: مدينة في آخر بلاد المسلمين بالأندلس. صحب أبا الوليد الباجي، وأخد عنه مسائل الخلاف، وسمع منه وأجاز له، وقرأ الفرائض والحساب، وقرأ الأدب على أبي محمد بن حزم، ورحل إلى المشرق سنة ستّ وسبعين وأربعمائة، وحجّ ودخل بغداد والبصرة، وتفقّه على أبي بكر محمد الشاشي المعروف بالمستظهري الفقيه الشافعي، وعلى أبي العباس أحمد الجرجاني، وسكن الشام ودرس بها، وكان إماماً عالماً عاملاً زاهداً ورعاً ديّناً متواضعاً متقشفاً متقلّلاً من الدنيا، راضياً منها باليسير، على ما ذكره بعض المؤرخين. وكان يقول: إذا عرض لك أمران: أمر دنيا وأمر أخرى، فبادِر بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدنيا والأخرى، وكان كثيراً ما ينشد:

إن لله عبـــــاداً فُطُنــــــا ... طلّقــوا الــدنيــا وخــافــوا الفتنــا
فكّـــروا فيهـــا فلمّـــا علمـــوا ... أنّهـــا ليســـت لحـــيّ وطنـــا
جعلـــوهـــا لجّـــة واتخـــذوا ... صـــالـــح الأعمـــال فيهـــا سفنـــا

قلت: هكذا قال بعضهم: فكّروا فيها، وقال بعضهم: نظروا فيها، والكلّ معناه واحد، فإن المراد: ينظروا نظرة القلب، وله من التصانيف: سراج الملوك، وغيره وله طريقة في الخلاف، ونسب إليه أشعار من ذلك:

إذا كنـــت فـــي حـــاجـــة مـــرســـلاً ... وأنـــت بـــإنجـــازهـــا معـــزم
فـــأرســـل بـــأكمـــه خـــلانـــه ... بـــه صمـــم أعطـــش أبكـــم
ودع عنـــك كـــلّ رســـول ســـوى ... رســـول يقـــال لـــه الـــدرهـــم

وحكي أنه اجتمع بالإمام حجّة الإسلام أبي حامد الغزالي في بلاد الشام، وقصد

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي ٦/٧/٢٠٧، ٢٠٨: أحمد بن علي بن محمد بن بَرْهان ـ توفي سنة ثمان عشرة وخمسمائة ودفن بباب أبرز، وقال غيره توفي سنة عشرين وخمس مائة.

(٢) في الأنساب للسمعاني: ٤/٦٢: الطرطوشي: نسبة إلى طرطوشة، وهي بلدة من آخر بلاد المسلمين بالأندلس، خرج منها جماعة، منهم: أبو بكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي.

مناظرته، فقال له أبو حامد: هذا شيء تركناه بصبية بالعراق، يعني: ترك المغالبة بالعلم والمفاخرة فيه لصبية ـ جميع صبي ـ كأنه شبّه من يطلب هذا بالصبيان لغلبة الهوى عليهم، نسأل الله التوفيق لصالح الأعمال وحسن الخاتمة عند منتهى الآجال.

سنة إحدى وعشرين وخمس مائة

فيها أقبل السلطان محمود بن محمد ابن ملك شاه في جيشه محارباً[١] للمسترشد بالله، فتحوّل أهل بغداد كلّهم إلى الجانب الغربي، ونزل محمود والعسكر بالجانب الشرقي، وترامِوا بالنشاب، وتردّدت الرسل في الصلح، فلم يفعل الخليفة، فنهبت دار الخلافة، فغضب الخليفة، وخرج من المخيّم. والوزير ابن صدقة بين يديه ـ فقدّموا السفن في دفعة واحدة، وعبر عسكر الخليفة، وألبسوا الملاّحين السلاح، وسبح العيّارون وصاح المسترشد: يا لبني هاشم، فتحرّكت النفوس معه، هذا وعسكر السلطان مشغولون بالنهب، فلمّا رأوا الجدّ ولوّا الأدبار، وعمل فيهم السيف، وأسر منهم خلق، وقتل جماعة أمراء، ودخل الخليفة إلى داره، وكان معه يومئذ قريب من ثلاثين ألف مقاتل، ثم وقع الصلح.

وفيها ورد الخبر بأن سنجر صاحب خُراسان قتل من الباطنية اثني عشر ألفاً[٢]، ومرض السلطان محمود، وتعلّل بعد الصلح، فرحل إلى هَمَذان، وولي بغداد الأمير عماد الدين زنكي، ثم صرف بعد أشهر، وفوّض إليه الموصل، وسار إليها لموت متولّيها.

وفي السنة المذكورة توفّي أبو السعادات أحمد بن أحمد بن عبد الواحد الهاشمي العباسي المتوكّلي، شريف صالح خيرّ. روى عن الخطيب وغيره، وعاش ثمانين سنة. ختم التراويح ليلة سبع وعشرين، ورجع إلى منزله فسقط من السطح فمات رحمه الله تعالى.

وفيها توفي أبو الحسن بن الدينوري عليّ بن عبد الواحد، روى عن القزويني وأبي محمد الخلاّل، وهو أقدم شيخ لابن الجوزي، وأبو العز القلانسي محمد بن الحسين بن بندار الواسطي مقرىء العراق وصاحب التصانيف في القراءات.

وفيهما توفّي عبد الله بن محمد المعروف بابن السيد البطليوسي النحوي، كان عالماً بالآداب واللغات، متبحّراً فيهما ومقدّماً في معرفتهما وإتقانهما، وكان الناس يجتمعون إليه ويقرؤون عليه، ويقتبسون منه، وكان حسن التعليم جيّد التفهيم، ثقة ضابطاً، ألّف كتباً نافعة، منها كتاب المثلّث في مجلّدين، أتى فيه بالعجائب، ودلّ على اطّلاع عظيم، فإنّ

---

(١) ذكر ابن الأثير في الكامل هذه الحادثة ضمن حوادث سنة عشرين وخمس مائة. انظر ٨/ ٣٢١، ٣٢٢.
(٢) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٣٢٥: وكانوا يزيدون على عشرة آلاف نفس.

مثلّث[١] قطرب في كرّاسة واحدة، قالوا: ومع هذا استعمل فيه الضرورة وما لا يجوز، وغلط في بعض ذلك، وله كتاب: الاقتضاب في شرح أدب الكتّاب[٢]، وشرح سقط الزند لأبي العلاء المعرّي شرحاً استوفى فيه المقاصد، وهو أجود من شرح أبي العلاء، وله كتاب الخلل في شرح أبيات الجمل والخلل في أغاليط الجمل أيضا وكتاب شرح الموطّأ، قيل وشرح ديوان المتنبّي وكتباً أخرى، وله نظم حسن، فمن ذلك قوله:

أخو العلم حيّ خالد بعد موته ... وأوصاله تحت التراب رميم
وذو الجهل ميت وهو ماش على الثرى ... يظنّ من الأحياء وهو عديم

سنة اثنتين وعشرين وخمس مائة

في أوّلها تملّك حلب عماد الدين[٣] زنكي.

وفيها سار السلطان محمود إلى خدمة عمّه سنجر، فانطلق له دبيس بن صدقة وقال: اعزل زنكي عن الموصل والشام، وأولي دبيساً، واسأل الخليفة أن يصفح عنه، فأخذه ورجع.

وفيها توفي الحافظ أبو محمد عبد الله بن أحمد الأشبيلي، كان حافظاً للحديث وعلله، عارفاً برجاله وبالجرح والتعديل، ثقة، كتب الكثير، واختصّ بأبي علي الغسّاني، وله تصانيف في الرجال.

وابن صدقة الوزير أبو علي الحسن وزير المسترشد، كان ذا حزم وعقل ودهاء ورأي وأدب وفضل.

سنة ثلاث وعشرين وخمس مائة

فيها أصلح زنكي نفسه بأن يحمل للسلطان في السنة مائة ألف دينار وخيلاً وثياباً وافرة.

وفي رمضان منها هجم دُبيس[٤] على نواحي بغداد وعلى الحِلّة، وبعث الى المسترشد يقول: إن رضيت عنّي رددت أضعاف ما ذهب به من الأموال، فقصده عسكر محمود، فدخل البرّية بعد أن أخذ من العراق نحو خمس مائة ألف دينار.

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٣٢٥، ٣٢٦: جمع المثلث في مجلّدين، زاد فيه على قطرب شيئاً كثيراً جداً.

(٢) وفيه أيضاً: وله شرح أدب الكاتب لابن قتيبة.

(٣) انظر الكامل لابن الأثير ٨/ ٣٢٦.

(٤) انظر الكامل لابن الأثير ٨/ ٣٢٨.

وفيها أخذ زنكي حماة، ثم نازل حمص وأسر[(١)] صاحبها، وأخذه معه لمّا لم يقدر على أخذها، وردّ إلى الموصل.

وفيها قتل بدمشق نحو ستة آلاف ممّن كان يرمى بعقيدة الإسماعيلية[(٢)]، وكان قد دخل الشام بهرام الأسْتَراباذي، وأضلّ خلقاً كثيراً، وأقام داعياً بدمشق، فكثر أتباعه، وملك عدّة حصون بالشام، ثم راسل الفرنج ليسلّم إليهم دمشق ـ فيما قيل ـ ويعوّضوه بِصُورَ، وقرّر الباطنيّة بدمشق أن يغلقوا أبواب الجامع ـ والناس في الصلاة ـ ووعد الفرنج أن يهجموا البلد حينئذ، فقتله بوري[(٣)] بن طغتكين ـ بالطاء المهملة والغين المعجمة والكاف بين المثناة من فوق ومن تحت ثم النون ـ وعلّق رأسه على القلعة، ووضع السيف في الباطنية الإسماعيلية بدمشق في نصف رمضان يوم الجمعة، وسلّم بهرام[(٤)] بانِياس[(٥)] للفرنج، وجاءت الفرنج فنازلت دمشق، ثم تناجى عسكر دمشق والعرب والتركمان، فبيّتوا للفرنج، فقتلوا وأسروا.

وفيها توفي أبو الحسن عبدالله بن محمد ابن الإمام أبي بكر البيهقي. سمع الكتب من جدّه ومن الصابوني وجماعة.

وفيها توفّي أبو الفضل جعفر بن عبد الواحد الثقفي الأصفهاني الرئيس.

وفيها توفّي الفقيه العلاّمة أحد الأئمة الكبار يوسف بن عبد العزيز، نزيل الإسكندرية، أحكم الأصول والفروع، وروى الصحيحين، وله التعليقة الكبرى في الخلاف.

سنة اربع وعشرين وخمس مائة

فيها التقى زنكي الفرنج بناحية حلب، وثبت الجمعان، ثمّ ولّت الفرنج، فوضع السيف فيهم، وافتتح زنكي حصن الأثارِب[(٦)]، فنازل حصن كادم[(٧)].

وفيها أخذ السلطان محمود قلعة الألَمَوُت.

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٣٣٠: وكان صاحبها قرجان بن قراجة.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير ٨/٣٢٨، ٣٢٩.

(٣) أي الداعي بدمشق: المزدقاني. انظر المرجع السابق.

(٤) في المرجع السابق أيضاً: خاف اسماعيل والي بانياس أن يثور به وبمن معه الناس فيهلكوا فراسل الفرنج وبذل لهم تسليم بانياس.

(٥) المقصود بها بلدة بانياس الواقعة جنوب غرب دمشق قرب ملتقى الحدود السورية اللبنانية الفلسطينية.

(٦) في معجم البلدان: الأثارب : وهي قلعة معروفة بين حلب وأنطاكية، بينها وبين حلب نحو ثلاثة فراسخ. . . وتحت جبلها قرية تسمّى باسمها.

(٧) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٣٣١: قلعة حارم. . ./حارم حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية، وهي الآن من أعمال حلب. معجم البلدان.

وفيها ظهرت ببغداد عقارب طيّارة[١] قتلت جماعة أطفال.

وفيها توفي أبو إسحاق ابراهيم بن يحيى[٢] الكلبي الغزّي المشهور، شاعر محسن، ذكره الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق، وسمع من الشيخ نصر المقدسي سنة إحدى وثمانين وأربعمائة، رحل إلى بغداد وأقام بالمدرسة النظامية عدّة سنين، ومدح ورثى غير واحد من المدّرسين بها وغيرهم، ثم رحل إلى خُراسان وامتدح بها جماعة من رؤسائها، وانتشر شعره هناك، وذكر له عدّة مقاطع من الشعر، وأثنى عليه. انتهى كلام الحافظ.

قال ابن خلّكان: وله ديوان شعر اختاره بنفسه، وذكر في خطبته أنّه ألف بيت، وذكره العماد الكاتب في الخريدة، وأثنى عليه، وقال: إنه جاب البلاد وتغرّب، وتغلغل في أقطار خراسان وكَرِمان، ومدح وزير كرمان مكرم بن العلاء في قصيدته البائية التي أبدع فيها. منها قوله:

حملنا من الأيام ما لا نطيقه ... كما حمل العظم الكثير العصائبا

ومنها في قصر الليل. وهي معنى لطيف:

وليل رجونا أن يدبّ عذاره ... فما اختطّ حتّى صار بالفجر شائبا

ومن شعره قوله:

قالوا هجرت السفر، قلت: ضرورة ... وباب الدواعي والبواعث مغلق
خلَتِ الديار فلا كريم يرتجى ... منه النوال ولا مليح بعشق

ومما يستملحه الأدباء ويستظرفونه قوله:

إشارة منك تكفينا وأحسنها ... ردّ السلام غداة البين بالعَنَمِ[٣]
أما ترانا وقد ضمّت يد ليد ... عند العناق وقد لاقى فم لفمِ
حتّى إذا طرح عنها المِرْط من دهش ... فانحلّ بالضمّ سلك العقد في النظمِ
تبسّمت فأضاء الليل فالتقطت ... حباب منتشر في ضوء منتظم[٤]

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير ٨/ ٣٣٢.

(٢) في الوافي بالوفيات للصفدي ٦/٦/ ٥١: الغزي أبو إسحاق الشاعر: ابراهيم بن عثمان بن محمد، وقيل أبو مدين الكلبي الغزّي.

(٣) العنم: شجر له ثمرة حمراء يشبّه بها البنان المخضوب.

(٤) في الوافي بالوفيات للصفدي ٦/٦/ ٥١:

حتى إذا طاح عنها المرط عن دهش ... وانحل بالضمّ عقد السّلك في الظلم
تبسّمت فأضاء الجو فالتقطت ... حبّات منتثر في ضوء منتظم

والمرط: كل ثوب غير مخيط أو كساء من صوف وغيره يؤتزر به.

قيل: والبيت الأخير منها ينظر إلى قول الشريف الرضي من جملة قصيدته:

وبات بارق ذاك الثّغر يوضح لي مواقع اللثم في داج من الظلم

وولد الغزّي المذكور بغَزّة، وبها قبر هاشم جدّ النبي صلّى الله عليه وسلّم ـ وتوفّي بين مرْو وَبلخ من بلاد خراسان، ودفن ببلخ.

وأمّا كون هاشم قبره بغزّة فذكر عبد الملك بن هشام أنّ أوّل من سنّ الرحلتين لقريش: رحلة الشتاء والصيف: هاشم بن عبد مناف جدّ النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ثم هلك هاشم بغزّة من أرض الشام تاجراً، فقال مطرود بن كعب الخزاعي يبكيه:

وهاشم في ضريح وسط بلْقَعةٍ تسفي الرياح عليه بين غزّات(١)

قال أهل العلم باللغة: إنمّا قال غزّات: وهي غزّة واحدة كأنّه سمّى كل ناحية منها باسم البلدة، وجمعها على غزّات، فصارت من ذلك الوقت تعرف بغزّة هاشم لأن قبره بها، لكنّه غير طاهر لا يعرف، وإلى ذلك أشار أبو نواس الشاعر المشهور لمّا توجّه إلى مصر ليمدح ابن عبد الحميد صاحب ديوان الخراج، ذكر المنازل في طريقه فقال:

طوالب بالركْبان غزّة هاشم وبالفَرَمَا من حاجهنّ شُقور(٢)

والفرما بفتح الفاء والراء المدينة العظمى التي كانت كرسيّ الديار المصريّة في زمن ابراهيم الخليل ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ ومن بعض قراها: هاجَر أمّ اسماعيل ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ من قرية تسمّى أمّ العرب، ومن الاتفّاق الغريب أنّ اسماعيل أبو العرب، وأمّه من أمّ العرب، والشُقور بضم الشين المعجمة والقاف: بمعنى الأمور المهّمة اللاصقة بالقلب.

وفيها توفي الاخشيد اسماعيل بن الفضل الأصبهاني.

وابن الغزال أبو محمد عبدالله بن محمد المصري المجاور، شيخ صالح مقرىء.

وفيها توفيّت أمّ ابراهيم فاطمة بنت عبدالله بن أحمد الأصبهانية ـ رحمها الله ـ.

وفيها توفّي الفقيه الحافظ الظاهري نزيل بغداد أبو عامر العبدري محمد بن سعدون. قال ابن عساكر: كان فقيهاً على مذهب داود، وكان أحفظ شيخ لقيته، قال القاضي أبو بكر ابن العربي: هو أثبت من لقيته، وقال ابن ناصر: كان فهماً عالماً متعفّفاً مع فقر، وقال السلفي: كان من أعيان علماء الإسلام، متصرّفاً في فنون كثيرة، وقال ابن عساكر: بلغني أنه قال: أهل البدع يحتجّون بقوله تعالى ﴿ليس كمثله شيء﴾ [الشورى/١١]، أي في الإلهية لا

(١) البلقعة: الأرض القفر.

(٢) في معجم البلدان: الفرما: مدينة على الساحل من ناحية مصر.

في الصورة، لم يحتجّ بقوله تعالى ﴿لستنّ كأحد من النساء أن اتقيتنّ﴾ [الأحزاب/ ٣٢]، أي في الحرمة.

وفيها توفّي محمد بن عبدالله بن تُومَرْت ـ بضم المثناة من فوق وفتح الميم وسكون الراء والمثناة في آخره المصمودي البربري الهَرْغي، بفتح الهاء وسكون الراء بعدها غين معجمة، نسبة إلى هَرْغة: وهي قبيلة كبيرة من المصامدة في جبل السوس في أقصى المغرب، ينتسب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب ـ رضي الله تعالى عنهما ـ الملّقب بالمهدي، رحل إلى المشرق، ولقي الإمام أبا حامد الغزالي وطائفة، وحصّل فنوناً من العلم والأصول والكلام والحديث، وحج وأقام بمكّة مدّة مديدة، وكان رجلاً ورعاً ساكناً ناسكاً زاهداً متقشّفاً، شجاعاً جلداً عاقلاً، عميق الفكر بعيد الغور، فصيحاً، مهيباً لذاته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد صاحَبَ دعوة عبد المؤمن بن علي بالمغرب، نشأ هناك ثم رحل إلى المشرق في شيعته طالباً للعلم، فانتهى إلى العراق، وكان كثيراً ظرافاً بسّاماً في وجوه الناس، مقبلاً على العبادة، لا يصحبه من متاع الدنيا إلا عصا ورَكْوَة[١]، وكان متحمّلاً للأذى من الناس، وناله بمكّة شيء من المكروه، فخرج منها إلى مصر، وبالغ في الإنكار، فزادوا في أذاه، وطردته الدولة ـ وكان إذا خاف من البطش وإيقاع الفعل به خلط في كلامه فينسب إلى الجنون ـ فخرج من مصر إلى الاسكندرية، وركب البحر متوجّهاً إلى بلاده، وكان قد رأى في منامه وَهو في بلاد الشرق كأنّه شرب ماء البحر جميعه كرّتين، فلمّا ركب في السفينة شرع في تغيير المنكر جميعه على أهل السفينة، وألزمهم إقامة الصلاة وقراءة الأحزاب من القرآن، ولم يزل على ذلك حتّى انتهى إلى المهديّة ـ إحدى مدن إفريقية ـ وكان ملكها يومئذٍ الأمير يحيى بن تميم بن المعزّ الصّبهاجي، وذلك في سنة خمس وخمس مائة على ما ذكر في تاريخ القيروان.

وذكر غيره أنه اجتاز في رجوعه من العراق بإفريقية أيام ولاية الأمير تميم والد يحيى المذكور والله أعلم بالصواب.

ولمّا وصل إلى المهدّية نزل في مسجد[٢] مغلق وهو على الطريق، وجلس في طاق شارع إلى المحجّة ينظر إلى المارّة، فلا يرى منكراً من عادة الملاهي أو أواني الخمور، إلاّ نزل إليها وكسرها، وتسامع الناس به في البلاد، فجأووا إليه، وقرؤوا عليه كتباً من أصول الدين، وبلغ خبره الأمير، فاستدعاه مع جماعة من الفقهاء.

فلمّا رأى سمته، وسمع كلامه أكرمه، وأجلّه وسأله الدعاء، فقال له: أصلحك الله

(١) الركوة: إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء.

(٢) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٢٩٤: فنزل بمسجد قبليّ مسجد السبت.

تعالى لرعيتك، ولم يقم بعد ذلك في المهدية إلا أياماً يسيرة، ثم انتقل إلى بِجَاية[١]، وأقام بها مدّة وهو على حاله في الإنكار، فأخرج منها إلى بعض قُراها، واسمها مَلّالة[٢]، فوجد بها عبد المؤمن بن علي القيسي.

وذكروا في بعض تواريخ المغرب عن سيرة ملوكه أن محمد بن تومَرت كان قد اطّلع من علوم أهل البيت على كتاب يسمى الجَفْر[٣]: بفتح الجيم وسكون الفاء وفي آخره راء - وسيأتي إيضاح الجفر المذكور إن شاء الله تعالى في سنة ثمان وخمسين - وأنّه رأى فيه صفة رجل يظهر بالمغرب الأقصى بمكان يسمّى السُّوس من ذرّية الرسول - صلّى الله عليه وسلّم - يدعو إلى الله عزّ وجلّ، يكون مقامه ومدفنه بموضع من المغرب يسمّى بترمذ - وسيأتي ضبط حروفه بعدُ إن شاء الله تعالى - ورأى فيه أيضاً أنّ استقامة ذلك الأمر واستيلاءه وتمكّنه يكون على يد رجل من أصحابه، هجاء اسمه(ع)(ب)(د)(م)(و)(م)(ن)، وتجاوز وقته المائة الخامسة للهجرة، فأوقع الله في نفسه أنه القائم بأول الأمر، وأنّ أوانه قد أزف، فما كان يمّر بموضع إلاّ سأل عنه، ولا يرى أحداً إلا أخذ اسمه وتفقّد حليته - وكانت حلية عبد المؤمن معه - فبينا هو في الطريق، إذ رأى شاباً قد بلغ أشدّه على الصفة التي منه، فقال له وقد تجاوزه: ما اسمك يا شاب؟ فقال: عبد المؤمن؛ فرجع إليه وقال: الله أكبر، أنت بغيتي، فنظر في حليته، فوافقت ما عنده، فقال له: ممّن أنت؟ فقال: من كُومِيَة - بضم الكاف وسكون الواو وكسر الميم وفتح المثناة من تحت - قبيلة، فقال: أين مقصدك؟ فقال: الشرق، فقال: ما تبغي من الشرق؟ قال: أطلب علماً، قال: فقد وجدتَ علماً وشرفاً وذكراً، اصحبني تنلْه، فوافقه على ذلك، فألقى محمد إليه أمره، وأودعه سرّه.

وكان محمد قد صحب رجلاً يسمّى عبد الله[٤] الونشريشي بالنون بعد الواو ثم الشين المعجمة مكررة قبل الراء والمثناة من تحت وبعدهما - ففاوضه فيما عزم عليه من القيام فوافقه على ذلك أتمّ الموافقة. وكان الونشريشي ممّن تهذّب وقرأ فقهاً، وكان جميلاً فصيحاً في لغة العرب وأهل المغرب، فتحدّثا يوماً في كيفيّة الوصول إلى الأمر المطلوب، فقال محمد لعبد الله: أترى أن تستر ما أنت عليه من العلم والفصاحة عن الناس، وتظهر من العجز واللكن والحصر والتعرّي عن الفضائل ما تشتهر به عند الناس، ليتخّذ الخروج واكتساب العلم دفعة واحدة، ليقوم لك ذلك مقام المعجزة عند حاجتنا إليه، فتصَدّق فيما تقوله. ففعل عبد الله ذلك.

---

(١) بجاية: مدينة على ساحل البحر بين إفريقيا والمغرب. معجم البلدان.
(٢) في معجم البلدان: ملاّلة قرية قرب بجاية على ساحل بحر المغرب.
(٣) الجفر في اللغة: علم يدّعي أصحابه أنهم يعرفون به الحوادث إلى انقراض العالم. المنجد.
(٤) في الكامل لابن الأثير: ٢٩٧/٨: أبو عبدالله .

ثمّ انّ محمداً استدعى أشخاصاً من أهل المغرب أجلاداً في القوى الجسمانية أغماراً[١]، وكان أميل إلى الأغمار من أولي الفطن والاستبصار، فاجتمع له منهم ستّة سوى الونشريشي، ثم إنّه رحل إلى أقصى المغرب، واجتمع بعبد المؤمن بعد ذلك، وتوجّهوا جميعاً إلى مَرّاكش ـ وسلطانها يومئذٍ علي بن يوسف بن سفيان[٢] وكان ملكاً عظيماً حليماً ورعاً عادلاً متواضعاً، وكان بحضرته رجل يقال له ملك[٣] بن وهيب الأندلسي ـ وكان عالماً صالحاً، وشرع محمد في الإنكار على جاري عادته، حتّى أنكر على ابنه الملك ـ وله في ذلك قصّة يطول شرحها فبلغ خبره الملك، وأنّه يحدّث في تغير الدولة فتحدث ملك بن وهيب في أمره وقال: تخاف من فتح باب يعسر علينا سدّه، والرأي أن تحضر هذا الشخص وأصحابه ليسمع كلامهم بحضور جماعة من علماء البلد، فأجاب الملك، إلى ذلك ـ وكان محمد وأصحابه مقيمين في مسجد خراب خارج البلد ـ وطلبوهم، فلمّا ضمّهم المجلس قال الملك لعلماء بلده: سلوا هذا الرجل ما يبغي منّا، فانتدب له قاضي المرورية[٤] واسمه محمد بن اسود ـ فقال: ما هذا الذي يذكر عنك من الأقوال في حقّ الملك العادل الحليم المنقاد إلى الحقّ، المؤثر طاعة الله ـ عزّ وجل ـ على هواه؟ فقال محمد: أمّا ما نقل عني فقد قلته، ولي من ورائه أقوال، وأمّا قولك إنه يؤثر طاعة الله عزّ وجل على هواه، وينقاد إلى الحقّ فقد ظهر صحّة اعتبار هذا القول عنه، لتعلم، بتعريته عن هذه الصفة أنّه مغرور بما يقولون له، وتطرونه به مع علمكم أن الحجّة عليه متوجّهة ـ فهل بلغك يا قاضي أنّ الخمر تباع جهاراً، وأنّ الخنازير تمشي بين المسلمين، وتؤخذ أموال اليتامى؟ ـ وعدّ من ذلك شيئاً كثيراً.

فلمّا سمع الملك كلامه ذرّفت عيناه، وأطرق حياء، ففهم الحاضرون من فحوى كلامه أنّه طامع في المملكة لنفسه.

ولمّا رأوا سكوت الملك وانخداعه، لم يتكلّم أحد منهم، فقال ملك بن وهيب ـ وكان كثير الاجتراء على الملك: ـ أيّها الملك؛ إنّ عندي لنصيحة، إنْ قبلتها حمدت عاقبتها، وإن تركتها لم تأمن غائلتها، فقال الملك: ما هي؟ قال: إنّي خائف عليك من هذا الرجل، وأرى أنّك تعتقله وأصحابه، وتنفق عليهم كلّ يوم ديناراً لتكفي شرّه، وإن لم تفعل ذلك لينفق عليك خزائنك كلّها، ثم لا ينفعك ذلك. فوافقه الملك، فقال وزيره: يقبح بك أن تبكي من

---

(١) الأغمار: الجهلة.
(٢) في الكامل لابن الأثير: ٨/ ٢٩٥: علي بن يوسف بن تاشفين.
(٣) في الكامل لابن الأثير: ٨/ ٢٩٥: مالك بن وهيب.
(٤) لم أجدها في معجم البلدان.

موعظة هذا الرجل، ثم تسيء إليه في مجلس واحد، وأن يظهر منك الخوف منه ـ مع عظم ملكك ـ وهو رجل فقير لا يملك سدّ جوعه!!، فلمّا سمع الملك كلامه أخذته عزّة النفس، واستهون أمره، وصرفه، وسأله الدعاء.

وحكى صاحب كتاب المغرب أنّه لما خرج من عند الملك لم يزل وجهه تلقاء وجهه إلى أن فارقه، فقيل له: نراك تأدّبت مع الملك؟! فقال: أردت أن لا يفارق وجهي الباطل ما استطعت حتّى أغيره.

فلما خرج محمد وأصحابه من عند الملك قال لهم: لا مقام لنا مع وجود ملك بن وهيب، فما نأمن أنْ يغادر الملكَ في أمرنا، فينا لنَا منه مكروه، وإنّ لنا بمدينة أغْمَات[1] أخاً في الله، فنقصد المرور به، فلم نعدم منه رأياً وإيماء صالحاً واسم هذا الشخص عبد الحقّ بن ابراهيم من فقهاء المصامِدة ـ فخرجوا إليه ونزلوا عليه، وأخبره محمد خبرهم، وأطلعه على مقصدهم، وما جرى لهم عند الملك، فقال عبد الحقّ: هذا الموضع لا يحميكم، وإنّ أحصن هذه المواضع المجاورة لهذا البلد تِينمَلّ[2] بِكسر المثناة من فوق وسكون المثناة من تحت وبعدها نون ثم ميم مفتوحة ولام مشددة ـ في المكان الفلاني، وبيننا وبين ذلك مسافة يوم في هذا الجبل، فانقطعوا فيه برهة ريثما ينسى ذكركم.

فلمّا سمع محمد بهذا الاسم تجدّد له ذكر اسم الموضع الذي رآه في كتاب الجَفْر، فقصده مع أصحابه، فلمّا أتوه رآهم أهله على تلك الصورة، فعلموا أنهم طلاّب العلم، فقاموا إليهم، وأكرموهم، وتلقوّهم بالترحاب، وأكرموهم في أكرم منازلهم.

وسأل الملك عنهم بعد خروجهم من مجلسه، فقيل له: إنّهم سافروا، فسرّه ذلك وقال: تخلّصنا من الإثم بحسبهم.

ثم إنّ أهل الجبل تسامعوا بوصول محمد إليهم ـ وكان قد سار فيهم ذكره فجاؤوه ـ من كلّ فجّ عميق، وتبرّكوا بزيارته، وكان كلّ من أتاه استدناه، وعرض عليه ما في نفسه من الخروج على الملك، فإن أجابه أضافه إلى خواصّه، وإن خالفه أعرض عنه، وكان يستميل الأحداث وذوي الغباوة، وكان ذو الحلم والعقل من أهاليهم يَهْنُونهم ويحذّرونهم من

---

(١) في معجم البلدان: أغمات: ناحية في بلاد البربر من أرمن المغرب قرب مراكش، ومن ورائها إلى جهة البحر المحيط السوس الأقصى بأربع مراحل.

(٢) في الكامل لابن الأثير: ٢٩٦/٨: تينملّل.

وفي معجم البلدان: تين مَلّل: جبال بالمغرب بها قرى ومزارع يسكنها البربر، بين أولها ومراكش سرير ملك بني عبد المؤمن نحو ثلاثة فراسخ، بها كان أول خروج محمد بن تومرت المسمّى بالمهدي الذي أقام الدولة.

إتبّاعه، ويخوفونهم من سطوة الملك، فكان لا يتمّ له مع ذلك حال.

وطالت المدّة، وخاف محمد من مفاجأة الأجل قبل بلوغ الأمل، وخشي أن يطرأ على أهل الجبل من جهة الملك ما يحوجهم إلى تسليمه إليهم والتخلّي عنه، فشرع في إعمال الحيلة فيما يشاركونه فيه ليبغضوا على الملك بسببه، فرأى بعض أولاد القوم شقراً زرقاً، وألوان آبائهم السمرة والكحل، فسألهم عن سبب ذلك فلم يجيبوه، فألزمهم الإجابة فقالوا: نحن من رعيّة هذا الملك، وله علينا خراج في كلّ سنة، يصعّد مماليكه إلينا، وينزلون في بيوتنا، ويخرجوننا عنها، ويستحلّون من فيها من النسوان، فيأتي الأولاد على هذه الصفة، وما لنا قدرة على دفع ذلك عنّا.

قال محمد: والله ِإنّ الموت خير من هذه الحياة، وكيف رضيتم بهذا ـ وأنتم أضرب خلق الله بالسيف، وأطعنهم بالحربة؟! ـ فقالوا: بالرغم لا بالرضى. فقال: أرأيتم لو أنّ ناصراً نصركم على أعدائكم، ما كنتم تصنعون؟ قالوا كنّا نقدّم أنفسنا بين يديه بالموت، قالوا: ومن هو؟ قال: ضيفكم. يعني: نفسه، فقالوا: السمع والطاعة. وكانوا يغالون في تعظيمه، فأخذ عليهم العهود والمواثيق، واطمأنّ قلبه. ثم قال لهم: استعدّوا لحضور هؤلاء بالسلاح، فإذا جاءكم فأجروهم على عوائدهم، وخلّوا بينهم وبين النساء، وميلوا عليهم بالخمور، فإذا سكروا فاذنوني بهم.

فلما حضر المماليك، وفعل معهم أهل الجبل ما أشار به ـ وكان ليلاً ـ أعلموه بذلك، فأمر بقتلهم بأسرهم، فلم يمض من الليل سوى ساعة حتّى أتوا على آخرهم، ولم يفلت منهم سوى مملوك واحد كان خارج المنازل لحاجة، وسمع النكبة عليهم والوقع بهم، فهرب من غير الطريق حتّى خلص من الجبل، ولحق بمراكُش، وأخبر الملك بما جرى، فندم الملك على فوات محمد من يده، وعلم أنّ الحزم كان مع ملك بن وهيب بما أشار به، فجهزّ من وقته خيلاً بمقدار ما يسع ذلك الوادي، فإنّه ضيّق المسلك، وعلم محمد أنه لا بدّ من عسكر يخرج إليهم، فأمر أهل الجبل بالقعود على أبواب الوادي، وراصده، واستنجد لهم بعض المجاورين، فلمّا وصلت الخيل إليهم أقبلت عليهم الحجارة من جانب الوادي مثل المطر ـ وكان ذلك من أوّل النهار إلى آخره ـ وحال بينهم الليل، ورجع العسكر إلى الملك فأخبروه بما نزل بهم، فعلم أنّه لا طاقة له بأهل الجبل لتحصّنهم، فأعرض عنهم، وتحقق محمد ذلك منه، وصفا له مودّة أهل الجبل، فعند ذلك استدعى الونشريشي المذكور وقال له: هذا أوان إظهار فضائلك دفعة واحدة لتقوم المعجزة، لتستميل بك قلوب من لا يدخل في الطاعة.

ثمّ اتفّقا على أنه يصلّي الصبح، ويقول بلسان فصيح بعد استعمال العجمة واللكنة في

تلك المدّة: ـ إنّي رأيت البارحة في منامي: وقد نزل ملكان من السماء، وشقّا فؤادي، وغلاه وحشياه علماً وحكمة وقرآناً، فلمّا أصبح قال ذلك ـ وهو فصل يطول شرحه ـ فاتّفق أنّه انقاد له كلّ صعب القياد، وعجبوا من حاله وحفظه القرآن في النوم، فقال له محمد: فعجّل لنا بالبشرى في أنفسنا، وعرّفنا: أسعداء نحن أمْ أشقياء؟ فقال له: أمّا أنت؛ فإنّك المهدي القائم بأمر الله، ومن معك سعد، ومن خالفك هلك، ثم قال: أعرض أصحابك عليّ حتّى أميزّ أهل الجنّة من أهل النار، وعمل في ذلك حيلة قتل بها من خالف أمر محمد، وأبقى من أطاعه ـ وشرح ذلك يطول ـ وكان غرضه أن لا يبقى في الجبل مخالف لمحمد.

فلمّا قتل من قتل[1] علم محمد أنّ في الباقين من له أهل وأقارب قتلوا، وأنّهم لا تطيب قلوبهم بذلك، فجمعهم وبشّرهم بانتقال ملك مراكش إليهم، واغتنامهم أموالهم، فسّرهم ذلك، وسلاهم عن أهلهم.

وبالجملة فإنّ تفصيل هذه الواقعة طويل، وخلاصة الأمر أنّ محمداً لم يزل حتّى جهز جيشاً عدد رجاله عشرة آلاف ـ ما بين فارس وراجل ـ وفيهم عبد المؤمن والونشريشي وأصحابه كلّهم، وأقام هو بالجبل، فنزل القوم لحصار مراكش، وأقاموا عليها شهراً[2] ثم كسروا كسرة شنيعة، وهرب من سلم من القتل، وكان فيمن سلم عبد المؤمن، وقتل الونشريشي، وبلغ محمداً الخبر ـ وهو بالجبل ـ وحضرته الوفاة قبل عود أصحابه إليه، فأوصى من حضر أن يبلغ الغائبين أنّ النصر بهم والعاقبة حميدة، فلا يضجروا، وليعتادوا القتال، وأن الله سيفتح على أيديهم ـ والحرب سجال ـ وإنكم ستقومون ويضعفون، وسيفتح لكم وتكثرون ويقلّون، وأنتم في مبدأ أمروهم في آخره ـ ومثل هذه الوصايا وأشباهها، وهي وصية طويلة.

ثم إنه توفّي رحمة الله تعالى في السنة المذكورة، ودفن في الجبل، وقبره هناك مشهور يزار. وكانت ولادته يوم عاشوراء سنة خمس وثمانين وأربع مائة، وأول دعائه إلى هذا الأمر سنة أربع عشرة وخمس مائة، وكان رجلاً ربعة قصيراً أسمر عظيم الهامة حادّ النظر.

قال صاحب كتاب المغرب في أخبار أهل المغرب في حقّه: آثاره تنبئك عن أخباره، وحتّى كأنّك بالغاً قدم في الثرى وهمّة في الثّريا، ونفس ترى إراقة ماء الحياة دون ماء المحيّا.

وكان قوته ـ من غزل أخت له ـ رغيفاً في كلّ يوم بقليلٍ سمن أو زيت، ولم ينتقل عن

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٢٩٧: فكان عدّة القتلى سبعين ألفاً.
(٢) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٢٩٨: عشرين يوماً.

هذا حين كثرت عليه الدنيا، ورأى أصحابه يوماً ـ وقد مالت نفوسهم إلى كثرة ما غنموه ـ فأمر بضمّ جميعه، فأحرقه وقال: من كان يبتغي الدنيا فما له عندي إلاّ ما رأى، ومن يبتغي الآخرة فجزاؤه على الله تعالى، وكان على خمول زيّه وبسط وجهه مهيباً، منيع الحجاب إلاّ عند مظلمة، وله رجل مخصّ بخدمته والإذن عليه، وكان له شعر ومن ذلك:

أخـذت بـأعضـادهـم إذ نـأوا وخلفـك القـوم اذ ودّعـوا
فكـم أنـت تنهـي ولا تنتهـي وتسمـع وعظـاً ولا تسمـع
فيـا حجـر الشجـر حتّـى متـى تسـدّ الحـديـد ولا تقطـع

وكان كثيراً ما ينشد:

تجـرّدْ مـن الـدنيـا فـإنّـك إنمّـا خـرجـت إلـى الـدنيـا وأنـت مجـرّد

ولم يفتتح شيئاً من البلاد، وإنما قرّر القواعد ومهّدها ورتّبها، وكانت الفتوحات على يد عبد المؤمن كما سيأتي في ترجمته ـ أنّ أول ما أخذ تلِمْسان ثمّ (فَاس) ثم (سَلا)[1] ثم (سَبْتَة)[2] ثم (مراكش)، واستوثق له الأمر، وامتدّ ملكه إلى المغرب الأقصى والأدنى وبلاد إفريقية وكثير من بلاد الأندلس.

ومما ذكر بعض المؤرخين أنّه ادّعى الإمامة وأنّه معصوم، قال: وكان على طريقة مثلى لا تنكر معه العظمة، وقيل: كان حاذقاً في ضرب الرمل، وقيل: اتفّق لعبد المؤمن أنه كان قد رأى أنّه يأكل في صحفة مع ابن تاشفين، ثم اختطف الصحفة منه، فقال له المعبّر هذه الرؤيا: لا ينبغي أن تكون ذلك، بل هي لرجل يخرج على ابن تاشفين، ثم يغلب على الأمر. وذكر أنه بعدما انكسرت المصادمة انتصرت مرّة أخرى، ثم استنجد أمرهم وأخذوا في شنّ الغارات في بلاد ابن تاشفين، وكثر الداخلون في دعوتهم.

وكان ابن تومرت لم يزل على لون واحد من الزهد والتقلّل والعبادة وإقامة السنن والشعائر. قال: غير أنه أفسد بالدعاء ـ كونه المهديّ ـ وبسرعته في الدعاء، وكان ربّما كاشف أصحابه، ووعدهم بأمور فيوافق، وكان طويل الصمت حسن الخشوع والسَّمْت[3] رحمه الله تعالى.

---

(١) في معجم البلدان: سلا: مدينة بأقصى المغرب على زاوية من الأرض قد حاذاها البحر والنهر فالبحر شماليها والنهر غربيها جارٍ من الجنوب. . . وفي غربي هذا النهر اختط عبد المؤمن مدينة المهدية ـ ومنها إلى مراكش عشر مراحل.

(٢) وفي معجم البلدان: سبتة: بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب، ومرساها أجود مرسى على البحر، وهي على بر البربر تقابل جزيرة الأندلس على طرف الزقاق. .

(٣) السمت: الطريق والقصد.

وفيها توفّي الآمر بأحكام الله أبو علي منصور بن المستعلي بالله العبيدي ـ صاحب مصر ـ كان مشتهراً بالظلم والفسق، امتدّت دولته ثلاثين سنة. فلمّا تمكّن وكبر قتل وزيره الأفضل، وأقام في الوزارة المأمون البطائحي، ثمّ صادره وقتله، ولمّا خرج إلى الجيزة[١] في وقت كمن له قوم بالسلاح، فلمّا مرّ على الجسر نزلوا عليه بالسيوف، ولم يكن له عقب، فبايعوا بعده ابن عمّه الحافظ عبد الحميد[٢] ابن الأمير محمد بن المستنصر.

وفيها توفّي أبو محمد بن الأكفاني هبة الله بن أحمد بن محمد الأنصاري الدمشقي الحافظ.

وفيها توفيّت فاطمة الجوزدانيّة بالجيم وبعد الواو زاي وذال معجمة وبين الألف وياء النسبة نون أمّ ابراهيم بنت عبدالله الأصبهانية، سمعت من ابن ريذة معجم الطبراني، وعاشت تسعاً وتسعين سنة.

سنة خمس وعشرين وخمس مائة

وفيها توفي الشيخ الكبير الولي الشهير العارف بالله، الخبير ذو الكرامات الكريمات والأحوال العظيمات والمقامات العلية والطريقة السنّية أبو عبدالله حمّاد بن مسلم الدبّاس، كان أميّاً، وفتح عليه بالمعارف والأسرار، وصار قدوة للمشايخ الكبار، وكبرت به الأصاغر، وهو الشيخ الذي خضعت له رقاب الشيوخ الأكابر محيي الدين أبي محمد عبد القادر الجيلاني ـ رضي الله تعالى عنهم، ونفعنا بهم آمين ـ ولكلّ واحد من الكرامات ما لا يسعه إلاّ مجلّدات، وقد ذكرت شيئاً من ذلك في غير هذا الكتاب يدهش من سمعه من ذوي القلوب والألباب، وكانت وفاة الشيخ المذكور ذي المناقب المشهورة في شهر رمضان من السنة المذكورة.

وفيها توفّي عن ثمان وثمانين سنة الولّي الكبير الشهير الإمام النجيب النبيه المعروف بالشيخ محمد بن عَبْدوُيه: المشهور بالفضل والورع والاحسان المدفون في بلاد اليمن في جزيرة كَمَرَان[٣] ـ بفتح الحروف الثلاثة ـ تفقّه على الشيخ الإمام أبي إسحاق الشيرازي في بغداد بكتابه المهذّب وَمسائل الخلاف وبكتبه في الأصول والجدل، ودخل اليمن بكتاب المهذّب، وهو أول من دخل به اليمن ـ على ما بلغني ـ وسكن عَدَن مدّة، ثم انتقل إلى زَبِيد ـ وملوكها الحبشة يومئذ ـ فدخلها مفضّل بن أبي البركات بعسكر من العرب، وكان للشيخ

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٣٣٢: إلى منتزه له.

(٢) وفيه أيضاً: عبد المجيد.

(٣) في معجم البلدان: جزيرة كمران قبالة زبيد باليمن.

المذكور مال يتّجر به، فانتهب مع جملة ما نهب من زبيد، قال الامام المعروف بابن سمرة في تاريخه: وأظنّ ذلك وقع في الوقعة الأولى سنة تسع وتسعين وأربعمائة.

ثم خرج ابن عبدويه المذكور فسكن في جزيرة كَمَرَان، قلت وبها توفي، وأنا ممّن زار قبره هنالك. قال ابن سمرة: وكانت أهل التوحيد وأهل الجلالات ـ يأتون للسلام عليه، ويقبّلون رأسه ـ وهو قاعد ـ وكان كثير الزهد والورع، متحرّياً في المطعم، لا يأكل إلاّ الأرز من بلاد الهند، وكان عبيده يسافرون إلى الحبشة والهند ومكّة وعدن للتجارة، فأخلف الله تعالى عليه أموالاً، فكان ينفق على طلبة العلم منها، وكان ظاهر التقوى مؤالفاً للمسلمين من كلّ أفق.

وله تصنيف في أصول الفقه سمّاه الإرشاد، وكان له ولد عالم بعلم الكلام والأصول مع تنوير في الفقه يسمّى عبدالله، تفقّه بأبيه، ومات قبله في سنة ثلاث وعشرين وخمس مائة، ودفن في الجزيرة المذكورة، ودفن والده لمّا توفي إلى جنبه، وقبرهما هنالك بجنب المسجد يزاران، يزورهم الصالحون وغيرهم، ويتبرّك بترابهما.

قال ابن سمرة: وله ذرّية فقراء في هذه الجزيرة إلى اليوم، وهم ذوو مروءة ودين، وذكر أنه حجّ من عدن في البحر مع الشيخ الكبير الولي الشهير: مدافع بن سعيد التميمي، ومرّوا بالجزيرة المذكورة في سنة أربع وسبعين وخمس مائة، فكّنا نقصد القبرَيْن، ونزورهما واردين وصادرين، ونتبرّك بالمسجد والقبرين وآثار الفقيهين وآثار التدريس. وفي المسجد خَتْمة موقوفة، ذكر بعض ذرّية الشيخ محمد أنّه بخط جدّه محمد المذكور، هذا بعض كلام ابن سمرة في ذلك.

قلت: وقد زرت المسجد والقبرين، فأدركت بعض ذرّية الوليين المذكورين، وأضافوني خبزاً وتمراً وملحاً، وسمكاً يقال له الشيراز، وكان الشيخ في ذلك الزمان لمكان الشيخ أحمد الأسوم، من أهل الصلاح وممّن أشار إليه بالسرّ والصلاح، وكان الشيخ ابن عبدويه المذكور معظّماً عند الناس غزير العلم كريم النفس، ارتحل إليه خلائق من فقهاء اليمن من بلدان شتّى لعلمه وجوده وإتقانه وفهمه، وأخذوا عنه العلم، وكتب للشيخ أبي إسحاق (المهذّب) وغيره، والتاريخ قرأه بعضهم عليه في سنة تسع عشرة وخمس مائة، وكان قد ابتلي بذهاب البصر، فقال عند ذلك مخاطباً لنفسه ـ رحمة الله عليه ـ:

وقالوا قدْدَها عينيك سوء ... فلو عالجته بالقدح زالا
فقلت الربّ مختبري بهذا ... فإن أصبر أنل منه الجلالا
وإن أجزع حرمت الأجر منه ... وكان حصيصتي منه الوبالا
وإني صابر راضٍ شكور ... ولست مغيّراً ما قد أنا لا

صنيــع مليكنــا حســن جميــل وليــس لصنعــه شــيء مثــالا
وربــي غيــر متّصــف بحيــف تعــالــى ربّنــا عــن ذا تعــالــى

ولما توفي ولده المتقدّم ذكره رثاه بعض فقهاء اليمن بقصيدة، قال في بعضها:

أمــن بعــد عبدالله نجــل محمّــد يصون دموع العين من كان مسلما
وقد غاض بحر العلم مذ غاب شخصه ولكنّ بحر الوجد من بعده طمى

وفي السنة المذكورة توفي أبو العلاء ـ ابن عبد الملك الإيادي الإشبيلي طبيب الأندلس صاحب التصانيف، حدّث عن أبي الغساني وجماعة، وله شعر رائق ورئاسة كبيرة.

وفيها توفي الملّقب بعين القضاة أبو المعالي عبدالله بن محمد الهمداني الفقيه العلّامة الأديب، وأحد من يضرب به المثل في الذكاء البارع النجيب، دخل في مذهب التصّوف، وأخذ في الكلام والإشارات الدقيقة وما لا يفهمه الخلق من أسرار الحقيقة ممّا نسب فيه إلى الكفران فقتل به مصلوباً بهمذان.

وفيها توفّي السلطان مغيث الدين محمود ابن السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي، وكان قد خطب له ببغداد وغيرها، وله معرفة بالنحو والشعر والتاريخ، وكان شديد الميل إلى أهل العلم والخير ـ وتوفي بهمذان.

وفيها توفّي مسند العراق هبة الله بن حصين(١) الشيباني البغدادي.

وفيها توفي(٢) محمد بن عبد الملك بن زُهير الإيادي الأندلسي الإشبيلي، من أهل بيت كلّهم وزراء وعلماء ورؤساء وحكماء. قال الحافظ أبو الخطّاب ابن دِحية في كتابه المسمّى المطرب من أشعار أهل المغرب، وكان شيخنا أبو بكر ـ يعني ابن زُهير المذكور بمكان من اللغة مكين، ومورد من الطب معين، كان يحفظ شعر ذي الرمّة وهو ثلث لغة العرب، مع الإشراف على جميع أقوال أهل الطبّ والمنزلة العليا عند أصحاب المغرب، مع سموّ النسب وكثرة الأموال والنشب، صحبته زماناً طويلاً، واستفدت منه أدباً جليلاً، ومن شعر ابن زُهير المذكور وقد شاخ وغلب عليه الشيب:

إنّــي نظــرت إلــى المــرآة إذ جليــت فــأنكــرت مقلتــاي كــلّ مــا رأتــا
رأيــت فيهــا شُــوَيخــاً لســت أعــرفــه وكنــت أعهــده مــن قبــل ذاك فتــى
فقلــت: أيــن الــذي بــالأمــس كــان هنــا متــى تــرحّــل عــن هــذا المكــان متــى؟

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٣٣٤: هبة الله بن محمد بن عبد الواحد بن الحصين الشيباني.
(٢) في الوافي بالوفيات ٦/ ٤/ ٤٠: توفي سنة خمس وتسعين وخمس مائة. . . . ومولده سنة سبع وخمس مائة.

فاستضحكت ثم قالت وهي معجبة إن الذي أنكرته مقلتاك أتى
كانت سليمى تنادي يا أخي وقد صارت سليمى تنادي اليوم يا أبتا

قلت وقد عارضت هذه الأبيات لما أنشدها بعض المغاربة بقصيدة تنيف على ثمانين بيتاً سمّيتها: (الرياض في الوعظ والاتعاظ وفي بيان حدود الأسنان والعراض) وهي هذه:

وناعم فاقدٍ إلفاً يذكّرنا نجداً واحداً وسلعاً والصفا ومِنَى
ومن بها حلّ والعيش الذي انصرمت والليالي التي فيها بلوغ مُنى
وسادة كانت الأيام زاهرة بالنور واليمن فيهم زيّنوا اليمنا
ما بين حلى سقيٍ من غيث رحمته - ربّي - ثرى من بها ثاوٍ ومن عَدنا
إن قلت في فضل سادات لنا سلفوا فقول حسان في الأسلاف قد حسنا
لكنّني في مديحي قد عممت به شيوخ الإسلام لم أخصص أحبّتنا
من كان في شرق أرض أو بمغربها والشام واليمن الحاوي لمحتدِنا
ومدح شيب أتت في الشرع مدحته معارضاً من له بالذمّ أفهمنا
يا من رأى منقبات الشيب منقصه لم تدرِ كم قيل في علياه حدّثنا
وكم روى من إمام نور ذاك عدا وما به من وقارٍ قد رووه لنا
كذلك الحقّ يستحيي تبارك من ذي شيبة كلّها تروي أئمتنا
صغّرته إذْ شويخاً قلت مع خطأ التصغير أيضاً خطا واوُبه قرنا
كبرّه واقصد به تعظيم حرمة من بالدين دانوا وزانوا بالحلي الزمنا
قل غيرنا وبه للنفس مدحتها فالله يعلم منك السرّ والعلنا
لما نظرت إلى المرآة قد جليت شاهدت في تلك شيخاً قد علاه سنا
فقلت من ذا وعهدي قبل ذاك فتى بالزهور يرفل في ثوب الشباب هنا
فقال منها لسان الحال ذاك مضى في ليل جهل قّبيل الصبح حين دنا
وذا بدا حين فجر العقل ضاء به نور الوقار مع الأحلام قد سكنا
وبين ذين بدت أعلام نور بها كهولة زانها وشيٌ وحسن ثنا
وهكذا العمر دولات كفاكهة زهو وأرطابها قد أورثت شحنا
وبعد أرطابها تمر فضيلته مشهورة فيه قوت للفقير غنى
ففي الثلاثين للشبّان منزلة فيها ثناها انتهى ما بعد ذاك بنا
في تلك عيش نفوس أخضر وبها نعيم دنيا عني قد شابه وضنا
تكدير صفو ومن بعد الحياة فنا فالحزن يتلو سروراً والبكاء عنا
منازل الشيخ من خمسين قبل بدت من أربعين وفيها الانتهاء فنا

وبعد ذاك رحيل نحو دار بقا … فيها نعيم وسعد وشقا وعنا
حسب اكتساب لطاعات ومعصية … إليهما السابق المقدور قادَ لنا
فضلاً وعدلاً، ومن شاء الكريم حبا … عفواً وخير الذي عصيانه ودنا
منازل الكهل بين المنزلين ثوتْ … للصاليحن بها عيش القلوب هنا
إلى نهايات غايات الحياة بها … رياض فضل لأرباب القلوب منا
وللجَنان جِنان الوصل مثمرة … فكم فواكه فيها للنفوس من حنا[1]
على مدى الدهر قد زادت زكاوتها … لذاذة عند ذي ذوق وطيب جنا
من فاكهات فعال الصالحات جنوا … وذو البطالات يجني الشوكَ مُشبهنا
يا مشبهي يافعي في بطالته … وضيعة العمر قولوا يا مصيبتنا
يا حسرتا بالنحاس الدونِ جوهرة … النفيس بعنا، وما الدنيا له ثمنا
بل كلّ فرد من أنفاس الحياة سما … فضلاً على عيش دنيا معقباً فِتنا
يا غبن من باع داراً بالفلوس إذا … ما مفلس الدين جا بالدين مرتهنا
قد ضيّع العمر لا علم ولا عمل … مسوده أبيض والعظم القوي وهنا
هل بعدما ابيضّ زرع في مزارعه … إلاّ حصاد وهل في وقت ذاك ونا
حصد القضا بغتة تأتيه أمنية … خفِ النوازل فالمغرور من أمِنا
فكم صغير زروع حصد ذاك أتى … فانهض بعزم وحزم علّ ذاك دنا
شمّر وعمّر بحصن القلب حارسه … ومن العدوّ الذي أمسى له وطنا
أين الجهاد وإكثار السهاد إذا … لذّ الرقاد نفى عن طرفه الوَسَنا
وأين تأديب نفس في رياضتها … بالجوع والصمت والسمت الذي حسنا
وبئس مثلي بثوب العجز مشتملاً … نحو التكاسل قد مُهِرَ الجيادُ ثنا
يلقى علائقه أمست عوائقه … عن كسب خير وفي القلب الوَنَا وطنا[2]
سقم الذنوب وداء من عيوب هوى … قد صيرّا كلّ من قد ثبّط زمنا
يا بارد القلب يا خالي الفؤاد ومن … ما هزّه ذكر من في حاجز سكنا
ولا نسيم صبا نجد الغرام ولا … نشر الحزام ولا من في النقا عطنا
ولا خيام لسلمى دون ذي سَلَم … ولا العقيق وَمن مِن رامتين دنا
ولا صفا عند جيران الصفا وهوى … من في خيام زهت من دون خيف منا
من يشرب الحبّ لم ماء ـ العُذَيْبَ ـ يذق … ومن زكا بالهوى ما شمّ طيب منا
ولا بكى عندما ناح الحمام ولا … يرتاح إن لاح من برق الحجاز سنا

---

(١) الجنان: بفتح الجيم: القلب، وبكسر الجيم: الجنات.
(٢) الونى: الضعف أو الفتور والإعياء.

ولا لنعما ونعمان هواه ولا   يشتاق في المنزل الأصلي الرضا وطنا
ولا دنا من خيام في حمى وهوى   نور الجمال الذي كم عاشق فتنا
مثلي بعيد وكلّ قد ألمّ به   النذير لاه ومن سطواته أمنا
نذير هادم لذات الشبيب فتى   مفرّق لجماعات الصحاب دنا
ومسكت ذا فصاحات به شمتَ الأ   عدا وَسرّوا وأحباب بكوا حزنا
وقدّموا لرحيل حان مركبه   مطيّة الراحلين النعش والكفنا
وشيّعوه إلى أن جاء منزله   تحت الجنادل في بيت البلاد فنا(١)
في ضيّق للحد ترعى الدود آكلة   خدّين يا طالما بالحسن قد فتنا
ومقلة حلّ فيها الحسن سائلة   وطيب الريح أضحى جيفه نتنا
وبعد ذاك نشور والرحيل إلى   دار الجزا فعذاب أو لقاء منا
ما لا يبالٍ ولا عين رأته ولا   لوصفه جاء ذكر طارق أذنا
هذا مقالي تناهى في العراض وفي   اعتذاري عن اللّوم الملّم بنا
ما أحسن الحقّ والإنصاف حيث هما   حلاّ ولو في مساكين هما سكنا
فافهم هديت سوى نهج الرشاد وكن   محققاً ومحقّاً من ملا فطنا
حسن البلاغة مع حسن استعارتها   ضاعا مع العيّ أو من يكتم الحسنا
من ليس يمدح سلمى عندما جليت   يحكي لمن في الثرى البدر البهي دفنا
يا سامعاً لفظ نظمي لا تظنّ به   مدحي لنفسي قبيح إن أقول: أنا
لا تحسبن فيه تخصيصاً لمدحتها   والله ما طرف قلبي نحو ذاك رنا
لكنّي عارضت في مدح الشيوخ به   من ذمّهم في مديح والسباب عنى
من لفظه ذاك مفهوم ومعذرتي   في ذكر نفسي جلّي عند مَن فطِنا
ما لي طريق ومرآة بها نظري   شخصي سوى ما أرى غيري بها كمنا
إلاّ الذي قلت في رَوْم العراض به   مثل الذي قال: لا سوء يظنّ بنا
والله ما أرتضي فيها مطالعتي   كيلا أرى شين وجه للذنوب جنا
هاك المقال الذي جاء العراض لمن   قال له ينهى القافيات بنا
نظرت يوماً إلى المرآة إذ جليت   فانكرت مقلتاي عندما رأتا
رأيت فيها شُويخاً لست أعرفه   وكنت أعرف فيها قبل ذاك فتى
فقلت اين الذي بالأمس كان هنا   متى ترحّل عن هذا المحلّ ـ متى؟
فاستضحكت ثم قالت وهي ما نطقت   قد كان ذاك وهذا بعد ذاك أتى
هذا بذاك وكلّ لا دوام له   أما ترى العود يذوي بعدما نبتا؟

(١) الجنادل: الصخر العظيم.

بـالـواو يـروي شـويخـاً عـن مقـالتـه صـواب ذاك شُييخـاً حيـن شـاب عتـا
بـالله أنصـف مـن المـدّاح ذيـن هـدى منّـا ومـن مـادح الـدنيـا بمـا نعتـا
هـا قـد ثنـتْ عـن ثمـانيـن العنـانَ ومـا فـي مهـرهـا مـن كـلال نحـو ذاك أتـى
علـى الثمـانيـن قـد نـافـت ثمـانيـة تـزهـو ريـاض عـراض فـي أوان شتـا
ختـامهـا حمـد ربّـي والصـلاة علـى ختـام رسـل بـه الـداران كلّمتـا
والآل والصحب سامي المجد ما نغمت حمـامتـا أيكـةٍ خضـرا وغـرّدتـا

سنة ست وعشرين وخمس مائة

فيها كانت الوقعة بناحية الدِينَوَر بين السلطان سنجر وبين ابنَيْ أخيه: سُلجوق ومسعود. قال ابن الجوزي: كان مع سنجر مائة وستون[١] ألفاً، ومع مسعود ثلاثون ألفاً، وبلغت القتلى أربعين ألفاً فقتلوا قتلة جاهلية على الملك لا على الدين، وقتل أتابك السلجوقي، وجاء مسعود لمّا رأى الغلبة إلى بين يدي سنجر، فعفا عنه، وأعاده إلى مكانه، وقرّر سلطنة بغداد لطُغرُل بك ـ بالطاء المهملة والغين المعجمة والراء الموحدة قبل الكاف ـ وردّ هو إلى خراسان.

وفيها التقى المسترشد بالله بزنكي[٢] ـ بالزاي والنون قبل الكاف ـ وَدبُيس، وشهر المسترشد يومئذ السيف، وحمل بنفسه ـ وكان في الفتن فانهزم دبيس وقتل من عسكرهما خلق.

وفيها توفّي الملك الأكمل [٣] أحمد بن الأفضل أمير الجيوش شاهنشاه ابن أمير الجيوش بدر الجمالي المصري، سجن بعد قتل أبيه مدّة إلى أن قتل الأمير، وأقيم الحافظ، وأخرج الأكمل، وولي وزارة السيف والقلم، وكان شهماً عالي الهمّة كأبيه وجدّه، فحجر على الحافظ، ومنعه من الظهور، وأخذ أكثر ما في القصر، وأهمل ناموس الخلافة العُبيدية لأنه سنّياً كأبيه، لكنّه أظهر التمسّك بالإمام المنتظر، وأبطل من الأذان: (حيّ على خير العمل)، وغيّر قواعد القوم، فأبغضه الدعاة والقوّاد، وعملوا عليه، فركب للعب الكرة في المحرّم، فوثبوا عليه، وطعنه مملوك الحافظ بحربة، وأخرجوا الحافظ، ونزل إلى دار الأكمل واستولى على خزائنه.

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٣٣٦: مائة ألف فارس.
(٢) انظر مسير عماد الدين زنكي إلى بغداد في الكامل لابن الأثير ٨/ ٢٣٧.
(٣) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٣٣٤: الأفضل أبو علي بن الأفضل بن بدر الجمالي.

وفيها توفي أبو المعزّ محمد[١] بن عبيدالله السلمي العكبري، وهو آخر من روى عن القاضي أبي الحسن الماوردي. وروى عنه الجوهري والقاضي أبو طيب الطبري وغيرهم.

وفيها توفي بُوري ـ بضم الموحدة وكسر الراء بين الواو والياء ـ الملّقب بتاج الملوك، صاحب دمشق ابن صاحبها طُغتُكين مملوك تاج الدولة السلجوقي فنفر عليه الباطنيّة، فخرج وتعلّل أشهراً ومات[٢]، وولي بعده ابنه شمس الملوك اسماعيل، وكان شجاعاً مجاهداً جواداً كريماً.

وفيها توفّي الإمام العلامة أبو محمد عبدالله بن أبي جعفر المالكي، انتهت إليه رئاسة المالكيّة. روى عن ابن البرّ وغيره من الكبار، وسمع بمكّة صحيح مسلم من أبي عبدالله الطبري.

وفيها توفّي القاضي أبو الحسن ابن الفرّاء[٣] البغدادي الحنبلي، وكان متفنّناً مناظراً عارفاً بالمذهب ودقائقه، أكثر الحطّ على الأشعريّة، قتل ليلة عاشوراء، وأخذ ماله، ثم قتل قاتله.

سنة سبع وعشرين وخمس مائة

فيها قدمت التركمان، فأغاروا على أعمال طَرَابُلس[٤]، فالتقاهم فرنج طرابلس، فهزمهم التركمان.

وفيها سار المسترشد بالله في اثني عشر ألفاً[٥] إلى المَوْصِل، فحاصرها ثمانين يوماً وزنكي بها، ثم ترحّل خوفاً على بغداد من دُبَيْس والسلطان مسعود.

وفيها توفّي مسند العراق أبو غالب بن البنّاء البغدادي الحنبلي.

وفيها توفّي أبو العبّاس أحمد بن سلامة الكرخي. برع في المذهب وغوامضه على الشيخين أبي إسحاق وابن الصبّاغ، حتّى صار يضرب به المثل في الخلاف والمناظرة، ثم علّم أولاد الخليفة.

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٣٣٨: أحمد بن عبيد الله بن كادش أبو العز العكبري.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير٨/ ٣٣٧.

(٣) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٣٣٨: محمد بن محمد بن الحسين أبو الحسن بن أبي يعلى ابن الفراء الحنبلي.

(٤) انظر الكامل لابن الأثير ٨/ ٣٤١.

(٥) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٣٤٠: ثلاثين ألف مقاتل.

وفيها توفّي العلاّمة أبو الفتح الميهني[١]، و(أبو سعيد) صاحب التعليقة، تفقّه بمرو وغَزْنة، وشاع فضله، وبعد صيته، وولي نظاميّة بغداد مرّتين، وخرج له عدّة تلامذة. وكان يتوّقد ذكاء، تفقّه على أبي المظفّر بن السمعاني وموفق الهروي، وكان يرجع إلى خوف ودين.

وفيها توفّي ابن الزاغوني أبو الحسن[٢] بن عبيدالله البغدادي شيخ الحنابلة. روى الحديث وقرأ القراءات، وبرع في المذاهب والأصول والوعظ، وصنّف التصانيف واشتهر.

وفيها توفي رئيس نيسابور وصدرها وقاضيها وعالمها أبو سعيد محمد بن أحمد الصاعدي، و(أبو حازم بن الفرّاء) الفقيه الحنبلي محمد[٣] ابن القاضي أبي يعلى، برع في المذهب والأصول والخلاف، وبرع أهل زمانه بالزهد والديانة، صنّف كتاب (التبصرة في الخلاف) وَ (رؤوس المسائل) وشرح مختصر الجرمي ، وغير ذلك.

سنة ثمان وعشرين وخمس مائة

وفيها قدم رسول السلطان سنجر، فأكرم، وأرسل إليه المسترشد بالله خلعة عظيمة، قوّمت بمائة وعشرين ألف دينار. ثمّ عرض المسترشد جيشه، فبلغ خمسة عشر ألفاً في عدد وزينة لم يرّ مثلها، وجدّد المسترشد قواعد الخلافة، ونشر رسمها، وهابته الملوك.

وفيها توفّي الشيخ الكبير أبو الوقت أحمد بن علي الشيرازي صاحب الرباط والأصحاب والمريدين ببغداد، وكان يحضر السماع.

وفيها توفّي شيخ الشافعية أبو علي الفارقي الحسن بن ابراهيم، تفقّه على محمد بن بيان الكازروني، ثمّ ارتحل إلى الشيخ أبي إسحاق، وحفظ عليه (المهذّب)، وتفقّه على ابن الصبّاغ، وحفظ عليه (الشامل)، وكان ورعاً زاهداً صاحب حقّ مجوّداً لحفظ الكتابين المذكورين، وقد سمع من أبي جعفر بن سلمة وجماعة، وولي قضاء واسط مدّة وعليه تفقّه القاضي أبو سعيد بن أبي عصرون.

وفيها وقيل في التي تليها توفّي ابن أبي الصلت أميّة بن عبد العزيز الداني الأندلسي، كان ماهراً في علوم الأوائل من الطبيعي والرياضي والإلهي، كثير التصانيف بديع النظم،

---

(١) في معجم البلدان: ميهنة من قرى خابران، وهي ناحية بين أبيورد وسرخس، نسب إليها جماعة من أهل العلم والتصوف منهم أبو الفتح طاهر.

(٢) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٣٤١: أبو الحسين علي بن عبدالله.

(٣) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٣٤٢: محمد بن محمد بن الحسين بن محمد بن أحمد بن خلف بن حازم ابن أبي يعلي بن الفراء.

رأساً في معرفة علم الهيئة[١] والنجوم والموسيقى انتقل في البلاد ومات غريباً.

ومن تصانيفه كتابه الذي سماه (الحديقة)، على أسلوب يتيمة الدهر للثعالبي، و(رسالة العمل بالاصطرلاب)، وكتاب (الوجيز) في الهندسة، وكتاب (الأدوية المفردة)، وكتاب في المنطق سمّاه (تقويم الدهر)، وكتاب سمّاه (الانتصار) في الردّ على ابن رضوان في ردّة على حنين بن إسحاق في مسائلة.

لما صنّف الوجيز للأفضل الملّقب بشاهنشاه عرضه على شيخه أبي عبدالله الحلبي فلمّا وقف عليه قال: هذا الكتاب لا ينفع المبتدىء، ويستغنى عنه للمنتهي، وكان فاضلاً في علوم الأدب عارفاً بفنّ الحكمة، يقال له الأديب الحكيم، وانتقل إلى ثغر الاسكندرية، ومن جملة ما ينسب إليه من النظم:

إذا كان أصلي من تراب فكلّها ... بلادي وكلّ العالمين أقاربي
ولا بدّ لي أن أسأل العيس حاجة ... تشقّ على شمّ الذرى، والغوارب

ومما نسب إليه أيضاً العماد الكاتب في الخريدة.

وقائلة ما بال مثلك خاملاً ... أأنت ضعيف الرأي أم أنت عاجز؟
فقلت لها ذنبي إلى القوم أنّني ... لما لم يجوزوه من المجد حائز
وما فاتني شيء سوى الحظّ وحده ... وأمّا المعالي فهي عندي غرائز

وله أيضاً:

سكنتك يا دار الفناء مصدّقاً ... بأنّي إلى دار البقاء أصير
وأعظم ما في الأمر أنّي صائر ... إلى عادل في الأمر ليس يجور
فياليت شعري كيف ألقاه عندها ... وزادي قليل والذنوب كثير؟
فإنْ أكُ مجزياً بذنبي فإنّني ... بسوء عقاب المذنبين جدير
وإن يك عفو منك ربّي ورحمة ... فثمّ نعيم دائم وسرور

كانت وفاته بالمهديّة من بلاد المغرب، ونزل من صاحبها علي بن يحيى بن تميم بن المعزّ منزلة جليلة بعد أن كان قد نفاه الأفضل من مصر. انتهى مختصراً.

سنة تسع وعشرين وخمس مائة

وفيها حشر السلطان محمود، وجميع الجيوش، ونفذ خمسة آلاف فكبسوا مقدّمة المسترشد، وأخذوا خيلهم وأمتعتهم، فردّ إلى بغدا بأسوأ حال، ثم سار الخليفة إليه في

---

(١) علم الهيئة: علم الفلك.

سبعة آلاف، وكان مسعود بهمذان في بضع عشرة ألفاً، فالتقوا في رمضان، فانكسر عسكر الخليفة، وأحيط به وبخواصه، وأخذت خزائنه، وكان معه على البغال أربعة آلاف ألف دينار، ولم يقتل سوى خمسة أنفس، وحصل المسترشد في أسر مسعود، وأقام أهل بغداد يوم العيد عليه سنة المآتم، وهاشوا على شِحنة[١] مسعود، فاقتتل الأجناد والعوام، وقتل جمع كثير، وأشرفت بغداد على النهب. ثمّ أمر الشِحنة فنودي أنّ سلطانكم آتٍ بين يدي الخليفة، وعلى كتفه[٢] الغاشية، فسكنوا.

وأما مسعود فسار، ومعه الخليفة معتقلاً إلى مَرَاغة ـ وبها داود بن محمود ـ فأرسل سنجر يهدّد مسعوداً ويخوفّه، ويأمره أن يتلافى الأمر بأن يعيد المسترشد إلى دسته، ويمشي في ركابه، فسارع إلى ذلك، واتفّق أنّ مسعوداً ركب في جيشه، فهجم على سرادق المسترشد سبعة عشر[٣] من الباطنية، فقتلوه بظاهر مراغة، وجلس السلطان للعزاء، فوقع البكاء والنوح، وجاء الخبر إلى ولده الراشد، فبايعوه ببغداد طول الليل، وأقام عليه البغداديون مأتماً ما سمع بمثله قطّ.

وكانت خلافة المسترشد بالله الفضل بن المستظهر بالله أحمد بن المقتدي بالله عبد الله ابن محمد القائم الهاشمي العباسي سبع عشرة سنة ونصفاً. واستخلف بعده ابنه، وسنّه إذ ذاك سبع وعشرون سنة، وقيل إنّ الباطنية جهّزهم عليه مسعود، قيل: ولم يل الخلافة بعد المعتضد بالله أشهم منه، كان بطلاً شجاعاً مقداماً شديد الهيبة، ذا رأي ويقظة وهمّة عالية. وقد روى عن أبي القاسم بن بيان الرزّاز ـ بالزاي المكررة قبل الألف وبعدها.

وفيها توفي شمس الملوك اسماعيل بن تاج الملوك بوري بن طُغتكين ـ ولي دمشق بعد أبيه، وأخذ من الفرنج عدّة حصون، وكان وافر الحرمة موصوفاً بالشجاعة، لكّنه كان ظالماً مصادراً جباراً مفسداً، فرتبت أمّه (زُمرّد خاتون) من وثب عليه، فقتله في قلعة دمشق وكانت دولته ثلاث سنين وتولّى بعده في الملك أخوه محمود.

وفيها قتل حسن ابن الحافظ لدين الله العبيدي المصري الذي ولي وزارة[٤] أبيه ثلاثة أعوام، فظلم وغشم، وفتك حتّى إنّه قتل في ليلة أربعين أميراً، فخافه أبوه، وجهّز لحربه جماعة، فالتقاهم، واختبطت مصر، ثم دسّ عليه أبوه من سقاه السمّ، فهلك.

---

(١) في النجوم الزاهرة ٥/ ٧٣: الشحنة هو من كان فيه الكفاية لضبط البلد من جهة السلطان.

(٢) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٣٤٨: وحمل الغاشية بين يديه.

(٣) وفيه أيضاً: فقصده أربعة وعشرون رجلاً من الباطنية.

(٤) وردت في الأصل: «وولي الحافظ لدين الله العبيدي المصري عبد» ـ وقد صوّبتها اعتماداً على ما ذكره ابن الأثير في الكامل في التاريخ ٨/ ٣٤٦.

وفيها توفّي دبيس بن صدقة ملك العرب أبو الأعز، ولد الأمير سيف الدولة الأسدي، كان فارساً شجاعاً مقداماً ممدّحاً، خرج على المسترشد بالله، ودخل خراسان والشام والجزيرة، واستولى على كثير من العراق، قتله السلطان مسعود، وأظهر أنه قتله آخذاً بثأر المسترشد، وهو من بيت كبير، وإياه أراد الحريري في المقامة التاسعة والثلاثين بقوله: والأسديّ دبيس، لأنّه كان معاصره، فرام التقرّب إليه بذكره في مقاماته، على ما ذكره ابن خلّكان. وله نظم حسن منه قوله:

ألا قُل لبدران الذي حنّ نازعاً ... إلى أرضه والحرّ ليس يخيب
تمتّع بأيّام السرور فإنّما ... عذار الأماني بالهموم تشيب
ولله في تلك الحوادث حكمة ... وللأرض من كأس الكرام نصيب

وفيها توفّي الحافظ الأديب الشيخ عبد الغافر بن اسماعيل بن عبد الغافر الفارسي، صاحب (تاريخ نيسابور)، ومصنّف (مجمع الغرائب) و(المفهم في شرح مختصر صحيح مسلم). كان إماماً في الحديث واللغة والأدب والبلاغة. حدّث عن جدّه لأمّه الشيخ الإمام أبي القاسم القشيري وطبقته، أجازه أبو محمد الجوهري وآخرون.

وفيها توفي قاضي الجماعة محمد بن أحمد التُجيبِي القرطبي المالكي. روى عن أبي علي الغساني وطائفة، وكان من جلّة العلماء وكبارهم، مع الدين والخشوع. قتل مظلوماً بجامع قرطبة في صلاة الجمعة ـ رحمه الله تعالى ـ.

سنة ثلاثين وخمس مائة

فيها جاء أمير من جهة السلطان المسعود يطلب من الراشد بالله سبعمائة[1] ألف دينار، فاستشار الأعيان، فأشاروا عليه بالتأجيل، فردّ على مسعود بقوّة نفس، وأخذ يتهيأ، فانزعج أهل بغداد، وعلّقوا السلاح، ثم إنّ الراشد قبض على إقبال[2] الخادم، وأخذت حواصله، فتألّم العسكر لذلك، وشغبوا، ووقع النهب، ثم جاء زنكي، وسأل في إقبال سؤالاً تحته إلزام، فأطلق له. ثم خرج بالعساكر، فجاء عسكر مسعود، فنازلوا بغداد، وقاتلهم الناس، وخامر جماعة أمراء إلى الراشد، ثم بعد أيام وصل مسعود يطلب من الراشد الصلح، فقرئت مكاتبته على الأمراء، فأبوا إلاّ القتال، فأقبل مسعود في خمسة آلاف راكب، ودام الحصار، واضطرب عسكر الخليفة، وجرت أمور يطول ذكرها، ثم كاتب مسعود زنكي، وواعده ومنّاه، فكتب إلى الأمراء إنكم إن قتلتم زنكي أعطيتكم بلاده، فعلم زنكي بذاك، فرحل هو

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٣٥٢: أربعمائة ألف دينار.
(٢) وفيه أيضاً: جمال الدولة إقبال المسترشدي.

والراشد عن بغداد، فدخلها مسعود فأظهر العدل، واجتمع إليه الأعيان والعلماء، وحطّوا على الراشد، وطعنوا فيه. وقيل خوفّهم وأرهبهم إن لم يخلعوا الراشد، فكتبوا محضراً ذكروا فيه ما يقتضي خلعه، وأحضروا محمد بن المستظهر، فبايعوه، ولقّبوه المقتفي لأمر الله. ثم أخذ مسعود جميع ما في دار الخلافة حتى لم يدع فيها سوى أربعة أفراس.

وفي السنة المذكورة توفي الحافظ أبو نصر ابراهيم بن الفضل الأصفهاني.

وفيها توفي شيخ دمشق ومحدّثها النحوي الزاهد علي بن أحمد الغسّاني. روى عن أبي بكر الخطيب وكثيرين. قال السلفي: لم يكن في وقته مثله في دمشق كان إماماً زاهداً عائذاً ثقة، قال الحافظ ابن عساكر: كان متحرّزاً متيقظاً منقطعاً في بيته.

وفيها توفي أبو سهل محمد بن ابراهيم الأصبهاني المزكي راوي مسند الروياني عن أبي الفضل الرازي.

وفيها توفّي الشيخ الكبير أستاذ الصوفية بخراسان العارف القدوة الشهير أبو عبدالله محمد بن حمويه الُجَوْيِني. روى عن موسى بن عمران الانصاري وجماعة، وصنّف في التصوّف، وكان بعيد الصيت ومسند أصفهان في زمانه.

وفيها توفي أبو بكر محمد بن علي الصالحاني.

وراويه أبو عبدالله محمد بن الفضل الصاعدي النيسابوري فقيه الحرم الفارسي. روى عن الكبار، وتفرّد بكتب كبار، وصار مسند خراسان، وكان شافعياً مفتياً مناظراً محدّثاً واعظاً، صحب إمام الحرمين أبا المعالي الجُوَيني، وعلّق عنه الأصول، ونشأ بين الصوفية، وعاش تسعين سنة، وهو المقول فيه: للفُرَاوي ألف راوي.

وكان يحمل الطعام إلى المسافرين الواردين عليه، ويخدمهم بنفسه ـ مع كبر سنه وقدره ـ وخرج حاجّاً إلى مكّة، وعقد له مجلس الوعظ ببغداد وسائر البلاد التي توجّه إليها، وأظهر العلم بالحرمين، وعاد إلى نيسابور، وقعد للتدريس. وسمع صحيح البخاري من سعيد بن أبي سعد، وصحيح مسلم من عبد الغافر الفارسي، وسمع من شيخ أبي إسحاق الشيرازي والحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، والأستاذ أبي القاسم عبد الكريم القشيري وإمام الحرمين، وتفرّد برواية عدّة كتب للحافظ البيهقي، مثل (دلائل النبوة)، و(الأسماء والصفات) و(البعث والنشور)، و(الدعوات الكبيرة والصغيرة).

والفراوي بضمّ الفاء[١] وفتح الراء، وهذه النسبة إلى فُرَاوة بليدة مما يلي خوارزم، بناها عبدالله بن طاهر في خلافة المأمون، وهو يومئذ أمير خراسان، وللفراوي فضائل جمّة

(١) في معجم البلدان: فَراوَة: بفتح الفاء: بليدة من أعمال نسا، بينها وبين دهستان وخوارزم.

ذكرت شيئاً منها في كتابي (الشاش المعلم)، وممن رواها الإمام الحافظ الراوية الماهر المعروف بأبي القاسم ابن عساكر.

سنة إحدى وثلاثين وخمس مائة

فيها دفع زنكي الراشد المخلوع عن الموصل، وتسلّل الناس عنه، وبقي حائراً، فنفذ مسعود ألفي فارس ليأخذوه، ففاتهم وجاء إلى مَرَاغَة، فبكى عند قبر أبيه، وحثا على رأسه التراب، فرقّ له أهل مراغة، وقام معه داود السلطان ولد محمود، فالتقى داود ومسعود، فقتل خلق من جيش مسعود، وصادر مسعود الرعيّة ببغداد، وعسّف. وفيها أخذ زنكي بَعْلَبَكّ.

وفيها توفي اسماعيل بن أبي القاسم النيسابوري، كان صوفياً صالحاً من أصحاب الأستاذ أبي القاسم القشيري.

وفيها أو فيما قبلها توفّي مسند هَرَاة في زمانه تميم بن أبي سعيد الجُرْجَاني.

وفيها توفي الحافظ أبو جعفر الهمداني محمد بن الحسن، سمع بخراسان والعراق والحجاز.

وفيها أبو عبدالله يحيى بن الحسن بن أحمد بن أحمد بن البنّاء البغدادي، وكان ذا علم وصلاح.

سنة اثنتين وثلاثين وخمس مائة

فيها قويت شوكت الراشد بالله وكثرت جموعه، فلم يلبث أن قتل[1].

وفيها توفّي الحافظ أبو نصر الغازي محمد[2] بن عمر الأصبهاني، قال ابن السمعاني: ما رأيت في شيوخي أكثر رحلة منه، كان ثقة حافظاً.

وفيها توفي أبو القاسم أحمد بن محمد بن القرطبي المالكي، أحد الأئمة ـ رحمه الله ـ.

وفيها توفي اسماعيل بن أحمد الفقيه الشافعي النيسابوري. تفقّه على إمام الحرمين، وبرع في الفقه، وروى عن جماعة.

(١) انظر الكامل لابن الأثير ٨/ ٣٦٢.

(٢) في الوافي بالوفيات للصفدي: ٦/ ٤/ ٢٤٧: أبو نصر الأصبهاني محمد بن عمر بن محمد الرئيس كاتب الوزير نظام الملك. قال الباخرزي: ورد علينا نيسابور، وكان وروده كورود الوَرد بعد انحسار بُرد البَرد.

وفيها توفّي أبو المظفّر عبد المنعم ابن الأستاذ أبي القاسم القشيري، آخر إخوته وفاة، حدّث عن البيهقي والكبار.

وفيها توفّي أبو الحسن الخدامي علي بن عبدالله الأندلسي، أحد الأئمة صنّف في التفسير والأصول، وأجاز له الحافظ ابن عبد البرّ وأمّ الخير فاطمة بنت علي بن المظفّر البغدادية المقرئة.

وقيل في السنة التي قبلها وقيل بعدها توفّي شيخ الكرخ وعالمها ومفتيها أبو الحسن محمد بن عبد الملك الفقيه الشافعي. قال ابن السمعاني: إمام ورع فقيه مفت، محدّث أديب، أفنى عمره في طلب العلم ونشره.

وفيها توفي الراشد بالله أبو جعفر بن المسترشد بالله بن المستظهر بالله، خطب بولاية العهد أكثر أيّام والده، وبويع بعده. وكان شاباً أبيض مليحاً، تامّ الشكل شديد البطش، شجاع النفس حسن السيرة، جواداً شاعراً فصيحاً، لم تطل دولته، خلعوه لأمور ملّفقة، وسار إلى أصبهان ومعه السلطان داود بن محمود، ومَرِض هناك، فوثب عليه جماعة من الباطنية وقتلوه.

وفيها توفّي الإمام العلاّمة أبو الحسن يونس بن محمد بن مغيث القرطبي. كان رأساً في الفقه والحديث والأنساب والتواريخ واللغة وعلوّ الإسناد.

وفيها توفّيت أمّ الخير فاطمة بنت علي البغدادي المقرئة المعروفة ببنت الزعبل ـ بالزاي والموحدة بينهما عين مهملة ـ روت صحيح مسلم و(غريب) الخطابي عن الحافظ أبي الحسين الفارسي، وعاشت سبعاً وتسعين سنة.

سنة ثلاث وثلاثين وخمس مائة

قال أبو الفرج بن الجوزي: فيها كانت زلزلة عظيمة بحيرة[1]، أتت على مائة ألف وثلاثين أهلكتهم، قيل: صار مكان الدماء أسود، وقال ابن الأثير: الذين[2] هلكوا امائتا ألف وثلاثون ألفاً.

وفيها توفي الشيخ أبو العباس أحمد بن عبد الملك بن أبي حمزة. روى عن جماعة،

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٨/٣٦٥: وفيها ـ سنة ٥٣٣ هـ ـ في صفر كانت زلازل كثيرة هائلة بالشام والجزيرة وكثير من البلدان، وكان أشدها بالشام، وكانت متوالية عشر ليال، كلّ ليلة عشر دفعات، فخرب كثير من البلاد ولا سيّما حلب. . .

(٢) ذكرها ابن الأثير في الكامل أنها وقعت سنة ٥٣٤ هـ: وفيها زلزلت كنجة وغيرها من أعمال أذربيجان وأران. . . . كان الهلكى مائتي ألف وثلاثين ألفاً. . ٨/٣٦٨.

وتفرّد بالإجازة عن أبي عمرو الداني.

وفيها توفّي جمال الإسلام أبو الحسن علي بن مسلم السلمي الشافعي، مدّرس الغزالية ومفتي الشام في عصره، صنّف في الفقه والتفسير، وتصدّر للاشتغال والرواية.

وفيها توفّي صاحب دمشق محمود(١) بن بوري، ولي بعد قتل أخيه شمس الملوك.

سنة أربع وثلاثين وخمس مائة

فيها حاصر زنكي(٢) دمشق.

وفيها توفي القاضي أبو المفضل(٣) القرشي الدمشقي، من أصحاب الفقية الإمام أبي نصر المقدسي.

وفيها توفي البديع الأَصْطُرلابي هبة الله بن الحسين الشاعر المشهور، أحد الأدباء الفضلاء. كان وحيد زمانه في علم الآلات الفلكية متقناً لهذه الصناعة، وأثنى عليه غير واحد من المؤرخين، وذكروا له عدّة مقاطيع، فمن ذلك قوله:

أهـــدى لمجلســـه الكـــريـــم وإنمّـــا أهـــدى لـــه مـــا حـــزت مـــن نعمـــائـــه
كـــالبحـــر يمطـــره السحـــاب ومـــا لـــه فضـــل عليـــه لأنّـــه مـــن مـــائـــه

وكان كثير الخلاعة يستعمل المجون في شعره، وكان قد جمعه ودوّنه، واختار ديوان ابن حجاج، ورتبه على مائة وواحد وأربعين باباً، وجعل كل باب في فنّ من فنون شعره، وكان قد جمعه ونقّاه وسمّاه: درة التاج من شعر ابن حجّاج. وكان ظريفاً في جميع حركاته، و(الأَصْطُرلابي) نسبة إلى الأصطرلاب بفتح الهمزة وسكون الصاد المهملة وبعضهم يكتبه بالسين وضم الطاء المهملات وقبل الألف راء وبعدها موحدة وهو الآله المعروفة.

قال كوشيار بن كنان بن باسهري الجبلي صاحب كتاب الزيج في الرسالة التي وضعها في العلم الأصطرلابي: هو كلمة يونانية معناها ميزان الشمس، وقيل إنّ لاب اسم الشمس بلسان يونان، فكأنه قال: (أصطر) الشمس إشارة إلى الخطوط التي فيها، وقيل إنّ أوّل من وضعه بطلميوس صاحب المَجِّسْطي، وكان سبب وضعه له أنه كان معه كرة فلكيّة ـ وهو راكب ـ فسقطت منه، فداستها دابّته، فخسفتها، فبقيت على هيئة الاصطرلاب. وكان أرباب علم الرياضيات يعتقدون أنّ هذه الصورة لا ترتسم في جسم كروي على هيئة الأفلاك، فلمّا

(١) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٣٦٤: شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري بن طغدكين صاحب دمشق على فراشه غيلة، قتله ثلاثة من غلمانه.
(٢) عماد الدين زنكي بن آقسنقر البرسقي الأتابك ـ صاحب الموصل. الأعلان الخطيرة ٣/ ٢/ ٦٧١.
(٣) في الكامل لابن الأثير ٨/ ٣٦٩: أبو الفضل يحيى بن قاضي دمشق المعروف بالزكي.

رأه بطلميوس على تلك الصورة علم أنه يرتسم في السطح ويكون نصف دائرة، ويحصل منه ما يحصل من الكرة، فوضع الاصطرلاب، ولم يسبق إليه، وما اهتدى أحد من المتقدّمين إلى أن هذا القدر يتأتّى في الخطّ، ولم يزل الأمر مستمرّاً على استعمال الكرة والاصطرلاب إلى أن استنبط الشيخ شرف الدين الطوسي المذكور في ترجمة الشيخ كمال الدين بن يونس ـ رحمهما الله تعالى ـ، وهو شيخه في هذا العلم ـ أن يضع المقصود من الكرة والاصطرلاب في خطّ، فوضعه وسمّاه العصا، وعمل له رسالة بديعة، وكان قد أخطأ في بعض هذا الوضع، فأصلحه الشيخ كمال الدين، وهذّبه.

والطوسي أوّل من أظهر هذا في الوجود، فصارت الهيئة توجد في الكرة، لأنها تشتمل على الطول والعرض والعمق، ويوجد في السطح الذي هو مركّب من الطول والعرض بغير عمق، ويوجد في الخطّ الذي هو عبارة عن الطول فقط، ولم يبق سوى النقطة، ولا يتصور أن يعمل فيها شيء، لأنّها ليست جسماً ولا سطحاً ولا خطّاً، بل هي في طرف الخطّ. كما أن الخط طرف السطح، والسطح طرف الجسم، والنقطة لا تتجزأ، فلا يتصّور أن يرتسم فيها شيء، وهذا وإن كان خروجاً عمّا نحن بصدده فإنّه لا يخلو عن فائدة، والعلم به خير من الجهل به.

سنة خمس وثلاثين وخمس مائة

فيها ألحّ زنكي على دمشق للحصار، وخرّب وعاث بحَوْران[١]، ثمّ التقاه عسكر دمشق، فقتل جماعة، ثم ترحل إلى الشرق.

وفيها توفّي الحافظ الكبير أبو القاسم اسماعيل بن محمد بن الفضل التيمي الطليحي[٢] الأصبهاني، إمام أئمة وقته وأستاذ علماء عصره. قال ابن السمعاني: هو أستاذي في الحديث، وعنه أخذت هذا القدر، وهو إمام في التفسير والحديث واللغة والأدب، عارف بالمتون والأسانيد. أملى بجامع (أصبهان) قريباً من ثلاثة آلاف مجلس. وقال أبو عامر العبدري: ما رأيت مثله ذاكرته، فرأيته حافظاً للحديث، عارفاً بكلّ علم متفنّناً، وقال غيره: صنّف التفسير في ثلاثين مجلداً كباراً.

وفيها توفّي رزين بن معاوية العبدري الأندلسي، مصنّف تجريد الصحاح.

ومحمد بن عبد الباقي الأنصاري الحنبلي، سمع من علي بن عيسى الباقلاّني، وأبي الطيب الطبريّ وطائفة. وتفقّه على القاضي أبي يعلى، وبرع في الحساب والهندسة، وشارك

(١) في معجم البلدان: حوران: كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة وقصبتها بصرى.

(٢) في الوافي بالوفيات٦/ ٩/ ٢١١: التيمي الطلحي المعروف بالجُوْزي الملقب بقوام السنّة.

في العلوم. قال ابن السمعاني: ما رأيت أجمع للفنون منه، نظر في كلّ علم.

وفيها توفّي الشيخ الكبير العالم العارف، ذو الأسرار والمعارف أبو يعقوب يوسف بن أيوب بن يوسف الهمذاني شيخ الصوفية بمرو وبقية مشايخ الطريق السالكين العاملين، تفقّه على الشيخ أبي إسحاق، فأحكم مذهب الشافعي، وبرع في المناظرة، ثم ترك ذلك وأقبل على شأنه. روى عن الخطيب والكبار، وسمع بأصبهان وبخارى وسَمَرْقَند، ووعظ وخوّف، وانتفع به الخلق، وكان صاحب أحوال وكرامات، وتوفي في ربيع الأول عن أربع وتسعين سنة.

وفيها توفي أبو نصر محمد بن عبيدالله بن خاقان القيسي صاحب كتاب (قلائد العقيان)، له عدّة تصانيف منها الكتاب المذكور، جمع فيه الشعراء المغرب وطائفة كثيرة، وتكلّم على ترجمة كلّ واحد منهم بأحسن عبارة وألطف إشارة. هكذا حكي عنه. وله أيضاً كتاب مطمح الأنفس ومسرح التأنّس في ملح أهل الأندلس، وهو ثلاث نسخ: كبرى ووسطى وصغرى، وهو كثير الفائدة، لكّنه قليل الوجود في هذه البلاد، وكلامه في هذه الكتب يدلّ على فضله وغزارة مادّته، وكان كثير الأسفار سريع التنقلّات.

قال الحافظ أبو الخطّاب بن دِحيَة في كتابه الموسوم بالمطرب من أشعار أهل المغرب: لقيت جماعة من أصحابه حدّثوني عنه تصانيفه وعجائبه، وكان مخلوع العذار في دنياه، ولكّن كلامه في تآليفه كالسحر الحلال والماء الزلال، قيل: ذبح في مسكنه في مَراكُش، أشار بقتله أمير المؤمنين أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين.

وفيها توفّي[1] أبو يعقوب يوسف بن أيوّب بن يوسف الهمداني، الفقيه الفاضل العالم العامل الربّاني، قدم بغداد ولازم الشيخ أبا إسحاق الشيرازي، واشتغل عليه حتّى برع في أصول الفقه والمذهب والخلاف. وسمع الحديث من جماعة ببغداد وأصبهان وسمرقند، ثم زهد في الدنيا، ولزم العبادة والرياضة والمجاهدة حتّى صار من العلماء الذين يهتدي بهم الخلق إلى الله عزّ وجل، وعقد له مجلس الوعظ في المدرسة النظامية في بغداد، وصادف قبولاً عظيماً من الناس.

قال الشيخ الصالح أبو الفضل صافي بن عبدالله الصوفي: حضرت مجلس شيخنا يوسف الهمداني في النظامية ـ وكان قد اجتمع عليه العالم ـ فقام فقيه يعرف بابن السقّا، وسأله، فقال الشيخ العارف ذو المعارف والنور يوسف بن أيوّب المذكور: جلس، فإني أجد من كلامك رائحة الكفر، ولعلّك تموت على غير دين الإسلام. قال أبو الفضل: فاتّفق بعد

(١) تقدّمت ترجمته في وفيات هذه السنة.

هذا القول بمدّة أن قدم رسول نصراني من ملك الروم إلى الخليفة، فمضى إليه ابن السقّا، وسأله أن يستصحبه، وقال له: يقع لي أن أترك دين الإسلام، وأدخل في دينكم؛ فقبله النصراني، وخرج معه إلى القسطنطينية، والتحق بملك الروم، وتنصّر، ومات على النصرانية.

وقال الحافظ أبو عبد الله محمد بن محمود المعروف بابن النجّار البغدادي في تاريخ بغداد في ترجمة يوسف الهمداني المذكور: سمعت أبا الكرم عبد السلام بن أحمد المقرىء يقول: كان ابن السقّا قارئاً للقرآن الكريم، مجوّداً في تلاوته. حدّثني من رآه في القسطنطينية ملقى على دكّة مريضاً، وبيده حلق مروحة يدفع بها الذباب عن وجهه، قال: فسألته: هل القرآن باق على حفظك؟ قال: ما أذكر منه إلاّ آية واحدة ﴿ربمّا يوّد الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾، [الحجر/ ٢] والباقي نسيته. نعوذ بالله من سوء القضاء.

قلت وقد ذكرت في بعض كتبي عمّا نقل في مناقب الشيخ القطب الرباني أستاذ الأكابر أبي محمد محيي الدين عبد القادر الجيلاني قدّس الله تعالى سرّه قضية ابن السقّا المذكور وكفره، أنّه كان سبب إساءته على رجل من الأولياء يقال له الغوث، وأنه خرج رسولاً للخليفة إلى ملك الروم، فافتتن بابنة الملك، فطلب زواجها، فامتنعوا من ذلك إلا بكفره، فكفر.

وقال بعضهم: كان أبو يعقوب المذكور صاحب الأحوال والمواهب الجزيلة والكرامات والمقامات الجليلة، وإليه انتهت تربية المريدين الصادقين، وكان قد برع في الفقه، ففاق أقرانه، خصوصاً في علم النظر. وكان الشيخ أبو إسحاق يقدّمه على جماعة كثيرة من أصحابه ـ مع صغر سنّه ـ لزهده وحسن سريرته واشتغاله بما يعنيه، ثم ترك كلّ ما كان فيه من المناظرة، واشتغل بما هو الأهمّ من عبادة الله تعالى ودعوة الخلق وإرشاد الأصحاب إلى الطريق المستقيم، ونزل مَرْو وسكنها، وخرج إلى هَرَاة وأقام بها مدّة، ثم سئل الرجوع إلى مرو في آخر عمره فأجاب، ورجع إليه، وخرج إلى هراة ثانياً، ثم عزم على الرجوع إلى مرو، وخرج فأدركته منيّته في الطريق، فدفن ثم نقل بعد ذلك إلى مرو، ونقل ذلك ابن النجّار في تاريخه عن السمعاني.

سنة ست وثلاثين وخمس مائة

فيها كانت ملحمة[1] عظيمة بين السلطان سنجر وبين الترك الكفرة فيما وراء النهر، أصيب فيها المسلمون، وأقبل سنجر في نفر يسير، بحيث وصل بَلْخ في ستّة أنفس، وأسرت

(١) انظر الكامل لابن الأثير ٩/ ٣٠٢.

زوجته وبنته، وقتل من جيشه مائة ألف أو أكثر، قيل: كان في القتلى أربعة آلاف امرأة، وكانت الترك في ثلاث مائة ألف فارس.

وفيها توفّي الشيخ الكبير العارف بالله الشهير ذو المواهب واللطائف والعلوم الربانية والمعارف أبو العباس ابن العريف أحمد بن محمد الصّنْهاجي الأندلسي الصوفي. كان له معرفة بالعلوم وعناية بالقراءات وجمع الروايات والطرق، متناهياً في الفضل والدين. وكان المريدون والعبّاد والزهّاد يقصدونه، ولما كثر أتباعه خاف منه السلطان، وتوهّم أن يخرج عليه، فطلبه، فأحضر إلى مراكش، فتوفّي في الطريق قبل أن يصل، وقيل بعد أن وصل، وكان من أهل المزيّة.

وفيها توفي الإمام أحد العلماء الأعلام، الفقيه المحدّث الأصولي، الأديب محمد بن علي التميمي المازَري. شرح صحيح مسلم شرحاً جيّداً سمّاه كتاب المُعْلِم بفوائد كتاب مسلم، وعليه بنى القاضي عياض بن موسى اليحصبي المالكي كتاباً اسمّاه (الإكمال في شرح مسلم). وله في الأدب كتب متعدّدة. وكان فاضلاً متقناً، توفّي في ثامن عشر ربيع الأول من السنة المذكورة، وقيل يوم الاثنين ثاني الشهر المذكور بالمَهْدِية وعمره ثلاث وثمانون سنة.

والمازَري نسبة إلى مازَر وهي بفتح الزاي، وقد تكسر أيضاً، وهي بُليدة بجزيرة صقليّة.

وفي السنة المذكورة توفّي الحافظ أبو القاسم اسماعيل [١] بن أحمد السَمَرْقَنْدي.

وفيها توفي الإمام المفتي الشافعي عبد الجبّار بن محمد، إمام جامع نيسابور، تفقّه على إمام الحرمين، وسمع البيهقي والقشيري والجماعة.

وفيها توفي الشيخ العارف ذو المواهب واللطائف أبو الحكم عبد السلام بن عبد الرحمن المعروف بابن برجان الأندلسي اللخمي الإشبيلي شيخ الصوفية ومؤلّف شرح أسماء الله الحسنى، توفي غريباً بمراكش. قال الأبّار: كان من أهل المعرفة بالقراءات والحديث، والتحقيق، بعلم الكلام، والتصوّف مع الزهد والاجتهاد في العبادة، وقبره بإزاء قبر ابن العريف.

وفيها توفي شيخ الحنابلة بالشام بعد والده ابن الشيخ أبي الفرح عبد الواحد الشيرازي الدمشقي[٢] الفقيه الواعظ.

---

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي٦/ ٩/ ٨٨: ولد بدمشق سنة أربع وخمسين وأربع مائة. روى عنه جماعة منهم السمعاني وابن عساكر.

(٢) في الكامل لابن الأثير ٩/ ٥: أبو القاسم عبد الواحد الحنبلي الدمشقي.

وفيها توفّي هبة الله بن أحمد البغدادي، المقرىء المحقّق إمام جامع دمشق. ختم عليه خلق كثير، وله اعتناء بالحديث.

سنة سبع وثلاثين وخمس مائة

فيها توفي أبو الفتح بن البيضاوي القاضي عبدالله بن محمد بن محمد بن محمد أخو القاضي القضاة أبي القاسم الزينبي لأمّه.

وفيها توفّي صاحب المغرب علي بن يوسف بن تاشفين، كان يرجع إلى عدل ودين وتعبّد وحسن طويّة، وشدّة إيثار لأهل العلم وتعظيم لهم، قيل: وهو الذي أمر بإحراق كتب الإمام حجّة الإسلام أبي حامد الغزالي، والذي وثب عليه ابن تومَرُت الملّقب بالمهدي الذي صحبه عبد المؤمن. توفي في رجب من السنة المذكورة.

وفيها توفي الحافظ عمر بن محمد النسفي السمرقندي الحنفي. يقال له مائة مصنّف.

وفيها توفّي قاضي دمشق وابن قاضيها أبو المعالي القرشي الشافعي. سمع من جماعة، وتفقّه على الإمام أبي نصر المقدسي.

سنة ثمان وثلاثين وخمس مائة

فيها حاصر[١] سنجر مدينة خُوَارِزْم، وكاد أن يأخذها، فذلّ خوارزم شاه، وبذل الطاعة.

وفيها توفي الحافظ مفيد بغداد أبو البركات عبد الوهاب[٢] بن المبارك الأنماطي. كان واسع الرّواية، متقناً دائم البشر، سريع الدمعة، جمع وخرج وحصّل، ولم يتزوج قطّ.

وفيها توفي الوزير أبو القاسم علي بن طراد الزينبيّ العباسي، وزير المسترشد والمقتفي. اشتغل بالعبادة والخير لما تغيّر عليه المقتفي إلى أن مات، وكان يضرب به المثل بحسنه في صباه.

وفيها توفي أبو الفتوح محمد بن الفضل الأسْفَرَائيني، الواعظ المتكلم. له تصانيف في الأصول والتصوّف . قال الحافظ ابن عساكر: أجرى من رأيت لساناً وجَناناً، وأسرعهم جواباً، وأسلمهم خطاباً. لازمت حضور مجلسه، فما رأيت مثله واعظاً ولا مذكراً.

وفيها توفّي العلاّمة النحوي اللغوي المفسّر المعتزلي أبو القاسم محمود بن عمر

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير: ٩/٧.

(٢) في الكامل لابن الأثير: ٩/٧: ومولده سنة اثنتين وستين وأربع مائة.

الزَمَخْشَري[١] الخوارزمي، صاحب الكشّاف والمفصّل. عاش إحدى وسبعين سنة متفنّناً في التفسير والحديث والنحو واللغة وعلم البيان إمام عصره في فنونه.

وله التصانيف البديعة الكثيرة الممدوحة الشهيرة، عدّد بعضهم منها نحو ثلاثين مصنّفاً في التفسير والحديث والرواة وعلم الفرائض والنحو والفقه واللغة والأمثال والأصول والعروض والشعر. ومن ذلك كتاب شافي العيّ من كلام الشافعي وغير ذلك، وكان شروعه في تأليف المفصّل في غرّة شهر رمضان سنة ثلاث عشرة وخمس مائة، وفرغ منه في غرّة المحرّم، أظنّه قال: سنة خمس عشرة وخمس مائة. وكان قد جاور بمكّة زماناً، فصار يقال له: جار الله لذلك، حتّى صار هذا اللّقب علماً عليه.

وكانت إحدى رجليه ساقطة، فكان يمشي في خشب. وسبب سقوطها أنه أصابه في بعض أسفاره برد شديد وثلج كثير، وكان معه محضر فيه شهادة خلق كثير ممّن اطّلعوا على حقيقة ذلك خوفاً من أن يظنّ قطعها لريبة.

وذكر بعض المؤرخين أنه أمسك عصفوراً، وربطه بخيط في رجله، ففلت من يده، فأدركه وقد دخل في جرق، فجذبه فانقطعت رجله في الخيط، فتألّمت والدته لذلك، ودعت عليه بقطع رجله كما قطع رجله. فلمّا وصل إلى سنّ الطلب، رحل إلى بخارى لطلب العلم، فسقط عن الدابّة، فانكسرت رجله، وبلغت إلى حالة اقتضت قطعها ـ والله أعلم أيّ ذلك كان ـ.

ولمّا صنّف كتاب الكشّاف استفتح الخطبة بالحمد لله الذي خلق القرآن، فقيل له: متى تركته على هذه الهيئة هجره الناس، فغيّره بالذي أنزل القرآن. وقيل: هذا إصلاح الناس لا إصلاح المصنّف، ومن شعره يرثي شيخه أبا مضر:

وقائلة ما هذه الدرر التي ... تساقط من عينيك سمطين سمطين
فقلت لها الدرّ الذي كان قد حشى ... أبو مضر أذني تساقط من عيني

وهذا مثل قول القاضي أبي بكر الأرّجاني[٢]، ولا يدري أيهما أخذ من الآخر، لأنهما كانا متعاصرين وهو.

ولم يُبكني إلاّ حديث فراقهم ... لمّا أسرته إلى أدمعي

(١) في معجم البلدان: زمخشر قرية جامعة من نواحي خوارزم، ينسب إليها أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري النحوي الأديب.

(٢) في معجم البلدان: أَرّجان مدينة كبيرة بحرية سهلية جبلية، بينها وبين شيراز ستّون فرسخاً، وبينها وبين الأهواز ستون فرسخاً، منها القاضي أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسين الأرّجاني الشاعر المشهور، كان قاضي تستر، ولد في حدود سنة ٤٦٠ هـ، ومات في سنة ٥٤٤ هـ.

هـو ذلـك الـدرّ الـذي أودعتـه   فـي مسمعـي أجـريتـه مـن مـدمعـي

وممّا أنشده لغيره في كتابه الكشّاف عند تفسير قوله تعالى في سورة البقرة ﴿**إنّ الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها**﴾ [البقرة/٢٦]، فإنّه قال: أنشدت لبعضهم:

يـا مـن يـرى مـدّ البعـوض جنـاحهـا   فـي ظلمـة الليـل البهيـم الأليَـلِ
ويـرى عـروق نيـاطهـا فـي نحـوهـا   والمـخّ فـي تلـك العظـام النحـل
اغفـر لعبـد تـاب مـن فـرطـاتـه   مـا كـان منـه فـي الـزمـان الأوّل

قال ابن خلّكان: وكان بعض الفضلاء قد أنشدني هذه الأبيات بمدينة حلب، وقال: إنّ الزمخشري المذكور أوصى أن يكتب على لوح قبره:

إلهي؛ لقد أصبحت ضيفك في الثرى   وللضعيـف حـقّ عنـد كـلّ كـريـم
فهـب لـي ذنـوبـي فـي قـراي فـإنهـا   عظـام، ولا يقـرى بغيـر عظيـم

سنة تسع وثلاثين وخمس مائة

فيها أخذ زنكي الرُّها[١] من الفرنج[٢].

وتوفّي تاشفين صاحب المغرب ولد علي بن يوسف بن تاشفين المصمودي البربريّ الملثّم. كانت دولته في ضعف وسفال مع وجود عبد المؤمن، فتحصّن، فصعد إليه أصحاب عبد المؤمن، فلمّا أيقن بالهلكة ركض فرسه، فتردّى إلى البحر، فتحطّم وتلف، ولم يبق لعبد المؤمن منازع، فتوجّه وأخذ تِلِمْسان[٣].

وفيها توفي أبو منصور الرّزاز سعيد بن محمد البغدادي شيخ الشافعية، ومدرّس النظامية، تفقّه على الغزالي وأسعد الميهني والكِيا والشاشي والمتولّي، وروى عن رزق الله التميمي.

وفيها توفّيت مسندة أصفهان أمّ البهاء، فاطمة بنت محمد البغدادية الواعظة، روت عن أبي الفضل الرازي وجماعة.

وفيها توفّي أبو منصور محمد بن عبد الملك البغدادي المقرىء، مصنّف المفتاح والموضع في القراءات العشرة.

---

(١) سبق ذكرها.
(٢) في الكامل لابن الأثير ٨/٩: في هذه السنة سادس جمادى الآخرة فتح أتابك عماد الدين زنكي بن آقسنقر مدينة الرها.
(٣) سبق ذكرها، وتقع شمال غربي دولة الجزائر.

وفيها توفّي وقيل في التي بعدها توفي أبو منصور موهوب[1] بن أبي طاهر الجواليقي البغدادي الأديب اللغوي. كان إماماً في فنون الأدب، وهو متديّن ثقة غزير الفضل، وافر العقل، مليح الخطّ، كثير الضبط صنّف التصانيف المفيدة، وانتشرت عنه مثل شرح أدب الكاتب وتتمة درّة الغواصّ في أوهام الخواص للحريري صاحب المقامات، وسمّاه: التكملة فيما يلحن فيه العامّة، إلى غير ذلك، وله نوادر كثيرة. وكان إماماً للمقتفي بالله. وما زاده في أول دخوله عليه على قوله: السلام على أمير المؤمنين: ورحمة الله تعالى. فقال له ابن التلميذ النصراني ـ وكان قائماً بين يدي المقتفي، وله ادلال الخدمة والصحبة: ما هكذا يُسلَّم على أمير المؤمنين يا شيخ، فلم يلتفت إليه، وقال للمقتفي: يا أمير المؤمنين، سلامي هو ما جاءت به السنّة النبوية، ثم قال: يا أمير المؤمنين؛ لو حلف حالف أنّ نصرانياً أو يهودياً لم يصل إلى قلبه نوع من أنواع العلم على الوجه، لما لزمته الكفّارة، لأن الله تعالى يختم على قلوبهم، ولن يفكّ ختم الله تعالى إلاّ الإيمان. فقال: صدقت وأحسنت فيما فعلت. فكأنّما ألجم ابن التلميذ بحجر مع فضله وغزارة أدبه.

سمع ابن الجواليقي من شيوخ زمانه، وأخذ عنه الناس علماً جمّا، وينسب إليه قليل من الشعر، من ذلك هذان البيتان، وقال بعض المطّلعين: وجدتهما من جملة أبيات لابن الخشّاب، وهما:

ورد الورى سلسال جوادِك فارتووا ووقفت خلف الورد وقفة حائم
حيران أطلب غفلة من وارد والورد لا يزداد غير تزاحم

قلت: لقد أبدع قائلهما في معناهما، وأجاد وبالغ في مدحه بما تضمّنه هذا الإنشاد.

وحكى اسماعيل بن الجواليقي المذكور قال: كنت في حلقة والدي يوم الجمعة بعد الصلاة بجامع القصر ـ والناس يقرؤون عليه ـ فوقف عليه شاب وقال: يا سيدي؛ قد سمعت ببيتين من الشعر، ولم أفهم معناهما، وأريد أن تسمعهما منّي، وتعرّفني معناهما. فقال: قل، فأنشد.

وصْل الحبيب جِنان الخلد أسكنها وهجرة الناس تصليني بها النارا
فالشمس بالقوس أمست وهي نازلة إن لم يزرني وبالجوزاء إن زارا

فلما سمعهما والدي قال: يا بُنّي؛ هذا شيء من معرفة علم النجوم، وتسييرها لأمر صنعه أهل الأدب، قال: فانصرف الشابّ من غير حصول فائدة، فاستحي والدي من أن

(١) ذكره ابن الأثير ضمن وفيات سنة ٥٤٠ هـ: موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر، أبو منصور الجواليقي. انظر ٩/ ١١، ١٢.

يسأل عن شيء ليس عنده منه علم، وقام وآلى على نفسه أن لا يجلس في حلقته حتّى ينظر في علم النجوم، ويعرف تسيير الشمس والقمر. فنظر في ذلك، وحصلت معرفته، ثم جلس.

ومعنى البيت المسؤول عنه أنّ الشمس إذا كانت في آخر القوس كان الليل في غاية الطول، لأنه يكون آخر فصل الخريف، وإذا كانت في آخر الجوزاء كان الليل في غاية القِصَر، لأنّه آخر فصل الربيع، فكأنّه يقول: إذا لم يزرني فالليل عندي في غاية الطول، وإن زارني كأن الليل عندي في غاية القِصَر. انتهى.

قلت: وفي نهاية الطول والقصر المذكورين في البرجين المذكورين. والاعتدال في برجي الحمل والميزان. وشدّة البرد في برج الدلو، وشدّة الحر في برج الأسد، أشرت بهذه الأبيات الأربعة حيث أقول:

إذا طال بالجوزاء نهارٍ مفاخِراً ... رماه بقوس طول ليل فيقصر
وإن حمل الإنصاف يوماً بعدله ... أتاه بميزان بها العدل يظهر
وإن شدّ حبل البرد دلوّاً ليستقوا ... أتى أسد في حرب حرّ وعسكر
فيكسر هذا ذاك حيناً، وحربهم ... سجال، ويغزو ذاك هذا فيكسر

سنة أربعين وخمس مائة

فيها توفّي الحافظ أبو سعد أحمد بن محمد البغدادي الأصبهاني. كان ثقة خيّراً، يحفظ صحيح مسلم.

سنة احدى واربعين وخمس مائة

فيها حاصر عماد الدين زنكي الملّقب بالملك المنصور ـ صاحب الموصل ـ قلعة جَعْبَر[1]، فوثب عليه ثلاثة من غلمانه فقتلوه[2]، وتملّك الموصل بعده ابنه غازي، وتملّك حلب وغيرها من نواحيها ابنه الآخر نور الدين محمود.

وكان زنكي من الأمراء المتقدّمين، وفوّض إليه السلطان محمود بن ملكشاه السلجوقي ولاية بغداد في سنة إحدى وعشرين وخمس مائة، ثمّ أمره السلطان محمود بالتجهيز إلى الموصل والاستعداد لقتال الفرنج بالشام، فوصل إلى الموصل، وملكها، ودفع الفرنج عن

(١) في معجم البلدان: قلعة جعبر على الفرات بين بالس والرقة قرب صفّين، وكانت قديماً تسمّى دوسر، فملكها رجل من بني قشير أعمى يقال له جعبر بن مالك.
(٢) انظر الكامل لابن الأثير ٩/ ١٣.

حلب وقد ضايقوها بالحصار ـ ثم عاد إلى الموصل، فأقام بها، وهو[١] من كبراء الدولة السلجوقية، فقتله الباطنية بجامع الموصل ـ يوم الجمعة تاسع ذي القعدة سنة عشرين وخمس مائة ـ جلسوا له في الجامع بزيّ الصوفيّة، فلمّا انفتل من صلاته قاموا إليه واثخنوه جراحاً لأنه كان قد تصدّى لقتلهم، وقتل منهم عصبة كبيرة، فلمّا قتل رسم المسترشد أمير المؤمنين بتولية الموصل لولده زنكي، فتوجّه زنكي إلى الموصل، فتسلّمها وما والاها من البلاد، ثم توجّه إلى قلعة جعبر فحاصرها، حتّى أشرف على أخذها، فأصبح مقتولاً كما تقدّم.

وفيها أخذت الفرنج[٢] طرابلس الغرب بالسيف ثم عمروها.

وفيها توفي شيخ الشيوخ أبو البركات اسماعيل ابن الشيخ أبي سعد ـ أحمد بن محمود النيسابوري البغدادي، وكان جليل القدر.

وفيها توفي زنكي الأتابك صاحب الموصل وحلب، وكان فارساً شجاعاً ميمون النقيبة شديد البأس، قوي الرأس عظيم الهيبة، ملك الموصل وحلب وحماه وحمص وبعلبك والرّها والمعرّة.

قتله بعض غلمانه كما تقدّم وهو نائم وهربوا إلى قلعة جعبر.

وفيها توفي أبو الحسن سعد الخير بن محمد الأنصاري الأندلسي المحدّث. كان فقيهاً عالماً متقناً، رحل إلى المشرق، وتفقّه على الإمام أبي حامد الغزالي وشيخ المقرئين بالعراق.

وفيها توفّي المقرىء النحوي أبو محمد عبدالله بن علي البغدادي.

سنة اثنتين وأربعين وخمس مائة

وفيها كان الغلاء المفرط ـ وفيما قبلها[٣] بإفريقية ـ حتّى أكلوا لحوم الآدميين.

وفيها توفي أبو الحسن بن الآبنوسي[٤] أحمد بن عبدالله البغدادي الشافعي الوكيل. سمع وتفقّه وبرع، وقرأ الكلام والاعتزال، ثم لطف الله تعالى به وتحوّل سنّياً.

---

(١) عاد المؤلف هنا إلى ذكر والد زنكي: آقسنقر البرسقي ـ صاحب الموصل قبل ابنه عماد الدين الزنكي. انظر الكامل لابن الأثير ٨/ ٣٢٠.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير ٩/ ١٢.

(٣) في الكامل لابن الأثير ٩/ ١٨: وفيها اشتد الغلاء بإفريقية ودامت أيامه، فإنّ أوله كان سنة سبع وثلاثين وخمس مائة. . .

(٤) في الوافي بالوفيات للصفدي ٦/ ٧/ ١١٤: ابن الآبنوسي الشافعي: أحمد بن عبدالله بن علي بن عبد الله ابن محمد بن علي. . .

وفيها توفّي أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن الأندلسي البِطْروجي[1] أحد الأئمة. روى عن أبي علي الغساني وغيره. كان إماماً حافظاً بصيراً بالحديث ومعرفة رجاله وعلله، ومعرفة مذهب مالك ودقائقه. وله مصنّفات مشهورة.

وفيها توفّي أبو القاسم علي ابن الإمام العلاّمة أبي نصر عبد السيد بن الصبّاغ.

وفيها توفي أبو الفتح نصر الله بن محمد المَصِيْصي ثم الدمشقي، الفقيه الشافعي الأصولي الأشعري. سمع من أبي بكر الخطيب، وتفقّه على الإمام أبي نصر المقدسي، ودرّس بالغزالية، وأفتى واشتغل، وصار شيخ دمشق في وقته.

وفيها توفي الشريف أبو السعادات المعروف بابن الشجري: هبة الله بن علي العلوي الحسيني البغدادي النحوي اللغوي، صاحب التصانيف، كان متضلّعاً من علم الآداب وأشعار العرب وأيامها وأحوالها، كامل الفضائل. له عدّة تصانيف، منها: كتاب الأماني، أو قال: الأمالي وهو أكبر تآليفه وأكثرها فائدة، أملاه في أربعة وثمانين مجلساً، مشتملاً على خمسة فنون من علم الأدب.

ولما فرغ من إملائه حضر عنده أبو محمد المعروف بابن الخشّاب، والتمس سماعه عليه، فلم يجبه إلى ذلك، فعاداه، وردّ عليه في مواضع من الكتاب، ونسبه فيه إلى الخطأ، فوقف أبو السعادات المذكور على الردّ، فردّ عليه في ردّه، وبيّن وجوه غلطه، وجمعه كتاباً سمّاه: الانتصار، وهو على صغر حجمه مفيد جداً، وسمعه عليه الناس. وجمع أيضاً كتاباً سمّاه: الحماسة، تضاهي به الحماسة لأبي تمّام الطائي، وهو كتاب مليح غريب، أحسن فيه. وله في النحو عدّة تصانيف، وكان حسن الكلام حلو الألفاظ، فصيحاً جيّد البيان والتفهيم، وقرأ الحديث على جماعة من الشيوخ المتأخّرين.

وذكره الحافظ أبو سعد بن السمعاني في كتاب الذيل، وقال: اجتمعت معه في دار الوزير أبي القاسم بن طراد الزينبي وقت قراءتي عليه الحديث، وعلّقت عنه شيئاً من الشعر في المدرسة، ثم مضيت إليه وقرأت عليه جزءاً من أمالي أبي العباس الثعلب.

وحكى أبو البركات عبد الرحمن بن الأنباري في كتابه مناقب الأدباء: إنّ العلاّمة أبا القاسم محمود الزمخشري، لمّا قدم بغداد قاصداً للحجّ، مضى إلى زيارته شيخنا ـ أبو السعادات بن الشجري، ومضينا معه إليه فلما اجتمع به أنشده قول المتنبي:

واستـأثـر الأخبـار قبـل لقـائـه ... فلمّـا التقينـا صغّـر الخبـرَ الخبـرَ

(1) في الوافي بالوفيات للصفدي ٦/٧/٣٨: الحافظ البطروجي: أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الباري أبو جعفر البطروجي: بالجيم ويقال البطروشي بالشين.

ثم أنشد بعد ذلك:

كانت مساءلة الركبان تخبرني عن جعفر بن فلاح أحسن الخبر
حتّى التقينا ـ فلا والله ـ ما سمعت أذني بأحسن ممّا قد رأى بصري

فقال العلاّمة الزمخشري: روي عن النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ أنّه لمّا قدم إليه زيد الخيل قال له: «يا زيد، ما وصف لي أحد في الجاهلية ولا في الإسلام إلاّ رأيته دون ما وصف لي غيرك». قال ابن الأنباري: فخرجنا من عنده، ونحن نعجب كيف يستشهد الشريف بالشعر، والزمخشري بالحديث، وهو رجل أعجمي، هذا معنى كلام ابن الأنباري، وكان أبو السعادات المذكور نقيب الطالبين بالكرْخ نيابة عن ولده، وله شعر حسن، من ذلك قوله:

هذه السديرة والغدير الطافح فاحفظ فؤادك إنّني لك ناصح
يا سدرة الوادي الذي إنْ ضلّه الساري هداه نشرها المتفاوِح
هل عايد قبل الممات لمغرم عيش تقضّى في ظلالك صالح
شطّ المزارُ بهِ ونوئي منزلاً بصميم قلبك فهو دانٍ نازح
غصن تعطّفه النسيم وفوقه قمر يحفّ به ظلام طايح
ولقد مررنا بالعقيق فشاقنا فيه مراتع للمها ومسارح
ظللنا به نبكي، فكم من مضمر وجداً أذاع هواه دمع سافح

قلت ضلّه الساري رأيته الصواب، وفي الأصل المنقول منه: الوادي، ثم وجدته في نسخه أخرى كما ذكرت من الصواب. وهذه أبيات من قصيدة له في مدح الوزير المظفّر بن علي الملّقب بنظام الدين.

سنة ثلاث واربعين وخمس مائة

في ربيع الأول منها نازل الفرنج دمشق في عشرة آلاف فارس وستين ألف راجل، فخرج المسلمون من دمشق، وكانوا مائة وثلاثين ألف راجل وعسكر البلد، فاستشهد نحو مائتين، ثم برزوا في اليوم الثاني، فاستشهد جماعة، وقتل من الفرنج عدد كثير. فلمّا كان في اليوم الخامس وصل غازي وأخوه نور الدين[١] في عشرين ألفاً إلى حماه. وكان أهل دمشق في الاستغاثة والتضرّع إلى الله تعالى، وأخرجوا المصحف العثماني إلى صحن الجامع، وضجّ النساء والأطفال مكشفين الرؤوس، وصدقوا الافتقار إلى الله عزّ وجل

(١) سيف الدين غازي بن أتابك زنكي وأخوه نور الدين محمود زنكي. انظر الكامل لابن الأثير ٩/٢٠، ٢١

فأغاثهم، وركب قسيس الفرنج، وفي عنقه صليب وفي يديه صليب، وقال: أنا قد وعدني المسيح أن آخذ دمشق، فاجتمعوا حوله، وحمل على البلد، فحمل عليه المسلمون فقتلوه ـ لعنة الله تعالى ـ وقتلوا حماره، وأحرقوا الصلبان، ووصلت النجدة، فانهزمت الفرنج، وأصيب منهم خلق.

وفيها توفي أبو الحسن علي بن أبي الوفاء المعروف بابن مُسْهِر الموصلي. كان شاعراً بارعاً رئيساً مقدّماً، يمدح الخلفاء والملوك والأمراء. وله ديوان شعر في مجلّدين، ومن شعره في صفة الخيل.

سود حوافرها بيض حجافلها ... صبح تولّد بين الصبح والغسق
من طول ما وطئت ظهر الدجى ـ حنتا ... وطول ما كرعت من منهل الفلق

ومنها في صفة الفهد:

والشمس منذْ لقّبوها بالغزالة ... أعطته الرشا حسداً من لونها اليقق[1]
ويعطيه حبّاً كي يسالمها ... على المنايا نعاج الرمل بالحدق
هذا ولم يبرزا مع سلم ... جانبه يوماً لناظره إلاّ على فرق

وهذه الأبيات مع جودتها مأخوذة من أبيات الأمير المعروف بابن السرّاج الصوري.
ولابن مسهر أيضاً في بعض الرؤساء:

ولما اشتكيت اشتكى كلّ ما ... على الأرض واعتلّ شرق وغرب
لأنك قلب لجسم الزمان ... وما صح جسم إذا اعتلّ قلب

ومن غريب الاتفاق ما حكى أبو الفتح بن أبي الغنائم أنه رأى في منامه منشداً ينشد:

وأعجب من صبر القَلوص التي سرت ... بهودجك المزموم أنّى استقلّتِ[2]
وأطبق أحناء الضلوع على جوى ... جميع وصبر مستحيل مشتّتِ[3]

قال أبو الفتح: فلمّا انتبهت مكثت مدّة أسائل عن قائل هذين البيتين، فلم أجد عنه مخبراً، ثم اتّفق بعد سنين نزول ابن مُسْهِر المذكور في ضيافتي، فتجارينا في بعض الليالي ذكر المنامات، فذكرت له المنام الذي رأيته والبيتين فقال: أقسم بالله أنّهما من شعري، من جملة قصيدة منها:

إذا ما لسان الدمع نمّ على الهوى ... فليس بشرّ ما الضلوع أجنّتِ

---

(١) الرشأ: ولد الظبية. اليقق: الشديد البياض.
(٢) القلوص: أنثى الإبل الشابّة.
(٣) الجوى: شدة الوجد من حزن أوعشق.

فــوالله مــا أدري عشيّــة ودعــت — أنــاحــت حمــامــات النــوى أمْ تغنّــتِ؟
وأعجب من صبر القلوص التي سرت — بهــودجــك المــزمــوم ـ أنّــى استقلّــت
أعــاتــب فيــك اليعمــلات علــى النــوى — وأســأل عنــك الــريــح مــن حيــث هبّــت
وألصــق أحنــاء الضلــوع علــى جــوى — جميــع وصبــر مستحيــل مشتّــت

قال: فلمّا أنشدنا هذه الأبيات الرقاق عجبنا من هذا الاتفاق.

وفيها توفّي أبو إسحاق الغنوي ابراهيم بن محمد بن نبهان الرقيّ الصوفي الفقيه الشافعي. تفقّه على الإمام حجّة الإسلام الغزالي وغيره، وسمع رزق الله التميمي، وكان ذا سمت وعبادة، وهو راوي خطيب ابن نباتة.

وفيها توفّي محدّث بغداد ومفيدها المبارك بن كامل الخفاف، وكان فقيراً متعفّفاً.

وفيها وقيل في التي تليها: توفّي الفقيه الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي المعافري الأندلسي الأشبيلي، رحل إلى المشرق، ودخل الشام، ولقي بها الإمام محمد بن الوليد الطَرْطُوشي، وتفقّه عنده، ودخل بغداد، وسمع بها من جماعة، ثمّ دخل الحجاز فحجّ، ثمّ عاد إلى بغداد، وصحب الإمام أبا حامد الغزالي والإمام أبا بكر الشاشي وغيرهما من العلماء والأدباء، ثم صدر عنهم ولقي بمصر والاسكندريّة جماعة من المحدّثين، فكتب عنهم، واستفاد منهم. ثم عاد إلى الأندلس، ثم قدم إلى اشبيلية بعلم كثير، ولم يدخل أحد قبله إلى المشرق من علماء المغرب في الرحلة للعلم، وكان من أهل اليقين في العلوم والاستخبار والجمع لها، عارفاً متكّلماً في أنواعها باقدامها حريصاً على نشرها، ثاقب الذهن في تمييز الصواب منها، مع آداب وأخلاق وحسن معاشرة، وكرم نفس. واستقضي ببلده، فنفع الله تعالى به أهلها لإبرام أمره ونفوذ أحكامه، وكان له في الظالمين صولة مرهوبة، ثمّ صرف عن القضاء، وأقبل على نشر العلم.

وله مصنّفات منها كتاب عارضة الأحوذي في شرح الترمذي كذا هو في الأصل المنقول منه قال: والعارضة: القدرة على الكلام، يقال فلان شديد العارضة إذا كان ذا قدرة على الكلام، والأحوذي: الخفيف في الشيء لحذقه، وقال الأصمعي: المستمر في الأمور القاهرة لها.

وفيها توفي أبو الدرّ ياقوت الرومي عتيق بن الخباري. حدّث بدمشق ومصر وبغداد.

وفيها توفّي أبو الحجّاج الفندلاوي يوسف بن دوناس[1] المغربي المالكي. كان فقيهاً

---

(١) في الكامل لابن الأثير: ٩/ ٢٠: وفيمن خرج للقتال الفقيه حجّة الدين يوسف بن ذي باس الفندلاوي المغربي.

عالماً صالحاً حلو المجالسة، شديد التعصّب للأشعرية، صاحب حطّ على الحنابلة. قتل في سبيل الله في حصار الفرنج بدمشق، مقبلاً غير مدبر بالنيروز، وقبره يزار بمقبرة باب الصغير.

وفيها قتل شاهنشاه ابن نجم الدين أيوّب، في الوقعة التي اجتمع فيها الفرنج سبع مائة[١] ألف ما بين فارس وراجل ـ على ما قيل ـ وتقدّموا، إلى باب دمشق، وعزموا على أخذ بلاد المسلمين قاطبة، فنصر الله عليهم المسلمين ـ ولله الحمد ـ.

سنة أربع وأربعين وخمس مائة

فيها توفّي القاضي أحمد بن محمد الأرِجاني ـ بفتح الهمزة وكسر الراء مع خلاف في تشديدها وتخفيفها وبعدها جيم ـ له شعر رائق، وكان قاضي تُسْتَر. وهو وإن كان في العجم ففي العرب محتدّة. وكان فقيهاً شاعراً. وفي ذلك قوله:

أنا أشعر الفقهاء غير مدافع ... في العصر أو أنا أفقه الشعراء
شعري إذا ما قلت دونه الورى ... بالطبع لا بتكلّف الإلقاء
كالصوت في قُلل الجبال إذا علا ... للسمع هاج تجاوب الأصداء[٢]

قلت: ليس في الأصل المنقول منه قلل، بل لفظ آخر معناه غير مفهوم.

ومن شعره:

لو كنت أجهل ما علمت لسرّني ... جهلي كما قد ساءني ما أعلم
كالصّعْوِ يرتع في الرياض وإنمّا ... حبس الهزار لأنّه يترنّم[٣]

والصَعْوَة بالصاد المهملة، والهزار بالزاي المعجمة: طائران. ومنه:

شاور سواك إذا نابتك نائبة ... يوماً وإن كنت من أهل المشوراتِ
فالعين تنظر منها ما دنا وَنأى ... ولا ترى نفسها إلاّ بمرآةِ

ومنه:

أنحوكم ويردّ وجهي القهقرى ... عنكم، فسيري مثل سير الكوكب
فالقصد نحو المشرق الأقصى لكم ... والسير رُؤي العين نحو المغرب

(١) ذكر المؤلف في أول أحداث هذه السنة: نازل الفرنج دمشق في عشرة آلاف فارس وستّين ألف راجل.
(٢) قُلل وقِلال: مفردها القُلّة وهي أعلى الرأس والجبل وكلّ شيء.
(٣) الصعوة: صغار العصافير.

ومنه:

أُحــبّ المــرء ـ ظــاهــره جميــل ـ لصـــاحبـــه وبـــاطنـــه سليـــم
مـــودّتـــه تـــدوم لكـــلّ هـــول وهـــل كـــلٌّ مـــودّتـــه تـــدوم؟

وهذا البيت الأخير يُقرأ معكوساً، أعني: من آخره إلى أوّله، ولا يتغير شيء من لفظه، ولا من معناه، وله ديوان شعر فيه كلّ معنى لطيف.

وفيها توفّي أبو المحاسن أسعد بن علي بن الموفّق الهروي الحنفي العبد الصالح، راوي الصحيح والدارمي.

وفيها توفّي الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد بن محمد العبيدي الرافضي صاحب مصر.

وفيها توفّي القاضي الإمام العلاّمة أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن موسى ابن عياض اليحصبي، أحد الحفّاظ الأعلام. سمع من أبي علي بن سكرة، وأبي محمد بن غياث وطبقتهما، وأجاز له أبو علي الغسّاني، وولي قضاء سَبْتَة مدة ثم قضاء غَرناطة، وصنّف التصانيف الجليلة المفيده، منها: الإكمال في شرح صحيح مسلم، كملّ به: المُعْلِم في شرح مسلم للإمام المازري. ومنها: الشفا في تعريف حقوق المصطفى. ومشارق الأنوار في تفسير غريب الحديث. وكان إمام وقته في الحديث وعلومه والنحو واللغة، وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، وهو من أهل اليقين في العلوم والذكاء. وله شعر حسن:

ومنه قوله:

الله أعلـــم أنّـــي منـــذ لـــم أرَكـــم كطـــائـــر خـــانـــه ريـــش الجنـــاحيـــن
فلـــو قـــدرت ركبـــت البحـــر نحـــوكـــم فـــإنّ بعـــدكـــم عنّـــي جَنْـــي حَيْنـــي

والحَيْنُ بفتح الحاء: الهلاك، وبالكسر: الوقت.

وفيها توفّي الحافظ المقدسي أبو الحسن علي بن أبي المكارم الاسكندارني المالكي، كان فقيهاً فاضلاً، من أكابر الحفّاظ المشاهير في الحديث وعلومه، صحب الحافظ أبا طاهر السلفي.

وفيها توفّي الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري، ولازمه وانتفع به ابن خلّكان. وأنشدني أبو الحسن المقدسي المذكور لنفسه:

أيـا نفـس بـالمـأثـور عـن ـ خيـر مرسـل وأصحـــابـــه والتـــابعيـــن تَمَسّكـــي
عسـاك إذا بـــالغـــت فـــي نشـــر دينـــه بمـــا طـــاب مـــن نشـــر لـــه أن تَمَسّكـــي
وخـــافـــي غـــداً يـــوم الحســـاب جهنمـــاً إذا لفحـــت نيـــرانهـــا أن تَمَسّـــكِ

قلت: وبيان الجناس في هذه القوافي الثلاث واختلاف معانيها أنّ الأولى من التمسّك، والثانية من التطيّب بالمِسْك، والثالثة من: مسّه يمّسه. قال: وأنشدني أيضاً لنفسه رحمة الله تعالى عليه:

ولمياء تحيي من تحيي بريقها كأنّ مزاج الراح بالمسك في فيها
وما ذقت فاهاً غير أنّي رويته عن الثقة المسواك، وهو موافيها[١]

هذا المعنى مستعمل، ومنه قول الآخر:

وأخبرني أترابها أنّ ريقها ـ على ما حكى عود الأراك ـ لذيذ[٢]

وقول الآخر:

يا أطيب الناس ريقاً غير مختبر إلاّ شهادة أطراف المساويك

وفيها توفي يوسف الدين غازي بن عماد الدين زنكي بن آقْسنقر صاحب الموصل. ملك غازي المذكور الموصل بعد أن كان مُقطعاً شَهْرَزُوْر[٣]، من جهة السلطان محمود السلجوقي، وكذلك ما كان لأبيه من ديار ربيعة[٤]، وترتيب أحواله، وأخذ أخوه نور الدين محمود حلب وما والاها من بلاد الشام، ولم تكن دمشق يومئذٍ لهم، وكان غازي المذكور منطوياً على خير وصلاح، يحبّ العلم وأهله، وبنى بالموصل المدرسة المعروفة بالعتيقة[٥]، ولم تطل مدّته في المملكة.

سنة خمس وأربعين وخمس مائة

فيها أخذت العربان[٦] ركب العراق، وأخذ للخاتون ـ أخت السلطان مسعود ـ ما قيمته مائة ألف دينار، وتمزق الناس. ومات خلق جوعاً وعطشاً.

وفيها نازل نور الدين دمشق وضايقها، ثم خرج إليه صاحبها مجير الدين، ووزيره ابن الصوفي، فخلع عليهما، وردّ إلى حلب ـ ونفوس الناس قد أحبّته لما رأوا من دينه ـ.

---

(١) المسواك: العود الذي تنظّف به الأسنان.
(٢) الأراك: واحدته أراكه، شجر ذو شوك، طويل الساق كثير الورق والأغصان، خوّار العود تتخذ منه المساويك.
(٣) في معجم البلدان: شهرزور كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان.
(٤) في معجم البلدان: ديار ربيعة بين الموصل إلى رأس عين، نحو بقعاء الموصل ونصيبين ورأس عين ودُنَيْسِر والخابور وجميعه، وما بين ذلك من المدن والقرى.
(٥) في الكامل لابن الأثير ٩/٢٣: المدرسة الأتابكية العتيقة.
(٦) في الكامل لابن الأثير ٩/٢٧: عرب زعب ومن انضمّ إليها.

وفيها توفي المبارك بن أحمد الكندي البغدادي الخبّاز، سمع أبا نصر الزينبي، وعاصم ابن الحسن، وطائفة.

وفيها توفي الرئيس أبو علي الحسين بن علي النيسابوري، روى عن الفضل بن المحبّ وجماعة.

سنة ست وأربعين وخمس مائة

فيها توفّي الحافظ أبو نصر عبد الرحمن بن عبد الجبّار، وكان صالحاً فاضلاً متواضعا، سمع جماعة من شيوخ زمانه.

وفيها توفّي أبو الأسعد عبد الرحمن بن عبد الواحد ابن الشيخ أبي القاسم القشيري خطيب نيسابور ومسندها. سمع من جدّه حضوراً، ومن جدّته فاطمة بنت الدقاق، ويعقوب ابن أحمد الصيرفي وطائفة. وروى الكتب الكبار كالبخاري ومسند أبي عوانة.

وفيها توفّي الحافظ أبو الوليد الدبّاغ يوسف بن عبد العزيز اللخمي، ثم القرشي.

سنة سبع وأربعين وخمس مائة

وفيها توفّي المقرىء الأستاذ أبو عبدالله محمد بن الحسن المعروف بالداني. أخذ القراءات عن أبي داود وغيره، وسمع الحديث، وتصدّر للإقراء وتعليم العربية، وكان مشاركاً في علوم جمّة، صاحب تحقيقات وإتقان، ولي خطابة بلده.

وفيها توفّي القاضي أبو الفضل محمد[(١)] بن عمر بن يوسف الفقيه الشافعي. ولد ببغداد، وسمع جماعة منهم ابن المأمون وابن المهتدي وابن الخيّاط. وكان ثقة صالحاً، تفقّه على الشيخ أبي إسحاق، وانتهى إليه علوّ الإسناد بالعراق، وولي قضاء دَيْر العَاقُول[(٢)].

وفيها توفّي محمد بن منصور النيسابوري. شيخ صالح، سمع القشيريّ ويعقوب الصيرفي والكبار ـ رحمه الله ـ.

وفيها توفّي السلطان مسعود بن محمود بن ملكشاه السلجوقي. استقلّ بالملك، وامتدّت أيامه، وكان منهمكاً في اللهو واللعب، عاش خمساً وأربعين سنة، وكان قد آذى المقتفي، فقبض عليه شهراً، فمات. وقيل: حدث به القيء، وغلبه الغثيان، واستمّر به ذلك إلى أن توفي. وكان قد اقتتل هو وأخوه محمود على الملك، فالتقيا، فانتصر عليه محمود، ثم تقلّبت الأحوال بمسعود المذكور إلى أن تسلطن، وكان سلطاناً عادلاً ليّن الجانب، كبير

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي: ٦/ ٤/ ٢٤٥: أبو الفضل الأرموي الشافعي.
(٢) سبق ذكرها.

النفس، ففرّق مملكته على أصحابه، ولم يكن له من السلطنة غير الاسم، وكان حسن الأخلاق كثير المزاح والانبساط مع الناس، فمن ذلك أنّ أتابك زنكي ـ صاحب الموصل ـ أرسل إليه القاضي كمال الدين محمد بن عبدالله بن أبي القاسم الشهرزوري في رسالته، فوصل إليه، وأقام معه في العسكر، فوقف يوماً على خيمة الوزير حتّى قارب أذان المغرب، فعاد إلى خيمته، فأذّن المغرب ـ وهو في الطريق ـ فرأى إنساناً فقيهاً في خيمة، فنزل إليه فصلّى معه، ثم سأله كمال الدين: من أين أنت؟ فقال: أنا قاضي مدينة كذا، فقال له كمال الدين: القضاة ثلاثة، قاضيان في النار، وهما أنا وأنت، وقاض في الجنة ـ وهو من لا يعرف أبواب هؤلاء الظلمة ولا يراهم ـ فلمّا كان من الغد أرسل السلطان، وأحضر كمال الدين إليه، فلمّا دخل كمال الدين عليه ورآه ضحك وقال: القضاة ثلاثة. فقال كمال الدين: نعم يا مولانا؛ فقال: والله صدقت؛ ما أسعد من لا يرانا ولا نراه(١).

سنة ثمان واربعين وخمس مائة

فيها خرجت الغزّ على أهل خُراسان، وهم تركمان ما وراء النهر، فالتقاهم سنجر، فاستباحوا عسكره قتلاً واسراً، ثم هجموا نيسابور، فقتلوا فيها قتلاً ذريعاً، ثمّ أخذوا بَلْخ، وأسر السلطان سنجر، فبقي في أيديهم ـ، وكانوا نحو مائة ألف ـ فلمّا ملكت الخَطا(٢) ما وراء النهر طردوا عنها هؤلاء الغزّ فنزلوا بنواحي بلخ، ثم ساروا وعملوا بخراسان ما لا يعمله الكفّار من القتل والأسر والخراب والمصادرة والعذاب، ثمّ تجمّع عسكر خراسان، فواقعوا الغزّ وقعات، كان الظفر في أكثرها للغزّ.

وفي السنة المذكورة أخذت الفرنج عَسْقَلان(٣) بعد عدّة حصارات، وكان المصريون يمدّونها بالرجال والذخائر، فاختلف عسكرها، وقتل منهم جماعة، فاغتنم الفرنج غفلتهم، فركبوا الأسوار ودخلوها.

وفيها توفي الزاهد العابد أبو العباس أحمد بن أبي غالب البغدادي الورّاق. زاره السلطان مسعود في مسجده، فتشاغل عنه بالصلاة، وما زاده على أن قال: يا مسعود؛ اعدل وادع لي الله، أكبر وأحرم بالصلاة، فبكى السلطان، وأبطل المكوس والضرائب وتاب.

وفيها توفّي أبو الحسين الرّفاء أحمد بن منير الأطرابلسي الشاعر المشهور. وكان رافضياً هجّاء فائق النظم، وله ديوان.

---

(١) انظر ذلك في الكامل لابن الأثير: ٩/ ٣١، ٣٢.
(٢) تطلق تسمية الخطا أو بلاد الخطا على سكان الصين أو بلاد الصين.
(٣) انظر ذلك في الكامل لابن الأثير: ٩/ ٤٢.

وفيها توفي أبو عبدالله محمد بن نصر المخزومي الخالدي، المعروف بابن القيسراني الشاعر المشهور ومن الشعراء المجيدين والأدباء المتفننين ـ وكان بينه وبين ابن منير المذكور معارضة كجرير والفرزدق في زمانهما، وبينهما مهاجاة ومكاتبات وأجوبة، وكانا مقيمين بحلب، ومتنافسين في صناعتهما كما جرت عادة النظراء، ومن شعر ابن المنير المذكور:

وإذا الكريم رأى الخمول نزيله ... في منزل ـ فالحزم أن يترحّلا
فالبدر لمّا أن تضاءل جدّ في ... طلب الكمال فحازه متنقّلا
سفهاً لحلمك إن رضيت بمشرب ... رنق ـ ورزق الله قد ملأ الملا ـ
ساهمت عيسك مرّ عيشك قاعداً ... افلا فليت بهنّ ناصية الفلا
فارقْ ترقْ كالسيف سُل فبان في ... متنَيْه ما أخفى القراب وأخملا
لا تحسبنّ ذهاب نفسك ميتة ... ما الموت إلاّ أن تعيش مذلّلا
لا ترض من دنياك ما أرضاك من ... دنس وكن طيفاً ـ جلى ثم انجلا
وصل الهجير بهجر قوم كلّما ... أمطرتهم شَهداً جنوا لك حنظلا
لله علمي بالزمان وأهله ... ذنب الفضيلة عندهم أن تكملا
طبعوا على لؤم الطباع فخيرهم ... إن قلت قال وإنْ سكتّ تأوّلا
أنا من إذا ما الدهرّ هم بخفضه ... سامته همتّه السماك الأعزلا[1]

والطرابلسي نسبة إلى طرابلس، وهي مدينة بساحل الشام قريبة من بَعْلَبَك، وقد تزاد الهمزة في أوّلها، فيقال: أطْرَابُلس، وقوله:

سفهاً بحلمك إن رضيت بمشرب ... رنق، ورزق الله قد ملأ الملا

الرنق: بالراء والنون والقاف: قال في الصحاح: والرنق بالتحريك: مصدر قولك: رنِق الماء بالكسر إذا تكدّر، وعيش رنِق: أي كدر، والله أعلم ـ ومن شعر ابن القيسراني:

والله لو أنصف العشّاق أنفسهم ... فدوك فيها بما عزّوا وما صانوا
ما أنت حين تغنّى في مجالسهم ... إلاّ نسيم الصبا والقوم أغصان

وله هذا البيت من قصيدة وكان كثير الإعجاب به:

وأهوى الذي أهوى له البدر ساجداً ... ألست ترى في وجهه أثر الترب

ومن معانيه البديعة قوله من جملة قصيدة رائقة:

هذا الذي سلب العشاقَ نومهم ... أما ترى عينه ملأى من الوسن؟

---

(١) السماك: ما سمك به الشيء أي رُفع.

الخالدي نسبة إلى خالد بن الوليد المخزومي. قال ابن خلّكان هذا بزعم أهل بيته، وأكثر المؤرخين وعلماء الأنساب يقولون إنّ خالداً ـ رضي الله تعالى عنه ـ لم يتّصل نسبه، بل انقطع منذ زمان ـ والله أعلم ـ.

وفيها توفّي أبو الفتح عبد الملك بن عبدالله الكروخي الهروي[1]، المشهور بالخير والصلاح، رحمه الله.

وفيها توفّي الزاهد الواعظ أبو الحسن علي بن الحسن، درس بالصادرية وقام عليه الحنابلة لأنّه تكلّم فيهم، وكان معظّماً مفخماً في الدولة معرضاً عن الدنيا.

وفيها توفي الملك العادل علي بن السلار الكردي ثم المصري وزير الظافر العبيدي صاحب مصر. وكان سنيّاً شافعياً، شجاعاً مقداماً، شهماً مائلاً إلى أرباب الفضل والصلاح، عمّر بالقاهرة مساجد، وكان مع هذه الأوصاف ذا سيرة جائرة وسطوة قاهرة.

يحكى أنه دخل يوماً على الموفّق أبي الكرم بن المعصوم، فشكا إليه حاله من غرامة لزمته بسبب الولاية، فلمّا أطال عليه الكلام قال له: والله إنّ كلامك لا يدخل في أذني، فحقد عليه لذلك، فلمّا ترقّى إلى درجة الوزارة طلبه، فخاف منه واستتر مدّة، فنادى عليه في البلد وأهدر دم من يخفيه، فأخرجه الذي خبّأه، فخرج في زيّ امرأة بإزار، وخفّ فعرف وأخمد، وحمل إلى الملقّب بالعادل، فأمر بإحضار لوح خشب ومسمار طويل، وأمر به فألقي على جنبه، وطرح اللوح تحت أذنه، ثم ضرب المسمار في أذنه الأخرى وصار كلّما صرخ يقول له: دخل كلامي في أذنك أم لا؟ ولم يزل كذلك حتّى نفذ المسمار من الأذن التي على اللوح، ثم عطف المسمار على اللوح، ويقال إنّه شنقه بعد ذلك، ثم آل الأمر إلى أن جهّز عسكراً إلى جهة الشام، وجعل عليه عباس بن أبي الفتوح مقدّماً، فكره المقدّم المذكور فراق الديار المصرية وما هو عليه فيها من الراحة، وما يقاسيه في لقاء العدو فرزق[2] على العادل من قتله على فراشه في واقعة يطول ذكرها نسأل الله العافية من شر الدنيا وغوائلها.

وفيها توفي أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشَهْرَسْتاني[3] المتكلّم على مذهب الأشعري، كان إماماً مبرزاً فقيهاً متكلماً، تفقّه على أبي نصر القشيري وأحمد الخوافي وغيرهما، وبرع في الفقه، وقرأ الكلام على أبي القاسم الأنصاري، وتفرّد فيه،

(١) في الكامل لابن الأثير: ٩/٤٣: ومولده سنة ٥٠٢ هـ.
(٢) لعلّ الصواب: فرتّب.
(٣) في معجم البلدان: شهرستان: بليدة بخراسان قرب نسا، بينهما ثلاثة أميال، بين نيسابور وخوارزم، نسب إليها محمد بن عبد الكريم بن أحمد أبو الفتح بن أبي قاسم.. وتوفي سنة ٥٤٩هـ أو قريباً منها.

وصنّف كتباً، منها نهاية الإقدام في علم الكلام: وكتاب الملل والنحل وتلخيص الأقسام لمذاهب الأنام في الكلام وكان كثير المحفوظ، حسن المحاورة، يعظ الناس. دخل بغداد وأقام بها ثلاث سنين، فظهر له قبول كثير عند العوام، وسمع الحديث من علي ابن المديني وغيره، وكتب عنه الحافظ أبو سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني وذكره في كتاب الذيل.

وشَهْرَسْتان: بفتح السّين المعجمة والراء وسكون الهاء بينهما والسين المهملة بعد الراء وقبل الألف المثناة من فوق وبعدها نون: وهو اسم لثلاث مدن: (الأولى) في خُراسان بين نيسابور وخوارزم، وهي المشهورة، ومنها أبو الفتح المذكور، (والثانية) قصبة بناحية نيسابور من أرض فارس. (والثالثة) مدينة جَيّ بأصبهان، بينها وبين مدينة أصبهان نحو ميل، وبها قبر الإمام الراشد بن المسترشد.

وكان الشهرستاني المذكور يروي بالإسناد المتصل إلى النظام البلخي العالم المشهور ابراهيم بن بشار أنه كان يقول: لو كان للفراق صورة لارتاع لها القلوب، ولهدأ الجبال، ولجمر الغضا أقلّ توهّجاً من حمله، ولو عذب الله أهل النار بالفراق لاستراحوا إلى ما قبله من العذاب. وكان يروي للدريدي أيضاً باتصال الإسناد إليه ومن قوله:

ودّعته حين لا تودّعه ... روحي ولكنّها تسير معهْ
ثم افترقنا - وفي القلوب لنا ... ضيق مكان وفي الدموع سِعَهْ

ويروي أيضاً مسنداً إليه:

يا راحلين بمهجة ... في الحبّ متلفة شقيّه
الحبّ فيه بليّة ... وبليّتي فوق البليّةْ

كل ذلك رواه ابن السمعاني في الذيل.

وفيها توفي الإمام العلاّمة محيي الدين محمد بن يحيى النيسابوري شيخ الشافعية وصاحب الغزالي. انتهت إليه رئاسة المذهب بخراسان، وقصده الفقهاء من البلاد، صنّف التصانيف ودرس بنظامية بلده، واستفاد منه خلق كثير، وبرع علماً وزهداً، وصنّف كتاب: المحيط في شرح الوسيط وَالإنصاف في مسائل الخلاف، وغير ذلك من الكتب.

ذكره الحافظ عبد الغافر الفارسي في تاريخ نيسابور، وأثنى عليه وقال: كان له حظّ في التذكير واستمداد في سائر العلوم، وكان يدرّس بنظامية نيسابور، ثم درّس بمدينة هَرَاة في المدرسة النظامية، ومن جملة مسموعاته ما سمعت من الشيخ أحمد بن علي المعروف بابن عبدوس بقراءة الإمام أبي نصر عبد الرحمن ابن الأستاذ أبي القاسم عبد الكريم القشيري في سنة ست وتسعين وأربع مائة: وحضر بعض فضلاء عصره، وسمع فوائده وحسن ألفاظه

فأنشده:

رواة الدين والإسلام تحيى بمحيي الدين مولانا ابن يحيى
كأنّ الله ربّ العرش يلقي عليه حين يلقي الدرس وحْيا

توفي شهيداً - رحمه الله تعالى في شهر رمضان، قتلته الغز[1] لما استولوا - على نيسابور، ولمّا مات رثاه جماعة من العلماء، ومن جملتهم أبو الحسن علي بن أبي القاسم البيقهي، قال فيه:

يا سافكاً دم عالم متبحّر قد طار في أقصى الممالك صيته
بالله قل لي يا ظلوم ولا تخف من كان محيي الدين كيف تميته؟

وفيها توفي الحافظ خطيب مَرْو أبو طاهر محمد بن محمد المروزي. تفقّه على أبي المظفّر السمعاني وغيره، وسمع من طائفة. وكذا امعرفة وفهم مع الثقة والفضل والتعفّف.

وفيها توفّي شيخ الصوفية ببلدة الخطيب أبو الفتح محمد بن عبد الرحمن الكشميهني المروزي، آخر من روى كتاب البخاري عن محمد بن أبي عمران.

وفيها توفي هبة الله بن الحسين بن أبي شبريك الحاسب، وكان حشوياً مذموماً.

وفيها توفي صاحب الأحوال والكرامات أبو الحسن المقدسي.

سنة تسع وأربعين وخمس مائة

فيها تمكّن المقتفي[2] بموت السلطان مسعود، وعرض عسكره، وكانوا ستة آلاف فارس، فأنفق فيهم ثلاثمائة ألف دينار، وجهّزهم مع الوزير ابن هبيرة[3].

وحرّض بعض كبار الدولة السلطان محمد على قصد العراق، واستأذن في التقدّم، فأذن في ذلك، فجمع التركمان وجاؤوا، فسار لحربهم المقتفي، ونازلهم أياماً، ثمّ عمل المصاف في رجب، فانهزمت ميسرة المقتفي، فحمل بنفسه ورفع الصرخة، وسل السيف وصاح: آل مضر[4]؛ كذب الشيطان. فوقعت الهزيمة على التركمان، وأُخِذَ لهم في ما قيل أربعمائة ألف رأس غنم، وأسرت أولادهم، ثمّ مالوا على واسط، فسار ابن هبيرة بالعساكر، فهزمهم ورجع منصوراً، فتلقاه المقتفي.

---

(١) انظر الكامل لابن الأثير ٩/ ٤٠.
(٢) الخليفة المقتفي لأمر الله.
(٣) عون الدين بن هبيرة.
(٤) في الكامل لابن الأثير ٩/ ٤٥: يا آل هاشم.

وفيها نزل الخارجي عليّ بن مهدي ـ الملّقب: عبد النبي ـ إلى تهامة اليمن بمن تبعه من العساكر، وهو يستبيح دماء الناس، وكانت عقيدته التكفير بالذنب.

روى بالإسناد في سيرة الشيخ الكبير العارف بالله المعروف بالصياد: أحمد بن أبي الخير اليمني: قال صاحبه الشيخ الجليل ذو العطاء الجزيل شيخ شيوخ الطريقة وإمامهم في علوم الحقيقة عبدالله بن علي الأسدي اليمني قال: كنت أنا والصيّاد متآخيين بمدينة زَبِيد في زمن الحبشة، وكنا معتكفين في المسجد الجامع، فلمّا كان آخر دولة الحبشة سمعنا بظهور علي بن مهدي وإقبال الناس عليه ـ سمعنا به في قرية من قرى وادي زبيد ـ فقال لي الصياد: يا أخي سر بنا نشاهد هذا الرجل، إن كان كما زعموا صالحاً تباركاً بزيارته. قال: فتقدّمت أنا وهو في يوم الأحد الثالث عشر من شعبان سنة تسع وأربعين وخمس مائة إلى أن وصلنا إلى المكان الذي هو فيه، فوجدنا معه خلقاً كثيراً ـ وهو يطعمهم التمر، ويقدّمهم على الأكل أفواجاً أفواجاً، وقد نصبوا له خشباً من النخل، وبنوا له على رأسه بيتاً لا يطلعه إلا بدرجة فلمّا وصلنا قعدنا في طرف الناس إلى أن أكلوا جميعهم. وصاح صائحهم: من كان لم يأكل فليأتِ وإلاّ فلا يلومنّ إلا نفسه، فلم يجبه أحد، وطلعوا إلى السَهْوَة[١] التي هو قاعد عليها بغدائه، وقد أبصرنا ولم نشعر بإبصاره لنا، فقال لبعض أصحابه: قدّم إلى هذين الرجلين ـ وأومى إلينا ـ فأتى رسوله فقال: أجيبوا الإمام ـ صلوات الله عليه ـ وهكذا ذكر: الصلاة عليه. قال فكر هنا، فلم يزل بنا حتّى سرنا معه، فلمّا وصلنا إليه سلمنا عليه، فرحّب بنا وبشّ بنا بشاشة عظيمة، وقدّم الطعام إلينا، فقلنا: ما لنا به حاجة، نحن صيام، ولم نأكل شيئاً. فقال لنا: أريد من تفضلكما أن تصحباني إلى مسجد الفازة[٢]، فأجبناه إلى ذلك، وخرج معنا في ذلك الوقت وقد تغدى فأخذنا طريق الساحل إلى أن وصلنا مسجد الفازة، فدخلنا المسجد جميعاً بعد صلاة الضحى، فركعنا ما شاء الله تعالى، وقعدنا ولم يقعد ابن مهدي المذكور، بل يطالع من الباب ساعة ومن الطاقة ساعة، ولم يزل كذلك ساعة، ثم رمى نفسه في المحراب وقال: أنا جاركما من هذا الشخص الذي وصل إلينا ـ قلت: يعني أنا مستجير بكما منه ـ قال: فتقدّمنا إلى الباب فإذا بزَيْلَعي[٣] يمشي على البحر ـ وهو طويل وبيده عصا يتوكأ عليها ـ فلمّا وصل إلينا سلّم علينا ودخل المسجد، فلمّا رأى ابن مهدي زعق عليه زعقة منكرة وقال: يا شيطان يا فتان، تدخل هذا المسجد اليوم؟! أقتلك وأريح

(١) السهوة: شبه الرفّ والطاق يوضع فيه الشيء/ وهو أيضاً سترة قدّام فناء البيت/ وهو أيضاً بيت ينصبه الأعراب على الماء يستظلّون به.
(٢) لم أجدها في معجم البلدان والمصوّرات الجغرافية.
(٣) في معجم البلدان: زيلع جبل من السودان في طرف أرض الحبشة، وزيلع أيضاً من جزائر اليمن/ وزيلع أيضاً قرية على ساحل البحر من ناحية الحبشة.

الناس منك. وحمل عليه يريد أن يضربه بالعصا، فأخذنا ندفعه عنه، ونسأله بالله أن يتركه لنا، فقد استجار بنا، فتركه، وركع ركعتين في المسجد، وودّعنا، وخرج يمشي على الماء في طريقه التي أتى فيها. ورجع ابن مهدي إلى حالته الأولى يطالع من الباب تارة ومن الطاقة تارة أخرى، فلمّا كان بعد ساعة أخرى، أقبل ورمى نفسه في المحراب وقال: أنا جاركما من هذا الذي وصل إلينا، فقمنا وطالعنا، وإذا برجل بدويّ طويل أقبل من الخَبْت[١]، وهو يمشي وبيده عصا، فلمّا وصل إلى المسجد سلّم علينا، فلمّا رأى ابن مهدي في المحراب صاح عليه صيحة منكرة مثل الصيحة الأولى وقال: يا شيطان يا فتّان، ما تعمل في هذا الموضع المبارك؟!! اليوم أريح الناس منك. وحمل عليه بعصا ليضربه، فلم نزل ندفعه عنه، ونسأله بالله أن يتركه، فلم يتركه إلا بشدّة عظيمة. ثمّ ركع ركعتين في المسجد، وودّعنا، ورجع في طريقه الذي جاء منها، فقال لنا ابن مهدي: أريد أن تصحباني إلى الموضع الذي وجدتماني فيه، فقال له الصيّاد: ما بقينا نصحبك، ولا نمشي معك. فلم يزل بنا حتّى أنعمنا له أن نصحبه إلى قرية الأهواب ـ بالباء الموحّدة ـ فلمّا خرجنا معه إليها تركناه، ورجعنا إلى زبيد في ذلك اليوم، فأقمنا بها مدّة يسيرة، فلمّا كانت سنة أربع وخمسين وخمس مائة كثرت العساكر معه، وظهر منه ما ظهر من التكفير بالذنب واستباحة دماء المسلمين. انتهى.

وفي سنة تسع وأربعين وخمس مائة المذكورة جاءت الأخبار أن السلطان محمود شاه قاصد بغداد، فاستعرض المقتفي جيشه، فزادوا على اثني عشر ألف فارس، فضعف عزم محمد شاه، فخامر عليه جماعة أمراء، ولجؤوا إلى الخليفة. وجاءت الأخبار بما لحق السلطان سنجر من الذلّ(له اسم السلطنة، ولا يُلتفت إليه)[٢] وأنّه يبكي على نفسه.

وفيها في صفر أخذ نور الدين[٣] دمشق من مجير الدين أحمد[٤] بن بوري بن طُغتكين على أن يعوّضه بحمص، ولم يتّم ذلك له، فغضب وسار إلى بغداد، وبنى بها داراً فاخرة، وبقي بها مدّة، وبعث المقتفي عهداً بالسلطنة لنور الدين، وأمره بالمسير إلى مصر، فاشتغل عن ذلك بحرب الفرنج.

وفيها توفي الظافر بالله أبو منصور اسماعيل ابن الحافظ لدين الله العبيدي. كان منهمكاً في الملاهي والقَصْف[٥]، وكان يأنس إلى نصر بن عباس ولد وزيره، فدّس عليه من قتله،

---

(١) في معجم البلدان: الخبت من قرى زبيد باليمن.

(٢) في الأصل [له اسم السلطنة ورأيته من الغز رأيت سايس. .] وقد صوّبتها اعتماداً على كتاب الكامل لابن الأثير ٩/ ٣٨، ٩/ ٤٧.

(٣) نور الدين محمود بن زنكي، انظر الكامل لابن الأثير ٩/ ٤٥.

(٤) في الكامل لابن الأثير ٩/ ٤٥: مجير الدين أنز بن محمد بن بوري بن طغدكين.

(٥) القصف: الجلبة والإعلان باللهو/ الإقامة في الأكل والشرب واللهو/ صوت المعازف.

وأخفى قتله، ثم ذهب إلى أبيه عباس فأعلمه بذلك، وكان أبوه قد أمره بقتله، لأنّ نصراً كان في غاية الجمال وكان الناس يتّهمونه به فقال له أبوه: قد أتلفت عرضك بصحبة الظافر وتحدث الناس فيكما، فاقتله حتّى تسلم من هذه التهمة، فقتله. فلمّا كان الصبح من تلك الليلة حضر عبّاس إلى باب القصر، وطلب الحضور عند الظافر في شغل منهم، فطلبه الخدم في المواضع التي عادته أن يبيت فيها، فلم يوجد، فقيل لعباس: ما نعلم أين هو، فنزل عن مركوبه، ودخل القصر بمن معه ممّن يثق بهم، وقال للخدم: أخرجوا إليّ أخوَي مولانا؛ فأخرجوا له جبرائيل ويوسف ابنَي الحافظ، فسألهما عنه فقالا: سل ولدك عنه فإنه أعلم به منّا، فأمر بضرب رقابهما وقال: هذان قتلاه، هذه خلاصة هذه القضية[١].

والجامع الظافري الذي بالقاهرة داخل باب زَوِيَلة[٢] منسوب إليه، وهو الذي عمّره ووقف عليه شيئاً كثيراً ـ على ما يقال والله أعلم ـ.

وفيها توفي أبو البركات عبدالله بن محمد بن الفضل الفراوي النيسابوري، كان رأساً في معرفة الشروط، حدّث بمسند أبي عوانة، ومات من الجوع بنيسابور في فتنة الغزّ.

وفيها توفّي أبو العشائر محمد بن خليل القيسي الدمشقي، صاحب الإمام نصر المقدسي.

وفيها توفّي الحافظ أبو المعزّ ـ المبارك ابن أحمد الأنصاري.

وفيها توفّي مؤيد الدولة ـ وزير صاحب دمشق.

سنة خمسين وخمس مائة

فيها عسكر طلائع بالصعيد، وأقبل ليأخذ القاهرة، فانهزم منه عباس وابنه الذي كان قتل الظافر، ودخل طلائع القاهرة بأعلام مشهورة بثياب سود، مظهراً للحزن، وفي الأعلام شعور نساء القصر، كنّ يبعثن إليه بها في طيّ الكتب حزناً على الظافر.

وفيها توفّي الإمام العلاّمة أبو العباس أحمد بن معد التُجِيبي الأندلسي الأقْلِيشي[٣] سمع أبا الوليد بن الدباغ وطائفة، وبمكّة من الكروخي، وكان زاهداً عارفاً متفنناً صاحب تصانيف مفيدة، وله شعر في الزهد.

وفيها توفّي الحافظ محدّث العراق أبو الفضل محمد بن ناصر البغدادي، اعتنى

---

(١) انظر قتل الظافر صاحب مصر في الكامل لابن الأثير ٩/ ٤٣، ٤٤.

(٢) في معجم البلدان: زويلة باب ومحلّة بالقاهرة.

(٣) في معجم البلدان: أُقليش: مدينة بالأندلس من أعمال شنتبرية، وقيل من أعمال طليطلة، ينسب إليها أبو العباس أحمد بن معروف بن عيسى التجيبي الأقليشي الأندلسي.

بالحديث بعد أن برع في اللغة. قال ابن النجّار: كان ثقة ثبتاً، حسن الطريقة متديّناً، فقيراً متعففاً نظيفاً نزهاً، وقف كتباً وخلّف ثياباً خليقة وثلاثة دنانير، لم يعقب.

وفيها توفي أبو الكرم الشهرزوري المبارك بن الحسن البغدادي شيخ المقرئين ومصنّف المصباح في العشرة، كان صالحاً خيّراً، قرأ عليه خلق كثير، وأجاز له أبو الغنائم بن المأمون وطائفة، وسمع من اسماعيل بن مسعدة وغيره، وقرأ القراءات على عبد السيد بن عتاب وطائفة، وانتهى إليه علو الإسناد.

وفيها توفّي قاضي القضاة بالديار المصرية أبو المعالي محلي بن جميع القرشي المخزومي الشافعي. ولي بتفويض العادل بن السلار، وله كتاب الذخائر في المذهب، من المصنّفات المعتبرة.

وفيها توفّي الحافظ السلامي البغدادي محمد[1] بن ناصر. كان حافظ بغداد في زمانه، أديباً وافر الحظّ من الأدب، كثير البحث عن الفوائد وإثباتها، روى عنه الأئمة فأكثر وأخذ عنه علماء عصره، منهم الحافظ أبو الفرج بن الجوزي وأكثر روايته عنه.

وفيها توفّي الفقيه الفاضل الورع الزاهد عمر بن عبدالله بن سليمان بن السري اليمني من جبال اليمن. توفّي بمكّة حاجّاً. روى القاضي أبو الطيب طاهر ابن الإمام يحيى بن أبي الخير اليمني أنه كان قد أصابه بثرات في وجهه، فرام معالجتها على يد الحكيم، وارتحل إليه وكان في ذي جبلة ـ فرأى ليلة قدومه إليه عيسى ابن مريم ـ صلوات الله على نبيّنا وعليه ـ فقال: يا روح الله؛ امسح على وجهي وادع لي؛ ففعل، فلمّا قام من آخر ليلته وأمرّ الماء على وجهه وجد فيه خفّة، وأحسّ عافية، فاستبشر بصدق رؤياه. فلمّا أسفر نظر في المرآة، فإذا وجهه قد صحّ وأنار، فحمد الله تعالى، ورجع إلى منزله قد عافاه العليم الحكيم.

قلت: انظر ـ رحمك الله ـ كيف رام الشفاء من علاج الحكمة الكسبية، فشفاه الله تعالى بحكم الحكمة الوهبية الإلهية، ولم يجعل ذلك على يد من هو أفضل منه من الأنبياء، ردّه باللطف ومناسبة الحكمة من حكيم إلى حكيم ليكون شفاؤه بفضل تقدير العزيز العليم.

سنة إحدى وخمسين وخمس مائة

فيها توفّي مسند أصبهان أبو القاسم اسماعيل بن علي بن الحسين النيسابوري، ثم الأصبهاني الصوفي، نيف على مائة سنة.

---

(١) ذكره المؤلف سابقاً ضمن وفيات هذه السنة. إلا أن ابن الأثير ذكره بين وفيات سنة ٥٥١ هـ. انظر الكامل لابن الأثير ٩/ ٥٣.

وفيها توفي أبو الحسن علي بن أحمد اليزدي الشافعي المقرىء الزاهد، برع في القراءات والمذهب، وصنّف في القراءات والفقه والزهد، وكان رأساً في الزهد والورع.

وفيها توفّي الشيخ أبو البيان بن محفوظ[١] القرشي الشافعي اللغوي الدمشقي الصوفي المعروف بابن الحوراني، كان أستاذاً ملازماً للحفظ ـ والمطالعة، كثير العبادة بالمراقبة، كبير الشأن بعيد الصيت، صاحب أحوال ومقامات، لازماً للسنّة والأثر. وله تآليف وأذكار مسجوعة وأشعار مطبوعة، وأصحاب ومريدون، وفقراء بهديه يقتدون. كان هو والشيخ رسلان شيخَي دمشق في عصرهما.

وفيها توفّي الخطيب أبو الفضل يحيى بن سلامة. كان علاّمة الزمان في علمه ومقرىء العصر في نظمه ونثره ومن نظمه الممدوح قوله:

أشكو إلى الله من نارَيْن: واحدة ... في وجنتيه وأخرى منه في كبدي
ومن سقامَيْن: سقم قد أحلّ دمي ... من الجفون، وسقم حلّ في جسدي
ومن نمومَيْن: دمعي حين أذكره ... يذيع سرّي، وواشٍ منه بالرصد
ومن ضعيفَيْن: صبري حين أذكره ... ووِدّه، ويراه الناس طوع يدي

وكان قد اشتغل بالأدب وبرع فيه، ثم اشتغل بالفقه على مذهب الإمام الشافعي، وأجاد فيه، وتولّى الخطابة في فارِقِين[٢]، وتصدّر للفتوى بها، واشتغل عليه الناس، وانتفعوا به، ولم يزل على رئاسته وجلالته وإفادته إلى أن توفي ـ رحمه الله تعالى.

سنة اثنتين وخمسين وخمس مائة

فيها نازل[٣] بغداد محمد شاه ابن السلطان محمود، فاختلف عسكر المقتفي عليه، وقاتلت العامّة، ونهب الجانب الغربي، واشتدّ الخطب، واقتتلوا في السفن أشدّ قتال، وفرّق المقتفي الأموال والسلاح، ونهض أتمّ نهوض حتّى إنه كان من جملة ما عمل له بعض الزجّاجين ثمانية عشر ألف قارورة للنفط، ودام الحصار نحواً من شهرين، وقتل خلق كثير من الفريقين، وجاءت الأخبار بأخذ همذان ـ وهي لمحمد شاه ـ فقلق لذلك وقلّت عليهم الميرة، وجرت أمور طويلة، ثم ترحّلوا خائبين.

وفيها خرجت الإسماعيلية على حجّاج خُراسان فقتلوا وسبوا، واستباحوا الركب

(١) في الكامل لابن الأثير ٩/ ٥٣: أبو البيان بنا بن محمد المعروف بابن الحوراني.
(٢) فارقين: أي ميافارقين، وقد سبق ذكر موقعها.
(٣) ذكر ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ هذه الحادثة ضمن حوادث سنة ٥٥١ هـ. انظر ٩/ ٥١، ٥٢.

وضجّ الضعفاء والجرحى. (شيخ اسماعيلي)[1] ينادي: يا مسلمون؛ ذهبت الملاحدة، فأبشروا، ومن هو عطشان سقيته، فبقي إذا كلمة أحد أجهز عليه، فهلكوا كلّهم إلى رحمة الله.

وفيها اشتد القحط بخراسان، وتخرّبت بأيدي الغزّ، ومات سلطانها سنجر، وغلب كلّ أمير على بلد، واقتتلوا، وتغيّرت الرعيّة الذين نجوا من القتل.

وفيها هزم نور الدين الفرنج على صَفَد[2] وكانت وقعة عظيمة.

وجاءت الزلزلة العظمى بالشام[3]، فهلك بحلب تحت الردم نحو خمس مائة، وخربت أكثر حماه ولم ينج من بعض البلاد إلاّ خادم وامرأة، ثم عمّرها نور الدين.

وفيها أخذ نور الدين من الفرنج غَزَّة ونابُلُس[4].

وفيها توفّي الملّقب بشمس الملوك ابراهيم بن رضوان السلجوقي، تملك حلب مدّة مديدة، ثم أخذها منه زنكي وعوّضه نِصّيبين.

وفيها توفّي سنجر[5] الملّقب بالسلطان الأعظم ابن السلطان ملك شاه ابن ألب أرسلان ابن أحمد السلجوقي صاحب خراسان، قيل: وأحد ملوك العصر وأعرفهم نسباً وأقدمهم ملكاً وأكثرهم جيشاً، خطب له بالعراقَيْن وأرمينية وأذَرْبيجان والشام والموصل وديار بكر وربيعة والجزيرة والحرمَيْن وخراسان وغير ذلك. وكان وقوراً مهيباً ذا حياء وكرم وشفقة على الرعيّة، وكان مع كرمه المفرط أكثر الناس مالاً، اجتمع في خزائنه من الجواهر ألف وثلاثون رطلاً، قيل: هذا ما لم يملكه خليفة ولا ملك، فيما يعلم.

وفيها توفّي أبو مروان عبد الملك بن ميسرة اليحصبي ثم القرطبي، أحد الأعلام ممّن جمع الله له الحديث والفقه مع الأدب البارع والدين والورع والتواضع.

وفيها توفّي مسند بخارى عثمان بن علي البيكندي ـ بالموحّدة ثم المثناة من تحت ثم النون بين الكاف والدال المهملة على ما ضبط بعضهم ـ كان إماماً عالماً ورعاً عابداً متعفّفاً.

---

(١) العبارة ناقصة، فقد جاء في الكامل لابن الأثير ٥٦/٩: فلمّا كان الغد طاف شيخ. . .

(٢) في معجم البلدان: صفد: مدينة في جبال عاملة المطلّة على حمص بالشام، وهي من جبال لبنان.

(٣) انظر ذلك في الكامل لابن الأثير: ٥٣/٩.

(٤) في معجم البلدان: نابلس وهي مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين. . بينها وبين بيت المقدس عشرة فراسخ.

(٥) في الكامل لابن الأثير ٥٥/٩: أصابه قولنج ثم بعده إسهال فمات منه، ومولده بسنجار من ديار الجزيرة في رجب سنة تسع وسبعين وأربع مائة.

وفيها توفي رئيس أصفهان وعالمها محمد[١] بن عبد اللطيف الخَجَنْدي ـ بالخاء المعجمة والدال المهملة وبينهما جيم ونون. قال ابن السمعاني: كان صدر العراق في زمانه على الإطلاق إماماً مناظراً واعظاً جواداً مهيباً، كان السلطان محمود يصدر عن رأيه، وكان بالوزراء أشبه منه بالعلماء، درس ببغداد بالنظامية، وكان يعظ وحوله السيوف. مات فجأة في قرية بين همدان والكَرْخ.

وفيها توفّي القاضي الأجلّ أبو بكر بن محمد بن عبد الله اليافعي في شهر رمضان، وحضر موته الإمام العالم العلاّمة صاحب البيان يحيى بن أبي الخير اليمني العمراني، وقال حين نعي عليه: ماتت المروءة.

قلت: ومثل هذا المقال يقال في كلّ وصف جميل مات من اتّصف به إذا كان غالباً عليه، مشتهراً فيه، متميّزاً على غيره به، كما بلغني أنّه لما توفي الشيخ الصالح أبو محمد المعروف بالسكري المغربي ـ رحمة الله عليه ـ قال الشيخ الكبير السيد الشهير العارف بالله الخبير نجم الدين الأصبهاني ـ قدّس الله روحه ـ مات الفقر من الحجاز. وهذا الشيخ أبو محمد المذكور هو ناظم القصيدة التي مفتتحها:

دار الحبيب أحق أن تهواها وتحنّ من طرب إلى ذكراها

أخذ القاضي أبو بكر المذكور الفقه عن الإمام العلامة زيد بن عبدالله اليفاعي.

قلت: وقد تقدّم نسبة اليافعي واليفاعي ـ وعلى الجملة ـ فالفرق بينهما أنّ اليافعي نسبة إلى جدٍّ واليفاعي إلى مكان. وكان هذا القاضي المذكور أديباً شاعراً مترسلاً فصيحاً، وله ديوان شعر مشهور في زمانه ومكانه، روى عن أبيه وخاله كتاب الرسالة للشافعي، ومختصر المزني بروايتهما عن الشيخ الإمام عبد الملك بن محمد اليافعي، وولي قضاء اليمن من جبالها إلى عَدَن، وكان له ولد يقال له محمد بن ابن أبي بكر، نبت نباتاً حسناً، وأخذ الفقه عن أخواله بني عبد العليم، وكان له معرفة في علم الكلام واللغة والعربيّة وحسن الشعر، مات بالجَنَد سنة ستّ وأربعين وخمس مائة، وقبره هنالك. ولمّا توفّي أبوه بعده قبر هنالك أيضاً، ولأبيه فيه مدح ومرثيّة بأشعار كثيرة، ومن قصيدة له في ذلك:

جوار الله خير من جواري له دار لكلّ خير دار

وكان القاضي أبو بكر المذكور ذا جاه كبير وحظّ عظيم عند الملوك، استوهب خراج الفقهاء، وخلّصهم من المظالم، ولمّا قدم القاضي الإمام العلاّمة ذو الفضل العديد ـ الملّقب

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٩/٥٧: محمد بن عبد اللطيف بن محمد بن ثابت أبو بكر الخجندي، رئيس أصحاب الشافعي بأصفهان، سمع الحديث بها من أبي علي الحدّاد.

بالرشيد ـ من ديار مصر إلى اليمن أكرمه القاضي أبو بكر المذكور، وبجّله، وكان الرشيد المذكور فاضلاً بارعاً ذا فنون كثيرة، وفضيلة شهيرة.

وحكي أنّه أستأذن هو والجليس أبو المعالي المصري ـ ذات يوم على الوزير فلان ـ سمّاه ـ فلم يأذن لهما، واعتذر عن المواجهة، ووجدا عنده غلظة من الحجاب، ثم عاوداه مرّة أخرى، واستأذنا عليه، فقيل لهما إنّه نائم، فخرجا من عنده فقال القاضي الرشيد:

توقّع لأيام اللئام ـ زوالها   فعمّا قليل سوف تنكر حالها
فلو كنت تدعو الله في كلّ حالة   لتبقي عليهم ما أمنت انتقالها

وقال صاحبه أبو المعالي:

لئن أنكرتم عنّا ازدحاماً   ليجتنبكم هذا الزحام
وإن نمتم عن الحاجات عمداً   فعين الدهر لا تنام

فلم يكن بعد أيام حتّى نكب الوزير نكبة عظيمة.

وفي السنة المذكورة توفّي أبو الحسن محمد بن المبارك[1] العَكْبَري الفقيه الشافعي. أتقن المذهب على أبي بكر الشاشي المستظهري، درّس وأفتى وصنّف وأقرأ له مصنّف في شرح التنبيه للشيخ أبي إسحاق ومصنّف في الأصول.

وفيها توفّي ابن خميس أبو عبدالله الحسين بن نصر الموصلي الجُهَني الشافعي، الملّقب تاج الإسلام. قال ابن خلّكان: أخذ الفقه عن أبي حامد الغزالي ببغداد، وعن غيره وولي القضاء برَحْبَة[2] مالك بن طوق، ثم رجع إلى الموصل، وصنّف كتباً منها: مناقب الأبرار على أسلوب رسالة القشيري ومناسك الحجّ وأخبار المقامات.

قلت: وقول ابن خلّكان: على أسلوب رسالة القشيري، ليس إطلاقه هذا بمرضيّ ولا صحيح، فإنّ رسالة القشيري جمعت أصنافاً من العقائد والآداب وذكر المقامات والأحوال وأسمائها واصطلاحات المشايخ الصوفيّة، من ذلك: ذكر اللوامع والطوالع، والبوادة واللوائح، والمحبّة والشوق، والأنس والهيبة، والسكر والغيبة، والفناء والبقاء، إلى غير ذلك مما يطول ذكره ومما لم يذكره في مناقب الأبرار المذكور، وإنّما ذكر فيه ممّا يناسب ما في الرسالة قوله: ومنهم ومنهم فحسب.

---

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي ٦/٤/٣٨١: ابن الخَلّ الفقيه: محمد بن المبارك بن محمد بن عبد الله بن محمد الإمام أبو الحسن ابن أبي البقاء البدادي... صنّف شرحاً للتنبيه سمّاه: توجيه التنبيه وكتاباً في أصول الفقه.

(٢) سبق ذكرها.

وخميس جدّه الأعلى، والجهني نسبة إلى جُهَيْنة القبيلة المعروفة من قضاعة، سكن في قرية من الموصل مجاور القرية التي فيها العين المعروفة بعين القيّارة[١] التي ينفع الاستحمام بها من الفالج والرياح الباردة، وهي مشهورة في برّ الموصل.

سنة ثلاث وخمسين وخمس مائة

قال ابن الأثير: فيها نزل ألف وسبعمائة من الإسماعيليّة على رزق[٢] كبير للتركمان، فأخذوه، فأسرع عسكر التركمان، فأحاطوا بهم، ووضعوا فيهم السيف، فلم ينج منهم إلاّ تسعة أنفس ـ والحمد لله ـ.

وفيها توفّي الفقيه الفاضل الورع الزاهد عمر بن اسماعيل بن يوسف. أخذ عن الإمام زيد بن الحسن المهذّب وأصول الفقه، وكان رفيق الإمام يحيى بن أبي الخير في رحلتهما إلى احاطة، ورويا عنه: غريب الحديث في اللغة لأبي عبيد، ومختصر العين للخافي، وغير ذلك، وكان فاضلاً إماماً في العربيّة. أخذ الإمام يحيى عنه الكافي والجمل للزجّاجي، وأخذ عنه محمد بن موسى العمراني: الناسخ والمنسوخ في القرآن لأبي جعفر الصفّار.

وفيها توفّي مسند الدنيا أبو الوقت عبد الأول بن عيسى بن شعيب السِّجْزِي[٣] ثم الهَرَوي الصوفي في الزاهد. كان مكثراً من الحديث عالي الإسناد، طالت مدّته، فألحق الأصاغر والأكابر، سمع صحيح البخاري ومسند الدارمي وعبد بن حميد بن جمال الإسلام الداؤدي في سنة خمس وستين وأربع مائة، وسمع من أبي عاصم الفضيلي ومحمد بن أبي مسعود الفارسي وطائفة، وصحب شيخ الإسلام الأنصاري، وخدمه، وعمّر ودخل بغداد، فازدحم الخلق عليه. وكان خيّراً متواضعاً متودّداً حسن السمت، متين الديانة محباً للرواية. وكانت ولادته بهَرَاة في ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، ووفاته ببغداد في ذي القعدة سنة ثلاث وخمسين وخمس مائة في رباط فيروز، وصلّي عليه بالجامع صلاة العامّة، وكان الإمام في تلك الصلاة شيخ الشيوخ الأكابر أبو محمد محيي الدين عبد القادر الجيلي ـ قدّس الله روحه ـ وكان الجمع متوافراً، ودفن في الشونيزي في الدّكة المدفون فيها الشيخ رُوَيْم، وهو آخر من روى في الدنيا عن الداؤدي.

---

(١) عين القيارة: بالموصل ينبع منها القار، وهي حمّة يقصدها أهل الموصل ويستحمّون فيها، ويستشفون بمائهما. معجم البلدان.

(٢) في الكامل لابن الأثير: ٩/ ٦١: فنهبوا الأموال وأخذوا النساء والأطفال.

(٣) في الأنساب للسمعاني ٣/ ٢٢٦: السجزي نسبة إلى سجستان، ومنها شيخنا أبو الوقت عبد الأول بن عيسى السجزي. . . وكان يسكن بالان بنواحي هراة.

وفيها توفّي الحافظ أبو مسعود عبد الجليل بن محمد الأصبهاني، أوحد وقته، في علمه، مع حسن طريقه وتواضعه. كان جيّد المعرفة حسن الحفظ، ذا عفة وقناعة وإكرام للغرباء.

وفيها توفّي علي ابن عساكر المقدسي ثم الدمشقي الحسّاب، صحب الفقيه نصر المقدسي.

وفيها توفي العلاّمة أبو حفص عمر بن أحمد النيسابوري الصفّار، كان من كبار الشافعية ويذكر مع محمد بن يحيى، ويزيد عليه بالأصول، قال ابن السمعاني: هو إمام بارع مبرز، جامع لأنواع من العلوم الشرعية، سديد السيرة. مات يوم عيد الأضحى.

وفيها توفي محمد بن عبدالله الكاتب المعروف بابن التعاويذي[1] البغدادي، الشاعر المشهور، وله ديوان شعر. وكان باسمه ـ رأيته في أيام الناصر لدين الله، فالتمس أن ينقل باسم أولاده. ولمّا عمي سأل أن يجدّد له راتب مدّة حياته، فكان يواصل بشيء من الخشكار الرومي، فكتب أبياتاً إلى صاحب المخزن الملّقب بفخر الدين، ومن جملتها:

حاشاك ترضى أن تكون خزانتي ... كخزانة البوّاب والنقاط
سوداء مثل الليل شعر قفيزها ... ما بين طَسُوج إلى قيراط
قد كدّرت حسني المضيّ وغيّرت ... طبعي السليم وأرقبت أخلاطي
أخنت عليها الحادِثاتُ وأفرطت ... فيها الرداة أيمّا إفراط
فتولّ تدبيري فقد أنهيت ما ... أشكوه من مرضي إلى بقراط[2]

وكان وزير الديوان ابن البلدي قد عزل أرباب الولايات، وصادرهم وعاقبهم، فعمل أبياتاً في ذلك منها:

يا قاصداً بغداد جزْ عن بلدة ... للجور فيها زجرة وعتاب
إن كنت طالب حاجة فارجع فقد ... سدّت على الراجي لها الأبواب
ليست وما بعد الزمان كعهدها ... أيّامَ يعمر ربعها الطلاّب
ويجلّها الرؤساء من ساداتها ... والجلّة الأدباء والكتّاب
والدهر في أولى حداثته وَلاَ ... يّام فيها نضرة وشباب
والفضل في سوق الكرام يباع لـ ... غالي من الأثمان والآداب

---

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي ٦/٤/١١: ابن التعاويذي: محمد بن عبيد الله أبو الفتح سبط المبارك التعاويذي البغدادي المشهور صاحب الديوان... صنّف كتاب الحجبة والحجاب.

(٢) أبقراط: طبيب يوناني ولد سنة ٤٦٠ق.م في جزيرة كوس في بحر إيجة.

بــادت وأهلــوهــا معــاً فبيــوتهــم ببقــاء مــولانــا الــوزيــر خــراب

قال ابن خلّكان: وأمّا قصيدته المشتملة على التشبيب والمدح فإنها في نهاية الحسن، قلت: وقد اختصرت في ترجمته الكبيرة المشتملة على المحاسن النضيرة على هذه الألفاظ اليسيرة، التعاويذي نسبة إلى كتابة التعاويذ ـ بالذال المعجمة وهي الحُروز. ذكر موته بعض المؤرخين في السنة المذكورة، وذكر بعهم في سنة أربع وثمانين ـ والله أعلم ـ.

وفيها توفي الإمام الأوحد العالم الأمجد عبد الله بن يحيى بن أبي الهيثم الصنعي، وهو ابن ثمان وسبعين سنة، وقيل إحدى وثمانين. وكانت مدرسته في سهفنة. وروى ابن سمرة بسنده أنتّ الإمام يحيى بن أبي الخير كان يقول: عبدالله بن يحيى شيخ الشيوخ، وكانا متحابّين يتزاوران، وحضر الإمام يحيى جنازته وهو وأصحابه من ذي الشرف ـ قال: وكان فاضلاً زاهداً ورعاً.

روي أن ناساً من بني مليك ضربوه بالسيوف فلم تقطع سيوفهم، فسألوه عن ذلك فقال: كنت أقرأ سورة ياسين. قال: والذي أرويه أنه كان يقرأ آيات، وهي قوله تعالى: ﴿**ولا يؤده حفظهما وهو العلّي العظيم**﴾، [البقرة/ ٢٥٥]، ﴿ **فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين**﴾ [يوسف/ ٦٤] و﴿**حفظاً من كلّ شيطان مارد**﴾ [الصافات/ ٧] ﴿**وحفظاً ذلك تقدير العزيزالعليم**﴾ [فصلت/ ١٢] ﴿**أنّ كلّ نفس لما عليها حافظ**﴾[الطارق/ ٤] ﴿**إنّ بطش ربّك لشديد إنه هو يبدىء ويعيد وهو الغفور الودود**﴾ [البروج/ ١٢، ١٣، ١٤]. إلى آخر السورة، قال: وهذه الرواية وهي المشهورة.

قال: وذكر أنّ الفقيه المذكور قال: خرجت يوماً مع جماعة، فرأينا ذئباً يلاعب شاة عجفاء، ولا يضرّها بشيء، فلمّا دنونا منها نفر الذئب، فوجدنا في رقبة الشاة كتاباً مربوطاً، فحللناه، فقرأنا فيه هذه الآيات.

وله مصنّفات مليحة منها: كتاب التعريف في الفقه، واحترازات المهذّب، وكان يقوم بكفايته وما يحتاج إليه رجل من مشايخ بني يحيى، وهم بطن من يافع قلت: ويافع يقولون: هم أهل يحيى وأهل موسى وأهل عيسى، ثلاثة بطون بينهم بعض قرابة، وفيهم عزّ وشرف نفوس، فأهل موسى أخوالي ـ والغالب عليهم الكرم والمشيخة وشرف النفوس ـ وأهل يحيى أخوال بني عمّي ـ والغالب عليهم العزّ والنجدة، ولا تزال الحرب بينهم وبين أعدائهم ومن أهل يحيى المذكورين الولّي الكبير الفقيه الشهير أبو بكر التغزي الذي كان السلطان الملك المؤيد في طوعه. وذكر ابن سمرة أنه تفقّه بهذا الفقيه عبدالله بن يحيى المذكور خلق كثير.

سنة أربع وخمسين وخمس مائة

فيها سار عبد المؤمن في مائة ألف، فنازل المَهْدِيّة[١] بحراً وبرّاً، فأخذها من الفرنج بالأمان، فخرجوا منها في البحر في وقت الشتاء، فغرق أكثرهم[٢] ـ ولله الحمد ـ.

وفيها دخلت الغزّ بنيسابور، ووقعت فتنة وحروب وحمية وعصبية بين الشافعية والعلوية ومعهم الحنفية في نيسابور وتعبت الرعيّة، وأحرقت أسواق ومدارس، ووقع القتل بالشافعيّة، ثم انتصروا وبالغوا في أخذ الثأر، وحرقوا مدرسة الحنفيّة.

وفيها توفّي أبو جعفر العباسي أحمد بن محمد بن عبد العزيز نقيب الهاشميين، حدّث ببغداد وأصبهان، وكان صالحاً متواضعاً فاضلاً مسنداً.

وفيها توفّي أبو زيد جعفر بن زيد الشامي الحموي، مصنّف رسالة البرهان كان صالحاً عابداً صاحب سنّة وحديث.

وفيها توفي الحسن بن جعفر المتوكّل العبّاسي. وكان أديباً شاعراً صالحاً.

وفيها توفّي محمد[٣] شاه ابن السلطان محمود بن محمد ابن ملك شاه السلجوقي، وكان كريماً عاقلاً.

سنة خمس وخمسين وخمس مائة

فيها توفي العميد ابن القلانسي حمزة بن أسد التميمي الدمشقي.

وفيها توفّي سلطان غَزْنة حسن[٤] شاه، تملّك بعد أبيه بهرام شاه.

وفيها توفي قاضي العراق أبو جعفر الثقفي عبد الواحد بن أحمد، ولاّه المستنجد قضاء القضاة، وولي بعده ابنه جعفر.

وفيها توفّي الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى بن الظافر العبيدي[٥]، أقيم في الخلافة بعد قتل أبيه ـ وله خمس سنين، وقد تقدّم أن نصر بن عباس قتله بأمر عباس، ولمّا كان صبيحة الليلة التي قتل فيها الظافر حضر عباس إلى القصر على جاري عادته في الخدمة،

---

(١) المهديّة: وهي على ساحل بحر الروم داخلة فيه ككفّ على زند. معجم البلدان/ وتتبع اليوم دولة تونس وتقع على الساحل الشرقي لها بين سوسة وصفاقس.

(٢) انظر الكامل لابن الأثير ٩/ ٦٣، ٦٤.

(٣) في الكامل لابن الأثير ٩/ ٦٦: فأصابه سلّ وصال به، فمات بباب همذان.

(٤) في الكامل لابن الأثير ٩/ ٧٠: في هذه السنة في رجب توفي السلطان خسرو شاه بن بهرام شاه ابن مسعود بن ابراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين صاحب غزنة.

(٥) صاحب مصر/ انظر الكامل لابن الأثير ٩/ ٦٨.

وطلب الاجتماع به موهماً عدم اطّلاعه على قتله، وطلبوه في جميع مظانه في القصر، فلم يقفوا له على خبر، فتحقّقوا عدمه. فأخرج عباس أخَوَي الظافر وقال: أنتما قتلتما إمامنا، وما نعرفه إلاّ منكما، فأصرّا على الإنكار صادقين، فقتلهما في الوقت لنفي التهمة عن نفسه، ثم استدعى بولده الفائز ـ وعمره خمس سنين كما تقدّم، وقيل: سنتان ـ فحمله على كتفه ووقف في صحن الدار، فأمر أن تدخل الأمراء، فدخلوا فقال لهم: هذا ولد مولانا، وقد قتل عمّاه أباه، وقد قتلهما كما ترون، والواجب إخلاص الطاعة لهذا الطفل، فقالوا بأجمعهم: سمعنا وأطعنا. فصاحوا صيحة واحدة، فاضطرب منها الطفل، فبال على كتف عبّاس، وسمّاه: الفائز، وسيّره إلى أمّه، واختلّ من تلك الصيحة، فصار يصرع في كل وقت، ويختلج، وخرج عباس إلى داره، ودبّر الأمور، وانفرد بالتصرف ـ وكان وزيراً للظافر ـ وَأمّا أهل القصر فإنّهم اطّلعوا على باطن الأمر، وأخذوا في الحيلة في قتل عباس وابنه، وكاتبوا طلائع ابن رُزِّيك ـ بضم الراء وتشديد الزاي المكسورة وسكون المثناة من تحت بعدها كاف ـ الملّقب بالملك الصالح، وكان إذ ذاك والي سَبْتَة بني حصيب في الصعيد، وسألوه الانتصار لهم، وقطّعوا شعورهم، وسيّروها في طيّ الكتاب، وسوّدوا الكتاب، فلمّا وقف الصالح عليه اطلع من حوله من كبار الأجناد، وتحدث معهم في ذلك فأجابوه إلى الخروج معه، واستمال جمعاً من العرب، وساروا قاصدين القاهرة ـ وقد لبسوا السواد ـ فلمّا قاربوها خرج إليهم جميع من فيها من الأمراء والأجناد والسودان، وتركوا عبّاساً وحده، وخرج عباس في ساعته من القاهرة ـ ومعه ولده قاتل الظافر، وشيء من ماله وجماعة يسيرة من أتباعه ـ وقصدوا طريق الشام.

وأمّا صالح فإنّه دخل القاهرة بغير قتال، وما قدّم شيئاً على النزول بدار عباس المعروفة بدار المأمون بن البطائحي، وقد ضاع[1] مدرسة للحنفيّة، وتعرف بالسيوفية، واستحضر الخادم الصغير الذي كان مع الظافر ومن معه من المقتولين، وحملوا وقطعت لهم الشعور، وانتشر البكاء والنيّاحة في البلد، ومشى الصالح والخلق قدّام الجنازة إلى موضع الدفن، وتكفّل الصالح بالصغير، ودبّر أحواله.

وأمّا عباس ومن معه فإنّ أخت الظافر كاتبت فرنج عَسْقَلان بسببه، وشرطت لهم مالاً جزيلاً إذا أمسكوه، فخرجوا عليه وصادفوه، فتواقعوا واقتتلوا، وقتلوا عباساً وأخذوا ماله وولده، وانهزم بعض أصحابه إلى الشام، وسيّرت الفرنج نصر بن عباس القاتل المذكور إلى القاهرة محتاطاً به في قفص حديد، فلما وصل تسلّم رسولهم ما شرطوا لهم من المال، وأخذوا نصراً المذكور، ومثّلوا به، ثم صلبوه على باب زَوِيلة، ثمّ أحرقوه. هذه خلاصة

---

(١) لعلّها: صنع.

الواقعة وفيها طول ـ وأقيم بعد الفائز المذكور العاضد[١].

وفي السنة المذكورة توفّي المقتفي لأمر الله محمد بن المستظهر بالله بن المقتدي بالله العباسي. كان عالماً فاضلاً لبيباً، حليماً شجاعاً، مهيباً خليقاً للإمارة كامل السؤدد، لا يجري في دولته أمر وإن صغر إلاّ بتوقيعه، ووزر له علي بن طراد الزينبي، ثمّ أبو نصر بن جهيرة، ثم عليّ بن صدقة، ثم ابن هبيرة وحاجبه أبو المعالي بن الصاحب وجماعة بعده. وكان مليح الشيبة عظيم الهيبة، وكانت دولته خمساً وعشرين سنة، وقد جدّد باباً للكعبة، واتخّذ لنفسه تابوتاً من العقيق دفن فيه، وعقدت البيعة بعده لولده المستنجد بالله.

وفيها توفّي أبو الفتوح الطائي محمد بن محمد الهمداني صاحب الأربعين.

سنة ست وخمسين وخمس مائة

فيها توفي أبو حكيم[٢] النهرواني الزاهد الفرضي، أحد من يضرب به المثل في الحلم والتواضع، أنشأ مدرسة بباب الأزج، واجتهد جماعة على امضائه فلم يقدروا.

وفيها توفي سلطان الغور الحسين بن الحسين.

وفيها توفي سليمان شاه ابن السلطان محمد السلجوقي قيل: كان أهوج أخرق فاسقاً، بل زيديقاً يشرب الخمر في نهار رمضان، قبض عليه الأمراء ثم خنق.

وطلائع الملّقب بالملك الصالح[٣] ابن رُزيك، قد تقدّم دخوله القاهرة لما استنجد به عند قتل الملك الظافر، فتولّى الوزارة في أيام الفائز، واستقل بالأمور وتدبير أحوال الدولة. وكان فاضلاً محبّاً لأهل الفضائل، سمحاً في العطاء سهلاً في اللقاء جيّد الشعر، ومن شعره:

كم ذا يرينا الدهر من أحداثه ... عبراً وفينا الصدّ والإعراض
ينسى الممات وليس يجري ذكره ... فينا فتذكرنا به الأمراض

ومنه:

ومهفهف ثمل القوام سرت إلى ... أعطافه النشوات من عينيه

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٩/٦٨: العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله بن يوسف ابن الحافظ.

(٢) في معجم البلدان: النهروان: ومنه أبو حكيم ابراهيم بن دينار بن أحمد بن الحسين بن حامد بن ابراهيم النهرواني البغدادي الفقيه الحنبلي، شيخ صالح نزل باب الأزج، وله هناك مدرسة منسوبة إليه... مولده سنة ٤٨٠ هـ.

(٣) في الكامل لابن الأثير ٩/٧٥: الملك الصالح أبو الغارات طلائع بن رزيك الأرمني ـ وزير العاضد العلوي صاحب مصر.

ماضي اللحاظ كأنّما سلّت يدي سيفي غداة الروع من جفنيه
والناس طوع يدي وأمري نافذ فيهم وقلبي الآن طوع يديه
فأعجب لسلطان يعمّ بعدله ويجور سلطان الغرام عليه

مع أبيات أخرى، ومنه:

مشيبك قد نضى صبغ الشباب وحلّ الباز في وكر الغراب
تنام ومقلة الحدثان تقضي وما ناب النوائب عنك نابي
وكيف بقاء عمرك وهو كنز وقد أنفقت منه بلا حساب

وكان المهذّب عبدالله بن أسعد الموصلي قد قصده من الموصل مدحه بقصيدته الكافية التي أولها.

أما كفاك تلاقي في تلاقيك ولست تنقم إلاّ فرط حبيّكا
وفيم تغضب ـ إن قال الوشاة: سَلا وأنت تعلم أنّي لست أسلوكا
لا نلت وصلك إن كان الذي زعموا ولا شفا ظمئي جودُ ابن رُزّيكا

وهي من نخب القصائد. ولما مات الفائز وتولّى العاضد مكانه استمّر الصالح على وزارته، وزادت حرمته، وتزوّج العاضد ابنته، فاغتّر بطول السلامة. وقد كان العاضد تحت قبضته، فرزق عليه من يقتله من أجناد الدولة، فكمنوا للصالح مرّة بعد أخرى حتّى قتلوه، وخرجت الخلع بمنصبه لولده العادل، وهذا الصالح المذكورهو الذي بنى الجامع على باب زَوِيلة بظاهر القاهرة، وكان لما خرج أشرف على الوفاة قد أوصى ولده أنْ يتعّرض لشَاَور وزير مصر بسوء، وكان قد تمكّن في بلاد الصعيد، ثمّ إنه قدم إلى القاهرة، وهرب العادل وأهله منها، وحمل من الذخائر ما لا يحصى، وندب شاوَرُ جماعة، فلحقوه وأخذوه أسيراً، وأحضروه إلى باب شاور، فوقف عنده زمناً طويلاً، ثم حبسه مدّة، ثمّ قتله وتولّى مكانه من الوزارة ومدّة.

ثم خرج عليه أبو الأشبال ضِرغام بن عامر الملّقب بفارس المسلمين اللخمي المنذري، وغلبه وأخرجه من القاهرة. وذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه ابنّ شاور وصل إلى الملك العادل نور الدين مستنجداً، فأكرمه واحترمه، وبعث معه جيشاً، ثم إنّ شاور بعث إلى ملك الفرنج، واستنجده، وضمن له أموالاً، فرجع عسكر نور الدين إلى الشام، وحدّث ملك الفرنج نفسه بملك مصر، فلما بلغ نور الدين ذلك جهّز عسكراً، وجاءت أمور يطول ذكرها، ثم إن شاور المذكور قُتل، وكان قتله عند مشهد السيّدة نفيسة ـ رضي الله عنها ـ بين القاهرة ومصر، وكان طلائع المذكور أديباً شاعراً، فاضلاً جواداً، ممدحاً رافضياً، يجمع الفقراء ويناظرهم على الإمامة وعلى القدر، وله مصنّف في ذلك.

وفيها توفي أبو الفتح عبد الوهاب بن محمد المالكي المقرىء.

وفيها توفّي سلطان ما وراء النهر خاقان محمود بن محمد التركي، ابن بنت السلطان ملك شاه السلجوقي.

سنة سبع وخمسين وخمس مائة

فيها حجّ الركب العراقي، وحيل بينهم وبين البيت إلاّ شرذمة يسيرة، ورجع الناس بلا طواف[(١)].

وفيها توفي أبو مروان عبد الملك بن زهير الإشبيلي طبيب عبد المؤمن وصاحب التصانيف.

وفيها توفّي الشيخ الكبير الولي الشهير ذو الفتح الظاهر والحال الباهر، والمعارف والأسرار، والكرامات والأنوار، والمقامات العليّة والمواهب السنيّة، والأنفاس الصادقة والآيات الخارقة: عدي بن مسافر الشامي ثم الهكّاري[(٢)] الزاهد. صحب الشيخ عقيلاً المنبجي والشيخ حماد الدبّاس، وإليه ينتسب الطائفة العَدَوِيّة. سار ذكره في البلاد، وتبعه خلق كثير، وعظم فيه الاعتقاد، وانقطع إلى جبل الهكّارية من أعمال الموصل، وبنى هناك زاوية، مال إليه أهل تلك النواحي ميلاً عظيماً، وقبره عندهم من المزارات المعدودة والمشاهد المقصودة ـ رضي الله تعالى عنه، ونفعنا به وبجميع الصالحين.

وله كرامات كريمة وآيات عظيمة، منها أنّ بعض أصحابه كان مختلياً بنفسه في بعض الصحارى، فقال له: يا سيدي، أشتهي الانقطاع في هذا المكان، فلو كان عندي ماء أشرب منه، وما أقتات به، فقام الشيخ إلى صخرتين كانتا هنالك، فوكز إحداهما فانفجرت منها عين ماء حلو عذب، ووكز الأخرى فنبتت فيها في الوقت شجرة رمّان، وقال لها: أيتها الشجرة؛ أنبتي بإذن الله تعالى يوماً رمّاناً حلواً، ويوماً رمّاناً حامضاً، فقال صاحبه: وهو إسرائيل بن عبد المقتدر فأقمت هنالك سنين آكل من تلك الشجرة رماناً يوماً حلواً ويوماً حامضاً أحسن رمّان وأطيبه في الدنيا.

وفيها توفي الشيخ الإمام المحدّث شيخ المحدثين سراج الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر بن حمير اليمني الهمداني. روى عن جماعة كثيرين، وروى عنه الإمام يحيى بن أبي

---

(١) في الكامل لابن الأثير ٩/ ٨٠: لفتنة جرت بين أمير الحاج وأمير مكّة، كان سببها أن جماعة من عبيد مكة أفسدوا في الحاج بمنى، فنفر عليهم بعض أصحاب أمير الحاج، فقتلوا منهم جماعة.

(٢) في الكامل لابن الأثير ٩/ ٨٠: المقيم ببلد الهكّاريّة ـ من أعمال الموصل ـ وهو من الشام من بلد بعلبك.

الخير صحيح البخاري وسنن أبي داود، واجتمع عليه جماعة، وسمعوا عليه الكتابين المذكورين. وكان في الحديث متقناً للرواية عالماً بصحيحه ومعلوله. قال الإمام يحيى بن أبي الخير: ما رأيت أحفظ من هذا الشيخ - يعني: علي بن أبي بكر المذكور - في حفظ الحديث ولا أعرفَ منه، قيل له: ولا في العراق؟ قال: ما سمعت، قال ابن سمرة: وعنه أخذ شيخ قاضي عدن أحمد بن عبدالله القريظي، وله تصنيف مليح يعرف بكتاب الزلازل والأشراط، قال: وإليه ينتهي سند أكثر أصحابنا، وسمع عليه خلق كثير في الجَنَد[1] وعدن وغيرهما من بلاد اليمن.

وفيها توفّي أبو سعيد المؤيد بن محمد الأندلسي الشاعر المشهور، من أعيان شعراء عصره، وله نظم عجيب مشتمل على المعاني المبتكرة، من ذلك قوله في وصف طنبور:

وطنبور مليح الشكل يحكي ... بنغمته الفصيحة عَنْدَ ليبا
روى لما روى نغماً فصاحاً ... حواها في تقلّبها قضيبا
كذا من عاشر العلماء طفلاً ... يكون إذا نشا شيخاً أديبا

ولبعضهم في هذا المعنى:

وعودٍ له نوعان من لذّة المنى ... فبورك جانٍ مجتنيه وغارس
تغنّت عليه وهو رطب حمامة ... وغنّت عليه قَيْنَة وهو يابس[2]

سنة ثمان وخمسين وخمس مائة

فيها توفّي الشيخ الزاهد أحمد بن محمد بن قدامة، وكان خطيب جَمّاعِيل[3] بفتح الجيم وتشديد الميم وبكسر العين المهملة بعد الالف واللام بعد مثناة من تحت ففرّ من الفرنج مهاجراً إلى الله عزّ وجلّ، ثم صعد إلى الجبل، وكانوا يعرفون بالصالحية - لنزولهم بمسجد بني صالح، ومن ثم قيل جبل الصالحية - وكان قانتاً لله زاهداً صالحاً، صاحب جدّ وصدق وحرص على الخير - رحمه الله تعالى -.

وفيها توفّي ابن القطّان هبة الله بن الفضل الشاعر المشهور البغدادي، سمع الحديث من جماعة، وسُمع عليه، وكان غاية في الخلاعة والمجون، كثير المزاح والمداعبات، وله ديوان شعر، وذكره السمعاني في الذيل وقال: شاعر مجود مليح الشعر، رقيق الطبع، إلاّ أنّ الهجاء غالب عليه، وهو ممّن يتّقي لسانه، كتبت عنه حديثين، وعلّقت عنه مقطعات من

(١) الجند: سبق ذكر موقعها.
(٢) القينة: المغنّية.
(٣) جماعيل: قرية في جبل نابلس من أرض فلسطين. معجم البلدان.

شعره، وذكر العماد في خريدة القصر: وكان مجمعاً على ظرفه ولطفه.

وحكي أنّه دخل يوما على الوزير الزينبي[١] وعنده الحَيْص ـ وقد عمل بيتَيْن لا يمكن أن يعمل لهما ثالث، لأنه قد استوفى[٢] المعنى فيهما، فقال الوزير: وما هما؟ فأنشد:

زار الخيال بخيلا ـ مثل مرسله فما شفاني منه الضمّ والقبل
ما زارني قطّ إلا كي يوافقني على الرقاد فينفيه ويرتحل

فالتفت الوزير إلى الحيص وقال له: ما تقول في دعواه؟ فقال: إن أعادهما سمع لهما الوزير ثالثاً، فقال له الوزير: أعدهما، فوقف الحيص لحظة ثمّ أنشد:

وما درى أن نومي حيلة نصبت لِطَيْفه حين أعيى اليقظة الحيل

فاستحسن الوزير ذلك منه.

وفيها توفي سلطان المغرب عبد المؤمن بن علي القيسي الكُومِي التلمساني، الذي قام نائباً عن محمد بن تومَرْت المعروف بالمهديّ، كان أبوه وسيطاً في قومه، وكان صانعاً في عمل الطين، يعمل منه الآنية، فيبيعها، وكان عاقلاً من الرجال وقوراً.

ويحكى أن عبد المؤمن كان في صباه نائماً تجاه أبيه، أبوه مشتغل بعمله في الطين، فسمع أبوه دويّاً من السماء، فرفع رأسه فرأى سحابة سوداء من النحل قد هوت مطبقة على الدار، فنزلت كلّها مجتمعة على عبد المؤمن ـ وهو نائم ـ فغطّته، ولم يظهر من تحتها، ولا استيقظ لها، فرأته أمّه على تلك الحال، فصاحت خوفاً على ولدها، فسكّتها أبوه وقال: لا بأس عليه، بل أنّي متعجّب ممّا يدلّ عليه ذلك، ثم غسل يديه من الطين، ولبس ثيابه، ووقف ينظر ما يكون من أمر النحل، فطار عنه بأجمعه، فلم ير به أثراً، ولم يجد به ألماً، وكان بالقرب منه رجل معروف بالزاجر، فمضى أبوه إليه، فأخبره بما رآه من النحل مع ولده، فقال الزاجر: يوشك أن يكون له شأن يجتمع على طاعته أهل المغرب ـ فكان من أمره ما اشتهر ـ.

وجرى له في حرب مراكُش فصول يطول شرحها، ثمّ ملكها وغيرها بلداً بعد بلد، وأوّل ما أخذ من البلاد وَهْران[٣] ثم تِلِمْسان، ثم فاس، ثم سَلاً، ثم سَبْتَة، فانتقل بعد ذلك إلى مراكش، وحاصرها أحد عشر شهراً، ثمّ ملكها، واستوثق له الأمر وامتدّت مملكته إلى

---

(١) علي بن طراد الزينبي.
(٢) الشاعر الحيص بيص: سعد بن محمد بن سعد أبو الفوارس ـ وسيرد ذكره قريباً.
(٣) في معجم البلدان: وهران: مدينة على البر الأعظم من المغرب، بينها وبين تلمسان سُرى ليلة، وهي مدينة صغيرة على ضفّة البحر.

المغرب الأقصى والأدنى وبلاد إفريقية وكثير من بلاد الأندلس ـ وتسمّى أمير المؤمنين ـ وقصدته الشعراء، وامتدحته بالمدائح الحسان، وكان أبيض مليحاً، أسود الشعر وضياً، معتدل القامة جهوريّ الصوت، فصيحاً عذب المنطق، لا يراه أحد إلاّ أحبّه بديهة، وكان ملكاً عادلاً عظيم الهيبة عالي الهمّة، كثير المحاسن متين الديانة، يقرأ كلّ يوم سبعاً، ويجتنب لبس الحرير، ويصوم الاثنين والخميس، ويهتمّ بالجهاد والنظر في الأمور، كأنمّا خلق للملك. وذكر عماد الأصبهاني في كتاب الخريدة أنّه لما أنشده بعض الفقهاء:

ما هزّ عطفَيْه بين البيض والأسل ... مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

أشار إليه أن يقتصر على هذا البيت، وأمر له بألف دينار، ولما تمّهدت له القواعد وانتهت أيامه خرج من مراكش إلى مدينة سَلاَ، فأصابه بها مرض شديد، وتوفّي بها رحمه الله تعالى ـ وعهد إلى ولده أبي عبد الله محمد، فاضطرب أمره، وأجمعوا على خلعه، وبويع أخوه يوسف. والكُومي: بضمّ الكاف وسكون الواو، وبعدها ميم: نسبة إلى كومية، وهي قبيلة صغيرة نازلة بساحل البحر من أعمال تلمسان.

وذكر في بعض تواريخ المغرب أنّ ابن تومرت كان قد ظفر بكتاب يقال له: الجَفْر، وفيه ما يكون على يده، وقضية عبد المؤمن وجيشه واسمه وغير ذلك ممّا تقدّم ذكره. وقال ابن قتيبة في أوائل كتاب اختلاف الحديث بعد كلام من علم باطنه بما وقع طويل: وأعجب من هذا التفسير ـ تفسير الروافض للقرآن الكريم وما يدّعونه إليهم عن الجفر الذي ذكره سعد ابن هارون العجلي وكان رأس اليزيدية ـ فقال شعراً:

ألم تر أنّ الرافضين تفرّقوا ... فكلّهم في جعفر قال منكرا
وطائفة قالوا إمام ومنهم ... طوائف سمتّه النبيّ المطهرّا
ومن عجب لم أقصه جلد جفرهم ... برئت إلى الرحمن ممّن تجفّرا

مع أبيات أخرى.

قم قال ابن قتيبة: وهو جلد جَفْرا دّعوا أنّه كتب لهم فيه الإمام كلّ ما يحتاجون إلى عمله كلّ ما يكون إلى يوم القيامة، قيل: ويعنون بالإمام: الإمام جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه وإلى هذا الجفر المذكور أشار أبو العلاء المعرّي بقوله:

لقد عجبوا لأهل البيت لمّا ... أتاهم علمهم في مَسْك جَفْر
ومرآة المنجّم وهي صغرى ... أرته كلّ عامرة وقَفْر

وقوله في: مَسْك جفر: هو بفتح الميم وسكون السين المهملة: الجلد، والجَفْر: بفتح الجيم وسكون الفاء وبعدها راء: من أولاد المعزّ، ما بلغ أربعة أشهر والاثني جفرة. وكانت

عادتهم في ذلك الزمان أنّهم يكتبون في الجلود والعظام والخزف، وما شاكل ذلك.

وفيها توفي سديد الدولة ابن الأنباري صاحب ديوان الإنشاء محمد بن عبد الكريم الشيباني الكاتب البليغ، أقام في الإنشاء خمسين سنة، وناب في الوزارة ونفذ رسولاً، وكان ذا رأي وحزم وعقل(١).

وفيها توفي الفقيه العلاّمة الإمام مفيد الطالبين وقدوة الأنام الذي سارت بفضائله الركبان، واشتهر علمه في البلدان، النجيب البارع صاحب البيان أبو زكريا يحيى بن أبي الخير اليمني، من بني عمران المنتسبين إلى معدّ بن عدنان. ولد في سنة تسع وثمانين وأربع مائة، وتفقّه بجماعة، منهم: خاله أبو الفتوح، ومنهم الإمامان زيد بن عبد الله اليفاعي، وزيد بن الحسين العايشي، وموسى بن علي الصعبي، وعبدالله بن أحمد، وعمر بن اسماعيل بن علقمة، وسالم بن عبد الله، وغير هؤلاء المذكورين، ومنهم شيخه في الحديث، ومنهم شيخه في الفقه، ومنهم شيخه في النحو ومنهم شيخه في اللغة ومنهم شيخه في الأصول. وحفظ على ـ ما ذكر ابن سمرة ـ: كتاب المهذّب واللمع للشيخ أبي إسحاق، والملخّص والإرشاد لابن عبدويه، وكافي الفرائض للصرد، والذي ذكره من مسموعاته من الحديث صحيح البخاري وسنن أبي داود وجامع الترمذي، وقرأ في أصول الدين كتاب الحروف الستّة، وتزوّج في سنة سبع عشر بأمّ القاضي طاهر المذكور، وكان قد تسرّى قبلها بحبسه.

وتفقّه ولده القاضي أبو الطيب طاهر المذكور، وخلفه في حلقته ومجلسه، وأجاب عن المشكلات في حياته، وجالس العلماء وروى عنهم، وأخذ عن غير واحد، وجاور في مكّة سنين، فروى عن كبار المحدّثين في الحرم الشريف: كالأنصاري، وعن شيخ المقرئين أبي عبدالله محمد بن ابراهيم الحضرمي، ثمّ عاد إلى وطنه في سنة ستّ وستين، وولي قضاء ذي جِبْلَة وأعمالها من زمان بني مهدي إلى بعض أيام شمس الدولة من بني أيوّب، وصنّف مصنّفات مليحة منها: مقاصد اللمع، ومنها كتاب في مناقب الإمامين الشافعي وأحمد بن حنبل، وجمع بين علم القراءات والحديث والفقه، وبرع في علم الكلام، وناظر بعض المخالفين بين يدي سلطان الوقت، فقطعه مراراً.

رجعنا إلى ذكر والده الإمام يحيى بن أبي الخير، وفي سنة ثمان عشرة ابتدأ بمطالعة الكتب من شروح مختصر المزني والشامل لابن الصبّاغ وكتاب العدّة والإبانة، وشرح التلخيص وغير ذلك من الفقهيات، فوجد فيها من المسائل ما ليس مذكوراً في المهذّب،

(١) وفي الكامل لابن الأثير ٩/ ٨٤: عاش حتى قارب التسعين سنة، وهو من الشعراء المشهورين.

فاستشار شيخه زيد بن عبدالله اليفاعي في ذلك، فأشار عليه بجمع ما ليس في كتاب المهذّب، وشرع في تعليق كتاب الزوائد في السنة المذكورة، وولد ابنه طاهر سنة ثمان عشرة، وكمّل كتاب الزوائد في سنة عشرين، وحجّ وزار في سنة إحدى وعشرين.

وذكر ابن سمرة كلاماً فيما يتعلّق بما جرى له في تلك الحجّة من المناظرة والكلام في العقيدة مع بعض العلماء، رأيت تأخير ذكر ذلك إلى آخر ما يتعلّق به من الكلام، لئلا يفصل بين ما يتعلّق بما نحن بصدده من تصنيفه، وبين غيره ـ ممّا يطول فيه الكلام ويباين في مذاهب الأنام ثم رجع فاستخرج كتابه المؤلف في الدور من كتاب ابن اللبّان وغيره، ثم نظر في كتابه الزوائد، فإذا هو قد رتّبه على ترتيب شروح مختصر المزني، وأغفل الدور وأقوال فقهاء الأمّة من أرباب المذاهب المدونة المشهورة وغيرهم، فطالع وراجع، ثم ابتدأ بتصنيف كتابه البيان سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، وفرغ منه سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، فرتّبه على ترتيب محفوظه ـ وهو المهذّب ـ فجمع البيان في ستّ سنين، وجمع الزوائد في قريب من أربع سنين. قال ابن سمرة: وذكر في البيان عن الشريف العثماني[1] مسائل تدلّ على غزارة علمه وفضله وجواز الأخذ باجتهاده ونقله.

قلت وهذا الذي ذكره من نقله عن العثماني صحيح، وما ذكره من جواز الأخذ باجتهاد العثماني غير صحيح، فإنّ للعثماني في المذهب وجوهاً ضعيفة، جماهير أصحابنا على خلافها. ومن ذلك ما نقل عنه أنّ المكّي وغيره ممّن ينشىء إحرام الحجّ من مكّة إذا طاف عند خروجه إلى عرفة، وسعى بعده يجزيه عن السعي المفروض عليه في الحجّ، وهذ غير مسلّم ولا موافق عليه، فإنّه لا بدّ أن يقع السعي بعد طواف الإفاضة أو طواف القدوم، ولا يصحّ بعد طواف لا يتعلّق بمناسك الحجّ هذا هو المذهب الصحيح.

وأمّا من أطلق من المصنّفين في المذهب قوله أنه يصحّ بعد طواف صحيح. وقول بعضهم أنّه يصحّ بعد طواف ما فلا بدّ من تقييد ذلك بقولنا: متعلّق بمنسك من مناسك الحجّ، وتكون القيود في ذلك أربعة: الأول بعد طواف، والثاني صحيح، والثالث من مناسك الحجّ، والرابع لم يتخلّل بينه وبين السعي وقوف. ومع ذلك فإنّ كتاب البيان وإن كان كتاباً جليلاً منتفعاً به في الآفاق فإنّ فيه وجوهاً ضعيفة ـ ليس هذا الكتاب موضع تتبّع ذكرها ـ ويكفي منها ما ذكروا أنّ المأموم إذا قال: ﴿إيّاك نعبد وإيّاك نستعين﴾ الفاتحة عند قراءة إمامه ذلك تبطل صلاته.

ورجعنا إلى ذكر ما يتعلّق بتصنيفه، قال ابنه القاضي طاهر: إنّه ما علّق الزوائد حتّى

---

(١) الإمام الشريف محمد بن أحمد بن أحمد العثماني. سيرد ذكره.

طالع في المهذّب أربعين مرّة بعد حفظه له. قلت: يعني أنه تكرّر تتبّع الكتاب لينظر: هل ما وجد من الزوائد في غيره فيه أم لا؟ لئلاّ يقع ما يسميّه ـ زوائد ما هو موجود فيه ـ وذكر كلاما ممّا يدلّ على قوّة حفظه لكتاب المهذّب وفهمه فيه، وتصرّفه في معانيه وإفادة الطلبة وتفهيمهم على حسب ما يليق بكلّ منهم من بسط الكلام والاقتصار على ما يحصل به الإفهام.

قلت ولا شكّ أنّ الرجل كان كذلك ماهراً في كثير من العلوم ـ سيّما علم الفقه ـ خصوصاً كتاب المهذّب، وعليه العمدة كان في جمعه كتاب البيان، ثمّ أضاف إليه ما ذكر من الزوائد كما فعل الشيخ في عبد الغفار في كتابه: الحاوي كما نبّه في خطبته بقوله: سمّيته الحاوي لما حوى الفوائد الزوائد وما في اللباب، يعني أنه أودعه ما تضمّنه كتابه المسمّى باللباب، مع زوائد أخرى أضافها إليه. وبلغني أنه كثيراً ما كان يعتمد في جمع البيان على كتاب الشامل لابن الصبّاغ في بعض ما نقل.

وروى ابن سمرة أنّه لما فرغ من كتاب البيان[1] سأله الفقيه محمد بن مفلح الحضرمي ـ وكان من جلّة أصحابه أن يستخرج المسائل المشكلة، فاستخرج ذلك ووضعه في كتاب مستقلّ. وذكر أنه في أثناء تصنيف البيان اعتذر من التدريس لاشتغاله بجمعه.

قلت: واللذة يجدها مع الاشتغال ـ خلقها الله تعالى في قلوب المشتغلين بالعلوم أو بالأعمال ـ ليكون عوناً على تحصيل المقاصد، بحيث إن الإنسان يقدّم ذلك الشغل الذي هو فيه على غيره من حظوظ النفس، حكمة من الله تعالى ولطفاً، حتّى أخبرني بعض شيوخنا أنّه كان يتغدى بالاشتغال بالعلم، قلت: ولقد كنت في بعض الأوقات يبيت عشاي مطروحاً من أوّل الليل إلى آخر وقت السحر، لما أجد من الميل إلى غيره.

رجعنا إلى ما كنّا. وذكر أنّه أقام بِسَيْر[2] بفتح السين المهملة وسكون المثناة من تحت وفي آخره راء وفي أوله موحدة مكسورة: مكان، حتّى ظهرت حروب فيه وفتن، فانتقل إلى ذي السَّفَال[3]، ثمّ إلى ذي أشرق[4]، وأقام فيه سبع سنين يدرس ويقرأ، ثم ظهر ابن مهدي واستولى على زَبيد وأعمالها، ثمّ قويت شوكة ولده مهدي، وأغار على الجَنَد وبواديها، وقتل من قتل في تلك النواحي سنة سبع وخمسين وخمس مائة، ثمّ في سنة ثمان أخذ جبال

(١) البيان في الفقه. انظر معجم البلدان في «سير».
(٢) في معجم البلدان: سير: بلد باليمن في شرقي الجند.
(٣) في معجم البلدان: ذو سغال: من قرى اليمن نسب إليها أبو إسحاق ابراهيم بن عبد الوهاب بن أسعد السفالي.
(٤) في معجم البلدان: ذو أشرق: بلدة باليمن قرب ذي جبلة منها أحمد بن محمد الأشرقي الشاعر.

اليمن وقتل فيها قتلاً ذريعاً، وحرق مسجدها في يوم الاثنين الثامن من شهر شوال، ثمّ رجع إلى زَبيد ومات فيها، ثم ولي أخوه عبد النبي المعروف بالسيّد والإمام، على ألسنة العوام، وأصحابه يقولون: عليه السلام وأسر أبا النور بن أبي الفتح، فمات في أسره بزبيد.

وفي سنة اثنتين وستين أخذ المَجْمَعَة[1] واستولى على مخلاف التَعْكُر[2]، وزالت على يديه دولة آل زريع من المخلاف، دامت دولة بني مهدي خمس عشرة سنة وثلاثة أشهر وثمانية أيام، إلى أن قدم السلطان شمس الدين[3] من الديار المصرية، ثم بعده سيف الإسلام[4]، كلاهما من بني أيوّب، وسيأتي ذكرهما مع غيرهما في تراجمهم إن شاء الله تعالى. وعبد النبي[5]، المذكور هو الذي جرى له مع الشيخين الكبيرين الوليين الشهيرين اليمنيين القديمين أبي العباس الصيّاد والشيخ علي الأسدي ما جرى في مسجد الفازة من ساحل زبيد ـ على ما مضى ذكره.

ولما كثر الفساد وخربت البلاد، وقتلت العباد في دولة بني مهدي انتقل الإمام أبو زكريا يحيى بن أبي الخير بن سالم العمراني اليمني الشافعي المذكور إلى ذي السفال تغيّباً عن الشرور، وتوفّي في السنة التي تليها ـ رحمه الله تعالى ـ مبطوناً شهيداً، وما ترك فريضة في مرضه، فأقام ليلتين ينازع ويسأل عن أوقات الصلاة وذكر الراوي أنه كان ورده في كلّ ليلة سبع القران، يقرأه في صلاته، وربمّا قال في مائة ركعة. وكان من جملة تصانيفه: كتاب الانتصار في الردّ على القدرية الأشرار، وكتابه المشهور بغرائب الوسيط، ومختصر من إحياء علوم الدين للإمام حجة الإسلام واشتهر من تصانيفه المذكورات كتاب البيان، وانتفع به وشاع فضله في البلدان، وعدّ من الكتب الستّة المشهورة المفيدة المبسوطة في الفقه المشكورة ـ بل الله تعالى برحمته تراه، وشكر سعيه، وجعل الجنّة مأواه ـ وفيه يقول الشاعر:

لله شيخ من بني عمران ... قد شاد قصر العلم بالأركان
يحيى لقد أحيى الشريعة هادياً ... بزوائد وغرائب وبيان
هو دّرة اليمن الذي ما مثله ... من أول في عصرنا أو ثاني

---

(١) في معجم البلدان: المجمعة موضع بوادي نخلة من بلاد هذيل.

(٢) في معجم البلدان: تعكر: قلعة حصينة عظيمة مكنية باليمن.

(٣) لعل الصواب: شمس الدولة: تورانشاه بن أيوب، وهو أخو صلاح الدين الأكبر. الذي سار إلى اليمن سنة تسع وستين وخمس مائة. انظر الكامل لابن الأثير ٩/ ١٢٢.

(٤) سيف الإسلام صلغدكين: وهو أخو صلاح الدين الأيوبي، قدم اليمن سنة ثمانية وسبعين وخمس مائة. انظر الكامل لابن الأثير ٩/ ١٥٥.

(٥) علي بن مهدي الملقّب عبد النبي سبق ذكره في سنة ٥٤٩ من هذا الكتاب.

قلت: وأمّا ما ذكرت من تأخير الكرم على العقيدة، فذكر ابن سمرة أنّه لقي الفقيه الإمام الواعظ الشريف محمد بن أحمد العثماني، وأنّه ناظره في العقيدة ـ والشريف أشعريّ ـ فنظر الإمام يحيى مذهب الحنابلة، وذكر أنّه استدلّ بالآية، وأنه ظهر بالحجّة إلى أن نزف الشريف العرق من وجهه، كأنّه يعني: خجلاً.

وأما اجتماعه بالشريف المذكور، فظاهره الصحّة، خلاف ما ذكر بعض الناس أنه اجتمع في تلك الحجّة بأبي حامد الغزالي، وأنه بحث معه في المسائل الفقهية ـ وعليه فرو كما هو زيّ حجّاج اليمن ـ وأنّ وأبا حامد أعجبه بحثه، فذلك غير صحيح، فإن الإمام أبا حامد توفّي قبل ذلك في سنة خمس وخمسمائة. وأمّا ما ذكر من كون عقيدته حنبليّة فصحيح بالنسبة إلى الحنابلة المتأخرين ـ حاشى الإمام أحمد ـ والمتقدمين منهم، وقد أوضحت ذلك، وأشبعت الكلام فيه في كتابي: المرهم، وإليه أشرت بقولي:

وفي حشويات كسوفان أظلما هما جهة والحرف حاش ابن حنبل

أعني أنّ ذلك مذهب الحشوية بعد أن أسفرت البدور لأئمة كل مذهب، وذكرت أنّ بدور المذاهب الثلاثة أنارت، وأنّه حصل في بدور مذهب الحشوية كسوفان مظلمان، وهما ما ذكرت من القول بالجهة والحرف والصوت في كلام الله تعالى.

وأمّا ما ذكرت ـ من كون الإمام أحمد والمتقدّمين من أصحابه ـ براء ممّا ادّعاه المتأخّرون منهم، فممّن نصّ على ذلك بعض الحنابلة: وهو الإمام أبو الفرج بن الجوزي، حتّى ذكر أنّهم صاروا شبه على المذهب باعتقادهم الذي يتوهّم غيرهم أنّه مذهب أحمد. وليس العجب من حنابلة الفروع وإنّما العجب من شافعية الفروع كصاحب البيان المذكور ومن تابعه من أهل الجبال، والكلام معهم في شيئين: أحدهما الاحتجاج، والثاني الأئمة المحتجوّن.

أمّا الاحتجاج فاستمداده من الراهين العقلية القواطع ونصوص الكتاب والسنّة المنيرات السواطع، وذلك لعمري يحتاج في ذكره إلى مصنّف مستقلّ مشتمل على مجلّدات لا يسع هذا المكان شيء منها.

وأمّا الأئمة المحتجوّن فقد ذكرت منهم مائة إمام في كتابي: الموسوم بالشاش المُعْلم شاوش وكتاب المرهم المعلم بشرف المفاخر العلّية في مناقب الأئمة الأشعرية، وما اجتلوا به من الفضائل والمحاسن الحميدة والطريقة السديدة والأوصاف الجميلة، ومن متأخريهم جمال الإسلام الشيخ أبو إسحاق الشيرازي وتصنيفه في ذلك معروف ـ أعني تصنيفه في أصول الدين، وكذا فتياه التي رواها الإمام الحافظ أبو القاسم ابن عساكر، وأنّه قال فيها:

الأشعرية رؤوس أهل السنّة، وقد أوضحت ذلك في كتابي: المرهم. وكان الشيخ أبو إسحاق وحده فيه كفاية لصاحب البيان المذكور، فإنّه هو وغيره معترفون له بالفضائل العديدة والمحاسن الحميدة والطريقة السديدة، والأوصاف الجميلة الملاح الشاهدة له بالصلاح والفلاح.

ومنهم شيخ الإسلام معدن الفضائل والمحاسن ومعتمد الفتاوى الشيخ محيي الدين النواوي، فقد ملأت محاسنه الآفاق، وحصل من الموالف والمخالف عليه الاتفاق، فكان فيه وحده كفاية لمن عاصره منهم، وأتى بعده، ومذهبه معروف في شرح مسلم وغيره من كتبه فيما يتعلّق بالعقيدة.

ومنهم حجّة الإسلام أبو حامد الغزالي، ومحاسنه وفضائله وعلومه ودلائله أكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر، وقد وقف المذكور يحيى على كتابه: الأحياء، وهو في العلوم بحر تلاطمت أمواجه، ومرتقى سنام عسر معراجه.

فكلّ واحد من الثلاثة المذكورين فيه كفاية للمقتدين، فكيف باجتماعهم مع ما حووه من الفضل والدين!! بل اجتماع ألوف منهم الإمامين من الأئمة الأعلام المبرزين من المشايخ العارفين أولي الأنوار والأسرار واليقين، والعلماء الفضلاء العاملين من المذاهب الثلاثة المعروفة!!

وفي عقيدة الشيخ الإمام عزّ الدين عبد العزيز بن عبد السلام وحدها كفاية لمن رآها واعتقدها من العلماء، وكذا عقيدة الشيخ الكبير الوليّ الشهير أبي عبدالله القرشي، وقد ذكرت ألفاظها في كتابي المرهم، وكذلك عقيدة الإمام شهاب الدين[(١)] السُّهْرَوَرْدِي الموسومة بأعلام الهدى، وغيرهم ممّن يطول عددهم ويسمو مجدهم.

قلت: وأمّا قول الخصوم من المذكورين وغيرهم: مذهبنا مذهب السلف، فهذا جهل منهم بمذهب السلف، فإنّ السلف ما خالفوا مذهب الخلف، إلا بعدم ذكرهم للتأويل، مع اعتقادهم تنزيه الله تعالى عن سمات الخلق من التجسّم والمكان والحركة والانتقال وسائر سمات الحدوث والتغيّر والزوال، وقليل منهم وافق جمهور الخلف في التأويل، وقليل من الخلف وافق جمهور السلف في عدم ذكرهم التأويل. كلّ هذا حكاه الإمام محيي الدين النواوي عنهم في شرح صحيح مسلم، والعجب منهم، يقولون مذهبنا مذهب السلف، وهذا إمام المحدّثين من السلف والخلف الذي مذهبه باهج ما أظلم ولا اندرس، شيخ الإمام

(١) في الأنساب للسمعاني: ٣/ ٣٤١: أبو حفص عمر بن محمد بن عمويه السهروردي، توفي في الثامن من شهر ربيع الأول سنة ٥٣٢ هـ، ودفن بالشونيزية.

الشافعي: مالك بن أنس، تأوّل قول رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ «ينزّل ربّنا كلّ ليلة إلى سماء الدنيا». الحديث بتأويلَيْن: أحدهما ينزّل ملائكته تعالى ورحمته، والثاني أنّه محمول على الاستعارة لأجابة الداعي واللطف، كما يقال: نزل الملك عن سريره إذا عدل في سيرته ولطف برعيته. أترى هؤلاء الخصوم يتوهّمون أنّهم أعلم وأدرى بالتحقيق، وأدين وأقرب إلى التوفيق ممّا ذكرنا من الأولياء العارفين، والعلماء العاملين أولي النور والفهم والتدقيق!! كلاّ بل جمدوا على الظواهر، ما فهموا استحالتها بالبرهان القاطع، فهم كما قال الشيخ الإمام ـ شيخ الاسلام شهاب الدين السهروردي: ـ أيهّا الجامد المحيط به الجهات؛ فهمك ما ينتج لك إلاّ الجهات، يستحيل عندك أن لا يكون الشيء إلاّ في مكان ـ، وقد كان المكان لا في مكان يعني السماوات والأرض، إذ خلقنا بعد أن لم تكونا، فما ظنّك بخالقهما تبارك وتعالى؟!!

ولقد بلغني أنّ الإمام القاضي ـ طاهر ابن الإمام يحيى بن أبي الخير المذكور ـ لمّا شرح الله تعالى صدره للنور أنكر على والده مذهبه، وعنّفه ـ وهو في مكّة ـ بالمكاتبة، ولقد تعجّبت من فقهاء جبال اليمن في عقائدهم بحضرة الشيخ الفقيه الصالح عبد الله ابن الشيخ الولّي الشهير ذي المقام العالي، الساكن في ذي السفال، وسألته: من أين جاءهم هذا الاعتقاد؟ فقال لي: غرّهم صاحب البيان. ـ هكذا يقول ـ والله تعالى على ما أقول وكيل. وأفهمني أنّ اعتقاده اعتقاد الإمام الغزالي، ولم يزل فقهاء الجبال كلّهم قديماً، وبعضهم حديثاً ـ يقدحون في الإمام حجّة الاسلام، وعقيدته السنيّة المخالفة لعقيدة الحشوية، وما ينكر فضل الغزاليّ ويسيء الظن به إلاّ كلّ مخذول محروم تعيس مشؤوم.

فقد قال الشيخ الكبير ذو المناقب الكثيرة والفضائل الشهيرة: العارف بالله ذو النور القدسي أبو العباس ـ المعروف بالمرسي ـ لمّا ذكر الغزالي، إنّا لنشهد له بالصدّيقية العظمى. وقال شيخه ـ شيخ الشيوخ في أوانه وقطبهم في زمانه ـ الشيخ أبو الحسن الشاذلي قدّس الله روحه: من كانت له إلى الله تعالى حاجة فليتوسّل إليه بالإمام أبي حامد الغزالي. كلّ هذا رواه الشيخ الإمام تاج الدين عطاء الله في كتابه: لطائف المنن.

وكذلك الفقيه الإمام العارف بالله تعالى رفع المقام الذي كثرت كراماته وعظمت، وقال للشمس يوماً: قفي، فوقفت، إلى أن وصل إلى موضعه الذي يريد من مكان بعيد: أبو الفدا اسماعيل بن محمد الحضرمي لمّا جاءته، فتوى من فقهاء الجبال يقولون فيها ـ لمبالغتهم في الطعن فيه ـ: هل يجوز قراءة كتب الغزالي؟ أجاب بجواب أوله: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، وآخره: ومحمد بن محمد بن محمد الغزالي سيّد المصنّفين.

وفقهاء جبال اليمن مخالفون لفقهاء تهامتها، كما ذكر ابن سمرة أنّه وقع في زمان

صاحب البيان تكفير من بعض فقهاء الجبال لفقهاء زَبيد، هذا كلّه لانطوائهم على الجمود، وعدولهم عن طريق الحقّ المحمود.

رجعنا إلى ذكر الغزالي، وكذلك الشيخ الكبير الولّي الشهير أبي العباس المعروف بالصيّاد اليمني في كتاب سيرته الرضيّة الشهيرة المرويّة ما هو معروف من كونه رأى في حال ورد عليه أبواب السماء، وقد فتحت، ونزل منها عصبة معهم خلع خضر ومركوب، فجاؤوا إلى مقبرة، فانشق قبر منها، وخرج منه إنسان، فألبسوه تلك الخلع، وأركبوه على ذلك المركوب، وعرجوا به من سماء إلى سماء، ولم يزالوا كذلك إلى أن حرقوا السماوات السبع وسبعين حجاباً بعدها، قال[١]: فسألت بعضهم: من هذا؟ قال: الغزالي. قال: ولا أدري أين بلغ انتهاؤه هذا في حال كشف ومشاهدة وحال من الأحوال الواردة.

وأمّا المنامات المباركة الرضيّة الدالّة على صحّة عقيدة الأشعريّة، من رؤية الرسول عليه السلام وغيره، فها أنا أعقد لها وحدها فصلاً.

فصل في ذكر بعض المنامات المباركة الرضيّة الدالة على صحّة عقيدة الأشعرية من رؤية الرسول عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام، وشيء من رؤية الأولياء والملائكة الكرام.

من ذلك ما روى الإمام الحافظ ابن عساكر بسنده إلى الإمام الشيخ أبي الحسن الأشعري أنّه قال: رأيت النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم في العشر الأواخر من شهر رمضان، فقال لي: يا علّي، أنصر المذاهب المروية عنّي، فإنّها الحقّ. ـ وكان ذلك سبب انتصابه للردّ على المبتدعين ـ.

قلت ومن ذلك ما روينا بالإسناد الصحيح المتّصل العالي المسلسل إلى سيّد الخلق الرسول الكريم المبجّل صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه باهى بالإمام الغزالي موسى وعيسى ابن مريم ـ صلوات الله تعالى على الجميع ـ وقال: أفي أمّتيكُما حَبْر[٢] كهذا؟ قالا: لا.

وأخبرني به الشيخ الفقيه الإمام الوليّ الكبير الرفيع المقام شهاب الدين المعروف بابن الميلق عن شيخه السيّد الكبير الفقيه العارف بالله الشهير تاج الدين بن عطاء الله الشاذلي، عن شيخه أستاذ الأكابر معدن الأنوار ملقح السرائر أبي العباس المرسي الشاذلي، عن شيخه القطب أبي الحسن الشاذلي المذكور شيخ الشيوخ الشاذلية المشهور، أنّه قال: رأيت النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ في المنام باهى بالغزالي وذكر ما تقدّم.

---

(١) المقصود بذلك أبو العباس المعروف بالصياد اليمني.

(٢) الحبر: العالم الصالح، وهو مأخوذ من تحبير العلم وتحسينه.

ومن ذلك ما تقدّم في ترجمة الإمام أبي حامد الغزالي في سنة خمس وخمسمائة من رواية الإمام الحافظ الماهر شيخ المحدّثين أبي القاسم ابن عساكر في كتابه المشتمل على مناقب أبي الحسن الأشعري قال: سمعت الإمام الفقيه ابا القاسم سعد بن علي بن أبي القاسم ابن أبي هريرة الاسفرائيني الصوفي الأشعري بدمشق قال: سمعت الشيخ الأوحد زين القرّاء جمال الحرم أبا الفتح عامر بن النحام بن أبي عامر الساوي بمكّة أنّه رأى النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وذكر قصة طويلة مشتملة على مرتبة جليلة للإمام أبي حامد المذكور، ذكرتها أيضاً في كتاب نشر المحاسن الغالية، وفي كتاب: الشاش المعلم، ومختصرها أنّه رأى النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ بين اليقظة والمنام، فإذا بالأئمة أصحاب المذاهب جاؤوا يعرضون مذاهبهم عليه، فذكر أنّ أوّل من جاءه الشافعي، فبشّ به وأكرمه، ثم جلس بين يديه، ثم كذلك ذكر في الإمام أبي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ وعرضا عليه مذهبهما، ثمّ كذلك كلّ ذي مذهب. قال: ثم جاء بعض المبتدعين ممّن يبغض الصحابة بكتاب معه في كراريس ليعرضه، فطرد من بعيد، ولم يترك أن يصل إلى النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وزجر، ورمي بالكراريس من يده، وأهين. قال الراوي: فلمّا رأيت أنّ القوم قد فرغوا ـ تقدّمت وكان في يدي كتاب ـ فناديت وقلت: يا رسول الله؛ هذا معتقدي ومعتقد أهل السنّة، لو أذنت لي حتّى أقرأه عليك؛ فقال ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: وإيش ذلك؟ قلت: يا رسول الله! هو قواعد العقائد الذي صنّفه الغزالي. فقعدت وابتدأت: بسم الله الرحمن الرحيم، كتاب قواعد العقائد، وفيه أربعة فصول: الفصل الاول في كلمتي الشهادة. وذكر أنّه قرأ العقيدة إلى أن انتهى إلى قول الإمام أبي حامد: معنى الكلمة الثانية وهي شهادة للرسول وأنه بعث الرسول النبي الأميّ القرشيّ إلى كافة العرب والعجم والجن والإنس. فلمّا بلغت إلى هذا رأيت البشاشة والتبسمّ في وجهه صلّى الله عليه وآله وسلّم حتّى انتهيت إلى نعته وصفته التفت إلي وقال: أين الغزالي؟ فإذا بالغزالي فقال: ها أنا ذا يا رسول الله؛ فتقدّم وسلّم على رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ فردّ عليه الجواب، وناوله يده العزيزة، والغزالي يقبّل يده ويضع خدّيه عليها تبرّكاً به وبيده العزيزة المباركة، ثمّ قعد فقال: فما رأيت ـ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ أكثر استبشاراً بقراءة أحد مثلما كان بقراءتي عليه قواعد العقائد. ثمّ انتبهت من النوم ـ وعلى عيني أثر الدموع ممّا رأيت انتهى مختصراً.

ومن ذلك ما رأيته بالإسناد المتقدّم عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي، وذكرته في غير كتاب من كتبي، ومختصره أنّ الإمام أبا الحسن بن حرزم المعروف في لسان العامّة بابن حرازم المغربي كان ينكر على الغزالي، ويطعن فيه، فرأى النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ في المنام، وإذا بالغزالي قد اشتكى به إليه، فأمر صلّى الله عليه وآله وسلّم بجلده. قال

الشيخ أبو الحسن الشاذلي: ولقد مات يوم مات، وأثر السياط على جلده.

قلت: وأخبرني بعض ذرّية الشيخ ابن حرزم المذكور ـ وهو محرم جاثٍ على ركبتيه باكٍ بعينيه في الحرم الشريف ـ بزيادة على ما ذكرت ممّا هو مسطور في سيرة جدّه أنّه كان جدّه المذكور مطاعاً في بلاد المغرب. وقال غيره: كان رئيس الفقهاء، فنظر في الإحياء[١]، فقال: هو خلاف السنّة. ثمّ التمس السلطان أن يأمر منادياً ينادي في البلاد بإحضار نسخ الإحياء، قال: فلمّا حضرت اجتمع هو والفقهاء، ونظروا فيها، وكان ذلك في يوم الخميس، فاجتمع رأيهم على أن يحرقوها يوم الجمعة بعد الصلاة.

فلمّا كانت ليلة الجمعة رأى النبيَّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ في بعض الجوامع، ومعه أبو بكر وعمر والنور هنالك ساطع وهم جلوس فإذا بالإمام الغزالي قائم، فلمّا رآني[٢] قال: يا رسول الله؛ هذا خصمي. ثمّ جثا على ركبتيه، وزحف عليهما من مكانه إلى أن وصل إلى الموضع الذي فيه النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وناوله نسخة من كتاب الإحياء، وقال: يا رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ هذا يزعم أنّي أقول عنك خلاف سنّتك، فانظر فيه، فإن كان كما يزعم استغفرت الله تعالى وتبت، وإن كان شيئاً تستحسنه حصل لي من بركتك فخذ لي حقّي من خصمي. قال: فنظر فيه رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ من أوّله إلى آخره، ثم قال: إنّ هذا حسن، ثم ناوله الصدّيق رضي الله تعالى عنه فنظر فيه ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحقّ إنه لحسن، ثم ناوله عمر ـ رضي الله تعالى عنه ـ فنظر فيه، ثم قال كذلك.

قال الراوي أبو الحسن المذكور: فعند ذلك أمر بتجريدي، فضربت خمسة أسواط، ثم شفع فيّ الصدّيق وقال: يا رسول الله، إنمّا فعل هذا اجتهاداً في سنّتك وتعظيماً لها. قال: فعند ذلك عفا عنّي أبو حامد، وبقيت متوجّعاً لذلك خمساً وعشرين ليلة، ثم رأيت النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ جاء، ومسح عليّ وتَوّبني فشفيت، ونظرت في الإحياء، ففهمته غير الفهم الأول. انتهى.

قلت ومعلوم أن كتاب الإحياء مشتمل على عقيدة الأشعرية وعلى مذهب الصوفيّة، وقد استحسن النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ذلك، وصاحباه، فلزم أن تكون العقيدة حسنة حميدة، وطريقة الصوفيّة رضيّة سديدة.

ومن ذلك ما أخبرني بعض الأخبار من أهل اليمن أنّه شوهد الشيخ الإمام المحدّث في

---

(١) كتاب إحياء علوم الدين للغزالي. انظر ترجمته في هذا الكتاب سنة ٥٠٥ هـ.

(٢) المقصود من الضمير ـ ياء المتكلم ـ أبو الحسن بن حرزم المغربي.

زَبيد أحمد بن أبي الخير جالساً بحضرة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فلم يعرفه الرائي، فقال: يا رسول الله، من هذا؟ فقال عليه الصلاة والسلام: هذا الذي لم ينزل على سنّتي: أحمد بن أبي الخير.

قلت: وعقيدته عقيدة الأشعرية، والدليل على ذلك أنّه سألني بعض الفقهاء من أهل عدن، هو الفقيه عمر بن يحيى المعروف بابن الجرّاف بالجيم والراء المشددة عن عقيدة أشير عليه بها ليعتمد عليها، فقلت له: عليك بعقيدة الإمام عزّ الدين بن عبد السلام ـ وإنمّا أشرت بها لأنّها لإمام فحل في مبارزة الخصوم، مشهور بالمحاسن وتحقيق العلوم ـ فقال لي: قد أشار عليَّ بها الإمام أحمد بن أبي الخير، فأعجبني ذلك، وسررت به لكونه من أئمة المحدّثين، وبعضهم يعتقد الظواهر.

قلت ومن ذلك منامات أخر ممّا يتعلق بي ـ مشتملة على كلام طويل أحكيها بلفظها أو معناها ـ والله على ما أقول وكيل. الله يجعل ذلك نصحاً لا تبجحاً، وإرشاداً لا تمدحاً، ويرزقنا السلامة من الزيغ والفتن الباطنة والظاهرة والعفو والعافية في الدين والدنيا والآخرة.

ومن ذلك ما أخبرني بعض مشايخ الصوفية اليمانيين المباركين الصالحين بمكّة في بعض حجّاته نفع الله تعالى ببركاته قال: لمّا دخلت تَعِزّ[1] اجتمعت بجماعة من أهلها أو قال من فقهائها فجرى ذكرك بقول لي فقالوا: ذاك أشعري يعني أنّهم أخرجوا ذلك مخرج القدح في المذهب المذكور فقال: فبِتّ وفي نفسي شيء من ذلك، فرأيت النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ في المنام فقلت: يا رسول الله ما تقول في فلان؟ فأجابه صلّى الله عليه وآله وسلّم بجواب يسّر، أستقبح أن أذكره لكونه يتعلّق بالمدح لي والوعد بما لست من أهله، وإن كان فضل الله تعالى أوسع من ذلك، أسأله من كرمه تعالى حصول نيله.

ومن ذلك أنّه جاءني في كتاب من اليمن من بعض الصالحين في عدن ـ قبل تاريخ هذا الكتاب بنحو سنتين ـ مشتمل على معارف وحكم ومواعظ وعبر، فيه كفاية لمن اتّعظ واعتبر، وهو مختوم بكلام مضمونه أنّه رأى النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ في جامع أو قال: في مسجد، وهو معه، وفي ذلك المسجد حلقات كثيرة، فأخذ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ بيده ومشى به إلى حلقة، ذكر في كتابه أنّي أنّا المتحدّث فيها، ثمّ قال له ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ: عليك بحلقة الفقيه فلان، وأشار إليّ.

قلت: ووجه الاستدلال بهذا على صحّة العقيدة أنّ من أمر الشارعُ بمجالسته فقد أرشد إلى الاقتداء به، ومن جملة ما يقتدى به من الخصائل الحميدة: صحّة العقيدة.

---

(١) في معجم البلدان: تعزّ قلعة عظيمة من قلاع اليمن المشهورات، وتقع بين عدن وزبيد.

ومن ذلك أنّه كما سمّاني صلّى الله عليه وآله وسلّم في هذا المنام فقيهاً، فقد سمّاني في منام بعض الأولياء العارفين المنوّرين المكاشفين شيخاً وإماماً. ومعلوم أنّ كلّ واحد من اللفظين متضمّن لجواز الاتّباع والاقتداء والإرشاد والاهتداء، ومن جملة الاقتداء الاتباع في الأقوال والأفعال والعقائد، وسائر الأحوال. وهذا المنام المذكور فيه كلام يطول، وسرّ ما فيه من المحصول ذكرته في باب الصلاة على النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم من كتابي: الموسوم بالإرشاد، ومختصره أنّه رآني على سرير في قصر في بستان، وعندي الشيخ الكبير العارف بالله سهل بن عبد الله، وأنّي أتيت بأربع خلع خضر، لبست واحدة، وخلعت ثلاثاً على ثلاثة من أصحابي، وأنّ الرسول ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ جاء إلى ذلك البستان وسأل عنّي وقال: أين الشيخ فلان؟ ما جئنا إلاّ لزيارته، وأنّه مسح بيده الكريمة على رأسي، ودعا لي، وأوصاني فقال له أصحابي: أوصنا، فقال: أوصيكم بما أوصيت به إمامكم ولم أكن إماماً لهم في الصلاة فعمّ بالإمامة، وفيهم الفقيه والصوفي. ثم أتى ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ بطبق، فيه فواكه، فأخذ منه حبّة رمان، وأطعم كلّ من هو حاضر في ذلك البستان، ومن جملة إطعامه الفواكه لي ما رأيت رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ أنه ناولني بكفَّيه الكريمتين مرّتين من بعض الثمار، وما رأى بعض الصالحين أنّه رآني آكل رطباً بين يديه صلّى الله عليه وآله وسلّم ثم ذكر وصف ذلك الرطب والظرف الذي هو فيه، وحسنهما.

ومن ذلك ما رأى بعض الصالحين من العالمين: وهو الفقيه الإمام المشهور بالصلاح عند الفقهاء والعوام أحمد الجبرتي ـ المدفون في عدن في شهر رمضان ـ في المنام، ومعناه إن لم يكن لفظه بعينه أنّه رأى النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ مهتماً بأمر، فسأله عن اهتمامه، فقال عليه السلام: أريد أن أرى أربعة رجال في أربعة بلدان، وذكر من البلدان مكّة والمدينة، وذكر للمدينة الشيخ عبد الوهاب الجبرتي وذلك في حياته رحمه الله تعالى أيّام إقامته بالمدينة، وذكر لمكّة ما هو مفهوم ممّا نحن بصدده وأستغفر الله العظيم من ذكره ـ ومعلوم أنّه لا يولّي إلاّ من يجوز الاقتداء به.

ومن ذلك ما رأيت في المنام في بعض الأوقات المباركات في أوان التجرّد والأنس في الخلوات وقد كان جماعة من أهل الخير والمشتغلين بالله تعالى لازموني في الإقامة معهم في بعض البلاد وقالوا: هو أصلح لك من الانفراد فمال الخاطر إلى الانعزال، فذهبت عنهم سائحاً، فرأيت في المنام بعد أن قرأت سورة المائدة كأنه قد قرّب طعام، وخصّصت بشيء منه وحدي، وإلى جنبي جماعة جمعوا على طعام، فذهب أحدهم يمدح العزلة ويذم الاختلاط، فقلت له: قد ذكروا أنّ الخلطة أفضل لمن يسلم فيها. قال: ومن ذا الذي يسلم اليوم في الخلطة؟! ثمّ سمعت كأنّ أناساً يتجادلون في مسألة الجهة، وواحد منهم يقول: إن

لم يكن جهة فليس للوجود صانع ـ تعالى الله عن قوله هذا ـ فلمّا كان بعد ساعة سمعت إنساناً يصرخ، وهو يعاقب ويضرب، فسألت بعض من حضر هنالك عن ذلك فقال: هو القائل القول المذكور في الجهة. ثم أبصرتُ جنداً كأنّهم عسكر سلطان قد أقبلوا على خيل وحدها، ومعها هِجان(١)، وهم يلزمون الناس ويمنعونهم في اعتقادهم، ولهم هيبة عظيمة في القلوب، فخشيت أن يمسكوني، فمرّوا بجنبي مسرعين وقالوا: اثبت على اعتقادك، فأنت على الحق. فذهب عني ما كنت أجده من الخوف، ثم نظرت كأن بقربي بئرَيْن وخضرة كالمزارع أو البساتين، وإذا إنسان يقول وهو يشير إلى إحدى البئرين: هذي بئر فلان، حسبت أنّها أوسع وأنّها أغزر ماء من الأخرى، وأشار إليّ أنّه أخطاء في اعتقاده. ثم انتبهت من منامي، وأفكرت فيه، ففهمت جميع إشاراته من فضيلة العزلة والتخصيص بالمائدة بعد قراءة سورة المائدة ومعاقبة المعتقد للجهة، وعسكر السلطان الممتحنين في العقائد والأديان، والإشارة بالثبات على الصحيح من العقيدات إلا البئرين، ونسبة أحدهما إلى الشخص المذكور، ثمّ بعد ساعة ذكرت أنّه مخالف في اعتقاده للجمهور، وهو ابن تيميّة، ومذهبه في ذلك مشهور.

ومن ذلك ما أخبرني السيد الكبير الشيخ الولي الشهير الشريف جلال الدين شيخ بلاد مُلْطان(٢) ـ أمتع الله بحياته، وأعاد علينا من بركاته ـ أنّه أمر في المنام أن يقرأ على عقيدتي ويعتقدها، وغير ذلك ممّا يكثر ذكره ممّا يتعلّق بالنبي عليه أفضل الصلاة والسلام، وبالأولياء والملائكة الكرام ممّا رأه لي الأولياء أهل الكرامات والهناء، وما رأيته أنا، والحمد لله الجميل الثناء على ما منح من النعم، وأزال من العناء، وجزى الله نبينا وسيدنا محمداً ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ أفضل الجزاء، وجمع بيننا وبينه وبين سائر الأحباب والمحبيّن في دار الكرامة والنعيم بمحض فضل الله الكريم. آمين اللهّم آمين وصلاته وسلامه ورحمته وبركاته على عباده الذين اصطفى وخصّ من بينهم محمد المصطفى.

وقد لوّحت إلى شيء مما ذكرت ببعض الإشارات في ضمن هذه الأبيات، من بعض القصيدات وهي القصيدة الموسومة بنزهة الألباب وطرفة الآداب، واستعارات المعاني الغراب، الممزوجة بحلاوة الشهد والحلاّب في بيان حكم الإعراب. حيث أقول منها:

ففي العلم مصباح وفي الجهل ظلمة ... تكون خلاف الاهتدا وضلائل
ولكنّ نور العلم بالله فائق ... على كلّ نور للعلوم وفاضل
ويتلوه علم الفقه، إذ عم نفعه ... به الخلق، والخلاق كلّ يعامل

---

(١) الهجان من الإبل: البيض الكرام.
(٢) لعلّ الصواب: مُلْتان، جاء في معجم البلدان: ملتان مدينة من نواحي الهند قرب غزنة

فذاك هو المقصود لكنّه إلى ... وسائل محتاج بها يتكامل
وللعلم فضل ليس يجهل قدره ... سوى جاهل ما فوق ذلك جاهل
فكم خبر قد صحّ عن سيّد الورى ... بتفضيله القرآن في ذاك نازل
وهذا زمان فيه عزّت سلامة ... وشيخ لإرشاد المريدين كامل
وشيخ تفيد الطالبين علومه ... مع الفضل بالعلم المشرّف عامل
وقد عزّ جدا ذلكم في كليْهما ... وإن قلت معدوماً فما القول باطل
وممّن له بالشيخ سمّى نبيّنا الـ ... إمام أبو إسحاق في شيراز نازل
بهذا روى السمعاني البحر في كتابه ... الذيل في تاريخ بغداد ناقل
وكان أبو إسحاق في ذا افتخاره ... دعاني النبي شيخاً لذلك قائل
وقد جوّزوا أشباه هذا للاقتدا ... ومن ذاك قرآن بيوسف نازل
وإني لذو محلَ عن الخير إنّما ... أرجى بمحض الفضل يخصب ما حل
عسى الله ربي أن يحقق لي الذي ... أشارَ بِه غُرّ شيوخ أفاضل
بإبراز حكمات وما فيه غبطة ... لأهل زماني فاكهات فواضل
وما في المنام المصطفى لي مسمّياً ... إماماً وشيخاً ما دعا لي قائل
كذاك فقيهاً قد دعاني مبادراً ... إلى حلقتي والعلم فيه محافل
رأى كلّ ذالي سيّد بعد سيّد ... من الأولياء والحمد لله كامل
فإن شئت صدّق ـ واقبل النصح أو تشا ... فكذّب ونصحي لا قبولاً تقابل
وهاك ثماراً في قصيد تنوّعت ... فكلّ ما تشا ممّا له الطبع قابل
وما لم يناسب دع لمن فيه راغب ... فما لم له تأكل فغيرك يأكل
فإنّ طباع الخلق شتّى فجامد ... ولين طبع للمحبة مائل
بذكر استعارات المعاني شجونه ... وذكر الهوى كلّ به الذوق حاصل
فكم من رقيق الغزل لم يلق ناسجاً ... وعذب زلال لم يرد ذاك ناهل
يمّر بأسماع جلاف تمجّه ... وتمرر إن ذاقت قلوب علائل
وهل ذاق للحال السقيم حلاوة ... ويحفظ للماء اللطيف المناخل
فإن قيل في ذي الحشو قل ذاك سكّر ... ولوز، وفي هذَين لذّة مأكل
إذا ما سماط مد من عربية ... به الادم صرفاً والطباع موالل
وإن، كان معها زيرباج وغيره ... فمن كلّ لون يستطيب التناول

قلت: وفي قولي من عربية إلى آخره إشارة إلى ما أدخلت في العربية من علوم واستعارات، وحبّ ووعظ واعتقاد، ومدح الرسول عليه افضل الصلاة والسلام، ومدح الأولياء الكرام والحضرة والمدام، واستعرت عربيّة السماط المذكور، وهي ما يعتاده العرب

من المرقة الصرف في طبخ اللحم لصرف عربية النحو غير مخلوط به غيره، أعني نوّعته بهذه الأنواع لئلاّ تملّه بعض الطباع، علما منّي بأنّ إخواننا المتصوّفين يملون من الوقوف على مجرّد ظاهر العلم، ولهذا قلت:

وها هي بألوان من الحلي تختلي ... بكلّ من الألوان في الحلو مائل
فإن صادفت بعض المعاني مولعاً ... أخا شجن في عندها يتماثل
خصوصاً إذا ما كان من مشرب الهوى ... له ذوق طبع أو مواجيد حاصل
وإبراز حكمات وما فيه غبطة ... لأهل زماني فاكهات فواضل

إشارة إلى ما ذكره ثلاثة من الأولياء الجلّة العارفين بالله، فقولي بإبراز حكمات إشارة إلى ما قاله لي شيخنا وسيّدنا وقدوتنا العارف بالله علي بن عبد الله الطواشي ـ قدّس الله روحه ـ حيث قال: يا ما يبرز الله تعالى من هذا الصدر من الحكم وقولي: وما فيه غبطة: إشارة إلى ما قاله الشيخ الكبير الولي الشهير خالد بن شبيب الغزاوي، حيث قال وقد جرى ذكري في مجلسه: ـ يغبطه أهل زمانه فيما رواه بعض الصالحين عنه. وقولي: فاكهات فواضل: إشارة إلى قول الشيخ الكبير العارف بالله الخبير الشيخ عبد الهادي المغربي فيما روى عنه تلميذه عبد الرزاق، وقد سئل عنّي: هو فاكهة زمانه. فهذا ما أشرت إليه من التنبيه لإزالة الإغماض في بعض هذه الألفاظ، فهذه الثلاث المذكورات ممّا أشار به الغر الأكابر الأفاضل المذكورون.

وممّا أشار إليه بعضهم أيضاً أنه قال: رأيتك قد أركبت فرساً، وحملت بين يديك غاشية، وحولك خلق، أو قال: بعدك، وأجلسك النبي ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ على كرسيّ. وقال آخر منهم: رأيتك مزيّناً بالذهب في يديك، والملائكة ترفعك في الهواء عند الكعبة، والحجر الأسود يضحك إليك، ورأيت في يدك عكّازاً نصفه أخضر ونصفه أبيض، فسألتك عنه فقلت: هو من عند ربّي عزّ وجلّ.

وقال آخر منهم: سألت النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: من أصحب؟ فقال عليه السلام: فلاناً، وأشار إليك. وقال آخر منهم: سألت النبي عليه السلام في الصلاة أن يكفلك، فقال عليه الصلاة والسلام: قد فعلنا قبل أن تسأل.

قلت: وأرجو من الله تعالى تحقيق ذلك وتحقيق ما قاله لي بعضهم تجاه الكعبة لمّا أشار إلى شيء بشّرني به، فقلت له: إن شاء الله تعالى، فقال لي: قد شاء، وما وعدني به صلّى الله عليه وآله وسلّم في منامي بعد أن شكوت إليه شيئاً فقال: أنا ظهرك أو سندك ـ مع ما تقدّم من دعائه صلّى الله عليه وآله وسلّم لي الدعاء المعين المذكور، وكذلك دعا لي صلّى الله عليه وآله وسلّم. ـ في أيام تعلّمي ـ القرآن بدعاء ما فهمته بعد أن قبّلت يده صلى

الله عليه وآله وسلم، وأظنه صلّى الله عليه وآله وسلّم فعل ذلك بي.

والحمد لله على جميع ذلك، وأسأله الزيادة والإعادة من المهالك، وأن يجزي سيّدنا محمداً وآله عنّا أفضل الجزاء، وأن يوزّعنا شكر نعمته، ويعيدنا من المكر والشقاء.

سنة تسع وخمسين وخمس مائة

فيها كسر نور الدين[١] الفرنج، وأحاط بهم المسلمون فاستجرّ القتل والأسر بهم، فأسر صاحب أنطاكية[٢] وصاحب[٣] طرابلس ومقدّم نصارى الروم[٤]، وتسلم نور الدين بعض القلاع.

وفيها سار ملك القسطنطينية بجيوشه، وقصد بلاد الإسلام، فلمّا قاربوا مملكة أرسلان[٥] جعل التركمان يبيّتونهم، ويغزون عليهم في الليل، حتّى قتلوا منهم نحو عشرة آلاف[٦]، فردّوا بذلّ وخيبة، وطمع فيهم المسلمون، وأخذوا لهم عدّة حصون.

وفيها سار جيش[٧] نور الدين مع مقدّم عسكر أسد الدين، فدخلوا مصر، وقتل الملك المنصور الضرغام الذي كان قد قهر شاوَر السعدي، ثمّ تمكّن شاور، وخاف من عسكر الشام، واستنجد بالفرنج، فأنجدوه من القدس وما يليه، ثمّ صالحوا أسد الدين، ورجع إلى الشام.

وفيها توفّي صاحب سّجستان أبو الفضل نصر بن خلف، عمرّ مائة سنة، ملك منها ثمانين سنة، وكان عادلاً حسن السيرة، وما بلغنا أنّ أحداً من الملوك بلغ ملكه مثل هذا القدر.

وفيها توفّي وزير صاحب الموصل محمد بن علي المعروف بالجواد الأصبهاني. كان دمث الأخلاق مسن المحاضرة مقبول المفاكهة، استوزره صاحب الموصل، وفوّض الأمور وتدبير الدولة إليه، وظهر حينئذٍ جود الوزير، وانبسطت يده، ولم يزل يعطي ويبذل الأموال

---

(١) انظر هزيمة الفرنج على يد نور الدين زنكي في الكامل لابن الأثير ٩/ ٨٦.
(٢) البرنس بيمند.
(٣) القمص ـ كما سمّاه ابن الأثير.
(٤) الدوق.
(٥) قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان ـ صاحب قونية ـ انظر الكامل لابن الأثير ٩/ ٩٠.
(٦) وفيه أيضاً: عشرات ألوف.
(٧) في الكامل لابن الأثير ٩/ ٨٤: وكان سبب إرسال هذا الجيش أنّ «شاور» وزير العاضد لدين الله العلوي ـ صاحب مصر ـ نازعه في الوزراة «ضرغام» وغلب عليه، فهرب شاور منه إلى الشام ملتجئاً إلى نور الدين.

ويبالغ في الإنفاق حتّى عرف بالجواد، وصار ذلك كالعلم عليه، وأثر آثاراً جميلة، وأجرى الماء إلى عرفات أيام الموسم من مكان بعيد، وعمل الدرج من أسفل الجبل إلى أعلاه، وبنى سور مدينة الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم، وما كان قد خرب من مسجده، وكان يحمل في كلّ سنة إلى مكّة والمدينة من الأموال والكسوات للفقراء والمنقطعين ما يقوم بهم مدّة سنة.

وكان له ديوان مرتّب باسم أرباب الرسوم والقصّاد لا غير، وتنوع في فعل الخير حتّى أنه جاء في زمنه غلاء مفرط، فواسى الناس حتّى لم يبق له شيء، وكان إقطاعه عشر مغلّ البلاد على جاري عادة وزراء الدولة السلجوقية.

وأخبر بعض وكلائه أنّه دخل يوماً فناوله بَقْيارة[1] وقال له: بع هذا واصرف ثمنه إلى المحاويج، فقال له الوكيل: إنه لم يبق شيء عندك سوى هذا البقيار والذي على رأسك، وإذا بعت هذا ربمّا تحتاج إلى تغيير البَقْيار، فلا تجد ما تلبسه، فقال له: إنّ هذا الوقت صعب كما ترى، وربمّا لا أجد وقتاً أصنع فيه الخير كهذا الوقت، فخرج الوكيل، وباع البَقْيار وتصدق بثمنه.

وله من النوادر أشياء كثيرة، وأقام على هذه الحالة إلى أن توفّي السلطان غازي[2] وتولى أخوه قطب الدين، فاستكثر إقطاعه، وثقل عليه أمره، وقبض عليه، وحبسه إلى أن توفّي مسجوناً في العشر الأخير من شهر رمضان ـ وقيل من شعبان في السنة المذكورة ـ وصلّي عليه، وكان يوماً مشهوراً من ضجيج الضعفاء والأرامل والأيتام حول جنازته، ودفن بالموصل إلى بعض سنة ستّين، ثم نقل إلى مكّة ـ حرسها الله تعالى ـ وطيف به حول الكعبة بعد أن صعدوا به ليلة الوقفة إلى جبل عرفات، وكانو يطوفون به كلّ يوم مراراً مدّة مقامهم بمكّة، وكان يوم دخوله مكّة يوماً مشهوراً من اجتماع الخلق والبكاء عليه وكان معه شخص مرتّب يذكر مآثره، ويعدّد محاسنه إذا وصلوا به إلى المزارات والمواضع المعظمة، فلمّا انتهوا به إلى الكعبة وقف وأنشد:

يا كعبة الإسلام هذا الذي ... جاءكِ يسعى كعبة الجودِ
قُصدتِ في العام وهذا الذي ... لم يخلُ يوماً غير مقصودِ

ثم حمل إلى مدينة الرسول ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ ودفن بها بالبقيع بعد أن

---

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي: ٦/ ٤/ ١٦٠: وأَباع يوماً بَقْياره وصرفه للمحاويج./ ولعلّ البقيار نوع من الثياب كما يفهم من سياق الكلام.

(٢) في العبر: ٤/ ١٢٣: سيف الدين غازي ـ صاحب الموصل ـ وابن صاحبها زنكي بن آقسنقر، توفي سنة ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩م.

أدخل المدينة وطيف به حول حجرة الرسول ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ. وكان ولده الملّقب جلال الدولة من الأدباء الفضلاء البلغاء الكرماء، وله ديوان رسائل أجاد فيه، وجمعه أبو السعادات بن الأثير[1] وسمّاه: كتاب الجواهر واللآلىء من إملاء المولى الوزير الجلالي.

سنة ستيّن وخمس مائة

فيها وقعت فتنة[2] هائلة بأصبهان تعصبّاً للمذاهب، وبقي الشرّ والقتل والقتال ثمانية أيام حتّى قتل خلق كثير، وأحرقت أماكن كثيرة.

وفيها توفّي أبو المعمر حذيفة بن سعد الأزجي.

وفيها توفّي فقيه أهل الجزيرة أبو القاسم عمر بن محمد الشافعي[3] الجزري، إمام جزيرة ابن عمر ومفتيها. تفقّه على الإمام الغزالي وغيره، وسمع عليه وعلى أخيه، وصحب الشاشي صاحب كتاب المستظهري، واشتغل أولاً على الشيخ أبي الغنائم السلمي الفارقي وعلى الكبار، وصار أحفظ أهل زمانه للمذهب، وله مصنّف كبير على أشكالات المهذّب وغريب ألفاظه وأسماء رجاله، وكان من العلم والدين في محلّ رفيع، وانتفع به خلق كثير.

وفيها توفّي القاضي أبو يعلى الصغير محمد بن محمد ابن القاضي الكبير، أبو يعلى ابن الفرّاء البغدادي الحنبلي. وكان موصوفاً بالذكاء والفصاحة، ولي قضاء واسط، ثم عزل منها.

وفيها توفّي أبو طالب العلوي محمد بن محمد بن محمد الشريف الحسني البصري نقيب الطالبين. روى عن أبي علي التّسْتُرِي وجعفر العبادي وجماعة، واستقدمه ابن هبيرة لسماع السنن، فروى الكتاب بالإجازة سوى الجزء الأول، فإنّه بالسماع من التّسْتُري.

وفيها توفّي أبو الحسن ابن التلميذ أمين الدولة هبة الله[4] بن صاعد النصراني البغدادي شيخ قومه وقسيّسيهم.

---

(١) في الأعلاق الخطيرة لابن شدّاد ٣/٢/٥٨١: ابن الأثير هو أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، توفي سنة ٦٣٠ هـ.

(٢) في الكامل لابن الأثير ٩/٩٢: بين صدر الدين عبد اللطيف بن الخجندي وغيره من أصحاب المذاهب.

(٣) في الكامل لابن الأثير ٩/٩٣: أبو القاسم عمر بن عكرمة بن البرزي الشافعي، تفقه على الفقيه الكيا الهرايسي، وكان واحد عصره. . .

(٤) وفيه أيضاً: ابن التلميذ الطبيب الحاذق الماهر، اسمه هبة الله بن صاعد، توفي عن خمس وتسعين

وفيها توفّي شيخ الطب جالينوس عصره صاحب التصانيف ووزير المقتفي أبو المظفّر الملقّب عون الدين يحيى بن محمد بن هبيرة. دخل بغداد شاباً، فطلب العلم وتفقّه، وسمع الحديث وقرأ القراءات، وشارك في الفنون، وصار من فضلاء زمانه. ثم دخل في الكتّاب، وولي مصارف الخزانة، ثمّ ترقّى وولي ديوان الخاصّ، ثم استوزره المقتفي، فبقي وزيراً إلى أن مات، وكان شامة بين الوزراء لعدله ودينه وتواضعه ومعروفه وفضائله. روى عن جماعة، ولمّا ولاّه المقتفي امتنع من لبس خلعة الحرير، وحلف أنّه لا يلبسها. وكان مجلسه معموراً بالعلماء والفقهاء والبحث وسماع الحديث. وشرح: الجمع بين الصحيحين، وألف كتاب العبادات في مذهب الإمام أحمد. ومات شهيداً مسموماً، وسمع منه خلق كثير منهم الحافظ أبو الفرج بن الجوزي واختصر كتاب إصلاح المنطق، وله أرجوزة في المقصور والممدود، وأرجوزة في علم الخطّ، وغير ذلك. ومدحه الشعراء منهم: أبو الفتح محمد بن عبدالله سبط ابن التعاويذي، قال:

سقاها الحياء أربع وطلول ... حكت دنفي من بعدهم ونحولي
ضمنت لها أجفان عين قريحة ... من الدمع مدرار الشوؤن همولِ
لئن حال رسم الدار عمّا عهدْته ... فعهد الهوى في القلب غير محيل
خليلّي قد هاج الغرام وشاقني ... سنا بارقٍ بالأجر عين كليلِ
ووكل طرفي بالسهاد بنظرتي ... قضاء مليء بالديون ملولِ
إذا قلت قد أنحلت جسمي صبابة ... يقول: وهل حبّ بغير نحولِ
وإن قلت دمعي بالأسى فيك شاهدي ... يقول شهود الدمع غير عدول
فلا تعذلاني إن بكيت صبابة ... على ناقض عهد الوفاء ملول
فابرح ما تمنى به الصبّ في الهوى ... ملال حبيب أو ملام عذول
ودون الكثيب الفرد بيض عقائل ... لعين بالباب لنا وعقول
غداة التقت ألحاظها وقلوبنا ... فلم يجلُ إلاّ عن دم وقتيل
ألا حبّذا وادي الأراك وقد وشت ... بريّاك ريحَا شمْألٍ وقبولِ
وفي أبرديه كلمّا اعتلّت الصبا ... شفاء فؤاد بالغرام - عليل
دعوت سُلُوّاً فيك غير مساعَد ... وحاولت صبراً عنك غير جميل
تعرّفت أسباب الهوى وحملته ... على كاهل للنائبات حمول
فلم أحظ من حبّ الغواني بطائل ... سوى رعي ليل بالغرام طويل
إلى كم تمنيني الليالي بما جدٍ ... رزين وقار الحلم غير عجول
أهزّ اختيالاً في هواه معاطفي ... وأسحب تيهاً في ثراه ذيولي
لقد طال عهدي بالنوال وإنّني ... لصبّ إلى تقبيل كفّ مثيل

وإنّ يــدَيْ يحيــى الــوزيــر لكــافــل بِهــا لــي، وعــون الــديــن خيــر كفيــل

وأُهدي إلى الوزير عون الدين دواة بلّور مرصّعة بمرجان، وفي مجلسه جماعة فيهم حَيْص بَيْص، فقال الوزير: يحسن أن يقال في هذه الدواة شيء من الشعر، فقال بعض الحاضرين:

أُلِيــنَ لــداود الحــديــدُ كــرامــةً يقــدّره فــي الســرد كيــف يــريــد
ولان ذلــك البلّــور وهــو حجــارة ومعطفــه صعــب المــرام شــديــد

فقال حيص بيص له: إنّما وصفت صانع الدواة، ولم تصفها؟! فقال الوزير: من غيره؟ فقال حَيْص بَيْص:

صيغــت دواتــك مــن يــومَيْــك فــاشتبهــا علــى الأنــام ببلّــور ومــرجــان
فيــوم سِلْمــك مبيــضّ يفيــض نــدى ويــوم حــربــك قــانٍ بــالــدم القــانــي

وقد تقدّمت حكاية عنه في السبب الذي نال به الوزارة في ترجمة السيد الجليل الولي الحفيل ذي الوصف الجميل والمجد الأثيل معروف ـ عرّفنا الله تعالى بركته ـ في سنة مائتين.

سنة إحدى وستّين وخمس مائة

فيها كثر ببغداد الروافض والسبّ، وعظم الخطب.

وفيها توفّي مسند أصبهان الإمام أبو عبدالله الحسن بن العبّاس الأصبهاني الرستمي الفقيه الشافعي، سمع أبا عمرو بن مَنْده وطائفة، وتفرّد ورحل إليه، وكان زاهداً ورعاً خاشعاً فقيهاً مفتياً محققاً، تفقّه بجماعة.

وفيها توفّي الحافظ أبو محمد عبدالله بن محمد المغربي الصنهاجي. روى عن أبي الحسن الجذامي والقاضي عياض، وكان عالماً بالحديث وطرقه وبالنحو واللغة والنسب، كثير الفضائل وقبره بظاهر بَعَلْبَكّ.

وفيها توفّي قطب الأولياء الكرام، شيخ المسلمين والإسلام، ركن الشريعة، وعلم الطريقة، وموضّح أسرار الحقيقة، حامل راية عليا للمعارف والمفاخر، شيخ الشيوخ وقدوة الأولياء العارفين الأكابر، أستاذ أرباب الوجود أبو محمد محيي الدين عبد القادر بن أبي صالح الجيلي، قدّس الله روحه ونوّر ضريحه، لما تحلّى ـ رضي الله عنه ـ بحلل العلوم الشرعيّة ونال لطائفها، وتجمّل بتيجان الفنون الدينية، وحاز شرائفها، وهجر في مهاجرته إلى الحقّ كلّ الخلائق، وتزوّد في سفره إلى ربه عزّ وجلّ أحسن الآداب وأشرف الحقائق، وعقدت له ألوية الولاية فوق العلى ذوائبها، ورفعت له منازل جلّي له، في سماء القرب

كواكبها، ونظر قلبه إلى رقوم الفتح في ذيول الكشف عن الأسرار، وشخص سرّه إلى شموس المعارف من مطالع الأنوار. وأشهدت بصيرته عرائس الحقائق في مقاصير الغيوب، وأسكنت سريرته حضرة القدس في خلوة وصل المحبّ بالمحبوب، ورفعت أسراره إلى مشاهد المجد والكمال، ودام إحضاره في معالم العزّ والجلال، هنالك نكشّف له علم السرّ المصون، واتّضح له حقيقة الحقّ المكنون، واطّلع على معاني خفايا مكامن المكنونات، وشاهد مجاري القدر في تصاريف المشيئات، واخترع الحكم من معادنها، وأظهر التحف من مكامنها، فآتاه الله الأمر النقّي من تدنيس التلبيس بالجلوس للوعظ والتصدّر للتدريس.

وكان أوّل جلوسه للوعظ في الحلبة النورانية في شوّال سنة إحدى وعشرين وخمس مائة، فجلس مجلساً لله دّرة من مجلس، تجلّله الهيبة والبهاء، وتحفّ به الملائكة والأولياء، فقام بنصّ الكتاب والسنّة خطيباً على الأشهاد، ودعا الخلق إلى الله تعالى فأسرعوا إلى الانقياد، فيا له من داع أجابته أرواح المشتاقين، ومن مُنادٍ لبّتْه قلوب العارفين، ومن حادٍ هيّم ركائب النفوس في فلوات الشوق إلى رؤية الجمال، ومن هادٍ ساق نجائب القلوب إلى حمى الوصال، ومن ساقٍ روى عطاش العقول من شراب القدس، وشوّقها إلى منادمة الحبيب على بساط الأنس، وكشف براقع اللبس عن وجوه المعارف، ورفع أغطية الغين عن عين شرائف اللطائف، وهز أعطاف القلوب بوصف جمال القدم، وأرقص أشباح الأرواح بسماع نعت كمال الكرم ـ وناغي أطيار الأسرار في صوامع قدسها بألحان لذيذ أنسها، فطارت من أركان أطورها في حبّها إلى أنوار أنوار هامع جنسها، وجلى عرائس المواعظ فدهش لبهجة حسنها العشّاق، وزفّ مخدرات المواهب فصبا لمعنى جمالها كلّ مشتاق، ونطق بنفائس الحكم من رياض أنس أينعت مروجها، وأبرز جواهر التوحيد من بحار علوم تلاطمت أمواجها، يرى من معانيها درراً وياقوتاً، ويجد من درّها دواء ومن ياقوتها قوتاً، ودبّج روض الحقائق بحدائق ذات بهجة فيا لها للسالكين إلى الله محجّة وحجّة، وبثّ لآلىء الفتح على بساط الإفهام، فتسابق لالتقاطها أولو الألباب والأقلام، فتنضّدت منها فوائد هدى في أعناق ذوي الهمم العليّة، يصل المتحلّي بها بإذن الله تعالى إلى مقامات السنيّة، فجال في النفوس مجال الأنفاس في الصدور، وعبق بالقلوب عبق الروض الممطور، وأبرأ النفوس من أسقامها، وشفى الخواطر من أوهامها، فما سمعه إلاّ من أوضح بالتوبة دجونه، أو من اكتحل بالبكاء جفونه، فكم ردّ إلى الله عاصياً، وكم ثبّت الله به واهياً، وكم أصحى من خمر الهوى سكارى، وكم فكّ من قيود الناس أسارى، وكم اصطفى الله به أوتاداً وأبدالاً، وكم وهب الله به مقاماً وحالاً، وما زالت نجائب المواهب ترحل إليه. رحمة الله تبارك وتعالى عليه:

عبد له فوق المعالي رتبة ... وله المماجد والفخار الأفخر

وله الحقائق والطرائق في الهدى ... وله المعارف كالكواكب تزهر
وله الفضائل والمكارم والندى ... وله المناقب في المحافل تنشر
وله التقدّم والتعالي في العلى ... وله المراتب في النهاية تكبر
غوث الورى غيث الندى نور الهدى ... بدر الدجى شمس الضحى بل أنور
قطع العلوم مع العقول فأصبحت ... أطوارها من دونه تتحيّر
ما في علاه مقالة لمخالف ... فمسائل الإجماع فيه تسطر

قلت هذا ما ترجمه فيه بعضهم، وهو كذلك، بل فوق ذلك. وأمّا ترجمة الذهبي في قوله: والشيخ عبد القادر بن أبي صالح الزاهد: فمدحه بصفة الزهد، التي هي من أوائل منازل السالكين المبتدئين من المريدين، وقول: انتهى إليه التقدّم في الوعظ والكلام على الخواطر ؛ فغضّ من منصبه العالي، وقدح لا مدح فيما له من المفاخر والمعالي.

فمن مدح السادات أهل نهاية ... وسامي مقامات بأوصاف مبتدي
فقد ذمّهم فيما به ظنّ مدحهم ... وكم معتدٍ فيها بزعمه مهتدي

وهو القائل ـ رضي الله تعالى عنه ـ منطقاً بالهدى والمعارف والحكم. لا بالهوى والخرافات والخطوط التي تذمم:

ما في الصبابة منهل مستعذب ... إلاّ ولي فيه الألذ الأطيب
أو في الوصال مكانة مخصوصة ... إلاّ ومنزلتي أعزّ وأقرب
وهبت لي الأيام رونق صفوها ... فحلّت مناهلها وطاب المشرب
وغدوت مخطوباً بالكلّ كريمة ... لا يهتدي فيها اللبيب ويخطب
أنا من رجال لا يخاف جليسهم ... ريب الزمان ولا يرى ما يرهب
قوم لهم في كلّ مجد رتبة ... علويّة وبكل جيش موكب
أنا بلبل الأفراح أملىء دوحها ... طرباً، وفي العلياء بازُ أشهب
أضحت جيوش الحبّ تحت مشيئتي ... طوعاً ومهما رمته لا يعزب
أصبحت لا أملاً ولا أمنية ... أرجو، ولا موعودة أترقب
ما زلت أرتع في ميادين الرضى ... حتّى وهبت مكانة لا توهب
أضحى الزمان كحلّة مرقومة ... تزهو ونحن له ـ الطراز المذهب
أفلت شموس الأوّلين، وشمسنا ... أبداً على فلك العلى لا تغرب

ذكر نسبه ومولده وصنعته رضي الله تعالى عنه

أما نسبه رضي الله عنه فهو الشيخ محيي الدين أبو محمد عبد القادر بن أبي صالح

موسى بن أبي عبدالله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبدالله المحض بن الحسن المثنى ابن أمير المؤمنين أبي محمد الحسن ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ سبط أبي عبدالله الصومعي الزاهد، وبه كان يعرف حين كان بجِيْلاَن[١].

وأمّا مولده رضي الله عنه: فسئل ـ رضي الله تعالى عنه ـ عن مولده فقال: لا أعلمه حقيقة، لكنّي قدمت بغداد في السنة التي مات فيها التميمي، وعمري إذ ذاك ثماني عشرة سنة.

قال الراوي: والتميمي هذا هو أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب، توفي سنة ثمانين وأربع مائة، فيكون مولده رضي الله تعالى عنه سنة سبعين وأربعمائة، وذكر أبو الفضل أحمد ابن صالح الجيلي أنّ مولد الشيخ محيي الدين المذكور سنة إحدى وسبعين وأربعمائة، وأنه دخل بغداد سنة ثمان وثمانين وأربع مائة وله ثماني عشرة سنة.

قلت: وذكر بعضهم أنّه منسوب إلى جِيْل بكسر الجيم وسكون المثناة من تحت وهي بلاد متفرّقة وراء طبرستان، وبها ولد، ويقال لها أيضاً جِيلان وكيلان، وكيل أيضاً قرية على شاطىء دجلة على مسيرة يوم من بغداد من جهة طريق واسط، ويقال: فيها أيضاً جيل ـ بالجيم ـ ومن ثم يّقال: كيل العجم، وكيل العراق والجيل أيضاً قرية تحت المدائن، وفي النسبة يقال: جِيلاني وكيلاني وجيلي وكيلي.

وأمّه رضي الله تعالى عنه أمّ الخير أمة الجبّار: فاطمة بنت أبي عبد الله الصومعي، وكان لها حظّ وافر من الخير والصلاح. والصومعي من جملة ـ مشايخ جيلان ورؤساء زهّادهم، وله الأحوال والكرامات الجلّية، وأخوه الشيخ أبو أحمد عبدالله ـ سنّه دون سنّه ـ نشأ نشوءاً صالحاً في العلم والخبرة، ومات بجِيلانَ شابّاً، وعمّته المرأة الصالحة أمّ محمد عائشة بنت عبد الله ذات الكرامات الظاهرة.

روي أنّ بلاد جيلان أجدبت مّرة، واستسقى أهلها، فلم يُسقوا، فأتى المشايخ إلى دار الشيخة عائشة المذكورة، وسألوها الاستسقاء لهم، فقامت إلى رحبة بيتها، وكنست الأرض وقالت: يا ربّ، أنا كنست، فرشّ أنت! قال: فلم يلبثوا أن مطرت السماء كأفواه القرب، فرجعوا إلى بيوتهم يخوضون في الماء.

وأما صفة الشيخ رضي الله عنه فروي أنه كان نحيف البدن ربع القامة، عريض الصدر عريض اللحية وطويلها، أسمر مقرون الحاجبين، أدعج العينين، ذا صوت جهوريّ وسمت

---

(١) تقدّم ذكر جيلان.

بهّي، وقدر عليّ علم وفّي ـ رضي الله عنه.

ذكر شيء من علمه وتسمية بعض شيوخه مختصراً

قال بعض الأئمة المتكلّمين في مناقبه: لمّا علم أنّ طلب العلم على كلّ مسلم فريضة، أنه شفاء للأنفس المريضة، إذ هو أوضح مناهج التقوى سبيلاً. وأبلغها حجّة وأظهرها دليلاً، وأرفع معارج اليقين وأعلى مدارج المتقّين، وأعظم مناصب الدين وأفخر مراتب المهتدين، وهو المرقاة إلى مقامات القرب والمعرفة، والوسيلة إلى المتولّي بالحضرة المشرّفة، شمّر عن ساق الجدّ والاجتهاد في تحصيله، وسارع في طلب فروعه وأصوله، وقصد الأشياخ الأئمة أعلام الهدى علماء الأمّة فاشتغل بالقرآن العظيم حتّى أتقنه، وعمرّ بداريته سرّه وعلنه، وتفقّه بالشيوخ، منهم: أبو الوفاء علي بن عقيل، وأبو الخطاب محفوظ ابن أحمد الكلوذاني، وأبو الحسين محمد ابن القاضي أبي يعلى، وأبو سعد المبارك بن علي المخزومي رضي الله تعالى عنهم ـ وأخذ عنهم مذهباً وخلافاً وفروعاً وأصولاً. وسمع الحديث من جماعة، منهم أبو غالب محمد بن الحسن الباقِلّاني، وأبو سعد محمد بن عبد الكريم، وأبو الغنائم محمد بن علي بن ميمون، وأبو بكر أحمد بن المظفّر التمّار، وأبو محمد جعفر بن أحمد القاري، وأبو القاسم علي بن أحمد الكرخي، وأبو عثمان اسماعيل ابن محمد الأصبهاني، وأبو طالب عبد القادر بن محمد، وابن عمّه أبو طاهر عبد الرحمن بن أحمد، وأبو البركات هبة الله بن المبارك، وأبو العزّ محمد بن المختار الهاشمي، وأبو نصر محمد، وأبو غالب أحمد، وأبو عبدالله يحيى أبناء الإمام أبي الحسن علي بن البنّا، وأبو الحسين المبارك بن عبد الجبّار، وأبو منصور عبد الرحمن بن أبي غالب، وأبو البركات طلحة بن أحمد العاقولي وغيرهم ـ رحمة الله عليهم.

وقرأ الأدب على أبي زكريّا يحيى بن علي التبريزي، وصحب الشيخ العارف بالله قدوة المحققين وإمام السالكين وحجّة العارفين أبا الخير حماد بن مسلم الدبّاس، وأخذ عنه علم الطريقة وتأدّب به، وأخذ الخرقة الشريفة من يد القاضي أبي سعد المخرمي، ولقي الجماعة من أعيان شيوخ الزمان وأكابر المشايخ أولي العرفان. أكرم بهم مجداً وسؤدداً، وشرفاً وفخراً مؤبداً. فهم حماة ملّة الإسلام وذوّادها، وأنصار الشريعة وأعضادها، وأعلام الدين وأركانه، وسيوف الحقّ وسنانه. فقام ـ رضي الله تعالى عنه في أخذ العلوم الشرعية عنهم دائباً، وفي تلقّي الفنون الدينية منهم واصباً. حتّى فاق أهل زمانه. وتميز من بين أقرانه.

ثم إنّ الله تعالى أظهره للخلق وأوقع له القبول العظيم التام، عند الخاصّ منهم والعامّ، والهيبة والجلالة الوافرة، والمناقب الشريفة الفاخرة عند العلماء، وأظهر الله الحكم من قلبه على لسانه، وظهرت علامات قربه من الله تعالى وإمارات ـ ولايته، وشواهد تخصيصه مع

قدم راسخ في المجاهدة والعبادة، وتجرّد خالص من دواعي الهوى وشوائب الركون إلى العادة، ومقاطعة دائمة بجميع الخلائق، وصبر جميل في طلب مولاة بقطع العلائق، وتجرّع الغصص على مرّ الشدائد والبلوى، ورفض كلّي لجميع الأشغال اشتغالاً بالمولى.

ثم لمّا أراد الله به نفع الخلائق بعدما تضلّع من العلوم الظاهرة وأسرار الحقائق، أضيف إلى مدرسة أستاذه أبي سعد المخرمي ممّا حولها من المنازل والأمكنة ما يزيد على مثلها، وبذل الأغنياء في عمارتها أعمالهم، وعمل الفقراء فيها بأنفسهم، فتكمّلت المدرسة المنسوبة إليه الآن، وكان الفراغ منها في سنة ثمان وعشرين وخمس مائة، وتصدّر فيها للتدريس والوعظ والفتوى، وجلس بها للوعظ وقصد بالزيارات والنذور، واجتمع عنده بها من العلماء والفقهاء والصلحاء جماعة كثيرون، انتفعوا بكلامه وصحبته ومجالسته وخدمته، وقصد إليه طلبة العلم من الآفاق، فحملوا عنه وسمعوا منه، وانتهت إليه تربية المريدين بالعراق، وولي خزانة الأسرار وأوتي مقاليد الحقائق، وسلّمت إليه أزمة المعارف، وصرف في الوجود المغارب منه والمشارق، فأصبح قطب الوقت مرجوعاً إليه حكماً وعلماً، وقام بالنظر والفتيا نقضاً وبرماً، وبرهن على العلم فرعاً وأصلاً، وبيّن الحكم عقلاً ونقلاً، وانتصر للحقّ قولاً وفعلاً.

وصنّف كتباً مفيدة وأملأ فوائد فريدة، فتحدّث بذكره الرفاق، وسارت بفضله الركبان وانتشرت أخباره في الآفاق، وأعملت المطيّ إليه ومدّت إليه الأعناق، وتنزهت في حدائق محاسنه الأعين، ونطقت ببدائع أوصافه الألسن، ولقّب بإمام الفريقين وموضّح الطريقين، وكريم الجدّين ومعلّم الطرفين، مشتملاً برداء المفاخر والفضائل، صادقاً فيه قول القائل:

بمقدمه انهلّ السحاب وأعشب الـ عراق وزال الغيّ واتّضح الرشد
فعيدانه رَنْد، وصحراؤه حمى وحصاؤه درّ وأمواجه شهد[1]
يميس به صدر العراق صبابة وفي قلب نجد من محاسنه وجد
وفي الشرق برق من مقابس نوره وفي الغرب من ذكرى جلالته رعد

فأضحى الزمان مشرقة به مناكبه، والدين مشرفة به مناصبه، والعلم عالية به مراتبه، والشرع منصورة به كتائبه، فانتمى إليه جمع عظيم من العلماء، وتلمذ له خلق كثير من الفقهاء، حذفت ذكرهم اختصاراً لكثرة عددهم ومشقّة ذكرهم.

وكذلك لبس الخرقة منه خلائق لا يحصون ـ من الفقراء والمشايخ الكبراء والعلماء

---

(١) الرَّنْد: شجرة صغيرة طيبة الرائحة من فصيلة الغاريات، مهدها الأصلي أوروبا الجنوبية، أوراقها بيضية الشكل وصالحة للتزيين، أزهارها صغيرة بيضاء، جعل منها الأقدمون رمزاً للنصر. المنجد في اللغة.

الخبراء، وقد ذكرت في كتاب: خلاصة المفاخر في أخبار مناقب الشيخ عبد القادر وفي كتاب: نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ أولي المقامات العالية، وغيرهما أنّ جمهور شيوخ اليمن يرجعون في لبس الخرقة إليه، بعضهم لبسها من يده لما قدمت أعلام فضائله عليهم، والأكثرون من رسول أرسله إليهم. وفيه وفي إلباس الخرقة وانتساب معظم شيوخ اليمن في لبسها إليه.

قلت في بعض القصيدات العشرة الأُولة من هذه الأبيات:

وفي منهج الأشياخ إلباس خرقة ... لهم سنّة أصل روى ذاك عن أصل
ولبس اليمانيين يرجع غالباً ... إلى سيّد سامي فخار على الكلّ
إمام الورى قطب الملا قائلاً على ... رقاب جميع الأوليا قدمي أُعلى
فطأطأ له، كلّ بشرق ومغرب ... رقاباً سوى فرد فعوقب بالعزل
مليك له التصريف في الكون نافذ ... بشرق وغرب الأرض والوعر والسهل
سراج الدجى شمس على فلك العلى ... بجْيُلانَ مبدؤها طلوعاً بلا أفل
طراز جمال مذهب فوق حلّة ... غد الكون فيها الدهر يختال ذا رفل
يتيمة درّ زان عقد ولائه ... يهيج على جِيد الوجود به مجلي
لجدواك يا بحر الندى عَبد قادر ... إلى - يافعيّ ذو افتقار وذو محل
قِفا هاهنا في رأس نهر عيونهم ... ملاها ومن بحر النبّوة مستملي
وسبحانك اللهمّ ربّاً مقدّساً ... وواسع فضل للورى فضله مولي

وأمّا كراماته رضي الله عنه، فخارجة عن الحصر، وقد ذكرت شيئاً منها في كتاب نشر المحاسن، وقد أخبرني من أدركت من أعلام الأئمة الأكابر أنّ كراماته تواترت، أو قريب من التواتر. ومعلوم بالاتفّاق أنه لم يظهر ظهور كراماته لغيره من شيوخ الآفاق. وها أنا أقتصر في هذا الكتاب على واحدة منها، وهي ما روى الشيخ الإمام الفقيه العالم المقرىء أبو الحسن علي بن يوسف بن جرير بن معضاد الشافعي اللخمي في مناقب الشيخ عبد القادر بسنده من خمس طرق، وعن جماعة من الشيوخ الجلّة أعلام الهدى العارفين المقتنين للاقتداء قالوا: جاءت امرأة بولدها إلى الشيخ عبد القادر، فقالت له: يا سيدي، إنّي رأيت قلب ابني هذا شديد التعلّق بك، وقد خرجت عن حقّي فيه لله عزّ وجلّ، ولك. فقبله الشيخ، وأمره بالمجاهدة وسلوك الطريق، فدخلت أمّه عليه يوماً فوجدته نحيلا مصفرّا من آثار الجوع والسهر، ووجدته يأكل قرصاً من الشعير، فدخلت إلى الشيخ فوجدت بين يديه إناء فيه عظام دجاجة مسلوقة قد أكلها، فقالت: يا سيدي؛ تأكل لحم دجاج ويأكل ابني خبز الشعير!! فوضع يده على تلك العظام وقال: قومي بإذن الله تعالى الذي يحيي العظام وهي

رميم، فقامت دجاجة سويّة وصاحت. فقال الشيخ: إذا صار ابنك هكذا فليأكل ما شاء.

وأمّا كلامه رضي الله عنه فكثير جداً في انواع شتى، لا تسعه إلاّ مجلّدات ودفاتر، وقد ذكرت شيئاً منه في كتاب: نشر المحاسن وخلاصة المفاخر. وها أنا أذكر منه ألفاظاً مختصرة في الشريعة المطهرّة.

قال رضي الله تعالى عنه: الإيمان طائر غيبي ينزل من أفق يختصّ برحمته من يشاء، فيسقط على شجرة قلب العبد، يترنّم بلذيذ لحون يبشّرهم ربّهم، يطير من قفص صدر صاحبه إلى مقعد صدق الشريعة المحمّدية ـ ثمرة شجرة الوجود ـ. الملة الإسلامية شمس أضاءت بنورها ظلمة الكون إتّباع شرعه يعطي سعادة الدارَيْن. في قلب صاحب الشرع الأعظم ودائع بدائع الحكم. في أسرار صاحب الناموس الأكبر خزائن جواهر الغيب، اجعل قبول أمره طريقك إلى الله تعالى، صيّر كعبة عقلك مهبط أملاك كلمات أحكامه. من ماء غمام أقواله تشرب عطاش الأرواح. في عيون حياة ألفاظه يغتسل خطر العقول. نادى منادي الطلب للأرواح الكامنة في القوالب، آثار ساكن عزمها إلى العلى، طارت بأجنحة الغرام في فضاء المحبّة، وقعت بعد التعب على أغصان الشوق، تناغت في شجرة بلابلها بمطربات ألحان الحنين إلى جمال وأشهدهم، وأزعجها هبوب نسيم الغرام إلى إعادة لذاذة (أَلَسْتُ) خرجت بعض تلك الطيور من أقفاص الصدور، ويتلمح أثراً من مطارها القديم، تنشقّ نسمة من مهبّ التكليم، تتذكّر عيشها في ظلّ أثل الوصل(١)، تشكو جواها بعد بعاد الأحباب، فسمعت داعي الله تعالى بلسان إنسان عين الوجود، انتقش دعاؤه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ في صفحات ألواح الأرواح، صارت دعوته ريحاً تهزّ أغصان أشجار القلوب، اضطربت فرسان العقول في ميادين الصور غراماً بما سمعت، اهتزّت الألباب بأيدي الوجد طرباً بذلك الوجد، صار عشقها له سرّاً من اسرار القدم، وأصبح ولهها به، لطيفة من لطائف القدر، إذا أشرقت على النفوس الخربة أنوار الغيب حفظت الأسرار وارتفعت الحجب الظاهرة عن عيون بصائرها، لاحظت جمال صاحب الكون مشاهدته بصفاء مرايا الأسرار، كعبة كلّ عارف، موضع نظرات الحقّ منه أقرب الطرق إلى الله تعالى، لزوم قانون العبوديّة والاستمساك بعروة الشريعة الإسلامية والاستقامة على جادّة التقوى. أُنسك بالله على قدر وحشتك عن غيره، ثقتك به على قدر معرفتك له، الكدر في الأعمال نوع من الحرمان. الانغماس في طلب الدنيا يثني العقل عن طلب الله عزّ وجلّ، الرياء في المطالب كسوف في شموس طلب الطالب، والنفاق في المقاصد خدش في وجوه قصد القاصد، عدم المطلوب

(١) الأثْل: شجر من فصيلة الطرفائيات، يكثر قرب المياه في الأراضي الرملية، أوراقه دقيقة وأزهاره عنقودية، يزرع أحياناً للزينة.

عذاب القلوب، فرقة الأحباب عذاب العقول، علائق زهرة الدنيا حجاب يمنع من الوصول إلى ملكوت العلى، إقبالك على الله تعالى بوجه عبادتك سبب إقبالك عليه(١) بوجه الرحمة، لو بلغ طفل عقلك الأسد في حجر التأديب ما التفت إلى الدنيا، لكن هو بعد في مهد، شغلتنا أموالنا وأهلونا، الأرواح الطاهرة قناديل هياكل الأجساد، العقول الصافية ملوك قصور الصور.

يا غلام افتح عين قلبك لتلقى عرائس أسرار الأزل، وانتشق بمشمّ روحك هبوب نسيم لطائف القدر، إنّ الله تعالى وضع تماثيل الوجود على ساحل بحر الدنيا لامتحان عيون أهل البصيرة، وسلّم من الالتفات إلى زخرفها أطفال أرواح أقيمت في مقصورة الثبات، وربّيت في حجور العصمة، وأرخيت عليها أكناف آيات الأمر، وكوشفت بلطائف محبّات القدر، وجليت عليها عرائس الغيب.

وقال رضي الله تعالى عنه: حلّيت عروس آدم في خلع، إن الله اصطفى، وسجدت الملائكة لسطوع نور ﴿ونفختُ فيه من روحي﴾، [الحجر/ ٢٩] وسمع موسى فوق روضة الطور بلبلاً يترنم بلذيذ لحن: إني أنا الله. وانس ساقياً يفرغ شراب القدم في كؤوس، أنا اخترتك، أشتاق إلى رؤية الساقي، هزّت أعطافه نشوات سكره، وكتب بيده شدّة توقه في طِرْس(٢) عشقه حروفاً، أرني، فانقلب القلم في يده، فقال: لن تراني. قيل له عند انقضاء دولته: يا موسى؛ سلّم بقلم الرسالة لصاحب: ﴿ويكلّم الناس في المهد﴾ [آل عمران/ ٤٦] واعطه الدواة ليكتب في كتب توحيدي: إنّي عبد الله. وتنقش في صحف رسالته سطور: ﴿ومبشِراً برسولٍ يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ [الصف/ ٦].

وقال رضي الله تعالى عنه: طارت نحل الأرواح قبل وجود الأشباح من كورات كنًّ في فضاء مروض التوحيد، ليرعى من زهر أشجار الأنس، ويأكل من ثمار أغصان المعرفة، ويتّخذ بيوتاً في مواطن القدس فوق قمم جبال العزّ، ويسلك سبيل الدنوّ إلى ربّها في حضرة العلوّ في مقام قربها، ويجني ثمرات الحضور بأيدي الهمم العالية، فاصطادها صيّاد القدر بشباك التكليف، وحصرها بيد الأمر في أقفاص الأشباح، فألهتها من الهياكل بهجة حسن الصفة، وألفت مساكن البشرية، فنسيت موطناً من القدس الأشرف، فأوحى ربّك إلى نحل الأرواح أن اسلكي سبل ربّك ذللاً في مسالك الأشباح، وكلي من كلّ ثمرات الشريعة، وارعي من أزهار أنوار الحقيقة. فلمّا طار طائرها ليرعى حبّ الحبّ من حدائق المجاهدة وقع في شرك المحبّة، ورأى ماء البلاء في غدير الولاء، فقال: كيف الخلاص؟ روض أنيق

---

(١) لعلّ الصواب: إقباله عليك.

(٢) الطرس: الصحيفة.

لكنّ ثمره مرّ، ومنهل عذب لكنْ فيه كم من غريق؟ فناداها حادي مطايا صدق الطلب بلسان النصح: يا أرباب الوله في حب معشوق الأرواح! ويا أصحاب الحرق في غاية أماني العارفين! ما بينكم وبين مطلوبكم سوى ارتفاع استار الصور، ولا يحجبكم عنه إلا حجب الهياكل، فطيروا إليه بأجنحة الغرام، واطلبوا عنده الحياة الأبديّة، وموتوا عن شهوات إرادتكم ليحييكم به عنده في مقعد صدق.

وقال رضي الله تعالى عنه: سرير الأسرار لا ينصب إلاّ في سرادق حقّ اليقين، وحقّ اليقين نقطة دائرة التوحيد، والتوحيد قاعدة بناء الوجود، الهويّة الأحديّة مغناطيس حديد قلوب العارفين، والروضة الأبديّة مراتع أسرار المكاشفين، كاشف الأرواح ليلة(أَلَسْتُ) بأسرار قدمه، الاطف العقول في مقام، وإذ أخذ بالالطاف تقرير عهده، باسط الخواطر في حضرة السرمديّة بمباسطة، وأشهدهم بقرب إلى الأسرار في جناب الأزل بمخاطبة(أَلَسْتُ)، سقاهم كأس حبّه بأيدي سقاة قربه، خرجوا إلى الدنيا وفي رؤوسهم نشوات ذلك الخمّار، وفي عيون عقولهم بقايا رسوم ذلك الجمال، وفي أحداق قلوبهم يرفاه ذلك الجناب. واحرقتاه عليكم!! كيف تموتون وما عرفتم ـ ربّكم؟!! الشجاعة صبر ساعة يا عجمي الفطنة، سافروا إلى بلاد العرب يا موتي الطبيعة، سافروا إلى بلاد هند الهداية. سقى بعض العارفين من هذا الشراب قطرة، وأفرغ ساقي القدر له منه بقيّة، فقامت روحه ترقص طرباً بين ندمائه، قرأ لسان حال موسى وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلاّ همساً. قال المخبر عن صدق طلبه: ﴿**وخرّ موسى صعقاً**﴾ [الأعراف/١٤٣] قيل: يا موسى؛ معدة طبعك ضعيفة عن تناول شراب، تجلّي أنيق عينك ضيّق عن مقابلة أنوار سبحات ﴿**ارني أنظر إليك**﴾ [الأعراف/١٤٣] عين الحدث لا تنفتح في شعاع شمس القدم، ورد النظر ما يطلع في شجر كانون هذا الكون، أنّكم لن تروا ربّكم حتّى تموتوا خلعة النظر في الدنيا مدّخرة في خزائن الغيب لصاحب ﴿**قاب قوسين**﴾، [النجم/٩] هذا الشرف لا يناله من الخلائق سوى سيّد ولد آدم ويتيمة عقد البشر: ﴿**ولا تقربوا مال اليتيم إلاّ بالتي هي أحسن حتّى يبلغ أشُدّه**﴾، [الأنعام/١٥٢] .

قال الرواة عنه: وأوّل كلام تكلّم به على الناس على الكرسيّ ـ رضي الله تعالى عنه، قوله: أغواص الفكر يغوص في بحر القلب على درر المعارف، فيستخرجها إلى ساحل الصدر، فينادي عليها سمسار ترجمان اللسان، فتشترّي بنفائس أثمان حسن الطاعة ﴿**في بيوت أذن الله أن ترفع**﴾، [النور/٣٦].

قلت: فهذا ما أثرت الاقتصار على ذكره للاختصار من كلامه الجليل المقدار المشتمل على الحكم والمعارف والأسرار. وقد أشرت في بعض هذه الأبيات المختصرة إلى محاسن

كلامه المشتهرة، المنسوجة في الأسلوب الغريب الذي لم ينسج غيره على منواله العجيب:

أيا مادحاً نسجاً وشاه ابن جوزي ... حلاه بأسلوب بعنيك فاخرِ
كأنك لم تنظر نسيج معارف ... وأسرار زاهي حكمة وسرائر
بأطرف أسلوب وأطرف حلّة ... وأشرف نسج باهج ـ الحسن زاهرِ
لدى حضرة الشاه أشرف صانع ... وأعرف أستاذ دُعي عبد قادر
به شرف الأكوان قطب زمانه ... رداء مجده فيه طراز المفاخر
له قدم تسمو تعالى فخارها ... لها خضعت طوعاً رقاب الأكابر
وما نسج فتح من نفيس مواهب ... كنسج طباع من قريحة خاطر
وأين الثريّا في علاها من الثرى ... وبلّ الندى في الفضل من وبل ماطر
كذا أين من باز العلى عاكف يرى ... على جيفة أو لاقط المتناثر
فما طائر تلقيه للباز صائداً ... وللباز تلقى صائداً كلّ طائر
وأين بعيد الدار من ساكن الحمى ... نديم هوى في حضرة القدس حاضر
تسقى من الراح التي لم ريحها ... يرح ذاك، فضلاً عن شراب تدايرِ
شريف معلى بل مولى على الورى ... وتصريفه قد عمّهم غير قاصر
له في الوجود الجاه والحكم نافذ ... خفير الورى في عصره غير خافر
لقد خفر الأكوان شرقاً ومغرباً ... وما في ضياء أخفرن أو دياجر
له الجنّ والأملاك والأنس كلّهم ... يخافون لا شخص يرى غير حاذر
به اسْألْ، فإنْ ألفيت قولي مصدّقاً ... وإلا أكذبن لليافعي في المحاضر
على روحه رضوان ربّي مقدّساً ... مدى الدهر زاكي النشر من غير آخر
وختمي لها حمدي لربّي مصليّاً ... على المصطفى من قبل خلق العناصر
محمد السامي على ذروة العلى ... غيّاث الورى عند الدواهي الذواعر

قلت: وأمّا اعتقاده فقد أخبرني ـ والله ـ من لا أشكّ في صدقه من أصحاب شيخ عصره وفريد دهره الشيخ نجم الدين الأصبهاني ـ قدّس الله تعالى روحه ـ أنّه قال: رجع آخراً عمّا كان يعتقده أوّلاً لما بلغه أنّ الفقيه الإمام البارع المشكور تقي الدين بن دقيق العيد المشهور تعجّب من شذوذ الشيخ عبد القادر المذكور في اعتقاده عن موافقة الجمهور من المشايخ العارفين والعلماء المحقّقين في مسألة الجهة المعروفة.

قلت: ومثل الشيخ نجم الدين المذكور إذا أخبر فعلى الخبير سقط المخبر، إذ هو من أهل الاطّلاع ظاهراً وباطناً. أمّا الباطن فلأنه من أهل النور والكشف، وأمّا الظاهر فلقرب الدار إذ كان العراق لهما موطناً، فهو الجامع ـ بين المعرفتين جميعاً مرتقياً في الولاية مقاماً

عزيزاً رفيعاً. وممّا يؤيّد ذلك ويدلّ على عدم اعتقاده الجهة والمكان في حال النهاية والعرفان كلامه المشهور عنه في مناقبه الثابتة برواية الرجال الشائعة في البلدان، ومن ذلك قوله المشتمل على يواقيت الحكم وابتهاج النور، وهو هذا النسيج العجيب والأسلوب الغريب والدرّ المنثور.

قال رضي الله تعالى عنه: نودي في معاقل الآفاق وفجاج الأكوان ومعالم المصنوعات أنّ سلطان الصفات القديمة وملك النعوت العظيمة يريد أن يمرّ على مسالك المعالم ويبدو في مشاهد الشواهد، فحدّقوا عقولكم وصفّوا سرائركم، وقيدّوا أفكاركم وغضّوا أبصاركم، واحصروا بلاغتكم وكفوا مناطقكم والسنتكم. فبرز من جناب العزّة سنا بارق مجلّل بالهيبة، مظلّل بالعظمة، متوّج بالجلال، مكلّل بالكمال، أخذ بنواصي الأنوار قاهراً لمعاني الأسرار، فتجلّى في حلل لطفه وتلطّفه، ودنا بتقرّبه وتعرّفه، له مطالع ومشارق، ولوائح وبوارق، وشواهد ومناطق، ومعارف وحقائق، وعوارف ومناشق، تجلو مطالعة ﴿**الرحمن على العرش استوى**﴾ [طه/ ٥] ويسفر مشارقه ﴿**وسع كرسيه السماوات والأرض**﴾ [البقرة/ ٢٥٥] ويوضح لوامحه، ﴿**يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء**﴾، [المائدة/ ٦٤] ويكشف بوارقه ﴿**وهو معكم أينما كنتم**﴾، [الحديد/ ٤] ويبدي شواهده ﴿**والسماوات مطويّات بيمينه**﴾، [الزمر/ ٦٧] ويفصح مناطقه ﴿**والله من ورائهم محيط**﴾، [البروج/ ٢٠] وينادي معارفه ﴿**وهو السميع البصير**﴾، [الشورى/ ١١] ويطق حقائقه ﴿**ليس كمثله شيء**﴾، [**الشورى/ ١١**] **ويشهد عوارفه** ﴿**لا تدركه الأبصار**﴾، [الانعام/ ١٠٣] وتتأرّج مناشقة ﴿**قل الله ثمّ ذَرْهُم**﴾ وظهرت معه بدائع القدم في أحسن صورة من بهجة الكمال البارز من حريم العزّ، عليها من ملابس الجمال غرائب العجائب، فطاف بها طائف من ربّك في طرائق المكنونات ومصنوعات المصنوعات ومكنونات الكائنات، فوقع الكلّ في مهاوي الهيبة، وتاهوا في مهامه الدهشة، وإذا الندا من حضرة القدس ﴿**أَلَسْتُ بربّكم**﴾ فقالوا بلسان الذلّ والخضوع في مقام التوحيد والإقرار بوحدانية إلهيتّه: بلى، وأشهدهم على أنفسهم لقيام الحجّة، يوم تشهد عليهم ألسنتهم، فيتبع الخلائق ذلك البارق، وسلكوا نحوه طرائق، فاقتفى قوم ولم يستضيئوا هدى من علم ولا إثارة، بل حكّموا العقول ومقاييسها. فاتّبعوا الأهوية وأباليسها. فمنهم طائفة ضلّوا في تيه التمويه ووقعوا في التجسيم والتشبيه، الذين أهلكهم الشقاء حين ابتلى أخيارهم، وأولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم. ومنهم فرقة ـ حاروا في أضاليل التعطيل. ومنهم عصابة هلكوا ابأباطيل الحلول، وأغرقوا فأدخلوا ناراً، فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً.

ومبادىء التوحيد والتنزيه تنادي في صفحات الوجود أن سلطان الصفات القديمة

وملك النعوت العظيمة إلى الآن في مقر العزّ والجلال ومظلّ القدرة والكمال. ما انتقل إلى مكان، لم يتغيّر عمّا عليه كان. يحتجب بجلال عزّته في معالي كبريائه وعظمته، فوجم العرش من خوف البطش، إذ جعل محلاً للافتراء ومجالاً للامتراء، وصاح بلسان الرهبة من البعد: يا أرباب الغيبة عن الرشد، إنّي منذ خلقت في دهشة الوله ووحشة التحير لمع لي من جناب الأزل بارق ﴿الرحمن على العرش استوى﴾، [طه/ ٥] فلمّا صوّبت نظري إلى نفسي وقع حدّه على جرم السماء فانطبع فيه: ﴿ثم استوى إلى السماء﴾، [البقرة/ ٢٩] فهبت فيها نظري، وشخص إليها بصري وطمحت إشراقات أنواره إلى عالم الثرى، فانتقش في طيّ مكنوناته مكتوب ﴿واسجُد واقترب﴾، [العلق/ ١٩] فأتى رهين غريتي وقرين زفرتي، لا أسمع غير الأخبار ولا أشهد غير الآثار، وأتبع قوم سبيل الرشاد في إشراق أنواره. ونصبو الشرع أمامهم، وأخذوا الحق إمامهم، واقتدوا بعساكر التوفيق جنداً جنداً، وسبقت إليهم ركائب التأييد وفداً وفداً، وشموس الهداية تسري معهم، وعيون العناية ترعى مرتعهم وتجمعهم، فأوصلهم الصدق في اتباع الحقّ إلى مسالك التوحيد ومعارف التمجيد، وعلت بهم الرتب إلى مقام القرب، وسقوط الكيف والتشبيه والحدود، ووجوب التنزيه والإجلال لواجب الوجود.

قلت: فهذا بعض كلامه في ذلك محتوياً على التوحيد والتنزيه ومصرّحاً بنفي التجسيم والتشبيه، مفصحاً بكون الحقّ تعالى لم ينتقل إلى مكان، ولم يتغيّر عمّا عليه كان، جامعاً بين فصاحة العبارة وملاحة الاستعارة وكذلك قوله في المشاهدة: لا بدّ في الشهود من سقوط مشهودين ونفى تعلّق الحظّ بالحيزّ والوقت والأين، ومحو ثبوت الفرق والجمع والقرب والبين. وقد ذكرت في كتاب نشر المحاسن. شيئاً من كلامه في الاعتقاد والأسرار وعلم الباطن.

ومن كلامه أيضاً المرويّ عنه في مناقبه لمّا قيل له أنّ فلاناً ـ وسموا له بعض مريديه ـ يقول إنّه يرى الله عزّ وجلّ بعينَيْ رأسه، فاستدعى به وسأله عن ذلك فقال: نعم، فانتهره ونهاه عن هذا القول، وأخذ عليه أن لا يعود إليه فقيل له: أمحقّ هذا ـ أم مبطل؟ قال: هو محقّ ملبس عليه، وذلك أنه شهد ببصيرته نور الجمال، ثمّ خرق من بصيرته إلى بصره منفذاً فرأى بصره ببصيرته يتصلى شعاعها بنور شهوده، فظنّ أنّ بصره رأى ما شهدته بصيرته، وإنمّا رأى بصره ببصيرته فحسب، وهو لا يدري. قال الله تعالى: ﴿مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان﴾، [الرحمن/ ٢٠] وإنّ الله يبعث بمشيئته على أيدي الطافه أنوار جلاله وجماله إلى قلوب عباده، فتأخذ منها ما يأخذ المصوّر من الصور، ولا ضرر، ومن وراء ذلك رداء كبريائه الذي لا سبيل إلى انخراقه.

قال الراوي: وكان جمع من المشايخ والعلماء حاضرين هذه الواقعة، فأطربهم سماع هذا الكلام، ودهشوا من حسن إفصاحه عن حال الرجل، وقام بعضهم ومزق ثيابه، وخرج إلى الصحراء عرياناً يعني هائماً.

قلت: وقوله: ومن وراء ذلك رداء الكبرياء الذي لا سبيل إلى انخراقه ـ نحو ممّا أشار إليه الشيخ الكبير العارف بالله السيّد الجليل شيخ الشيوخ أبو الغيث ابن جميل ـ قدّس الله روحه ـ بقوله: كلّ خيال نقاب لوجه الأمر العزيزي، والأمر العزيزي نقاب لجلال جمال سبحات وجه الله الكريم فرضاً، لئلا يبرز من ذلك الجلال ذرّة، فلا يبقى أحد من الثقلين، ولا من سواهما لا يعرف لله طاعة ولا عصياناً.

قلت: قوله: لا يعرف لله طاعة ولا عصياناً: يظهر فيه لي احتمالان، الاحتمال الأول: الإشارة إلى الفناء الكلّي، واصطلام الحسّ والمحسوس، وفقدان وجدان جميع الوجود لاستيلاء سلطان جلال الجمال في حالة الشهود، فلا يشعر حينئذ بطاعة ولا معصية ولا مطيع ولا عاصي. والاحتمال الثاني: أن يشهد القدر سابقاً المقدور بسوط ـ القضاء المبرم، وقائداً له إلى العلم السابق بزمام الحكم المحكم، وصار مزعجاً بالخروج إلى حيّز الوجود من حيّز العدم، واقعاً ـ لا محالة ـ بقدرة الملك القادر وإيجاد خالق كلّ شيء العزيز القاهر المهروب منه إليه المستعاذ به منه، جلّ وعلا وتبارك وتعالى.

قلت: فهذا ما اقتصرت عليه من ترجمة قطب الأولياء الأكابر المتوّج بتاج الشرف والمفاخر، شيخ الوجود ومطلع السعود، محيي الدين عبد القادر، الذي لا تسع ترجمة محاسنه إلاّ مجلّدات، على هذه النبذة اليسيرة في نحو تصنيف كرّاسة صغيرة، وقد اقتصر الذهبي منها على نحو سبعة أسطر حقيرة.

وفي السنة المذكورة توفّي الإمام الحافظ تاج الإسلام أبو سعد عبد الكريم بن محمد ابن منصور المروزي، محدّث المشرق، صاحب التصانيف الكثيرة والرحلة الواسعة. سمع بنيسابور وهَراة وبغداد وأصبهان ودمشق، وله معجم شيوخه في عشر مجلّدات. كان ثقة مكثراً واسع العلم كثير الفضائل، ظريفاً لطيفاً نبيلاً متجملاً شريفاً.

وفي السنة المذكورة توفي القاضي الرشيد أبو الحسين أحمد ابن القاضي الرشيد أبي الحسن علي الغساني الأسواني. كان من أهل الفضل والنباهة والرئاسة، صنّف كتاب جنان الجنان ورياض الأذهان وذكر فيه جماعة من مشاهير الفضلاء، وله ديوان شعر، ولأخيه القاضي المهذّب ديوان شعر أيضاً، وكانا مجيدين في نظمهما ونثرهما، ومن نظم القاضي المهذّب قوله في قصيدة:

وتـــرى المجـــرّة والنجـــوم كـــأنمّـــا تسقـــي الـــريـــاض بجـــدول مـــلآن
لـــو لـــم يكـــن نهـــراً لمـــا عـــامـــت بـــه أبـــداً نجـــوم الحـــوت والســـرطـــان

وذكر العماد الكاتب في كتاب السيل على الذيل الذي ذيّل به على الخرّيدة أنه كان أشعر من أخيه الرشيد، والرشيد أعلم منه في سائر العلوم.

قلت: ويشبه أن يكون نسبة هذين الأخوين الشريفين: الرضي والمرتضى، فإنّ الرضي كان أشعر ، والمرتضى كان أعلم. وولي الرشيد المذكور النظر في ثغر الاسكندرية بغير اختياره، وقتله الوزير شاور ظلماً. وكان أوحد عصره في علم الهندسة والرياضيات والعلوم الشرعيات، والآداب والشعريات. وقال العماد: أنشدني محمد بن موسى اليمني ببغداد قال: أنشدني القاضي الرشيد باليمن لنفسه في رجل:

لئـن خـاب ظنّـي فـي رجـائـك بعـدمـا ظننـت فـإنّـي قـد ظفـرت بمنصفـي
فـــإنـــك قـــد كلّفتنـــي كـــلّ منّـــةٍ ملكـتَ بهـا شكـري لـدى كـل مّـوقـف
لأنـكّ قـد حـذّرتنـي كـلّ صـاحـب وأعلمتني أنْ ليس في الأرض من يفي

وله أيضاً ممّا نقله عنه العماد المذكور.

إذا مـا نبـتْ بـالحـرّ دار يـودّهـا ولـم يـرتحـل عنهـا فليس بـذي حـزم
وهبـــه بهـــا صبّـــاً ألـــم يـــدرِ أنّـــه سيـزعجـه منهـا الحمـام علـى رغـم

وله أيضاً ممّا أنشده عنه أمير أبو الفوارس مرهف بن أسامة:

جلّـت علّـي الـرزايـا بـل جَلَـتْ هممـي وهـل يضـرّ جـلاء الصـارم الـذكـر
غيـــري بغيّـــره عـــن حســـن شيمتـــه صـرف الـزمـان ومـا يـأتـي مـن الغِيَـرِ
لـو كـانـت النـار لليـاقـوت محـرقـة لكـــان يشتبـــه اليـــاقـــوت بـــالحجـــر
لا تغـــرَرَنّ بـــأطمـــاري وقيمتهـــا فـــإنمّـــا هـــي أصـــداف علـــى درر
ولا تظـــنّ خفـــاء النجـــم مـــن صغـــر فـالـذنـب في ذاك محمـول على البصـر

وهذا البيت الأخير مأخوذ من قول أبي العلاء المعرّي، حيث قال في قصيدة له طويلة:

والنجـــم تستصغـــر الأبصـــار رؤيتـــه والـذنـب للطـرف لا للنجـم فـي الصغـر

وكان الرشيد قد سافر إلى اليمن رسولاً، ومدح جماعة من ملوكها. وممّن مدحه منهم علي بن حاتم الهمداني، قال فيه:

لئـن أجـدبـت أرض الصعيـد وأقحطـوا فلست أبالي القحط في أرض قحطان

ومـذ كفلـت لـي مـآرِب بمـأربـي فلسـت علـى أسـوان يـومـاً بـأسـوانِ
وإن جهلـت حقّـي زعـانـف خِنْـدف فقـد عـرفـت فضلـي غطـارف همـدان

فحسده الداعي وهو في مذهب الإسماعيلية الذي يدعو الخلق إلى متابعة الإمام المعصوم على زعمهم في عدن على ذلك، فكتب بالأبيات إلى صاحب مصر، فكانت سبب الغضب عليه، فأمسكه وأنفذه إليهم مقيداً مجرّداً، وأخذ جميع موجوده، فأقام باليمن مدّة، ثم رجع إلى مصر، فقتله شاور كما تقدّم، وقوله:

وإن جهلـت حقّـي زعـانـف خنـدف فقـد عـرفـت فضلـي غطـارف همـدان

يحتاج إلى تفسير لمن ليس باللغة خبيراً، أمّا الزعانف فهي بالزاي ثم العين المهملة وبين الألف والفاء نون ـ وهي اطراف الأديم وأكارعه، وأمّا خندف وهي بكسر الخاء المعجمة وقبل الدال المهملة نون ساكنة وهي قبيلة تنسب إلى أمّها امرأة الياس بن مضر، واسمها ليلى. والخندفة مشية كالهرولة، ويقال: خندف الرجل، إذا مشى قالياً قدميه كأنه يغترف بهما، وأمّا غطارف فهو بالغين المعجمة والطاء المهملة والراء بعد الألف جمع غطريف، وهو السيّد، وفرخ البازي، وقحطان قبيلة مسمّاة باسم جدّها وهو أبو اليمن وهمدان بالدال المهملة وسكون الميم قبلها قبيلة من اليمن. وأما بالذال المعجمة وفتح الميم فبلد بالعجم. والغساني بفتح الغين المعجمة والسين المهملة المشددة نسبة إلى غسان، وهي قبيلة كبيرة من الازد، شربوا من ماء غسان، وهو باليمن فنسبوا إليه، ومنهم بنو جَفْنة رهط الملوك. ويقال غان اسم قبيلة، والأسواني نسبة إلى أسوان بضم الهمزة وسكون السين المهملة، وهي بلدة بصعيد مصر[١].

سنة اثنتين وستين وخمس مائة

فيها سار أسد الدين[٢] السير الثاني إلى مصر ببعض جيش نور الدين، فنازل الجيزة شهرين، واستنجد وزير[٣] مصر الفرنج، فدخلوا إلى النيل من دمياط، والتقوا، فانتصر أسد الدين، وقتل ألوف من الفرنج.

قال ابن الأثير: هذه من أعجب ما أُرّخ أنّ ألفي فارس تهزم عساكر مصر والفرنج. ثم

---

(١) في الوافي بالوفيات: ومن تصانيفه: منية الألمعي وبيّنة المدعي، وكتاب المقامات، وجنان الجنان وروضة الأذهان، والهدايا والطرف، شفاء الغلّة في سمت القبلة، ديوان شعره، ديوان رسائله. ٦/ ٧/ ٢٢٠.

(٢) أسد الدين شيركوه بن شاذي مقدم عسكر نور الدين محمود بن زنكي.

(٣) شاور.

استولى أسد الدين على بلاد الصعيد وتقوّى بخراجها، وأقامت الفرنج بالقاهرة حتّى استر أسوا، ثم قصدوا الاسكندرية وقد أخذها صلاح الدين، فحاصروه أربعة أشهر، ثم كرّ أسد الدين منجداً له، فترحّلت الملاعين بعد أن قد استقرّ لهم بالقاهرة شحنة[١]، وقطيعة مائة ألف دينار في العام. وصالح شاور أسد الدين على خمسين ألف دينار، وأخذها ونزل الشام.

وفيها قدم قطب الدين صاحب الموصل على أخيه نور الدين، فغزوا الفرنج، فأخذوا حصناً بعد حصن[٢].

وفيها احتراق البلادين حرقاً عظيماً، حتّى صار تاريخاً، وأقامت النار أيامّاً.

وفيها توفّي خطيب دمشق أبو البركات الخضر بن شبل الفقيه الشافعي، درّس بالغزالية وبالمجاهدية، وبنى له نور الدين المدرسة المعروفة بالعمادية.

وفيها توفّي ابن حمدون صاحب التذكرة أبو المعالي[٣] محمد بن أبي سعد الكاتب الملقب كافي الكفاءة البغدادي. كان فاضلاً ذا معرفة تامّة بالأدب والكتابة، من بيت مشهور بالرئاسة والفضل، صنّف كتاب التذكرة، وهو من أحسن المجاميع، يشتمل على التاريخ والأدب والنوادر والأشعار، لم يجمع أحد من المتأخّرين مثله، ذكره العماد الكاتب في كتاب الخريدة، وأنشد لنفسه لغزاً في مروحة الجيش:

ومرسلة معقودة دون قصدها ... منفذة تجري لجيش طليقها
يمرّ خفيف الريح وهي مقيمة ... وتسري وقد سدّت عليها طريقها
لها من سليمان النبيّ وراثة ... وقد عزمت نحو النبيط عروقها
إذا صدق النوء الشمالي أمحلت ... وتمطر والجوزاء ذاك حريقها
وتحسبها إحدى الصنائع أنّها ... لذلك كانت كلّ روح صديقها

قلت: وفي المروحة أيضاً أنشدنا بعض شيوخنا، وهو الشيخ الصالح أبو بكر ابن السائغ لنفسه:

وفي عدن حرّ كأنّ لهيبه ... من النار في أرجائها اليوم لافح
أدافع عنّي بالمراوح جيشه ... فيا ضعف من يحمي قفاه المراوح

---

(١) في الكامل لابن الأثير: فأما الفرنج فإنهم استقرّ بينهم وبين المصريين أن يكون لهم بالقاهرة شحنة، وتكون أبوابها بيد فرسانهم. ٩/٩٦.

(٢) ذكر منها ابن الأثير: حلبة والعريمة وصافيتا وهونين. . .

(٣) في الكامل لابن الأثير: وفيها توفي أبو المعالي محمد بن الحسين بن حمدون الكاتب ببغداد، وكان على ديوان الذمام، فقبض عليه فمات محبوساً. ٩/٩٧.

وفيها توفي الإمام تاج الإسلام أبو سعد عبد الكريم[١] بن أبي بكر محمد بن أبي المظفرّ منصور بن محمد التميمي السمعاني المروزي الفقيه الشافعي، ذكره الشيخ عزّ الدين أبو الحسن علي بن الأثير الجزري في مختصره فقال.

أبو سعد واسطة عقد البيت السمعاني، وعينهم الباصرة ويدهم الناصرة، وإليه انتهت رئاستهم، وبه كملت سيادتهم. رحل في طلب العلم والحديث إلى شرق الأرض وغربها وشمالها وجنوبها، إلى ما وراء النهر وسائر بلاد خراسان مرّات، وإلى قُومَس والري وأصبهان وهمدان وبلاد الجبال والعراق والحجاز والموصل والجزيرة والشام وغيرها من البلاد التي يطول ذكرها ويتعذّر حصرها، ولقي العلماء وجالسهم، وأخذ عنهم، واقتدى بأفعالهم الجميلة وأثارهم الحميدة، وروى عنهم. وكانت عدّة شيوخه تزيد على أربعة آلاف شيخ، وكان حافظاً ثقة مكثراً واسع العلم كثير الفضائل ظريفاً لطيفاً مبجّلاً نظيفاً نبيلاً شريفاً، وصنّف التصانيف الحسنة العزيزة الفائدة، من ذلك تذييل تاريخ بغداد الذي صنّفه الفاضل أبو بكر الخطيب وهو نحو خمسة عشر مجلداً. وتاريخ مَرْو يزيد على عشرين مجلّداً، والأنساب[٢] نحو ثماني مجلّدات وهو الذي اختصره الشيخ عزّ الدين المذكور، واستدرك عليه مختصره في ثلاث مجلّدات. وكانت ولادة أبي سعد يوم الاثنين الحادي والعشرين في شعبان سنة ستّ وخمس مائة، وكان أبوه إماماً فاضلاً مناظراً فقيهاً محدّثاً شافعياً، وله عدّة تصانيف وشعر غسله قبل موته وإملاء لم يسبق إلى مثله، وتوفّي أبوه المذكور وقت فراغ الناس من صلاة الجمعة ثاني عشر صفر سنة عشر وخمس مائة.

وفيها توفي الحافظ المفسرّ الواعظ الأديب المتقن أبو شجاع عمر بن محمد البَسْطامي[٣].

سنة ثلاث وستين وخمس مائة

وفيها أعطى نور الدين لنائبه أسد الدين حمص وأعمالها، فبقيت في يده مائة سنة.

وفيها توفّي أبو محمد عبدالله بن علي الأصبهاني المقرىء، كان عالماً زاهداً معمّراً.

---

(١) سبق ذكره في وفيات السنة السابقة.

(٢) ذكر له مقدّم كتاب الأنساب: (عبد الله عمر البارودي) حوالي ٤٩ مؤلفاً ـ كلّها من تأليف السمعاني. انظر مصنفاته في كتاب الأنساب ١/١١.

(٣) نسبة إلى بَسْطام وهي بلدة بقومس، وينسب إليها أبو شجاع عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن نصر البسطامي ثم البلخي، سكن بلخ وولد فيها في ذي الحجة سنة خمس وسبعين وأربع مائة. الأنساب للسمعاني ١/٣٥١، ٣٥٢ ولم يذكر السمعاني وفاته، إذ كان أبو شجاع حياً حين كتب أبو سعد هذا في الأنساب، وقد توفي أبو شجاع سنة ٥٦٢ هـ وهي السنة التي توفي فيها السمعاني.

وفيها توفّي أبو الحسين هبة الله بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر الفقيه الشافعي، قرأ القراءات وسمع الحديث وتفقّه ودرس بالغزالية، وأفتى واعتنى بفنون العلم، وكان ورعا خيّراً كبير القدر، عرضت عليه خطابة البلد فامتنع.

وفيها توفّي الشيخ الكبير الولي الشهير العارف بالله الخبير ذو المقامات الطيّة والأحوال السنيّة والأنفاس الصادقة والكرامات الخارقة والتصانيف المفيدة الوثيقة في الشريعة والحقيقة أبو النجيب عبد القاهر بن عبدالله السهروردي القرشي البكري، نسبة إلى أبي بكر الصدّيق - رضي الله تعالى عنه - بينه وبينه اثنا عشر أباً، كان من أعيان المحقّقين وأعلام العلماء العاملين وصفوة العارفين، وهو أحد من درّس بالنظامية وتصدّر للفتوى، وجمع ووضع التصانيف، وكان يلّقب مفتي العراقين وقدوة الفريقين انعقد عليه إجماع المشايخ والعلماء بالاحترام، وأوقع الله له في الصدور القبول التامّ، وكان يشرح أحوال القوم، ويتطيلس[١] ويلبس لباس العلماء، ويركب البغلة ويرفع بين يديه - الغاشية على ما نقله بعض العلماء في تصنيفه.

ومن كراماته ما روى بعض أصحابه، وهو الشيخ أبو محمد عبدالله بن مسعود المعروف بالرومي قال: مررت مرّة مع شيخنا أبي النجيب بسوق السلطان ببغداد، فنظر إلى شاة مسلوخة معلّقة عند جزّار، فوقف عنده وقال له: إنّ هذه الشاة تقول لي أنّها ميتة، فغشي على الجزّار، فتاب على يدي الشيخ المذكور، وأقرّ بصحّة قوله. وله كرامات أخرى، وكلام نفيس ومحاسن جليلة لا نطول بذكر ذلك.

وفيها قتل ظلماً القاضي المهذّب أبو محمد الحسن ابن القاضي الرشيد الغسّاني الأسواني، وكان أوحد عصره في العلوم الشرعيات والهندسية والرياضيات والآداب والشعريّات. ومن شعره ما تقدّم من قوله في سنة إحدى وستين:

غيـري يغيّـره عـن حسـن شيمتـه ... صرف الزمان وما يأتي من الغير

إلى آخر الأبيات

سنة أربع وستين وخمس مائة

فيها سار أسد الدين مسيره الثالث إلى مصر، وكانت الفرنج قد ملكت تِنّيس[٢]

---

(١) يتطيلس: يلبس الطيلسان. والطيلسان كساء مدور أخضر يلبسه الخواص من العلماء والمشايخ، وهو من لباس العجم. الألفاظ الفارسية المعرّبة: ١١٣.

(٢) جاءت في الكامل لابن الأثير: بلبيس: وجدّ الفرنج في السير إلى مصر، فقدموها ونازلوا مدينة بلبيس وملكوها قهراً. . . . وساروا من بلبيس إلى مصر فنزلوا على القاهرة. ٩/ ٩٩ وتقع بلبيس على الطريق=

وحاصروا القاهرة، وأخذوا كلّ ما كان خارج السور، فكاتب شاور نور الدين واستنجد به، وسوّد كتابه وجعل في طيّه ذوائب نساء القصر. وكان نور الدين بحلب، فساق إليه أسد الدين من حمص، فجمع العساكر ثم توجّه في عسكر يقال كان سبعين ألفاً ما بين فارس وراجل، فتقهقرت الفرنج، ودخل القاهرة وجلس في دَسْت[١] الملك، وخلع عليه العاضد خلع السلطنة، وعهد إليه بوزارته، وقبض على شاور، فأرسل إليه العاضد بطلب رأس شاور، فقطعه، وأرسل به إليه.

وشاور المذكور كان قد ولاّه الملك الصالح بلاد الصعيد، ثمّ لمّا مات الملك الصالح دخل القاهرة بالعساكر، وقتل الملكَ ولدَ[٢] الملك الصالح، وجلس مكانه.

ثم بعد شهرين مات أسد الدين[٣]، فقلّد العاضد منصبه ابن أخيه صلاح الدين يوسف ابن نجم الدين، ولقّبه بالملك الناصر، ثمّ ثار عليه السودان، فحاربهم وظفر بهم وقتل منهم قتلاً عظيماً.

وفيها توفّي صاحب دمشق مجير الدين الملّقب بالملك المظفّر.

وفيها توفّي شاور مقتولاً كما ذكرنا، وقد تقدّم ذكر قهره لوزير العاضد الملقّب بالعادل، وقتله له وجلوسه في الوزارة مكانه.

وفيها توفّي شيخ المقرئين بالأندلس أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن هذيل. وكان فيه مجموع فضائل من القراءة والزهد والورع والتواضع والتقّلل من الدنيا والإعراض عنها وكثرة الصيام والقيام والصدقة والتجويد والإتقان في القراءات.

وفيها توفّي القاضي زكي الدين أبو الحسن علي ابن القاضي أبي المعالي محمد بن يحيى القرشي قاضي دمشق، استعفي عن القضاء فأعفي، وسار فحجّ.

وفيها توفّي أبو المعالي محمد بن أبي الحسن علي بن محمد القرشي الأموي العثماني، كان ذا فضائل عديدة من الفقه والأدب وغيرهما، وله النظم المليح والخطب والرسائل، وتولّى القضاء بدمشق، وكانت له عند السلطان صلاح الدين المنزلة السنية

= بين الإسماعيلية والقاهرة.

(١) الدست: لفظة فارسية وتعني صدر البيت أو المجلس.

(٢) ولد الملك الصالح هو: العادل بن الصالح بن رزّيك الذي كان وزيراً للعاضد لدين الله العلوي صاحب مصر. انظر تاريخ ابن الأثير ٨١/٩.

(٣) جاء في المصدر السابق: وتوفي أسد الدين شيركوه يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمس مائة ـ وكانت ولايته شهرين وخمسة أيام. ١٠١/٩.

والمكانة المكينة، ولمّا فتح السلطان صلاح الدين مدينة حلب أنشده[١] القاضي محيي الدين أبو المعالي المذكور قصيدة أجاد فيها كلّ الإجادة، وكان من جملتها هذا البيت:

وفتحـك القلعـة الشهبـاء فـي صفـر   مبشّـر بفتـوح القـدس فـي رجـب[٢]

وكان كما قال، فإن القدس فتحت لثلاث بقين من رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، فقيل له: من أين لك هذا؟ فقال: أخذته من تفسير ابن بَرّجان في تفسير قوله تعالى ﴿**ألم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين**﴾ [الروم ١ ـ٣٠] والمنقول عن ابن بَرّجان أنه ذكر له حساباً طويلاً وطريقاً في استخراج ذلك حتّى حرّره من قوله تعالى ﴿**بضع سنين**﴾. ولمّا ملك صلاح الدين المذكور حلب فوّض الحكم والقضاء بها للقاضي أبي المعالي المذكور. ولمّا فتح القدس تطاول إلى الخطابة بها يوم الجمعة كلّ واحد من العلماء الذين كانوا في خدمته حاضرين، وجهّز كلّ واحد منهم خطبة بليغة طمعاً في أن يكون هو الذي يعيّن لذلك، فخرج المرسوم للقاضي أبي المعالي المذكور أن يخطب، وحضر السلطان وأعيان دولته، وذلك في أوّل جمعة صلّيت بالقدس بعد الفتح، فلمّا رقي على المنبر استفتح بسورة الفاتحة ثم قال: فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين، ثم قرّأ سورة الأنعام ﴿**الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور**﴾ إلى آخر الآيات الثلاث، ثم قرأ من سورة سبحان ﴿**وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك**﴾ [الاسراء/ ١١١] الآية، ثم قرأ من أوّل الكهف ﴿**الحمد لله**﴾ إلى آخر الثلاث الآيات، ثم قرأ من النمل ﴿**وقل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى**﴾ [النمل/ ٥٩] ثم قرأ من سورة سبأ ﴿**الحمد لله**﴾ الخ الآية، ثم قرأ من سورة فاطر ﴿**الحمد لله فاطر السموات والأرض**﴾، [فاطر/ ١] وكان قصده أن يذكر جميع تحميدات القرآن الكريم، ثم شرع في الخطبة فقال:

الحمد لله معزّ الإسلام بنصره، ومذلّ الشرك بقهره، ومصرّف الأمور (جماعة أدبا كثيراً واتفقوا على فضله ومعرفته)[٣]. بأمره، ومديم النعم بشكره، ومستدرج الكفّار بمكره، الذي قدّر الأيام دولاً بعدله، وجعل العاقبة للمتّقين بفضله، وأفاء على عباده من ظلّه[٤]، وأظهر

(١) يظهر أن خطأ وقع فيه المؤلف، إذ ذكر أن وفاة أبي المعالي تمت سنة ٥٦٤ هـ، بينما كان فتح صلاح الدين الأيوبي لمدينة حلب سنة ٥٧٩ هـ، علماً أن المعالي المذكور أنشد صلاح الدين هذه القصيدة في السنة المذكورة، وسيرد ذكر وفاته في سنة ٥٩٨ هـ. انظر تاريخ ابن الأثير ٩/ ١٦٢.

(٢) عند ابن الأثير: وفتحك حلباً بالسيف في صفر...

(٣) هذه العبارة لم ترد عند ابن الأثير في الهامش ـ نقلاً عن الشيخ أبي شاقة ـ في الروضتين ـ. انظر تاريخ ابن الأثير ٩/ ١٨٤.

(٤) وردت في المصدر السابق: من طلّه وهطله.

دينه على الدين كلّه، القاهر فوق عباده فلا يمانع، والظاهر على خليقته فلا ينازع، والآمر بما شاء فلا يراجع، والحاكم بما يريد فلا يدافع، أحمده على إظفاره وإظهاره، وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره، وتطهيره بيته المقدّس من أدناس الشرك وأوضارة[1]، حمد من استشعر الحمد باطن سرّه وظاهراً جهاره، وأشهد أنّ لا إله الا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤاً أحد، شهادة من طهّر بالتوحيد قلبه، وأرضى به ربّه، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، رافع الشكّ ودافع الشرك وداحض الإفك، الذي أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وعرج به منه إلى السموات العلى، إلى سدرة المنتهى، عندها جنّة المأوى، ما زاغ البصر وما طغى، صلّى الله عليه وعلى خليفته أبي بكر الصدّيق السابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أوّل من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفّان ذي النورين جامع القرآن، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزلزل الشرك ومكسرّ الأوثان، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان.

أيّها الناس! أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى والدرجة العليا لما يسّره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالّة من الأمّة الضالّة، وردها إلى مقرّها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدى المشركين قريباً من مائة عام، وتطهير هذا البيت الذي أذن الله أن يرفع ويذكر فيها اسمه، وإماطة الشرك عن طرقه بعد أن امتدّ عليها رواقه واستقر فيها رسمه، ورفع قواعده بالتوحيد، فإنّه بنى عليه وشيّد بنيانه بالتمجيد، وإنّه أسّس على التقوى من خلفه ومن بين يديه، فهو موطن أبيكم ابراهيم ومعراج نبيّكم عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام، وقبلتكم التي كنتم تصلّون إليها في ابتداء الإسلام، وهو مقرّ الأنبياء ومقدس الأولياء، ومدفن الرسل ومهبط الوحي، ومنزل به ينزل الأمر والنهي، وهو في أرض المحشر وصعيد المنشر، وهو في الأرض المقدّسة التي ذكرها الله تعالى في كتابه المبين، وهو المسجد الذي صلّى فيه رسول الله بالملائكة المقرّبين، وهو البلد الذي بعث الله إليه عبده ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروحه عيسى الذي كرّمه برسالته، وشرّفه بنبوّته، ولم يزحزحه عن رتبة عبوديته، فقال تعالى: ﴿**لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقرّبون**﴾، [النساء/ ١٧٢] كذب العادلون بالله وضلّوا ضلالاً بعيداً، ما اتخذ الله من ولد وما كان معه إله، إذاً لذهب كلّ إله بما خلق، وأملا الآية ﴿**لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم**﴾، [المائدة/ ١٧، ٧٢] إلى آخر الآيات من المائدة. . . . . وهو أوّل القبلتين وثاني المسجد وثالث الحرمين، لا تشدّ الرّحال بعد المسجدين إلاّ إليه، ولا

---

(١) مرت سابقاً، وهي وسخ الدسم.

تعقد الخناصر بعد الموطنين إلاّ عليه. وهذا نحو من ثلث خطبته، رمت الاقتصار إيثاراً للاختصار.

وفيها توفّي الحافظ أبو أحمد معمر[١] بن عبد الواحد القرشي العبشمي الأصبهاني، سمع من جماعة كثيرين، واعتنى بالحديث وجمعه، ووعظ وأملا وكان ذا قبول ووجاهة، توفّي في طريق الحجاز، رحمه الله تعالى.

سنة خمس وستين وخمس مائة

فيها وقعت الزلزلة[٢] العظمى بالشام، وأطنب جماعة في تعظيمها حتّى قال بعضهم هلك بحلب تحت الهدم ثمانون ألفاً.

وفيها حاصرت الملاعين الفرنج دمياط خمسين يوماً، ثمّ ارتحلوا من أجل أنّ نور الدين وصلاح الدين أجلبا عليهم وعلى بلادهم برّاً وبحراً. وعن صلاح الدين أنّه قال: ما رأيت أكرم من العاضد، أخرج إليّ في هذه المرّة[٣] ألف ألف دينار سوى الثياب وغيرها. يعني بالعاضد أحد الخلفاءالعُبَيْديين.

وفيها حاصر نور الدين سِنْجار[٤]، ثم أخذها بالأمان، وتوّجه إلى الموصل وبنى بها جامعاً، ورتّب أمورها، ثم رجع فنازل الكرك[٥]، ونصب عليها منجنيقين[٦]، ثم رحل عنها لحرب نجدة الفرنج، فانهزموا.

وفيها توفّي أبو الفضل أحمد[٧] بن صالح بن شافع الجيلي ثم البغدادي، أحد العلماء والمعدلين والفضلاء والمحدّثين.

---

(١) في ابن الأثير: فيها توفي المعمر بن عبد الواحد بن رجار أبو أحمد الأصفهاني الحافظ، روى عن أصحاب أبي نعيم، وكان موته بالبادية ذاهباً إلى الحاج في ذي العقدة. ٩/ ١٠٥.

(٢) في الكامل لابن الأثير: في هذه السنة ثاني عشر شوال كانت زلازل عظيمة متتابعة هائلة لم ير الناس مثلها، وعمت البلاد من الشام والجزيرة والموصل والعراق وغيرها من البلاد. . . . . ثم أتى نور الدين مدينة حلب فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد. ٩/ ١٠٦.

(٣) وجاء في المصدر السابق: وكانت مدة مقامهم على دمياط خمسين يوماً، أخرج فيها صلاح الدين أموالاً لا تحصى، حكي أنه قال: ما رأيت أكرم من العاضد، أرسل إلي مرّة لمقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصرية سوى الثياب وغيرها. ٩/ ١٠٥ ـ ١٠٦.

(٤) سنجار: سبق ذكرها.

(٥) الكرك: مدينة في الأردن، تقع شرقي جنوب البحر الميت، شمال مؤتة.

(٦) في الكامل لابن الأثير: ونصب عليه المنجنيقات ٩/ ١٠٦.

(٧) في الوافي بالوفيات للصفدي: أحمد بن صالح بن شافع بن صالح بن حاتم بن أبي عبدالله الجيلي. . . .ولم يزل وافر الهمة في طلب الحديث على قدم الاشتغال إلى حين وفاته، وكتب بخطّه كثيراً وحصّل الأصول الحسان، وحدث باليسير لأنه توفي شاباً. ٦/ ٦/ ٤٢١ـ ٤٢٢.

وفيها توفّي صاحب الموصل وابن صاحبها السلطان قطب الدين مودود بن زنكي.

وفيها توفّي أبو المكارم عبد الواحد بن هلال الأزدي المعدل، سمع من غير واحد، وأجاز له الفقيه نصر، وكان رئيساً جليلاً كثير العبادة والبرّ.

وفيها توفّي أبو بكر بن النقور، بالنون والقاف وفي آخره راء، عبدالله بن محمد البغدادي ثقة محدث من اولاد الشيوخ.

سنة ست وستين وخمس مائة

فيها توفّي أبو زُرْعة طاهر[١] ابن الحافظ محمد بن طاهر المقدسي ثم الهمذاني.

وفيها توفّي الحافظ المعدل أبو مسعود عبد الرحمن بن أبي الوفاء علّي بن أحمد الأصبهاني.

وفيها توفّي أبو عبدالله محمد بن يوسف الزينبي شاطِبة[٢]، سمع من جماعة قال بعضهم: كان عارفاً بالأثر مشاركاً في التفسير، حافظاً للفروع، بصيراً باللغة والكلام، فصيحاً مفوّهاً، مع الوقار والصمت والصيام والخشوع، ولي قضاء شاطبة، وحدّث وصنّف.

وفيها توفّي المستنجد[٣] بالله أبو المظفّر يوسف ابن المقتفي لأمر الله محمد ابن المستظهر بالله أحمد بن المقتدي العباسي.

وفيها توفي ابن الجلال[٤] القاضي الأديب موفق الدين يوسف بن محمد، صاحب ديوان الإنشاء. ولي بعده القاضي المعروف بالفاضل.

وفيها توفّي المعافري عبد الجبار بن محمد المغربي، كان إماماً في اللغة وفنون الأدب، اشتغل عليه خلق كثير وانتفعوا به، واشتغل ببغداد ودخل الديار المصرية.

سنة سبع وستين وخمس مائة

في أوّلها تجاسر صلاح الدين وقطع خطبة العاضد العبيدي، وخطب للمستضيء أمير

---

(١) في الكامل لابن الأثير: طاهر بن محمد بن طاهر أبو زرعة المقدسي الأصل، الرازي المولد، الهمذاني الدار، ولد سنة إحدى وثمانين وأربعمائة، وأسمعه والده الحافظ محمد بن طاهر الكثير، وممّا كان يرويه مسند الشافعي. توفي بهمذان يوم الأربعاء سابع عشر ربيع الآخر، وقد قارب التسعين. ٩/١١١.

(٢) شاطبة: مدينة في شرقي الأندلس وشرقي قرطبة، معجم البلدان.

(٣) انظر صفاته ونسبه وكيفية وفاته في تاريخ ابن الأثير ٩/١٠٨، ١٠٩.

(٤) في الكامل لابن الأثير: وفيها مات القاضي ابن الخلال، من أعيان الكتاب المصريين وفضلائهم، وكان صاحب ديوان الإنشاء بها. ٩/١١١.

المؤمنين العباسي، فأعقب ذلك موت العاضد العبيدي يوم عاشوراء، فجلس صلاح الدين للعزاء، وبالغ في الحزن والبكاء، وتسلّم القصر وما حوى، واهتبط على أهل القصر في مكان أفرد لهم، وقرّر لهم ما يكفيهم، ووصل إلى بغداد أبو نصر سعد بن عصرون رسولاً بذلك، فزيّنت بغداد فرحاً وكانت خطبة بني العباس قد قطعت من مصر مائتي سنة وتسع سنين (وحلّت مكانها)[1] خطبة بني عُبَيْد. فأرسله[2] بالخلع لنور الدين وصلاح الدين، وكانت خلعة نور الدين فرجيّة[3] وجبّة وقباء وطوق ذهب وزنه ألف دينار، ومعها حصان بسرجه، وحصان يجنب بين يديه، وسيفان ولواء، فقلّد السيفين إشارة إلى الجمع له بين الشام ومصر.

وفيها سار نور الدين لحصار الكرك، وطلب صلاح الدين فاعتذر، فلم يقبل عذره، وهمّ بالدخول إلى مصر وعزل صلاح الدين عنها، فبلغ ذلك صلاح الدين فجمع خواصّه وواله وخاله شهاب الدين الحارمي في جماعة أمراء، واستشارهم فقال ابن أخيه عمر: إذا جاءنا قاتلناه. وتابعه غيره على ذلك من الحاضرين، فشتمهم والد صلاح الدين نجم الدين أيوّب، وأحد وزيرهم، وقال لابنه: أنا أبوك وهذا خالك، في هؤلاء من يريد لك الخير مثلنا؟ فقال: لا، قال: والله لو رأيت أنا وهذا نور الدين لم يمكنا[4] إلاّ أن ننزل نقبّل الأرض، ولو أمرنا بضرب عنقك لفعلنا، فما ظنّك بغيرنا، وهذه البلاد لنور الدين؟!! فإن أراد عزلك فأي حاجة له في المجيء، بل يطلبك بكتاب. ثم تفرّقوا وكتب غير واحد من الأمراء بهذا المجلس المذكور إلى نور الدين، فلمّا خلا نجم الدين بابنه قال: أنت جاهل، تجمع هذا الجمع وتطلعهم على سرّك؟! فلو قصدك نور الدين لم تر منهم معك أحداً، فاكتب إليه واخضع له، ففعل.

وفيها توفّي يحيى بن سعدون بن تمام الأزدي القرطبي الملّقب صائن الدين، أحد الأئمة المتأخرين في القراءات وعلوم القرآن الكريم والحديث والنحو واللغة وغير ذلك، ودخل الاسكندرية وسمع من جماعة كثيرة وكذلك بمصر، ودخل بغداد وقرأ القرآن، وسمع

---

(١) سقطت من النص عبارة، ووضعت ما يناسب ذلك من خلال الكامل لابن الأثير ٩/ ١١١.

(٢) في الكامل لابن الأثير: وسيّرت الخلع مع عماد الدين صندل... لنور الدين وصلاح الدين. ٩/ ١١٢.

(٣) جاء في الأعلاق الخطيرة لابن شداد: فرجية: عرفها دوزي في معجم الملبوسات بأنها نوع من القباء المسترسل، ويصنع غالباً اليوم من الجوخ، وله أكمام واسعة طويلة تتعدّى أطراف الأصابع، وهي غير مفتوحة أو مشقوقة. ٣/ ٢/ ٩٣٢.

(٤) في الكامل لابن الأثير: والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لم نمكث إلا أن نقتل بين يديه. ٩/ ١١٣.

الحديث على جماعة من أكابر زمانه، وكان ديّناً ورعاً، عليه وقار وسكينة، وكان ثقة ثبتاً نبيلاً قليل الكلام كثير الخير مفيداً، وأقام بدمشق مدّة، واستوطن الموصل، ودخل أصبهان، ثم عاد إلى الموصل، وأخذ عنه شيوخ ذلك العصر. قال ابن خلّكان: وكان شيخنا قاضي حلب بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع يفتخر بقراءته عليه وروايته، وكان كلّ يوم يسمط له دجاجة، ويتولّى طبخها بيده. وكان كثيراً ما ينشد مسنداً إلى أبي الخير الكاتب الواسطي:

جرى قلم القضاء بما يكون   فسيّان التحرّك والسكون
جنون منك أن تسعى لرزق   ويرزق في غشاوته الجنين

وفيها توفّي العلاّمة أبو محمد الخشاب عبدالله بن أحمد البغدادي النحوي المحدّث، طلب وسمع وأكثر وقرأ الكثير وكتب بخطه المليح المتقن، وأخذ العربيّة عن أبي السعادات ابن الشجري وابن الجواليقي، وأتقن النحو واللغة والتصريف والنسب والفرائض والحساب والهندسة وغير ذلك، وصنّف التصانيف. وكان إليه المنتهى في حسن القراءة وسرعتها وفصاحتها مع الفهم والعذوبة، وانتهت إليه الإمامة في النحو، وكان متضلّعاً من العلوم، وخطّه في نهاية الحسن، وكان ظريفاً مزّاحاً، وله شعر قليل من ذلك قوله في كتاب اللغز:

وذي أوجه لكنّه غير بائح   بسرّ، وذو الوجهين للسرّ مظهر
تناجيك بالأسرار أسرار وجهه   فتسمعها بالعين ما دمت تنظر

وهذا المعنى مأخوذ من قول المتنبيّ في ابن العميد:

خلقت صفاتك في العيون كلامه   كالخطّ يملاء مسمعي من أبصرا

وشرح كتاب الجمل لعبد القاهر الجرجاني وسمّاه: المرتجل في شرح الجمل، وترك أبواباً في وسط الكتاب ما تكلّم عليها، وشرح اللمع لابن جنّي ولم يكمله. وكانت فيه بزازة[1] وقلّة اكتراث بالمأكل والملابس، وسخ الثياب يسقى في جرّة مكسورة، وما تأهّل قطّ ولا تسرّى.

وذكر العماد أنّه كان بينه وبينه صحبة ومكاتبات، قال: ولما مات رأيته في المنام فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: خيراً، فقلت: فهل يرحم الله الأدباء؟ فقال: نعم، فقلت: وإن كانوا مقصّرين؟ فقال: يجري عتاب كثير ثم يكون بعده النعيم. انتهى.

قلت فافهم معنى هذا الكلام أيها الواقف عليه، إنمّا ذكر هذا للمقصّرين في الخيرات لا للعاصين أولي السيّئات كأمثالنا. نسأل الله الكريم أن يسامحنا ويعفو عنّا.

---

(١) البِزازة: التجارة أو حرفة البزّاز ـ لعلها مأخوذة من فعل بزّ: أخذ بجفاء وقهر.

وفيها توفّي العاضد لدين الله عبدالله ابن الحافظ لدين الله العبيدي المصري، أحد خلفاء الباطنية. وفي أيامه قدم حسين بن نزار بن المستنصري في جموع من المغرب، فلمّا قرب منه غدر به أصحابه، وقبضوا عليه وحملوه إلى العاضد، فذبحه صبراً. وكان موت العاضد بإسهال مفرط، وقيل: مات غمّاً لمّا سمع بقطع خطبته.

وفيها توفّي أبو الحسن بن النعمة علي بن عبدالله الأنصاري الأندلسي[١]، أحد الأعلام، تصّدر لإقراء القرآن والحديث والفقه والنحو واللغة، وكان عالماً حافظاً للفقه والتفاسير ومعاني الآثار، مقدّماً في علم اللسان ـ فصيحاً مفوّهاً ورعاً فاضلاً معظماً، دمث الأخلاق. انتهت إليه رئاسة الإقراء والفتوى، وصنّف كتاباً كبيراً في شرح سنن النسائي بلغ فيه الغاية.

وفيها توفّي أبو المظفّر محمد بن أسعد بن الحكيم[٢]، كان له القبول التام في الوعظ بدمشق، سمع ودرس وصنّف تفسير القرآن، وشرح مقامات الحريري.

وفيها توفّي أبو حامد النووي الطوسي الفقيه الشافعي محمد بن محمد، تلميذ محمد ابن يحيى. كان إليه المنتهى في معرفة علم الكلام والنظر والبلاغة والجدل، بارعاً في معرفة مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري، وصنّف في الخلاف تعليقة جيّدة، وله جدل مليح سمّاه: المقترح في المصطلح، أكثر الفقهاء الاشتغال به، وشرحه الفقيه أبو الفتح مظفرّ بن عبدالله المصري شرحاً مستوفي، وكان حلو العبارة ذا فصاحة وبراعة، دخل بغداد فصادف قبولاً وافراً من العام والخاص، وكان يحضر عنده كلّ يوم خلق كثير، وله حلقة المناظرة بجامع القصر، ويحضر عنده المدرّسون والأعيان، ويجلس للوعظ في النظاميّة ـ ومدرّسها يومئذ الشاشي أحمد بن عبدالله ـ وكان هو يدرّس في المدرسة النهائية قريباً من النظاميّة، يذكر فيها كلّ يوم عدّة دروس. وذكر بعض المؤرخين أنّه وعظ، وبعد صيته، وشغب على الحنابلة فأصبح ميتاً. ويقال إنّ الحنابلة أهدوا له مع امرأة صحن حلواء مسمومة.

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي: على بن عبدالله بن خلف بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الملك، الإمام أبو الحسن بن النعمة الأنصاري الأندلسي المرّي، تصدر للقرآن والفقه والنحو والرواية ونشر العلوم، صنّف كتاب: ريّ الظمآن في تفسير القرآن. وصنّف: الإمعان في شرح مصنف النسائي أبي عبد الرحمن. ٦/ ٢١/ ٢١٣.

(٢) في الوافي بالوفيات للصفدي: محمد بن أسعد بن محمد بن نصر الفقيه، أبو المظفر بن الحكيم البغدادي العراقي الحنفي الواعظ نزيل دمشق، كان يعظ بها، ودرّس بالطرخانية والصادرية، وبنى له الأمير معين الدين أُنُز مدرسته، وشرح المقامات، وذكر أنه سمعها من الحريري، توفي سنة ٥٦٧ هـ ـ ودفن بباب الصغير بدمشق. ٦/ ٢/ ٢٠٣.

وفيها توفّي الإمام أبو بكر الأزدي يحيى بن سعدون القرطبي النحوي، نزيل الموصل وشيخها، سمع بقرطبة ومصر وبغداد، وأخذ عن الزمخشري وبرع في العربية والقراءات، وتصدّر فيها مدّة. وكان ذا عبادة وورع، وتبحرّ في العلوم.

وفيها توفّي أبو الفتوح نصرالله بن قلانس الشاعر اللخمي الإسكندري(١). كان شاعراً مجيداً وفاضلاً نبيلاً، صحب الشيخ الحافظ أبا طاهر السلفيّ، وانتفع بصحبته، وأثنى عليه الحافظ المذكور، ودخل بلاد اليمن، وامتدح بعض الوزراء في مدينة عدن، فأحسن إليه وأجزل صلته، ثم ركب البحر فغرق جميع ما كان معه، فعاد إليه عرياناً، وأنشده قصيدة مطلعها:

صدرنا وقد نادى السماح بنا ردّوا — فعدنا إلى مغناك والعَوْد أحمد

وأنشده أيضاً قصيدة مفتتحها:

سافر إذا حاولت قدراً — سار الهلال فعاد بدرا
والماء يكسب ما جرى — طيباً ويخبث ما استقرّا
وتنقّل الدرر النفيسة — بدّلت بالبحر نحرا

ومعنى البيت الثاني مأخوذ من قول بديع الزمان: الماء إذا طال مكثه ظهر خبثه. والبيت الثالث مأخوذ من قول صرد الشاعر وهو:

نقّل ركابك في الفلا — ودع الغواني في الخدور
لولا التنقّل ما ارتقى — درر البحور إلى النحور

سنة ثمان وستين وخمس مائة

فيها دخل قراقوش ـ بالقاف مكرّرة والشين المعجمة ـ ابن أخي(٢) السلطان صلاح الدين بلاد المغرب، فنازل طرابلس مدّة وافتتحها ـ وكان للفرنج ـ.

وفيها سار شمس(٣) الدولة أخو صلاح الدين إلى اليمن، فافتتحها وقبض على المتغلّب عليها الزنديق المسمّى بعبد النبيّ(٤).

---

(١) في الكامل لابن الأثير: قال أبو شامة: وفيها توفي نصر الله بن عبدالله أبو الفتوح الإسكندري المعروف بابن قلانس الشاعر بعيذاب، توفي عن خمس وأربعين سنة. ٩/ ١١٤.

(٢) في الكامل لابن الأثير: سار طائفة من الترك من ديار مصر مع قراقوش مملوك تقيّ الدين عمر ابن أخي صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى جبال نفوسة. ٩/ ١١٩.

(٣) شمس الدولة: تورانشاه بن أيوب، وهو أخو صلاح الدين الأكبر.

(٤) عبد النبي صاحب زبيد.

وفيها حاصر صلاح الدين الكرك، ولم يفتتحها في هذه المرّة.

وفيها سار نور الدين فافتتح بهنسة[١] وغيرها، ثم دخل الموصل[٢]، ودان له صاحب الروم[٣].

وفيها توفّي الأمير نجم الدين أيوّب بن شاذي ـ بالشين والذال المعجمتين ـ ويلقّب بالملك الأفضل، والد الملوك: صلاح الدين وسيف الدين وشمس الدولة وسيف الإسلام وشاهنشاه وتاج الملوك بوري وستّ الشام وربيعة خاتون، وأخو الملك أسد الدين. شب به فرسه، فحمل إلى داره ومات بعد أيام، وكان يلقّب بالأجلّ الأفضل. وأوّل ما ولي نجم الدين المذكور ولاية قلعة تكريت بعد ولاية أبيه لها بتولية وإليها نائب السلطان غيّاث الدين مسعود السلجوقي، ثم إنّ النائب المذكور غضب على نجم الدين بسبب أخيه أسد الدين، وذلك أنّه مرّت عليه امرأة باكية، فسألها عن سبب بكائها، فذكرت له أنّه تعرّض لها إنسان، فتناول أسد الدين حربة بيد ذلك الإنسان، وضربه بها فقتله، فأمسكه أخوه نجم الدين واعتقله، وكتب إلى النائب يعرّفه بذلك، فوصل جوابه وهو يقول لأبيكما: عليّ حقّ، وبيني وبينه مودّة مؤكدة، فما يمكنني أن أكافئكما بسيئة تصدر منّي ولكنّي أشتهي منكما أن تخرجا من بلدي. فلمّا وصلهما الجواب ما أمكنهما المقام بتكريت، فخرجا منها، ووصلا إلى الموصل، فأحسن إليهما الأتابك عماد الدين زنكي، وزاد في إكرامهما والإنعام عليهما، وأقطعهما إقطاعاً جسناً، ثمّ لمّا ملك الأتابك قلعة بعلبك استخلف بها نجم الدين أيوّب، وفيها بنى خانقاهاً للصوفيّة يقال لها النجميّة ـ وهي منسوبة إليه ـ عمّرها في مدّة إقامته بها، وكان رجلاً مباركاً كثير الصلاح مائلاً إلى أهل الخير، حسن النيّة جميل الطويّة، ديّناً عاقلاً كريماً، وفي سيرته وما جرى له كلام طويل ذكروا في آخره أنّه لما تولّى ولده صلاح الدين وزارة الديار المصرية في أيّام العاضد صاحب مصر من العُبَيْديين استدعى أباه نجم الدين المذكور من الشام. ـ وكان في دمشق في خدمة السلطان نور الدين محمود بن زنكي ـ فجهزّه نور الدين وأرسله إليه، فدخل القاهرة لستّ بقين من رجب سنة خمس وستين وخمسمائة، وخرج العاضد إلى لقائه إكراماً لولده صلاح الدين، وفعل معه من الأدب ما هو اللائق بمثله، وعرض صلاح الدين على والده المذكور أمر الوزارة كلّه، وجعله له فأبى

---

(١) بهنسة: وردت في الكامل لابن الأثير بهنسي: فسار نور الدين إليه فابتدأ بكيسون وبهنسي ومرعش ومرزبان فملكها. ٩/ ١٢٠. وفي معجم البلدان: بهنسا: مدنية بمصر من الصعيد الأدنى غربي النيل.

(٢) في الكامل لابن الأثير: ولما كان نورالدين في هذه السفرة جاءه رسول كمال الدين أبي الفضل محمد ابن عبدالله الشهرزوري من بغداد ـ ومعه منشور من الخليفة بالموصل والجزيرة وبإربل وخلاط والشام وبلاد قلج أرسلان وديار مصر ٩/ ١٢٠.

(٣) صاحب الروم: عز الدين قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان.

وقال: يا ولدي؛ ما اختارك الله لهذا الأمر إلاّ وأنت أهل له، ولا ينبغي أن تغيّر موضع السعادة. ولم يزل عنده حتّى استقلّ صلاح الدين بمملكة البلاد ـ كما سيأتي في ترجمته ـ ثم خرج صلاح الدين إلى الكرك[١] ليحاصرها، وأبوه بالقاهرة، فركب يوماً ليسير على عادة الجند فخرج من باب النصر ـ أحد أبواب القاهرة ـ فشبّت به فرسه، فألقاه، وبقي متألمّاً أياماً، ثم توفّي ـ رحمه الله تعالى ـ.

وفيها توفي ملك النحاة أبو نزار الحسن بن صافي البغدادي. كان نحوياً بارعاً، أصولياً متكلّماً، رئيساً ماجداً، قدم دمشق واشتغل بها، وصنّف في الفقه والنحو والكلام، وعاش ثمانين سنة. وسمع الحديث، وقرأ مذهب الإمام الشافعي وأصول الدين على أبي عبدالله القيرواني، والخلاف على أسعد المِيَهني[٢]، وأصول الفقه على أبي الفتح بن برهان صاحب الوجيز والوسيط في أصول الفقه، وقرأ النحو على الفصيحيّ، والفصيحي قرأ على عبد القاهر الجَرْجاني صاحب الجمّل الصغير، وسافر إلى خُراسان وكَرْمان وغَزْنَة، ورحل إلى الشام، واستوطن دمشق وتوفّي بها. وله مصنّفات كثيرة في الفقه والأصلين والنحو، وله ديوان شعر، ومدح النبيّ ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ بقصيدة، ومن شعره:

سلوت بحمد الله عنها فأصبحت ... دواعي الهوى من نحوها لا أجيبها
على أنّني لا شامتٌ ـ إن أصابها ... بلاء، راضٍ لواشٍ بعيبها

ولقب نفسه ملك النحاة وكان يسخط على من يخاطبه بغير ذلك وأخذ عنه جماعة ادباء كثيراً واتفقوا على فضله ومعرفته.

سنة تسع وستين وخمس مائة

فيها توفّي الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي، كان ملكاً عادلاً زاهداً عابداً ورعاً متمسكاً بالشريعة مائلاً إلى الخير مجاهداً في سبيل الله كثير الصدقات، بنى المدارس في بلاد الإسلام الكبار مثل دمشق وحلب وبعلبك ومَنْبج[٣] والرحْبَة[٤]، وبنى بمدينة الموصل الجامع النوري، وبحماة الجامع الذي على نهر العاصي، وجامع

(١) الكرك: ذكرت سابقاً.

(٢) الميهَني: نسبة إلى ميهنة وهي إحدى قرى خابران، ناحية بين سرخس وأبيورد. الأنساب: ٥/ ٤٣٩.

(٣) منبج: جاء في الأعلاق الخطيرة: ٣/ ٢/ ٨٣٧: وبينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ.

(٤) الرحبة: هي رحبة مالك بن طوق، تقع على الفرات بين الرقة وعانة، أحدثها مالك بن طوق في خلافة المأمون. مراصد الاطلاع ٢/ ٦٠٨. ولا تزال آثار قلعتها الخربة بادية للعيان حتى يومنا على بضعة كيلومترات في الجنوب الغربي من مدينة الميادين السورية.

الرُّها[(١)]، وجامع منبج، ومارستان[(٢)] دمشق، ودار الحديث بها، وله من المناقب والمآثر والمفاخر ما يستغرق الوصف، وكان في الأولياء معدوداً من الأربعين، وصلاح الدين من الثلاث مائة، ذكر ذلك بعض الشيوخ العارفين.

لما قتل أبوه[(٣)] سار في خدمته صلاح الدين محمد بن أيوّب[(٤)] وعساكر الشام إلى مدينة حلب وحماة وحمص ومنبج وحرّان[(٥)] فملكها، وملك أخوه سيف الدين[(٦)] الموصل وما والاها، ثم إن نور الدين نزل على دمشق محاصراً لها ـ وصاحبها يومئذٍ مجير الدين أتابك الملك رواق بن تُتُش بالمثناة من فوق مكررة ثم الشين المعجمة السلجوقي ـ وكان نزول نور الدين عليها ثالث صفر سنة تسع واربعين وخمس مائة، وملكها يوم الأحد تاسع الشهر المذكور، ثم استولى على بقيّة بلاد الشام من حمص وحماة وبَعْلبك ـ وهو الذي بنى سورها ـ ومَنْبج وما بين ذلك، وافتتح من بلاد الروم عدّة حصون منها مَرْعَش[(٧)] وبهنسا وتلك الأطراف، وافتتح أيضاً من بلاد الفرنج أيضاً حَارِم[(٨)] وعَزَاز[(٩)] وبانياس[(١٠)] وغير ذلك ممّا يزيد عدتّه على خمسين حصناً، ثم سيّر الأميرَ أسد الدين عمَّ صلاح الدين إلى مصر ثلاث مرّات، وملكها السلطان صلاح الدين في المرّة الثالثة نيابة عنه، وجعل اسمه في الخطبة والسكّة.

---

(١) الرها: مدينة في تركيا تعرف بأدسّا، وقد سمّاها العرب الرهاء أو الرها، وهو تحريف للاسم اليوناني كلرهو ـ وبعد انتقالها إلى أيدي الترك العثمانيين عرفت باسم أورفا، وتقع عند منابع أحد روافد البليخ، وأكثر ما اشتهرت به هذه المدينة كنائسها الكثيرة. وقال ياقوت: هي مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام. بلدان الخلافة الشرقية ١٣٤ ـ ١٣٥ ومعجم البلدان ٣/ ١٠٦.

(٢) مارستان: محرفة من كلمتين فارسيتين هما بيمارستان ومعناها دار المرضى «مستشفى». الاعلاق الخطيرة.

(٣) أي نور الدين زنكي وهو عماد الدين زنكي بن آقسنقر، حيث قتله جماعة من مماليكه ليلاً غيلة وهو يحاصر قلعة جعبر. انظر ابن الأثير ٩/ ١٣.

(٤) في الكامل لابن الأثير: صلاح الدين محمد الباغيسياني. ٩/ ١٣.

(٥) حران: مدينة في تركيا مقابل تل أبيض السورية على نهر بليخ. الاعلاق الخطيرة ٣/ ٢/ ٧٨١.

(٦) سيف الدين غازي.

(٧) مرعش: مدينة بالثغور بين الشام وبلاد الروم، أحدثها الرشيد، لها سوران، وفي وسطها حصن يسمّى المرواني. كان بناه مروان الحمار، ولها ربض يعرف بالهارونية. مراصد الاطلاع ٣/ ١٢٥٩.

(٨) حارم: مدينة سورية تقع غربي حلب، إلى الشرق من نهر العاصي. قال ياقوت الحموي: حارم حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية.

(٩) عزاز: ويقال لها اليوم أعزاز: وهي مدينة عظيمة عامرة، محاسنها ظاهرة، قد كثر بناؤها، واتسع فناؤها، عمرت قلعتها، وكانت قديماً تعرف بتل أعزاز... الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب: ١٦٨. وتقع شمال حلب قرب الحدود مع تركيا.

(١٠) بانياس: مدينة سورية على ساحل البحر المتوسط بين طرطوس واللاذقية.

وكان بينه وبين أبي الحسن سنان بن سليمان بن محمد الملّقب راشد الدين صاحب قلاع الإسماعيلية ومقدّم الفرقة الباطنيّة ـ وإليه تنسب الطائفة السنّية مكاتبات ومحاورات بسبب المحاورة ـ فكتب إليه نور الدين في بعض الأزمنة كتاباً يهدّده فيه ويتواعده بسبب اقتضاء ذلك، فشقّ على سنان، فكتب جوابه أبياتاً ورسالة:

يـا ذا الـذي بقـراع السيـف هـدّدنـا	لا قـام مصـرع جنبـي حيـن تصـرعـه
قـام الحمـام إلـى البـازي يهـدّد	فـاستيقظـت لأسـود البـرّ أضْبُعُـهُ [١]
أضحـى يسـدّ ـ فـم الأفعـى بـإصبعـه	يكفيـه مـا قـد تـلاقـي منـه إصْبَعُـهُ

وقفنا على تفصيله وحمله وعلمنا ما هدّدنا به من قوله وعمله، فيالله العجب من ذبابة تطنّ في أذن فيل وبعوضة تعدّ[٢] في التماثيل، ولقد قالها من قبلك قوم آخرون فدمرنا عليهم ما كان لهم من ناصرين، أو للحقّ تدحضون وللباطل تنصرون، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون. وأمّا ما صدر من قولك في قطع رأسي وقلعك لقلاعي من الجبال الرواسي فتلك أماني كاذبة وخيالات غير صائبة، فإنّ الجواهر لا تزول بالأعراض كما أنّ الأرواح لا تضمحل بالأمراض، كم من قويّ وضعيف، ودنيء وشريف، فإن عدنا إلى الظواهر والمحسوسات، وعدلنا عن البواطن والمعقولات فلنا أسوة رسول ـ الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ في قوله: «**ما أوذي نبيّ ما أوذيت**»، وقد علمتم ما جرى على عترته وأهل بيته وشيعته، والحال ما حال والأمر ما زال، ولله الحمد في الآخرة والأولى إذ نحن مظلَومون لا ظالمون، ومغصوبون لا غاصبون، وإذا ﴿**جاء الحقّ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً**﴾، وقد علمتم ظاهر حالنا وكيفيّة رحالنا، وما يتمنّوه من الفوت ويتقرّبون به إلى حياض الموت قُلْ ﴿**فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين ولا يتمنّونه أبداً بما قدّمت أيديهم والله عليم بالظالمين**﴾، [الجمعة/٦و٧] وفي أمثال العامّة السائرة: أوَ للبطّ تهدّدون بالشطّ؟ فهيّىء للبلايا جلباباً، وتدرع للرزايا أثواباً، فلأظْهرنّ عليك منك ولأتعبنّهم فيك عنك، فتكون كالباحث عن حتفه بظلفه، والجادع مارن[٣] أنفه بكفّه، وما ذلك على الله بعزيز.

وفي رواية: فإذا وقفت على كتابنا هذا فكن لأمرنا بالمرصاد ومن حالك على اقتصاد، واقرأ أوّل النحل وآخر(ص).

والصحيح أنّه كتب هذا اللفظ إلى السلطان صلاح الدين بن أبي أيوّب، وبالجملة فإن محاسن نور الدين كثيرة، وسيرته في حسنها شهيرة. وكانت وفاته ـ رحمه الله تعالى ـ بعلّة

(١) أصيعه: من فعل صاع، أصاع: فرّق. تصيّع الماء: اضطرب وهاج . لعلها: تعضّ.
(٢) لعها: تعض.
(٣) المارن: طرف الأنف.

الخوانيق، وأشار عليه الأطباء بالقَصْد فامتنع، وكان مهيباً فما روجع ودفن في بيت بقلعة دمشق كان يلازم الجلوس فيه والمبيت أيضاً، ثم نقل إلى تربته بالمدرسة التي أنشأها عند باب سوق الخوّاصين. وروي عن جماعة أنّ الدعاء عند قبره مستجاب، وكانت ولادته سنة إحدى عشرة وخمس مائة، فجميع عمره نيفّ وخمسون سنة، وكان قد عهد بالملك إلى ولده الملك الصالح اسماعيل، فقام من بعده، وخرج السلطان صلاح الدين من مصر، وملك دمشق وغيرها في بلاد الشام، وتركه في مدينة حلب، ولم يزل بها حتّى توفّي سنة[1] سبع وسبعين وخمسمائة. وكان لموته وقع عظيم في قلوب الناس، وتأسفوا عليه لأنه كان محسناً محمود السيرة ـ رحمه الله تعالى ـ.

وفيها وعظ الشهاب الطوسي ببغداد فقال: ابن ملجم لم يكفر بقتل عليّ ـ رضي الله تعالى عنه ـ فرجموه بالآجرّ، وهاجت الشيعة، فلولا العلماء لقتل، وحرقوا منبره، وهيؤّوا له للمعياد الآتي قوارير النفط ـ ليحرقوه، ولامه نقيب النقباء، فأساء الأدب، فنفوه، فذهب إلى مصر وارتفع بها شأنه وعظم.

وفيها توفّي الحافظ أبو علي[2] العطّار الحسن بن أحمد الهمداني المقرىء الأستاذ، شيخ همدان وقارئها وحافظها. رحل وحمل القراءات والحديث، قرأ بواسطة علي القلانسي، وببغداد على جماعة، وسمع من ابن بيان وطبقته، وبخراسان من الفراوي وطبقته، وبرع على حافظ زمانه في حفظ ما يتعلّق بالحديث من الأنساب والتواريخ والأسماء والكنى والقصص والسير، وله تصانيف في القراءات والحديث والرقائق في مجلّدات كبيرة، منها كتاب زاد المسافر خمسون مجلّداً. وكان إماماً في العربيّة، وحفظ في اللغة كتاب الجمهرة، وأخرج جميع ما ورثه، وكان أبوه تاجراً، وسافر مراراً ماشياً يحمل كتبه على ظهره، ويبيت في المساجد، ويأكل خبز الدّخن[3] إلى أن نشر الله تعالى ذكره في الآفاق. قال ابن النجّار: هو إمام في علوم القرآن والحديث والأدب والزهد والتمسك بالأثر.

وفيها توفي سعيد بن المبارك البغدادي النحوي المعروف بابن الدهّان، صاحب التصانيف الكثيرة، ألّف شرحاً للإيضاح في ثلاثة وأربعين مجلّداً، وكان سيبويه زمانه.

وفيها توفّي المسمى بعبد النبي ابن المهدي، الذي تغلّب على اليمن، وتلّقب

---

(١) في الكامل لابن الأثير: في هذه السنة ـ ٥٧٧ هـ ـ في رجب توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود صاحب حلب بها، وعمره نحو تسع عشرة سنة ٩/ ١٥٣.

(٢) في الكامل لابن الأثير: هو أبو العلاء الحسن بن أحمد بن محمد العطار الهمداني. ٩/ ١٢٩.

(٣) الدخن: الواحدة دخنة: نبات من فصيلة البخيليات، حبّه صغير يقدّم طعاماً للطيور والدجاج ـ وقد يستخدم في صناعة الخبز بديلاً عن القمح ليتناوله الإنسان.

بالمهدي. وكان أبوه أيضاً قد استولى على اليمن، فظلم وغشم وذبح الأطفال، وكان باطنياً من دعاة المصريين بني عُبَيْد، وهلك سنة ستّ وستين، وقام بعده ولده المذكور فاستباح الحرائر وتمرّد على الله فقتله شمس الدولة[١] كما مضى.

وفيها توفّي الفقيه عمارة بن علي بن زيدان الحكمي المَذْحِجي[٢] اليمنّي الشافعي الفرضي نزيل مصر وشاعر العصر. كان شديد التعصّب للسنّة أديباً ماهراً، ولم يزل يماشي الحال في دولة المصريين إلى أن ملك صلاح الدين فمدحه، ثم إنّه شرّع في أمور وأخذ مع رفاق من الرؤساء في التعصّب للعُبَيْديين وإعادة دولتهم، فنقل أمرهم ـ وكانوا ثمانية ـ إلى صلاح الدين، فسبقهم[٣] في رمضان. ذكر في بعض تآليفه أنه من قحطان، وأنّ وطنه من تهامه اليمن: مدينة يقال لها برطان، من وادي سباع، وبعدها من مكّة في مهبّ الجنوب أحد عشر يوماً. واشتغل بالفقه في زَبيد مدّة أربع سنين، وحجّ سنة تسع وأربعين وخمس مائة، وسيّره قاسم بن هاشم صاحب مكّة ـ شرفها الله تعالى ـ إلى الديار المصرية ـ وصاحبها يومئذ الفائزين الظافر ـ ومدحه ووزيره بقصيدة يقول فيها:

الحمد للعيش بعد العزم والهمم ... حمداً يقوم بما أوليت من نعم
لا أجحد الحقّ عندي للركاب به ... تمنّيت اللجم فيها ريتة الخطم
قريرُ، بعدَ مرار العيش من نظري ... حتّى رأيت إمام العصر من أَمَم
وأجري من الكعبة البطحاء والحرم ... السامي إلى كعبة المعروف والكرم

إلى أن قال:

أقسمت بالفائز المعصوم معتقداً ... فوز النجاة، وأجري البرّ في القسم
لقد حمى الدين والدنيا وأهلهم ... وزيره الصالح الفرّاج للغمم
خليفة ووزير مدّ عدلهما ... ظّلاً على مفرق الإسلام والأُمم
زيادة النيل نقص عند فيضهما ... فما عسى تتعاطى منية الديم

فاستحسنا قصيدته، وأجز لاصلته، ثم رجع متوجّهاً إلى مكّة، ثمّ منها إلى زَبيد في سنة إحدى وخمسين، ثم حجّ من عامه، فأعاده صاحب مكّة المذكور في رسالة إلى مصر

---

(١) شمس الدولة: هو تورانشاه بن أيوب الأخ الاكبر لصلاح الدين الأيوبي.
(٢) نسبة إلى مَذْحِج وهي قبيلة من اليمن. الأنساب ٥/ ٢٤٠.
(٣) في الكامل لابن للأثير: في هذه السنة ـ ٥٦٩ هـ ـ ثاني رمضان صلب صلاح الدين يوسف بن أبو يوسف جماعة ممن أراد الوثوب به بمصر من أصحاب الخلفاء العلويين، وسبب ذلك أن جماعة من الشيعة، منهم: عمارة بن أبي الحسن اليمني الشاعر. . . . واتفق رأيهم على استدعاء الفرنج . . . . فقبض صلاح الدين حينئذ على المقدمين في هذه الحادثة، منهم عمارة وعبد الصمد الكاتب والعويرس وغيرهم، وصلبهم. انظر ٩/ ١٢٣، ١٢٤.

مرّة ثانية، فاستوطنها ولم يفارقها بعد. وكانت بينه وبين الكامل بن شاور صحبة مؤكدة قبل وزارته، فلمّا وزر استحال عليه فكتب إليه:

إذا لم يسالمك الزمان فحاربِ … وباعدْ إذا لم تنتفع بالأقاربِ
ولا تحتقر كبداً ضعيفاً فربّما … تموت الأفاعي من سموم العقاربِ
فقد هَدَّ قدْماً عرشَ بليقس هدهد … وخرّب فأر قبل ذا سد مأربِ
إذا كان رأس المال عمرك فاحترز … عليه من الإنفاق في غير واجب

مع أبيات اخرى بالغة في الحسن، وقوله: من أَمَم هو بفتح الهمزة والميم الأولى، يقال: أخذت ذلك من أمَم أي من قرْب. قال زهير: وحيره ما هم لو أنّهم أمم أي: لو أنّهم بالقرب منّي. والأمم أيضاً الشيء اليسير، يقال: ما سألت إلا أمماً. وأمّا الأُمم بضمّ الهمزة في قوله: ظل على مفرق الإسلام والأُمم فهو جمع أُمّة.

سنة سبعين وخمس مائة

فيها قدم صلاح الدين وأخذ دمشق بلا ضربة ولا طعنة، وسار الصالح اسماعيل في حاشيته إلى حلب، ثم سار صلاح الدين فحاصر حمص بالمجانيق، ثم سار فأخذ حماة، ثم حاصر حلب، ثم ردّ وتسلّم حمص، ثم عطف إلى بعلبكّ فتسلّمها، ثم كرّ والتقى صاحب الموصل مسعود بن مودود فإنهزم عسكر الموصل أسوأ هزيمة، ثم وقع الصلح[1]. واستناب بدمشق أخاه سيف الإسلام، وكان بمصر أخوه العادل.

وفيها توفي أحمد بن المبارك خادم الشيخ عبد القادر الذي كان يبسط المرقعة له على الكرسيّ.

وفيها توفّي القاضي علي بن عمر بن عبد العزيز بن قُرة اليمني. كان حافظاً في التفسير واعظاً على المنابر، مقبول الكلمة في أهل بلده عارفاً بتأويل الرؤيا. قيل: إنّ رجلاً رأى في المنام الفقيه نعيماً العشاري الذي كان يحفظ عشرة علوم، فسأله عن رؤيا فقال: إنّ تأويل الرؤيا يا صرف عني إلى القاضي علي بن عمر. توفي في الطَرِيّة ـ بتشديد الياء المثناة من تحت وفتح الطاء المهملة وكسر الراء ـ قرية في ناحية مسجد الرباط من بلاد اليمن بساحل عدن.

سنة احدى وسبعين وخمس مائة

فيها شنق السلطان المبتدع ابن مهدي ـ الملّقب نفسه عبد

(١) انظر امتلاك صلاح الدين لهذه المدن والبلدان في: الكامل لابن الأثير ٩/ ١٣٠، ١٣١، ١٣٢.

النبي[١] ـ هو وأخوه أحمد في زَبيد برسم السلطان شمس الدولة[٢] أوّل من ملك اليمن من بني أيوّب. وابن مهديّ المذكور من الآفات الكائنات والبليّات والفتن العظيمات في بلاد اليمن.

وفيها نقض صاحب الموصل [٣] الصلح، وسار إلى السلطان[٤] سيفُ الدين غازي، فالتقاه صلاح الدين بنواحي[٥] حلب، فانهزم غازي وجمعه ـ وكانوا ستّة آلاف وخمس مائة ـ لم يقتل ـ سوى رجل واحد، ثم سار صلاح الدين فأخذ (مَنْبِج)[٦] ثم نازل قلعة عزاز، ووثب عليه الإسماعيلية فجرحوه في خده[٧]، فأُخذوا وقتلوا، وافتتح القلعة، ثم نازل حلب شهراً، ثم وقع الصلح: وترحل عنهم، وأطلق قلعة عزاز لولد السلطان نور الدين عليّ[٨].

وفيها توفّي الفقيه الإمام المحدّث البارع الحافظ المتقن الضابط ذو العلم الواسع شيخ الإسلام. ومحدّث الشام ناصر السنّة قامع البدعة، زين الحافظ بحر العلوم الزاخر، رئيس المحدّثين المقرّ له بالتقدّم، العارف الماهر ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله ابن عساكر، الذي اشتهر في زمانه بعلو شأنه، ولم ير مثله في أقرانه، الجامع بين المعقول والمنقول، والمميّز بين الصحيح والمعلوم، كان محدّث زمانه ومن أعيان الفقهاء الشافعية، غلب عليه الحديث واشتهر به، وبالغ في طلبه إلى أن جمع منه ما لم يتفّق لغيره، رحل وطوّف، وجاب البلاد ولقي المشايخ، وكان رفيق الحافظ أبي سعد عبد الكريم بن السمعاني في الرحلة، وكان أبو القاسم المذكور حافظاً ديّناً جمع بين معرفة المتون والاسانيد، سمع ببغداد في سنة عشر وخمسمائة من أصحاب البرمكي والتنوخي والجوهري، ثم رجع إلى دمشق، ثم رحل إلى خراسان، ودخل نيسابور وهراة وأصبهان والجبال، وصنّف التصانيف المفيدة، وخرّج التخاريج، وكان حسن الكلام على الأحاديث محظوظاً على الجمع والتأليف، صنّف التاريخ الكبير لدمشق في ثمانين مجلّداً، أتى فيه بالعجائب، وهو على نسق تاريخ بغداد.

---

(١) كان المؤلف قد ذكر هذا في حوادث سنة ٥٦٩ هـ.
(٢) شمس الدولة تورانشاه بن أيوب، أخو صلاح الدين.
(٣) صاحب الموصل: سيف الدين غازي بن مودود.
(٤) أي: صلاح الدين الأيوبي.
(٥) في تل السلطان على مرحلة من حلب على طريق حماة. انظر الكامل لابن الأثير ٩/ ١٣٦.
(٦) وكان صاحبها قطب الدين ينال بن حسان المنبجي.
(٧) في الكامل لابن الأثير: وثب عليه باطني ضربه بسكّين في رأسه فجرحه. ٩/ ١٣٧.
(٨) في الكامل لابن الأثير: وأعاد قلعة إعزاز إلى الملك الصالح. ٩/ ١٣٧. والملك الصالح هو: اسماعيل بن نور الدين محود بن زنكي.

قال الإمام ابن خلّكان: قال لي شيخنا الحافظ العلاّمة زكي الدين أبو محمد عبد العظيم المنذري ـ رحمه الله تعالى ـ وقد جرى ذكر تاريخ ابن عساكر المذكور، وأخرج لي منه مجلّداً، وطال الحديث في أمره واستعظامه: ما أظنّ هذا الرجل إلا عزم على وضع هذا التاريخ من يوم عقل على نفسه، وشرع في الجمع من ذلك الوقت، وإلاّ فالعمر يقصر عن أن يجمع الإنسان فيه مثل هذا الكتاب بعد الاشتغال والتنبيه. قال: ولقد قال الحق، ومن وقف عليه عرف حقيقة هذا القول، ومتى يتّسع الإنسان الوقت حتّى يضع مثله، وهذا الذي ظهر هو الذي اختاره، وما صحّ له إلاّ بعد مسوّدات ما يكاد ينضبط حصرها، وله تآليف حسنة غيره، وأخرى ممتعة، قال: وله شعر لا بأس به، فمن ذلك قوله على ما قيل:

ألا إنّ الحـــديـــث أجـــلّ علـــم ... وأشـــرفـــه الأحـــاديـــث العـــوالـــي
وأنفـــع كـــلّ علّـــم منـــه عنـــدي ... وأحسنـــه الفـــوائـــد فـــي الأمـــالـــي
وإنـــك لـــن تـــرى للعلـــم شيئـــاً ... محقّقـــه كـــأفـــواه الـــرجـــال
فكـــن يـــا صـــاحِ ذا حـــرص عليـــه ... وخـــذه مـــن الـــرجـــال بـــلا مـــلال
ولا تـــأخـــذه مـــن صحـــف فتُـــرمـــى ... مـــن التصحيـــف بـــالـــداء العضـــال

ومن المنسوب إليه أيضاً:

أيـــا نفـــس ويحـــك جـــاء المشيـــب ... فمـــا ذا التصـــابـــي ومـــا ذا العـــزل
تـــولّـــى شبـــابـــي كـــأنْ لـــم يكـــن ... وجـــاء مشيبـــي كـــأنْ لـــم يـــزلْ
كـــأنـــيّ بنفســـي علـــى غـــرّة ... وخطـــب المنـــون بهـــا قـــد نـــزلْ
فيـــاليـــت شعـــري ممّـــن أكـــوان ... ومـــا قـــدّر الله لـــي فـــي الأزلْ

وقد التزم في هذه الأبيات ما لا يلزم، وهو اطّراد الزاي قبل اللام، والبيت الثاني هو بيت علي بن جَبَلة حيث يقول:

شبـــاب كـــأنْ لـــم يكـــن ... وشيـــب كـــأنْ لـــم يـــزل

وليس بينهما إلاّ تغيير يسير كما تراه.

وقال بعض أهل العلم بالحديث والتواريخ: ساد أهل زمانه في الحديث ورجاله، وبلغ فيه الذروة العليا، ومن تصفّح تاريخه علم منزلة الرجل في الحفظ. قلت: بل من تأمّل تصانيفه من حيث الجملة علم مكانه في الحفظ والضبط للعلم والاطّلاع وجودة الفهم والبلاغة والتحقيق والاتساع في العلوم، وفضائل تحتها من المناقب والمحاسن كلّ طائل. ومن تآليفه الشهيرة المشتملة على الفضائل الكثيرة كتاب: تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الشيخ الإمام أبي الحسن الأشعري. جمع فيه بين حسن العبارة والبلاغة والإيضاح والتحقيق

واستعياب الأدلة النقلية وطرقها، مع إسناد كلّ طريق. وذكر فيه طبقات أعيان أصحابه من زمان الشيخ أبي الحسن إلى زمانه، وأوضح ماله من المناقب والمكارم والفضائل والعزائم وردّ إلى من رماه وافترى عليه بالعظائم.

قلت: وكتابه المذكور الذي وفّق لإنشائه ووضعه، قد اختصرته أنا في نحو من ربعه وسميته: الشاش المُعْلِم شاؤش كتاب المرهم. المعلم بشرف المفاخر العلية في مناقب الأئمة الأشعرية، ذكر هو فيه قريباً من ثمانين إماماً من أعيان الأئمة الأشعرية، ووفّيته فيما اختصرته مائة من الأئمة الجلّة النقية، واختصاري له بحذف الأسانيد اختصاراً على ما هو المقصود والمراد من ذكر أعيان الأئمة المشهورين بالموافقة في الاعتقاد، والرّد على المبتدعين أولي الزيغ والإلحاد. وكان ابن عساكر المذكور ـ رضي الله عنه ـ حسن السيرة والسريرة.

قال الحافظ الرئيس أبو المواهب: لو أر مثله، ولا من اجتمع فيه من لزوم طريقة واحدة منذ أربعين سنة من لزوم الصلوات في الصفّ الأول إلا من عذر والاعتكاف في شهر رمضان وعشر ذي الحجة، وعدم التطلّع وتحصيل الأملاك وبناء الدور، قد أسقط ذلك عن نفسه، وأعرض عن طلب المناصب من الإمامة والخطابة إياها بعد ما عرضت عليه، وقلّة الالتفات ـ أو قال ـ: عدم الالتفات إلى الأمراء، وأخذ نفسه بالأمر بالمعروف والنهي عن المكنر، لا تأخذه في الله لومة لائم، ذكره الإمام الحافظ ابن النجّار في تاريخه[١] فقال: إمام المحدّثين في وقته، ومن انتهت إليه الرئاسة في الحفظ والإتقان والمعرفة التامّة والثقة، وبه ختم هذا الشأن.

وقال ابنه الحافظ أبو محمد القاسم: كان أبي ـ رحمه الله تعالى ـ مواظباً على صلاة الجماعة وتلاوة القرآن، يختم في كلّ جمعة، وفي شهر رمضان في كلّ يوم، ويحيي ليلة النصف للعيدَيْن، وكان كثير النوافل والإذكار، ويحاسب نفسه على كلّ لحظة يذهب في غير طاعة. سمع من جماعة من المحدّثين كثيرين نحواً من ألف وثلاث مائة شيخ وثمانين امرأة، وحدّث بأصبهان وخراسان وبغداد وغيرها من البلاد، وسمع منه جماعة من كبار الحفّاظ وخلق كثير وجمّ غفير.

وقال الحافظ عبد القاهر الرهاوي: رأيت الحافظ السلفي والحافظ أبا العلاء الهمداني والحافظ أبا موسى المدني، فما رأيت فيهم مثل ابن عساكر رحمه الله تعالى.

وفيها توفّي السيد الفقيه الورع الزاهد أبو بكر بن سالم بن عبدالله من جبال اليمن،

---

(١) أي: تاريخ بغداد.

استأذن عليه السلطان شمس الدولة، فتبرّك بالسلام عليه واستسعد بالنظر إليه، وسأله الدعاء وأن يمسح له على بدنه.

وفيها توفّي جعدة العطاردي[١] الإمام مجد الدين الفقيه الشافعي الأصولي الواعظ أبو منصور محمد بن أسعد ـ الطوسي تلميذ الإمام البغوي، وراوي كتابيه: شرح السنّة ومعالم التنزيل. دخل بلداناً كثيرة، وتفقه وبعد صيته في الوعظ، هكذا ذكر بعضهم. وقال ابن خلّكان: كان فقيهاً فاضلاً واعظاً فصيحاً أصولياً، اشتغل على الإمام السمعاني، ثم على الإمام البغوي، وذكر تنقّله إلى مَرْو، ثم إلى مرو روذ، ثم إلى بخارى، وعوده إلى مرو، وعقد مجلس الوعظ له بها، ثم انتقل إلى العراق، ثم إلى الموصل واجتمع الناس عليه بسبب الوعظ، وسمعوا منه الحديث، وأنشد يوماً على الكرسيّ من جملة أبياته:

تحيّة صوب المزْن يقرأها الرعد ... على منزل كانت تحلّ به هند
تأت فأعرناها القلوب صبابة ... وعارية العشّاق ليس لها ردّ

وكانت مجالسه في الوعظ من أحسن المجالس.

سنة اثنتين وسبعين وخمس مائة

فيها أمر السلطان صلاح الدين ببناء السور الكبير المحيط بمصر والقاهرة من البرّ، وطوله تسع وعشرون ألف ذراع وثلاث مائة ذراع بالقاسمي[٢] فلم يزل العمل فيه إلى أن مات صلاح الدين. وأنفق عليه أموالاً لا تحصى، وأمر أيضاً بإنشاء قلعة الجبل، ثم توجّه إلى الاسكندرية، وسمع الحديث من السلفي.

وفيها[٣] وقعة مقدّم السودان المسمى بالكنز، جمع جيشاً بالصعيد، وسار إلى القاهرة في مائة ألف، فخرج له لحربه نائب مصر سيف الدولة، فالتقوا، فانكسر الكنز، وقتل في

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي: مجد الدين حَفَدة الواعظ: محمد بن أسعد بن محمد بن الحسين بن القسم الفقيه، مجد الدين العطّار الطوسيّ الشافعي، أبو منصور المعروف بحفدة: بالحاء المهملة المفتوحة والفاء المفتوحة والدال المهملة المفتوحة. كان فيقهاً فاضلاً أصولياً فصيحاً واعظاً، تفقه بمرو على أبي بكر بن محمد بن منصور السمعاني، ثم انتقل إلى مزو الروذ واشتغل على القاضي حسين البغوي، وانتقل إلى بخارى، واشتغل على البرهان عبد العزيز بن مازة الحنفي....... توفي سنة إحدى وسبعين وخمسمائة بتبريز. ٦/ ٢/ ٢٠٢، ٢٠٣.

(٢) في الكامل لابن الأثير ٩/ ١٣٩: بالذراع الهاشمي.

(٣) ذكر ابن الأثير في تاريخه وقوع هذه الحادثة سنة ٥٧٠ هـ فقال: في أول هذه السنة خالف الكنز بصعيد مصر، واجتمع إليه من رعية البلاد والسودان والعرب وغيرهم خلق كثير..... وسيّر صلاح الدين جماعة من الأمراء وكثيراً من العسكر.... فقاتلوه، فقتل هو ومن معه من الأعراب وغيرهم وأمنت البلاد واطمأن أهلها. ٩/ ١٣٠.

المصافّ من السودان، قيل: ثمانون ألفاً.

وفيها توفي أبو محمد عبدالله بن عبدالله بن عبد الرحمن الأموي العثماني الديباجي محدّث الإسكندرية، وكان صالحاً متعففاً يقرىء النحو واللغة والحديث.

وفيها توفّي أبو الفضل قاضي القضاة ابن السهروردي[١]، ومن جلالته أنّ السلطان صلاح الدين لما أخذ دمشق وتمنعت عليه القلعة أياماً مشى إلى دار القاضي أبي الفضل المذكور، فانزعج، وخرج ليلقاه فدخل وجلس وقال: طبْ نفساً، فالأمر أمرك والبلد بلدك.

سنة ثلاث وسبعين وخمس مائة

فيها وقعة الرملة سار صلاح الدين من مصر، فسبى وغنم بلاد عَسْقَلان، وسار إلى الرّمْلة[٢]، فالتقى الفرنج، فحملوا على المسلمين وهزموهم، وثبت السلطان صلاح الدين وابن أخيه تقيّ الدين، ودخل الليل واحتوت الفرنج على العسكر بما فيه، وتمزّق العسكر، وعطشوا في الرمال واستشهدوا جماعة، وتحيّر صلاح الدين ونجا، وقتل ولد لتقيّ الدين عمره عشرون سنة، وأُسر الأمير الفقيه عيسى الهكّاري[٣]، وكانت نوبة صعبة، ونزلت الفرنج على حماة، وحاصرتها أربعة أشهر[٤] لاشتغال السلطان بلّم سعث الجيش.

وفيها توفّي السلطان أرسلان السلجوقي، والوزير أبو الفرج محمد بن عبدالله بن هبة الله، وكان جواداً سرياً معظّماً مهيباً، خرج للحجّ في تجمّل عظيم، فوثب عليه واحد من الباطنية فقتله في أوائل ذي القعدة.

---

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي: القاضي كمال الدين الشهرزوري: محمد بن عبدالله بن القسم بن المظفر بن علي قاضي القضاة كمال الدين أبو الفضل بن أبي محمد الشهرزوري ثم الموصلي الفقيه الشافعي... تفقه ببغداد على أسعد المِيَهني، وسمع الحديث من نور الهدى أبي طالب الزينبي، وولي قضاء بلده... وولاه نور الدين قضاء دمشق ونظر الأوقاف.... وتوفي سنة ٥٧٢ هـ ودفن بجبل قاسيون، ومولده سنة ٤٩٢ هـ. ٦/٣/٣٣١، وذُكر في وفيات الأعيان ١/٥٩٧، وفي طبقات السبكي ٤/٧٤.

(٢) الرملة: ؟: في الداخل، تقع بين القدس ويافا. وفي القاموس الإسلامي ٥٧٤: مدينة تقع في فلسطين في الشمال الغربي من القدس على خط عرض شمالاً ٥٦ ٣١ وطول شرقاً ٥٢ ٣٤. تنسب عمارتها إلى الوليد بن عبد الملك حين كان والياً على فلسطين وجعلها عاصمة للإقليم... تناولها التخريب بفعل الزلازل والحروب الصليبية.

(٣) في الكامل لابن الأثير: وكان من جملة من أُسر الفقيه عيسى الهكاري، وهو من أعيان الأسدية .... فافتدى صلاح الدين الفقيه عيسى بستّين ألف دينار وجماعة كثيرة من الأسرى. ٩/١٤٢.

(٤) في المصدر السابق: وكان مقامهم على حماة أربعة أيام. ٩/١٤٢.

وفيها توفي أبو محمد ابن المأمون الأديب هارون بن العباس العباسي المأموني البغدادي، صاحب التاريخ، وشرح أيضاً مقامات الحريري.

سنة اربع وسبعين وخمس مائة

فيها أُخذ ابن قرابا الرافضي، ووجد في بيته يسبّ الصحابة، فقطعت يده ولسانه، ورجمته العامّة، فهرب وسبح في الماء، فرموه بالآجرّ فغرق، فأخرجوه وأحرقوه. ثم ألحق ذلك بالتتبّع على الرافضة، وأحرقت كتبهم، وانقمعوا حتّى صاروا إلى ذلّة اليهود، وتهيأ عليهم من ذلك ما لم يتهيّأ ببغداد نحو مائتين وخمسين سنة.

وفيها خرج نائب دمشق فرخ شاه ابن أخي السلطان، فالتقى الفرنج، فهزمهم وقتل مقدّما[١] لهم كان يضرب به المثل في الشجاعة.

وفيها أطلق السلطان حماة عند موت صاحبها ـ خاله شهاب الدين ـ لابن أخيه الملك المظفّر تقي الدين عمر ابن شاهنشاه، وأطلق له أيضاً المَعَرّة[٢] ومَنْبِج وفاء منه، فبعث إليها نوّابه.

وفيها توفي حَيْص بَيْص أبو الفوارس سعد بن محمد التميمي الشاعر، وله ديوان معروف، وكان وافر الأدب متضلّعاً من اللغة، بصيراً بالفقه والمناظرة. وقال الشيخ نصر الله بن محلي: ـ قال ابن خلّكان: وكان من ثقات أهل السنّة، رأيت في المنام عليّ ابن أبي طالب رضي الله تعالى عنه ـ فقلت له: يا أمير المؤمنين؛ يفتحون مكّة ويقولون: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ثمّ تمّ على ولدك الحسين ما تمّ، فقال لي: أما سمعت أبيات ابن الصيفي في هذا؟!! فقلت لا، فقال: اسمعها منه. ثمّ استيقظت فبادرت إلى دار ابن الصيفي، فخرج إليّ، فذكرت له الرؤيا، فشهق وأجهش بالبكاء، وحلف بالله إن كانت خرجت من فمي أو خطّي إلى أحد، وإنْ كنت نظمّتها إلاّ في ليلتي هذه، ثم أنشدني:

ملكنا فكان العفو منا سجية ... فلمّا ملكتم سال بالدم أبطح
وحلّلتم قتل الأسارى وطال ما ... عدونا على الأسراء نعفوا ونصفح
وحسبكم هذا التفاوت بيننا ... وكلّ إناء بالذي فيه يرشح

---

(١) في الكامل لابن الأثير: وقتل من مقدّميهم جماعة ومنهم هنفري، كان يضرب به المثل في الشجاعة والرأي في الحرب. ٩/١٤٦.

(٢) المعرّة: معرّة النعمان: وقد سبق ذكر موقعها.

وإنما قيل له حَيْص بَيْص لأنه رأى الناس يوماً في حركة مزعجة وأمر شديد فقال: ما للناس في حيص بيص؟! فبقي عليه هذا اللقب. ومعنى هاتين الكلمتين: الشدّة والاختلاط.

وفيها توفيت مسندة العراق شهدة بنت أبي نصر أحمد بن الفرج، الكاتبة العابدة الصالحة الدِيْنورية الأصل، البغدادية المولد والوفاة. كانت من أهل كتبة الخطّ الجيّد، وسمع عليها خلق كثير، وكان لها السماع العالي، ألحقت فيه الأصاغر بالأكابر، سمعت من أبي الخطّاب نصر بن أحمد بن النضر وأبي عبدالله الحسين بن أحمد بن طلحة الثعالبي، وطراد بن محمد وآخرين واشتهر ذكرها وبعد صيتها، وكانت ذات برّ وخير. والدينورية نسبة إلى دِيْنَور، قيل بكسر الدال المهملة. قال الحافظ أبو سعد السمعاني بفتحها. وقال ابن خلّكان: الأصحّ الكسر: وهي بلدة من بلاد الجبل نسب إليها جماعة من العلماء.

وفيها توفّي القدوة المشار إليه بالصلاح والورع والعبادة وإجابة الدعوة أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري الأندلسي، قرأ العربيّة ولزم أبا بكر بن العربي مدّة، وكان من أولياء الله تعالى الذين تذكر بالله رؤيتهم، وآثار مشهورة مشكورة، وكراماته موصوفة معروفة مع الحظّ الوافر من الفقه والقراءات.

وفها توفي السديد محمد بن هبة الله بن عبدالله السَلَمَاسي الفقيه الشافعي، كان إماماً في عسره، تولّى الإعادة بالمدرسة النظامية ببغداد، وكان مسدداً في الفتيا، واتقن عدّة فنون، وهو الذي شهر طريقة الشريف بالعراق، وقيل إنه كان يذكر بطريقة الشريف والوسيط والمستصفى للغزالي من غير مراجعة كتاب. قصده الناس من البلاد، واشتغلوا عليه، وانتفعوا به، وخرجوا علماء مدرّسين مصنّفين، من جملتهم الشيخان الإمامان عماد الدين محمد وكمال الدين موسى ولدا يونس، والشيخ شرف الدين أبو المظفّر محمد بن علوان بن مهاجر وغيرهم من الأفاضل والسَلَمَاسي بفتح السين المهملة واللام والميم وبعد الالف سين ثانية نسبة الى سَلَمَاس: وهي مدينة من بلاد آذربيجان، تخرج به جماعة مشاهير.

سنة خمس وسبعين وخمس مائة

فيها نزل صلاح الدين على بانياس، وأغارت سراياه على الفرنج، ثم أخبر بجمع الفرنج وتهيئهم للمجيء، فبادر في الحال وكبسهم، فإذا هم في ألف قنطارية وعشرة آلاف راجل، فحملوا على المسلمين فثبتوا لهم، ثم حمل المسلمون عليهم فهزموهم، ووضعوا فيهم السيف وأسروا مائتين وستين ـ أسيراً، منهم مقدّم لهم، فاستفكّ نفسه بألف أسير،

وبجملة من المال[١]، وانهزم ملكهم جريحاً.

وفيها جاء أرسلان صاحب[٢] الروم في عشرين ألفاً، فنهض إليه تقّي الدين صاحب حماة وسيف الدين المسطور في ألف فارس، فكبسوا على الروميين، فركبوا خيولهم عري، ونجوا، وحوى تقّي الدين الخيام بما فيها، ثم منّ على الأسرى بأموالهم وسرجهم.

وفيها توفّي المستضيء بأمر الله بن المستنجد بن المقتفي بن المستظهر بن المقتدي العباسي، وبويع بعد أبيه، وكان ذا دين وحلم وأناة ورأفة ومعروف زائد. قال ابن الجوزي: أظهر من العدل والكرم ما لم نره في أعمارنا، وفرّق مالاً عظيماً للهاشميين وفي المدارس، وكان ليس للمال عنده وقع، أو قال: قدر. انتهى كلامه.

قيل: وكان يطلب ابن الجوزي، ويأمره بعقد مجلس الوعظ، ويجلس بحيث يسمع ولا يرى. وفي أيامه اختفى الرفض ببغداد ووهي، وأمّا بمصر والشام فتلاشى، وزالت دعوة العُبَيْديين، وخطب له بديار مصر واليمن وبعض المغرب، وبويع بعده ابنه أحمد الناصر لدين الله.

واليسع بن عيسى بن حزم الغافقي المقرىء، أخذ القراءات عن جماعة منهم أبوه، وأقرأ بالاسكندرية والقاهرة، وقرّبه صلاح الدين واحترمه، وكان فقيهاً مفتياً محدّثاً، مقرئاً نسّاباً اخبارياً بديع الخطّ، وقيل: هو أوّل من خطب بالدعوة العباسية بمصر.

وفيها توفّي الحافظ أبو المحاسن عمر بن علي القرشي الزبيري الدمشقي القاضي نزيل بغداد، صحب أبا النجيب السهروردي، وسمع من أبي الدرّ ياقوت الرومي وطائفة.

وتوفي الحافظ المقرىء محمد بن خير[٣] الإشبيلي، فاق الأقران في ضبط القراءات، وبرع في الحديث واشتهر بالإتقان وسعة المعرفة بالعربيّة.

وفيها توفي الحافظ ابن أبي غالب الضرير، برع في الحديث حتّى صار يرجع إلى قوله، وانتهى إليه معرفة رجال الحديث وحفظه.

وفيها توفي أبو الفضل منوجهر بن محمد الكاتب، كان أديباً فاضلاً مليح الإنشاء حسن الطريقة، روى عن جماعة المقامات عن الحريري.

---

(١) في الكامل لابن الأثير: ١٤٧/٩: فأما ابن بيرزان فإنه فدى نفسه بمائة ألف وخمسين ألف دينار صورية.

(٢) صاحب الروم: قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان صاحب بلاد قونية. المصدر السابق ١٤٨/٩.

(٣) في الوافي بالوفيات للصفدي ٥١/٣/٦: الإشبيلي المقرىء: محمد بن خير بن عمر بن خليفة المقرىء الأستاذ الحافظ أبو بكر اللَّمْتُوني الاشبيلي.

وفيها توفّي الأستاذ المقرىء المحقّق يوسف بن عبدالله الأندلسي المعروف بابن عبّاد، أخذ القراءات عن جماعة، وسمع عن خلق كثير، واعتنى بصناعة الحديث، وكتب العالي والنازل، وبرع في معرفة الرجال، وصنّف التصانيف الكثيرة.

سنة ستّ وسبعين وخمس مائة

فيها نزل صلاح الدين على حمص[١] من بلاد الأرمن، فافتتحه وهدمه، ثم رجع، فوافاه التقليد وخلع السلطنة من الناصر لدين الله، فركب، وكان يوماً مشهوراً.

وفيها قدم السلطان سيف الإسلام بن أيّوب إلى بلاد اليمن مولّى عليها بعد أخيه شمس الدولة.

وفيها توفّي القاضي الفقيه العالم الورع الزاهد محمد بن سعيد القريضي ـ اليمني اللحْجِي ـ بسكون الحاء المهملة وكسر الجيم ـ وكان موصوفاً بالفضائل والمحاسن، وله مصنّفات حسنة منها: المستصفى في ذكر سنن المصطفى ومختصر الإحياء قيل إنّه رأى صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ فدعا له بالتثبيت.

وفيها توفّي القاضي ابن القاضي طاهر ابن الإمام يحيى بن أبي الخير العمراني، تقلّد ولاية القضاء في أيام شمس الدولة، ومات في شهفة[٢] ـ يوم الجمعة منتصف ذي الحجة.

وفيها توفّي أبو طاهر السِلَفِي[٣] الحافظ العلاّمة الكبير مسند الدنيا.

وفيها توفي معمّر الحفاظ أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد[٤] الأصفاني. سمع من الثقفي وأحمد بن عبد الغفار ومكي[٥] ـ الإسلام وخلق كثير، وخرج عنهم في معجم، وحدّث بأصبهان قال: وكنت ابن سبع عشرة سنة أو أكثر أو أقل، ورحل تلك السنة فأدرك بها أبا الخطاب[٦] وابن البطر ببغداد، وعمل معجماً لشيوخ بغداد، ثم حجّ وسمع بالحرمين والكوفة والبصرة وهمدان والزَنْجَان[٧] والري والدِينَوَر وقزوين وأذربيجان والشام ومصر،

---

(١) في الكامل لابن الأثير: على حصن. ٩/١٥١.

(٢) لم أجدها في معجم البلدان.

(٣) في الوافي بالوفيات للصفدي ٦/٧/٣٥١: الحافظ السلفي: أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن ابراهيم بن سِلَفَه ـ وأصله سِلَبَه بالباء، معنا وثلاث شفاه لأنه شفته كانت مشقوقة، الحافظ صدر الدين أبو طاهر السلفي الأصبهاني. . . .

(٤) وهو نفسه أبو طاهر السلفي الذي سبق ذكره.

(٥) وفي المصدر السابق: مكي بن منصور بن علان الكرجي.

(٦) وفي المصدر السابق: وسمع أبا الخطاب بن البطر.

(٧) في معجم البلدان: الزنجان بلد كبير مشهور من نواحي الجبال بين أذربيجان وبينها، وهي قريبة من أبهر وقزوين.

فأكثر وأطال، وتفقّه فأتقن مذهب الشافعي، وبرع في الآدب وجوّد القرآن بروايات، وكان اشتغاله بالفقه على أبي الحسن الكِيّا[1]، وفي اللغة على الخطيب يحيى بن علي التبريزي اللغوي، وقصده الناس من الأماكن البعيدة، وسمعوا عليه وانتفعوا به، ولم يكن في آخر عمره في عصره مثله، وبنى له العادل أبو الحسن علي بن السلار ـ وزير الظافر العبيدي صاحب مصر مدرسة في الإسكندرية، وفوضها إليه وممّا وجه بخطّه من قصيدة لمحمّد بن عبد الجبّار الأندلسي.

لـولا اشتغـال بـالأميـر ومـدحـه ... لأطلـت فـي ذاك الغـزال تغـزلـي
لكـنّ أوصـاف الجـلال غلبنـنـي ... فتـركـت أوصـاف الجمـال بمعـزل

واستوطن الإسكندرية بضعاً وستين سنة مكبّاً على الاشتغال والمطالعة والنسخ وتحصيل الكتب، وجاوز المائة بلا ريب، وإنّما النزاع في مقدار الزيادة، ومات يوم الجمعة بكرة الخامس ربيع الآخر رحمه الله تعالى.

وفيها توفّي شمس الدولة الملك المعظّم تُوران شاه بن أيوب بن شاذي، وكان أسن من أخيه صلاح الدين، وكان يحترمه ويتأدب معه. أرسله فغزا النّوبة، فسبى وغنم، ثم بعثه فافتتح اليمن ـ وكانت بيد الخوارج الباطنيّة ـ وأقام بها ثلاث سنين، بعثه إليها لما بلغه أنّ باليمن، إنساناً يسمّى عبد النبي بن مهدي يزعم أنه ينتشر ملكه حتّى يملك الأرض كلّها، وكان قد ملك كثيراً من بلاد اليمن واستولى على حصونها، وخطب لنفسه، فجهّز صلاح الدين جيشاً إليها مع أخيه المذكور من الديار المصرية في رجب سنة تسع وستين وخمسمائة، فمضى إليها، ففتح الله على يديه، وقتل الخارجيّ المذكور الذي كان فيها، وملك معظمها، وأعطى وأغنى خلقاً كثيراً، وكان كريماً أريحياً، ثم اشتاق إلى أطيب الشام ونضارتها، وكان القاضي الفاضل يكتب إليه الرسائل الفائقة، ويودعها شرح الأشواق. وكانت له من أخيه إقطاعات، وتوّابه باليمن يجبون له الأموال. ومات وعليه من الديون مائتا ألف دينار، فقضاها عنه أخوه صلاح الدين. ولمّا تزايد به الشوق قدم إلى الشام وأقام بدمشق نائباً لأخيه، ثم تحوّل إلى مصر فتوفّي بالإسكندرية، فنقل إلى الشام، فدفنته أخته ستّ الشام بمدرستها التي أنشأتها بظاهر دمشق، فهناك قبره وقبر ولدها حسام الدين، وكان قد تزوجها ناصر الدين، وتوفيّت في ذي القعدة سنة ستّ عشرة وستمائة.

وحكى الشيخ الأديب الفاضل مهذّب الدين أبو طالب ـ نزيل مصر قال: رأيت في النوم شمس الدولة وهو ميت، فمدحته بأبيات وهو في القبر، فلفّ كفنه ورماه إليّ

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي ٦/ ٧/ ٣٥٢: وأتقن مذهب الشافعي على الكيّا الهرّاسي.

وأنشدني:

لا تستقلّن معروفاً سمحت به ... ميتاً فأمسيت منه عارياً بدني
ولا تظنّن جودي شأنه بخل ... من بعد بذلي ملك الشام واليمن
إني خرجت من الدنيا وليس معي ... من كلّ ما ملكت كفي سوى كفني

وتُوران بضمّ المثناة من فوق وبعد الواو راء ـ ومعنى توران شاه: ملك الشرق.

وفيها توفّي أبو المفاخر المأموني راوي صحيح مسلم بمصر: سعيد بن الحسن العباسي، روى الحديث هو وابنه وحفيده ونافلته. قلت: هكذا قال الذهبي مغايراً بين الحفيد والنافلة، والمعروف اتحادهما، وهما ولدا ولد، نعم قد قيل أيضاً أن الحفدة يطلقون على الأعوان والخدم.

وفيها توفّي أبو الحسن بن عطّار النحوي علي بن عبد الرحمن السلمي، كان علّامة في اللغة وحجّة في العربية.

وفيها توفي أبو العزّ محمد بن محمد المعروف بابن الخراساني البغدادي الأديب صاحب العروض والنوادر وديوان شعر في مجلّدات. كان صاحب طرف وذكاء مفرط وتفنن في الأدب، روى عن جماعة.

وفيها توفي صاحب الموصل غازي(١) بن زنكي، كان منطوياً على خير وصلاح، يحبّ العلم وأهله، وبنى بالموصل المدرسة المعروفة بالعتيقة، وقدم مع سيف الإسلام إلى اليمن.

وفي هذه السنة أو بعدها توفّي الفقيه الفاضل القاضي أثير الدين قاضي قضاة المسلمين باليمن، وسمع عليه الشهاب وهو ابن اثنتين وسبعين سنة، وسمعه وهو ابن ثلاث سنين، سمعه عليه جماعة. قال ابن سمرة: كنت فيهم. ثمّ غضب عليه السلطان سيف الإسلام، وحمّله رسالة إلى بغداد في صورة طرد وإبعاد، ثم رجع إلى مكة وكتب إلى سيف الإسلام سلطان اليمن:

وما أنا إلا المسك ضاع عندكم ... يضيع وعند الأكرمين يضوع

وفيها توفّي ـ وقيل في سنة تسع ـ أبو الفضل الشيخ الإمام ـ رضي الله عنه ـ الموصلي الشافعي يونس بن محمد بن منعة رضي الدين والد الشيخين: عماد الدين أبي حامد محمد، وكمال الدين أبي الفتح موسى. تفقه الشيخ يونس على الحسين بن نصير السكبي الجهني

(١) في الكامل لابن الأثير: ٩/١٥٠: في هذه السنة ـ ٥٧٦ هـ ـ ثالث صفر توفي سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي صاحب الموصل وديار الجزيرة، وكان مرضه السلّ.

الملّقب تاج الإسلام في الموصل حين قدمها، وكان أصله من أهل إربل[١]، ثمّ انحدر إلى بغداد، وتفقّه بها على الشيخ أبي منصور سعيد بن محمد مدرّس النظامية، ثم أصعد إلى الموصل، فصادف بها قبولاً تاماً عند المتولي بها الأمير أبي الحسن ـ والد الملك المعظّم ـ وجعل إليه تدريس مسجده، وفوّض نظره إليه، وكان يدرّس ويناظر ويفتي، فقصده الطلاب للاشتغال عليه والمباحثة مع ولديه المذكورين، ولم يزل على قدم الفتوى والتدريس والمناظرة إلى أن توفّي بالموصل في السنة المذكورة. وكانوا بيت علم، خرج من بينهم جماعة من الفضلاء، وانتفع بهم أهل تلك البلاد وغيرها، وكانوا مقصودين من بلاد العراق والعجم وغيرها.

وفيها توفّي سيف الدين غازي[٢] بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن أقسُنْقُر صاحب الموصل، تقلّد المملكة بعد وفاة أبيه مودود، ولما توفّي والده بلغ الخبر نور الدين، فسار من ليلته طالباً بلاد الموصل، فوصل إلى الرقة[٣] في المحّرم سنة ست وستين وخمس مائة وملكها، وسار منها إلى نصيبين[٤]، فملكها في الشهر المذكور، وأخذ سنجار في ربيع الآخر، ثم قصد الموصل، وقصد أن لا يقاتلها، فعبر بعسكره من محاصة ـ وهي بليدة بقرب الموصل ـ وسار حتّى خيم قبالة الموصل، وراسل ابن أخيه سيف الدين المذكور، وعرّفه صحّة قصده، فصالحه، ودخل الموصل وأقر صاحبها فيها، وزوّجه ابنته، وأعطى أخاه عماد الدين سنجار، وخرج من الموصل وعاد إلى الشام، ودخل حلب في شعبان من السنة المذكورة، فلّما مات نور الدين وملك صلاح الدين دمشق، نزل على حلب فحاصرها، وسيّر سيف الدين جيشاً مقدّمه أخوه عز الدين مسعود، والتقوا عند قرون[٥] حماة، فانكسر عز الدين بن مسعود، فتجّهز سيف الدين بنفسه، فخرج إلى لقائه وتصافّا على تلّ السلطان بين حلب وحماة ـ سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، فانكسرت ميسرة صلاح الدين بمظفّر الدين بن زين الدين فإنّه كان في ميمنة سيف الدين ـ ثم حمل صلاح الدين بنفسه، فانهزم جيش سيف الدين وعاد إلى حلب، ثم رحل إلى الموصل، ولما توفّي سيف الدين تولى بعده أخوه عز الدين مسعود.

---

(١) إربل: من مدن شمال العراق، تقع إلى الجنوب الشرقي من الموصل بين الزابين. الأعلاق الخطيرة ٣/ ٢/ ٧٥٣.

(٢) سبق ذكر وفاته في هذه السنة.

(٣) الرقة: مدينة مشهورة في سورية، مركز محافظة الرقة، معدودة في بلاد الجزيرة وعلى جانبها الشرقي الفرات، وهي فوق مصب نهر البليخ المنحدر من الشمال إلى الفرات. الأعلاق الخطيرة ٣/ ٢/ ٧٩٨.

(٤) نصيبين: مدينة في الجنوب من تركية قريبة من الحدود السورية، تقوم في أعالي نهر الهرماس. الأعلاق الخطيرة ٣/ ٢/ ٨٤٠.

(٥) في معجم البلدان: قرون حماة: قلّتان متقابلتان، جبل يشرف عليها ونهرها العاصي.

وفيها توفّي الشيخ الكبير الولّي الشهير ذو الجاه الواسع المعروف بمدافع.

سنة سبع وسبعين وخمس مائة

فيها توفي الملك الصالح أبو الفتح اسماعيل ابن السلطان نور الدين محمود بن زنكي ختنه أبوه، فزيّنت دمشق، وعمل وقتاً باهراً، ثم مات أبوه بعد ختانه بأيام، فأوصى له بالسلطنة، فلم يتمّ له ذلك، وبقيت له حلب، وكان شاباً ديّناً عاقلاً محبّباً إلى أهل حلب إلى الغاية، بحيث إنّهم قاتلوا صلاح الدين قتال الموت لما جاء ليتملكها، وما تركوا شيئاً من مجهودهم، ولما توفّي أقاموا عليه المآتم، وبالغوا في النوح والبكاء عليه، وفرشوا الرماد في الطرق وكان عمره تسع عشرة سنة، وأوصى بحلب ابن عمّه عز الدين مسعود بن مودود، فجاء وتملكها.

وفيها توفي كمال الدين بن الأنباري العبد الصالح أبو البركات عبد الرحمن بن محمد. كان من الأئمة المشار إليهم في علم النحو، وتفقّه في مذهب الإمام الشافعي بالمدرسة النظامية، وتصّدر لإقراء النحو واللغة، وأخذ اللغة عن أبي منصور بن الجواليقي، والنحو عن أبي السعادات هبة الله بن السجزي الآتي ذكر فضله ـ إن شاء الله تعالى ـ وأخذ عنه، وانتفع بصحبته في علم الأدب، واشتغل عليه خلق كثير وصاروا علماء، وصنّف في النحو كتاب أسرار العربية، وهو كتاب سهل المأخذ كثير الفائدة وله كتاب الميزان في النحو أيضاً، وكتاب في طبقات الأدباء جمع فيه بين المتقدّمين والمتأخّرين مع صغر حجمه، وكتبه كلّها نافعة، وكان نفسه مباركاً ما قرأ عليه أحد إلاّ وتميّز، ثم انقطع في آخر عمره في بيته مشتغلاً بالعلم العبادة، وترك الدنيا ومجالسة أهلها، ولم يزل على سيرة حميدة زاهداً عابداً. وكانت ولادته في سنة ثلاث عشرة وخمس مائة ببغداد، ودفن في تربة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي. والأنبار: بلدة قديمة على الفرات بينها وبين بغداد عشرة فراسخ.

وفيها توفّي شيخ الشيوخ أبو الفتح عمر بن علي ابن الشيخ محمد بن حمويه الجويني الصوفي، روى عن جدّه الفراوي وجماعة، ونصّبه نور الدين شيخ الشيوخ بالشام، وكان وافر الحرمة.

سنة ثمان وسبعين وخمس مائة

فيها سار صلاح الدين فافتتح حَرّان وسَرُوج[1] وسنجار ونصّيبين والرقّة والبصرة،

(١) سروج: مدينة في أراضي الجزيرة في الجنوب من تركيا، إلى الغرب من حرّان، قريبة من الحدود السورية، بينها وبين البيرة مرحلة في الجبال. الاعلاق الخطيرة ٣/ ٢/ ٨٠١.

ونازل الموصل، ولم يظفر بها لحصانتها، ثم جاء رسول الخليفة يأمره بالترحّل عنها، فرحل عنها، ورجع، فأخذ عز الدين مسعود، وعوضّه بسنجار.

وفيها لبس لباس الفتوّة الناصر لدين الله من شيخ الفتوة عبد الجبار، وابتهج بذلك، وبقي يلبس الملوك. وفيها بعث صلاح الدين أخاه سيف الإسلام طغتكين[1] بذلك ـ بالطاء المهملة والغين المعجمة والمثناة من فوق قبل الكاف ومن تحت بعدها ثم النون ـ على مملكة اليمن، فدخلها وتسلّمها من نوّاب أخيه.

وفيها توفي أبو الكرم هبة الله بن علي الأنصاري الخزرجي المصري المعروف بالبوصيري، كان أديباً كاتباً، له سماعات عالية وروايات تفرّد بها، والحق الأصاغر بالأكابر في علوّ الإسناد، ولم يكن في آخر عصره في درجته مثله. سمع بقراءته جماعة من الكبار، ورحل إليه الطلاب من الأمصار. قاله الذهبي.

وفيها توّفي أحمد بن الرفاعي الزاهد القدوة أبو العباس بن علي بن يحيى كان أبوه قد نزل بالبطائح، بالعراق بقرية أمّ عَبِيدة، فتزوج بأخت الشيخ منصور الزاهد، فولدت له الشيخ أحمد في سنة خمس مائة، وتفقّه قليلاً على مذهب الشافعي، وكان إليه المنتهى في التواضع والقناعة ولين الكلمة، والذّل والانكسار والازراء على نفسه، وسلامة الباطن. ولكّن أصحابه فيهم الجيّد والرديء، وقد كثر الزغل فيهم، وتحدّرت لهم أحوال شيطانية من دخول النيران والركوب على السباع واللعب بالحيّات، وهذا ما عرفه الشيخ والأصلحاء أصحابه ـ فنعوذ بالله من الشيطان.

قلت: هذه ترجمة الذهبي عليه في كتابه الموسوم بالعبر، ولم يزد على هذا، وهذا من العجائب في اقتصاره على هذا في ذكر شيخ الشيوخ الذي ملأت شهرته بالمشارق والمغارب، تاج العارفين، وإمام المعرفين، ذي الأنوار الزاهرة، والكرامات الباهرة، والمقامات العليّة والأحوال السنيّة، والبركات العامّة، والفضائل الشهيرة بين الخاصة والعامة: أحمد بن أبي الحسن الرفاعي. وقد ذكرت شيئاً من كراماته ومحاسنه في كتابي الموسوم بروض الرياحين، وفي كتاب الموسوم بالأطراف، وهو كما ترجم عليه بعض العلماء الفضلاء المعتقدين في المشايخ والفقراء حيث قال فيه: هو من أجلّ العارفين وعظماء المحقّقين وصدور المقرّبين، صاحب المقامات العليّة والأحوال السنيّة، والأفعال الخارقة. والأنفاس الصادقة، والفتح المؤنق والكشف المشرق، والقلب الأنور والسرّ الأظهر والقدر الأكبر، والمعارف الباهرة والحقائق الظاهرة، واللطائف الشريفة والهمم

---

(١) في الكامل لابن الأثير: طغدكين. ٩/ ١٥٥.

المنيفة، والقدم الراسخ في التصريف الناقد، والباع الطويل في أحكام الولاية، خرق الله على يديه العوائد، وقلب له الأعيان، وأظهر العجائب، فله مجلس القرب في الحضرة الشريفة، ورفيع المقام والقبول العظيم عند الخاص والعام، عطرت بذكره الآفاق والأقطار، ولاح منه نور الفلاح، واستطار صيته في الوجود استطارة النار بالرياح.

قلت: ومن كراماته ما روى ابن أخته الشيخ الجليل أبو الحسن علي قال: كنت يوماً جالساً عند باب خلوة خالي الشيخ أحمد رضي الله تعالى عنه، وليس فيها غيره، وسمعت عنده حسّاً، فنظرت فإذا عنده رجل ما رأيته قبل، فتحدّثا طويلاً، ثم خرج الرجل من كوة في حائط الخلوة ومرّ في الهوى كالبرق الخاطف، فدخلت على خالي وقلت له: من الرجل؟ فقال له: أوَ رأيته؟. قلت: نعم، قال: هو الرجل الذي يحفظ الله ـ عزّ وجل ـ به قطر البحر المحيط، وهو أحد الأربعة الخواص، إلاّ أنه هجر منذ ثلاث وهو لا يعلم. فقلت له: يا سيدي؛ ما سبب هجره؟ قال: إنّه مقيم بجزيرة في البحر المحيط، ومنذ ثلاث ليال أمطرت جزيرته حتّى سالت أوديتها، فخطر في نفسه: لو كان هذا المطر في العمران، ثمّ استغفر الله تعالى، فهجر بسبب اعتراضه. فقلت له: أعلمته؟ قال: لا، إنّي استحييت منه، فقلت له: لو أذنت لي لأعلمته، فقال: أو تفعل ذلك؟ قلت: نعم، فقال: رنّق، فرنّقت، ثمّ سمعت صوتاً: يا عليّ، ارفع رأسك، فرفعت رأسي من رنقي، فإذا أنا بجزيرة في البحر المحيط، فتحيّرت في أمري، وقمت أمشي فيها فإذا بذلك الرجل، فسلّمت عليه وأخبرته، فقال: ناشدتك الله ألاّ فعلت ما أقول لك، قلت: نعم، قال: ضع خرقتي في عنقي، واسحبني على وجهي، ونادِ عليّ، هذا جزاء من تعرّض على الله سبحانه. قال: فوضعت الخرقة في عنقه وهممت بسحبه، وإذا هاتف يقول: يا عليّ، دعه فقد ضجّت عليه ملائكة السماء باكية عليه وسائلة فيه، وقد رُضي عنه. قال: فأغمي عليّ ساعة، ثم سرّي عني وإذا أنا بين يدي خالي في خلوته. والله ما أدري كيف ذهبت ولا كيف جئت.

قلت وقد اقتصرت على ما يسمع من كراماته في هذه القضيّة الفردة من بين ما لا يحصى، ولا يستطيع من رام ذلك عّده. قال الإمام ابن خلّكان: كان شافعيّ المذهب، أصله من العرب وسكن في البطائح في قرية يقال لها: أمّ عَبِيدة، وانضم إليه خلق عظيم، وأحسنوا الاعتقاد فيه وتبعوه. والطائفة المعروفة بالبطائحية والرفاعية من الفقراء منسوبة إليه. قال: ولأتباعه أحوال عجيبة في الحيّات والنزول في التنانير وهي تضطرم بالنار فيطفئونها، ويقال إنّهم في بلادهم يركبون الأسود، ومثل هذا وأشباهه، ولهم مواسم يجتمع عندهم من الفقراء عالم لا يعدّ ولا يحصى، ويقومون بكفاية الكلّ منهم، وأمورهم مشهورة مستفيضة، فلا حاجة إلى الإطالة. وذكر أصحابه وأتباعه ذكراً جميلاً يدل على حسن اعتقاده في الفقراء من

حيث الجملة، وحمل أحوالهم على السداد خلافاً لما قدّمته عن الذهبي من الطعن فيهم وسوء الاعتقاد. قال ابن خلّكان: وكان للشيخ أحمد ـ على ما كان عليه من الاشتغال بالعبادة ـ شعر، فمنه على ما قيل:

إذا جنّ ليلي هام قلبي بذكركم أنوح كما ناح الحمام المطوّق
وفوقي سحاب يمطر الهمّ والأسى وتحتي بحار للهوى تتدفّق
سلوا أمّ عمرو كيف بات أسيرها تفك الأسارى دونه وهو موثق
فلا هو مقتول ففي القتل راحة ولا هو ممنون عليه فيطاق

قال: ولم يزل على تلك الحال إلى أن توفّي يوم الخميس الثاني والعشرين من جمادى الأولى من السنة المذكورة بأمّ عبيدة، وهو في عشر السبعين.

والرفاعي بكسر الراء نسبة إلى رجل من العرب يقال له رِفاعة، قال: هكذا نقلته من خطّ بعض أهل بيته، بفتح العين المهملة وكسر الباء الموحدة وسكون المثناة من تحت وقبل الهاء دال مهملة ـ وهي عّدة قرى مجتمعة في وسط الماء بين واسِط وبَصرة، ولها في العراق شهرة. انتهى. قلت: وذكر غيره أنّ الأبيات المذكورة سمعها الشيخ سيدي أحمد المذكور من القوّال، وكانت سبب موته.

وفي مناقبه وما اتّصف به من المحاسن والآداب والكرامات العظام مصنّف لبعض الأئمة الأعلام، وهو السيد الجليل المعروف بابن عبد المحسن الواسطي.

وفي السنة المذكورة توفّي الحافظ محدّث الأندلس ومؤرّخها ومسندها أبو القاسم بن بشكوال خلف بن عبد الملك[1] الخزرجي الأنصاري القرطبي. كان من علماء الأندلس، وله التصانيف المفيدة، منها كتاب الصلة الذي جعله ذيلاً على تاريخ علماء الأندلس تصنيف القاضي أبي الوليد عبدالله بن محمد المعروف بابن الفرضي، وقد جمع فيه خلقاً كثيراً، وله كتاب صغير في أحوال الأندلس ـ وما أقصر فيه ـ وكتاب الغوامض والمبهمات، وذكر فيه من جاء ذكره مبهماً في الحديث، فعينه ونسج فيه على منوال الخطيب البغدادي الذي وضعه على هذا الأسلوب، وجزء لطيف ذكر فيه من روى الموّطأ عن أنس بن مالك ـ كذا في الأصل الذي وقفت عليه من تاريخ ابن خلّكان، عن أنس بن مالك ـ ولم يقل: مالك بن أنس، فإن أراد رواة الموّطأ عن أنس بن مالك الصحابي فهو صحيح . وقال: ورتّب أسماءهم على حروف المعجم فبلغت عّدتهم ثلاثاً وسبعين رجلاً. ومجلد لطيف سمّاه:

(١) جاء في الكامل لابن الأثير: خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال. ٩/ ١٦٠.

كتاب المستعين[١] بالله تعالى عند الحاجات والمهمات والمتضرعين إلى الله سبحانه وتعالى بالرغبات والدعوات وما يسر الله الكريم لهم من الإجابات والكرامات، وله غير ذلك من المصنّفات.

وفيها توفّي خطيب الموصل أبو الفضل عبدالله بن أحمد الطوسي ثم البغدادي. قال ابن النّجار: قرأ الفقه والأصول على الكبار وأبي بكر الشاشي، والأدب على أبي زكريا التبريزي، وولي خطابة الموصل زماناً، وتفرّد في الدنيا وقصده الرحّالون.

وفيها توفّي الفقيه العلاّمة أبو المعالي مسعود بن محمد النيسابوري، تفقّه على محمد ابن يحيى صاحب الغزالي، وتأدّب على أبيه، وسمع من جماعة، وبرع في الوعظ وحصل له القبول ببغداد، ثم قدم دمشق ودرّس بالمجاهدية والغزالية، ثم خرج إلى حلب ودرّس بالمدرستين اللتين بناهما نور الدين وأسد الدين، ثم ذهب إلى همدان ودرّس بها، ثم عاد إلى دمشق ودرّس بالغزالية وانتهت إليه رئاسة المذهب بدمشق، وكان حسن الأخلاق قليل التصنّع. مات في سلخ رمضان ودفن يوم العيد، وكان عالماً صالحاً ورعاً، صنّف كتاب الهادي في الفقه ـ وهو مختصر نافع ـ، لم يأت فيه إلاّ بالقول الذي عليه الفتوى.

سنة تسع وسبعين وخمس مائة

فيها توفّي (بُوري) ـ بضمّ الموحدة وكسر الراء ـ ابن أيّوب بن شاذي، الملّقب بتاج الملك، أخو السلطان صلاح الدين، وهو أصغر أولاد أبيه. قال ابن خلّكان: كانت فيه فضيلة، وله ديوان شعر فيه الغث والسمين، ولكنه بالنسبة إلى مثله جيّد. ومما نقل عنه من الشعر:

يا حياتي حين ترضى ... ومماتي حين تسخط
آه من ورد على خدّيه بالمسك منقّط ... بين جفنيك سلطان على ضعفي مسلّط
قد تصبّرت وإن ... برّح بيَ الشوق وأفرط
فلعلّ الدهر يوماً ... بالتلاقي منك يغلط

ومنه أيضاً:

أيا حامل الرمح الشبيه بقدّه ... ويا شاهراً سيفاً حكى لحظة غضبا
ضع الرمح واغمد ما سللت فربّما ... قتلت، وما حاولت طعناً ولا ضربا

(١) في الكامل لابن الأثير: وله كتاب المستغيثين بالله. ٩/ ١٦٠.

ومنه أيضاً:

أقبــــل مـــــن أعشقـــــه راكبـــــاً مـــن جـــوانـــب الغـــور علـــى أشهـــب
فقلـــت: سبحـــانـــك يـــا ذا العلـــي أشـــرقـــت الشمـــس مـــن الغـــرب

قلت: وجميع أشعاره هذه ليس فيها شيء من الغثّ الذي ذكر عنه، بل كلّها من السّمين الحسن المنبىء عن فضيلة اللسن. وكان موته من جراحة أصابته في مدينة حلب يوم حاصرها أخوه صلاح الدين، وكانت طعنة في ركبتيه[(١)].

قال: العماد الأصبهاني في البرق الشامي: بينما صلاح الدين جالس في سماط قد أعدّه في المخيمّ ضيافة بعد الصلح، وعماد الدين صاحب حلب إلى جانبه، ونحن في أغبط عيش وأتمّ سرور، إذ جاء الحاجب إلى صلاح الدين وأسرّ إليه بموت أخيه، فلم يتغيّر عن حالته، وأمر بتجهيزه ودفنه سرّاً وأعطى الضيافة حقّها إلى آخرها. ويقال إنّه كان يقول: ما أخذنا حلب رخيصة بقتل تاج الملك.

وفيهل توفّي قاضي زَبيد الإمام الفاضل البارع المجود علي بن حسين السَيْرِي ـ بفتح السين المهملة وسكون المثناة من تحت وكسر الراء قرية مُصَيْرَة ـ بضم الميم وفتح الصاد المهملة وسكون المثناة من تحت وفتح الراء ـ بمخلاف الساعد قافلاً من مكّة. وكان مع فضله ورعاً نظيفاً، تفقّه على شيوخ زَبيد، وأجمع على تفضيله الموالف والمخالف، ويقال إنّه أجاب عن ألف مسألة وردت عليه من التعنّت التي يمنحه به أهل زبيد على يد القاضي ابن النجاب. قال ابن سمرة في تاريخه؛ ولقد سمعت من بعض المشايخ السادة بشواحط، يعني؛ في جبال اليمن مكاناً يذكر من بعض فضائله وكرمه ما يتعجّب منه السامع ويقصر عن بلوغه الطامع، مع ديانته وأمانته.

وفيها وقيل بل في سنة ستّ كما تقدّم توفي الإمام رضي الدين يونس الموصلي الشافعي.

وفيها توفّيت الشيخة الفاضلة تقيّة بنت غيث ـ بالغين المعجمة ثم المثناة من تحت ثم المثلثة ـ ابن علي السلمي[(٢)] الصوري. صبحت الحافظ أبا طاهر محمد بن أحمد السلفي الأصبهاني ـ وكانت فاضلة ولها شعر جيد ـ ذكرها في بعض تعاليقه وأثنى عليه، وكتب بخطّه: عثرتُ في منزل سكناي فانجرح أخمصي، فشقّت وليدة في الدار خرقة من خمارها وعَصَبته، فأنشدتْ تقيّة المذكورة في الحال لنفسها:

---

(١) في الكامل لابن الأثير: طعن في ركبته فانفكّت. ٩/ ١٦٢.
(٢) في الوافي بالوفيات للصفدي: تقية أم علي بنت أبي الفرج غيث بن علي بن عبد السلام بن محمد بن جعفر السلمي الأرمنازي الصوري. . . . ومولدها سنة خمس وخمس مائة بدمشق. ٦/ ١٠/ ٣٨٤.

لــو وجــدتُ السبيــل جــذتُ بخــدّي عــوضــاً مــن خمــار تلــك الــوليــدْة
كيــف لــي أن أقبّــل اليــوم رِجــلاً سلكــت دهَــرهــا الطــريــقَ الحميــدةْ

قال ابن خلّكان: وحكى الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري أنّها نظمت قصيدة تمدح بها الملك المظفّر عمر ابن أخي السلطان صلاح الدين ـ وكانت القصيدة خمرية ـ وصفت بها آلة المجلس وما يتعلّق بالخمر، فلمّا وقف عليها قال: الشيخةُ تعرف هذه الأحوال من زمن صباها. فبلغها ذلك، فنظمت قصيدة أخرى حربيّة وصفت فيها الحرب وما يتعلّق بها أحسن وصف، ثم سيّرت بها إليه تقول: علمي بتلك كعلمي بهذه. وكان قصدها براءة ساحتها ممّا نسبها إليه في صباها.

وفيها توفّي أبو عبدالله محمد المعروف بالأبْلَه[1] البغدادي الشاعر المشهور، أحد المتأخرين المجيدين، جمع في شعره بين الصناعة والرقّة، وله ديوان شعر كثير الوجود بأيدي الناس، ذكره العماد الأصبهاني فقال: هو شابٌ ظريف يتزي بزيّ الجند، رقيق أسلوب الشعر حلو الصناعة رائق البراعة، عذب اللفظ أرقّ من النسيم السحري وأحسن من الوشي التَسْتُري، وكلّ ما ينظمه ولو أنه يسير والمغنون يغنّون برانقات أبياته فهم يتهافتون على نظمه المطرب تهافت الطير الحوم على عذب المشرب. ومن رقيق شعره:

دعنــي أكــايــد لــوعتــي وأُعــانــي أيــن الطليــق مــن الأسيــر العــانــي
آليــت لا أدع المــلام بعــزّتــي مــن بعــد مــا أخــذ الغرام عِنــانــي[2]
أوَلــى تــروض العــاذلات وقــد أرى روضــات حســن فــي خــدود حِســانِ
ولــديّ يلتمــس السلــوّ ولــم يــزل حــيّ الصبــابــة ميّــت السلــوانِ
يــا بــرقُ إن تجفــو العقيــق ـ وطــالمــا أغْنَتــه عنــك ـ سحــائــب الأجفــانِ[3]

في قصيدة له طويلة وله من أخرى

لئــن وقــرت يــومــاً بسمعــي مــلامــة لهنــد فــلا عقــب المــلامــة فــي هنــد
ولا وجــدت عينــي سبيــلاً إلــى البكــا ولا بــتّ فــي أصــل الصبــابــة والــوجــد
وبحــت بمــا ألقــى ورحــت مقــابــلاً سمــاحــة مجــد الــديــن بــالكفــر والجحــد

---

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي: ابن بختيار: محمد بن بختيار بن عبدالله المولّد المعروف بالأَبْلَه البغدادي الشاعر المشهور، . . . . وإنما قيل له الأبله لأنه كان في غاية الذكاء، فسمّي الأبله من باب تسمية الشيء بضدّه. ٦/ ٢/ ٢٤٤.

(٢) في الوافي بالوفيات: آليت لا أدع السلوّ يغرّني. . . . ٦/ ٢/ ٤٢٥.

(٣) في الوافي بالوفيات للصفدي: يا برق إن تَجْزِ العقيق فطالما. . . .٦/ ٢/ ٢٤٥.

سنة ثمانين وخمس مائة

فيها نازل صلاح الدين الكرك، ونصب عليها المجانيق، فجاءتها نجدات الفرنج، فرأى أنّ حصارها يطول، فسار وهجم نابلوس[١]، فنهب وسبى.

وفيها أخذ كُحْلان[٢] - بضم الكاف وسكون الحاء المهملة - وأخرج منه أهله، وعقد في ولايته للشريف مهدي بن أسعد بن عبد الصمد الجوالي.

وفيها توفّي السلطان أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن القيسي صاحب المغرب، كان أبوه قد جعل الأمر بعده لولده محمد، وكان طياشاً شرّيباً للخمر، فخلعه الموحّدون واتّفقوا على أبي يعقوب، وكان حلو الكلام ومليح المفاكهة، بصيراً باللغة وأيّام الناس، قويّ المشاركة في الحديث والقرآن وغير ذلك.

وقيل إنه كان يحفظ أحد الصحيحين، وكان سخّياً جواداً، هماماً فقيهاً حافظاً، لأنّ أباه هذبه، وقرن به أكمل رجال الحرب والمعارف، فنشأ في ظهور الخيل بين أبطال الفرسان، وفي قراءة العلم بين أفاضل العلماء، أولى التحقيق والإتقان، وكان ميله إلى الحكمة والفلسفة أكثر من ميله إلى الأدب وبقيّة العلوم، وكان جمّاعاً مناعاً ضابطاً بخراج مملكته، عارفاً بسياسة رعيته، وكان ربّما يحضر حتّى لا يكاد يغيب، ويغيب حتى لا يكاد يحضر، وله في غيبته نوّاب وخلفاء وحكّام، وقد فوّض الأمر إليهم لمّا علّم من صلاحهم لذلك. والدنانير اليوسفية منسوبة إليه. فلمّا تمهدت له الأمور واستقرّت قواعد ملكه دخل إلى جزيرة الأندلس، فكشف مصالح دولته، وتفقّد أحوالها، وفي صحبته مائة ألف فارس من المغرب، أو قال: من العرب والموحّدين، ثم أخذ في استرجاع بلاد المسلمين من أيدي الفرنج، - وكانوا قد استولوا عليها - فاتسعت مملكة الأندلس.

وفي سنة خمس وسبعين قصد بلاد إفريقية، وفتح مدينة (قَفْصَة)[٣]، ثم دخل جزيرة الأندلس في سنة ثمانين وخمسمائة ومعه جمع كثيف، وقصد غربيّ بلادها، فحاصر العدو هنالك شهراً، واصابه مرض فمات منه في شهر ربيع الأول من السنة المذكورة، وكان قد استخلف ولده يعقوب، وقيل: إنه لم يستخلف، بل اتفّق رأْي قوّاد الموحّدين وأولاد عبد

---

(١) في الكامل لابن الأثير: فسار إلى مدينة نابلس، ونهب كل ما على طريقه من البلاد، فلما وصل نابلس أحرقها وخرّبها وقتل فيها وأسر وسبى. ١٦٦/٩.

(٢) كحلان: من أشهر مخاليف اليمن بينه وبين ذمار ثمانية فراسخ، وبينه وبين صنعاء أربعة وعشرون فرسخاً. معجم البلدان.

(٣) قفصه: بلدة صغيرة في طرف إفريقية من ناحية المغرب، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام. معجم البلدان.

المؤمن على تملكه، فملّكوا.

وذكر بعض المؤرخين أنّه افتتح الأندلس وغيرها، وتهيأ له من ذلك ما لا يتهيأ لأبيه، وهادن ملك صقليّة على جزية تحملها، وكان يملي أحاديث الجهاد بنفسه على الموحّدين، فتجهّز لغزو النصارى، واستنفر في سنة تسع وسبعين ودخل الأندلس، ثم تكلّموا في الرحيل، فتسابق الجيش حتّى بقي أبو يعقوب في قّلة من الناس، فانتهزت الفرنج الفرصة، وخرجوا فحملوا على الناس فهزمزهم، وأحاطت الفرنج بالمخيم فقتل على بابه طائفة من أعيان الجند وخلصوا إلى أبي يعقوب، وطعن في بطنه، ومات بعد أيام يسيرة في رجب، وبايعوا ولده يعقوب.

سنة احدى وثمانين وخمس مائة

فيها نازل صلاح الدين الموصل، وكانت قد سارت إلى خدمته ابنة الملك نور الدين محمود زوجة عز الدين ـ صاحب البلد ـ وخضعت له، فردّها خائبة وحصر الموصل، فبذل أهلها نفوسهم وقاتلوا أشدّ قتال، فندم وترحّل عنهم لحصانتها، ثم نزل على ميافارقين، فأخذها بالأمان، ثم ردّ إلى الموصل وحاصرها أيضاً، ثم وقع الصلح على أن يخطبوا له وأن يكون صاحبها طوعه، وأن يكون لصلاح الدين شَهْرزور وحصونها، ثم رحل فمرض واشتدّ مرضه بحّران حتّى أرجفوا بموته، وسقط شعر لحيته ورأسه.

وفيها هاجت الفتنة العظيمة بين التركمان وبين الأكراد في الجزيرة، وقتل من الفريقين خلق لا يحصون[١].

وفيها توفّي صدر الإسلام أبو الطاهر اسماعيل بن بكر المعروف بابن عوف الزهري الإسكندراني المالكي. تفقّه على أبي بكر الطرطوسي، وسمع منه ومن أبي عبدالله الرازي. برع في المذهب وتخرّج به الأصحاب، وقصده السلطان صلاح الدين وسمع منه الموطّأ. وعاش ستّاً وتسعين سنة.

وفيها توفي البهلول محمد شمس الدين صاحب أذربيجان وعراق العجم، ويقال: كان له خمسة آلاف مملوك.

وفيها توفّي الشيخ الكبير الولي الشهير صاحب الكرامات الخارقة والأنفاس الصادقة والأحوال الفاخرة والأنوار الباهرة، والمقامات العالية والمناقب السامية، والمواهب الجزيلة والأوصاف الجميلة، والطور العالي، في الحقائق والمعراج الرفيع في المعارج، والترقّي في

---

(١) انظر سبب ذلك في الكامل لابن الأثير. ٩/ ١٧٠.

درجات السابقين والسبق إلى منازل المقرّبين: حيوة بن قيس الحرّاني ـ رضي الله تعالى عنه ـ كان من أجلّاء المشايخ العارفين وأعيان الصفوة المحقّقين، أحد أركان هذا الشأن وعلم العلماء الأعيان، صاحب التصريف النافذ في الوجود، والقدم الراسخ وعظيم الفضل النابع من عين الوجود، وهو أحد الأربعة الذين قال فيهم الشيخ أبو الحسن القرشي: إنّ أربعة من المشايخ يتصرّفون في قبورهم كتصرّف الأحياء: الشيخ معروف الكرخي، والشيخ عبد القادر الجيلي، والشيخ عقيل المنبجي، والشيخ حيوة بن قيس الحرّاني ـ رضي الله تعالى عنهم أجمعين ـ انتهت إليه رئاسة هذا الأمر علماً وحالاً وزهداً واجلالاً، تزكّى في تربيته كثير من المريدين بالرياضات، وتخرّج بصحبته غير واحد من أهل المقامات، وتلمذ له جماعة كثيرة من أصحاب الأحوال والكرامات، وأشار إليه المشايخ والعلماء وغيرهم بالتبجيل، وانتهى إليه عالم عظيم ونال العطاء الجزيل. ومن كلامه رضي الله عنه: قيمة القشور بلبابها وقيمة الرجال بألبابها، وعزّ العبيد بأربابها وفخر المحبّة بأحبابها. ثم قال: آثار المحبّة إذا بدت أماتت قوماً وأحيت أسراراً، ونفت أشراراً وأنارت أسراراً. ثم أنشد:

وإذا الرياح ـ مع العشي تناوحت ... أسهَرْن حاسده وهجْن غيورا
وأمِتْنَ ذا بوجود وجد دائم ... وأقمن ذا، وكشفن عنه ستورا

ومنه المحّبة تعلّق القلب بين الهيبة والأنس، وهي سمة الطائفة وعنوان الطريقة، ووسيلة إلى رؤية المحبوب وهيمان إلى لقاء المطلوب. وكان رضي الله تعالى عنه يتمثّل بهذه الأبيات:

مواجيد حقّ، أوجد الحقّ كلّها ... وإن عجزت عنها فهَوْم الأكابر[1]
وما الحبّ إلاّ خطرة ثم نظرة ... ينشي لهيباً بين تلك السرائر
إذا سكن السرّ السريرة ضوعفت ... ثلاثة أحوال لأهل البصائر
فحال بعيد السر عن كنه وجده ... ويحضره للشوق في حال حائر
حاول به رمت ذرى السّر وانثنت ... إلى منظراً فناه عن كلّ ناظر

قلت هكذا في الاصل ثلاثة أحوال، والمفسّر منها حالان دون الثلاث. وله رضي الله تعالى عنه من الكرامات وعجائب الآيات ما يذهل العقول وذكر اليسير منه يطول.

من ذلك ما حكى الشيخ الصالح غانم بن يعلى التكريتي قال: سافرت مرّة من اليمن في البحر المالح، فلمّا توسّطنا بحر الهند وغلب علينا الريح أخذتنا الأمواج من كلّ جانب، وانكسرت بنا السفينة، فنجوت على لوح منها، فألقاني إلى جزيرة، فطفت فيها،

(١) الهَوْم: النوم الخفيف وما اطمأن من الارض.

فلم أر فيها أحداً، وإذا هي كثيرة الخيرات. رأيت فيها مسجداً فدخلته فإذا فيه أربعة نفر، فسلّمت عليهم فردّوا عليّ السلام، وسألوني عن قصّتي فأخبرتهم، وجلست عندهم بقية يومي ذلك، فرأيت من توجّههم وحسن إقبالهم على الله تعالى أمراً عظيماً. فلمّا كان وقت العشاء دخل الشيخ حَيْوة الحرّاني فقاموا يبادرون إلى السلام عليه، فتقدّم وصلّى بهم العشاء، ثم استرسلوا في الصلاة إلى طلوع الفجر، فسمعت الشيخ حيوة يناجي ويقول: إلهي؛ لا أجد لي في سواك مطمعاً، ولا إلى غيرك منتجعاً، قد أنخت ببابك ناظراً إلى حجّابك، متى تكشف لي عن تفريج الكربة، والترقّي إلى مجلس القربة، وقد أوثقت نفسي عن السرور بك فوسمتها بذكرك، ولي فيها كوامن أفراح ترتاح إليها صبابات أشواقي، ولي معك أحوال سيكشفها اللقاء يا حبيب التائبين، ويا سرور العارفين، ويا قرّة عين العابدين، ويا أنس المنفردين، ويا حرز اللاجين ويا ظهر المنقطعين، ويا من حنت إليه قلوب الصدّيقين، ويا من أنست به أفئدة المحبّين، وعليه عكفت همّة الخاشعين. ثم بكى بكاء شديداً، ورأيت الأنوار قد حفّت بهم وأضاء ذلك المكان كإضاءة القمر ليلة البدر، ثم خرج الشيخ حيوة من المسجد وهو يقول:

سَير المحبّ إلى المحبوب إعجال ... والقلب فيه من الأحوال بلبال
أطوي المهامة من قَفْر على قدم ... إليك يدفعني سهل وأجبال

فقال ولي أولئك النفر: اتبع الشيخ، فتبعته، وكانت الأرض برّها وبحرها وسهلها وجبلها يطوي تحت أقدامنا طيّاً. كنت أسمعه كلمّا خطا خطوة يقول: يا ربّ حيوة كن لحيوة، وإذا نحن بحرّان في أسرع وقت، فوافينا الناس يصلّون بها صلاة الصبح. سكن حرّان واستوطنها إلى أن توفّي بها رحمه الله تعالى.

وفيها توفّي الفقيه الفاضل محمد بن زكريا المدرّس في الشُوَيْرَا: بضم الشين المعجمة وفتح الواو وسكون المثناة من تحت وفتح الراء من بلاد اليمن. توفّي وله ولد خلفه يفضل عليه في العلم، خلفه في التدريس اسمه (ابراهيم)، تفقّه بأبيه المذكور، وكان يختم في رمضان في كلّ يوم وليلة.

وفيها توفيّ المهذّب بن الدهّان عبد الله بن أسعد بن علي الموصلي الفقيه الشافعي الأديب الشاعر النحوي ذو الفنون. توفي بحمص وكان مدرّسايها[1].

وفيها توفّي الحافظ عبد الحقّ بن عبد الرحمن الأزدي الإشبيلي المعروف بابن الخرّاط، أحد الاعلام، مؤلف الأحكام الكبرى، والصغرى، والجمع بين الصحيحين،

---

(١) أضاف ابن الأثير في الكامل: وكان عالماً بمذهب الشافعي، وله نظم ونثر أجاد فيه. ٩/ ١٧٢.

وكتاب الغريبين في اللغة، وكتاب الجمع بين الكتب الستّة. نزل بِبَجاية[١]، وولي خطابتها، وتوفي بها بعدما لحقه محنة من الدولة، وكان مع جلالته في العلم قانعاً متعفّفاً موصوفا بالصلاح والورع ولزوم السنّة.

وفيها توّفي الإمام الحافظ العلامة المشهور أبو زيد عبد الرحمن ابن الخطيب عبد الله ابن الخطيب أحمد الخثْعمي السهيلي الأندلسي المالقي صاحب كتاب الروض الأنف في شرح سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم، و كتاب التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء الأعلام، وكتاب نتائج الفكر ومسألة رؤية الله تعالى في المنام ورؤية النبي عليه الصلاة والسلام، ومسألة السرّ في أعور الدجال، ومسائل كثيرة مفيدة وقال ابن دحِية: أنشدني وقال: إنه ما سأل الله تعالى بها حاجة إلا أعطاه إياها:

يا من يرى ما في الضمير ويسمع ... أنت المعدّ لكلّ ما يتوقع
يا من يرجّى للشدائد كلّها ... يا من إليه المشتكى والمفزعُ
يا من خزائن رزقه - في قول كُنْ ... امننْ فإنّ الخير عندك أجمع
ما لي سوى فقري إليك وسيلة ... فبالافتقار إليك فقري أدفع
ما لي سوى قرعي لبابك حيلة ... فلئن رددتُ فأيّ باب أقرع؟
من ذا الذي أدعو وأهتف باسمه ... إن كان فضلك عن فقيرك يمنع؟
حاشا لجودك أن تقنط عاصياً ... الفضل أجزل والمواهب أوسع[٢]

قلت: قوله: فإنّ الخير عندك أجمع: يحتاج إلى تأويل في إعرابه، والإلزم أن يكون من الإقواء المعيب في الشعر، فإنّ أجمع تأكيد للخير وهو منصوب فيكون منصوباً وله أشعار كثيرة نافية، أخذ القراءة عن جماعة، وروى عن ابن العربي والكبار، وبرع في العربية والنحو واللغة وفي الأخبار والآثار. وكان ببلده يتّصف بالعفاف، ويتبلّغ بالكفاف، حتّى نما خبره إلى صاحب مرّاكش، فطلبه إليها وأحسن إليه، وأقبل بوجه الإقبال عليه، وأقام بها نحو ثلاثة أعوام، وتوفي بها.

والسهيلي نسبة إلى قرية بالقرب من مالَقَة[٣] سميت باسم الكوكب لأنه لا يرى في جميع بلاد الأندلس إلا من جبل مطلّ عليها. ومَالَقَة: بفتح الميم واللام والقاف مدينة كبيرة بالأندلس. وغلط السمعانيّ في-قوله إنّها بكسر اللام.

---

(١) بجاية: مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب. معجم البلدان.
(٢) في الكامل لابن الأثير: حاشا لمجدك.... ١٧٢/٩.
(٣) مالقة: مدينة بالأندلس من أعمال ريّة. معجم البلدان.

وفيها توفّي الحافظ أبو موسى محمد بن عمر(١) المعروف بالمَدِيْني صاحب التصانيف.

سنة اثنتين وثمانين وخمس مائة

قال العماد الكاتب: أجمع المنجّمون في هذا العلم في جميع البلاد على خراب العالم في شعبان(٢) عند اجتماع الكواكب السبعة في الميزان بطوفان الريح، وخوّفوا بذلك ملوك الأعاجم والروم، فشرعوا في حفر مغارات ونقلوا إليها الماء والأزواد وتهيؤوا، فلمّا كانت الليلة التي عيّنها المنجّمون بمثل ريح عاد ونحن جلوس عند السلطان والشموع توقد ولم يتحرّك ولم تُرَ ليلة مثلها في ركودها.

وقال محمد بن القادسي: فرش الرماد في أسواق بغداد، وعلقت المسوح يوم عاشوراء، وناح أهل الكَرْخ، وتعدّى الأمر إلى سبّ الصحابة، وكانوا يصيحون به ما بقي كتمان. وقال غيره: وقعت فتنة ببغداد بين الرافضة والسنّية قتل فيها خلق كثير، وكان ذلك منسوباً إلى الصاحب الملقّب بمجد الدين.

وفيها توفّي الإمام العلاّمة أبو محمد عبد الله(٣) المقدسي ثم المصري النحوي صاحب التصانيف، روى عن طائفة، وانتهى إليه علم العربية في زمانه، وقصد من البلاد لتحقيقه وتبحره، وكان يتحدّث ملحوناً ويتبرّم ممّن يخاطبه بإعراب. ويحكى عنه حكايات في سذاجة الطبع، يأخذ في كمّه العنب مع الحطب والبيض، فيقطر على رجله ماء العنب فيرفع رأسه ويقول: هذا من العجب، يمطر مع الضَّحْو.

سنة ثلاث وثمانين وخمس مائة

فيها افتتح صلاح الدين بالشام فتحاً مبيناً ونصر نصراً مبيناً، وهزم الفرنج وأسر ملوكهم، وكانوا أربعين ألفاً. ونازل القدس وأخذه، وأخذ عكّا وافتتح عدّة حصون(٤)، وعزّ الإسلام وعلاه، ودخل على المسلمين سرور لا يعلمه إلا الله تعالى، وفيها قتل ابن

---

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي: الحافظ أبو موسى المَدِيْني: محمد بن عمر بن محمد... المديني الأصبهاني... له من التصانيف الكتاب المشهور في تتمة: معرفة الصحابة، والطوالات، وتتمة الغريبَيْن، والوظائف واللطائف، وعوالي التابعين... والمدِيني نسبة إلى مدينة أصبهان. ٦/ ٤/ ٢٤٦، ٢٤٧.

(٢) في الكامل لابن الأثير: كان المنجمون قديماً وحديثاً قد حكموا أن هذه السنة ـ التاسع والعشرين من جمادى الآخرة ـ تجتمع الكواكب الخمسة في برج الميزان.... ٩/ ١٧٤، ١٧٥.

(٣) في الكامل لابن الأثير: عبدالله بري بن عبد الجبار بن بري النحوي المصري. ٩/ ١٧٥.

(٤) انظر تفاصيل ذلك في الكامل لابن الأثير: ٩/ ١٧٥ـ ١٨٧.

الصاحب[١] ببغداد، فذلّت الرافضة.

وفيها توفي القاضي عيسى بن علي، ولاّه سيف الإسلام قضاء الجَنَد.

وفيها توفي الفقيه الفاضل الورع المصنّف حسن بن أبي بكر الشيباني الساكن في الجوهة من بلاد اليمن، تفقّه على الشيخ الإمام أبي عبد الله محمد بن عبدويه المتقدّم ذكره، وبعبد الله الهَرَوي والطوَيْري، لزم مجلسه تسع سنين، ورحل إلى عدن رحلتين بينهما أربعون سنة، وله مصنّفات حسنة. وعرض عليه قضاء زَبيد في ولاية شمس الدولة، وفي ولاية أخيه سيف الإسلام فامتنع واعتذر، فقيل له: أرشدنا إلى من تراه، فأشار بالقاضي عبد الله بن محمد بن أبي عقامة.

قال ابن سمرة بعدما ذكر بني عقامة: وبهم نشر الله تعالى مذهب الشافعي في تهامة.

وذكر منهم جماعة منهم: القاضي أبو الفتوح بن أبي عقامة ـ بفتح العين المهملة ـ الثعلبي كان عالماً مجوداً، له مصنّفات حسنة منها: كتاب التحقيق، وكتاب الخبايا، أخذ عن الفقيه أبي الغنائم، وهو عن الشيخ أبي حامد الاسفرائيني ومنهم القاضي محمد بن علي بن أبي عَقامة الخطيب، قيل إنه ولي قضاء زبيد زمن الحبشة، وكان معظّماً عندهم ذا جاه كبير وعلم غزير. ومنهم الحسن بن محمد بن أبي عقامة الخطيب، قيل إنه كان ينظم الخطبة على المنبر، وإليه تنسب الخطب العقامية.

ومنهم القاضي محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي عقامة وأخوه أبو بكر ابن عبد الله، وقال: وآخرهم في هذا الزمان القاضي عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي عقامة الثعلبي قاضي زبيد من جهة الأمير، تفقه فقهاء زبيد وأخذ عنهم، وله معرفة بالحديث والتفسير. وفضائل آل أبي عقامة مشهورة.

قلت: وفقهاء اليمن ينشدون أبياتاً وينسبونها إلى القاضي ابن أبي عقامة يمدح فيه بمعرفة عشرين علماً، ولا أدري أيّ المذكورين هو.

وفيها قويت نفس السلطان ابن أرسلان، وأرسل إلى بغداد بأن يعمر له دار السلطان وأن يخطبوا له ويرفع له الشأن، فأمر الناصر بهدم الدار والإخراب، وأخرج رسوله مهاناً بلا جواب.

وفيها توفّي شيخ الفتوّة وحامل لوائها عبد الجبّار بن يوسف البغدادي حاجّاً بمكّة. وكان قد علا شأنه بكون الخليفة الناصر يفتي، ومحدّث بغداد وصالحها عبد المغيث بن زهير وابن الدامغاني قاضي القضاة أبو الحسن علي بن أحمد الحنفي. وكان ساكتاً وقوراً محتشماً.

---

(١) سيرد ذكره ثانية في آخر أخبار هذه السنة.

وفيها توفي المقدّم الأمير الكبير محمد بن عبد الملك، كان من أعيان أمراء الدولتين بطلاً شجاعاً محتشماً عاقلاً، شهد في العام المذكور الفتوحات، وحجّ، فلما نزل بعرفات رفع علم السلطان صلاح الدين، وضرب الكوسات[1] فأنكر عليه أمير ركب العراق، فلم يلتفت وركب في طلبه وركب إليه الآخر، فالتقوا وقتل جماعة من الفريقين، وأصاب ابن المقدّم سهم في عينه، فخرج سريعاً، ثم مات من الغد بمنى.

وتوفي شيخ الحنابلة الملقّب بناصر الإسلام نصر بن قينان ـ وكان موصوفاً بالورع والزهد والتعبّد.

وفيها توفّي مجد الدين الصاحب هبة الله بن علي، ولي أستاذ دار للمستضيء، ولما ولي الناصر رفع منزلته وبسط يده وكان رافضياً سبّاباً لما تمكّن أحيى شعار الإمامية، واشتهر بأشياء قبيحة[2]، فقتل وأخذت حواصله، من جملتها ألف ألف دينار.

سنة اربع وثمانين وخمس مائة

دخلتْ، وصلاح الدين يصول وبخيوله يجول، حتّى لاقت الفرنج منه ما ذكره يطول، وافتتح أخوه الملك العادل الكرك بالأمان، سلّموها له لفرط القحط[3] في رمضان.

وفيها توفّي أسامة بن مرشد الأمير الكبير مؤيّد الدولة أبو المظفّر الكناني ـ الشيرازي[4]، أحد الأبطال المشهورين والشعراء المبرّزين، له عدّة تصانيف في الأدب والأخبار والنثر ونظم الأشعار، له ديوان شعر في جزأين ومن شعره:

لا تستعر جلداً على هجرانهم ... فقواك تضعف عن صدود دائم
واعلم بأنّك إن رجعت إليهم ... طوعاً وإلاّ عدت عودة راغم[5]

(١) في الكامل لابن الأثير: فأمر بضرب كوساته التي هي أمارة الرحيل، فضربها أصحابه. ٩/ ١٨٨.

(٢) في الكامل لابن الأثير: وكان الذي سعى به إنسان من أصحابه وصنائعه يقال له: عبيد الله بن يونس، فسعى به إلى الخليفة وقبّح آثاره فقبض عليه وقتله. ٩/ ١٨٩.

(٣) في الكامل لابن الأثير: فلازموا الحصار هذه المدة الطويلة حتى فنيت أزواد الفرنج وذخائرهم وأكلوا دوابهم. ٩/ ١٩٦.

(٤) في الكامل لابن الأثير: وفيها توفي الأمير الكبير سلالة الملوك والسلاطين الشيزري مؤيد الدولة أبو الحارث وأبو المظفر أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ... وكان من أولاد ملوك شَيْزَر... وكان مولده سنة ٤٨٨ هـ ـ وكان في شبيبته شهماً شجاعاً قتل الأسد وحده مواجهة ـ وتوفي ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من رمضان، ودفن شرقي جبل قاسيون. ٩/ ١٩٨.

(٥) وفي المصدر السابق أيضاً: .... طوعاً وإلا عدت عودة نادم.

وله في ابن طليب المصري، وقد احترقت داره:

انظر إلى الأيّام كيف تسوقنا قهراً إلى الإقرار بالأقدار
ما أوقد ابن طليب قطّ بداره ناراً وكان خرابها بالنار

قال ابن خلّكان: وممّا يناسب هذه الواقعة أنّ الوجيه بن صورة المصري ـ دلاّل الكتب ـ كانت له دار موصوفة بالحسن فاحترقت، فقال علي بن مفرح المعروف بالمنجّم:

أقول وقد عاينت دار ابن صورة وللنار فيها مارج يتضرّم
كذا كلّ مال أصله من نهاوِش فمّما قليل في نهار يعدم[1]

قلت: ومع هذا البيتين بيت ثالث أفرط فيه ما ينبغي أن يذكر، والبيت الثاني مأخوذ من قوله صلّى الله عليه وآله وسلم: «من أصاب مالاً من نهاوِش أهبه الله في نَهابر». والنهاوش الحرام، والنهابر المهالك.

وقال لغزاً، وقد قلع ضرسه:

وصاحب لا أملّ الدهر صحبته يشفي لنفسي ـ ويسعى سعي مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا لناظري افترقنا فرقة الأبد

قلت: وقد فسّرت هذا اللغز حيث قلت:

ضرس امرىء غاب عن عينيه في فمه عليه في طحن ما يغذوه معتمد
نعم الرحى صوّر الباري بحكمته تراه عند انقلاع غير مرتدد

وفيها توفّي الإمام عبد الرحمن بن محمد بن حبيش الأنصاري. كان من أئمة الحديث والقراءات والنحو واللغة، ولي خطابة (مُرْسِيَة)[2] وقضاءها، واشتهر ذكره وبعد صيته، وصنّف كتاب المغازي في مجلدات.

وفيها توفي شيخ الحنفية في زمانه بما وراء النهر عمر ابن الإمام شمس الأئمة بكر بن علي رحمه الله تعالى.

وفيها توفّي التاج المسعودي[3] محمد بن عبد الرحمن الخراساني الصوفي الرحّال

---

(١) النهاوش: المظالم.
(٢) مرسية: مدينة في الأندلس من أعمال تدمير. معجم البلدان.
(٣) المسعودي شارح المقامات: محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مسعود بن أحمد بن الحسين الإمام أبو سعيد وأبو عبدالله بن أبي السعادات المسعودي الخراساني البنجديهي.. ومولده سنة ٥٢١ هـ الوافي بالوفيات ٦/ ٣/ ٢٣٣.

الأديب. كتب وسعى وجمع فأوعى، وصنّف شرحاً طويلاً للمقامات، استوعب فيه ما لم يستوعبه غيره في خمس مجلّدات كبار، ولم يبلغ أحد من شرح المقامات إلى هذا القدر ولا إلى نصفه، وكان مقيماً بدمشق، والناس يأخذون عنه بعد أن كان يعلّم الملك الأفضل[١] عند السلطان صلاح الدين، حصّل له بطريقة كتباً نفيسة[٢] غريبة، وبها استعان على شرح المقامات.

وحكى أبو البركات الهاشمي قال: لما دخل السلطان صلاح الدين حلب نزل المسعودي المذكور إلى جامع حلب، وقعد في خزانة كتب الوقف، واختار منها جملة أخذها لم يمنعه منها مانع، ولقد رأيته وهو يحشوها في عِدْلٍ وقال ابن النجار: كان من الفضلاء في كلّ فنّ في الفقه والحديث والأدب، وكان من أظرف المشايخ وأجملهم، توفّي عن اثنتين وثمانين سنة.

وفيها توفّي أبو الفتح التعاويذي، الشاعر الذي سار نظمه في الآفاق، وتقدّم على شعراء العراق. هكذا ذكر بعضهم في السنة المذكورة، وقد قدّمنا عن بعضهم ذكر موته في سنة ثلاث وخمسين، وذكرت شيئاً من فضائله هناك.

وفيها توفّي الإمام الحافظ محمد بن موسى الحازمي الهمداني الملقّب زين الدين، أحد الحفّاظ المتقنين وعباد الله الصالحين، سمع من أبي الوقت حضوراً، وسمع من أبي زُرْعة، ومعمر بن الفاخر بالخاء المعجمة ورحل إلى العراق وأصبهان والجزيرة وبلاد فارس وهمدان والشام والنواحي، وصنّف التصانيف، وكان إماماً ذكيّاً ثاقب الذهن، فقيهاً بارعاً ومحدّثاً ماهراً، بصيراً بالرجال والعلل، متبحراً في علم السنن ذا زهد وتعبّد، وتألّه وانقباض عن الناس، وغلب عليه الحديث، وبرع فيه واشتهر به، وصنّف فيه وفي غيره كتباً مفيدة منها: الناسخ والمنسوخ في الحديث، وكتاب الفصل في مشتبه السنّة، وكتاب عجالة المبتدىء في النسب، وكتاب ما اتّفق لفظه وافترق مسمّاه في الأماكن والبلدان المشتبهة في الخطّ، وكتاب سلسلة الذهب فيما روى الإمام أحمد بن حنبل عن الإمام الشافعي، وشروط الأئمة، وغير ذلك من الكتب النافعة. واستوطن بغداد ساكناً في الجانب الشرقي، ولم يزل مواظباً للاشتغال ملازم الخير إلى أن توفّي رحمة الله تعالى عليه، فدفن في الشونيزية إلى جانب سمنون بن حمزة، مقابل قبر الجنيد رحمة الله تعالى على الجميع، بعد أن صلّى عليه خلق كثير برَحْبة جامع القصر، وحمل إلىٰ الجانب الغربي فصلّي عليه مرّة بعد أخرى، وفرّق كتبه على أصحاب الحديث. وكانت ولادته في سنة ثمان أو تسع وأربعين وخمس مائة،

---

(١) وفي المرجع السابق: مؤدّب الملك الأفضل بن صلاح الدين.

(٢) وفي المرجع السابق: واقتنى كتباً نفيسة بجاه الملك ووقفها بخانقاه السميساطي.

ونسبته إلى جدّه حازم.

وفيها توفّي الفقيه الفاضل قاضي عدن ذو الفضل أحمد بن عبد الله بن محمد اليمني القريظي، كان حافظاً مجوداً في الحديث بارعاً عارفاً باللغة والعربية، أقام في مجلس الحكم بها أربعين سنة.

سنة خمس وثمانين وخمس مائة

في أوّل شعبان منها التقى صلاح الدين الفرنج، وفي وسطه التقاهم أيضاً، فانهزم المسلمون واستشهد جماعة، ثم ثبت السلطان والأبطال كرّوا عليهم ووضعوا فيه السيف، وجافت الأرض من كثرة القتلى، ونازلت الفرنج عكّا، فساق صلاح الدين وضايقهم، وبقي محاصراً، والتقاهم المسلمون مرّات، وطال الأمر وعظم الخطب، وبقي الحصار والحالة هذه عشرين شهراً أو أكثر، وجاء الفرنج في البرّ والبحر، وملأوا السهل والوعر حتّى قيل إنّ عدّة من جاء منهم بلغت ستّ مائة ألف.

وفيها توفي فقيه الشام قاضي القضاة أبو سعد عبد الله بن محمد المعروف بابن عصرون التميمي ثم الموصلي وأحد الأعلام. تفقّه بالموصل وسمع بها، ثم رحل إلى بغداد فقرأ القراءات ودرس النحو والأصلين ودخل واسط وتفقّه بها، ورجع إلى الموصل بعلوم جمّة، ودرّس بها وأفتى، ثم سكن سنْجار، ثم قدم حلب ودرّس بها وأقبل عليه نور الدين، فقدّم معه عند مفتتح دمشق، ودرّس بالغزالية، ثم ردّ وولي قضاء سنجار وحرّان مدّة، ثم قدم دمشق وولي القضاء لصلاح الدين، وله مصنفات كثيرة.

وفيها توفّي المبارك بن المبارك(١) شيخ الشافعية في وقته ببغداد وصاحب الخطّ المنسوب ومؤدّب أولاد الناصر لدين الله، درّس بالنظامية، وتفقّه به جماعة وحدّث، وكان صاحب علم وعمل ونسك وورع، وكان قد جوّد للكتابة حتّى بالغ بعضهم وقال: هو أكتب من ابن البّواب. ثم اشتغل بالفقه فبلغ فيه الغاية.

وفيها توفّي صاحب الطريقة في الخلاف أبو طالب محمد بن علي التميمي الأصبهاني. تفقّه على الشهيد محمد بن يحيى تلميذ حجّة الإسلام أبي حامد الغزالي، وبرع في الخلاف، وصنّف فيه التعليقة التي شهدت بفضله وتحقيقه وتدبيره على أكثر نظرائه، وجمع فيها بين الفقه والتحقيق. وكان عمدة المدرسين في إلقاء الدروس، واشتغل عليه خلق كثير وانتفعوا به، وصاروا علماء مشاهير، وكان له في الوعظ اليد الطولى، وكان متفنناً في العلوم خطيباً

(١) في الكامل لابن الأثير: وفيها في ذي القعدة مات أبو طالب المبارك بن المبارك الكرخي... وكان من أصحاب أبي الحسن بن الخل... ٩/ ٢٠٥.

قاضياً مدرّساً.

وفيها توفّي محمد بن يوسف البحراني[١] الشاعر المشهور، وكان إماماً مقدّماً في علم العربية متفنّناً في أنواع الشعر، من أعلم الناس بالعروض والقوافي، وأحذقهم بنقد الشعر وأعرفهم بجيّده من رديئه، واشتغل بشيء من علوم الأوائل، وحل كتاب إقليدس، وبدأ بنظم الشعر وهو صبيّ صغير بالبحرين جرياً على عادة العرب قبل أن ينظر في الأدب. وكان قد رحل إلى شهرزور، وأقام بها مدّة، ثم رحل إلى دمشق وخدم السلطان صلاح الدين رحمه الله تعالى بقصيدة طويلة، وله ديوان شعر جيّد ورسائل حسنة، ومن شعره قصيدة مدح بها أبا المظّفر صاحب إربل، من جملتها هذه الأبيات.

رَبّ دار بالفضا طال بلاها عكف الركب عليها فبكاها
درست إلاّ بقايا أسطر سمح الدهر بها ثم محاها
كان لي فيها زمان وانقضى فسقى الله زماني وسقاها

والبحراني نسبة إلى البَحْرين: وهي بليدة بالقرب من هَجَرِ. قال الأزهري: وإنما سمّي البحرين لانّ في ناحية قراها بحيرة على باب الأحساء، وقرى هَجَر بينها وبين البحر الأخضر عشرة فراسخ، وقدّرت البحيرة ثلاثة أميال في مثلها، وعن أبي محمد اليزيدي قال: سألني المهدي وسأل الكسائي عن النسبة إلى البحرين وإلى الحصنين، ثم قالوا: حصني وبحراني، فقال الكسائي: كرهوا أن يقولوا: حصناني لاجتماع النونيّن، قال: وقلت أنا: كرهوا أن يقولوا بحريّ، فيشبه النسبة إلى البحر.

سنة ست وثمانين وخمس مائة

فيها توفّي الحافظ الكبير أبو المواهب الحسن بن هبة الله المحفوظ ابن صصري الدمشقي، سمع من الحافظ ابن عساكر وغيره، وتخرّج به، وسمع بالعراق وهمدان وأصبهان والجزيرة والنواحي من شيوخ فيها، وبرع في هذا الشأن، وجمع وصنّف مع الثقة والجلالة والكرم والرئاسة.

وفيها توفّي الحافظ النحوي محمد بن عبدالله الفَهْري الاشبيلي[٢]، برع في الفقه والعربيّة، وانتهت إليه الرئاسة في الحفظ والفتيا.

---

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي: محمد بن يوسف بن محمد بن قائد، موفق الدين الإربلي البحراني الشاعر... ٦/٥/٢٥١.

وفيها توفي قاضي القضاة أبو حامد[١] محمد ابن قاضي القضاة أبي الفضل محمد بن عبدالله الشهرزوري الشافعي، له مع فضائله أشعار جيّدة، منها قوله في وصف جرادة:

لها فخذا بكر وساقا نعامة وقادمتا نسر وجؤجؤه ضَيْغم
خبتها ـ أفاعي الرمل بطناً وأنعمت عليها جياد الخَيْل بالرأس والفم

ويحكى عنه رئاسة جسيمة ومكارم عظيمة.

سنة سبع وثمانين وخمس مائة

فيها اشتدّت مضايقة الفرنج لعكّا وقلّة الأقوات على المسلمين بها، فسلموها بالأمان[٢].

وفيها توفّي أبو المعالي عبد المنعم بن عبدالله بن محمد بن الفضل الفراوي النيساوري مسند خراسان، سمع من جدّه وجماعة.

وفيها توفي صاحب حماة الملك المظفّر عمر ابن شاهنشاه بن أيوّب[٣] أحد الأبطال ابن أخي السلطان صلاح الدين. كان شجاعاً مقداماً منصوراً في الحروب، مؤيداً في الوقائع، له مشاهد مشهورة مع الفرنج، وآثار حميدة في المضافات دلّت عليه التواريخ، وله في أبواب البّر معروف متّسع، منها مدارس شافعية ومالكية وأوقاف كثيرة، وكثرة إحسان إلى العلماء والفقراء وأرباب الخير، وناب عن عمّه صلاح الدين بالديار المصرية في بعض غيباته عنها، ثمّ استدعاه صلاح الدين إليه في الشام ورتّب في الديار المصرية ولده العزيز الملك عثمان ومعه الملك العادل، فشقّ ذلك على الملك المظفّر المذكور، وعزم على دخول بلاد المغرب، وقبّح عليه أصحابه ذلك فامتثل قول عمّه، وحضر إلى خدمته وخرج صلاح الدين فالتقاه، وفرح به وأعطاه حماة، فتوجّه إليها ورتب فيها بعده ولده الملك المنصور أبو المعالي الملّقب ناصر الدين.

وفيها توفّي الفقيه نجم الدين محمد بن الموفّق الصوفي الزاهد الفقيه الشافعي. تفقّه على الإمام محمد بن يحيى تلميذ حجّة الاسلام، وكان يستحضر كتابه المحيط في شرح

---

(١) في الكامل لابن الأثير: فيها توفي أبو حامد محمد بن عبدالله بن القاسم الشهرزوري بالموصل، كان قاضياً، وقبلها ولي قضاء حلب وجميع الأعمال، وكان رئيساً جواداً ذا مروءة عظيمة يرجع إلى دين وأخلاق. ٩/ ٢١١.

(٢) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير: ٩/ ٢١٣ ـ ٢١٤.

(٣) في الاعلاق الخطيرة لابن شدّاد: . . . وكان عمه صلاح الدين يحبه ويعتمد عليه، توفي وهو محاصر منازكرد في رمضان سنة ٥٨٧ هـ/ ١١٩١م، فنقل ودفن بحماه. ٣/ ٢/ ٦٧٢.

الوسيط، وألفّ كتاباً سمّاه تحقيق المحيط، في ستة عشر مجلّداً. روى ودرّس وأفتى، وكان صلاح الدين يعتقد فيه ويبالغ في احترامه، وعمّر له مدرسة الشافعية، وكان يبالغ في ذمّ العُبَيديين، ولما هاب صلاح الدين من الإقدام على قطع خطبة العاضد وقف قدّام المنبر، وأمر أنْ يخطب الخطيب لبني العبّاس، ففعل ولم يقع، إلا الخير. قال الذهبي: ثم عمد إلى قبر ابن الكيزاني ـ من غلاة السنّة وأهل الأثر ـ فنبشه وقال: لا يكون صدّيق وزنديق في موضع واحد. يعني: هو والشافعي، فثارت حنابلة مصر عليه، ووقعت الفتنة وصار بينهم حروب.

قلت: وقوله من غلاة السنّة وأهل الأثر: أي ممّن يتغالى في تقرير الظواهر وعدم تأويلها، وإنمّا قال الذهبي: وغلاة أهل السنّة، لأنه كثيراً ما يشير إلى أنّ الظاهرية هم أهل السنّة، مفهماً بذلك أنّ اعتقاده موافق لأهل الظاهر ـ والله أعلم بالسرائر ـ ولما توفي المذكور في السنة المذكورة دفن في قبّة تحت رجلي الإمام الشافعي ـ رضي الله عنه ـ وبينهما شبّاك. وكان أصحابه يصفون فضله ودينه، وأنه كان سليم الباطن قليل المعرفة بأحوال الدنيا.

وفيها توفّي الحكيم شهاب الدين يحيى بن حَبَش بفتح الحاء المهملة والباء الموحدة وبالشين المعجمة ـ السهروردي المقتول بحلب. كان بارعاً في الحكمة وعلوم الفلسفة والأصول الفقهية وعلم الكلام ـ وشيخه وشيخ فخر الدين الرازي واحد، وهو مجد الدين الجيلي، وكان الحكيم المذكور مفرط الذكاء فصيح العبارة، مناظراً محجاجاً متزهّداً، وكان علمه أكثر من عقله، ويقال إنه كان يعرف السيمياء.

حكي أنه خرج من دمشق مع جماعة، فلما وصلوا إلى القابُون[1] لقوا قطيع غنم مع تركمانّي، فقال أصحابه: زيد رأساً من هذا الغنم، فأخذوا رأساً بعشرة دراهم كانت معه، فقال صاحب الغنم: خذوا رأساً أصغر منه، فقال: امشوا وأنا أقف معه وأرضيه، فتقدّموا، وبقي يتحدّث معه ويطيّب قلبه، فلّما بعدوا قليلاً تبعهم وتركه، وبقي التركماني يمشي خلفه ويصيح به، فلم يلتفت إليه حتّى لحقه وجذب يده اليسرى وقال: أين تروح وتخلفني؟ وإذا بيده قد انخلعت من عند كتفه وصارت في يد التركماني، ودمها يجري، فبهت التركماني وتحيّر، ورمى اليد وخاف وهرب، وأخذ هو تلك بيده اليمنى، ولحق أصحابه وهو يلتفت إليه حتّى غاب عنه. ولمّا وصل إلى أصحابه رأوا في يده اليمنى منديلاً لا غيره. قال ابن خلّكان: ويحكى عنه مثل هذا أشياء كثيرة ـ انتهى والله أعلم بصحتها.

قلت: ومثل هذا ما سمعته ممّن يحكي عمّن صاحب ابن سينا إلى جبل حراء أنه أخذ

---

(١) القابون: موضع بينه وبين دمشق ميل وتحد في طريق القاصد إلى العراق في وسط البساتين. معجم البلدان.

من بدوي شاة في الطريق، فذبحها هو وأصحابه، وشووها وأكلوها، فجاء البدوي إلى رأس الجبل يطالبه بالثمن، فجلس معه في مكانه بعيداً عن رفقائه، وتمدد بين يدي البدوي، فنظر إليه ذلك البدوي فإذا هو مذبوح، ففزع البدوي وهرب. قلت: وهذه الأفعال وأشباهها يئست من أفعال، وبئس من يفعلها، وبئس المعلم ـ الموصل إليها.

رجعنا إلى ذكر الحكيم السهروردي، له تصانيف عديدة كالتنقيحات في أصول الفقه، والتلويحات، وكتاب الهياكل، والرسالة الغريبة وغير ذلك. ومن كلامه: حرام على الأجساد المظلمة أن تلحق في ملكوت السماوات، فوحّد الله تعالى وأنت بتعظيمه ملآن، واذكره وأنت من ملابس الأكوان عريان، ولو ما كان في الوجود شمس لأظلمت الأكوان، وأبى النظام أن يكون غير ما كان، فخفت حتّى قلت لست بظاهر، وظهرت من سعيي على الأكوان، اللهمّ خلّص لطيفي من هذا العالم الكثيف. وتنسب إليه أشعار، فمن ذلك:

جعلت هياكلها تجرّ على الحمى ... وصبت لمغناها القديم تشوّقا
وتلفّتت نحو الديار فشاقها ... ربع عفت أطلاله فتمزقا
وقفتْ تسائله فردّ جوابها ... رجع الصدى أن لا سبيل إلى اللقا
فكأنّها برق تألّف بالحمى ... ثم انطوى وكأنّه ما أبرقا

ومن شعره المشهور:

أبداً تحنّ إليكم الأرواح ... ووصالكم ريحانة والراح
وقلوب أهل ودادكم تشتاقكم ... وإلى لقاء جمالكم ترتاح
وارحمتا للعاشقين تحمّلوا ... ثقل المحبة والهوى فضّاح
بالسرّ إن باحوا تُباح دماؤهم ... وكذا دماء البائحين تُباح
فإذا هم كتموا فحدّث عنهم ... عند الوشاة المدمع السحّاح
وبدت شواهد للسقام عليهم ... فيها لمشكل أمرهم إيضاح
خفض الجناح لكم وليس عليكم ... للصبّ في خفض الجناح جناح
فإلى لقاكم نفسه مرتاحة ... وإلى رضاكم طرفه طمّاح
عودوا بنور الوصل من غسق الدجى ... فالهجر ليل والوصال صباح
صافاهم فصفوا له فقلوبهم ... في نورها المشكاة والمصباح
ركبوا على سفن الهوى ودموعهم ... بحر وشدّة شوقهم ملّاح
والله ما طلبوا الوقوف ببابه ... حتّى دعوا وأتاهم المفتاح
لا يطربون بغير ذكر حبيبهم ... أبداً وكلّ زمانهم أفراح
حضروا وقد غابت شواهد ذاتهم ... فتهتكّوا لما رأوه وصاحوا

أفناهم عنهم وقدْ كشفت لهم حجب البقا فتلاشت الأرواح

مع أبيات أخرى في أثنائها وفي آخرها أوليتها حذف هجر الإعراض ـ عند لمعان برق سحاب بعض الأعراض. وكان شافعي المذهب ويلقب بالمؤيد بالملكوت.

قال ابن خلّكان: وكان يتّهم بانحلال العقيدة والتعطيل واعتقاد مذهب الحكماء المتقدّمين، واشتهر عنه ذلك، فلمّا وصل إلى حلب أفتى علماؤها بإباحة قتله، بما ظهر لهم من سوء مذهبه في اعتقاده قال: وقال الشيخ سيف الدين الآمدي: اجتمعت بالسهروردي في حلب، فقال لي: لا بدّ لي أن أملك الأرض، فقلت له: من أين لك هذا؟ قال: رأيت في المنام كأني شربت ماء البحر، فقلت: لعلّ هذا يكون اشتهار العلم وما يناسبها، فرأيته لا يرجع عمّا وقع في نفسه، ورأيته كثير العلم قليل العقل. وكان في دولة الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين، فحبسه، ثم خنقه بإشارة والده صلاح الدين ـ وعمره ثمان وقيل: ستّ وثلاثون ـ وقيل: قتله وصلبه أياماً. وقيل: خيّر بين أنواع القتل فاختار أن يموت جوعاً لاعتياده الرياضات، فمنع من الطعام حتّى تلف.

ونقل ابن الجوزي في تاريخه عن ابن شدّاد قال: أقمت بحلب للاشتغال بالعلم الشريف، ورأيت أهلها مختلفين في أمره[١]، فمنهم من ينسبه إلى الزندقه والإلحاد ـ وهم أكثر الناس ـ ومنهم من يعتقد فيه الصلاح وأنّه من أهل الكرامات ويقولون: ظهر لهم بعد قتله ما يشهد له بذلك. وانتهى، والله أعلم ببواطن العباد وإليه المرجع والمعاد.

سنة ثمان وثمانين وخمس مائة

فيها سار شهاب الدين الغوري صاحب غَزْنَة بجيوشه، فالتقى ملك الهند، فانتصر المسلمون واستحر القتل بالهنود، وأسر ملكهم، وغنم المسلمون ما لا ينحصر، من ذلك أربعة[٢] عشر فيلاً.

وفيها التقى المسلمون بالشام الفرنج غير مرّة، والنصرة كلّها للمسلمين إلا واحدة، مقدّمها الملك العادل، فدهمهم العدو وهزمهم.

وفيها توفي أبو الفضل[٣] اسماعيل بن علي الشافعي الفرضي، من أعيان المحدّثين.

---

(١) الضمير عائد على السهرزوري.

(٢) انظر ذلك في الكامل لابن الأثير: ٩/٢٢٣، ٢٢٤.

(٣) في الوافي بالوفيات للصفدي: أبو الفضل الجيروني: اسماعيل بن علي بن ابراهيم بن أبي القاسم بن الجيروني الدمشقي، قرأ الفقه في مذهب الشافعي علي بن المسلّم السُّلمي.... ورحل إلى بغداد وسمع الحسن الباقر حي و... ٦/٩/١٥٩، ١٦٠.

تفقه على جمال الإسلام ابن المسلّم وغيره، وسمع من هبة الله بن الأكفاني وطبقته، ورحل إلى بغداد فسمع بها جماعة من الكبار، وكتب الحديث الكثير، وكان بصيراً بعقد الوثائق والسجلات.

وفيها توفي المشطوب الأمير ـ مقدّم الجيوش سيف الدين علي بن أحمد بن أبي الهيجاء الهكاري نائب عكّا، لمّا أخذت الفرنج عكّا أسروه، ثمّ اشتُري بمبلغ عظيم، ثم أقطعه صلاح الدين القدس[١]، فتوفّي بها.

وفيها توفي أبو المرهف نصر بن منصور الشاعر المشهور، كان ضريراً، قدم بغداد وحفظ القرآن المجيد، وتفقّه على مذهب الإمام أحمد، وسمع الحديث من القاضي ابن الباقّلاني وأبي البركات عبد الوهاب بن المبارك وأبي الفضل ابن الناصر وغيرهم، وقرأ الأدب على ابي منصور الجواليقي، وله ديوان شهر، ومن شعره قوله من قصيدة له:

وأخوف ما أخاف على فؤادي إذا ما أنجد البرق اللموعُ
لقد حملت من طول الثناء عن الأحباب ما لا أستطيعُ

وكان زاهداً ورعاً حسن المقاصد في الشعر.

سنة تسع وثمانين وخمس مائة

وفيها توفّي صاحب مكة داود بن عيسى بن فليتة بن قاسم بن محمد بن أبي هاشم العلوي الحسيني.

ومحمود سلطان[٢] شاه أخوه الملك علاء الدين خوارزم شاه ابنا أرسلان الخوارزمي.

وسنان بن سليمان أبو الحسن البصري الإسماعيلي الباطني صاحب الدعوة وصاحب حصون الإسماعيلية. كان أديباً متفنّناً متكلّماً عالماً عارفاً بالفلسفة أخبارياً شاعراً.

وصاحب الموصل السلطان عزّ الدين مسعود بن مودود أتابك بن زنكي. قال ابن الأثير: بقي عشرة أيام لا يتكلّم إلا بالشهادتين وبالتلاوة، ورزق خاتمة خير، وكان كثير الخير والإحسان يزور الصالحين ويقربّهم ويشفعهم، وفيه حلم وحياء ودين[٣]. ودفن في مدرسته في الموصل، وتملك بعده ولده نور الدين.

---

(١) فافتدى نفسه بخمسين ألف دينار، وجاء السلطان ـ وهو بالقدس ـ فأعطاه أكثرها، وولاه نابلس. توفي يوم الأحد ثالث وعشرين شوال بالقدس ودفن في داره. الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٢٥.

(٢) في الكامل لابن الأثير: وفيها ـ ٥٨٩ هـ ـ في رمضان توفي السلطان شاه صاحب مرو وغيرها من خراسان ٩/ ٢٢٩.

(٣) انظر مناقبة في الكامل لابن الأثير: ٩/ ٢٢٨.

وفيها توفّي السلطان صلاح الدين الملك الناصر أبو المظفّر يوسف بن أيوّب بن شاذي ـ بالشين والذال المعجمتين وبينهما ألف في آخره ياء النسبة ومعناه بالعربية فرحان ـ صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية والعراق واليمنية. وتراجم أبيه أيوّب وقرابته من الإخوة والأعمام مذكورة في مواضعها، وصلاح الدين المذكور كان واسطة العقد وشهرته وشائعته شهيرة مغنية عن مدحته والتعريف بصفته وسيرته.

وقد ذكر بعض المؤرّخين الاتفّاق على أنّ أباه وأهله من الأكراد، وذكر بعضهم نسبه أباً، فإما إلى عدنان ثم رفعه إلى آدم ﷺ وذكر ابن الأثير أنّ مجاهد الدين متولّي شحنة العراق من جهة السلطان غيّاث الدين السلجوقي مسعود رأى في نجم الدين أيوب شاذي عقلاً ورأياً حسناً وحسن سيرة، فجعله والياً بتَكْرِيت[1] حافظاً للقلعة، فلمّا انهزم أتابك الشهيد صاحب ـ الموصل عماد الدين زنكي بالعراق في أيام الإمام المسترشد وكان قد جاء على قصد حصار بغداد ـ وصل بعد انهزامه إلى تكريت، فخدمه نجم الدين أيوّب، وأقام له السفن فعبر دجلة هناك، وتبعه أصحابه فأحسن نجم الدين إليهم وسيّرهم، ثم إن أسد الدين أخا نجم الدين قتل إنساناً بتكريت لكلام جرى بينهما، فأرسل مجاهد الدين إليهما، وأخرجهما من تكريت، فقصدا عماد الدين زنكي صاحب الموصل، فأحسن إليهما، وعرف لهما خدمتهما، واقطعهما إقطاعاً حسناً وصار من جملة جنده. فلّما فتح عماد الدين زنكي بعلبك جعل نجم الدين والياً عليها وحافظاً، فلّما قتل عماد الدين زنكي وتولّى بعده ولده سيف الدين غازي بن زنكي أرسل إليه نجم الدين أيوب، وطلب منه عسكراً ليستعين به على قتال صاحب دمشق مجير الدين ـ وكان قد حاصر أيوّب فلم ينجده بالعسكر، فلّما رأى نجم الدين تلك الحال وخاف أن يؤخذ قهراً، أرسل في تسليم القلعة، وطلب أقطاعاً ذكره، فأجيب إلى ذلك، وحلف له صاحب دمشق، فسلّم القلعة ووفى له بما حلف عليه من الإقطاع، وصار عنده من أكبر الأمراء. واتصل أخوه أسد الدين بالخدمة النورية المتعّلقة بنور الدين محمود صاحب حلب ـ وكان يخدمه ـ فقربّه نور الدين وأقطُعه، وكان يرى منه في الحروب آثاراً يعجز عنها غيره لشجاعته وجرأته، فصارت له حمص والرَّحْبة وغيرهما، وجعله مقدّم عساكره.

وكان صلاح الدين مولده سنة اثنتين وثلاثين وخمس مائة بقلعة تكريت لمّا كان عمّه وأبوه بها، ثمّ إن عماد الدين قصد حصار دمشق فلم تحصل له، فرجع إلى بعلبكّ فحاصرها شهراً وملكها سنة أربع وثلاثين وخمس مائة، ورتّب فيها نجم الدين أيوّب، ولم يزل صلاح الدين تحت كنف أبيه حتّى ترعرع. وحاصر نور الدين بن عماد الدين زنكي دمشق،

(١) تكريت: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل. معجم البلدان.

فأخذها، فلازم نجم الدين أيوّب خدمته وكذلك ولده صلاح الدين، وكانت مخائل السعادة عليه لائحة، والنجابة تقدّمه من حالة إلى حالة بتأييد الله تعالى، ونور الدين يرى له ويؤثره، وتعلّم منه صلاح الدين طرائق الخير وفعل المعروف والاجتهاد في أمور الجهاد، حتّى تجهّز للمسير مع عمّه أسد الدين إلى الديار المصرية لما جاء (شاوَر) مستغيثاً إلى الشام بالملك العادل نور الدين محمود بن زنكي في شهر رمضان سنة ثمان وخمسين وخمس مائة، فوّجه نور الدين معه الأمير أسد الدين بن شاذي في جماعة من عسكره، وكان صلاح الدين من جملتهم في خدمة عمّه وهو كاره للسفر معهم، وجعل أسد الدين ابن أخيه صلاح الدين مقدّم عسكره، شاور[1] حتّى دخلوا مصر فاستولوا عليها.

وكان الملك المنصور أبو الأشبال الضرغام بن عامر بن سوار الملّقب بفارس المسلمين اللخمي المنذري قد استولى على الديار المصرية، فقُتل عند مشهد السيّدة نفيسة بين القاهرة ومصر، واجتزّ رأسه وطيف به ثلاثة أيام، ثمّ دفن عند بركة الفيل، وبنيت عليه قبّة. ولمّا وصل أسد الدين وشاور إلى الديار المصرية واستولوا عليها وقتلوا الضرغام وحصل لشاور مقصده وعاد إلى منصبه واستمرّت أموره غدر بأسد الدين، واستنجد بالفرنج عليه، فحصروه في بلْبيس، فخلّى لهم البلاد طامعاً في العود إليها وملكها، وعاد إلى الشام في سنة تسع وخمسين وخمس مائة، فأقام بها مفكراً في تدبير عوده إلى مصر محدّثاً نفسه بالملك لها، مقرّراً ذلك معه نور الدين إلى سنة اثنتين وستين وخمس مائة.

وبلغ شاور حديثه وطمعه في البلاد فخاف عليها فكتب إلى الفرنج وقرّر معهم أنّهم يجيؤون إلى البلاد، ويمكّنهم تمكيناً كلياً ليعينوه على استئصال أعدائه، فبلغ ذلك نور الدين وأسد الدين، فخافا على الديار المصرية أن يملكوها ويتطرّقوا إلى ملك غيرها من البلاد، فتجهّز أسد الدين وأنفذ نور الدين معه العساكر ـ وصلاح الدين في خدمة عمّه أسد الدين ـ فوصلوا إليها وصولاً مقارباً لوصول الفرنج إليها، واتفّق شاور والمصريون جميعهم والفرنج على أسد الدين، وجرت حروب كثيرة ووقعات شديدة، وانفصل الفرنج عن البلاد، وانفصل أسد الدين أيضاً راجعاً إلى الشام.

وسبب رجوع الفرنج أنّ نور الدين جرر العساكر إلى بلادهم في تلك السنة، فخافوا على بلادهم وعادوا إليها، وكان سبب عود أسد الدين ضعف عسكره عن مقاومة الفرنج والمصريين، وما عاينوه من الشدائد وما عاينوه من الأهوال، وما عاد حتّى صالح الفرنج على أن ينصرفوا كلّهم عن مصر. ثم إنّ أسد الدين عاد إلى مصر مرّة ثانية وقيل ثالثة بسبب أنّ الفرنج جمعوا فارسهم وراجلهم وخرجوا يريدون الديار المصرية، فسار بنفسه وماله

---

(١) في الكامل لابن الأثير: فتجهّز وساروا جميعاً، وشاور في صحبتهم. ٩/ ٨٤.

وإخواته وأهله ورجاله. وكان شاور لما أحّس بخروج الفرنج إلى مصر أرسل إلى أسد الدين يستصرخه، فخرج مسرعاً، ولمّا علم الفرنج بوصوله إلى مصر واتفّاقه مع أهلها رحلوا راجعين على أعقبهم ناكصين. وقام اسد الدين بها، يتردد إليه شاور في الأحيان، وكان قد وعدهم بمال في مقابلة ما خسروا من النفقة، فلم يعطيهم شيئاً، وعلقت مخالب أسد الدين في البلاد، وعلم أنّه متى وجد الفرنج فرصة أخذوا البلاد، وتحقّق أنه لا سبيل إلى الاستيلاء على البلاد مع بقاء شاور، فأجمع رأيه على القبض عليه إذا خرج إليه.

وكان الأمراء الواصلون مع أسد الدين يتردّدون إلى خدمة شاور وهو يجتمع بأسد الدين في بعض الأحيان، وكان يركب على عادة وزرائهم بالطبل والبوق والعلم، فلم يتجاسر على قبضه أحد من الجماعة إلا أسد الدين بنفسه، وذلك أنّه لما سار إليهم تلقّاه راكباً، وسار إلى جانبه وأخذ يتلاعب به، وأمر العسكر أن يقصدوا أصحابه، ففرّوا ونهبهم العسكر، وأنزل شاور في خيمة مفردة وأمر بجز رأسه. وأرسل المصريون إلى أسد الدين خلع الوزارة، فلبسها وسار ودخل القصر، وترتب وزيراً وذلك في شهر ربيع الأول سنة أربع وستين وخمس مائة، ودام آمراً وناهياً ـ وصلاح الدين مباشر الأمور ومقرّرها لمكان كفايته ودرايته وحسن رأيهِ وسياسته ـ إلى الثاني والعشرين من جمادى الآخرة من السنة المذكورة، فمات أسد الدين في القاهرة، ودفن بها ، ثم نقل إلى مدينة الرسول ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ بعد مدّة بوصيّة منه.

وذكر بعضهم أن أسد الدين دخل القاهرة في سنة أربع وستين وخمس مائة وخرج إليه العاضد آخر ملوك العُبيديين، وتلقّاه وحضر يوم الجمعة ثالث يوم دخوله، وجلس جانب العاضد، فخلع عليه، وأظهر له شاور ودّاً، وطلب منه أسد الدين مالاً ينفقه في العسكر، فدافعه وأرسل إليه أنّ الجند تغيّرت قلوبهم عليه بسبب عدم النفقة، فإذا خرجت فكن منهم على حذر، فلم يكترث شاور بكلامه، وعزم أن يعمل دعوة يستدعي إليها أسد الدين والعساكر الشامية، ويقبض عليهم، فأحّس أسد الدين بذلك، فاتفّق صلاح الدين وعزّ الدين[1] وبعض كبراء الدولة على قتل شاور وأعلموا أسد الدين فنهاهم عنه، وخرج شاور قاصداً أسد الدين ـ وخيامهم كانت على شاطىء النيل ـ فلم يجده في خيمته، وكان قد ركب إلى زيارة قبر الشافعي رضي الله عنه بالقَرافة ـ فقال شاور: يمضي إليه، فساروا، فاكتنفه صلاح الدين مع آخر، فأنزلاه عن فرسه، فهرب أصحابه وأخذ أسيراً، وكتّف، ولم يمكنهم قتله بغير إذن نور الدين، فأرسل العاضد يأمرهم بقتله فقتلوه. وكان ذا شهامة ونجابة وفروسية، قد تمكّن في بلاد الصعيد، ثم توجّه إلى القاهرة وأخذ الوزارة، ثم توجّه إلى

(١) فاتفق صلاح الدين وعز الدين جرديك وغيرهم على قتل شاور. الكامل لابن الأثير ١٠١/٩ .

الشام مستنجداً بالملك العادل نور الدين لما خرج عليه ضرغام بن عامر اللخمي المنذري وأخرجه عن القاهرة وولي الوزارة مكانه، فأنجده بالأمير أسد الدين. وأصل شاور من بني سعد من نسل والد حليمة التي أرضعت رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وفي كيفيّة قتله اختلاف كثيرة، والقصد من ذكر هذه الأشياء التوصّل إلى ذكر ولاية السلطان صلاح الدين وسيرته.

فلمّا مات أسد الدين استقرّت الأمور بعده لصلاح الدين، وتمهدّت القواعد ومشى الحال على أحسن الأوضاع، وبذل الأموال وملك قلوب الرجال، وهانت عنده الدنيا فملكها، وشكر نعمة الله تعالى عليه فتاب عن الخمر وأعرض عن أسباب اللهو، وتقمّص بقميص الجدّ والاجتهاد، وما زال على قدم الخير وفعل ما يقربه وإلى الله تعالى إلى أن مات ـ رحمه الله تعالى ـ وما زال يشنّ الغارات على الفرنج إلى الكرك والشَوبَك[١] وغيرهما من البلاد، وغشي الناس من سحائب الأفضال والإنعام ما لم يؤرّخ عن غير تلك الأيام، هذا كله وهو وزير متابع للقوم، لكنّه يقول بمذهب أهل السنّة، ويجالس أهل العلم والفقه والتصوّف، والناس يهرعون إليه من كلّ صوب، ويفدون عليه من كلّ جانب، وهو لا يخيّب قاصداً، ولا يعدم وافداً إلى سنة خمس وستين وخمس مائة، فلمّا عرف نور الدين انتشار أمر صلاح الدين بمصر أخذ حمص من نوّاب أسد الدين.

ولمّا علم الفرنج ما جرى بين المسلمين وعساكرهم، وما تمّ للسلطان من استقامة الأمر بالديار المصّرية، علموا أنّه سيملك بلادهم، ويخرّب ديارهم، ويقلع آثارهم اجتمعوا هم والروم جميعاً، وقصدوا الديار المصرية، وتوجّهوا إلى دُمْياط، ومعهم آلة الحصار وما يحتاجون إليه من العدد. فلمّا بلغ صلاح الدين ذلك استعدّ بتجهيز الرجال وجمع الآلة، وبالغ في العطايا والهبات، وكان متحكّماً لا يردّ أمره في شيء. فلم يزل الحصار والقتال بين المسلمين وبينهم حتّى رحلوا عنها خائبين، وقتل من رجالهم خلق كثير، واستقرّت قواعد صلاح الدين مع والده اليها في جمادى الآخرة، وقد تقدم ذكر اجتماع صلاح الدين مع والده نجم الدين أيوّب، ليتمّ له السرور، وتكون قصته مشاكلة لقصّة يوسف عليه السلام، فوصل والده إليها في جمادى الآخرة، وقد تقدّم ذكر اجتماع صلاح الدين مع والده وإكرامه له لما وصل إليه وأرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه إخواته، فلم يجبه إلى ذلك وقال: أخاف أن يخالف عليك أحد منهم فيفسد البلاد.

---

(١) الشوبك: قلعة حصينة في أطراف الشام بين عمّان وأيلة والقلزم قرب الكرك. معجم البلدان.

فصل في بيان انتهاء الدولة العبيدية واقامة الدولة العباسية

اعلمْ أنّه لما كان شهر المحرّم مفتتح سنة سبع وستين وخمس مائة قطعت خطبة العاضد صاحب مصر، وخطب فيها للإمام المستضيء بأمر الله أمير المؤمنين. وكان سبب ذلك أنّ صلاح الدين لمّا ثبّت قدمه في مصر، وزال المخالفون له، وضعف أمر العاضد، ولم يبق من العساكر المصرية أحد كتب إليه الملك العادل نور الدين محمود، يأمره بقطع الخطبة العاضدّية وإقامة الخطبة العباسية، فاعتذر صلاح الدين للخوف من وثوب أهل مصر وامتناعهم من الإجابة إلى ذلك لميلهم إلى دولة المصريين، فلم يصغ نور الدين إلى قوله، وأرسل إليه يلزمه بذلك إلزاماً لا فسحة له، واتفّق أنّ العاضد مرض، وكان صلاح الدين قد عزم على قطع الخطبة له، فاستشار أمراءه كيف يكون الابتداء بالخطبة العباسيّة، فمنهم من ساعد على ذلك، ومنهم من خاف.

وكان قد وصل إلى مصر إنسان أعجمي يعرف بالأمير العالم، فلما رأى ما هم فيه من الإحجام قال: أنا أبتدىء بها. فلمّا كان أوّل جمعة من المحرّم صعد المنبر قبل الخطيب، ودعا للمستضيء بأمر الله، فلم ينكر أحد ذلك. فلما كان الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله، ففعلوا ذلك ولم ينتطّح فيها عنزان، وكتب بذلك إلى سائر الديار المصرية وكان العاضد قد اشتدّ مرضه، فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك وقال: إن سلم فهو يعلم، وإن توفّي فلا ينبغي أن ينغّص عليه هذه الأيام التي بقيت من أجله. فتوفّي يوم عاشوراء ولم يعلم بذلك.

قلت: وقد نقلت عن بعضهم في كتاب المرهم أنّ العاضد مات غمّاً بما فعله صلاح الدين، ولم يقدر على منعه من ذلك. ولما توفّي جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصره وجميع ما فيه. ونقل أهل العاضد إلى مكان منفرد، ووكّل بهم من يحفظهم، وجعل أولادهم وعمومتهم وأبناءهم في إيوان من القصر، وجعل عندهم من يحفظهم، وأخرج من كان فيه من العبيد والإماء، وأعتق البعض ووهب البعض وباع البعض، وأخلى القصر من سكّانه وأهله. فسبحان من لا يتغّير ملكه ولا يزول، ولا يؤثر فيه مرور الأيام والدهور. وكان ابتداء الدولة العُبيدية بإفريقية والمغرب في ذي الحجّة سنة تسع وتسعين ومائتين.

ذكر أئمة العبيديّين وعددهم وعدد سنّي دولتهم

أمّا عددهم فجملتهم أربعة عشر: أوّل من ظهر منهم على إفريقية عُبيدالله الملّقب بالمهدي، ثم بعده القائم بأمر الله، ثم المنصور، ثم المعزّ، ثم العزيز ثم الحاكم وهو الذي

ملك مصر والشام والحجاز والمغرب، ثم الظاهر، ثم المستنصر، ثم المستعلي، ثم الآمر، ثم الحافظ، ثم الظافر، ثم الفائز، ثم العاضد وهو آخرهم. ومدّة دولتهم مائتا سنة وستّ وستون سنة. وكان مقامهم بمصر مائتي سنة وثمان سنين.

قلت: وإذ قد ذكرت عدد أئمة العُبيديين ومدّة دولتهم فلأذكرن عدد خلفاء بني العباس ومدّة دولتهم، ثم كذلك أفعل في بني أميّة ودولتهم، وأذكر الخلفاء الراشدين المستحقّين ومدّة خلافتهم، ليسهل معرفة الجميع في موضع واحد لمن أراد الاطّلاع على ذلك.

ذكر خلفاء بني العباس وعددهم وعدد سنّي دولتهم

هم سبعة وثلاثون: السّفاح عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبد المطلب، ثم أخوه عبدالله أبو جعفر المنصور، ثم المهدي محمد بن أبي جعفر المنصور، ثم الهادي موسى بن المهدي، ثم الرشيد هارون بن المهدي، ثم الأمين محمد بن هارون الرشيد، ثم أخوه المأمون عبدالله بن هارون، ثم المعتصم محمد بن هارون، ثم الواثق هارون بن المعتصم، ثم المتوكّل جعفر بن المعتصم، ثم المستنصر محمد بن المتوكّل، ثم المستعين أحمد بن المعتصم، ثم المعزّ محمد بن المتوكّل، ثم المهتدي محمد بن الواثق، ثم المعتمد أحمد بن المتوكّل، ثم المعتضد أحمد بن الموفّق طلحة بن المتوكّل، ثم المكتفي علي بن المعتضد، ثم المقتدر جعفر بن المعتضد بن الموفق بن المتوكّل، ثم القاهر محمد بن أحمد بن المعتضد، ثم الراضي أحمد ـ وقيل محمد بن المقتدر ـ ثم المقتفي، ثم المتقي ابراهيم بن المقتدر، ثم المستكفي عبدالله بن محمد بن المكتفي، ثم المطيع الفضل ابن المقتدر، ثم الطائع عبد الكريم بن المطيع، ثم القادر أحمد بن إسحاق بن المقتدر، ثم القائم عبدالله بن القادر، ثم المقتدي عبدالله بن محمد بن القائم، ثم المستظهر أحمد بن المقتدي، ثم المسترشد الفضل بن المستظهر، ثم الراشد جعفر ـ وقيل منصور بن المسترشد ـ ثم المقتفي محمد بن المستظهر، ثم المستنجد يوسف بن المقتفي، ثم المستضيء الحسن بن المستنجد، ثم الناصر محمد بن المستضيء، ثم الظاهر محمد بن الناصر، ثم المستنصر أحمد بن الظاهر، ثم المستعصم عبدالله بن المستنصر. وأمّا مدة خلافتهم في خمس مائة وأربع وعشرون سنة.

ذكر ملوك بني أميّة وعددهم وعدد سنّي دولتهم

هم ثلاثة عشر: معاوية بن أبي سفيان، ثم يزيد بن معاوية، ثم معاوية بن يزيد، ثم مروان بن الحكم، ثم عبد الملك بن مروان، ثم الوليد بن عبد الملك، ثم سليمان بن عبد الملك، ثم عمر بن عبد العزيز، ثم يزيد بن عبد الملك، ثم هشام بن عبد الملك، ثم الوليد

ابن يزيد، ثم يزيد بن الوليد، ثم مروان بن محمد الجعدي، وهو آخر ملوك بني أميّة. وأمّا مدّة دولتهم فهي إحدى وتسعون سنة.

ذكر عدد الخلفاء الراشدين ومدّة خلافتهم

هم المشار إلى خلافتهم بقوله عليه السلام: الخلافة بعدي ثلاثون سنة. وهم: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، ثم الحسن بن علي وبه تمام الثلاثين من السنين المذكورة.

رجعنا إلى ما كنّا بصدده من ذكر بعض ما جرى في دولة السلطان صلاح الدين: فلمّا استولى على القصر الذي كان فيه العاضد وأمواله وذخائره اختار منه ما أراد، ووهب وباع ما شاء، وكان فيه من الجواهر والذخائر النفيسة ما لم يكن عند ملك من الملوك، ممّا جمع على طول السنين. ومن ذلك قضيب الزمّرد طوله نحو قَصبة ونصف، والخيل (١) الياقوت ـ لعله بالخاء المعجمة ثم المثناة من تحت وفي الأصل ضبطه بالجيم والباء الموحدة والله اعلم ـ غير ذلك من الكتب المنتخبة بالخطوط الجيدة نحو مائة ألف مجلّد.

ولما خطب للمستضيء بأمر الله أرسل إليه نور الدين يعّرفه ذلك، فحلّ عنده أعظم محلّ، وسيّر اليه الخلع الكاملة إكراماً له، وسيّرت الأعلام السود لتنصب على المنابر، وكانت هذه أوّل هيئة عباسية دخلت مصر بعد استيلاء العُبيديين عليها. ثم إنّه وقع بين نور الدين وبين صلاح الدين وحشة يطول ذكر سنيّها، فعزم نور الدين على الدخول إلى مصر وإخراج صلاح الدين عنها، فظهر لصلاح الدين ذلك، فجمع أهله كما تقدّم ـ وفيهم أبوه وخاله وسائر الأمراء، وأعلمهم بما بلغه، واستشارهم فلم يجبه أحد بشيء، فقام تقي الدين ابن أخي صلاح الدين وقال: إذا جاء قاتلناه ومنعناه من البلاد. ووافقه بعض أهله، فشتمهم والد صلاح الدين، وأنكر ذلك واستعظمه، وشتم تقي الدين وقال له: اقعد. وقال لولده صلاح الدين: أنا أبوك، وهذا شهاب الدين خالك، أتظن في هؤلاء كلّهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا؟! والله لو رأيته ـ أنا وخالك ـ لم يمكّنا إلا أن نقبّل الأرض بين يديه، ولو أمرنا بضرب عنقك لفعلنا، فإذا كنا نحن هكذا فما ظنك بغيرنا؟!!، وكلّ من تراه من الأمراء لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم، وهذه البلاد له، ونحن مماليكه، وقد أقامك فيها، فإن أراد عزلك سمعنا وأطعنا، والرأي أن تكتب إليه كتاباً وتقول: بلغني أنّك تريد الحركة لأجل البلاد، وأيّ حاجة إلى هذا ترسل المولى فلاناً ـ وسمّاه يضع في رقبتي منديلاً ويأخذني، أو قال: ويجرّني إليك، فما ها هنا ما يمتنع

(١) في الكامل لابن الأثير: وفيه من الأعلاق النفسية والأشياء الغريبة ما تخلو الدنيا عن مثله، ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم، فمنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهماً أو سبعة عشر مثقالاً ـ أنا لا أشك فإنني رأيته ووزنته. ٩/ ١١٢.

عليك. وقال للجماعة كلّهم: قوموا عنّا، نحن مماليك نور الدين وعبيده، يفعل بنا ما يريد. فتفرّقوا على هذا، وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر.

فلمّا خلا أيوّب بابنه صلاح الدين قال له: أنت جاهل قليل المعرفة، تجمع هذا الجمع الكثير وتطلعهم على ما في نفسك؟! وإذا سمع نور الدين أنّك عازم على منعه البلاد جعلك أهمّ الأمور إليه، وأولاها بالقصد، ولو قصدك لم ير معك أحداً من هذا العسكر. وكانوا أسلموك إليه. وأمّا الآن بعد هذا المجلس فيكتبون إليه ويعرّفونه قولي فاكتب أنت إليه وارسل إليه في المعنى، وقل: أي حاجّة لك في قصدي أرسل إلي بأحد يأخذني بحبل يضعه في عنقي، فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك واشتغل بغيرنا، والأقدار تفعل عملها. والله لو أراد نور الدين قصبة من قصبة سكّر مصر لقاتلته أنا عليها حتّى أمنعه أو أقتل. ففعل صلاح الدين ما أشار به، فترك نور الدين قصده، واشتغل بغيره، وكان الأمر كما ظنّه نجم الدين أيوّب. وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها.

ثم توفي نور الدين في سنة تسع وستين وخمس مائة كما تقدّم في ترجمته، وبلغ صلاح الدين أن إنساناً يقال له الكنز، جمع بأسوان خلقاً عظيماً من السودان، وزعم أنه يعيد الدولة المصرية، وانضاف إليه المصريون، فجهّز صلاح الدين إليه جيشاً كثيفاً وجعل مقدّمه أخاه الملك العادل، فساروا والتقوهم وكسروهم، وذلك في سنة سبعين وخمس مائة.

واستقرّ لصلاح الدين قواعد الملك، وكان نور الدين قد خلّف ولده الملك الصالح، اسماعيل في دمشق، وكان شمس الدين بن الداية بقلعة حلب قد حدّثته نفسه بأمور، فسار الملك الصالح من دمشق إلى حلب فوصل إلى ظاهرها ومعه سابق الدين[1]، فخرج بدر الدين حسن بن الداية فقبض على سابق الدين، ولما دخل الملك الصالح القلعة قبض على شمس الدين بن الداية وأخيه حسن، وأودع الثلاثة السجن. وفي ذلك اليوم قتل أبو الفضل ابن الخشاب[2] لفتنة جرت بحلب، وقيل بل قتل قبل أولاد الداية.

ثم إن صلاح الدين بعد وفاة نور الدين علم أنّ الملك الصالح ولد نور الدين صبّي لا يستقلّ بالأمر ولا ينهض باعباء الملك، فتجهّز من مصر في جيش كثيف، وترك بها من يحفظها، وقصد دمشق مظهراً أنه يتولى مصالح الملك الصالح، فدخلها بالتسليم في سنة سبعين وخمس مائة، وتسّلم قلعتها، واجتمع الناس إليه وفرحوا به، وأنفق أموالاً عظيمة

---

(١) في الكامل لابن الأثير: فأرسلوا إلى ابن الداية يطلبونه إرسال سعد الدين ليأخذ الملك الصالح... فأخذ الملك الصالح ودعا إلى حلب، فلما وصلوا إليها قبض سعد الدين على شمس الدولة بن الداية وإخوته. ٩/ ١٣٠ ـ ١٣١.

(٢) وفي المصدر السابق: وقبض على الرئيس ابن الخشّاب رئيس حلب ومقدّم الأحداث بها.

وأظهر السرور بالدمشقيين، وسار إلى حلب، فنازل حمص وأخذ مدينتها ولم يشتغل بقلعتها، وتوّجه إلى حلب ونازلها.

ثم إنّ سيف الدين غازي ـ صاحب الموصل ـ لمّا أحسّ بما جرى علم أنّ الرجل قد استفحل أمره وعظم شأنه، وخاف إن غفل عنه استحوذ على البلاد وتعدّى الأمر إليه، فأنفذ عسكراً وافراً وجيشاً عظيماً، وقدّم عليه أخاه عزّ الدين مسعود، وساروا يريدون لقاء صلاح الدين. فلمّا بلغه ذلك رحل عن حلب عائداً إلى حماة، ورجع إلى حمص فأخذ قلعتها، ووصل عزّ الدين إلى حلب وأخذ معه عسكر ابن عمّه الملك الصالح، وخرجوا في جمع عظيم.

ولمّا عرف صلاح الدين بمسيرهم سار حتّى وافاهم على قرون حماة وراسلهم، واجتهد أن يصالحوه فما صالحوه، ورأوا أنّ صرف المصافّ معه ربّما نالوا به غرضهم، والقضاء يجرّ إلى أمورٍ، هم بها لا يشعرون. فتلاقوا، فقضى الله تعالى أنّهم انكسروا، فهزموا بين يديه، وأسر جماعة منهم، ثم سار ونزل على حلب، فصالحوه على أخذ المعرّة وكَفْرطاب[1] ومارِدِين[2].

ولما جرت هذه الواقعة كان سيف الدين غازي محاصراً أخاه عماد الدين ـ صاحب سنْجار ـ لأنه كان قد انتمى إلى صلاح الدين، ثم جمع العساكر وسار، وخرج ابن عمّه الملك الصالح إلى لقائه، فوصل إلى حلب وصعد قلعتها. وأرسل صلاح الدين إلى مصر يطلب عسكرها، فوصل إليه وسار به حتّى نزل على قرون حماة، ثم تصافّوا وجرى بينهم قتال عظيم، فانكسرت ميسرة صلاح الدين، فحمل صلاح الدين بسيفه فانكسر القوم، وأسر منهم جمعاً من كبار الأمراء، فمرّ عليهم وأطلقهم، وعاد سيف الدين إلى حلب، فأخذ منها خزائنه، وسار حتّى عاد إلى بلاده. ومنع صلاح الدين أصحابه من تتّبع القوم، ونزل على خيامهم وقسّم الخزائن، وأعطى خيمة سيف الدين لابن أخيه عزّ الدين، وسار إلى مَنْبج فتسلّمها، ثم إلى قلعة عزاز فحاصرها، ووثب جماعة من الإسماعيلية على صلاح الدين فنجاه الله تعالى منهم وظفر بهم، ثم سار فنزل على حلب وأقام عليها مدّة، ثم رحل عنها. وكانوا قد أخرجوا له ابنة صغيرة لنور الدين فسألته عزَازَ، فوهبها لها.

ثم عاد صلاح الدين إلى مصر ليتفقّد أحوالها، ثم تأهّب للغزاة، وخرج يطلب الساحل حتّى وافى الفرنج على الرملة في أوائل سنة ثلاث وسبعين، وكانت الكسرة على المسلمين. فلمّا انهزموا لم يكن لهم حصن قريب يأوون إليه، فطلبوا جهة الديار المصرية وضلّوا في

---

(١) كفرطاب: بلدة بين معرّة النعمان ومدينة حلب. معجم البلدان.

(٢) ماردين: قلعة مشهورة على قلّة جبل الجزيرة مشرفة على دُنَيْسِر ودارا ونصيبين.

الطريق، وأسروا منهم جماعة، منهم الفقيه عيسى الهكاري، وكان ذلك وهناً عظيماً جبرها الله تعالى بوقعة بعدها.

ثم التمس الروم منه الصلح فصالحهم، وتوفي الملك الصالح بن نور الدين في السنة المذكورة ـ أعني سنة ثلاث وسبعين ـ وكان قد استحلف أمراء حلب وأجنادها لابن عمّه عزّ الدين مسعود صاحب الموصل.

فلمّا بلغ عزّ الدين المذكور موت الملك الصالح ووصيّته له بحلب بادر إلى التوجّه إليها خوفاً أن يسبقه صلاح الدين، فوصل إليها وصعد القلعة، واستولى على ما بها من الحواصل، وتزوّج أمّ الملك الصالح، ثم قايض عزّ الدين أخاه عماد الدين صاحب سنجار، وخرج عزّ الدين عن حلب ودخلها عماد الدين، وجاء صلاح الدين وحاصره، ثم صالح عماد الدين صلاح الدين على أن ينزل له عن حلب ويعوّضه عنها بسنْجار والخابُور ونصيبين وسَرُوْج، وحلف صلاح الدين على ذلك، وتسلّم قلعة حلب، وجعل فيها ولده الملك الظاهر وكان صبيّاً.

ثم سار صلاح الدين إلى أخيه الملك العادل ـ وهو بمصر يستدعيه ليجتمعوا على الكرك، فسار إليه بجمع كثير وجيش عظيم، واجتمعوا في شعبان سنة تسع وسبعين وخمس مائة. فلمّا بلغ الفرنج الخبر حشروا خلقاً كثيراً وجاؤوا إلى الكرك ليكونوا قبالة عسكر المسلمين، فخاف صلاح الدين على الديار المصرية، فسيّر إليها ابن أخيه تقّي الدين، ورحل عن الكرك واستصحب أخاه الملك العادل معه، ودخل دمشق.

وكان الملك الظاهر أحبّ أولاد أبيه إليه لما فيه من الخلال الحميدة. ولم يأخذ منه حلب إلاّ لمصلحة رآها في ذلك الوقت.

ثمّ إن صلاح الدين رأى عود الملك العادل إلى مصر وعود الملك الظاهر إلى حلب أصلح ـ وكانت بيد أخيه ـ فأعطاها ابنه الملك الظاهر، ونزل صلاح الدين على الموصل وحاصرها ثلاث مرّات، فلم يقدر على أخذها، وتردّدت الرسل بينه وبين صاحبها، ثم مرض صلاح الدين فسار إلى حرّان، فلحقته الرسل بالإجابة إلى ما طلب، وتمّ الصلح على أن يسّلم إليه صاحب الموصل شَهْرَزور وأعمالها وما وراء الفرات من الأعمال، وأن يخطب له على المنابر، وينقش اسمه على السكّة. فلما حلفا أرسل صلاح الدين نوّابه فتسلّموا البلاد التي وقع الصلح عليها، وطال مرضه حتّى أيسوا منه، فحلف الناس لأولاده ـ وكان عنده منهم الملك العزيز ـ وجاء أخوه العادل من حلب ـ وهو ملكها يومئذ ـ وجعله وصيّاً على الجميع، وأوصى لكلّ واحد منهم بشيء من البلاد، وكان عنده أيضاً ابن عمّه ناصر الدين،

فأقطعه حمص والرَّحْبَة، وسلّم السلطان صلاح الدين ولده الملك العزيز إلى الملك العادل، وجعله أتابكه(١).

ثم كانت وقعة حطين المباركة على المسلمين في رابع شهر ربيع الآخر ـ سنة ثلاث وثمانين وخمس مائة في يوم الجمعة، وكان كثيراً ما يقصد لقاء العدّو في يوم الجمعة عند الصلاة تبرّكاً بدعاء المسلمين والخطباء على المنابر، وسار حتّى نزل على بحيرة الطبريّة(٢) ـ على سفح الجبل ـ ينتظر قصد الفرنج له، فلم يتحرّكوا ولا خرجوا عن منازلهم، فلما رآهم لا يتحرّكون ترك جريده على طبريّة، وترك الأطلاب على حالها قبالة العدّو، ونازل طَبَريّة(٣) وهجمها، فأخذها في ساعة واحدة، وانتهت الناس بابها، وأخذوا في النهب والقتل والسبي والحرق، وبقيت القلعة محمّية بمن فيها.

ولما بلغ العدّو ما جرى على طبريّة قلقوا لذلك، ورحلوا نحوها، وبلغ السلطان ذلك فترك على طبريّة من يحاصرها، ولحق بالعسكر فالتقى العدّو على سفح طبريّة، وحال الليل بين العسكرين، فناما على مصافّهما ليلة الجمعة إلى بكرة يومها، واستمرت نار الحرب، واشتدّ الأمر وضاق الخناق بالعدّو، وهم سائرون كأنهم يساقون إلى الموت، وهم ينظرون قد أيقنوا بالويل والثبور، وأنّهم في غدهم من زوّار القبور، ولم تزل الحرب تضطّرم والفارس مع قرنه يضطّرم، ولم يبق إلا الظفر ووقوع الوبال على من كفر، حتّى حال بينهم الليل بظلامه، وبات كلّ واحد من الفريقين بمقامه إلى صبيحة يوم السبت، وتحقّق المسلمون أنّ من ورائهم الأردن، ومن بين أيديهم بلاد العدّو، وأنهم لا ينجيهم إلا الاجتهاد في الجهاد، فحملوا بأجمعهم عليه وصاحوا صيحة رجل واحد، فألقى الله الرعب في قلوب الكافرين، وكان حقّاً علينا نصر المؤمنين. وأحاط المسلمون بالكافرين من كلّ جانب، وأطلقوا فيهم السهام، وحكّموا فيهم السيوف القواضب، وأشعلوا حولهم النيران، وصدقوا فيهم الضرب والطعّان، وضاق بهم الأمر حتّى كادوا يستسلمون خوفاً من القتل، فأسر

---

(١) أتابك: يتألف هذا اللقب من لفظين وهما: أتا: بمعنى أب، بك: بمعنى أمير. وأصله أن السلاطين السلاجقة منذ أيام ملكشاه بن ألب أرسلان كانوا يطلقون لفظ أتابك على كبير أمرائهم، يولونه الوصاية والرعاية من بعدهم على سلطان أو أمير قاصر صغير ـ وكثيراً ما يتزوج الأتابك من أم الموصى به، فتصبح العلاقة بين السلطان وصيه شبه أبوية، ثم أطلق هذا اللقب في أيام المماليك بمصر على مقدم العساكر أو القائد العام على اعتبار أنه أبو العساكر والأمراء جميعاً، وكان يسمى أتابك العساكر. الأعلاق الخطيرة لابن شداد ٣/ ٢/ ٨٧٧.

(٢) بحيرة طبريّة: وتقع شمال شرقي فلسطين ـ على الحدود السورية الفلسطينية.

(٣) طبرية: بليدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية، وهي من أعمال الأردن في طرف الغور، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام وكذلك بينها وبين القدس. معجم البلدان.

مقدّمهم[١] وقتل الباقون.

وقال بعض الرواة: حكى لي من أثق به أنه رأى بحوران شخصاً واحداً معه نيّف وثلاثون أسيراً قد ربطهم بطنب خيمة لما وقع عليهم من الخذلان، ثم رحل السلطان إلى عكّا فأخذها، واستنقذ من كان بها من أسرى المسلمين، فكانوا أكثر من أربعة آلاف، واستولى على ما فيها من الأموال والذخائر والبضائع، لأنها كانت مظنة التجارة، وتفرّقت العساكر في بلاد الساحل فأخذوا الحصون والقلاع والأماكن المنيعة، فأخذوا نابلس وحيفا[٢] وقِيسَارِية[٣] وصَفُّورِيَة[٤] والناصِرَة[٥]. ولما استقرّت قواعد عكّا وقسّمت أموالها صار يشنّ الغارة ويأخذ بلداً بعد بلد، فأخذ صيدا وعَسْقلان ـ والرَّمْلة والدَّارُوم[٦] والأماكن المحيطة بالقدس، ثم شمّر عن ساق الجدّ والاجتهاد في قصد القدس المبارك، واجتمعت إليه العساكر التي كانت متفرّقة في الساحل، فسار نحوه معتمداً على الله مفوضّاً أمره إليه، ومنتهزاً الفرصة في فتح باب الخير الذي حثّ الله على انتهازه على لسان نبيه ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ لقوله: «**من فُتح له باب خير فلينتهزْه، فإنّه لا يعلم متى يُغلق دونه**». وكان نزوله بالجانب الغربّي، وكان مشحوناً بالمقاتلة من الخيّالة والرجّالة، وحزر أهل الخبرة من كان فيه من المقاتلة، فكانوا يزيدون على ستّين ألفاً خارجاً عن النساء والصبيان، ثم انتقل لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالي في يوم الجمعة العشرين من رجب، ونصب المجانيق، وضايق البلد بالزحف والقتال، حتّى أخذ النقب في السور ممّا يلي وادي جهنّم.

ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الأمر الذي لا مدفع له عنهم، وظهرت لهم أمارات الفتح وظهور المسلمين عليهم، وكانوا قد اشتد روعهم لما جرى على أبطالهم وحماتهم من القتل والأسر، وعلى حصونهم من التخريب والهدم، وتحقّقوا أنّهم صائرون إلى ما صار أولئك إليه، فاستكانوا وأخلدوا إلى طلب الأمان، وحصل الاتفّاق عليه بالمراسلة من الطائفتين، وكان تسلّم المسلمين القدس المبارك في يوم الجمعة الميمون السابع والعشرين من رجب المعظّم ـ وليلته كانت ليلة المعراج على المشهور من الأقوال ـ، وكان فتحه عظيماً

---

(١) في الكامل لابن الأثير: وأسروهم عن بكرة أبيهم وفيهم الملك وأخوه الرئيس أرناط صاحب الكرك ١٧٨/٩.

(٢) حيفا: حصن على ساحل بحر الشام قرب يافا. معجم البلدان.

(٣) قيسارية: بلد على ساحل بحر الشام تعدّ في أعمال فلسطين، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام. معجم البلدان.

(٤) صفورية: كورة وبلدة من نواحي الأردن والشام وهي قرب بحير طبريّة. معجم البلدان.

(٥) الناصرة: قرية بينها وبين طبريّة ثلاثة عشر ميلاً، كان فيها مولد المسيح. معجم البلدان.

(٦) الداروم: قلعة بعد غزّة للقاصد إلى مصر. معجم البلدان.

شهده الأولياء والعلماء وخلق، وقصده أهل الخير من البلدان القريبة والبعيدة، وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير، وصلّيت فيه الجمعة يوم فتحه، وتكسرّ الصليب التي كانت على قبّة الصخرة، وكان شكلاً عظيماً، ونصر الله المسلمين على يدي صلاح الدين نصراً عزيزاً. وكان الفرنج قد استولوا عليه سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة، ولم يزل بأيديهم حتى استنقذه منهم السلطان صلاح الدين في التاريخ المذكور.

وكانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كلّ رجل عشرين ديناراً، وعن كلّ امرأة خمسة دنانير صوريّة، وعن كلّ صغير ذكراً وأنثى ديناراً واحدا. فمن أحضر قطيعته نجى بنفسه وإلا أخذ أسيراً، وأخرج - عن كلّ من كان بالقدس من أسارى المسلمين، وكانوا خلقاً، وأقام به يجمع الأموال ويفرّقها على الأمراء والرجال، ويحبوها الفقهاء والعلماء والزاهدين والوافدين عليه، وقد تقدّم بإيصال من قام بقطيعته إلى مأمنه، وهي مدينة عظيمة، ولم يرحل عنه ومعه من المال الذي جيء له شيء، وكان يقارب مائتي ألف ألف دينار وعشرين ألفاً.

ولما فتح القدس حسن عنده قصد صُوْر، وعلم أنه إن أخّر أمرها ربّما عسر عليها. فسار نحوها حتى أتى عكّا، فنزل عليها. ونظر في أمورها، ثم رحل عنها متوجّهاً الى صور، فنزل قريباً منها، وأرسل بإحضار آلات القتال، فلمّا تكاملت عنده نزل عليها، وقاتلها وضايقها في البرّ والبحر، ثم أسروا من المسلمين المقدّم الرئيس[١] وخمس قطع من المسلمين، وقتلوا خلقاً كثيراً من رجال المسلمين، فعظم ذلك على السلطان وضاق صدره - وكان الشتاء قد هجم وتراكمت الأمطار - وامتنع الناس من القتال لكثرة الامطار فجمع الأمراء واستشارهم فيما يفعل، فأشاروا عليه بالرحيل ليستريح الرجال، ويتجمّعوا للقتال. فرحلوا عنها وجمعوا من آلات الحصار ما أمكن وأحرقوا الباقي الذي عجزوا عن حمله.

ثم خرج السلطان صلاح الدين وسار إلى بلاد العدو، ومعه عماد الدين صاحب سنجار، ومظفّر الدين بن زين الدين، وعسكر الموصل قاصدين خدمته والغزاة معه، فسار نحو حصن الأكراد[٢]، ودخل بلاد العدوّ حتّى وصل إلى طَرْطوس[٣]، فوقف قبالتها ينظر إليها، والعساكر محدقة بها من البحر إلى البحر، وهي مدينة لها برجان كالقلعتين، فركبوا

---

(١) في الكامل لابن الأثير: وكان مقدمهم عبد السلام المغربي ١٨٦/٩.

(٢) حصن الأكراد: حصن منيع على الجبل الذي يقابل حمص من جهة الغرب، بينه وبين حمص يوم واحد. معجم البلدان.

(٣) طرطوس: في الكامل لابن الأثير: فسار صلاح الدين معه رابع جمادى الأولى فنزل بأنطرطوس سادسه ١٩٠/٩.

وفي معجم البلدان: طرطوس بلد بالشام مشرفة على البحر. وتقع جنوب مدينة اللاذقيّة.

وقاربوا البلد، وزحفوا واشتدّ القتال وباعثوها، وصعد المسلمون سورها، وأخذوها بالسيف، وغنموا جميع من بها وما فيها، وأحرقوا البلد.

ثم سار يريد جَبَلة[1]، فما استتّم نزول العسكر حتّى أخذوها، وقوتل في القلعة قتالاً شديداً، ثم سلّمت بالأمان. ثم لم يزل يأخذ بلداً بعد بلد، وقلعة بعد قلعة، ويقتل ويأسر ويغنم حتّى بلغ إلى برزيّة[2] ـ وهي من الحصون المنيعة في غاية القوّة يضرب بها المثل في بلاد الفرنج، تحيط بها أودية من جميع جوانبها، وعلوّها خمس مائة ونيّف وسبعون ذراعاً، فأخذها عنوة، ثم كذلك بلداً بعد بلد حتّى قرب من أنطاكية، فراسله أهلها في طلب الصلح فصالحهم لشدّة ضجر العسكر، وكان الصلح معهم إلى سبعة أشهر على أن يطلقوا كلّ أسير عندهم، فإن جاءهم من ينصرهم وإلا سلّموا البلد.

ثم رحل السلطان، فسأله ولده الملك الظاهر ـ صاحب حلب ـ أن يجتاز به، فأجابه إلى ذلك، فوصل حلب وأقام بالقلعة ثلاثة أيّام ـ وولده يقوم بالضيافة حقّ القيام ـ ثم سار من حلب فاعترضه تقّي الدين ـ ابن أخيه ـ وأصعده إلى قلعة حماة، وصنع له طعاماً، وأحضر له سماعاً من جنس سماع الصوفيّة، وبات ليلة واحدة، وأعطاه جَبْلة وبلدة أخرى، ثمّ سار على طريق بعلبك، ودخل دمشق وأقام بها أياماً، ثم سار يريد صَفَد[3]، فنزل عليها، ولم يزل القتال حتّى تسلّمها بالأمان، ثم سلّمت له الكرك، ثم سار إلى كَوْكَب[4]، وضايقوها وقاتلوها مقاتلة شديدة ـ والأمطار متواترة، والوحول متضاعفة، والرياح عاصفة، والعدو متسلّط لعلوّ مكانه فلما تيّقنوا أنّهم مأخوذون طلبوا الأمان، فأجابهم إليه وتسلّمها منهم. ثم نزل إلى الغوْر[5]، وأقام بالمخيم مدّة الأيام، وأعطى الجماعة دستوراً، وسار مع أخيه العادل يريد زيارة القدس ووداع أخيه في توجّهه إلى مصر، فدخل القدس، وصلّى بها عيد الأضحى، وتوجه إلى عَسْقلان لينظر في أمورها، وأخذها من أخيه العادل وعوّضه عنها الكرك، ثم مرّ على بلاد الساحل يتفقّد أحوالها، ثم دخل عكّا فأقام بها معظم المحرّم يصلح أحوالها، وأمر بعمارة سورها، ثم سار إلى دمشق فأقام بها شهر ربيع الأول ثم خرج إلى

---

(١) جبلة: قلعة مشهورة بساحل الشام قرب اللاذقية. معجم البلدان.
(٢) برزية: في معجم البلدان: بَرْزُوَيْة: حصن قرب السواحل الشامية على سنّ جبل شاهق، فتحها صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٨٤ هـ.
(٣) صفد: مدينة في جبال عاملة المطّلة على حمص بالشام، وهي من جبال لبنان. معجم البلدان.
(٤) كوكب: اسم قلعة على الجبل المطلّ على مدينة طبرية تشرف على الأردن. معجم البلدان.
(٥) الغَوْر: غور الأردن بالشام بين البيت المقدس ودمشق، وهو منخفض عن أرض البيت المقدس، طوله مسيرة ثلاثة أيام وعرضه نحو يوم، يجري فيه نهر الأردن. معجم البلدان.

شَقِيف[١] ـ وهي في موضع حصين ـ فخيّم في مَرْج عيون[٢] بالقرب منه، وأقام أياماً يباشر قتاله ـ والعساكر تتواصل إليه ـ فلمّا تحقّق صاحب شقيف أنّه لا طاقة له به نزل إليه بنفسه، فلم يعشر به إلاّ وهو قائم على باب خيمته، فأذن له في دخوله إليه، وأكرمه واحترمه، وكان من أكابر الفرنج وعقلائهم، وكان يعرف بالعربيّة وعنده الاطّلاع على شيء من التواريخ والأحاديث، وكان حسن التأنّي لما حضر بين يدي السلطان، وأكل معه الطعام وخلابه، ذكر أنّه مملوكه وتحت طاعته، وأنّه يسلّم إليه المكان من غير تعب، واشترط أن يعطى موضعاً يسكنه بدمشق، وإقطاعاً فيها يقوم به وبأهله، وشروط غير ذلك، فأجابه إلى مرامه.

وفي أثناء شهر ربيع الأول وصله الخبر بتسليم الشَّوْبك، وكان قد أقام عليه جمعاً يحاصرونه مدّة سنة كاملة إلى أن نفد زاد من كان فيه، وسلّموه بالأمان. ثمّ ظهر للسلطان بعد ذلك أنّ جميع ما قاله صاحب شقيف كان خديعة، فراسلهم عليه ثم بلغه أنّ الفرنج قصدوا عكّا ونزلوا عليها، فسيَّر صاحب شقيف إلى دمشق بعد الإهانة الشديدة، وأتى عكّا ودخلها بغتة لتقوي قلوب من بها، ثم استدعى العسكر من كلّ ناحية ، ثم تكاثر الفرنج، واستفحل أمرهم وأحاطوا بعكّا، ومنعوا من يدخل إليها ويخرج، فضاق صدر السلطان لذلك، ثمّ اجتهدوا في فتح طريق إليها لتستمرّ المسايلة بالمسيرة والنجدة، وسار الأمراء فاتّفقوا على مضايقة العدّو لينفتح الطريق، ففعلوا ذلك وانفتح الطريق، وسلكه المسلمون ودخل السلطان عكّا، فأشرف على أمورها، ثم جرى بين الفريقين مناوشات في عدّة أيام، ثم جرت وقعات لا حاجة للتطويل بذكرها، وقيل للسلطان: إنّ الوخم قد عظم بمرج عكّا، فإنّ الموت قد نشأ بين الطائفتين، فأنشده:

اقتـــــلانــــي ومــــالكـــــاً وإقتـــلا مــــالكـــاً معـــــي

يريد بذلك أنّه قد رضي أن يتلف إذا أتلف الله أعداءه. قيل: وهذا البيت له سبب، وذلك أنّ مالك بن الحارث المعروف بالأشتر النخعي تماسك هو وعبدالله بن الزبير يوم الجمل، وكلّ واحد منهما من الأبطال المشهورين، وكان ابن الزبير مع خالته عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ والأشتر مع علي ـ رضي الله عنه ـ وكان كلّ واحد منهما إذا قوي على صاحبه جعله تحته، وفعلا ذلك مراراً وابن الزبير ينشد البيت المذكور، وقيل إن الأشتر دخل على عائشة ـ رضي الله تعالى عنها ـ بعد وقعة الجمل فقالت: يا أشتر، أنت الذي أردت قتل ابن أختي يوم الوقعة. فأنشدها:

---

(١) شقيف: شيقف أرنوم ـ كما جاءت عند ابن الأثير ـ وشقيف أرنون ـ كما جاءت في معجم البلدان ـ: قلعة حصينة جداً في كهف من الجبل قرب بانياس من أرض دمشق بينها وبين الساحل.

(٢) مرجعيون: بسواحل الشام. معجم البلدن/ بلدة جنوب لبنان في سهل البقاع قرب نهر العاصي.

أعـايـش؛ لـولا أننـي كنـت طـاويـاً ثـلاثـاً لألقيـتِ ابـن أختـكِ هـالِكـا
غـداة ينـادي والـرمـاح تنـوشـه بـآخـر صـوت اقتلـونـي ومـالكـا
فنجّـاه منّـي أكلـه وشبـابـه وخلـوة جـوف لـم يكـن متمـاسكـا

وقيل إنّ عائشة رضي الله تعالى عنها أعطت البشارة على سلامة ابن الزبير من الأشتر عشرة آلاف درهم، وانّ ابن الزبير قال: لاقيت الأشتر النخعيّ، وما ضربته ضربة إلاّ ضربني ستّاً أو سبعاً. والله أعلم.

رجعنا إلى ما كنّا فيه. ثمّ إن الفرنج جاءتهم الأمداد من البحر، واستظهروا على المسلمين بعكّا، فضاق المسلمون من ذلك، وعزموا على صلح الفرنج بأن يسلّموا البلد وجميع ما فيه من الآلات والعدّة والأسلحة والمراكب ومائتي ألف دينار وخمس مائة أسير مجاهيل ومائة أسير معيّنين من جهتهم، ويخرجوا بأنفسهم وما معهم سالمين من الأموال والأقمشة مختصّة بهم، وذراريهم ونسائهم، وكتبوا بذلك كتباً فلمّا علم السلطان أنكره إنكاراً عظيماً، وعظم عليه هذا الأمر وعزم على أن يكتب إليهم في الإنكار عليهم المصالحة على هذا الوجه، وبقي متردّداً في هذا، فلم يشعر إلاّ وقد ارتفعت أعلام العدّو وصلبانه وناره وشعاره على سور البلد، وصاح الفرنج صيحة واحدة، وعظمت المصيبة على المسلمين واشتدّ حربهم، ووقع فيهم الصياح والعويل والبكاء والنحيب.

وذكر بعضهم أنّ الفرنج خرجوا من عكّا قاصدين عَسْقَلان ليأخذوها، وساروا على الساحل ـ والسلطان وعساكره قبالتهم، وكان بينهم قتال عظيم، ونال المسلمين منه وهن شديد ـ فاستشار السلطان أرباب مشورته في خراب عَسْقَلان خوفاً من أن يصل العدّو إليها ويستولي عليها وهي عامرة، ويأخذ بها القدس، وينقطع بها طريق مصر، فاتفّق رأيهم على ذلك، فشرع في خرابها، فلحق الناس من خرابها حزن عظيم، واشتدّ على أهل البلد ذلك، وعظم فراق أوطانهم، وشرعوا في بيع ما لا يقدورن على حمله، فباعوا ما يساوي عشرة دراهم بدرهم، وباعوا اثني عشر طير دجاج بدرهم واحد، واختبط البلد وخرج الناس بأهلهم وأولادهم إلى المخيّم، وتشتتّوا، فذهب بعضهم إلى مصر وبعضهم إلى الشام وجرت عليهم أمور عظيمة.

ثم وصل خبر من جانب الملك العادل أنّ الفرنج قد تحدّثوا معه في الصلح، وطلبوا جميع البلاد الساحلية، فرأى السلطان أنّ ذلك مصلحة لما علم ما في النفوس من الضجر، وكثرة ما هم عليهم من الديون. وكتب إليه بالإذن بذلك وتفويض الأمر إلى رأيه، وحثّ الناس على العجلة في الخراب المذكور خوفاً من هجوم الفرنج، وأمر بإحراق البلد، فأضرمت النيران في بيوته، وكان سورها عظيماً، ولم يزل الحريق يعمل في البلد من عشرين

في شعبان إلى سلخه، وأمر ولده الملك الأفضل أن يباشر ذلك بنفسه وخواصّه.

قال بعض الرواة: ولقد رأيته يحمل الخشب بنفسه للإحراق، ثم خرج إلى اللدُّ[١] وأمر بإخرابها وإخراب القلعة التي بالرَّمْلَة[٢]، ففعل ذلك، والتمس بعض أكابر ملوك الفرنج أن يجتمع بالسلطان صلاح الدين بعدما اجتمع بأخيه الملك العادل، فاستشار صلاح الدين أصحابه من أكابر دولته في ذلك، فوقع الاتفّاق على أن ذلك يكون بعد الصلح، ثم قال السلطان صلاح الدين: متى صالحنا هم لم نأمن غائلتهم، ولو حدث لي حادث الموت ما كانت تجتمع هذه العساكر وتقوى على الفرنج، والمصلحة أن لا نزول عن الجهاد حتّى نخرجهم من الساحل، أو يأتينا الموت.

ثم تردّدت الرسل بينهم في الصلح، وجرت وقعات كثيرة، ثم وقع الصلح بينهم، ثم أعطى العساكر الواردة عليه المنحدرة من البلاد البعيدة الدستور، فساروا عنه، وعزم على الحجّ لما فرغ باله من هذه الجهة، وتردّد المسلمون إلى بلاد الفرنج، وجاؤوهم الى بلاد المسلمين، وحملت البضائع والمتاجر إلى البلدان، وحضر منهم خلق كثير لزيارة القدس، وتوجّه السلطان إلى القدس، وأخوه الملك العادل إلى الكرك وابنه الملك الظاهر إلى حلب، وابنه الملك الأفضل إلى دمشق، وأقام هو في القدس يقطع الناس ويعطيهم دستوراً، ويتأهب إلى المسير إلى الديار المصرية وانقطع عزمه عن الحجّ، ثم قوي عزمه على أن يدخل الساحل جريدة ويتفقّد القلاع ويدخل دمشق ويقيم بها أياماً، ويعود إلى القدس ومنه الى الديار المصرية.

وقال ابن خلّكان: قال شيخنا ابن شدّاد: وأمرني بالمقام في القدس إلى حين عوده لعمارة مارستان أنشأه به وتكميل المدرسة التي انشأها، فلّما فرغ من افتقاده أحوال القلاع دخل دمشق وفيها أولاده: الملك الأفضل والملك الظاهر والملك الظافر مظفّر الدين وأولاده الصغار، وجلس للناس يوم الخميس السابع والعشرين من شوّال سنة ثمان وثمانين وخمس مائة، وحضروا عنده وبلّوا شوقهم منه، وأنشد الشعراء فلم يتخلّف منه أحد من الخاصّ والعامّ، وأقام بنشر جناح عدله وبهطل سحاب إنعامه وفضله، ويكشف عن مظالم الرعاياء. عمل الملك الأفضل دعوة للملك الظاهر أظهر فيها من الهمم المالية ما يليق بهمّته، وسأل السلطان الحضور فحضر عند الغلبة، وكان يوماً مشهوداً. وسار الملك العادل فوصل إلى دمشق، فخرج السلطان إلى لقائه، وأقام يتصيّده وأخوه وأولاده، ويتفرّجون في أراضي دمشق ومواطن الظباء ـ وكان ذلك كالوداع لأولاده ومراتع نزهه ـ ونسي عزمه إلى مصر،

---

(١) اللدّ: قرية قرب بيت المقدس من نواحي فلسطين. معجم البلدان.

(٢) الرملة مدينة بفلسطين تقع بين القدس ويافا.

وركب يوم الجمعة الخامس عشر صفر ليلقى الحاجّ، وكان ذلك آخر ركوبه.

ولمّا كانت ليلة السبت وجد كسلاً عظيماً، غشيته الحمّى في أثناء الليل، ولم يظهر ذلك للناس وأثرها ظاهر عليه، ثم أخذ المرض يتزايد إلى أن توفّي بعد صلاة الصبح للسابع والعشرين من شهر صفر من السنة المذكورة[1] في أوّل ترجمته. وكان يوم موته يوماً لم يُصب الإسلام والمسلمون بمثله بعد الخلفاء الراشدين، وغشي القلعة والملك والدنيا وحشة عظيمة، ودفن بمقابر الشهداء بالباب الصغير. ولمّا أخرج تابوته ارتفعت الأصوات عند مشاهدته، وعظم الضجيج، وأخذ الناس في البكاء والعويل، وصلّوا عليه إرسالاً، ثم أعيد إلى الدار التي في البستان، ودفن في الصفّة الغربيّة منها على ما ذكره بعض المؤرّخين وذكر بعضهم أنّه بقي مدفوناً بقلعة دمشق إلى أن بنيت له قبّة شمالية الكلاسة التي هي شمالي جامع دمشق، فنقل إليها في يوم عاشوراء ـ كان يوم الخميس من سنة اثنتين وتسعين وخمس مائة ـ ورتّب عنده القرّاء ومن يخدم المكان وأنشد في آخر سيرته بيت أبي تمام.

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

تغمّده الله تعالى برحمته، كان من محاسن الدنيا وغرائبها. ومن مصالح الأمور الدينية، ودفع نوائبها، وذكر بعضهم أنّه لم يخلف في خزائنه ذهباً ولا فضّة سوى سبعة وأربعين درهماً مصرّية وخرصاً واحداً من الذهب صوريّاً، ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا مزرعة ولا بستاناً.

وفي ساعة موته كتب القاضي الفاضل إلى ولده الملك الظاهر صاحب حلب بطاقة مضمونها رسالة بديعة مشتملة على معانٍ رفيعة مع الإيجاز الفائق والنطق الرائق، في حالة يذهل فيها الإنسان عن نفسه، والخطب الذي صيّر الضرغام في رمْسِه، وهي: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، إنّ زلزلة الساعة شيء عظيم، كتبت إلى مولانا السلطان الملك الظاهر أحسن الله عزاه وجبر مصابه وجعل فيه الخلف ـ في الساعة المذكورة، وقد زلزل المسلمون زلزالاً شديداً، وقد حفرت الدموع المحاجر، وبلغت القلوب الخناجر، وقد ودّعت أباك ومخدومي وداعاً لا تلاقي بعده، وقد قبّلت وجهه عنّي وعنك، وأسلمته إلى الله تعالى مغلوب الحيلة ضعيف القوّة راضياً عن الله تعالى، ولا حول ولا قوّة إلا بالله، وبالباب من الجنود المجنّدة والأسلحة المغمدة ما لا يدفع البلاء ولا يملك ردّ القضاء. ويُدمع العين ويُخشع القلب، ولا نقول إلاّ ما يرضي الربّ، وإنّا عليك يا يوسف لمحزونون. وأما الوصايا فما يحتاج إليها، والآراء فقد شغلني المصاب عنها، وأمّا لائح الأمر فإنّه إن وقع

(١) أي سنة ٥٨٩ هـ.

اتفّاق فما عدمتم إلا شخصه الكريم، وإن كان غيره فالمصائب المستقبلة أهونها موته وهو الهولِ العظيم ـ والسلام.

وقد تقدّم ذكر أولاده وهم: الأفضل والظاهر والعزيز ـ وهو الملّقب بالظافر فيما تقدَّم ـ ويعرف بالمشمّر لأن أباه لمّا قسم البلاد بين أولاده الكبار قال: وأنا مشِمّر، فغلب عليه هذا اللقب، وتوفي في سنة سبع وعشرين وستمائة بَحرّان عند ابن عمّه الملك الأشرف بن الملك العادل، ولم يكن الأشرف يومئذ ملكاً.

ثم إن ولده الملك العزيز لمّا أخذ دمشق من أخيه الملك الأفضل بنى إلى جانب القبّة المذكورة المدرسة العزيزيّة، ووقف عليها وقفاً جيّداً، ولمّا ملك السلطان صلاْح الدين الديار المصرية عمر بالقَرافة الصغرى المدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعَي ـ رضي الله تعالى عنه ـ. وبنى مدرسة بالقاهرة في جوار المشهد المنسوب إلى الإمام الحسين بن علي ـ رضي الله تعالى عنهما ـ وجعل على ذلك وقفاً جيّداً، وجعل دار سعيد السعداء خادم المصريين خانقاً، ووقف عليها وقفاً طائلاً، وجعل دار عبّاس بن السلار مدرسة للحنفية وعليها وقف جيّد أيضاً والمدرسة التي بمصر المعروفة بزين النجار وقفاً على الشافعية وقفاً جيّداً أيضاً، وله بمصر أيضاً مدرسة للمالكية، وبنى بالقاهرة داخل القصر مارستان، وله وقف جيّد، وله بالقدس مدرسة وقفها كثير خانقة بها.

قلت: وصلاح الدين كاسمه لما فتح من بلاد الكفّار وعمرها بالإسلام، وما له من محاسن الأحكام، وفعل من المعروف في الأوقاف العظيمة ما تضمّن النفع العامّ ـ فالله تعالى يقدّس روحه وينوّر ضريحه ـ مع أنّ أكثر هذه الوقوفات من المدارس وغيرها غير منسوبة إليه في الظاهر، ولا يعرف أنه أنشأها إلاّ من له اطّلاع على علم التواريخ.

قالوا: وكان مع هذه المملكة المتّسعة والسلطنة العضيم والمرتبة المرتفعة كثير التواضع واللطف، قريباً من الناس رحيم القلب، كثير الاحتمال والمداراة، وكان يحّب العلماء وأهل الخير ويحسن إليهم، ويميل إلى الفضائل ويستحسن الأشعار الجيّدة ويرددها في مجالسه، حتّى قيل إنه كان كثيراً ما ينشد قول أبي منصور محمد بن الحسين الحميري، وقيل إنه قول أبي محمد أحمد بن خيران العامري:

وزارنـي طيـف مـن أهـوى علـى حـذر ... مـن الـوشـاة، وداعـي الصبـح قـد هتفـا
فكـدت أوقـظ مـن حـولـي بـه فـرحـاً ... وكـاد يهتـك سـرّ الحـب بـي شغفـا
ثـم انتبهـت، وآمـالـي تخيّـل لـي ... نيـل المنى، فـاستحـالـت غبطتي أسفـا

قيل: وكان يعجبه ايضاً إنشاد أبي الحسن المعروف بابن المنجّم.

وما خضّب الناس البياض لقبحه فأقبح منه حين يظهر ناصله[1]
ولكنّه مات الشباب فسوّدت على الرسم من حزن عليه منازله

فكان يمسك بكريمته وينظر إليها ويقول: إي والله، مات الشباب. وأرسل إليه بعض الشعراء بقصيدتين من بغداد، قال في آخر إحداهما:

يا سلم، إن ضاعت عهودي عندكم فأنا الذي استودعت غير أمينِ
أوعدت مغبوناً فما أنا في الهوى لكم بأوّل عاشق مغبونِ
ومن البليّة أن تكون مطالبي جدوى نخيل أو وفاء خؤونِ
ليت الظنين على المحبّ بوصله أخذ السماحة من صلاح الدين

وممّا قيل فيه لبعض شعراء المشرق.

الله أكبر جاء القوس باريها ورام أسهم دين الله راميها
فكم لمصر على الأمصار من شرف بيوسُفَيْنِ وهل أرض تدانيها؟
فبابنِ يعقوب هزّت جيدها طرباً وبابنِ أيوّب هزّت عِطفهاتيها
قل للملوك تخلي عن ممالكها فقد أتى آخذ الدنيا ومعطيها

فلمّا أنشده إياها أعطاه ألف دينار. ومدحه المهذّب أبوحفص عمر بن محمد المعروف بابن الشُّحْنَة الموصلي الشاعر المشهور بقصيدته التي أوّلها.

سلام مشوق قد يراه التشوّق على خيره الحي الذي يتفرّق

وعدد أبياتها مائة وثلاثة عشر بيتاً، وفيها البيتان السائران اللذان يتمثّل بهما مدّعي الأشجان مع بعد المكان، أحدهما.

وإني امرؤ أحببتكم لمكارم سمعت بها والأذن كالعين تعشق

وهذا البيت أخذه من قول بشار:

يا قوم أذني لبعض الحيّ عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا

والبيت الثاني من قصيدة ابن الشّحنة:

وقالت لي الأيام إن كنت واثقاً بأبناء أيوب فأنت الموفّق

وقد مدحه خلق كثير من الشعراء تغمّده الله تعالى برحمته وأسكنه بحبوحة جنّته.

---

(١) ناضلة: سابقه والمنتصر عليه.

سنة تسعين وخمس مائة

فيها سار بعض ملوك الهند وقصد بلاد الإسلام، فطلبه شهاب الدين[1] صاحب غَزْنَة، فالتقى الجمعان على نهر ماخون[2].

قال ابن الاثير: وكان مع الهندي سبع مائة فيل، ومن العسكر ألف ألف نفس على ما قيل، فصير الفريقان وكان النصر لشهاب الدين الغوري. وكثر القتل في الهنود حتّى جافت منهم الأرض، وأخذ شهاب الدين[3] سبعين فيلاً، وقتل ملكهم، وكان قد شدّ أسنانه بالذهب، فما عرف إلا بذلك، وكان أكبر ملوك الهند. ودخل بلاده شهاب الدين وأخذ من خزائنه ألف حمل وأربع مائة حمل، وعاد إلى غزنة، ومن جملة الفيلة فيل أبيض.

وفيها توفّي الفقيه العّلامة الشافعي القزويني الواعظ أبو الخير أحمد بن اسماعيل الطالقاني. قدم بغداد ودرّس بالنظامية، وكان إماماً في المذهب والخلاف والأصول والوعظ. وروى كتباً وكباراً، ونفق كلامه بحسن سمته وحلاوة منطقه وكثرة محفوظاته، وكان صاحب قدم راسخ في العبادة، كبير الشأن عديم النظير. رجع إلى قَزْوِين[4] سنة ثمانين، ولزم العبادة إلى أن مات في محّرم السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

وفيها توفّي الإمام المقرىء أحد الأعلام أبو محمد القاسم بنِ فُيَّرة بن خلف الرُعَيْني الشاطبي الضرير، صاحب القصيدة المشهورة المباركة الموسومة بحرز الأماني ووجه التهاني في القراءات، حقق القراءات على غير واحد من أئمة القرّاء، وسمع الحديث من طائفة من المحدّثين، وكان إماماً وعلاّمة محقّقاً، كثير الفنون واسع الحفظ، نظم القصيدتين اللتّين سارت بهما الرّكبان وخضعت لبراعة نظمهما فحول الشعراء وأئمة القرّاء والبلغاء، وكان ثقة زاهداً ورعاً كبير القدر، نزل القاهرة وتصدّر للإقراء بالمدرسة الفاضلية، وشاع أمره وبعد صيته، وانتهت إليه الرئاسة في الإقراء. وكان عالماً بكتاب الله تعالى قراءة وتفسيراً وبحديث رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وكان إذا قرىء عليه صحيح البخاري ومسلم والموطأ يصحّح النسخ من حفظ، ويملي النكت على المواضع المحتاج إليها، وكان أوحد في علم النحو واللغة، عارفاً بعلم الرؤيا، حسن المقاصد، مخلصاً فيما يقول ويفعل، ولا يجلس

---

(١) شهاب الدين الغوري. انظر تاريخ ابن الأثير ٩/ ٢٢٩.
(٢) جاء في المصدر السابق: فالتقى العسكران على ماخون وهو نهر كبير يقارب دجلة بالموصل.
(٣) في المصدر السابق أيضاً: تسعين فيلاً.
(٤) قزوين: في معجم البلدان: مدينة مشهورة بينها وبين الري سبعة وعشرون فرسخاً. مدينة في شمال غرب إيران.

للإقراء إلا على طهارة في هيئة حسنة، وتخّشع واستكانة، وكان يعتلّ العلّة الشديدة فلا يشتكي ولا يتأوّه، وإذا سئل عن حاله قال: العافية. لا يزيد على ذلك.

وقال بعض اصحابه: كان الشيخ كثيراً ما ينشد هذا اللغز في نعش الموتى، وهو في ديوان الخطيب يحيى بن سلامة الخصلفي ـ بالخاء المعجمة والصّاد المهملة والفاء بين اللام وياء النسبة.

أتعرف شيئاً في السماء نظيره إذا صار سار الناس حيث يسير
فتلقاه مركوباً وتلقاه راكباً وكلّ أمير يعتر به أسير
يحضّ على التقوى ويكره قربه وتنفر منه النفس وهو نذير
ولم يسترد عن غربة في زيارة ولكن على رغم المزور يزور

وكانت ولادته في آخر سنة ثمان وثلاثين وخمس مائة وخطب ببلده وهو فتى، ودخل مصر سنة اثنتين وسبعين وخمس مائة، وكان يقال إنه يحفظ عند دخوله إليها وقر بعير من العلوم، وكان نزيل القاضي الفاضل،رأيته بمدرسة بالقاهرة مصدراً لإقراء القرآن الكريم والنحو واللغة إلى أن توفّي، فدفن في تربة قاضي المذكور بالقَرَافة الصغرى.

وفِيْرة بكسر الفاء وسكون المثناة من تحت وتشديد الراء (والرُّعَيْني) بضم الراء وفتح العين المهملة وسكون المثناة من تحت وبعدها نون ثم ياء النسبة: نسبة إلى ذي رُعَيْن: وهذا جدّ قبائل اليمن، نسب إليه خلق كثير، ومن جملتهم يافع جدّ قبيلتنا الكبير الشهيرة. والشاطبي ـ نسبة الى شاطبة مدينة كبيرة بشرق الأندلس، خرج منها جماعة من العلماء، وقيل أبو القاسم هو اسم الشاطبي، وكنيته اسمه، والصحيح ما تقدّم.

وفي السنة المذكورة توفي أبو شجاع محمد بن علي المعروف بابن الدهّان البغدادي الفرضي الحاجب[1] الأديب. له أوضاع بالجداول في الفرائض وغيرها، وصنف غريب الحديث في ستة عشر مجلّداً الطافاً، رمز فيها حروفاً يستدلّ بها على اماكن الكلمات المطلوبة منه. وكان قلمه أبلغ من لسانه، وجمع تاريخاً وغير ذلك وله يد طولى في معرفة النجوم وحلّ الأزياج، وله شعر جيّد منه ما كتبه إلى بعض الرؤساء، وقد عوفي من مرضه:

تذر الناس يوم برئك صُوّماً غير أنّي نذرت وحدي فطرا
عالماً أنّ يوم برئك عيد لا أرى صومه ولو كان نذرا

وفيها توفي الحافظ أبو عبدالله محمد بن ابراهيم الانصاري المالقي، صاحب الإمام

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي: ابن برهان الحاسب: محمد بن علي بن شعيب فخر الدين أبو الشجاع ابن الدهان الفرضي الأديب الحاسب.

ابن العربي كان إماماً معروفاً يسرد المتون والأسانيد عارفاً بالرجال واللغة ورعاً جليل القدر، طلبه من السلطان ليسمع بمراكش، فمات بها.

وفيها توفي الشيخ الكبير قدوة العارفين وأستاذ المحققين، صاحب الكرامات الخارقة والانفاس الصادقة، والمقامات العلّية والأحوال السنيّة، والهمم السامية والبركات النامية، والمعارف الجليلة والمواهب الجزيلة، والقدم الراسخ والمنهج المحمود، والباع الطويل في التصرّف النافذ في الوجود، والمظهر العظيم والمحلّ الكريم أبو مدين شعيب بن الحسن، وقيل ابن الحسين المغربي ـ قدّس الله روحه ـ أحد أركان هذا الشأن وأجمل الأكابر الأعيان، أظهر الله على يديه عجائب الآيات، ونطقه بفنون الحكم وكشف له الأسرار المغيبات، ورزقه القبول العظيم التام، والهيبة الوافرة في قلوب الأنام، ونشر ذكره في الآفاق وانعقد الإجماع على فضله، واجتمع عنده جمع كثير من الفقهاء والصلحاء، وتخرج به جماعة من أكابر المشايخ الأصفياء، مثل الشيخ أبي محمد عبد الرحيم القنادي، والشيخ أبي عبد الله القرشي، والشيخ أبي محمد عبدالله الفارسي، والشيخ أبي محمد صاحب الدكالي، والشيخ أبي غانم سالم، والشيخ أبي علي واضح، والشيخ أبي الصبر أيوب المكناسي، والشيخ أبي محمد عبد الواحد، والشيخ أبي الربيع المظفري، والشيخ أبي زيدين هبة الله وغيرهم من العلماء. وتلمذ له خلق كثير من أهل الطريق، وقال بارادته جمّ غفير من أصحاب الأحوال، وانتهى إليه عالم عظيم من الصلحاء وتأدّب بين يديه المشايخ والعلماء، وله كلام نفيس على لسان أهل الحقائق، وكرامات عظام باهرات وخوارق.

فمن كلامه: أغنى الأغنياء من أبدى له الحقّ حقيقة من حقّه، وأفقر الفقراء من ستر الحقّ حقّه عنه ومنه إذا ظهر الحقّ لم يبق معه غيره، وليس للقلب سوى وجهة واحدة، فإلى أيّ جهة توجّه حجب عن غيرها، وإذا سكن الخوف القلب أورثه المراقبة، ومن تحقّق بالعبوديّة نظر أفعاله بعين الرياء وأحواله بعين الدعوى وأقواله بعين الافتراء، وما وصل إلى صريح الحرّية من عليه من نفسه بقيّة.

ومن كراماته ما روي أنه كان يوماً ماراً على الساحل فاعترضه طائفة من الفرنج، وحملوه معهم أسيراً إلى سفينة عظيمة لهم، فلمّا صار فيها إذا جماعة من المسلمين أسارى، فأخذوهم وفيها جعلوهم، فلمّا استقّر الشيخ المذكور فيها مدّوا قلوعها وعزموا على المسير، فلم تذهب بهم السفينة، ولا تحرّكت من مكانها ـ على قوّة الرّيح وشدّة هبوبها وهيجانها ـ فلمّا أيقنوا أنّهم على المسير لا يقدرون، وخافوا أن يدركهم المسلمون قال بعضهم لبعض: هذا بسبب هذا المسلم ولعلّه من أصحاب السرائر ـ يشيرون إلى الشيخ المذكور ـ فعند ذلك أمروه بالنزول فقال: لا أفعل حتّى تطلقوا كلّ من في سفينتكم من المسلمين، فلمّا علموا أن

لا بدّ لهم من ذلك الذي قال فعلوا وسارت بهم السفينة في الحال، ومن شعره:

يا من علا فرأى ما في الغيوب وما ... تحت الثّرى، وظلام الليل منسدل
أنت الغياث لمن ضاقت مذاهبه ... أنت الدليل لمن حارتْ به الحيلُ
إنّا قصدناك والآمال واثقة ... والكلّ يدعوك ملهوف ومبتهلُ
فإن عفوت فذو فضل وذو كرم ... وإن سطوت فأنت الحاكم العَدِلُ

وممّا أنشد بعض العلماء والصلحاء في مدحه من أهل المغرب.

تبدّت لنا اعلام علم الهدى صدقا ... فسار بشمس الدين مغربنا شرقا
وأشرق منها كلّ ما كان آفِلاً ... وأصبح نور السعد قد ملأ الأفقا

صحب الشيخ الكبير العارف بالله الشهير أبا العزّ المغربي، وكمل على يديه، وكان سلطان المغرب في زمانه قد أمر بإشخاصه إليه، فلما وصل إلى تِلِمْسان قال: ما لنا وللسلطان! الليلة نزور الإخوان، ثم نزل واستقبل القبلة وتشهّد وقال: ها قد جئت، ها قد جئت، وعجّلت إليك ربّ لترضى. فمات ودفن في جبّانة العباد، وقد ناهز الثمانين. وقبره بها ظاهر للزائرين، رضي الله عنه وعن سائر الصالحين.

وفي السنة المذكورة توفّي الشيخ الكبير العارف بالله الخبير إمام العارفين: جاكير: صاحب الفتح السنيّ والكشف الجليّ، والكرامات الباهرة والأحوال الفاخرة والمقامات العلية والأنفاس الزكيّة، والتصريف النافذ في العوالم، ومحاسن الأوصاف، وجميل الشيم والمكارم، والمعارف.

كان تاج العارفين ـ رضي الله تعالى عنه ـ يثني عليه وينوّه بذكره وبعث إليه طاقيّته مع الشيخ علي ابن الهيتي، ولم يكلّفه الحضور وقال: سألت الله تعالى أن يكون جاكير من مريديّ، فوهبه لي. وكان رضي الله تعالى عنه يقول: ما أخذت العهد على أحد حتّى رأيت اسمه مرقوماً في اللوح المحفوظ من جملة مريديّ.

وقال أيضاً أوتيت سيفاً ماضي الحدّ، أحد طرفيه بالمشرق والآخر بالمغرب، لو أشير به إلى الجبال الشوامخ لهوت.

وروى الشيخ أبو الحسن علي ابن الشيخ الصالح ابن الشيخ العارف أبي الصبر يعقوب قال: أخبرنا أبي قال: سمعت والدي يقول: كانت نفقة شيخنا الشيخ جاكير بالجيم والمثناة من تحت بين الكاف والراء ـ رضي الله تعالى عنه من الغيب، وكان نافذ التصرّف خارق الفعل متواتر الكشف، يندر له كثير.

وكنت عنده يوماً فمرت به بقرات مع راعيها فأشار إلى إحداهن وقال: هذه حامل

بعجل أحمر أغرّ، صفته كذا، يولد وقت كذا من يوم كذا، وهو نذر لي، ويذبحه الفقراء يوم كذا، ويأكله فلان وفلان، ثم أشار إلى الأخرى وقال: هذه حامل بأنثى، ومن صفتها كذا تولد وقت كذا، وهي نذر لي، ويذبحها فلان رجل من الفقراء يوم كذا، ويأكلها فلان وفلان، ولكلب أحمر فيها رزق. قال: فوالله لقد جرت الحال على ما وصف، ولم يخلّ منها بشيء، ودخل كلب أحمر إلى الزاوية، واختطف قطعة من لحم الأنثى وذهب بها.

ومن كلامه ـ رضي الله تعالى عنه ـ إذا قدحت نار التعظيم مع نور الهيبة في زناد السرّ تولّد منها شعاع المشاهدة، فمن شاهد الحقّ عزّ وجل في سرّه سقط الكون من قلبه. وأصله من الأكراد، سكن صحراء من صحارى العراق بالقرب من قنطرة الرصاص على يوم من سامرّا، ولم يزل مستوطناً بها إلى أن مات بها، وقبره بها ظاهر يزار يؤمّه من البعد الزوّار، قد عمر الناس عنده قرية، رغبةً في مجاورته والتماساً منهم لبركته.

سنة احدى وتسعين وخمس مائة

فيها كانت وقعة الزلاّقة بين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وبين ملك الفرنج، فدخل يعقوب وغدا من زُقاق سَبْتَة في مائة ألف غير المطوّعة، وأقبل الكافر عدو الله في مائتي ألف وأربعين ألفاً فانتصر بحمد الله الإسلام، وانهزم الكلب في عدد يسير، وقتل من الفرنج على ما أرّخ أبو شامة وغيره مائة ألف وستة وأربعون ألفاً، وأسر ثلاثون[1] ألفاً، وغنم المسلمون غنيمة لم يسمع بمثلها، حتّى بيع السيف بنصف درهم، والحصان بخمسة دراهم، والحمار بدرهم، وذلك في تاسع شعبان من السنة المذكورة.

وفيها سار الملك العزيز ولد صلاح الدين من مصر، فنزل بحَوْران ليأخذ دمشق من أخيه الأفضل، فاتخذ الأفضل عمّه العادل، فرجع العزيز، وتبعاه، فدخل القاضي الفاضل في الصلح بينهم، وأقام العادل بمصر.

وفيها توفّي الحافظ القدوة الإمام أحد العُلماء الأعلام أبو محمد عبد الله الأندلسي الزاهد: عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عبيد الله المرسي، سمع فأكثر على أبي الحسن بن مغيث وابن العربي والكبار، وتفنن في العلوم، وبرع في الحديث، وطال عمره، وشاع ذكره، وكان قد سكن سَبْتَة فاستدعاه السلطان إلى مراكش ليسمع.

(١) في الكامل لابن الأثير: وأسر ثلاثة عشر ألفاً. ٩/ ٢٣٣.

سنة اثنتين وتسعين وخمس مائة

فيها قدم العزيز دمشق مرّة ثالثة[١] ومعه عمّه العادل، فحاصرا دمشق، ثم حاصر جند الأفضل عليه، ففتحوا لهما ودخلا في رجب، وزال ملك الأفضل، ورجع العزيز، وبقي العادل بدمشق وخطب بها للعزيز قليلاً.

وفيها توفي الشيخ السديد شيخ الطب بالديار المصرية الملّقب شرف الدين عبدالله بن علي. أخذ الصناعة عن الموفّق بن زربّي ـ بالزاي ثم الراء ثم الموحدة وياء النسبة ـ وخدم العاضد صاحب مصر، ونال الحرمة والجاه العريض، وعمّر دهراً، وأخذ عنه النفيس بن الزبير. وحكي أنه حصل له في يوم ثلاثون ألف دينار، وحكى عنه تلميذه ابن الزّبير أنّه لما ظهر ولدي الحافظ لدين الله حصل له نحو خمسين ألف دينار.

وفيها توفّي الحبر الإمام أبو القاسم محمود بن المبارك الواسطي ثم البغدادي الفقيه الشافعي، أحد الأذكياء المناظرين المشار إليه في زمانه، والمقدّم على أقرانه، درّس بالنظامية، وقم دمشق، بنيت له مدرسة جاروخ ـ بالجيم في أوله والخاء المعجمة في آخره ـ ثم توجّه إلى شيراز وبنى له ملكها مدرسة، ثم أحضره ابن القصّاب وقدّمه.

وفيها توفّي أبو الغنائم محمد بن علي معروف بابن المعلّم[٢] الشاعر المشهور، كان شاعراً رقيق الشعر لطيف الطبع، يكاد شعره يذوب من رقته، وهو أحد من اشتهر شعره وانتشر ذكره، ونبل بالشعر قدره، وحسن به حاله وأمره، وطال في نظمه عمره، وساعده على قبوله دهره، وأكثر القول في الغزل والمدح وفنون المقاصد، وكان سهل الألفاظ صحيح المعاني، يغلب على شعره وصف الشوق والحبّ وذكر الصبابة والغرام، فعلق بالقلوب، ولطف مكانه عند أكثر الناس ومالوا إليه وتحفظوا وتداولوه بينهم، واستشهد به الوعّاظ واستحلاه السامعون.

قال ابن خلّكان: سمعت من جماعة من مشايخ البطائح يقولون: ما سبب لطافة شعر ابن المعلّم؟! ألا أنّه كان إذا نظم قصيدة حفظها الفقراء المنتسبون إلى الشيخ أحمد بن الرفاعي، وغنّوا بها في سماعاتهم، فطابوا عليها، فعادت عليه بركة أنفاسهم. قال: ورأيتهم يعتقدون ذلك اعتقاداً لا شكّ فيه عندهم، قال: وبالجملة، فشعره شبيه النوح، ولا يسمعه من عنده أدنى هوى إلا وهاج غرامه. قال: وكان بينه وبين ابن التعاويذي الشاعر المتقدّم

(١) انظر ذلك في الكامل لابن الأثير: ٩/ ٢٣٥، ٢٣٦.

(٢) في الوافي بالوفيات للصفدي: ابن المعلم: محمد بن علي بن فارس نجم الدين أبو الغنائم بن المعلم الواسطي الهُرْثي، والهرث من قرى واسط، ولد سنة ٥٠١ هـ. ٦/٤/ ١٦٥.

ذكره تنافس، وهجاه ابن التعاويذي بأبيات أجاد فيها. ومن شعر ابن المعلّم:

ردّوا علّي شوارد الأظعان ما الدار إنْ لم تغنِ من أوطاني[١]
ولكم بذاك الجزع من متمتّع هزّت معاطفه بغصن البانِ
أبدى قلوّنه بأول موعد ومن الوفاء لنا بوعد ثانِ
فمتى اللقاء ودونه من قومه أبناء معركة وأسد طعان
تعلو الرماح وما أظنّ أكفّهم خلقت لغير ذوابل المرّان
وتقلّد وابيض السيوف فما ترى في الحي غير مهنّد وسنان
ولئن صددت، فمن مراقبة العدا ما الصدّ عن ملك ولا سلوان
يا ساكني نعمان أين زماننا بطويلع يا ساكني نعمان

وحكي عن ابن المعلّم المذكور أنّه قال: كنت ببغداد فاجتزت يوماً بالموضع الذي يجلس فيه الشيخ أبو الفرج بن الجوزي الواعظ، فرأيت الخلق مزدحمين، فسألت بعضهم عن سبب ازدحامهم فقال: هذا ابن الجوزي الواعظ جالس. ـ ولم أكن علمت بجلوسه ـ فزاحمت وتقدّمت حتّى شاهدته، وسمعت كلامه وهو يعظ حتّى قال مستشهدا على بعض إشاراته؛ ولقد أحسن ابن المعلّم حيث يقول:

يزداد في مسمعي تكرار ذكركم طيباً ويحسن في عيني تكرّره[٢]

فعجبت من اتفّاق حضوري واستشهاده بهذا البيت من شعري، ولم يعلم بحضوري لا هو ولا غيره من الحاضرين.

سنة ثلاث وتسعين وخمس مائة

فيها افتتح العادل يافا، وفيها أخذت الفرنج من المسلمين بيروت، وهرب أميرها الى صيدا[٣].

وفيها توفي سيف الإسلام الملك العزيز طُغتكين بن أيوّب بن شاذي صاحب اليمن. كان أخوه الملك الناصر صلاح الدين لمّا ملك الديار المصريّة قد سيّر أخاه شمس الدولة إلى بلاد اليمن، فدخلها واستولى على كثير من بلادها ثم رجع عنها على ما هو مذكور في ترجمته في سنة ستّ وسبعين وخمسمائة، ثم سيّر السلطان صلاح الدين إليها بعد ذلك أخاه سيف الإسلام، وذلك في سنة سبع وسبعين وخمس مائة وكان رجلاً شجاعاً كريماً مشكور

---

(١) الأظعان: الهودج، أو الزوجة أو المرأة ما دامت في الهودج أو عموماً.
(٢) في الوافي بالوفيات: ٦/ ٤/ ١٦٦: . . . طيباً ويحسن في قلبي مُكرَّرُهُ .
(٣) انظر ذلك في الكامل لابن الأثير. ٩/ ٢٣٧، ٢٣٨.

السيرة وحسن السياسة، مقصوداً من البلاد الشاسعة لاحسانه وبرّه. وكانت وفاة سيف الإسلام بالمَنْصورة مدينة اختطّها باليمن، وتولّى بعده ولده الملك المعزّ فتح الدين اسماعيل الذي سفك الدماء وظلم وعسف وادّعى أنّه أموي. وللمعزّ المذكور صنّف أبو الغنائم مسلم بن محمود الشيرازي كتابه الذي سمّاه: عجائب الأسفار وغرائب الأخبار وأودع فيه من أشعاره وأخبار الناس كثيراً.

وذكر بعضهم أنه مات بالحمراء من بلاد اليمن، وذكر أبو الغنائم في كتابه جمهرة الإسلام ذات النثر والنظم وأنه مات بثغر[١] ودفن بها في المدرسة، ثم قال: وقتل ولده فتح الدين أبو الفداء اسماعيل في رجب سنة ثمان وتسعين بمكان شامي زَبيد، وتولّى مكانه أخوه الملك الناصر أيوّب. وكان أبو الغنائم المذكور أديباً شاعراً، وكان أبوه أبو الثناء محمود نحوّياً متصدّراً الإقراء النحو بجامع دمشق، ذكره الحافظ ابن عساكر، وقال ابن عنين: أنشدني محمود المذكور لنفسه:

يقولون كافات الشتاء كثيرة ... وما هي إلاّ واحد غير مفترى
إذا صحّ الكيس فالكلّ حاصل ... لديك وكلّ الصيد يوجد في القري

وفيها توفي الوزير عبدالله بن يونس البغدادي، تفقّه واشتغل بالأصول والكلام وقرأ القراءات وسمع من أبي الوقت، وصنف كتاباً في الكلام والمقالات، ثم توكّل لأمّ الخليفة، فترقّى وعظم قدره، وولي وزارة الناصر لدين الله.

سنة اربع وتسعين وخمس مائة

فيها استولى علاء الدين خوارزم شاه على بخارى[٢]، وكانت للمعين صاحب الخطا، وجرى له معه حروب وخطوب، ثم انتصر علاء الدين[٣] وقتل خلقاً من الخطا.

وفيها توفّي السيد الكبير أبو علي الحسن بن مسلم[٤]، المشار إليه في العراق في زمانه. ويقال إنّه كان من الأبدال، زاره الخليفة الناصر غير مرّة، وتفقّه وسمع من أبي البدر الكرخي، وكان كثير البكاء دائم المراقبة متبتّلاً في العبادة مشهوراً برفض الدنيا، بلغ التسعين رحمة الله تعالى عليه.

---

(١) ثغر: لم أجد في معجم البلدان موقعاً بهذا الاسم في بلاد اليمن.
(٢) بخارى: من أعظم مدن ما وراء النهر، وبينها وبين جيحون يومان. معجم البلدان.
(٣) انظر ذلك في الكامل لابن الأثير: ٩/٢٤١، ٢٤٢.
(٤) في الكامل لابن الأثير: ٩/٢٤٣: أبو علي الحسن بن مسلم أبي الحسن القادسي الزاهد المقيم ببغداد، والقادسية التي ينسب إليها قرية بنهر عيسى من أعمال بغداد.

وفيها توفّي صاحب سنْجار الملك عماد الدين زنكي بن مودود، تملّك حلب بعد ابن عمّه الصالح اسماعيل، فسار صلاح الدين ونازله، ثم أخذ منه حلب وعوّضه بسنجار، وكان عادلاً متواضعاً، وتملك بعده ابنه قطب الدين محمد.

وفيها توفّي قوام الدين يحيى بن سعيد الواسطي المعروف بابن الزياد[1] صاحب ديوان الإنشاء ببغداد انتهت إليه رئاسة الترسل، مع معرفته بالفقه والأصول والكلام والنحو والشعر، أخذ عن ابن الجواليقي، وحدّث عن القاضي الأرجاني وغيره، وولي نظر واسط، ثم ولي حجابة الحجّاب.

سنة خمس وتسعين وخمس مائة

وفيها بعث الخليفة خلع السلطنة لخوارزم شاه.

وفيها أخرج ابن الجوزي من سجن واسط وتلقّاه الناس، وبقي في المطمورة خمس سنين. كذا ذكر الذهبي، ولم يبيّن لأي سبب سجن. وكنت قد سمعت فيما مضى أنه حبس بسبب الشيخ عبد القادر، بأنه كان ينكر عليه، وكان بينه وبين ابنه عداوة بسبب الإنكار المذكور. وأخبرني من وقف على كتاب له ينكر على قطب الأولياء. وتاج المفاخر الذي خضعت لقدمه رقاب الأكابر الشيخ محيي الدين عبد القادر ـ قدّس الله تعالى روحه ونوّر ضريحه ـ وإنكار ابن الجوزي عليه وعلى غيره من الشيوخ أهل المعارف والنور من جملة الخذلان وتلبيس الشيطان والغرور. والعجب منه في انكاره عليهم وبمحاسنهم يطرّز كلامه فقد ملأت ـ والحمد لله ـ محاسنهم الوجود، فلا مبالاة بذمّ كلّ مغرور وحسود.

قال الذهبي: وفيها فتنة الفخر الرازي صاحب التصانيف. وذلك أنه قدم هَرَاة، ونال إكراماً عظيماً من الدولة، فاشتدّ ذلك على الكراميّة، فاجتمع يوماً هو والقاضي مجد الدين ابن القدوة، فناظرا، ثم استطال فخر الدين على ابن القدوة وشتمه، ونال منه ما خرج فيه إلى الإهانة له. فلمّا كان من الغد جلس ابن عمّ مجد الدين فوعظ الناس وقال: ربنا آمنّا بما أنزلت، واتّبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين، أيّها الناس؛ ما نقول إلاّ ما صحّ عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وأمّا قول أرسطو أو كفريات ابن سينا وفلسفة الفارابي فلا نعلمها، فلأيّ شيء يشتم بالأمس شيخ من شيوخ الإسلام يذبّ عن دين الله؟ وبكى فأبكى الناس، وضجّت الكراميّة وثاروا من كل نّاحية، وحميت الفتنة، فأرسل السلطان الجند وسكّتهم، وأمر الرازي بالخروج. قلت : هكذا ذكر من المؤرخين من له غرض في الطعن

(١) في الكامل لابن الأثير: ٩/٢٤٢: في هذه السنة في ذي الحجة توفي أبو طالب يحيى بن سعيد بن زيادة.

على أئمة الأشعرية. ثم أتبع ذلك بقوله.

وفيها كانت بدمشق فتنة الحافظ عبد الغني. وكان أمّاراً بالمعروف داعية إلى السنّة فقامت عليه الأشعرية وأفتوا بقتله، فأخرج من دمشق مطروداً.

انتهى كلامه بحروفه في القصتين معاً. ومذهب الكرامية والظاهريّة معروف، والكلام عليهما إلى كتب الأصول الدينية مصروف، فهنالك يوضّح الحقّ البراهين القواطع، ويظهر الصواب عند كشف النقاب للمبصر والسامع.

وفيها مات العزيز صاحب مصر أبو الفتح عثمان ابن السلطان صلاح الدين. وكان شآباً ذا كرم وحياء وعفّة. قالوا: وبلغ من كرمه أنّه لم يبق له خزانة، وبلغ من عفّته أنه كان له غلام بألف دينار، فحلّ لباسه، ثم أدركه التوفيق فتركه، وأسرع إلى سريّة له فقضى حاجته منها.

وأقيم ولده علّي، فاختلف الأمراء، وكان بعضهم للأفضل، فسار إلى مصر، ثم سار بالجيوش ليأخذ دمشق من عمّه، فوقع الحصار، ثم دخل الأفضل من باب السلامة، وفرحت به العامّة وحوصرت القلعة مدّة[١]. وفيها صلب بدمشق إنسان[٢] زعم أنّه عيسى ابن مريم، وأضلّ طائفة، فأفتى العلماء بقتله.

وفيها توفّي الإمام العلاّمة أبو الوليد محمد بن أحمد القرطبي المعروف بابن رشد. تفقّه وبرع وسمع الحديث، وأتقن الطبّ، ثم أقبل على الكلام والعلوم الفلسفية حتّى صار يضرب به المثل فيها، وصنّف التصانيف، وكان ذا ذكاء مفرط وملازمة للاشتغال ليلاً ونهاراً. وتآليفه في الفقه والطبّ والمنطق والرياضي والإلهي. وكانت وفاته بمراكش.

وفيها توفّي شيخ الطب وجالينوس العصر محمد بن عبد الملك بن زهر الإيادي الإشبيلي أخذ الصناعة عن أبي العلاء زهير بن عبد الملك، وبرع ونال تقدّماً وحظوة عند السلاطين، وحمل الناس عنه تصانيفه. وكان جواداً ممدّحاً محتشماً كثير العلم قيل: إنه حفظ صحيح البخاري كلّه، وحفظ شعر ذي الرمّة، وبرع في اللغة. توفي بمراكش.

وفيها توفّي العلاّمة يحيى بن علي [٣] البغدادي الشافعي المعروف بابن فضلان. كان

---

(١) انظر وفاة الملك العزيز وملك أخيه الأفضل ديار مصر في الكامل لابن الأثير: ٩/٢٤٣، ٢٤٤.

(٢) في الكامل لابن الأثير: ٩/٢٤٨، ٢٤٩: وفيها ادّعى رجل أعجمي بدمشق أنه عيسى ابن مريم، فأمر الأمير صارم الدين برغش ـ نائب القلعة ـ بصلبه عند حمام العماد الكاتب.

(٣) جاء في الكامل لابن الأثير: ٩/٢٤٩: جمال الدين أبو القاسم يحيى بن علي بن الفضل بن بركة بن فضلان شيخ الشافعية ببغداد.

من أئمة علم الخلاف والجدل مشاراً إليه.

وفيها توفي المنصور أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن صاحب المغرب الملقب بأمير المؤمنين. قد تقدّم ذكر جدّه عبد المؤمن، ولما مات أبوه اجتمع رأي المشايخ الموحّدين وبني عبد المؤمن على تقديمه، فبايعوه وعقد له الولاية ودعوة أمير المؤمنين كأبيه وجدّه، ولقّبوه بالمنصور، فقام بالأمر أحسن قيام، وهو الذي أظهر أئمة ملكهم ورفع راية الجهاد، ونصب ميزان العدل، وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع، ونظر في أمر الدين والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأقام الحدود حتّى في أهله وعشيرته والأقربين، كما أقامها في سائر الناس أجمعين، فاستقامت الأحوال في أحواله وعظمت الفتوحات. ولما مات أبوه كان معه في الصحبة، فباشر تدبيرالمملكة من هناك، فأوّل ما رتّب قواعد بلاد الأندلس، فأصلح شأنها وقرّر المقاتلين في مراكزها، ومهّد مصالحها في مدّة شهرين، وأمر بقراءة البسملة في أوّل الفاتحة في الصلوات، وأرسل بذلك على سائر بلاد الإسلام التي في مملكته فأجاب قوم وامتنع آخرون.

ثم عاد إلى مراكش التي هي كرسيّ ملكهم، فخرج عليه علي بن إسحاق الملثّم في شعبان سنة ثمانين وخمس مائة، وملك بجاية وما حولها، فجّهز إليه يعقوب عشرين ألف فارس وأسطوله في البحر. ثم خرج بنفسه في أوّل سنة ثلاث وثمانين، فاستعاد ما أخذ من البلاد، ثم عاد إلى مراكش.

وخرجت طائفة من الفرنج في جيش كثيف إلى بلاد المسلمين، فنهبوا وسبوا، فانتهى الخبر إلى الأمير يعقوب، فتجّهز لقتالهم في جحفل عرمرم من قبائل الموحّدين والعرب، واحتفل فيها وجاء إلى الأندلس، فعلم الفرنج فجمعوا جمعاً كثيراً من أقاصي بلادهم. وكان قد كتب إليه ملك الفرنج يتهدّد المسلمين، ومن جملة كتابه[1] باسمك اللهّم فاطر السماوات والأرض، وصلّى الله على السيّد المسيح روح الله وكلمته، الرسول الفصيح، ثم عقب ذلك بالتوبيخ للأمير يعقوب والتهديد في كلام يطول.

فلمّا وصل كتابه إلى الأمير يعقوب مزّقه وكتب على ظهر قطعة منه: ارجع إليهم، **﴿فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنّهم منها أذلة وهم صاغرون﴾** [النمل/٣٧] إن الجواب ما ترى، لا ما تسمع. ثم كتب هذا البيت:

ولا كتب إلاّ المشرقيّة عنده ولا ارسل إلاّ الخميس العرمرم

بيت المتنبي المشهور. ثم أمر باستدعاء الجيوش من الأمصار، وضرب السرادقات

---

(١) انظر مضمون كتاب القش ـ ملك الفرنج ـ في الكامل لابن الأثير: ٩/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣.

بظاهر البلد من يومه، وجمع العساكر وسار إلى البحر المعروف بزقاق سبْتَة، فعبر فيه إلى الأندلس، وسار إلى أن دخل بلاد الفرنج ـ وقد اعتدّوا وأحشدوا وتأهبّوا ـ فكسرت كسرة شنيعة بعد أن أمر فرسان الموحّدين وأمراء العرب أن يحملوا، ففعلوا وانهزم الفرنج، وأعمل فيهم السيف، فاستأصلهم قتلاً، وما نجا منهم إلاّ ملكهم في نفر يسير. وغنم المسلمون أموالهم، حتّى قيل إنه حصل لبيت المال من دروعهم ستون ألف[١] درع. أما الدوابّ على اختلاف أنواعها فلم ينحصر لها عدد، ولم يسمع في بلاد الأندلس بكسرة مثلها.

ومن عادة الموحّدين أنهم لا يأسرون مشركاً محارباً إن ظفروا به ولو كان ملكاً عظيماً، بل يضربون رقاب الجميع ـ قلُّوا أو كثروا. ثمّ أتبعهم بجيش، فألفوهم قد أخلوا قلعة رباح[٢] لما داخلهم من الرعب، فملكها يعقوب وجعل فيها والياً وجيشاً. ولكثرة الغنائم لم يمكنه الدخول إلى بلاد الفرنج، فعاد إلى اشبيلية. وله مع الفرنج حروب عديدة أذلّهم فيها، ونال منهم قتلاً ونهباً وتخريباً لديارهم، إلى أن التمسوا منه الصلح فصالحهم. وانتقل الى مدينة سلاوينا، وهي بالقرب منها مدينة عظيمة سمّاها رباط الفتح على هيئة الإسكندرية في اتّساع الشوارع وحسن التقسيم وإتقان البناء وتحسينه وتحصينه، وبناها على البحر المحيط، ثم رجع إلى مراكش. وبعد هذا اختلفت الرواية في أمره، فمن قائلين إنّه تجرّد وساح في الأرض، وانتهى إلى بلاد الشرق وهو مستخفٍ لا يعرف ـ ومات خاملاً، ومن قائلين إنّه لما رجع إلى مراكش توفّي ـ رحمه الله تعالى.

قلت وسأذكر فيما بعد ما يؤيّد قول من قال إنّه تجرّد عن الملك وساح في البلاد.

وكان ملكاً جواداً عادلاً متمسكاً بالشرع المطهرّ، يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ـ كما ينبغي ـ من غير محاباة، ويصلّي بالناس الصلوات الخمس، ويلبس الصوف ويقف للمرأة والضعيف، فيأخذ لهم حقّهم من كلّ ظالم عنيف، وأوصى أن يدفن في قارعة الطريق ليترحّم عليه من أوصلته طريقه إليه من كلّ من مرّ به ـ أقبل لحاجة أو أدبر. وكان قد أمر علماء زمانه أن لا يقلّدوا أحداً من الأئمة المجتهدين المتقدّمين، بل تكون أحكامهم بما يؤدّي إليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من الكتاب والحديث والإجماع والقياس.

قال ابن خلّكان: ولقد أدركنا جماعة من مشايخ المغرب وصلوا إلينا ـ وهم على تلك الطريق ـ مثل أبي الخّطاب بن دِحية، وأخيه أبي عمر ومحيي الدين بن العربي نزيل دمشق

---

(١) في الكامل لابن الأثير: ٩/٢٣٣: وكان يعقوب قد نادى في عسكره: من غنم شيئاً فهو له سوى السلاح، وأحصى ما حمل منه فكان زيادة على سبعين ألف لبس.

(٢) جاء في المرجع السابق: فالتقوا شمالي قرطبة عند قلعة رباح.

وغيرهم. وكان يعقوب المذكور يعاقب على ترك الصلاة، ويأمر بالنداء في الأسواق بالمبادرة إليها، فمن غفل عنها واشتمل بمعيشة عزّر تعزيراً بليغاً. وكان قد عظم ملكه واتّسعت دائرة سلطانه حتّى لم يبق بجميع أقطار بلاد المغرب من البحر المحيط إلى بَرْقة إلاّ من هو في طاعته وداخل ولايته، إلى غير ذلك من جزيرة الأندلس. وكان محسناً محباً للعلماء مقرّباً للأدباء مصغياً إلى المدح مثيباً عليه، وله ألّف أبو العباس الموحّديّ كتابه الموسوم بصفوة الأدب وديوان العرب في مختار الشعر.

قال ابن خلّكان: وهو مجموع مليح أحسن في اختياره كلّ الإحسان.

وإلى الأمير يعقوب نسبت الدنانير اليعقوبيّة المغربيّة.

وكان قد أرسل إليه السلطان صلاح الدين رسولاً يستنجده على الفرنج الواصلين من بلاد المغرب إلى الديار المصرية وساحل الشام، ولم يخاطبه بأمير المؤمنين، بل بأمير المسلمين، فعزّ عليه ذلك، ولم يجبه إلى ما طلب منه.

فلمّا توفي الأمير يعقوب بايع الناس ولده أبا عبدالله محمد بن يعقوب ـ ويلقّب ـ بالناصر وارتجع الفدية من الملثّم المتقدّم ذكره، وكان قد استولى عليها، ثم تحوّل محمد بن يعقوب، ثم توفي بعد ذلك في سنة ستّ عشرة وستمائة. والمغاربة يقولون إنّه أوصى عبيده بحراسة بستانه وحفظه، فتنكّر وجعل يمشي في بستانه ليلاً، فعندما رأوه ابتدروه بالرماح، فجعل يقول: أنا الخليفة أنا الخليفة، فما تحقّقوه حتّى هلك. والله أعلم بذلك. ولم يزل بنو عبد المؤمن يتوارثون الملك إلى أن انتهى إلى أبي العلاء إدريس بن يوسف بن عبد المؤمن، فوقعت بينه وبين بني مريم حرب قتل فيها، فانقرضت دولة بني عبد المؤمن، واستولى بنو مريم على ملكهم، ولم يزل الملك في عنقهم إلى الآن.

قلت: هكذا قال ابن خلّكان، وهكذا هو أيضاً إلى الآن، لكنّه قد تضعضع واضطرب لعدم طاعة العرب.

قلت: وقد تقدّم أنّ بعض المغاربة يذكرون أنّ الأمير يعقوب خلّى الملك وساح في الأرض. ووعدت هناك بذكر ما يؤيّد هذا القول، وها أنا أذكره الآن: سمعت ممّن لا أشكّ في صلاحه من الفقراء الصادقين المتجرّدين المباركين من بلاد المغرب أنّ جمعاً من شيوخ المغاربة ذكروا رسالة الأستاذ أبي القاسم القشيري ـ رحمه الله تعالى ـ وما جمع فيها من مشايخ المشارقة وذكر مناقبهم، فراموا أن يعارضوا رسالته برسالة مشتملة على شيوخ يذكرونهم فيها ـ من شيوخ المغاربة ـ ثمّ ذكروا أن في شيوخ الرسالة القشيرية من تجرّد عن الملك، ولم يجدوا في شيوخ المغرب من هو كذلك، فقالوا: ما تتمّ لنا معارضة الرسالة

المذكورة إلاّ بملك منها يزهد ويسلك طريق ابن أدهم المشكور. فاهتمّوا لحصول ملك يزهد في الدنيا من ملوك المغرب ليعارضوا به ابن أدهم على المنصب، فجاء الشيخ الكبير الولي الشهير أبو ابراهيم بن أدهم إلى أمير المؤمنين ـ يعقوب المذكور فيما تقدّم ـ واجتمع به، فسرّ يعقوب بذلك، وأخرج له من خزائنه جواهر نفيسة إكراماً له في مجيئه إليه، فالتفت أبو ابراهيم إلى شجرة هنالك وإذا هي حاملة جواهر تدهش العقول، فدهش أمير المؤمنين يعقوب، وهاله ما رأى من تصريف عباد الله في ملك الله، وما أكرمهم به ووالاهم، ورفع قدرهم وأعلاهم، حتّى صارت ملوك الدنيا بين أيديهم كالخدم، وملكهم حقير كالعدم. فعند ذلك احتقر يعقوب ما هو فيه من ملك الدنيا، فزهد فيه، وصار من كبار الأولياء.

سنة ست وتسعين وخمس مائة

فيها تسلطن علاء الدين[١] خوارزم شاه محمد بعد موت أبيه.

وفيها كانت محاصرة[٢] دمشق. وبها العادل، وعليها الأفضل والظاهر ابنا صلاح الدين وعساكرهما نازلة، قد خندقوا عليهم من أرض اللوان إلى بلد آخر، فأمن من كبسة عسكر العادل، ثم ترحّلوا عنها، ورجع الظاهر إلى حلب، وسار الأفضل إلى مصر، فساق وراءه العادل وأدركه عند العرّابي[٣]، ثم تقدّم عليه وسبقه إلى مصر، فرجع[٤] الأفضل خائباً إلى صَرْخَدْ[٥] ـ بالخاء المعجمة ـ وغلب العادل على مصر وقال: هذا صبيّ. وقطع خطبته، ثم أحضر ولده الكامل وسلطنه على الديار المصرية، فلم ينطق أحد من الأمراء. وسهّل له ذلك اشتغال أهل مصر بالقحط، فإنّ فيها كسو النيل من ثلاثة عشر ذراعاً إلى ثلاثة أصابع، واشتدّ الغلاء وعدمت الأقوات، وشرع الوباء وعظم الخطب إلى أن آل بهم الأمر إلى أكل الآدميين الموتى.

وفيها توفي العلاّمة أبو اسحاق العراقي ابراهيم بن منصورالمصري الخطيب، شيخ الشافعية بمصر. شرح كتاب المهذّب في عشرة أجزاء شرحاً جيداً. قلت: وهذا المذكور أوّل شرّاح المهذّب، وهم خمسة فيما علمت، والثاني الإمام العلاّمة أبو عمر وعثمان بن

---

(١) انظر وفاة خوارزم شاه وملك ابنه علاء الدين«قطب الدين محمد» في الكامل لابن الأثير: ٩/ ٢٥٠

(٢) جاءت حادثة حصار دمشق عند ابن الأثير سنة ٥٩٥ هـ. انظر ٩/ ٢٤٤.

(٣) العرابي: في معجم البلدان عَرّابة: من أعمال عكا بالساحل الشامي.

(٤) في الكامل لابن الأثير: ٩/ ٢٤٩: وطلب ـ الأفضل ـ دمشق، فلم يجبه ـ العادل ـ فنزل عنها إلى حرّان والرها، فلم يجبه، فنزل إلى ميافارقين وحاني وجبل جور فأجابه إلى ذلك وتحالفوا عليه، وخرج الأفضل من مصر.... واجتمع بالعادل وسار إلى صرخد.

(٥) في معجم البلدان: صرخد: بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق.

عيسى الماراني الملقّب ضياء الدين شرح الكتاب المذكور في قريب من عشرين مجلّداً لكنّه لم يكمله، بل بلغ فيه إلى كتاب الشهادات وسمّاة الاستقصاء لمذاهب العلماء والفقهاء. وسيأتي ذكر ذلك في ترجمته في السنة التي توفي فيها سنة اثنين وستّمائة بالقاهرة. و(الثالث) و(الرابع) السيّدان الكبيران الوليّان الشهيران الإمامان الجليلان أبو الذبيح اسماعيل ابن محمد الحضرمي اليمني، وأبو زكريا محيي الدين النووي، وهما متعاصران توفيّا في سنة واحدة سنة ست وسبعين وستمائة. ولا أدري أيهما سبق بالشرح، فلهذا جمعتهما، وسيأتي ذكرهما في السنة المذكورة، وثني منْ فضائلهما بالتعديد. والخامس الإمام العلاّمة قاضي القضاة تقي الدين السبكي، وكل هؤلاء المذكورين ما أكملوا شرحه سوى العراقي والحضرمي وشرح السبكي، إنمّا بناه على ما انتهى إليه النووي، وهو باب الربا، ولم يكمله أيضاً ولقّب أبو إسحاق المذكور بالعراقّي لاشتغاله ببغداد.

وفيها توفي علاء الدين خوارزم شاه(١) سلطان الوقت. ملك من السند والهند وما وراء النهر إلى خراسان إلى بغداد. وكان جيشه مائة الف فارس وهو الذي أزال دولة بني سلجوق. وكان شجاعاً فارساً عالي الهمّة، تغيّر على الخليفة، وعزم على قصد العراق، فجاءه الموت فجأة في رمضان، وحمل إلى خوارزم، وقيل كان عنده أدب ومعرفة بمذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة ـ رضي الله تعالى عنه ـ وقام مدّة بعد ولده قطب الدين محمد.

وفيها توفي مجد الدين طاهر بن نصر الله بن جميل الكيلاني الشافعي الفرضي مدرّس مدرسة صلاح الدين في القدس، وهو أحد من قام على الحكيم السُّهْرَوَرْدِي وأفتى بقتله.

وفيها توفي أبو علي المعروف بالقاضي الفاضل(٢) عبد الرحيم ابن القاضي الملقّب بالأشرف أبي المجد علي ابن القاضي الملقّب بالسعيد أبي محمد الحسن بن الحسن اللخمي العسقلاني المولد، المصريّ الدار، وزر للسلطان صلاح الدين، وتمكّن منه غاية التمكّن: وبرز في صناعة الإنشاء، وفاق المتقدّمين، وله فيه الغرائب مع الإكثار.

قال ابن خلّكان: أخبرني أحد الفضلاء الثقات المطّلعين على حقيقة أمره أنّ مسوّدات رسائله في المجلّدات والتعليقات في الأوراق إذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلّد، وهو مجيد في أكثرها. قال العماد الأصبهاني في كتاب الخريدة في حقّه: ربّ العلم والبيان واللسن واللسان، القريحة والوقّادة والبصيرة النقّادة والبديهة المعجزة والبديعة المطرزّة،

---

(١) في الكامل لابن الأثير: ٩/ ٢٥٠: في هذه السنة في العشرين من رمضان توفي خوارزم شاه تكش بن أرسلان صاحب خوارزم وبعض خراسان والري.

(٢) في الكامل لابن الأثير: في ربيع الآخر منها توفي القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني الكاتب، لم يكن في زمانه أحسن كتابة منه، ودفن بظاهر مصر بالقرافة.

تخترع الأفكار وتفترع الأبكار، وتطلع الأنوار وتبدع الازهار، وهو ضابط الملك بآرائه ورابط السلك بآلآئه، أن شاء أنشأ في يوم واحد بل في ساعة ما لـو دوّن لكان لأهل الصناعة خير بضاعة. أين قسّ في فصاحته؟! وأين قيس في مقام حصافته؟! وأين حاتم وعمرو في سماحته وحماسته؟! وأطال القول فيما سمت به مدائحه. فالله تعالى يسامحنا ويسامحه.

وذكر له رسالة لطيفة كتبها إلى صلاح الدين من جملتها: أدام الله السلطان الملك وثبّته، وتقبّل عمله بقبول صالح وأنبته، وأرغم أنف عدوّه بسيفه وكتبه، خدمة المملوك هذه واردة على يد خطيب عيذاب لمّا نابه المنزل عنها وقلّ عليه الموفّق فيها. وسمع بهذه الفتوحات التي طبق الأرض ذكرها، ووجب على أهلها شكرها. هاجر من هجر عيذاب وملحا[١] سارياً في ليلة أمل كلّها نهار، فلا يسأل عن صحبها، وقد رغب في خطابة الكرك وهو خطيب ـ وتوسل بالمملوك في هذا الملتمس ـ وهو قريب ـ وبرع من مصر إلى الشام ومن عيذاب إلى الكرك وهذا عجيب ـ والفقر سائق عنيف، والمذكور خامل لطيف، والسلام.

ومن رسالة له في قلعة شاهقة يقال إنها قلعة كَوْكَب قال: وهذه العلقة عقاب في عقاب، ونجم في سحاب، وهامة لها الغمامة عمامة ذائلة إذا حصنها ـ الأصيل كان الهلال لها قلامة.

وله في النظم أشياء حسنة منها ما أنشده عند وصوله إلى الفرات في خدمة السلطان صلاح الدين يتشوّق إلى نِيل مصر:

بالله قل للنيل عنّي أنّني ... لم أشفِ من الفرات غليلا
وسل الفؤاد فإنّه لي شاهد ... إن كان جفني بالدموع بخيلا
يا قلب كم خلّفت ثمّ بثينة ... وأعيذ صبرك أن يكون جميلا

قلت: وهذا البيت رمز فيه رمزاً أشار فيه إلى ما كان بين بثينة وجميل من الحبّ وهيمان جميل بها، وإعاذته بالله من أن يكون متّصفاً بما اتصّف به جميل من الهيمان وفرط الحبّ الذي لا يقوى عليه إنسان، واستعار ذلك لما في قلبه من المحبّة للنيل. ومنها قوله:

وإذا السعادة لاحظتك عيونُها ... نَم المخاوف كلّهن أمان
واصطدْ بها العنقاء فهي حبالة ... وافتل بها الجوزاء وهي عنان

قلت والظاهر أن قوله: وافتل ـ بالفاء والمثناة من فوق ـ من فتل العنان.

---

(١) في معجم البلدان: ملحاء واد باليمامة. مِلْحَان مخلاف باليمن وآخر جبل في ديار بني سليم بالحجاز.

وأثنى عليه أيضاً الفقيه عمارة اليمني في كتاب النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرّية. وقيل: إنّ كتبه بلغت مائة ألف مجلّد، وكان له آثار جميلة وأفعال حميدة وديانة متينة وأوراد كثيرة. وكان دخله في السنة من مغلّه دون خمسين ألف دينار، وكان عمره بضعاً وستين سنة.

وفيها توفّي الشهاب الطوسي أبو الفتح محمد بن محمود نزيل مصر شيخ الشافعية. درّس وأفتى ووعظ وصنّف وتخرّج به الأصحاب، وكان رئيساً معظماً ينبه على الملوك لصنعه، يركب بالغاشية[1] والسيوف المسلولة ـ وبين يديه ينادي هذا الملك العلماء ـ وكان صاحب صَوْلة في القيام على الحنابلة ونصرة الأشاعرة.

وفيها توفّي أبو الفتوح[2] عبد المنعم بن أبي عبد الوهاب بن سعد الملقّب شمس الدين الحّراني الأصل البغدادي المولد، الحنبلي المذهب. كان تاجراً، وله في الحديث السماعات العالية، وانتهت الرحلة إليه من أقطار الأرض، وألحق الصغار بالكبار، لا يشاركه في شيوخه ومسموعاته أحد، توفي في بغداد ودفن بمقبرة الإمام أحمد ـ رضي الله تعالى عنه ـ وكان صحيح الذهن والحواس إلى أن مات، وتسرّى بمائة وثمان وأربعين جارية.

سنة سبع وتسعين وخمس مائة

فيها كان الجوع والموت بالديار المصرية[3]، وجرت أمور تتجاوز الوصف ودام ذلك إلى نصف العام الثاني، حتّى قيل ـ أو قال قائل: مات ثلاثة أرباع أهل البلد المذكور لما أبعد والذي دخل تحت قلم الحشريّة في مدّة اثنتين وعشرين شهراً مائتا ألف وإحدى عشر ألفاً بالقاهرة، وهذا قليل في جنب من هلك بمصر والحواضر وفي البيوت والطرق ولم يدفن ـ وكلّه يسيرُ في جنب من هلك بالإقليم. وقيل إن مصر كان فيها تسع مائة منسج، فلم يبق إلا خمسة عشر منسجاً. فقس على هذا ـ وبلغ الفروخ مائة درهم، ثم عدم الدجاج بالكلّية لولا ما جلب من الشام. وأمّا أكل لحم الآدميين فشاع واستفاض، وقيل: تواتر.

وفي شعبان منها كانت الزلزلة العظمى التي عمّت أكثر الدنيا. قال أبو شامة: مات

---

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي: ٩/٥/٦: قدم بغداد وركب بالسنجق والسيوف المسلّلة والغاشية، والطوق في عنق البغلة، فمنع من ذلك.

(٢) في الكامل لابن الأثير: ٢٥١/٩: في هذه السنة في ربيع الأول توفي أبو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب بن كليب الحراني ـ المقيم ببغداد ـ وله ست وتسعون سنة وشهران، وكان ثقة صحيح السماع.

(٣) في الكامل لابن الأثير: ٢٥٥/٩: في هذه السنة اشتدّ الغلاء بالبلاد المصرية لعدم زيادة النيل. . . .

بمصر خلق تحت الهدم قال: ثم هدمت نابلس ، وذكر خسفاً[١] عظيماً، وأحصى من هلك في هذه السنة فكان ألف ألف ومائة ألف.

وفيها كانت مراسلات الأمراء[٢] من مصر للأفضل والظاهر، وكرهوا العادل، [وتطيّروا بكعبة] فأسرع الأفضل إلى حلب، فخرج معه أخوه واتفّقا على أن تكون دمشق للأفضل، ثم يسيران إلى مصر، فإذا ملكاها استقرّ بها الأفضل وتبقى الشام كلّها للظاهر. فنازلوا دمشق وبها المعظّم، وقدم أبوه إلى نابلس، فاستمال الأمراء وأوقع بين الأخوين ـ وكان من دهاة الملوك ـ فترحّلوا. وكان بخراسان فتن وحروب عظيمة على الملك.

وفيها توفّي الإمام العلّامة الحافظ أبو الفرج عبد الرحمن بن علي المعروف بابن الجوزي البغدادي التميمي البكري نسبة إلى أبي بكر الصديق ـ رضي الله تعالى عنه ـ كان علّامة عصره وإمام وقته في أنواع العلوم من التفسير والحديث والفقه والوعظ والسير والتواريخ والطبّ وغير ذلك. ووعظ من صغره وعظاً فاق فيه الأقران، وحصل له القبول التامّ والاحترام. حكي أنّ مجلسه حزر بمائة ألف، وحضر مجلسه الخليفة المستضيء مرات من وراء الستر. وصنّف في فنون عديدة منها زاد المسير في علم التفسير أربعة أجزاء اتى فيها بأشياء غريبة ـ وله في الحديث تصانيف كثيرة، وله: المنتظم في التاريخ، وهو كتاب كبير، وله: الموضوعات، في أربعة أجزاء ذُكر فيها كلّ حديث موضوع. وله تنقيح فهوم الأثرة على وضع كتاب المعارف لابن قتيبة ـ وبالجملة فكتبه أكثر من أن تعدّ، وكتب بخطّه شيئاً كثيراً، والناس يغالون في ذلك.

قال ابن خلّكان حتّى نقلوا أن الكراريس التي كتبها جمعت وحسبت مدّة عمره، وقسّمت الكراريس على المدّة فكان ما خصَّ كلّ يوم تسع كراريس. قال: وهذا شيء عظيم لا يقبله العقل. قلت: وهو كما قال: ويقال إنه جمعت براية أقلامه التي كتب بها حديث رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ فحصل منها شيء كثير. وأوصى أن يسخّن الماء الذي يغسل به ـ بعد موته ـ بها، فكَفَتْ وفضل منها. وله أشعار لطيفة، . . . . منها قوله معرضاً بأهل بغداد:

عذيري من فتية بالعراق ... قلوبهم بالجفا قلب
يرون العجيب كلام الغريب ... وقول القريب فلا يعجب
ميادينهم أنْ تبدّت بخير ... إلى غير جيرانهم تقلب

(١) وانخفست قرية من قرى بصرى، . . . . انظر ذلك في الكامل لابن الأثير ٩/ ٢٥٥.
(٢) في الكامل لابن الأثير: لما فعل ـ الملك العادل ـ ذلك لم يرض الأمراء المصريون، وخبثت نياتهم في طاعته فراسلوا أخويه: الظاهر بحلب والأفضل بصرخد. ٩/ ٢٥١.

وعذرهم عند توبيخهم مغنّية الحّي ما تّطرب

وله أشعار كثيرة. وكانت له في مجالس الوعظ أجوبة نادرة، من ذلك ما يحكي أنّه وقع النزاع ببغداد بين السنّية والشيعيّة في المفاضلة بين أبي بكر وعلي ـ رضي الله تعالى عنهما ـ فرضي الكلّ بما يجيب عنه الشيخ أبو الفرج، وأقاما شخصاً سأله عن ذلك وهو على الكرسي في مجلس وعظه فقال: أفضلهما من كانت ابنته تحته ونزل في الحال حتّى لا يراجع في ذلك، فقالت السنّية: هو أبو بكر ـ رضي الله تعالى عنه ـ لأنّ ابنته عائشة تحت رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ وقالت الشعية: هو عليّ، لأنّ فاطمة ابنة رسول الله ـ صلّى الله عليه وآله وسلّم ـ تحته، وقال: وقال ابن خلّكان: وهذا من لطائف الأجوبة، ولو حصل بعد الفكر التامّ وإمعان النظر كان في غاية الحسن فضلاًعن البديهة. انتهى.

قلت: ومن نوادره ما سمعت من بعض أهل العلم: يحكى أنّ الخليفة غضب على إنسان من حاشيته، فأراد أن يعاقبه، فهرب فلزم أخاه، وصادره وأخذ له مالاً، فشكى ذلك المصادَر إلى ابن الجوزي، وذكر له القضيّة فقال له: إذا انقضى مجلس وعظي فقم قدّامي حتّى تذكّرني ـ وكان الخليفة يسمع وعظه من خلف الستر ـ كما تقدّم فلمّا كان أوّل مجالسته الوعظ بعد ذلك ـ وانقضى المجلس ـ قام ذلك الإنسان المصادَر، فلمّا رآه الشيخ أبو الفرج أنشد معرضاً يكون البريء، لا يؤاخذ بذنب الجزيء، محرّضاً للخليفة على العدل والإحسان، وأن يعاد المال المأخوذ على ذلك الإنسان.

قفي ثم اخبرينا يا سعاد بذنب الطرف لِمْ سُلِب الفؤاد؟
وأيّ قضيّة حكمتْ إذا ما جنى زيد ـ به عمرو يُقاد؟!
يعاد حديثكم فيزيد حسناً وقد يستحسن الشيء المعاد

فقال الخليفة من وراء الستر: يعاد، يعني: المال، فأعيد على ذلك الشخص ماله وانجبر حاله. قلت: وكلام ابن الجوزي، وإن افتخر، فهو بالنسبة إلى كلام القطب عبد القادر محقر، ولو سلم من طعنه وإنكاره على المشايخ علماء الباطن لبقي مكتسباً يحلل الحاسن. وقد قدّمت ذكر ذلك الإنكار وأنشدت في الفرق بين الكلام أبياتاً من الأشعار، ذكرت ذلك في تاريخ سنة خمس وتسعين وخمس مائة التي أخرج فيها من السجن، وفي سنة إحدى وستين التي فيها ترجمة الشيخ عبد القادر رضي الله تعالى عنه.

وكانت ولادة ابن الجوزي سنة ثمان، وقيل عشر وخمس مائة تقريباً، وتوفّي ليلة الجمعة ثاني عشر شهر رمضان ببغداد بباب حرب. والجوزي بفتح الجيم وسكون الواو وفي آخره زاي وياء النسبة ـ إلى موضع يقال له فَرْضَة

الجَوْز[١]. قال ابن النجار: وكان أبوه يعمل الصّفْرة[٢]، وكان ولده محيي الدين يوسف محتسب بغداد. وتولى تدريس المستنصرية لطائفة الحنابلة، وكان يتردّد في الرسائل إلى الملوك، ثم صار أستاذ دار الخلافة. وكان سبطه شمس الدولة ـ أبو المظفّر يوسف الواعظ المشهور ـ له صيت وسمعة في مجالس وعظه، وقبول عند الملوك وغيرهم. وصنّف تاريخاً كبيراً. قال ابن خلّكان: رأيته بخطّه في أربعين مجلّداً أسماه: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان.

وفي السنة المذكورة توفي أبو شجاع بن المقرون البغدادي، أحد أئمة الإقراء. كان صالحاً عابداً ورعاً مجاب الدعوة، من الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، وكان يتقوّت من كسب يده.

وفيها توفّي العماد الكاتب الوزير الفاضل، أبو عبدالله محمد[٣] بن محمد الأصبهاني الفقيه الشافعي تفقه بالمدرسة النظامية وأتقن الخلاف وفنون والأدب، وسمع من الحديث، ولمّا حصّل تعلق بالوزير يحيى بن هبيرة فولاّه النظر بالبصرة ثم بواسط، ثم انتقل إلى دمشق، ـ وسلطانها يومئذ الملك العادل نور الدين محمود بن أتابك زنكي ـ فتعرّف به، وعرفه السلطان صلاح الدين ووالده، ونوّه بذكره القاضي كمال الدين السهروردي عند السلطان نور الدين وعدّد عليه فضائله، وأهّله لكتابة الإنشاء. قال العماد: فبقيت متحّيرا في الدخول فيما ليس من شأني ولا وظيفتي. وقال غيره: لم يكن قد مارس هذه الصناعة، فجبن عنها في الابتداء، فلمّا باشرها هانت عليه وأجاد فيها، وأتى فيها بالغرائب. وكان ينشىء الرسائل باللغة العربيّة والعجمية أيضاً. وحصل بينه وبين صلاح الدين مودّة أكيدة وامتزاج تام، وعلت منزلته عند نور الدين، وصار صاحب سّره وسيره رسولاً في أيام الخليفة المستنجد، فلمّا عاد فوّض إليه التدريس في المدرسة المعروفة، ثم رتّبه في إشراف الديوان، ثم لما تسلّم صلاح الدين قلعة حمص حضر بين يديه وأنشده قصيدة، ثم لازمه وترقّى عنده حتّى صار في جملة الصدور المعدودين والأماثل الممجدين، يضاهي الوزراء ويجري في مضمارهم. وكان القاضي الفاضل في أكثر الأوقات ينقطع عن خدمة السلطان صلاح الدين بالقيام بالمصالح، والعماد ملازم للباب، وهو صاحب السر المكتوم. وصنّف التصانيف النافعة، من ذلك: خريدة القصر وجريدة أهل العصر، جملة ذيلاً على زينة الدهر تأليف أبي المعالي سعد بن علي الورّاق الخطيري، والخطيري جعله ذيلاً على دمية القصر وعصرة أهل العصر للباخرزي، والباخرزي جعل كتابه ذيلاً على يتيمة الثعالبي، والثعالبي

(١) فرضة الجوز: لم أجدها في معجم البلدان لياقوت الحموي.
(٢) الصفْر والصفرة: النحاس.
(٣) في الكامل لابن الأثير: ٩/٢٥٥: وفيها توفي العماد أبو عبدالله محمد بن محمد بن حامد بن محمد ابن عبد الله بن محمود بن هبة الله بن أُلُه.

جعل كتابه ذيلاً على كتابه البارع لهارون المنجم. وذكر العماد المذكور الشعراء الذين كانوا بعد المائة الخامسة إلى سنة اثنتين وسبعين وبعدها، وجمع شعراء العراق والعجم والشام والجزيرة ومصر والعرب ولم يترك إلاّ النادر. كتابه المذكور عشر مجلّدات، وصنّف كتاب: البرق الشامي في سبع مجلّدات، وهو مجموع تاريخ، ووسمه بالبرق لسرعة انقضاء تلك الأيام. وصنّف كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي في مجلّدين يتضمّن كيفيّة فتح البيت المقدّس. وكتاب السيل على الذيل جملة ذيلاً على الذيل لابن السمعاني الذي ذيّل به تاريخ بغداد للحافظ أبي بكر الخطيب. وكتاب نصرة الفترة وعصرة الفترة في اخبار الدولة السلجوقية. وله ديوان رسائل، وديوان شعر في أربع مجلّدات.

وكانت بينه وبين القاضي الفاضل مكاتبات ومحاورات لطائف.

فمن ذلك ما يحكى عنه أنّه لقيه يوماً وهو راكب على فرس فقال له: سِر، فلا كبابك الفرس، فقال له الفاضل: دام علاء العماد. فأتى كلّ واحد منهما بألفاظ تقرأ على ترتيبها المذكور، وتقرأ مقلوباً، أعني من آخر حروفها مرتّبة إلى أوّلها، واللفظ والمعنى لا يتغيّران. واجتمعا يوماً في موكب السلطان ـ وقد انتشر من الغبار لكثرة الفرسان ما سدّ الفضاء ـ فتعجبا من ذلك، وأنشد العماد في الحال:

مما اثارته السنابك والجو منه مظلم
لكن أثارته السنابك يا دهر لي عبد الرحيم
فلست اخشى مسّ نابك ....

فاتفّق له الجناس في الأبيات الثلاثة مكتسياً حلّة الحسن. قلت: وأمّا رسالته إلى القاضي الفاضل لما رجع من الحّج ـ التي استحسنها ابن خلّكان ـ فليست بحسنة من جهة الدين ولا من جهة البيان، فإنّه بالغ فيها مبالغة محرجة لشعائر الله تعالى المنظّمة إلى حدّ الامتهان، حيث قال: راكباً فرس البيان في ميدان بلاغة الإنسان الراكض، جواد اللسن الحاصل من نتائج جبلة الجنان وجرأة اللسان. طوبى للحجر والحجون من ذي الحجر والحجى منيل الجدى ـ ومنير الدجى، ولندى الكعبة من كعبة الندى، وللهدايا المشعرات من مشعر الهدى، وللقائم الكريم من مقام الكريم، ومن حاطم فقار الفقر للحطيم، ومتى هرم لمنى الحرم، وحاتم الكرم لمائح زمزم، ومتى ركب البحر البحر وسلك البرّ البّر، ولقد عاد قيس إلى عكاظه، وعاد قيس لحفّاظه، ويا عجباً للكعبة!! يقصدها كعبة الفضل والأفضال، والقبلة يستقبلها قبلة القبول والإقبال.

قلت: وليس كما قال غيره في مدح بعض الأولياء، فإنهم من احباب الله تعالى الأصفياء.

سنة ثمان وتسعين وخمس مائة

فيها تغلّب قتادة بن ادريس الحسيني علىٰ مكّة، وزالت دولة بني فليتة.

وفيها توفّي صاحب اليمن وابن صاحبها الملك المعزّ اسماعيل بن الملك سيف الاسلام طغتكين ـ بن نجم الدين أيوب بن شاذي كان مجرماً مصرّاً على شرب الخمر والظلم، ادّعى أنه أموي وخرج يروم الخلافة، فوثب عليه أخوان من أمرائه فقتلاه، وولي بعده أخ له صبيّ، يدعى بالملك الناصر أيوّب.

وفيها توفّي مسند الشام أبو طاهر بركات بن ابراهيم المعروف بالخشوعي[١]، سمع من ابن الأكفاني وجماعة.

وفيها توفّي الحافظ أبو الثناء حمّاد بن هبة الله.

وفيها توفّي اللؤلؤ الحاجب العادل، من كبار الدولة، له مواقف حميدة بالسواحل. وكان مقدّم المجاهدين المؤيدين الذين ساروا لحرب الفرنج الذين قصدوا الحرم النبويّ في البحر وظفروا قيل إنه سار لؤلؤ موقناً بالنصرة، وأخذ معه قيوداً بعدد الفرنج، وكانوا ينيفون على ثلاثمائة ـ كلّهم أبطال من الكرك والشوبك ـ مع طائفة من العرب المرتدّة، فلمّا بقي بينه وبين المدينة يوم أدركهم لؤلؤ، وبذل الأموال للعرب فخامروا معه، وذلّت الفرنج، واعتصموا بجبل، فترجّل لؤلؤ وصعد إليهم بالناس ـ في تسعة أنفس، فهابوه وسلّموا أنفسهم، فصفدهم وقيدّهم كلّهم، وقدم بهم مصر، وكان يوم دخولهم يوماً مشهوراً. وكان لؤلؤ شيخاً أرمينّياً من غلمان القصر، فخدم مع صلاح الدين مقدّماً، وكان أينما توّجه فتح ونصر، ثم كبر وترك الخدمة. وكان يتصدّق كلّ يوم بطعام عدّة قدور وباثني عشر ألف رغيف، ويضيف ذلك في شهر رمضان.

وفيها توفّي ابن الزكي[٢] قاضي الشام محيي الدين أبو المعالي محمد ابن قاضي القضاة زكي الدين علي ابن قاضي القضاة منتجب الدين محمد بن يحيى ـ القرشي الشافعي. كان فقيهاً إماماً طويل الباع في الإنشاء والبلاغة، فصيحاً كامل السؤدد.

---

(١) في الوافي بالوفيات: ٦/١٠/١١٧: وسئل أبوه لِمَ سمّوا الخشوعيين، فقال: كان جدّنا الأعلى يؤمّ بالناس، فتوفي في المحراب، فسمّي الخشوعيّ نسبة إلى الخشوع. وتوفي سنة سبع وتسعين وخمس مائة.

(٢) في الكامل لابن الأثير: ٩/٢٥٨: وهو أول من خطب بالقدس لما فتح، ثم تولى قضاء دمشق وأضيف إليه قضاء حلب أيضاً وكان ناظر أوقاف الجامع... وكان يعتريه شبه الصرع إلى أن توفي في شعبان من هذه السنة، ودفن بتربته في سفح قاسيون.

سنة تسع وتسعين وخمس مائة

وفيها تمكّن العادل من الممالك، وأبعد الملك المنصور علي[1] بن العزيز ـ صلاح الدين، وأسكنه بمدينة الرّها.

وفيها رمي بالنجوم، ذكر ذلك جماعة من المؤرّخين قال بعضهم في سلخ المحرّم ماجت النجوم وتطايرت كتطاير الجراد، ودام ذلك إلى الفجر، وانزعج الخلق وضجّوا بالدعاء. قالوا: ولم يعهد ذلك إلاّ عند ظهور نبينا صلّى الله عليه وآله وسلّم.

وفيها توفّي غياث الدين سلطان غَزْنَة أبو الفتح محمد. كان ملكاً جليلاً عادلاً محبّاً إلى رعيّته كثير المعروف والصدقات، وتفرد بالملك بعده أخوه السلطان شهاب الدين.

وفيها توفّي القاضي محمد بن أحمد الأموي المرسي المالكي، أحد أئمة المذهب، عرض المدوّنة على والده، وأجاز له الكبار، وأفتى ستين سنة، وولي قضاء مرسية وشاطبة وصنّف التصانيف.

وفيها توفّي الإمام العلاّمة أبو الموفّق مسعود بن شجاع المعروف بالبرهان الحنفي، درّس في النورية والخانوتية، قاضي العسكر، كان صدراً معظّماً مفتياً رأساً في المذهب، وكان لا يغسل له فَرْجِيّة، بل يهبها ويلبس جديدة.

وفيها توفّي الإمام أبو الحسن علي بن ابراهيم الأنصاري الدمشقي الحنبلي الواعظ، كان من رؤوس العلماء.

وفيها توفّي الحسن بن سعيد الملّقب علم الدين الشاتاني ـ بالشين المعجمة وبين الألفين مثنّاة من فوق وقبل ياء النسبة نون ـ كان فقيهاً وغلب عليه الشعر وأجاد فيه واشتهر به، وكان الوزير أبو المظفّر بن هبيرة كثير الإقبال عليه والإكرام له، وذكره العماد الكاتب في الخريدة وأثنى عليه، وقال يمدح صلاح الدين بقصيدة أوّلها:

أرى النصر معقوداً برايتك الصفرا فسروا ملك الدنيا فأنت بها أحرى
يمينك فيا اليمن واليسر في اليسرى فبشرى لمن يرجو الندى بهما بشرا

وفيها توفّي الشيخ الكبير الولي الشهير إمام العارفين ودليل السالكين، صاحب الأحوال الفاخرة الكرامات الباهرة، والمقام العلّي. والكشف الجلّي، والعطاء السنيّ والمشرب الهني، والمحاضرات القدسيّة والمسامرات الأنسية، والحقائق الربانية والأسرار

(١) في الكامل لابن الأثير: ٢٦١/٩: في هذه السنة أحضر الملك العادل محمداً ولد العزيز ـ صاحب مصر ـ إلى الرّها.

الإلهية أبو عبد الله محمد بن أحمد بن ابراهيم[١] القرشي الهاشمي، ـ قدّس الله تعالى روحه ـ كان له التصريف النافذ في الوجود، والفضل الفائض من فيض الجود، والباع الطويل في أحكام الولاية، والجانب الرحيب في أحوال النهاية، والقدم الراسخ في التمكين المكين، والسبق إلى ذري درجات المقرّبين، أحد أركان هذا الشأن، وعلم أعلامه وقدوة ساداته الأعيان، أجمع على جلالته أكابر الأولياء والعلماء، واتفّق على فضيلته سكّان الحضرة والحمى، وتبرّك الجلّة بآثاره، والتمسوا الهدى بإضاءة أنواره.

وله كلام وكرامات، مودع بعضها في بعض المصنّفات، ممّا اعتنى بجمعه وتأليفه الشيخ الإمام الحفيل السيد الجليل تلميذه أبو العبّاس أحمد بن علي القسطلاني. وقد ذكرت نبذة من ذلك في كتاب روض الرياحين، وكتاب أطراف السامعين.

ومن كلامه رضي الله تعالى عنه: الزم الأدب وحدك من العبوديّة، ولا تتعرّض لشيء، فإن أرادك له أوصلك إليه، ومنه: العالم من نطق عن سرّك واطّلع على عواقب أمرك، ومن كراماته رضي الله عنه ما ذكر قال: كنت بمنى فعطشت ولم أجد ماء، ولم يكن معي ما أشتري به، فمضيت أطلب بيراً من الآبار، فوجدت عليه أعاجم يستقون الماء، فقلت لأحدهم: ضع لي في هذه الركوة ماء، فضربني وأخذ الركوة من يدي ورمى بها بعيداً، فمضيت إليها لأخذها وأنا منكسر النفس ـ فوجدتها في بركة ماء حلو، فاستقيت وشربت، وجئت بها إلى أصحابي فشربوا، وأعلمتهم بالقصّة، فمضوا إلى المكان ليستقوا منه فلم يجدوا ماء ولا أثر الماء، فعلمت أنّها آية.

سنة ست مائة

فيها وقعت فتنة بين صاحب الموصل نور الدين، وبين ابن عمّه[٢] قطب الدين صاحب سنجار، فاستنجد القطب بجاره الملك الأشرف موسى ـ وهو بحرّان ـ فسار معه وعمل مصافاً مع صاحب الموصل، فكسره الأشرف وأسر جماعة من أمرائه، ثم اصطلحا في آخر العام، وتزوّج الأشرف بأخت صاحب الموصل.

---

(١) في الوافي بالوفيات للصفدي: ٦/ ٢/ ٧٨: القرشي المغربي الصالح: محمد بن أحمد بن ابراهيم، أبو عبد الله القرشي الهاشمي العبد الصالح الزاهد، من أهل الجزيرة الخضراء.... قدم مصر ثم سافر إلى الشام لزيارة القدس، فأقام به إلى أن مات في ذي الحجة.

(٢) في الكامل لابن الأثير: ٩/ ٢٦٤: في هذه السنة في العشرين من شوال انهزم نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل من العساكر العادلية، وسبب ذلك أن نور الدين كان بينه وبين عمه قطب الدين محمد بن زنكي صاحب سنجار وحشة مستحكمة.

وفيها أخذت الفرنج فُوَّة[١] واستباحوها، وهي بليدة حسنة، دخلوا إليها من فم رشيد في النيل.

وفيها توفي العلاّمة أبو الفضل محمد بن محمد بن محمد العراقي القزويني، ركن الدين المعروف بالطاوسي الحنفي. كان إماماً فاضلاً مناظراً محجاجاً فيما يعلم الخلاف، ماهرا فيه، اشتغل على الشيخ رضي الدين النيسابوري صاحب الطريقة في الخلاف، وبرز فيه، وصنّف ثلاث تعاليق في الخلاف مختصرة، وثانية متوسطة أو كما قيل، وثالثة مبسوطة. وأجمع عليه الطلبة بمدينة همدان، وقصدوه من البلاد البعيدة والقريبة للاستفادة عليه، وعلّقوا تعاليقه، وبنى له الحاجب جمال الدين بهمدان مدرسة تعرف بالحاجبية، وطريقته الوسطى خير من طريقته الأخيرتين لأن نفعها كثير وفوائدها جمة.

قال ابن خلّكان: واكثر اشتغال الناس في هذا الزمان بها، واشتهر صيته في البلاد، وحملت طرائقه إليها. والطاوسي: قيل نسبة إلى طاوس بن كيسان التابعي.

وفيها توفّي الإمام العالم العلامة أبو الفتوح العِجْلي منتجب الدين أسعد بن أبي الفضائل محمود بن خلف الأصبهاني الواعظ، شيخ الشافعية. كان من الفقهاء الفضلاء الموصوفين بالعلم والزهد، مشهوراً بالعبادة والنسك والقناعة، لا يأكل إلاّ من كسب يده. وكان يورّق ويبيع ما يتقوّت به، وكان واعظاً، ثم ترك الوعظ وألّف كتاب آفات الوّعاظ، سمع ببلده الحديث على جماعة، منهم: الحافظ اسماعيل بن محمد بن الفضل وأبو الوفا غانم بن أحمد الجلودي وأبو الفضل عبد الرحيم بن أحمد البغدادي وأبو المظفّر قاسم بن الفضل الصيدلاني وغيره. وقدم بغداد وسمع بها من أبي الفتح محمد بن عبد الباقي، وله إجازة حَث بها عن أبي القاسم زاهر بن طاهر وأبي الفتح اسماعيل بن أبي الفضل ـ الاخشيدي وأبي المبارك عبد العزيز الأزدي وغيرهم، وعاد إلى بلده وتبحّر وتمهّر واشتهر وصنّف عدّة تصانيف، فمن ذلك كتاب شرح مشكلات الوسيط والوجيز للغزالي، تكلّم في المواضع المشكلة من الكتابين، ونقل من الكتب المبسوطة عليها، وله كتاب تتمّة التتمّة للمتولي، وعليه كان الاعتماد في الفتوى بأصهان. والعِجْلي بكسر العين المهملة وسكون الجيم نسبة إلى عجل بن لُجَيْم ـ بضم اللام وفتح الجيم ـ وكان عجل المذكور يعد من الحمقى، من أجل أنه كان له فرس جواد، فقيل له أنّ لكلّ فرس جوادٍ اسماً، فما اسم فرسك؟ فقال: لم اسمّه بعد، فقيل له: سمّه؛ ففقأ إحدى عينيه وقال: قد سميته الأعور. وفيه قال بعض شعراء العرب:

---

(١) فُوَّة: بليدة على شاطىء النيل من نواحي مصر قرب رشيد، بينها وبين البحر نحو خمسة فراسخ أو ستّة. ، معجم البلدان.

رمتني بنو عجل بداء أبيهم وهل أحد في الناس أحمق من عجل
أليس أبوهم عار عين جواده فسارت به الأمثال في الناس بالجهل

يقال عار عينه ـ بالمهملة إذا فقأها. وبنو العِجْل قبيلة كبيرة من العرب شهيرة.

وفي السنة المذكورة توفّي الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي، سمع في دمشق والاسكندرية وبغداد وأصبهان، وصنّف التصانيف، ولم يزل يسمع ويكتب، وإليه انتهى حفظ الحديث متناً وإسناداً ومعرفة، مع الورع والعباد والتمسك بالأثر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسيرته مذكورة في جزأين تأليف الحافظ الملّقب بالضياء.

وفيها وقيل في سنة ثلاث وست مائة توفي الشيخ الحافظ عبد الرزاق ابن الشيخ القطب عبد القادر بن أبي صالح الجيلي، أسمعه أبوه عن أبي الفضل الأرموي وطبقته، ثم سمعه بنفسه.

وفيها توفيت فاطمة بنت سعد الخير بن محمد أمّ عبد الكريم بن أبي الحسن الأنصاري رضي الله عنهم.

تم الجزء الثالث، ويليه إن شاء الله،
الجزء الرابع، وأوله:
حوادث سنة إحدى وستمائة

فهرس الموضوعات